

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١.

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

BTJ System AB

800 18 90 3087 86



BTJ

الألمة

دار
الكتاب
والفكر

INTERNATIONELLA BIBLIOTEKET

Hsg

DOSTOJEVSKIJ
al-Amal al-adabiyah
al-kamilah

10



الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد العاشر



المكتبة العربية الشرقية

أورينتاليا

Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فودان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

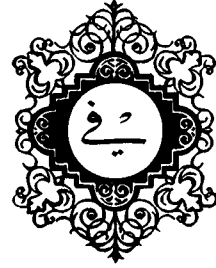
الآله
١

جميع الحقوق محفوظة

الأبله (Idiote) ، كتبت هذه
الرواية بين سنتي ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ونشرت
مسلسلة في مجلة « الرسول الروسى »

الجزء الأول

الفصل الأول



صباح من أصبح نهاية شهر تشرين الثاني
(نوفمبر) ، في نحو الساعة التاسعة ، أثناء ذوبان
الجليد ، كان قطار وارسو* يقترب من بطرسبرج
مسرّعاً • ان الرطوبة والضباب يلبغان من الكثافة
أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ الى الأرض ؛ فيصعب على راكب القطار ،
إذا هو نظر من النافذة يمنةً أو يسرة ، أن يميّز أى شىء على مسافة
عشر خطوات •

ان بعض الركاب عائدون من الخارج ؛ غير أن حجرات الدرجة
الثالثة ، وهى أحفل الحجرات بالركاب ، كانت ممتلئة بأناس من متوسطى
الحال ، يسافرون لقضاء أعمال ، وليسوا قادمين من بعيد •

وكان الجميع مكدودين متعين مرهقين طبعاً ، قد أثقل الناس
أجفانهم ، واصطبغت وجوههم بصفرة كصفرة الضباب •

ان فى احدى حجرات الدرجة الثالثة راكبين قد جلس أحدهما
أمام الآخر قرب النافذة منذ الصباح • كلاهما شاب ؛ وكلاهما يلفت وجهه
الانتباه ؛ وكلاهما لا يكاد يكون معه متاع ؛ وكلاهما يرتدى ثياباً ليس
فيها كبير تألق • ان من يراهما يحس أنهما يرغبان فى التحادث • ولو
قد أمكنهما أن يعرفا ما فى كل منهما من غرابة وتفرد ، لأدهشتهما هذه

المصادفة التي جمعتهما هذا الجمع العجيب في حجرة من الدرجة الثالثة
بقطار « وارسو - بطرسبرج » •

ان أحدهما ، وهو شاب قصير القامة ، أجعد الشعر ، أسودُه
تقريباً ، يجب أن يكون في نحو السابعة والعشرين من العمر • عيناه
شهابوان ، صغيرتان ، لكنهما تفيضان اشتعالاً واتقاداً ؛ وأنفه عريض
أفطس ، ووجنتاه بارزتان ؛ وعلى شفثيه الرقيقتين ترسم دائماً ابتسامة
غريبة ، ابتسامة ساخرة ، وقحة ، تشبه أن تكون مبغضة حاقدة • غير أن
جيناً عالياً مستوياً يلطّف من الشعور بالنفور الذي يحسه المرء حين يرى
أسفل وجهه ، الثقيل الكريه • والشيء الذي يخطف البصر فيه خاصة إنما
هو شحوبه الذي يشبه شحوب جثة ، وهو شحوب يضاف على هذا الرجل
هيئة الارهاق والاعياء مع أنه يبدو متين البنية ، ويضفي عليه كذلك معنى
المكابدة التي تبلغ حد العذاب ، رغم ابتسامته المتغترسة الفظة ، ونظراته
العدوانية المتكبرة •

كان الرجل متدثراً بمعطف واسع أسود ، مبطّن بجلد خروفي ،
فهو يشعر بدفء كامل ، وهو لم يحسّ ببرد الليل •

ولا كذلك صاحبه الذي يجلس أمامه ، فلا بد أن هذا قد ارتعش
من شدة البرد وشدة الرطوبة في تلك الليلة من ليالى شهر نوفمبر الروسى ،
وهما برد ورطوبة كان واضحاً أنه لم يتهيأ لهما • انه متلفف برداء
سميك لا أكمام له ، يعلوه غطاء للرأس ، كالذى يلبسه المسافرون شتاءً
في بلاد غير روسيا ، في سويسرا أو في شمال ايطاليا مثلاً • ولكن هذا
الرداء لا يصلح حتماً لسفرة طويلة طول هذه المسافة بين آيدكونن *
وبطرسبرج • انه يصلح جداً لاطاليا ، ولكنه لا يلائم المناخ الروسى •

هذا الرجل الثانى الذى يرتدى هذا الرداء هو أيضاً شاب في نحو
السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر • قامته أطول قليلاً

من متوسط قامات الرجال ؛ خداه خاسفتان ؛ شعره كثيف أشقر ؛ له لحية صغيرة مدببة تكاد تكون بيضاء اللون ؛ عيناه واسعتان زرقاوان لهما نظرة ثابتة . ان فى هذه النظرة شيئاً من رقة وعذوبة ، ولكن فيها ثقلاً وتعيراً غريباً ، فاذا رآها خير أدرك أن صاحبها رجل مريض بداء الصرع . ووجه الفتى بعد هذا مجبّب الى القلب لطيف رقيق دقيق ، ولكنه شاحب اللون ، بل انه فى هذه اللحظة قد ازرقّ من شدة البرد .

انه يحمل بيده اليمنى صرة هزيلة للملابس ، ملفوفة بمنديل عتيق حائل اللون ، وكان هذا كلّ متاعه فيما يبدو . وكان لخداه نعلان سميكان ، وكانت تغطى أعلى ظاهر الخدّين لبادتان ؛ وذلك كله ليس مما يستعمل فى روسيا كثيراً .

وقد لاحظ جارّه ، الشابّ الأسمر ذو المعطف ، جميع هذه التفاصيل ، تسريةً عن نفسه . ثم اقتحم الصمت أخيراً فبدأ يحدثه مبتسماً تلك الابتسامة الوقحة نفسها التى تعبّر فى أكثر الأحيان عما يشعر به امرؤ غليظ القلب من تكبر فظ أمام مصائب الآخرين . قال له وهو يهز منكبيه :

— برد ، هه ؟

فأجاب الجار بطوية سليمة ونية صادقة (للاحظ القارئ أن الجليد كان يذوب) :

— برد جداً ، فكيف يكون البرد أثناء الجليد ؟ لم أكن أتخيل أن البرد يبلغ هذا المبلغ من الشدة فى بلادنا . لقد فقدت عادة احتمال مثل هذا البرد !

— لا شك أنك آت من الخارج ، أليس كذلك ؟

— نعم ، من سويسرا !

صاح الفتى الأسمر وهى يطلق صفرة ويضحك ضحكة كبيرة :
- ها •• مسافة !

ودار الحديث • فكان الشاب الأشقر الذى يرتدى الرداء السويسرى
يجيب بنية طيبة وطوية سليمة عن جميع الأسئلة التى يلقيها عليه محدثه ،
دون أن يلاحظ ما فى بعضها من تزييد وتندر بل ومن وقاحة • فروى
فيما رواه أنه قضى فى الخارج أكثر من أربع سنين ، فقد أُرسل الى هناك
ليعالج من مرض عصبى غريب ، هو نوع من الصرع ، أو من داء
« رقص سان جى » ، مع ارتعاشات وتشنجات • وقد أثارت قصته تبسُّم
جاره مراراً ، حتى لقد أخذ جاره يضحك مقهقهاً حين سأله : « وهل
شفوك ؟ » فأجاب : « لا ، لم يشفونى ! » •

وأضاف الأسمر يقول مستهزئاً متهمكماً :

- ايه ••• ما أكثر المال الذى لا بد أنك أنفقتَه هنالك سدىً فى غير
طائل ! وما أجهلنا هنا اذ نوليهم تلك الثقة كلها !
فهتف رجل كان جالساً قريبهما :

- هذه هى الحقيقة عينها !

ان الرجل يبدو فى نحو الأربعين من عمره ، ويرتدى ملابس
رديئة ، ويدل مظهره على أنه موظف • انه قوى الجسم متين البنية ، له
أنف أحمر يتوسط وجهاً ذا بثور •

كرر الرجل يقول :

- هذه هى الحقيقة بعينها • وهم يجتذبون الى بلادهم جميع أموالنا
الروسية !

قاطعه الفتى المريض بصوت رقيق عذب فيه روح الملاينة والمصالحة :

- لا ، أنت مخطيء ، فيما يتعلق بى أنا على الأقل • لست أستطيع
أن أنافس ، لأننى لا أعرف كل ما يجرى • ولكننى أقول ، فيما يتصل
بى ، ان طبييى قد دفع نفقات سفرى من آخر ما يملك من قروش ، بعد
أن ظل يعالجنى بالمجان سنتين •

قال الأسمر :

- عجيب ! ألم يكن هناك اذن من يستطيع أن يدفع عنك نفقات
علاجك ؟

- لم يكن هناك أحد ! ان السيد بافلتشف الذى كان يهتم بأمرى
قد مات منذ سنتين • فكتبت 'عندئذ الى الجنرالة ايباتشين ، وهى سيدة تمت
الى بقربى بعيدة ، ولكننى لم أتلق أى جواب • فهأنذا أرجع أخيراً !

- والى أين تنوى أن تذهب ؟

- تعنى أين أريد أن أنزل ؟ • • • • • والله • • • لا أدرى بعد ! • • •

- لم تقرر بعد ؟

وانفجر المستمعان كلاهما يقهقهان • وسأل الأسمر :

- وهذه الصرة الصغيرة تضم كل ما تملكه حتماً ، أليس كذلك ؟

فقال الموظف الأحمر الأنف مزاولاً ، راضياً عن نفسه كل الرضى ،
مزهاواً بها كل الزهو :

- أراهن على أن الأمر كذلك ! وعلى أنك ليس لك شيء آخر بين
الأمته والحقائب • على كل حال : ليس الفقر عيباً !

وصدق هذا القول أيضاً ، فان الشاب الأشقر بادر يؤيده بسرعة
شديدة ولهفة كبيرة !

وتابع الموظف كلامه بعد أن ضحك الاثنان ما شاء لهما السكر أن يضحكا (الغريب فى الأمر أن صاحب الصرّة قد ضحك أيضاً وهو ينظر اليهما ، فزاد ذلك ضحكهما قوة) :

- ان لصرتك مع ذلك دلالة • صحيح أن المرء يستطيع أن يراهن على أنها لا تضم لفّات دنائير ذهبية ، دنائير نابوليون أو فردريك أو حتى دنائير هولندية ، رغم أن المرء يكفيه أن يرى لبادنى حذاءيك المصنوعتين فى الخارج حتى يدور فى خلدك ذلك ... ولكن اذا أضفنا الى متاعك القليل هذا احتمال أن يكون لك قريبة مثل الجنرالة ايباتشين ، فان صرّتك يصبح لها عندئذ شأن كبير وقيمة عظيمة ، هذا اذا صحّ أن الجنراله ايباتشين قريبك حقاً ، وأنك لا تخطئ فى هذا الأمر ، ولو من قبيل السهو والذهول ... وذلك يحدث فى كثير من الأحيان ... بسبب سعة الخيال مثلاً! ...

هف القتي الأشقر يقول :

- هنا أيضاً أنت على صواب ! اتنى مخطئ تقريباً • فالجنراله لا تكاد تمت الىّ بقربى ، حتى اتنى لم أدهش البتة حين لم تبعث الىّ بجواب • لقد كنت أتوقع ذلك •

- بددت مالاّ لارسال رسالتك ، همّ ! ... على الأقل لا يستطيع المرء أن يأخذ عليك أنك قليل السذاجة والبراءة والصدق • هذه صفات محمودة ! همّ ! ... أما الجنرال ايباتشين فنحن نعرفه ، لأنه فى الواقع رجل يعرفه الناس كافة • أما المرحوم السيد بافلشيف ، الذى كان يعولك فى سويسرا ، فقد عرفناه أيضاً ، هذا اذا كان هو يقولوا آندريفتش بافلشيف حقاً ، لأن الرجلين قريبان يحملان اسماً واحداً • فأما أحدهما فما يزال يعيش فى القرم ، وأما المرحوم يقولوا آندريفتش ، المتوفى ، فقد

كان رجلاً محترماً له علاقات رفيعة وصلات عالية ، وكان يملك فى زمانه أربعة آلاف نفس ... نعم ...

أجاب الشاب وهو يتفرس فى السيد الذى يبدو عليه أنه يعرف كل شيء ، أجاب وهو يتفرس فيه بنظرة طويلة متفحصة :
- هو ذاك ! كان اسمه نيقولا آندريفتش حقاً .

ان هؤلاء السادة « العالمين بكل شيء » يصادفون فى بعض الأحيان بل قل فى كثير من الأحيان بين صفوف طبقة اجتماعية معينة . انهم يعرفون كل شيء ، لأن فضولهم اليقظ وملكاتهم العقلية تلتقى جميعاً فى اتجاه واحد ، لحلّو بالهم طبعاً من اهتمامات حيوية ومشاغل جدية أخطر شأنًا ، كما قد يقول مفكر معاصر . على أننا حين نقول « انهم يعرفون كل شيء » يجب أن نفهم من ذلك أن ميدان علمهم محدود ، وان ساحة معرفتهم ضيقة . فان علمهم يكاد يقتصر على أمور كالتالية : أين يعمل الموظف الكبير فلان ، وما هى علاقاته ، وما مقدار ثروته ، وما هى المقاطعة التى كان حاكماً فيها ، ومن هى المرأة التى تزوجها ، وكم كان المهر الذى ناله من زوجته ، ومن هو ابن عمه ، ومن هو قريبه من الدرجة الثالثة ، النخ الخ ، وهم يعرفون ذلك كله معرفة مناسبة . وهؤلاء السادة « العالمون بكل شيء » هم فى أكثر الأحيان أناس صعاليك يسيرون بأكمام منقوبة أكواعها ، ولا تتجاوز رواتبهم سبعة عشر روبلاً فى الشهر ، والناس الذين يعرف هؤلاء كل شيء عنهم لا يستطيعون حتى أن يتخلوا الدوافع التى تحضهم على التماس هذه المعارف وجميع هذه المعلومات . ولكن كثيراً من هؤلاء « العالمين بكل شيء » تغريهم معارفهم هذه اغراءً كبيراً ، وهم يستمدون من هذه المعارف التى تساوى فى نظرهم علماً حقيقياً ، يستمدون منها احتراماً لأنفسهم ، ويستمدون منها متعاً روحية عظيمة ، وارتياحاً فكرياً كبيراً . ثم ان لهذه المعرفة جوانبها المغرية الجذابة . لقد عرفت

علماء وأدباء وشعراء وسياسيين وصلوا بفضل هذه المعرفة الى أهداف عالية وبلغوا غايات رفيعة ، ووجدوا بواسطتها سكينه الروح وطمانينه النفس ، حتى انهم مدينون لها بما نالوا من مراكز فى مجال عملهم •

لم ينقطع الأسمر عن التثاؤب طوال مدة هذا الحوار • وكانت نظرتة لا تبرح تطوف بالأفق من خلال النافذة ، وكان واضحاً أنه يستعجل الوصول • كان يبدو ذاهلاً ، ذاهلاً ذهولاً غريباً ، يكاد يكون قلقاً مهموماً مغموماً ، حتى أصبح سلوكه من ذلك غريباً شاذاً ، فهو تارة يصغى ولا يسمع ، وتارة ينظر ولا يرى ، ثم ينفجر ضاحكاً حتى دون أن يعرف لماذا هو يضحك •

وفجأة قال السيد ذو البثور يسأل الشاب الأشقر حامل الصرّة :
- بالنسبة •• هل يمكننى أن أعرف من هو السيد الذى أتشرف بمخاطبته الآن ؟•••

فأجاب الشاب الأشقر فوراً ، بسلامة نية :

- أنا الأمير ليون نيقولايقتش ميشكين •

قال الموظف مفكراً حالماً :

- الأمير ميشكين ، ليون نيقولايقتش ميشكين ؟ لا أعرفه •• لم اسمع به يوماً • لا أقصد اننى لم اسمع بهذا الاسم ، فهو اسم تاريخى * ، وفى وسع المرء بل لا بد له أن يجده فى كتاب التاريخ الذى ألفه كارامازين *• لا ، وانما أنا أقصد شخصك • وانى لأعتقد من جهة أخرى أن المرء لا يصادف اليوم فى أى مكان أحداً من أسرة الأمراء ميشكين ، حتى ان ذكراهم قد انطفأت •

فعقب الأمير يقول بسرعة :



الأمير ميشكين

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

- طبعاً ، طبعاً ! لا يوجد الآن أى أمير بهذا الأسم ، الا أنا • لا بد
أنتى آخر رجل فى السلالة • أما اسلافنا فكانوا من صغار مالكى الأطيان
الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم • والحق ان ابى قد خدم فى الجيش برتبة
ملازم ثان بعد أن تخرج من المدرسة الحربية • ومن المصادفات ان الجنرالة
ايبانتشين منحدره هى أيضاً من سلالة الأمراء ميشكين ، لا أدرى كيف !
فهى الأخيرة من نوعها أيضاً •

صاح الموظف يقول مقهقها :

- هىء هىء هىء ! الأخيرة من نوعها ! هىء هىء هىء ! ان لك
طريقة بارعة فى اللعب بالألفاظ •

وابتسم الأسمر هو أيضاً • أما الأشقر فقد بدا عليه شئء من الدهشة
لأنه أفلح فى أن يلعب بالألفاظ هذا اللعب ، على رداءته •

وقال شارحاً :

- تصور أنتى قلت ما قلت حتى دون تفكير فيه !

فأجابه الموظف مرحاً :

- طبعاً طبعاً ، لا حظنا ذلك !

وسأله الأسمر فجأة :

- قل لى يا أمير : لا شك أنك طلبت العلم هناك عند استاذك ، أليس

كذلك ؟

- نعم •••

- أما أنا فلم أطلب العلم يوماً •••

فأضاف الأمير قائلاً كأنما ليعتذر :



روجوين

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

- على كل حال ، أنا لم أحصل من العلم الا شذرات أو فتاتاً ! فقد كانوا يعدونني غير مؤهل لتابعة دراسة منتظمة ، بسبب حالتي الصحية ! سأله الأسمر بغتةً :

- هل تعرف آل روجويين ؟

- لا ، لا أعرفهم . على كل حال ، أنا لا أعرف الا قلة من الناس في روسيا . هل أنت روجويين ؟

- نعم ، أنا روجويين ، بارفيون روجويين .

تدخل الموظف يسأل مهتماً اهتماماً كبيراً :

- بارفيون ؟ انتظر أأست واحداً من آل روجويين الذين .. فقطاعه الأسمر مفاجئاً :

- نعم ، أنا واحد منهم ، واحد منهم هم أنفسهم .

انه لم يكلمه حتى ذلك الحين ، وانسا كان يقتصر على مخاطبة الأمير .

أجاب الموظف مذهولاً محملاً :

- ولكن هل هذا ممكن ؟

وسرعان ما اكتسى وجهه تعبيراً يفيض بالاحترام بل وبالقلق والخوف ، وتابع كلامه يقول :

- أأست قريب سيمون بارفيونوفتش روجويين ذاك البورجوازي الفخري الورائي * الذي توفي مخلفاً ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟

أجابه روجويين مستخفاً ، حتى دون أن يتنازل فيشرّفه بالقضاء نظرة عليه :

- من أين تعرف أنه خلف ثروة قدرها مليونان ونصف مليون ؟ ثم تابع كلامه وهو يغمز الأمير :

- عجيب أمر هؤلاء الناس ! انى لأساءل ما هذا الذى يصيهم فاذا هم يسرعون يحومون حولك ؟ لقد مات أبى منذ مدة قصيرة حقاً . وأنا واصل من بسكوف متأخراً شهراً . انظر كيف أعود الى المنزل فقيراً معدماً أكاد أكون حافى القدمين . ان أخى ، ذلك الوغد الفاجر ، وكذلك أمى ، لم يرسلنا الى مالا ، ولا أبلغانى النبأ ! لكأننى فى اعتبارها كلب من الكلاب ! لقد بقيت طريح الفراش فى بسكوف شهراً أعانى من الحمى الحارة !

صاح الموظف رافعاً يديه الى السماء :

- والآن ستقبض مليوناً أو أكثر ، دفعة واحدة ! يا رب السماء !
قال روجوين وهو يحرك يده بحركة تتم على العvisية والفضب :
- ولكن ما شأنه هو وهذا ؟ هلاً قلت لى ، أرجوك ! أنت تعلم اننى لن أعطيك قرشاً واحداً ولو مشيت أمامى على يديك !
- سأفعل ذلك ، سأمنى على يدى ، ما رأيك ؟
- انظر الى هذا الرجل ! قلت لك اننى لن أعطيك شيئاً ، لن أعطيك شيئاً البتة ، ولو لبثت ترقص أمامى أسبوعاً بكامله !

- لك ما تشاء ! لا تعطينى شيئاً ، فأنا لا أستحق أن تعطينى شيئاً .
لكن هذا لا يمننى من أن أرقص لك . سأترك زوجتى ، وأولادى الصغار ، لأجىء أرقص أمامك ، فى سبيل ملاطفة ، فى سبيل ملاطفة ...

قال الأسمر وهو ييصق اشمئزاً :

- شيطان يأخذك !

ثم أضاف يقول مخاطباً الأمير :

- منذ خمسة أسابيع ، كنت مثلك . تركت أبى وأنا لا أكاد أحمل

الا صرّة صغيرة • وهربت عند عمة لى بمدينة بسكوف • وهناك مرضت ، ومات هو أثناء ذلك ! غلبته النية ! رحمة الله على تراه ! ولكن يجب أن أقول لك انه أوشك أن يقتلنى ! صدقنى يا أمير ، أحلف لك • فلولا اتنى هربت لقتلنى حتماً !

قال الأمير فى لطف وهو يتفحص بكثير من الفضول هذا المليونير الذى يرتدى ذلك المعطف الفقير :

... لا بد أنك أغضبت ، أليس كذلك ؟

رغم أن هذا الميراث وهذا المليون جديران بالاهتمام ، فان شيئاً آخر هو الذى أثار دهشة الأمير واهتمامه • وكان روجوين ، من جهته ، يبدو متلذذاً أكبر التلذذ بمحادثة الأمير • ومع ذلك يشعر المرء أنه كان يتكلم ارضاءً لحاجة آلية أكثر مما كان يتكلم تلبيةً لضرورة داخلية • كان يتكلم تسرية عن نفسه لا تعاطفاً مع غيره ؛ كان يدفعه الى الكلام نوع من القلق ، نوع من الغم ؛ كان يتكلم لينظر الى شخص ، وليحرك لسانه • لكنّاه ما يزال تحت سيطرة الحمى ، بل والهذيان • أما الموظف فكان معلقاً بشفتى روجوين ، أسيراً لهما ، لا يجروا أن يحوّل عنهما انتباهه لحظة واحدة • كان يتلقف ويزن كل كلمة من كلماته كأنها من الماس •

أجاب روجوين عن سؤال الأمير فقال :

— أما أنه غضب فقد غضب • والحق أنه لم يكن على خطأ • ولكن المذنب الأكبر فى الأمر كله انما هو أخى • ولست أقول شيئاً عن أمى ، فهى امرأة عجوز ، عاكفة على قراءة حياة القديسين ، غارقة فيها • وهى تقضى النهار كله فى صحبة نساء عجائز ، وأخى سيمون هو المسيطر على المنزل ، المتحكم فيه ، المستبد به • لماذا لم يبلغونى النبأ ، هه ؟ الأمر مفهوم ! صحيح أنتى كنت عندئذ فاقداً وعيى • وهم يزعمون أيضاً أنهم

أرسلوا الى بركة • ولكن البرقية وصلت الى عمى • وعمى التى تزلت منذ ثلاثين عاماً تقضى وقتها كله ، من الصباح الى المساء ، فى صحبة نساء معقوهات • ليست عمى امرأة مترهبة ، ليست امرأة ممن يسمين مترهبات ، بل هى شر من ذلك • فحين رأت البرقية أصابها زعر ، فحملتها الى الشرطة دون أن تفضها ، فلبثت البرقية عند الشرطة الى هذا الحين • كونيف فاسيلي فاسيلقش وحده ساعدنى ، فكتب الى كل شىء • أما أخى فانه لم يجد ما هو خير من قضاء الليل فى أن يقص شراريب الذهب من غطاء البروكار الذى يغطى تابوت أبى ، بحجة أن لهذه الشراريب « قيمة كبيرة » • هل تعلم أن فى وسعى أن أرسله الى سيبيريا اذا شئت ، لأن هذا العمل خرق للمقدسات !

قال الشاب الأسمر ذلك ثم التفت نحو الموظف ، فأضاف :

– نعم ، هذا فى عرف القانون خرق للمقدسات حقاً ، يا فزاعة المصافير فى الحقول !

فأسرع الموظف يصيح قائلاً :

– هو خرق للمقدسات طبعاً ، خرق للمقدسات طبعاً !

– وهو يستحق النفى الى سيبيريا ، هه ؟ *

– الى سيبيريا ، الى سيبيريا ، الى سيبيريا رأساً !

قال روجوين يخاطب الأمير :

– هم جميعاً يظنون أننى ما زلت مريضاً ، ولكنى ، دون أن أقول كلمة لأحد ، ودون أطلع على شىء أحداً ، ركبت القطار رغم اننى ما زلت عليلًا ، وجئت افاجئهم ! سيكون عليك أن تفتح الأبواب يا أخى العزيز سيمون سيمونوفش ! أنا أعلم جيداً أنه كان يثير أبى المرحوم على ، ويحقنه ضدّى ! يجب أن أعترف الآن بأننى قد أغضبت أبى فعلاً بحكاية

ناستاسيا فيليوفا تلك ، هذا صحيح • فى ذلك أنا وحدى مخطيء • لقد
أغوانى الشيطان الرجيم !

ردّد الموظف قول صاحبه محاولاً أن يستجمع ذكرياته :

- حكاية ناستاسيا فيليوفا ؟

فصرخ روجوين فى وجهه غاضباً :

- لا تعرفها حتماً !

فأجاب الموظف وقد لاح فى وجهه معنى الانتصار :

- بل ربما كنت أعرفها !

- دعك من هذا الكلام ! فى العالم نساء كثيرات باسم ناستاسيا

فيليوفا ! أما أنت فانك وغد وقح وقاحة فظيعة ، هذه هى الحقيقة
أقولها لك •

ثم أضاف يخاطب الأمير :

- آ ••• كنت أعرف ذلك سلفاً ، كنت أعرف سلفاً أنتى لن

أستطيع التملص من أفراد من هذا النوع !

أسرع الموظف يكرر قوله :

- جائر جداً أنتى أعرفها • ان ليديف يعرف أشياء كثيرة • أنت

يا صاحب السمو تتنازل فتوجه الى اللوم ، فما عساك فاعلاً اذا أنا استطعت

أن أبرهن لك على أن ما أقوله هو الحقيقة ؟ اسمع اذن : ان ناستاسيا

فيليوفا هذه التى أراد أبوك ، فى شأنها ، أن يتمّ له اقناعك بالمصا ،

انما تسمى باراشكوف • ويمكن أن يقال عنها انها سيدة ذات مزايا ،

وانها فى نوعها ، هى أيضاً ، أميرة • ذلك أولاً • أما ثانياً فان لها

علاقة برجل اسمه توتسكى ، آنانازى ايفانوفتش توتسكى ، وليس لها



ليديف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

علاقة بأحد غيره . وهو رجل من كبار الملاكين ، وهو رأسمالي ضخم
يدير عدة شركات ؟ وتربطه بالجنرال ايباتشين صداقة قوية ...

ذهل روجوين فصاح يقول مبهوراً :

- عجب ! يبدو عليك أنك عالم بكل شيء حقاً ! شيطان يأخذك !
انه يعرفها ، انه يعرف كل شيء !

- كل شيء ! لبيديف يعرف كل شيء ! يجب أن أقول لك
يا صاحب السمو اننى فى الآونة الأخيرة قد ظلمت شهرين كاملين أطوف
فى كل مكان مع ليخاتشوف ، الفتى الكسى ليخاتشوف . هو أيضاً كان
قد فقد أباه . واذ اننى أعرف جميع الأركان والزوايا ، فقد أصبح
لا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يصحبه لبيديف . انه الآن فى السجن
بسبب ديون تراكتت عليه . ولكنه أثناء طوافنا ذاك قد أتيح له أن يعرف
آرمانس ، وأن يعرف كورالى * ، وأن يعرف الأميرة باتزكى ، وناستاسيا
فيليوفا ، وكثيرا غيرهن .

سأله روجوين وهو ينظر اليه نظرة شريرة ، وقد اصفرت شفاه
وأخذتا ترتجفان :

- ناستاسيا فيليوفا ؟ ما شأنها وليخاتشوف ؟
أسرع لبيديف يجيب :

- لا شيء ! لا شيء البتة ! لا شيء إطلاقاً ! لم يستطع ليخاتشوف أن
يحظى منها بشيء فى يوم من الأيام ، رغم أمواله كلها . لا ، انها ليست مثل
آرمانس . هى لا علاقة لها الا بصاحبها توتسكى . وقد ترى مساءً فى
شرفتها بالمرح ، « المسرح الكبير » أو « المسرح الفرنسى » . ومهما
يثرثر الضباط عنها ، فانهم عاجزون عن أن يبرهنوا على أى شيء . هم
يقولون : « ها هى ذى ! انظر اليها ، ناستاسيا فيليوفا الشهيرة تلك ! » ،



ناستاسيا فيليبوفنا

بريشة الفنانة السموفياتية الكسندرا كورساكوفا

ولكن ذلك هو كل ما يستطيعون أن يقولوه ، ولا كلمة عداة ، اذ ليس ثمة شيء !

قال روجوبين مؤيداً ، وقد اربد وجهه وانقبضت أساريره :

- هذه هي الحقيقة . وقد روى لي زالويجيف هذا الشيء نفسه في ذلك الأوان . في ذات يوم من تلك الأيام ، كنت أقطع شارع نفسكي راكضاً ؛ وكنت أرتدى معطفاً قديماً لأبى ، أرتديه منذ ثلاث سنين ، فاذا أنا أراها تخرج من أحد المخازن فتركب عربتها . شعرت بنار تشب في جسمي فتحرق أحشائي حرقاً . وصادفت عندئذ زالويجيف . ان زالويجيف ليس مثلي . كان يتنزه في الشارع متأقفاً تأثق صبي حلاق ، واضعاً على إحدى عينيه نظارة . أما نحن في منزل أينا فانا نتعل أحذية مرقعة ، ونأكل حساء كرب . قال لي زالويجيف : « ليست هذه المرأة لأمثالك . انها أميرة * . اسمها فيليوفنا باراخشوفنا . تعيش مع توتسكي . لا يعرف هذا المسكين توتسكي كيف يتخلص منها . لقد تقدم في السن . بلغ الخامسة والحسين . يريد أن يتزوج أجمل امرأة ببطرسبرج ! » . ثم أخذ زالويجيف يغرس في ذهني أنني أستطيع أن أرى ناستاسيا فيليوفنا مرة أخرى ، ذلك المساء نفسه ، في شرفتها من « المسرح الكبير » الذي يعرض الليلة مسرحية باليه . هه ! حاول في بيت أينا أن تذهب الى الباليه : لو خطر ببالك شيء من هذا لكانت عقوبتك عقوبة واحدة هي القتل ! مع ذلك استطعت أن أهرب ساعة . فرأيت ناستاسيا فيليوفنا مرة أخرى ، ثم بت ليلى مسهّداً لا يعرف النوم الى جفنى سيلاً . وفي صباح الغد أعطاني المرحوم أبى سنيين مائتين قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل قائلاً لي : « امض بهما ، ثم اذهب بعد ذلك الى مكتب أندرييف لسداد حساب مقداره سبعة آلاف وخمسمائة روبل . أما الباقي فأعده الى دون أن تتسكع في الطريق . سألقي في الدار أنتظرك » . بعث السنيين ،

وقبضت المال ، ولكننى لم أذهب الى آندرييف ، وانما أسرعت أمضى قدماً الى « المخزن الانجليزى » ، فاخترت قرطين للأذنين ترينهما ماستان يبلغ حجم كل منهما حجم بندقة • انفقت فى ثمنهما العشرة آلاف روبل ، حتى لقد احتجت الى اربعمائة روبل أخرى ، ولكن حين ذكرت اسمى أولانى التاجر ثقتى • وحملت القرطين ، وذهبت الى زاليوجيف فقلت له : « والآن فلنذهب الى ناستاسيا فيلبوفنا يا صاحبى ! » • وصرنا فى الطريق • أصبحت لا أشعر بالأرض تحت قدمى ، وكنت لا أرى شيئاً مما يعبرى أمامى ولا حولى ! ودخلنا الى الصالون رأساً ! هاهى ذى تصل ! لكننى لم أجرو فى تلك اللحظة أن أقدم نفسى • ان زاليوجيف هو الذى أعلن لها قائلاً : « هذه هدية من بارفيون روجوين ، ذكرى للقاء الأسى ، أرجو أن تتلطفى فقبلها » • فتحت ناستاسيا العلبة ، وأنعمت النظر فى القرطين ، ثم قالت مبتسمة : « أشكر عنى لصديقك السيد روجوين لنفسه اللطيفة ! » • ثم حيننا وخرجت • لىتنى مت فى مكانى ذلك اليوم ! والحق أننى ذهبت الى هناك مقدراً اننى لن أرجع حياً • وانما أغاظنى خاصة أن ذلك الحيوان زاليوجيف قد نسب الفضل لنفسه فى الأمر كله • كنت أنا بقامتى الضئيلة وملابسى التى تشبه ملابس الخدم واقفاً هنالك محملاً العينين مدمر النفس خجلاً • أما هو فكان يرتدى ملابس على أحدث زى ، وكان متطيباً بالعطر ، مجمداً شعره ، وكان زاهى اللون مشرق الوجه ، وقد عقد على عنقه ربطة ذات مربعات ، وكان لا ينفك يهز عطفه رقة ، ويحنى ظهره احتراماً • لا شك أنها اعتقدت أنه هو صاحب الهدية وقد قلت له غاضباً حين خرجنا : « أنصحك بأن لا تفكر فيها ، مفهوم ؟ » • فقال : « وددت لو أعرف كيف ستسد حساب سيمون بارفيوتش ! » • والحق أننى كنت فى تلك اللحظة احترق رغبة فى اللقاء نفسى بالماء بدلاً من العودة الى الدار • ثم قلت لنفسى : « لا ، ليس للأمر أية خطورة فى الواقع ! » • ورجعت الى الدار كالداخل الى النار •

دمدم ليديف يقول وهو يلوى يديه خوفاً ويرتعش من مجرد تصور الأمر :

- الله الله ... كان يتفق للمرحوم ان يرسل رجلاً من الرجال الى العالم الآخر بسبب عشرة روبلات ... فما بالك بعشرة آلاف روبل ؟
قال ليديف جملته الأخيرة هذه متجهماً بالكلام الى الأمير .
وكان الأمير يتفرس مستطلعاً في روجوين الذى بدا فى تلك اللحظة شاحباً شحوباً أشد .
قال روجوين :

- العالم الآخر ؟ ماذا تعلم أنت عن هذا ؟

والتفت نحو الأمير يستأنف سرد قصته عليه فقال :

- لم يلبث أبى أن عرف كل شىء طبعاً . لقد أخذ زاليوجيف يروى القصة لكل من يريد أن يسمعها . أصدعنى أبى الى غرفة ، وحبس نفسه معى فيها ، وأخذ يؤدبنى خلال ساعة كاملة . وكان يقول : « ما هذا الا لقمة أولى لتذوق الطعم ، ولكنى سأعود فى هذا المساء ، لأهيب لك ليلة سعيدة ونوماً مناسباً ! » . هل تعلم ماذا فعل بعد ذلك ؟ ذهب الى ناستاسيا فيلبوفنا بنفسه ، هو الشيخ الشائب ، فانحنى لها محيياً حتى بلغ بانحنائه الأرض ، وأخذ يضرع اليها ويبكى . فاذا هى ترمى العلبة فى وجهه آخر الأمر قائلة له : « اليك القرطين فخذهما يا حبة عتيقة ! لقد أصبحا أئمن فى نظرى عشر مرات بعد أن عرفت أن بارفيون حصل عليهما بمجازفة خطيرة كهذه المجازفة ! أبلغ بارفيون تحيتى وشكرى ! » .

« واقترضت بعد ذلك عشرين روبلاً من سرجى بروتوشين ، وركبت القطار متجهاً الى بسكوف بموافقة أمى ومباركتها . فما وصلت الى بسكوف حتى كنت ارتعد من الحمى . وأسرعت المجازئ تعالجنى

وتداوينى بتلاوة صفحات من حياة القديسين • فكنت مصعوقاً مبهوتاً • ثم خرجت أطوف بالكاباريهات ، وأنفق فيها آخر ما بقى لى من قروش • وقضيت الليلة كلها فى الشارع ، منهاراً أكاد أموت من فرط السكر • حتى اذا طلع الصباح كنت أهذى • ومما زاد الطين بلة أن الكلاب قد جاءتني أثناء الليل تعضنى وتنهشنى فى كل موضع من جسمى • ولم استرد صحوى الا فى كثير من العناء •

قال ليديف وهو يضحك ساخراً ، ويفرك يديه احدهما —
بالأخرى :

— هىء هىء ! بعد اليوم سنسمعها تقنى ، ناستاسيا فيليوفا هذه •
ليست المسألة الآن مسألة قرطين يهديان اليها ، فلسوف تُغمر بعد هذه الساعة بهدايا تبلغ من الكثرة أنها •••

فرأر روجوين يقول وهو يمسك ليديف من ذراعه بوحشية :

— يميناَ ••• لو قلت كلمة واحدة عن ناستاسيا فيليوفا ، فلارسلنَّ اليك لكلمات كتلك اللكمات المتلاحقة التى ••• مهما تكن قد تجولت مع ليخاتشوف ، فان ذلك لا يمنعنى من أن أسلخ جلدك ضرباً بالسياط •
— اذا جلدتنى بالسوط كان ذلك دليلاً على أن فى نيتك أن تحتفظ بى قريباً منك • فاجلدنى اذن ! انك اذ تجلدنى تدع على طابعك • هه !
ها نحن اولاً وصلنا !

كان القطار يدخل المحطة فعلاً • ورغم أن روجوين قد زعم أنه غادر بسكوف خفيةً دون أن يذكر ذلك لأحد ، فقد كان ينتظره فى المحطة عدد من الأشخاص أخذوا يصيحون وهم يلوّحون له بطاقياتهم •
دمدم روجوين يقول وهو ينظر اليهم منتصراً ضاحكاً ضحكة خبيثة :

- هه ! هذا زالوجيف أيضاً !

والتفت نحو الأمير فجأة فقال له :

- اسمع يا أمير ، لقد شعرت نحوك بعاطفة ومودة ، لا أدري لماذا !
ربما كان مردٌ ذلك الى اننى التقيت بك فى لحظة كهذه اللحظة • ولكننى
فى هذه اللحظة أيضاً انسا التقيت بذلك الوغد (قال ذلك مشيراً الى
ليديف) فلم أحبيه • زرنى يا أمير • سوف نخلصك من لبّادتى حذاءيك
البشتين هاتين • وسأعطيك معطفاً جميلاً جداً من فراء السمور •
وسأوصى لك برداء « فراك » أيضاً ، رداء « فراك » من الطراز الأول ،
وبصديرة لونها أبيض أو لونها هو اللون الذى تختاره ! سأملأ جيوبك
مالاً ••• وسنمضى نرى ناستاسيا فيليوفنا ••• أتزورنى أم لا ؟

قال ليديف ملحاً بلهجة فحمة تحاول الإقناع :

- فكر جيداً يا أمير • لا تفوت هذه الفرصة ! لا تفوتها !

نهض الأمير ، ومدّ يده الى روجويين فى أدب ، وأجابه بلهجة
رقيقة لطيفة :

- سيسرنى جداً أن أزورك • وانى لأشكر لك عاطفتك شكراً
لا نهاية له • قد أجيئك فى هذا اليوم نفسه اذا اتسع وقتى • يجب أن
اعترف لك صادقاً مخلصاً بأننى أعجبت بك أنا أيضاً أكبر الاعجاب ،
ولا سيما حين قصصت على حكاية دينك القرطين المزدانين بالماس • وحتى
قبل أن تحكى لى قصة القرطين شعرت نحوك باعجاب ، رغم تجهم
وجهك • أشكرك أيضاً على المعطف والثياب التى تنوى أن تهديها الى •
ذلك اننى سأكون فى حاجة كبيرة اليها قريباً ، ولست أملك لشراء مثلها
الآن قرشاً واحداً •

- سيكون معى مال ، سيكون معى مال منذ هذا المساء •

تعال زرنى !

ردّد الموظف يقول :

- سيكون معه مال ، سيكون معه مال ، سيكون معه مال منذ هذا

المساء •

- قل لى أولاً يا أمير • أأنت تحب الجنس اللطيف كثيراً ؟

- انا ؟ لا ! يجب أن أقول لك ••••• لعلك لا تعلم ••• ولكننى بسبب

مرضى الولادى لم أعرف النساء قط !

فهتف روجوين يقول :

- فإذا كان الأمر كذلك يا أمير ، فانت رجل كامل البراءة حقاً !

والله يحب أمثالك !

قال لبيديف مؤيداً :

- نعم نعم ، الله يحبهم •

وقال روجوين آمراً :

- واتبعنى أنت يا حضرة الموظف !

خرج الثلاثة من حافلة القطار • لقد بلغ لبيديف مأربه أخيراً •

ولم تلبث عصبة روجوين الصاخبة أن ابتعدت فى اتجاه شارع فوزمنسكى

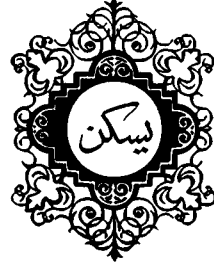
وكان على الأمير أن يدور الى جهة ليتاينايا •

الجو يسوده الضباب وتملؤه الرطوبة • سأل الأمير المارّة • فعرف

أن عليه أن يقطع ثلاثة فراسخ حتى يصل الى حيث يريد أن يصل •

فقرر أن يركب عربة •

الفصل الثاني



الجنرال ايبانتشين في منزل يبعد قليلاً عن ليتانيا، من جهة كنيسة « التجلي » • وهو يملك عدا هذا المبنى الجميل المظهر الذي يؤجر خمسة أسداسه، يملك منزلاً ضخماً للاستثمار في شارع سادوفايا؛ ويملك ، قرب بطرسبرج ، أرضاً شاسعة ذات غلال كثيرة ، كما يملك مصنفاً يقع في ضواحي بطرسبرج • انه رجل ذائع الصيت ، كان في الماضي يزاول أعمال تأجير الأراضي للمزارعين ، أما الآن فهو مساهم خطير الشأن في عدة شركات كبرى • فهو يُعَدُّ رجلاً واسع الثراء ، يقوم بمشروعات ضخمة وله علاقات رفيعة عالية • وقد استطاع في بعض الأوساط أن يكون انساناً لا غنى عنه على الإطلاق ، ومن بين هذه الأوساط الوسط الحكومي الذي يعمل فيه • ومع ذلك كان من الأمور المعروفة الثابتة ان ايفان فيدروفتش ايبانتشين لم يحصل أى تعليم ولم يجن أية ثقافة ، وأن حياته العسكرية قد بدأت في مدرسة من مدارس العرفاء • ومما لا شك فيه أن هذا أمر يشرّفه ، ولكن الجنرال ، رغم ذكائه ، كان لا يخلو من بعض نقاط الضعف التي يمكن أن تغفر له على كل حال ؛ من ذلك أنه كان لا يطبق أن يُشار الى ماضيه • أما أنه ذكي وحاذق ، فهذا أمر لا يسعك الا تسلّم له به • فمن آيات ذلك مثلاً أنه قد اتخذ لنفسه مبدأً يلتزمه ولا يجيد عنه ، وهو أن لا يضع نفسه في المقدمة

يوماً ، وأن يمَّحى متى وجب ذلك وكان كثير من الناس انما يقدرونه لهذه البساطة نفسها ، ولهذه اللباقة التى تجعله يعرف دائماً أين مكانه الصحيح فيقف فيه ، وأين حدوده فلا يتعداها • ومع ذلك ليت الناس الذين يرون فيه هذا الرأى الحسن ، ويحكمون عليه هذا الحكم الطيب ، ليتهم يعرفون ما كان يجرى أحياناً فى نفس ايفان فيدوروفتش هذا الذى كان واضحاً أنه يحسن المحافظة على مكانه !...•

ان الجنرال ايباتشين ، رغم خبرته الواسعة فى الأعمال ، ورغم مواهبه الممتازة ، كان يؤثر أن يظهر خادماً متحمساً لآراء غيره على أن يفرض آراءه هو • « خادم أمين ، نعم ، ولكن لا متملق دنىء » * • وكان الى ذلك - وهذه علامة من علائم العصر - يرى أن من شرف الانسان أن يكون رجلاً ثابت الجنان ، أن يكون روسياً حقيقياً • فمن هذه الناحية ، اتفق أن حدث له مفامرات أليمة مؤسفة ، ولكن الجنرال ليس من الرجال الذين تخور عزائمهم ويدب اليهم اليأس حتى ازاء أصعب الظروف الشائكة • وبالإضافة الى هذا ، كان موفقاً فى المقامرة بمبالغ ضخمة • على أنه كان لا يحاول أن يستتر على هذا العيب الطفيف أو هذه الخطيئة اليسيرة التى يدين لها فى كثير من الأحيان بأرباح طائلة • بالعكس : كان يعلنها ويذيعها •

انه ينتمى الى بيئة خليطة طبعاً ، ولكنها بيئة غنية وذات نفوذ على كل حال • وكان هو ينتظر من المستقبل كل شيء : ان فى عمره لمسعاً ، ولا بد أن يجيء كل شيء فى يوم من الأيام • ان الجنرال ايباتشين ما يزال - كما يقال - فى سنِّه هى سن القوة • ان عمره ستة وخمسون عاماً ، وهو العمر الذى يتفتح فيه الرجل تفتحاً كاملاً ، العمر الذى يبدأ فيه الرجل « حياته الحققة » فعلاً ! صحته الحسنة ، لونه النضر ، أسنانه القوية رغم سوادها ، جسمه المتين الشديد ، وجهه الذى يعبر فى الصباح عن الاهتمام

بالعمل ، ويعبر في المساء عن المرح أثناء اللعب بالورق أو في منزل صاحب السمو * ، ذلك كله كان يساهم في تحقيق نجاحه حاضراً ومستقبلاً ، وينثر على طريق صاحب السعادة الورود •

وكانت أسرته زهراً متفتحاً • صحيح أنها لا تضم الا وروداً ، ولكن من حق الجنرال أن تكون له آمال عراض • هل هناك ، في حقيقة الأمر ، من هدف أخطر شأنًا وأقدس قداسةً من مستقبل الأسرة ؟ بم يمكن أن يتعلق المرء ان لم يتعلق بالأسرة ؟ • كانت أسرة الجنرال تتألف من زوجته وبنات ثلاث كبيرات • لقد تزوج الجنرال وهو في شرح الشباب ، حين لم يكن الا ملازماً أول ، تزوج فتاة تكاد تكون في مثل سنه • لم تكن الفتاة متألفة لا بجمالها ولا بثقافتها • وهى عدا ذلك لم يتجاوز مهرها الذى حملته اليه خمسين نفساً ؛ ولكن هذا كان بداية ثرائه والحق يقال • ان الجنرال لم يستكر فى يوم من الأيام أنه تزوج قبل الأوان ، لا ولا نسب هذا الزواج يوماً الى حماسة الصبا واندفاع الشباب • وكان يحترم زوجته ويهابها ، حتى لقد وصل من ذلك الى حبها •

كانت الجنرالة ، زوجة الجنرال ، من سلالة الأمراء آل ميشكين ، وهم أسرة عريقة جداً ، وان لم تكن متألفة كثيراً • وكانت الجنرالة تزهو بهذا المحند النحيل زهواً كبيراً ، وتستمد منه احتراماً لنفسها عظيماً • ان شخصية من شخصيات ذلك الأوان التى كان لها نفوذ ، شخصية من تلك الشخصيات التى تحب أن تكون لها صفة الحماية (وهى حماية لا تكلف صاحبها أية نفقة على كل حال) ، قد أراد أن يهتم بزواج الأميرة الشابة ، ففتح أمام الملازم الأول الشاب أبواب الارتقاء ودفعه اليها • ولم يكن ايباتشين فى حاجة الى أن يدفع دفعاً ، بل كانت تكفيه نظرة تشجيع ، ولا تغيب عنه أو تفلت منه • وعاش الزوجان سنى زواجهما الطويل فى وفاق تام ، باستثناء مصادفات طارئة قليلة • لقد استطاعت الجنرالة ، بفضل

منبتها الذى يصلها بسلالة أمراء ، ولأنها آخر من يحمل اسم هذه السلالة ، وربما بسبب مزاياها الشخصية أيضاً ، استطاعت منذ طفولتها أن تجد لنفسها حاميات لهن مراكز عليا ومنازل سامية . وبعد ذلك ، وبفضل رتبته الرفيعة ، أصبحت لا تشعر فى المجتمع الراقى بأى حرج ، وأخذت تحس فيه بارتياح كامل وانطلاق تام .

وفى هذه السنين الأخيرة تفتحت وازدهرت بناتهما الثلاث : الكسندرا ، وآديلايد ، وآجلايا ، ورغم أنهن يحملن اسم ايباتشين فحسب ، فقد دخلن الحياة بأرصدة عظيمة ، هى : محتد أمهن التى تسمى الى سلالة أمراء ، مهرٌ ضخم محترم ، نجاح أبيهما فى المجتمع نجاحاً يبيح له أن يطمح فى المستقبل الى أعلى المناصب . ومن الأمور التى لا تفسد عليهن شيئاً ، أنهن كن على جانب من الجمال ، حتى كبراهن التى بلغت من عمرها خمسة وعشرين عاماً . وكان عمر الوسطى ثلاثة وعشرين ؛ أما الصغرى فقد أتمت العشرين منذ قليل . والصغرى هذه يمكن أن يقال عنها انها بارعة الحسن فتانة الجمال حقاً ، حتى لقد أخذ المجتمع يتحدث عنها كثيراً ، فيمتدح جمالها ويشيد بحسنها . بيد أن هذا لم يكن كل شيء . فان بنات الجنرال الثلاث كنَّ يتألقن كذلك بثقافتهن ، وذكائهن ، ومواهبهن . وكان من المعروف عنهن أيضاً أنهن متحبات كثيراً ، وأنهن يتساندن تسانداً كبيراً . حتى لقد تحدث الناس فى هذا الصدد عن تضحيات ارتضت الكبريان أن تقدماهما لأختهما الصغرى ، معبودة الأسرة كلها . ولقد كن فى المجتمع يتحاشين أن يضعن أنفسهن فى المقدمة ، حتى لقد كن مسرفات قليلاً فى التواضع . فما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهن شيئاً من عجب أو عجرفة ؛ ولكن كان معروفاً مع ذلك أن لهن كبرياءهن وأنهن يعرفن قدرهن ويشعرن بقيمتهن . كانت الكبرى موسيقية ، وكانت آديلايد تملك موهبة عظيمة فى فن

الرسم ، وهى موهبة ظلت مجهولة سنين طويلة ، الى أن اكتشفت فى الآونة الأخيرة بمصادفة بحثة • الخلاصة أن الناس كانت تكيل لهن المديح وتغمرهن بالثناء • على أن هناك ألسنة سوء طبعاً ، فمن ذلك خاصة أن بعض الناس كانوا يتحدثون مرتاعين عن قائمة الكتب التى قرأها •

لم تكن الفتيات تستعجل أمر زواجهن • كن حريصات على بيتهن الاجتماعية حرصاً كافياً ، ولكن بغير غلو أو مبالغة ، فكان فى هذا تعارض واضح مع ما يتصف به أبوهن من طبع خاص ومطامح كبيرة وآمال عريضة •

كانت الساعة قريبة من الحادية عشرة حين رنَّ الأمير ميشكين جرس باب الجنرال • ان شقة الجنرال تقع فى الطابق الأول ، وهى على تواضعها تلبي مطالب منزلته ورتبته •

فتح له الباب خادمٌ يرتدى ثياباً مزركشة من ثياب الخدم ، واضطر الأمير الى أن يقدم شروحاتاً طويلة لهذا الرجل الذى تفحصه فى أول الأمر مرتاباً ، ونظر اليه الى صرته شزراً • وأخيراً ، بعد أن أكدَّ له الأمير تأكيداً قاطعاً أنه هو الأمير ميشكين فعلاً ، وانه فى حاجة مطلقة الى أن يرى الجنرال لشأن مستعجل ، أدخله الخادم مبهوتاً الى حجرة مدخل صغيرة تلاصق قاعة الانتظار ، وتتصل بمكتب الجنرال • وهناك عهد به الى خادم آخر يتولى الخدمة فى حجرة المدخل هذه كل صباح ، ويبلغ الجنرال وصول الزوار • ان هذا الرجل الذى تجاوز الأربعين من عمره ، والذى يرتدى رداءً رسمياً ، يعبر وجهه دائماً عن كثرة الهمِّ وشدة الاشغال • ولقد كان مكلفاً بخدمة مكتب صاحب السعادة خاصةً ، فهو لذلك قوى الشعور بخطورة شأنه وعلو منزلته •

قال يخاطب الأمير بوقار وورصانة :

- انتظر فى الصالون • أما صرَّتْك هذه فاتركها هنا •

ثم جلس على مقعد من المقاعد بكثير من التعالى ، وهو يلقي على
الأمير نظرة قاسية مدهوشة •

جلس الأمير على كرسى ، ويده صرته ، وقال :
- اذا سمحت ، فأنا أفضّل أن انتظر هنا فى صحبتك على أن أبقي
وحدى هناك !

- ليس لائقاً أن تبقى فى حجرة المدخل لأنك زائر • أأنت ترغب
فى التحدث الى الجنرال نفسه ؟
كان واضحاً أن الخادم لا يكاد يستطيع أن يستلم بأن عليه أن يبلغ
الجنرال عن وصول زائر كهذا الزائر ، فقرر أن يعاود سؤاله •
بدأ الأمير يتكلم فقال :

- نعم ، أرغب فى التحدث الى الجنرال نفسه لشأن من الشؤون ••
فقال الخادم يقاطعه :

- لا أسألك أن تذكر لى الشأن الذى تريد أن تحدث الجنرال فيه •
فان وظيفتى تقتصر على ادخالك اليه • ولكنى أعود فأقول لك اتى فى
غية السكرتير لا أستطيع أن أبلغ الجنرال عنك •

كان ارتياب هذا الرجل يزداد دقيقة بعد دقيقة فيما يبدو • ان مظهر
الأمير يختلف اختلافاً كبيراً عن مظهر الزوار المألوفين • صحيح أن
الجنرال كان يستقبل فى كثير من الأحيان ، ان لم يكن فى كل يوم ،
فى ساعة معينة ، ولا سيما من أجل « أعمال » ، أفراداً من كل نوع •
ومع ذلك ظل الخادم حائراً • كان يبدو له أن وساطة السكرتير لا بد منها
لادخال الأمير على الجنرال •

وسأله أخيراً على نحو آلى تقريباً :

- اذن ... أنت قادم حقاً ... من الخارج ؟

ثم أخذ يغمغم ، فلعله كان يريد أن يقول : « أأنت أمير من أسرة
ميشكين فعلاً ؟ »

أجاب الأمير :

- نعم ، تركت القطار منذ قليل • ولكن يخيّل الى أنك أردت أن
تسألنى هل أنا حقاً أمير من أسرة ميشكين ، ثم لم تلق على هذا السؤال
أدباً ولطفاً •

همهم الخادم مدهوشاً :

- هم ...

قال الأمير :

- أوكد لك أنني لم أكذب عليك • لن تتعرض لأى تأنيب • أما
ملابسى وصرّتى فليس فى أمرها ما يبعث على الدهشة : ليست أمتعتى
الآن بالأمتعة الراقية !

- هم ... ليس هذا ما أخشاه • أنا مضطر أن أبلغ عنك الأمير •
سيجىء السكرتير حتماً ليراك • اللهم الا أن ... ان المزعج فى الأمر
انما هو ... اللهم الا أن ... أأست تريد مقابلة الجنرال لطلب معونة
والتماس مساعدة ؟ هل تسمح لى بأن ألقى عليك هذا السؤال ؟

- لا ، لا ، اطمئن كل الاطمئنان ... تق كل الثقة ... فانما أنا
أتِ لأمر آخر تماماً •

- معذرة ، لقد سألت هذا السؤال بعد أن رأيت ثيابك • انتظر
السكرتير • ان الجنرال مشغول الآن مع الكولونيل • وبعد ذلك سيجىء
سكرتير احدى الشركات •

- ما دمت سأنتظر مدة طويلة ، فانتى أتمنى أن أرجوك أن تسمح
لى بالتدخين فى مكان ما • معى غليونى ومعى تبغ •

ألقى عليه الخادم نظرة دهشة واحتقار ، كأنه لا يصدق أذنيه :
- تدخن ؟ تدخن ؟ لا ، لا تستطيع أن تدخن هنا ؛ بل ان عليك
أن تخجل من خطور هذا ببالك • هم ••• يا له من كلام !

- عفوك ! أنا لم يخطر ببالى أن ادخن فى هذه الحجرة • انتى أعرف
آداب السلوك وعادات المجتمع • وانما أردت أن أذهب الى مكان تدلى
عليه فأستطيع أن أدخن فيه • انتى متعود على التدخين ، ولم أدخن منذ
ثلاث ساعات • على كل حال ، لك ما تشاء • ولا شك أنك تعرف المثل
القاتل : « فى دير أجنبى * ••• » •

جمعهم الخادم رغم اراداته قائلاً :

- ولكن كيف تريدنى على أن أبلغ الجنرال وصول زائر مثلك ؟
أولاً ليس مكانك هنا ، وانما ينبغى أن تكون فى الصالون • أنت هنا
بمناخة زائر ، أى بمناخة ضيف • لسوف ينالنى تأييب • ولكن أترك تريد
أن تنزل وتسكن معنا ؟

أضاف الخادم تلك الجملة الأخيرة وهو يلقي ، من جديد ، نظرة
مؤاربة على الصرة التى كان واضحاً أنها تقلقه •

قال الأمير :

- لا أظن ذلك • حتى لو دُعيت ، فلن أبقي هنا • أنا انما جئت
للتعارف ، ولا شئ غير ذلك •

صاح الخادم يقول مذهولاً وقد ازدادت علائم الارتياح فى وجهه :

- كيف ؟ للتعارف ؟ فلماذا قلت لى اذن انك جئت لشأن من الشئون ،
لعمل من الأعمال ؟

- ليس مجيئى لعمل تماماً • أقصد •• ان مجيئى لعمل ان شئت ؛
أو قل اننى جئت أسأل نصيحة • لقد جئت لأقدم نفسى خاصة ، لأننى
واحد من الأمراء ميشكين ، والجنرالة ايباتشين هى أيضاً آخر أميرات
ميشكين ، ولم يبق أحد غيرنا من سلالة الأمراء هذه •

صاح الخادم يقول مرتاعاً أشد الارتياح :

- معنى هذا أنك قريب من الأقرباء فوق ذلك ؟

- قريب ؟ قرابة بعيدة جداً • أقصد : يمكن أن نعد قريين اذا نحن
أردنا ذلك ، ولكن قرابتنا تبلغ من البعد أن من الصعب أن نعدَّ قريين •
لقد كتبت الى الجنرالة فى ذات يوم ، من الخارج ، لكنها لم تبعث الىَّ
بجواب • ومع ذلك رأيت أن من الضرورى أن اتصل بها عند عودتى
الى البلاد • اذا كنت أشرح لك هذا كله ، فلكى انتزع من نفسك
شكوكها ، لأننى ألاحظ أنك ما تزال قلقاً • ليس عليك الا أن تعلم
الجنرال أن الأمير ميشكين يستأذن فى الدخول ، حتى تصبح غاية مجيئى
واضحة على الفور • فان استُقبلت كان هذا خيراً وبركة ، وان لم أُستقبل
فقد يكون هذا خيراً وبركة أيضاً • لكننى أحسُّ أنهم لا بد أن
يستقبلونى • فان الجنرالة ستريد حتماً أن ترى الرجل الوحيد الذى بقى
من أسرة الأمراء التى تنتمى هى اليها • فهى تحرص كثيراً على نسبها ،
كما سمعت ذلك عنها •

كان حديث الأمير يصطبغ ببساطة مطلقة ومع ذلك كان الخادم يزداد
حيرة واضطراباً على قدر ازدياد البساطة فى حديث الأمير ، فهو بحكم
تجربته لا يستطيع الا أن يدرك أن هذه اللهجة التى تصلح لحديث يدور

بين انسان وانسان ، لا تناسب حديثاً يدور بين زائر وخادم • ولما كان « الناس » أذكى كثيراً مما يتصور سادتهم ، فقد انتهى صاحبنا الخادم الى تصور حلين ممكنين : فاما أن هذا الأمير ليس الا متشرداً أفاقاً يلتبس مساعدة ، واما أنه رجل ضعيف العقل بسيط الفكر خال من العجب بنفسه • ذلك أن أميراً له عقل راجح وكبرياء شديدة لا يمكن أن يمكث منتظراً في غرفة المدخل ، متحدثاً عن شؤنه مع خادم • وخلص الخادم الى هذه النتيجة ، وهي أنه سيكون مسئولاً في الحالتين كليهما •

قال للأمير ملحاً بأكبر شدة ممكنة :

– يليق بك مع ذلك أن تنتقل الى الصالون •

فأجاب الأمير ضاحكاً :

– ها قد رأيت بنفسك أنني لو انتظرت هنالك لما استطعت أن أشرح لك تلك الأمور كلها ، ولظلمت قلقاً من ردائي وصرتي • أما الآن فقد لا يكون من الضروري أن تنتظر السكرتير • أظن أنك تستطيع بنفسك الآن أن تبلغ عني •

– لا أستطيع أن أبلغ عن زائر مثلك • يجب أن يتم ذلك بواسطة السكرتير ؛ لا سيما وأن الجنرال قد أوصاني منذ قليل بالأزعجه لأي سبب من الأسباب وبأى عذر من الأعذار مازل الكولونيل هنا • ان جبريل آرداليونتش * وحده يحق له أن يدخل دون أن يستأذن له •

– أهو موظف ؟

– من ؟ جبريل آرداليونتش ؟ لا ، هو مستخدم في الشركة •

اسمع : ضع صرّتك هنا على الأقل •

– خطر ببالي هذا • يسرني أن أضع الصرّة هنا ، ما دمت تأذن لي بذلك • على كل حال ، أحب كثيراً أن أنصو عني هذا الرداء أيضاً •
ما رأيك ؟

- طبعاً • لا تستطيع أن تدخل على الجنرال بهذا الرداء على كل حال !

نهض الأمير ، فخلع رداءه بسرعة ، فبدأ لابساً سترة لائقة المظهر حسنة التفصيل ، وان تكن مهترئة بعض الاهتراء ؛ ولاحت تحت السترة ، على الصديرة ، سلسلة من معدن قد علقت بها ساعة فضية من جنيف •
شعر الخادم ، رغم أنه صنّف الأمير رجلاً ضعيف العقل ، شعر بأنه ليس من اللائق أن يمضي في الحديث مع الأمير الى أبعد مما مضى اليه حتى الآن • ومع ذلك نال الأمير شيئاً من رضاه ، لا يدرى هو نفسه لماذا ! ولكن الأمير قد أثار فيه مع ذلك شعوراً واضحاً بالاستياء •
سأله الأمير وهو يعود يجلس في مكانه :

- والجنرالة متى تستقبل ؟

- ذلك ليس من شأنى أنا • والأمر مرهون بنوع الزائر • فهى مثلاً تستقبل صانعة قبعاتها فى الحادية عشرة • كما أن جبريل آرداليوتش يحق له ، هو أيضاً ، أن يدخل عليها قبل غيره ، ولو فى ساعة الافطار •
قال الأمير :

- البيوت أدفاً فى الشتاء هنا من البيوت فى البلاد الأخرى • والحلاء فى البلاد الأجنبية أقل برداً من الحلاء هنا • ولكن ما من روسى يستطيع أن يعيش فى بيوتهم ، من شدة البرد فيها •
- أهم لا يدفئون اذن ؟

- بلى ! يدفئون ! ولكن المنازل هناك مبنية بطريقة أخرى ، أقصد النوافذ والمدافئ •

- هِمٌ ٠٠٠ وهل غبت هناك مدة طويلة ؟

- أربع سنين • أقصد : مكثت طول الوقت تقريباً فى مكان واحد ،
فى الريف •

- لا شك أنك فقدت عادة الحياة فى بلادنا ، هه ؟

- صحيح • هل تصدّق ؟ انى لأشعر بدهشة أحياناً من أننى لم أنسى
اللغة الروسية نسياناً تاماً • اننى أكلمك الآن فأقول لنفسى : « ان لغتى
لم تسوّ كثيراً » • ولعل هذا هو السبب فى اننى ثرثار الى هذا الحد •
هذه هى الحقيقة : اننى منذ الأمس اشتغى طول الوقت أن أتكلم
الروسية !

- هِمٌ ٠٠٠ قل لى : هل كنت تسكن فى بطرسبرج من قبل ؟

كان الحادام رغم شدة حرصه على أن يسيطر على نفسه وأن يمسك
عن الكلام ، لا يستطيع أن يقطع حديثاً يبلغ هذا المبلغ من اللطف والكياسة
والذوق •

أجاب الأمير :

- بطرسبرج ؟ لا ٠٠٠ لم أكد أقيم بها ٠٠٠ وانما كنت أمر بها
مروراً • ثم اننى حتى فى ذلك الأوان لم أكن أعرف شيئاً هنا • فما بالك
الآن وقد ازدادت الأمور الجديدة ازدياداً يجعل حتى العارفين مضطرين
أن يتعلموا كل شىء من جديد • من ذلك مثلاً المحاكم الجديدة التى يكثر
الحديث عنها فى هذه الأيام * •

- هِمٌ ٠٠٠ محاكم ٠٠٠ نعم ، هناك محاكم ، لا شك فى هذا •
ولكن قل لى : هل المحاكم هناك ، فى البلاد الأجنبية ، أعدل من المحاكم هنا ؟
- لا أدرى • سمعت كثيراً من التناء على القضاء عندنا • من ذلك
أن عقوبة الاعدام قد ألغيت * ٠٠٠

- وهناك ، هل يُعدمون ؟

- نعم ، رأيت اعداماً فى فرنسا ، بمدينة ليون * . شنابير هو الذى
قادنى الى هناك ♦

- يشنقون ؟

- لا ... فى فرنسا يقطعون الرأس ♦

- وهل يصرخ المدموم عندئذ ؟

- يصرخون ؟ هه ... ان قطع رؤوسهم يتم فى لحظة ♦ يُضجع
المحكوم عليه ، فيهوى على رأسه نصل آلة يسمونها مقصلة ، نصل ثقيل
قوى ، يفصل الرأس عن الجسم فوراً ♦ ولكن الشيء الأليم الفطيع انما هو
الاعدادات : قراءة قرار الحكم بالاعدام ، لباس المحكوم عليه ، ايثاقه
بالجبال ، اصعاده على الصقالة ♦ تلك هى البرهة الرهيبة ! والجمهور
يحتشد ، وحتى النساء تتوافد ، رغم أنهم لا يريدون للنساء هناك أن ترى
هذا المشهد ♦

- فعلاً ، ليس هذا مكانهن ♦

- طبعاً ، طبعاً ! كيف يشهدن تعذيباً كهذا التعذيب ؟ ... لقد كان
المحكوم عليه ، فى ذلك اليوم ، رجلاً يبدو عليه أنه لا يهاب ولا يخاف ،
رجلاً ذكياً ، قوى الجسم ، ليس شاباً صغيراً بل هو ناضج السن ، اسمه
نيجروس ♦ ومع ذلك ، أؤكد لك ، صدقنى ان شئت ، أؤكد لك أنه حين
اعتلى الصقالة كان يبكى ، وكان أبيض اللون كورقة ♦ أهذا ممكن ؟ أليس
هذا فظيلاً ؟ هل يمكن حقاً أن يبكى المرء من شدة الخوف ؟ لا ، لم أكن
أصدق أن أحداً يمكن أن يبكى هذا البكاء خوفاً ... لست أتكلم هنا عن
طفل ، بل عن رجل لم يسبق له أن يبكى يوماً ، عن رجل فى الخامسة
والأربعين من عمره ! ما الذى يحدث للنفس فى تلك الدقيقة ؟ ما هذه

التشنجات التي تصير اليها ؟ هذه اهانة للنفس واساءة الى الروح •
ولقد قيل مع ذلك : « لا تقتل » ، فما بالهم يقتلون رجلاً لأنه قتل ؟ لا ،
هذا شيء لا يمكن أن يقبله الانسان ! لقد شهدت ذلك المنظر منذ أكثر
من شهر ، وما زال يترأى لى حتى الآن ، كأنه أمام عيني ، حتى لقد
وافاني في أحلامي خمس مرات على الأقل •

تحس الأمير وهو يتكلم ، وتلون وجهه الشاحب بعض التلون •
الا أن لهجة صوته ظلت هادئة • وكان الخادم يصغى اليه باهتمام ومحبة
ومودة ، حتى وكأنه لا يستطيع أن يحول انتباهه عن القصة • لعله كان
هو أيضاً انساناً من اصحاب الخيال •

قال الخادم :

— من حسن الحظ ، على الأقل ، أن الانسان لا يتألم مدة طويلة
حين يُقَطع رأسه •

فاستأنف الأمير كلامه يقول بحرارة :

— هذه الملاحظة التي ذكرتها أنت الآن تخطر ببال كل انسان •
ولتحقيق هذه الغاية انما اخترعوا تلك الآلة ، أعني المقصلة • أما أنا فقد
خطرت ببالى فى ذلك اليوم فكرة أخرى اذ تساءلت : « تُرى ألا يمكن
أن يكون هذا أسوأ ؟ » • قد تبدو لك فكرتى هذه باعثة على الضحك ، بل
قد تبدو لك غريبة عجيبة ، ومع ذلك فان فكرة كهذه يمكن أن تخطر
ببال أى انسان اذا هو أعمل خياله قليلاً • فكّر فى الأمر : لننظر فى
التعذيب مثلاً • ان الآلام والجروح والوجع الجسمى ، ان هذا كله يذهل
النفس عن عذابها وينسيها ما قد تكابده من هول ، فلا يتألم المرء عندئذ
الا من الجروح الى أن يموت منها • والألم الرئيسى ، والألم الذى هو
أشد الآلام قوة قد لا يكون ألم الجروح ، بل الألم الذى ينشأ عن يقين

المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ، ثم الآن فوراً ، ستترك روحه جسدها ، وأنه لن يكون بعد تلك اللحظة انساناً ، وأن هذا أكيد ، أنه « أكيد » خاصة • فحين يضع المرء رأسه تحت المصصلة البتارة ، وحين يسمع انزلاقها فوقه ، فى ربع الثانية ذاك ، انما يشعر المرء بالخوف الاكبر • هل تعلم أن هذا الذى اقله ليس مستمداً من الخيال فحسب ؟ لقد ذكره كثيرون • وانى لأبلغ من قوة الاقتناع به أتتى سأقول لك رأيى فى هذا الأمر صريحاً كل الصراحة • أنا أرى أن قتل انسان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينه وبين الجريمة نفسها • ان قتل قاتل افطع كثيراً من جريمة القتل التى ارتكبتها ذلك القاتل • ان الانسان الذى يقتله القتل ، اذ يذبحونه ليلاً فى غابة أو غيرها ، يظل الى آخر لحظة يأمل أن ينجو • يروى الناس عن مقتولين أنهم ظلوا ، بعد حزنٍ رقابهم ، يأملون ويحاولون الفرار ويتضرعون سائلين الشفقة عليهم والرافة بهم • أما فى الاعدام فان الأمل الأخير ، الأمل الذى يجعل احتمال الموت أسهل عشر مرات يُنتزع منك « حتماً » • ان صدور الحكم واستحالة الافلات منه هما اللذان يجعلان العذاب رهيباً فظيماً • صدقنى : ليس فى الدنيا عذاب أشد هولاً من هذا العذاب • لو أخذت جندياً فوضعت فى قلب المعركة أمام فوهة المدفع ، ثم أطلقت عليه النار ، لظل يحتفظ بالأمل الى آخر لحظة • أما اذا قرأت لهذا الجندى نفسه قراراً يحكم عليه بموت « مؤكد » ، فان هذا الجندى سيفقد عندئذ عقله ، أو سيجهش باكياً • من ذا الذى قرر أن الطبيعة الانسانية تستطيع أن تحتل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوى الى الجنون ؟ فىم ايقاع أذى يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم ؟ ربما كان يوجد فى هذا العالم انسان حُكم عليه بالموت ، وشُرع فى تعذيبه ذلك التعذيب ، ثم قيل له أخيراً : « امض فقد صدر عفو عنك ! » * • ان فى هذا الانسان أن

يحكى لكم وأن يقص عليكم • المسيح نفسه قد تكلم أيضاً عن هذا العذاب ،
عن هذا الخوف ! لا ، لا يجوز أن يعامل كائنٌ إنسانى معاملةً كهذه
المعاملة !

فهم الخادم الشيء الأساسى الذى يعبر عنه كلام الأمير ، رغم أنه
ما كان له أن يستطيع التعبير عنه كما عبر عنه الأمير • نعم ، لقد فهم ،
وكان ذلك واضحاً فيما ظهر على وجهه من علائم التأثر والشفقة والحنان •
وقال للأمير :

— اذا كنت ترغب فى التدخين رغبة قوية هذه القوة ، ففى وسعك
أن تدخن ، ولكن اعمل بسرعة ، اذ ما عساي أصنع اذا طُلبتَ فكنتَ
غائباً ! اسمع : هناك ، تحت السلم ، هل ترى الباب ؟ افتح الباب وادخل ،
فترى على اليمين حجرة صغيرة ، ففى إمكانك أن تدخن فى تلك الحجرة
الصغيرة • ولكن لا تنس أن تفتح الطاقة ، فالتدخين هنا مخالفة ...

ولكن الوقت لم يتح للأمير أن يمضى الى تلك الحجرة الصغيرة ،
فقد دخل الى الغرفة شاب يحمل بيده أوراقاً ، فهبَّ الخادم يأخذ عنه
فراءه • وألقى الشاب على الأمير نظرة مواربة •

تكلم الخادم فقال بلهجة من يفضى بسر ، دون كلفة :

— هذا يا جبريل آرداليوتش سيدٌ يقول انه الأمير ميشكين ، قريب
الجنرالة • لقد وصل من الخارج ونزل من القطار مع هذه الصرة •
ولكن ...

لم يستطع الأمير أن يسمع تمة الكلام ، لأن الخادم أخذ يتكلم
بصوت خافت جداً • وكان جبريل آرداليوتش يصفى باتباه ، ويلقى
على ميشكين نظرات تفيض استطلاعاً وفضولاً • وكفَّ عن الاصغاء
أخيراً ، واقترب من الأمير بسرعة ، فسأله بتعجب كبير وكياسة عظيمة :

– أنت الأمير ميشكين ؟

انه شاب وسيم الطلعة جداً ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر هو أيضاً ، أشقر اللون ، رشيق القوام ، أميل الى الطول ، له لحية صغيرة جداً على طريقة نابوليون الثالث ، وجهه يدل على ذكاء ، ويمتاز بجمال . ولكن ابتسامته مفرطة فى الرقة على كونها محببة لطيفة ، وهى تكشف عن أسنان منضودة كاللؤلؤ مفرطة فى الكمال والانساق . أما نظراته فانها رغم كل ما فيها من بشاشة وبراعة ظاهرة ، كانت تتميز بكثير من اللاحاح ، وكان فيها كثير من التدقيق والبحث والتقصى .

« أغلب الظن أن هذا الشاب لا تكون له هذه النظرة نفسها حين يخلو الى نفسه ، ولعله لا يضحك قط » . ذلك كان شعور الأمير .

كرر ميشكين ، بسرعة ، كلَّ ما سبق أن قاله للخادم ، وما سبق أن قصَّه على روجيين قبل ذلك . فكان جبريل آرداليوتش فى أثناء ذلك يبدو كمن ينبش ذكرياته . ثم سأله :

– أأنت أنت الذى كتبت الى اليزابت بروكوفينا فى العام الماضى ، أو فى وقت أحدث ، من سويسرا ، فيما أظن ؟
– نعم أنا .

– اذن أنت هنا معروف ، ولا شك أنهم يتذكرونك . هل تريد أن تقابل صاحب السعادة ؟ سأبلغه وصولك . بعد قليل يخلو . ولكن كان ينبغى لك ... كان يلقى أن تكون فى الصالون ...

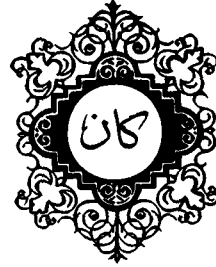
– لماذا بقى السيد هنا ؟

– قلت لك . هو نفسه أراد ذلك وأصرَّ عليه !

وفى تلك اللحظة فُتِحَ باب المكتب فجأة ، فخرج منه ضابط يتأبط
حقيبة أوراق • كان الضابط يتكلم بصوت عالٍ ، ويكثر من التحيات •
وصاح صوت من آخر المكتب ينادى :
- أنت هنا يا جانبا ؟ * تعال اذن ...

أوما جبريل آرداليوتشش للأمير بحركة خفيفة من رأسه ، وأسرع
يدخل المكتب • وبعد دقيقتين فُتِحَ الباب من جديد ، وسُمع صوت جبريل
آرداليوتشش ، الرنان المتودد ، يقول :
- تفضل فادخل يا أمير !

الفصل الثالث



الجنرال ايفان فيدوروفتش ايباتشين واقفاً في وسط
مكتبه ينظر الى دخول الأمير باستطلاع شديد
وفضول قوى ؛ حتى لقد خطا للقائه خطوتين ؛
واقترب الأمير وقدّم نفسه •

قال الجنرال :

- حسن جداً • فى أى شىء أستطيع أن أخدمك !

قال الأمير :

- ليس لى الآن أى أمر مستعجل • وليست غايتى من هذه الزيارة
الا التعارف • لا أحب أن أزعجك • انتى لا أعرف اليوم الذى تستقبل
فيه ، ولا أعرف العادات التى تأخذ نفسك بها ••• وقد جئت من محطة
القطار الى هنا رأساً ••• وأنا قادم من سويسرا •••

ابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة ، لكنه فكّر فأسرع يكظمها • ثم
فكّر مزيداً من التفكير ، ففضّ عينيه وعاد يتفحص الزائر من القدمين
الى الرأس ، ثم أشار له الى كرسي يجلس عليه • وجلس هو نفسه
متحياً بمض التحى ، والتفت نحو الأمير مستطعماً نافذ الصبر • وكان
جانبا واقفاً فى ركن من المكتب يستتل أوراقاً •

أجاب ايباتشين قائلاً :

- لا يتسع وقتى عامةً للتعارف مع أناس جدد ، ولكن لما كان لك هدف حتماً فاتنى ...

قاطعهُ الأمير يقول :

- كنت أحس سلفاً أنك سوف تنسب الى زيارتي منفعة أبتغيها ، أو فائدة ألتبسها • لكننى أحلف لك أنتى لا هدف لى الا مسرتى بمعرفتك •

- المسرة متبادلة طبعاً ، ولكن المسرة ليست كل شىء دائماً ، فقد يكون هنالك أعمال ... ثم انتى لم أتوصل الى ادراك الصلة التى يمكن أن تربطنا والعلاقة التى يمكن أن تجمع بيننا ... أقصد : لست أدرك السبب الذى حملك على أن ...

- ما من صلة أو علاقة ... ذلك أمر لا جدال فيه ... وليس هناك أشياء كثيرة تجمعنا • فلأن أكون من أسرة الأمراء ميشكين ولأن تنتمى زوجتك الكريمة الى هذه الأسرة نفسها ، فليس هذا سبباً كافياً بطبيعة الحال ... انتى أدرك ذلك حق الادراك • ومع هذا فذلك هو السبب الوحيد الذى دفعنى الى المجئ • لقد تركت روسيا منذ أربع سنين ، وحين رحلت لم أكن مالكاً جميع قواى العقلية • كنت لا أعرف عن الحياة شيئاً • وحتى الآن لا أعرف عنها شيئاً كثيراً • أنا فى حاجة الى معرفة أناس ذوى قلوب كريمة • على سبيل المثال : هناك الآن قضية يجب أن أحلها ، ولا أدرى من أى طرف أبدأ • قلت لنفسى منذ أن بلغت برلين : « هؤلاء أقرباء لى تقريباً ، فسأبدأ اذن بهم ، فلعلنا نستطيع أن ينفع بعضنا بعضاً ؛ وهؤلاء أناس ذوو قلوب كريمة » • وقد ذكر لى ان لك قلباً كريماً عطوفاً •

قال الجنرال مبهوتاً :

- كلام لطيف • هل أستطيع أن أعرف أين نزلت ؟

- حتى الآن لم أنزل فى مكان !

- اذن ، حين تركت القطار ، جئت الى عندى رأساً ، هه ؟ و ...

جئت مع أمتعتك ؟

- ليس لى الا صرّة صغيرة بها بعض الملابس ، ولا شئ غير ذلك •

وأنا أحملها بيدى عادةً • يتسع الوقت ، من الآن الى المساء ، لاستئجار غرفة فى فندق •

- فى نيتك اذن أن تستأجر غرفة ؟

- نعم ، طبعاً •

- ظننت من أقوالك أنك كنت تنوى الإقامة عندى •

- كان يمكن أن أفعل ذلك لو دعوتنى • ومع هذا أعترف لك بأننى

ما كنت لأبقى ولو دُعيت ، ما كنت لأبقى بدون سبب • ذلك طبع فى •

- اذن فقد أحسنت لأننى ما دعوتك ، ولا أدعوك • كلمة أخرى

يا أمير ، من أجل أن نضع الأمور فى نصابها • ما دمنا قد اتفقنا على أنه

لا مجال للكلام عن قرابة بيننا ، رغم أن هذه القرابة كان يمكن أن

تشرفنى طبعاً ، فانه يترتب على هذا ...

- يترتب على هذا أنه لم يبق لى الا أن أنهض وانصرف •

فان الأمير وهو ينهض ويضحك من قلبه ، رغم كل ما فى هذا

الوضع من حرج وارتباك • وتابع كلامه يقول :

- وأؤكد لك ، يا جنرال ، أنتى رغم قلة خبرتى ورغم جهلى
بالمعادات هنا ، كنت أعلم حق العلم أن الأمور ستجرى على هذا النحو
تماماً • على كل حال ، ربما كان هذا أفضل ••• ثم ان رسالتى لم يُرَدَّ
عليها ••• طيب ••• استودعك الله ، واغفر لى ازعاجك •

كانت نظرة الأمير فى تلك اللحظة تفيض لطفاً وبشاشة ، وكانت
ابتسامته خالية كل الحلو من أية عداوة ، وحتى من أية عداوة خفية
مستسرة ، فما كان من الجنرال الا أن توقف ، وأخذ ينظر الى الأمير
بعين جديدة وأصبح وجهه يعبر تعبيراً يختلف كل الاختلاف عن تعبيره
قبل ذلك • وقد تحقق له هذا التحول فى طرفة عين •

قال الجنرال للأمير بصوت يوشك أن يكون قد تغير تغيراً كاملاً :

- اسمع يا أمير : أنا فى الواقع لا أعرفك ؛ وربما كانت زوجتى
من جهة أخرى تحب أن ترى الرجل الذى يحمل اسم الأسرة الذى
تحمله هى ••• فانتظر اذا شئت واذا كان يتسع وقتك •

أجاب الأمير وهو يسرع فيضع قبعة المبتلة المدوّرة على المائدة :

- هوه ! وقتى يتسع كل الاتساع ! وقتى خال كله ! أعترف لك
بأننى كنت أقدرّ فعلاً أن الزابت بروكوفينا قد تتذكر أننى كتبت اليها •
منذ قليل ، أثناء انتظارى فى حجرة المدخل ، خيّل الى خادمك أنتى جئت
ألمس بعض المساعدات • لاحظت ذلك واضحاً • ولا بد أن أوامرك
شديدة فى هذا الصدد • أؤكد لك أنتى ما جئت لهذا ، واننى لم أت
الا للتعارف حقاً • لكنى أخشى أن أكون قد ضايقتك ، وهذا يقلقنى •

قال الجنرال وهو يتبسم ابتسامة فرحة :

- طيب يا أمير ، اذا كان باطنك كظاهرك ، اذا كنت كما تبدو فعلاً ،
ربما كانت معرفتك تسر وتبهج • ولكنك ترى طبعاً أنتى أمرؤ مشغول •

سأضطر حالاً الى العكوف على بعض الأوراق أدرسها وأوقعها ، وعلى
بعد ذلك أن أذهب الى صاحب السمو ، ثم أمضي الى مكتبي . معنى ذلك
أننى رغم ابتهاجى الشديد برؤية أناس لطف محبين ... أى ... ولكن
... أقصد أننى على ثقة بأن تربيتك المستازة لا بد أن ... ما سنك
يا أمير ؟

— ستة وعشرون عاماً .

— حقاً ؟ كنت أحسبك أصغر سنّاً من ذلك بكثير .

— نعم ، يقال اننى أبدو شاباً صغير السن . فيما يتعلق بعدم ازعاجك ،
سأحاول ألا أزعجك . لأننى أكره أن أزعج ... ويخيّل الى آخرى
أنا مختلفان فى الظاهر اختلافاً شديداً ... لأسباب كثيرة ، وأنا ليس
بيننا أمور مشتركة كثيرة ؛ رغم اننى فى الواقع لا أصدّق هذا من جهتي ؛
فكثيراً ما يكون الاختلاف ظاهرياً ، وكثيراً ما يكون نمة فى حقيقة الأمر
نقاط مشتركة ... ان الكسل هو الذى يدعونا الى التسرع فى تصنيف
الناس والتفريق بينهم قبل أن نجد ما يحمل على ذلك أو يفرضه . أظن
أننى أصبحت مضجراً مملاً ، أليس كذلك ؟ انك تبدو ...

— كلمة أخرى : هل تملك بعض ثروة على الأقل ؟ لعلك تأمل أن
تجد عملاً ؟ اغفر لى أننى أكلّمك بهذه الفجاجة ...

— أرجوك ، بالعكس ... اننى أفهم اهتمامك هذا وأقدره حق
قدره وأشكره لك . لا أملك الآن أية ثروة ، وليس لى أى مركز ،
لكننى سأحتاج الى هذا طبعاً . ان المال الذى كان معى الى الآن ليس مالى .
ان شنايدر ، الأستاذ الذى كان يعالجنى ويعلمنى بسويسرا ، هو الذى
أعطانى ذلك المال . وقد أخذت منه ما يكفينى للرحلة بلا زيادة ولا نقصان ،

فلم يبق معي الآن الا بضعة كويكات • في ذهني أمر من الأمور ، وأنا
في حاجة الى نصائح ، ولكن ...
قاطعہ الجنرال سائلاً :

- قل لي : ممّ تنوى أن تعيش بانتظار ذلك ، وما هي مشروعاتك ؟
- أريد أن أعمل ، بطريقة أو بأخرى ...

- ها ... حقاً انك لفيلسوف • قل لي : هل تعرف لنفسك موهبة
من المواهب ؟ هل تعرف لنفسك كفاءات يمكن أن تهنيء لك خبز يومك ؟
مرة أخرى أعتذر عن ...

- لا تعتذر ! ما أحسب أن لي موهبة أو كفاءات خاصة • بالعكس :
أنا رجل مريض ، ولم أتابع تحصيلي • أما عن خبز يومي ، فيخيّل اليّ ..

قاطعہ الجنرال مرةً أخرى ليزحمة بالأسئلة • فقصّ الأمير قصته
مرة أخرى • واتفق أن كان الجنرال قد سمع عن المرحوم بافلشتيف ،
حتى لقد عرفه شخصياً • لم يستطع الأمير أن يشرح لماذا اهتم بافلشتيف
بتربيته وتعليمه ، ولم يزد على أن قال : لعل ذلك لم يكن الا تكريماً
لذكرى صداقته القديمة بالمرحوم أبيه • لقد تيم الأمير منذ طفولته
الغضة ، وقضى سنى حياته الأولى بالريف ، لأن حالته الصحية كانت تحتاج
الى فضاء واسع وهواء نقي • وعهد به بافلشتيف الى قريبات له عجائز كن
يعشن في أراضيه •

وكانت له في أول الأمر خادم تشرف على تربيته ، ثم أصبح له بعد
ذلك مرب يتولى تعليمه • ورغم أنه يتذكر كل شيء تذكراً واضحاً قوياً ،
فانه لم يستطع أن يقدم تعليلات كافية وتفسيرات مقنعة ، لأنه - على حد
تعبيره - لم يكن في ذلك الألوان يدرك الأشياء ادراكاً جيداً • وقد جعلته

نوبات مرضه المتكررة يصير الى البلاهة ، فهو الآن أبله (قال الأمير كلمة أبله ») ♦

وروى الأمير أخيراً أن بافلتشف كان قد التقى فى برلين بالأستاذ السويسرى شنايدر ، الاختصاصى فى هذا النوع من الأمراض ♦ وكان للأستاذ شنايدر فى مقاطعة فاليه بسويسرا مستوصف يداوى فيه المرضى بطريقة خاصة به ، أساسها الرياضة البدنية وحمامات الدوش الباردة ؛ وكان أيضاً يداوى البله والمجانين ، ويعنى بتعليمهم ، ويهتم بتثبتهم الروحية خاصة ♦ وقد أرسل بافلتشف الأمير الى شنايدر منذ خمس سنين ♦ ومات هو بعد ذلك بثلاثة أعوام ، دون أن يتخذ أى تدبير ♦ ولكن شنايدر احتفظ بالأمير وظل يعالجه طوال هذين العامين الأخيرين ♦ ولم يتوصل الى شفائه من مرضه ، لكن العلاج كانت له نتائج حسنة ♦ ثم قرر شنايدر ، تلبيةً لرغبة الأمير نفسه ، وعلى أثر حادث جديد ، أن يعيده الى روسيا ♦

ظهرت على الجنرال دهشة جديدة ، وسأله :

– اذن ليس لك فى روسيا أحد ؟ ليس لك فيها أى قريب ؟

– حتى الآن ليس لى أحد ، ولكننى آمل ثم انتهى قد تلقيت رسالة ♦

قاطع الجنرال قائلاً دون أن يكون قد سمع الجملة الأخيرة التى تشتمل على اشارة الى الرسالة :

– ولكن لا بد أنك تعلمت شيئاً ما ، على الأقل لا بد أنك تعلمت مهنة من المهن ان مرضك لن يمنعك من أن يكون لك وظيفة ما لا أقول وظيفة صعبة بل وظيفة ما فى ادارة ما ♦
– طبعاً لا يمنعنى مرضى من ذلك ♦ أما عن الوظيفة فانتى أود كثيراً

أن يكون لى وظيفة • اننى أحب كثيراً أن أعرف ما أصلح له وما أقدر عليه • لقد ظللت أدرس وأتعلم طوال السنين الأربع الماضية • صحيح أن دراستى لم تكن منتظمة مطردة ، لأن استاذى كان مضطراً أن يستعمل فى تعليمى منهجاً خاصاً ، لكننى استطعت فى الوقت نفسه أن أقرأ كتباً روسية كثيرة •

– كتباً روسية ؟ فأنت اذن تعرف قواعد الاملاء وتستطيع أن تكتب بدون أخطاء •

– آ ••• طبعاً ••• مؤكداً •••

– عظيم • وخطك ؟

– خطى ممتاز ؟ بل أستطيع أن أقول من هذه الناحية ان لى موهبة • أنا خطاط فعلاً •

وأضاف الأمير يقول بحماسة :

– انتظر ••• سأكتب لك شيئاً على الفور من قبيل التجربة •

– افعل ! افعل ! بل ان هذا سيكون مفيداً جداً • لقد أحيت فيك حسن ارادتك وهمتك يا عزيزى الأمير • حقاً انك اللطيف كل اللطف •

– ما أجمل أدوات مكتبك ! ما أحسن هذه الأفلام ، وهذه الريش ••• ما أروع هذا الورق ! ما أحسن سمكه !••• ويا لها من حجرة مكتب فخمة ! اسمع : اننى أعرف هذا المنظر • هو مشهد من سويسرا • أنا على يقين من أن الرسّام الذى صوّر هذا المنظر قد نقله عن الطبيعة • أنا واثق بأننى أعرف هذا المكان : هو فى مقاطعة أورب •••

– جائر جداً ، رغم اننى اشتريت اللوحة من هنا • يا جانبا ، اعط الأمير ورقاً • اليك ريشاً وورقاً • تفضل اجلس الى المائدة الصغيرة •

والنفت الجنرال نحو جانبا فرآه يخرج من حقيبة أوراقه صورة فوتوغرافية كبيرة ويمدها الى ايباتشين • فسأله الجنرال :
- ما هذا ؟ آ ... هذه ناستاسيا فيليوفا ! أهى التى أرسلت اليك الصورة ؟

كذلك سأله متدفقا فى الكلام ، وقد بدا عليه استطلاع قوى وفضول شديد •

أجابه جانبا :
- أعطيتها منذ قليل ، حين ذهبت ' أقدم اليك تمنياتك • لقد طلبتها منها منذ مدة طويلة • تُرى أليس فى هذا الماع منها الى أنى جثتها خالى الدين لا أحمل لها أية هدية فى مثل هذا اليوم ؟
أضاف جانبا جملة الأخيرة هذه وهو يتسم ابتسامة كريهة • فقاطعه الأمير بلهجة جازمة :

- لا ، لا ، حقا ان لك تفكيراً غريباً ! أهى امرأة من تلك النساء التى تلمح تلمح ، وتغمز وتلمز ؟ أنت تعرف حق المعرفة أنها ليست امرأة تشد منفعة وتلمس ربحاً • ثم ما عسى تكون الهدايا التى يمكن أن تهديها اليها ؟ لامرأة مثلها لا يقدر المرء الا آلاف الروبلات ! كان فى وسعك طبعاً أن تقدم اليها صورتك أنت أيضاً • بالمناسبة : ألم تطلب منك صورتك حتى الآن ؟

- لا ، لم تطلبها حتى الآن ، وقد لا تطلبها فى يوم من الأيام • أنت غير ناسٍ سهرة اليوم طبعاً يا ايفان فيدوروفتش ، أليس كذلك ؟ ذلك أنك واحد من ضيوف الشرف •

- طبعاً طبعاً ، غير ناسٍ ... غير ناسٍ ... سأحضر حتماً ... هو عيد ميلادها ... عيد ميلادها الخامس والعشرين ... هم ... لا بأس يا جانبا ، سأفضى اليك بسر ، فأصغ الى : لقد بذلت لى ولآنانازى

ايفانوفتش وعداً بأن تعلن قرارها هذا المساء • أكون أو لا أكون • ضع هذا في الحساب ، ولا تنسه !

اضطرب جانيا فجأة ، حتى لقد امتقع لونه قليلاً • وسأل بشيء من اختلاج في صوته :

- هل قالت هذا حقاً ؟

- قطعت على نفسها عهداً منذ ثلاثة أيام • لقد بلفنا كلانا من الالحاح واللجاجة أنها أذعنت آخر الأمر • لكنها رجتاً ألا نذكر لك شيئاً من ذلك قبل أن تحين الساعة •

كان الجنرال يتفرس في جانيا بنظرة فاحصة ، وكان واضحاً أن اضطراب جانيا يسوءه •

قال جانيا مضطرباً متردداً :

- لاحظ يا ايفان فيدوروفتش أنها تركت لي حرية اتخاذ القرار كاملة الى أن تتخذ قراراً بنفسها • ومن المتفق عليه أن تبقى الكلمة الأخيرة وأن يبقى القول الفصل لي أنا حتى في تلك الحالة •

صاح الجنرال يقول مروّعاً مذعوراً :

- ولكن هل تُراك ••• هل تُراك ذكرت أن •••

- لم أقل شيئاً •

- أرجوك ، ما الذي تريد أن تخلص اليه ؟

- أنا لا أرفض • لعلني أخطأت التعبير •••

قال الجنرال غاضباً دون أن يحاول كظم استيائه وكتمان امتعاضه :

- لن ينقصنا الا أن نرفض ! يا صديقي ، لم تعد المسألة عندنا أن

« لا » ترفض • وانما يجب عليك أن تظهر الغبطة والامتنان والسعادة الكاملة في اللحظة التي تعلن فيها رأيها • وما الذي يجرى في بيتك ؟
- في بيتي ؟ في بيتي يجرى كل شيء وفق مشيئتي وارادتي • أبى وحده يُجنُّ جنونه ، على عادته • لقد أصبح في منتهى الدناءة • وأصبحت لا أكلمه • لكنى ما زلت أقسو عليه وأغلظ له • ولولا أمى لطرده من المنزل • أمى ما تنفك تبكى طبعاً • وأختى غاضبة غضباً شديداً ، لكننى أعلنت لهما اعلاناً قاطعاً واضحاً أننى سيد مصرى ، وأننى لا أطلب شيئاً في البيت الا أن أٌطاع • على كل حال ، هذا ما أبلغته أختى بحضور أمى • قال الجنرال شارد الذهن وهو يهز منكبيه ويباعد قليلاً بين ذراعيه :

- أما أنا يا عزيزى فما زلت لا أفهم !! لا شك أنك تتذكر أن نينا ألكسندروفنا ، حين زارتنى في الأيام الأخيرة ، قد أخذت تتحب وتشن ، فلما سألتها : « ماذا بك » ، فهمت أن الأمر الذى يؤلمها هو ما يهددهن من « تُلطخ الشرف » بالعار فيما يبدو • فأين تُلطخ الشرف في هذا كله ؟ • وددت لو أعرف أين تُلطخ الشرف في هذا ؟ من ذا الذى يستطيع أن يأخذ على ناستاسيا فيليوفنا أى شيء ، أو أن يروى عنها أى سوء ؟ هل يمكن أن تؤاخذ على العلاقة التى بينها وبين توتسكى ؟ ألا ان هذا يكون سخفاً كاملاً ، لا سيما اذا نظرنا الى الظروف الخاصة التى تحيط بالأمر • قالت لى عندئذ : « هل تدع لها أن تقترب من بناتك ؟ » • هه ! سمعت ؟ غريب أمر نينا ألكسندروفنا ! ان الأمر مع ذلك واضح ، كيف لا تدرك ...

- كيف لا تدرك وضعها ؟

بهذا أكمل جانبا جملة الجنرال ليخلصه من ارتبাকে •

ثم تابع كلامه فقال :

- انها تدرك وضعها حق الادراك • لا تؤاخذها ! ثم اننى قد
أسرعت ألقنها درساً حتى تتعلم ألا تتدخل فى شئون الآخرين • على كل
حال ، ما يزال يسود بيتنا شيء من الهدوء ، لأن الكلمة الأخيرة ما قيلت
بعد • غير أن الصاعقة ستفجر • فاذا قيلت الكلمة الأخيرة اليوم ، انطلق
كل شيء من عقاله •

سمع الأمير ذلك الحديث كله ، رغم اكبابه فى ركنه على عمله فى
الكتابة بالخط الجميل •

فلما أنجز عمله اقترب من المائدة ، ومدّ الورقة • ودمد يقول بعد
أن أنعم النظر فى الصورة باتباه وتشوق :

- أهذه اذن ناستاسيا فيليوفا ؟

ثم أضاف يقول بحرارة :

- انها رائعة الجمال حقاً !

كانت الصورة الفوتوغرافية تظهر قسماً امرأة ذات جمال نادر فذ
فى الواقع • والمرأة ترتدى ثوباً من حرير أسود ، ثوباً أنيقاً رقيقاً خالياً
من البهرج والزخرف ؛ شعرها كستائى واضح ، قد صفّف تصفيفاً
بسيطاً فى تسريحة من الداخل ؛ عيناها دكاوان عميقتان ؛ فى جبينها
امارات تفكير ؛ وجهها يعبر عن اندفاع عاطفى ، ويعبر عن شيء من تعالٍ
وكبرياء ، وهو نحيل ، ولا بد أن يكون شاحباً •

دُهِش جانباً والجنرال من كلام الأمير ، فالتفتا نحوه •

وسأله الأمير :

- كيف ؟ ناستاسيا فيليوفا ! أأنت تعرف ناستاسيا فيليوفا ؟

فأجاب الأمير :

- نعم ، أنا في روسيا منذ أربع وعشرين ساعة بل أقل . ومع ذلك أعرف هذه المرأة التي لا يضارع جمالها جمال .

وأسرع يروى لقاءه مع روجوين ، وحكى القصة التي سمعها منه .
قال الجنرال قلقاً ، بعد أن أصغى الى الأمير بانتباه شديد ، قال وهو يتجه الى جانبا بنظرة مستفهمة سائلة :

- يا للنبا !

وجمجم جانبا يقول مضطرباً بمض الاضطراب هو أيضاً :
- هي حكاية طيش لا أكثر ! ابن تاجر يلهو ويقصف ! سبق أن سمعت عنه .

عاد الجنرال يتكلم فقال :

- وأنا سمعت عنه أيضاً يا عزيزى ! ان ناستاسيا فيليوفنا قد روت القصة كلها بعد حكاية القرطين تلك . ولكن الأمر الآن مختلف . ربما كان الأمر الآن أمر مليون . . . وهناك أيضاً ذلك الوله . . . هو وله خسيس طبعاً ، لكنه وله مع ذلك . ونحن نعرف ما قد يفعله أمثال هؤلاء السادة بغير حرج حين يسكرون .

وختم الجنرال كلامه مفكراً حالماً يقول :

- هم . . . أرجو أن لا يؤدي هذا الى حادث ما ! . . .

قال جانبا وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- هل المليون هو ما تخشاه ؟

- أما أنت فلا ، طبعاً .

قال جانبا فجأة يسأل الأمير :

- قل لى يا أمير : ماذا كان شعورك تجاهه ، أحسست أنه رجل جاد أم أحسست أنه وغد حقير لا أكثر ؟ ما رأيك الشخصى ؟
أحس جانبا باحساس غريب وهو يلقى هذا السؤال ، كأن فكرة جديدة فريدة قد أنارت ذهنه ، فأخذت عيناه تسطمان بومضاتٍ من نفاذ الصبر •

وكان قلق الجنرال صادقا ساذجا ، فالتفت هو أيضاً نحو الأمير ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يتوقع من جواب الأمير أشياء كثيرة •
أجاب الأمير :

- لا أدرى ماذا أقول لك • لقد بدا لى على كل حال أنه شاب مشبوب الهوى جامع العاطفة الى حد المرض • ثم انه هو نفسه يشعر من يراه بأنه مريض • ومن الجائز جداً أن تنكس صحته منذ أيامه الأولى ببطرسبرج ، ولا سيما اذا أخذ يشرب •

هتف الجنرال يقول متشبهاً بهذه الفكرة :

- ها ... هذا رأيك اذن ؟

- نعم ، هذا ما خيّل الى •

قال جانبا وهو يضحك ساخراً :

- على كل حال ، لا تحتاج مغامرة كهذه الى بضعة أيام لكى تنفجر ، حتى لقد نسمع جديداً قبل هذا المساء •

قال الجنرال :

- همّ ... طبعاً ... هذا جائز ... لكن كل شىء رهن اذن بما يخطر ببالها هى !

- انك لتعرف حق المعرفة كيف تكون هى فى بعض الأحيان !

صاح الجنرال من جديد وقد استولت عليه حيرة شديدة ، وبليلة
كبيرة :

- ماذا تريد أن تقول ؟ اسمع يا جانبا ، أرجوك ملحاً ألا تعاكسها
وألا تعارضها اليوم كثيراً • بالعكس : حاول أن تكون ••• أقصد •••
كن لبقاً لطيفاً كيئساً ••• هم ••• لماذا تلوى فمك هكذا ؟ اسمع
يا جبريل أرداليوتش : أن لنا أن نضع الأمور في نصابها ، أن لنا ذلك !
لماذا نحتمل هذا العناء كله ؟ انك لتدرك حق الادراك أنني ، فيما يتعلق
بمصلحتي الشخصية في هذه القضية كلها ، مغطى منذ زمن طويل •
ولسوف أخرج منها بما يناسبني ويلائمني ، بطريقة أو بأخرى • لقد
اتخذتوسكى قراراً لا رجعة عنه ولا راداً له • فأنا أيضاً هادئ اذن كل
الهدوء ، مرتاح كل الارتياح ، مطمئن كل الاطمئنان • واذا كنت ما أزال
أرغب في شيء ، فهو خيرك أنت • فكّر ملياً : ألسنت تق بي ؟ لا سيما
وأنتك رجل ••• رجل ذكي • ثم انني قد وضعت أمل فيك •
وفي الوضع الراهن ، في الوضع الراهن •••
- هذا هو الشيء الرئيسي !

كذلك قال جانبا يساعد الجنرال في اتمام جملته مرة أخرى •
والتوت شفتا الفتى على ابتسامة ساخرة مسمومة أصبح لا يحاول
حتى اخفاءها • وكانت نظراته المحمومة تحدق الى عيني الجنرال ، كأنه
يريد أن يقرأ الجنرال فيها كل تفكيره • فاصطبغ وجه الجنرال بحمرة
شديدة ، وغضب فاستأنف كلامه وهو ينظر الى جانبا بقسوة :

- نعم ، الذكاء هو الشيء الرئيسي • ألا انك لفريب الأطوار
يا جبريل أرداليوتش ! لكأنك مبتهج بوصول هذا الشاب التاجر ابتهاجك
بحل يهبط من السماء ! كان يجب في هذه القضية أن تبرهن على ذكاء

منذ البداية • كان يجب عليك أن تفهم الموقف فهماً سليماً ، وأن تقدر
الوضع تقديراً صحيحاً ••• و ••• و ••• وكان يجب عليك أن تعمل
من الطرفين ، من الجهتين ••• مع التزام الاستقامة والصراحة ••• والا
فلا أقل من التنبيه والتحذير ، حتى لا يتورط الآخرون ، ولا يتعرضوا
لشيء • ولقد كان في وقتك متسع لهذا • وما يزال في وقتك متسع على
كل حال (هنا رفع الجنرال حاجبيه على نحو مفهوم) ، رغم أنه لم يبق
الا بضع ساعات • هل فهمت عني ؟ هه ؟ أتريد أم لا ؟ اذا كنت لا تريد
فعلبك أن تقول ذلك ، وأن تقوله في الوقت المناسب ! ما من أحد يريدك
على غير ما تحب يا جبريل أرداليوتش ، ما من أحد يدفعك الى فخ ، اذا
كان حقاً أنك لا ترى في هذا الا فخاً •

قال جانيا بصوت خافت ، ولكن بلهجة ثابتة :

- بل أريد !

وخفض عينيه ، وصمت مظلم الوجه مربرد الأساير •

رضي الجنرال وارتاح • لقد غضب منذ قليل واندفع ، أما الآن فكان
واضحاً أنه نادم على غلوه في المضي الى ذلك الحد • والتفت نحو الأمير
فجأة ، وقد بدا في وجهه قلق : لقد شهد الأمير الحديث ، وسمع كل شيء ••

لكن الجنرال لم يلبث أن استرد هدوءه • ان نظرة واحدة الى الأمير
كانت كافية لاعادة الثقة والطمأنينة الى نفسه •

هتف الجنرال يقول وهو ينعم النظر في نموذج الخط الذي مدّه
اليه الأمير :

- عظيم ، عظيم ! خط رائع ! آية من آيات الفن ! آية نادرة ! انظر
يا جانيا ، انظر ! يا لها من موهبة !

كان الأمير قد كتب على الورقة السميكة الفاخرة ، بأحرف روسية من القرون الوسطى ، العبارة التالية :

« ان المطران الذليل بافنوس قد وقع هذا بخط يده » *

وقال الأمير شارحاً بحماسة كبيرة ، ولذة عظيمة :

- هذا توقيع المطران بافنوس نفسه ، نقلاً عن مخطوطة يرجع عهدها الى القرن الرابع عشر . كانت لهم فى الماضى توقييع جميلة ، مطارتنا وبطارقتنا جميعاً ! ما أعظم ما فيها من ذوق ، ومن عناية ، ومن صبر ! أليست عندك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال ؟ انظر : هنا قلّدت نموذجاً آخر من نماذج الخط : انه نموذج الخط المدوّر القائم الكبير ، الذى عُرف بفرنسا فى القرن الماضى ؛ حتى ان بعض الأحرف تكتب بأشكال مختلفة . هذه هى الكتابة العادية ، كتابة عامة الكتّاب ، وهى مستمدة من كتابة الخطاطين الأصليين (اقتنيت نموذجاً منها) . اعترفُ أن لها محاسنها . أنعم النظر فى هذه « الهاء » وهذه « الطاء » المدوّرتين القائمتين . لقد قمت أنا بنقل هذا الطراز الفرنسى من الخط الى الكتابة الروسية . كان ذلك عملاً صعباً جداً ، لكننى نجحت فيه . اليك نموذجاً آخر من الكتابة ، نموذجاً أصيلاً جداً ، فيه طرافة عظيمة ورشاقة مدهشة انظر فى هذه الجملة : « الاجتهاد يذلّل جميع الصعاب » . هذه كتابة روسية ، كتابة حكومية ، أو قل ان شئت انها كتابة حكومية عسكرية . بهذا الخط انما تكتب رسالة رسمية لشخصية خطيرة الشأن . وهو خط مدوّر قائم أيضاً ، على جانب عظيم من الأناقة والرشاقة ، يُطلق عليه اسم الكتابة « السوداء » . وهو خط يبدو حالك السواد فعلاً ، لكنه فى غاية الجمال . ان خطاطاً محترفاً لا يمكن أن يسمح لنفسه يوماً بهذه الزيادات الطفيفة ، هذه الذبول الصغيرة ، هل تراها ؟ ومع ذلك تستطيع أن تلاحظ أنها تضيف على الخط طابعاً خاصاً . ان المرء يقرأ فيها كل روح الكاتب

العسكري • يحس المرء أن هذا الكاتب العسكري يودُّ أن يرخي العنان
لخياله ، وأن موهبته تنادي به الى ذلك ، لكن الياقة العسكرية صلبة ، فهي
تقيده تقييداً شديداً • ان النظام العسكري يعبّر عن نفسه تعبيراً حلوّاً في
الخط • لقد خطف بصرى منذ مدة قصيرة نموذج من هذا النوع • تصوّر
أننى وقعت على ذلك النموذج فى سويسرا • واليك الآن مثلاً عادياً
مألوفاً للخط الانجليزى ، مثلاً صافياً نقياً للخط الانجليزى • لا أُرشق
منه ولا أحلى ! هو سحر كله : لؤلؤة ، جوهرة ! هو الكمال بعينه •
واليك خطأ هو تعديل لذلك الخط الانجليزى بالطريقة الفرنسية • لقد
أخذته من مندوب متجول لبيت من بيوت التجارة • هو الطراز الانجليزى
نفسه ، غير أن الأحرف المملأى فيه أشدّ بروزاً وأكثر سواداً • وهذا يدلّ
توازن النسب فوراً • لاحظ هذه الصفة أيضاً : ان الأحرف البضاوية
قد تبدلت هنا فصارت أكثر تدوراً ، كما أن الذبول فى هذا الخط مقبولة
غير مرفوضة • والذبول أشدّ المزلق خطراً بطبيعة الحال ، لذلك كان
لا بد للخطاط هنا من ذوق خارق يجنبه هذه المزلق ، ولكن اذا نجح
الخطاط فى هذه المحاولة فوجد الأبعاد السليمة والنسب الصحيحة ، حصل
عندئذ على خط لا يضارع ، خط يعشقه المرء عشقاً •

قال الجنرال ضاحكاً :

- عظيم ، عظيم ، انك مطلع على أدق الدقائق وألطف اللطائف !
لست يا صديقى خطاطاً فحسب ، بل أنت أيضاً فنان ، هه ؟ ما رأيك
يا جانبا ؟

أجاب جانبا موافقاً :

- شيء مذهش !

ثم أضاف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- حتى ان هذا يدل على موهبة عظيمة وبشّر بأن سيكون له مهنة محترمة !

قال الجنرال :

- اضحك ، اضحك ما شئت أن تضحك • انه يملك حقاً ما يؤهله لمزاولة مهنة ممتازة • هل تعرف ، يا أمير ، الى أية شخصية سنكلفك بالكتابة ؟ ان فى الامكان أن تعطى راتباً قدره خمسة وعشرون روبلاً فى الشهر ، بلا تردد •

ثم أضاف الجنرال قائلاً وهو ينظر فى ساعته :

- ولكن الساعة أصبحت الثانية عشرة والنصف • اسمع يا أمير ، لننتقل الى جوهر الموضوع ، فأنا فى عجلة من أمرى ، وقد لا تتاح لنا فرصة اللقاء مرةً أخرى اليوم • اجلس لحظة : سبق أن قلت لك اننى لن أستطيع أن أستقبلك فى أحيان كثيرة • ولكننى أرغب صادقاً فى أن أبذل لك بعض العون ، أن أبذل لك عوناً ضئيلاً هو القدر اللازم الذى لا بد منه ولا غنى عنه • أما فيما عدا ذلك فدبّر أمرك على النحو الذى يحلو لك ، وبالطريقة التى تراها مناسبة • سأجد لك وظيفة صغيرة فى المكتب ، عملاً ليس شاقاً مسرفاً فى المشقة ، ولكن سيكون عليك أن تجد وأن تجتهد • واسمع الآن ما سأقوله لك : ان صديقى الشاب جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ، الذى تراه ، والذى أعرفك به الآن ، يعيش مع أسرته ؟ وقد أعدت أمه وأخته فى شقتهم غرفتين مؤثنتين أو ثلاثاً ، فهما تؤجّران هذه الغرف مع الطعام والخدمة لأناس موصى بهم مشهود لهم بحسن الخلق • وأنا على يقين من أن نينا ألكسندروفنا ستقدّر توصيتى بك وشهادتى لك • هذا كنز بالنسبة اليك يا أمير ؟ فلا تعيش وحيداً ، بل تعيش فى حضن أسرة ان صح التعبير • وفى رأيى أنا أنه ليس من الخير لك أن تبقى وحيداً من اليوم الأول فى عاصمة مثل بطرسبرج • ان

نينا ألكسندروفنا ، أمّ جبريل آرداليونوفتش ، وباربارا آرداليونوفا ،
أخته ، هما سيدتان احترامهما عظيماً ، وأجلهما اجلالاً كبيراً .
ان نينا ألكسندروفنا هي زوجة آرداليون الكسندروفتش ، الجنرال المحال
على التقاعد ، الذى كان رفيقى فى الجيش ، لكننى قطعت جميع صلاتى به
لبعض الأسباب ، دون أن ينعنى ذلك من أن أكنّ له بعض الاعتبار
والاحترام ، اننى أشرح لك هذا كله يا أمير ، من أجل أن تفهم أننى
أوصى بك وأشهد لك بنفسى ، وأننى اذن أتحمّل التبعة . ان أجرة
المسكن ، مع الطعام والخدمة ، معتدل جداً ، وأنا أمل أن يكون راتبك
فى القريب كافياً للوفاء به كفاية تامة . صحيح أن المرء يحتاج أيضاً الى
بعض المال يضعه فى جيبه وينفق منه عند الحاجة ، لكننى ألفت نظرك
يا أمير ، دون أن أريد لك أن تغضب ، ألفت نظرك الى أن من الأفضل
لك ألا يكون فى جيبيك مال تنفق منه ، لا ولا أن تملك أى مال تضعه
فى جيبيك . ومع ذلك ، لما كانت حافظة نقودك خالية كل الحلو الآن ،
فاسمح لى أن أقدم اليك خمسة وعشرين روبلاً لنفقاتك الأولى .
وستحاسب فى المستقبل طبعاً ؛ وأعتقد أن لن تكون بيننا أية صعوبة ، اذا
كنتَ حقاً ذلك الرجل الصادق المخلص الودود الذى كشف عنه حديثك .
ولئن كنتَ أهتم بك هذا الاهتمام كله ، فلأن هناك أموراً سأعهد اليك بها
وسأعوّل عليك فيها ، أموراً ستعرفها فى المستقبل . هكذا ترى أننى
أكلمك ببساطة تامة وصراحة كبيرة . أمل يا جانيا ألا ترى بأساً فى أن
يسكن الأمير عندكم ، هه ؟

أجاب جانيا مؤكداً بلهجة فيها ظرف وترحيب وبشاشة :

- بالعكس . ولسوف تكون أُمى سعيدة

- أظن أنكم أجرتم الى الآن غرفة واحدة يسكنها ذلك الرجل

الذى يسمى فرديف فرديف

- فرديشتينكو * *

- نعم ، فرديشتينكو • انه يعجبني صاحبكم فرديشتينكو هذا •
مهرج عفن • لا أفهم لماذا تدعنه ناستاسيا فيليوفا دائماً • هل صحيح أنه
يمت إليها بقراءة ؟

- لا ، لا ! ما هذه الا مزاحه ! ما من قراءة

- طيب شيطان يأخذه فما رأيك اذن يا أمير ؟ أنت
مسرور أم لا ؟

- شكراً يا جنرال • لقد غمرتني بأريحيك ، مع أنني لم أطلب منك
شيئاً • لا أقول هذا من باب الكبرياء • حقاً كنت لا أعرف الى أين أذهب •
صحيح أن روجوين قد دعاني الى داره منذ قليل ، ولكن

- روجوين ؟ لا كل شيء الا هذا ! انس هذا السيد
روجوين ! تلك نصيحة أب لابنه ، أو قل نصيحة صديق لصديقه اذا
كنت تؤثر ذلك • ومهما يكن من أمر ، فانتى أوصيك عامةً بالاعتصار
على الأسرة التي ستعيش معها •

قال الأمير :

- ما دمت طيباً نيلاً الى هذا الحد ، فانتى أريد أن أستشيرك في أمر
التمس فيه نصحك • لقد تلقيت ابلاغاً •

قاطعهُ الأمير قائلاً :

- لا ، اعذرني ، لا أملك الآن دقيقة واحدة • سأكلم عنك الزابت
بروكوفينا حالاً • فاذا أعربت عن رغبتها في استقبالك منذ الآن (وهذا
ما سأوصيها به) ، فانتى أنصحك بأن تستغل الفرصة لتحظى برضاها •
ان من الممكن أن تقدم لك خدمات عظيمة ، لأنك تحمل اسم اسرتها •

أما إذا لم ترغب في أن تستقبلك ، فلا يسوءك هذا ، وارتقب فرصة أخرى . وأنت يا جانبا ، ألقى نظرةً على هذه الحسابات أثناء ذلك . لقد كسّرنا رأسها بها أنا وقيدوسييف . ينبغي أن نفكر في ادراجها ..

وخرج الجنرال ، قبل أن يستطيع الأمير أن يعرض عليه الأمر رغم محاولات عدة . وأشعل جانبا سيجارة ، وقدم للأمير سيجارة ، فقبلها الأمير ولكنه لم يحاول أن يستمر في الحديث مخافة أن يزعجه أو أن يضايقه . وأخذ يتفحص المكتب . غير أن جانبا لم يكده يلقى نظرةً على الورقة الملأى بالأرقام التي أشار إليها الجنرال . كان جانبا ذاهلاً شارد اللب . حتى ان ابتسامته ونظراته وهيئته المهمة أصبحت أثقل وطأة على صدر الأمير وأشد إيلاماً له حين احتليا .

واقرب جانبا من الأمير فجأةً بينما كان الأمير قد عاد يتأمل صورة ناستاسيا فيليوفنا ، فقال له جانبا وهو يتفرس فيه تفرس من يخفي نيةً ويبيّت أمراً .

– اذن تعجبك هذه المرأة يا أمير ؟

أجاب الأمير :

– وجه مدهش ، وأنا واثق بأن القدر الذي كتب عليها قدر نادر . الوجه باش ، ولكنها قاست آلاماً رهيبية ، أليس كذلك ؟ ان المرء يقرأ هذا في نظرتها ، في هذين التتوين ، في هاتين النقطتين تحت العينين عند منبت الحدين . وجه فيه كبرياء ، كبرياء شديدة ! لكنني أتساءل هل هي خبيرة النفس طيبة القلب ؟ ... آمل أن تكون كذلك ! فهذا يمكن أن ينقذ كل شيء !

تابع جانبا كلامه دون أن يحوّل عن الأمير نظراته المحمومة :

– قل لي : هل يمكن أن تزوج « أنت » امرأة كهذه المرأة ؟

قال الأمير :

– أنا لا أستطيع أن أتزوج أية امرأة • أنا مريض •

– وهل يمكن أن يتزوجها روجوين ؟ ما رأيك ؟

– هو ؟ أظن أنه يمكن أن يتزوجها ، حتى منذ الفد ! يتزوجها

ثمانية أيام ، ثم قد يذبحها !

حين سمع جانبا هذه الكلمات الأخيرة التي قالها الأمير ارتجف

ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير أوشك أن يصرخ • وأمسكه من ذراعه
وقال له :

– ماذا بك ؟

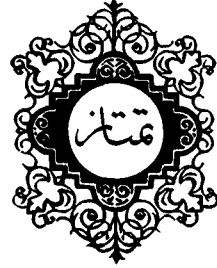
هنا ظهر خادم في عتبة الباب يقول :

– صاحب السمو ، ان صاحب السعادة يرجوك أن تذهب الى صاحبة

السعادة ، الجنرالة •

وخرج الأمير يتبع الخادم •

الفصل الرابع



كل من الآسات الثلاث ايباتشين بأنها قوية الجسم
نضرة زاهرة ، وبأنها مهية الطلعة ، على منكبين
عريضين وصدر جميل ، وذراعين لا تكادان
تقلان قوة عن ذراعى رجل • وبحكم هذه الصحة
وهذه القوة طبعاً ، كنَّ يقدرن قيمة وجبةٍ من وجبات الطعام حق قدرها ،
ولا يحاولن أن يخفين ذلك البتة •

وكانت أمهن ، الجنرالة اليزابت بروكوفينا ، يسوؤها فى بعض
الأحيان أن ترى هذه الصراحة فى شهوتهن للطعام وأقبالهن عليه • غير أن
جزءاً كبيراً من نصائحها وتوصياتها قد فقد فى الواقع ما كان لهذه النصائح
وهذه التوصيات من سلطان عليهن وتأثير فيهن ، رغم أنهن ما زلن يصطنعن
فى قبولها مظهر الامتثال والاذعان ؛ وقد أخذ التحالف بين الأخوات الثلاث
يثير الجنرالة فى كثير من الأحيان ، وهى امرأة تحرص على رزاتها ووقارها
أشد الحرص ، وترى أن الأفضل ألا تناقش وتجادل ، بل أن تقبل وتسلم •
صحيح أن المزاج كثيراً ما ينتصر ويتسرد على قرارات العقل ؛ حتى لقد
أخذت اليزابت بروكوفينا تغدو ، سنةً بعد سنة ، أشد نزوة وأقل صبراً ،
بل وأجمع خيالاً • ولكن لما كانت ماتزال تملك زوجاً أحسنت ترويضه حتى
صار طوع بنائها ، فإن زوجها هذا هو الذى كانت تصب عليه ما يطفح به

قلها • فكان الانسجام يعود عندئذ الى المنزل ، وكان كل شيء يجرى بعد ذلك على ما يرام •

على أن الجمرالة كانت لا تفقد شهوة الطعام • هي في العادة تشارك بناتها وجبة الافطار الوفيرة التي تكاد تكون من وفرتها غداء ، والتي تقدم بعد الظهر بنصف ساعة • وتكون البنات قبل هذه الوجبة قد تناولن في أسرتهن عند استيقاظهن من النوم فنجانا من القهوة في الساعة العاشرة تماماً • فهذه عادة من العادات ألغتها وترسخت فيهن منذ زمن طويل • حتى اذا أزفت الساعة الثانية عشرة والنصف فُرشت المائدة في غرفة الطعام الصغيرة المتاخمة للجناح الخاص الذي تحتله اليزابت بروكوفينا ؛ فاذا كان وقت الجنرال لا يضيق بحكم العمل عن المشاركة في هذه الوجبة العائلية الحميمية شارك فيها • اما ما تضمه الوجبة فهو ، عدا الشاي والقهوة والجنين والسل والزبدة ، لحوم مشوية (أضلاع) ونوع خاص من الفطائر تحبه الجمرالة حباً خاصاً ، وربما ضمت المائدة كذلك مرقاً ساخناً مكثفاً •

في الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا هذه كانت الأسرة كلها مجمعة في قاعة الطعام تنتظر الجنرال الذي كان قد وعد بالمجيء في الساعة الثانية عشرة والنصف • فلو أنه تأخر عن المجيء ولو دقيقة واحدة اذن لأسرعن يرسلن اليه من يبحث عنه • لكن الجنرال قد تقيد بالموعد تقيداً تاماً ، فما هو ذا يدنو من زوجته ليحييها وليقبّل يدها ، فيلاحظ على وجهها تعبيراً خاصاً جداً • ورغم أنه كان في عشية ذلك النهار قد أوجس بأن شيئاً من هذا سيحدث بسبب « قصة ما » (على حد تعبيره) ، ورغم أنه حين نام في المساء قد فكر في هذا بكثير من القلق ، فقد استولى عليه خوف واعتراه رعب • وجاءت بناته فقبّلنه • كان لا يبدو عليهن أنهن غاضبات ، ومع ذلك كان ظاهراً هنا أيضاً أن ثمة شيئاً غير طبيعي • صحيح أن

ظروفا معنية كانت قد جعلت الجنرال كثير الظنون شديد الارتياب ، لكنه ، وهو رب أسرة خير حاذق ، قد أسرع يتخذ الاجراءات اللازمة •

لعلنا نستطيع ، دون أن نفقد قصتنا هذه بروز معالمها ، أن نتوقف هنا قليلاً ، فنقدم ببعض الشروح فكرةً أقرب الى أن تكون مباشرة ودقيقة وواضحة ، عن الأوضاع والظروف التي كانت عليها أسرة الجنرال ايباتشين في الوقت الذي تبدأ فيه هذه القصة •

سبق أن أشرنا الى أن الجنرال كان - رغم ضالة حظه من الثقافة - (ولقد كان على كل حال يفتخر بأنه عصامي علّم نفسه بنفسه) - كان زوجاً خيراً وأباً بارعاً • ولقد قرر خاصةً ألا يحث بناته كثيراً على الزواج • وكان لا يحرص على أن « يعلق نفسه فوق رعوسهن بغير انقطاع » ، وأن يعذبهن دائماً بحب أبوى يسعى الى سعادتهن ، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان حدوثاً طبيعياً ، بغير قصد أو ارادة ، حتى في أعقل الأسر التي عندها بنات للزواج •

حتى لقد استطاع أن يقنع زوجته بهذا المذهب ، وتلك مهمة بالغة الصعوبة ، لأنها تعارض غريزة المرأة • غير أن حجج الجنرال وأدله قد أثمرت ، لأنها كانت تتناول وقائع محسوسة ملموسة • وكان أسلوبه هو التالي : ان البنات اذا تُركت لهن حرية التصرف ، فلا بد أن يصلن من تلقاء أنفسهن الى حل معقول ، فيجرى الأمر عندئذ سريعاً ، لأنهن يقبلن عليه بقلوبهن ، متخليّات عن النزوات الطارئة ، وعن الغلو والمبالغة في النقد ؟ ولا يكون على الأبوين بعد ذلك الا أن يراقباهنّ بزيد من البقطة والتخفي ، ليجتباهنّ اختياراً رديئاً أو انحرافاً سخيفاً ، حتى اذا آن الأوان ساعداهن بكل ما لهما من قدرة ، ووضعا ثقلهما كله في الميزان ، ليقوداهنّ في الاتجاه السليم • هذا عدا أن ثروة الأسرة تربو سنةً بعد سنة بتزايد هندسي ، وأن مركزها الاجتماعي يعلو ويسمق ، فكلما انقضى الزمن

جنت البنات من ذلك نفعاً ، حتى من جهة الخطبة • ولكن ذلك كله قد أضيف اليه واقعة جديدة : هي أن البنت الكبرى قد بلغت الخامسة والعشرين في مثل الفجاءة ، كأنما على غير توقع (كما يحدث ذلك دائماً) •

وفي تلك الآونة نفسها تقريباً أعرب آتانا زى ايفانوفتش توتسكى ، وهو رجل من علية القوم له علاقات رفيعة وثروة خارقة ، أعرب مرةً أخرى عن رغبته القديمة فى الزواج • انه فى الخامسة والخمسين من عمره تقريباً ، ذو طبع لطيف محبب ودود ، وذو ذوق رفيع مرهف رقيق • كان يريد لنفسه زواجاً جميلاً • انه يقدر الجمال كما لا يقدره مثله أحد • واذ ربطته منذ مدة بالجنرال ايبانتشين صداقة كبيرة كانت تعرّزها وتقوّيها مصالح مشتركة فى بعض المشروعات المالية ، فقد سأله أن ينصحه كما ينصح الصديق صديقه هل يستطيع أن يخطب إحدى بناته • وهكذا فان الحياة الهادئة الوادعة المنظمة المرتبة التى كانت تعيشها أسرة الجنرال ايبانتشين أصبحت موشكة على اضطراب يقلبها رأساً على عقب •

ان أجمل البنات الثلاث ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، انما هي الصغرى ، آجلايا ، بلا مراء ولا جدال • ولكن توتسكى نفسه ، رغم أثرته المفرطة ، قد أدرك أنه لیس له أن يعقد آمالاً من هذه الناحية ، وأن آجلايا ليست له •

ومهما يكن من أمر ، سواء أكانت أختا آجلايا تجانبها حباً أعمى أم كانتا تحملان لها عاطفة مسرفة فى الحماسة ، فالهم أن أسرة ايبانتشين كانت تتوقع للأخت الصغرى آجلايا ، بصدق وإخلاص ، لا مصيراً عادياً بل حياةً تقترب أكبر اقتراب ممكن من المثل الأعلى للفردوس الأرضى • فيجب أن يكون زوجها المقبل رجلاً يتمتع بجميع صفات الكمال ، وأن يحقق جميع أنواع النجاح ، فضلاً عما يجب أن ينعم به من ثراء • حتى

ان الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما ، دون كلام كثير لا طائل تحته ، أن
تضحيا بنفسيهما فى سبيل أجلايا اذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أعدت الأسرة
للفتاة أجلايا مهرا ضخما فذا . وكان الأبوان على علم بالاتفاق الذى تمَّ
بين الأختين الكبيرين . ولذلك حين سال توتسكى صاحبه الجنرال
ايباتشين أن يسدى اليه النصيح ، فان الأبوين لم يشككا كثيراً فى أن
احدى البنتين لن ترفض تلبية رغبتهما ، لا سيما وأن توتسكى ليس من
الرجال الذين تستوقفهم مسألة المهر . والجنرال رجل صاحب خبرة
وتجربة ، لذلك قدر الخطوة حق قدرها ؛ واذا أن توتسكى نفسه قد
فرض على نفسه ، بسبب بعض الظروف ، تكتماً كبيراً فى المباحثات حول
هذا الأمر ، فاقصر على جسَّ النبض أو سبر الأرض ان صح التعبير ،
فان الأبوين من جهتهما لم يذكرنا للبنات الا اقتراضات غامضة وتخمينات
مبهمة ؛ فحصلنا فى مقابل ذلك من البنات على تأكيد غامض مبهم هو أيضاً ،
لكنه مواسر معزٍ ، بأن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض .

ان ألكسندرا ، على كونها ذات طبع صلب وخلق ثابت ، فتاة عاقلة
دمثة لينة سهلة المعاشرة ؛ ولقد ترتضى أن تتزوج توتسكى ، فاذا تعهدت
بأن تتزوجه برَّت بمهدا ولم تخلف الوعد . انها لا تشد حياة براءة
ساطعة ، ولا خوف معها من مصاعب ومتاعب ، ولا خوف معها من انقلاب
مباغت . بالعكس : انها تستطيع أن تجعل الحياة ناعمة وادعة يرفرف عليها
الهدوء والسلام . وهى فتاة جميلة ، وان لم تكن ساطعة التألق . هل كان
يمكن توتسكى أن يمتنى نفسه بأكثر من هذا ؟

ومع ذلك ظلت القضية تتقدم بخطى بطيئة وتلمس متوجس .
فكان توتسكى والجنرال ، بفضل اتفاق ودى ، يتجنبان أن يقوما الآن بأية
خطوة رسمية حاسمة . وكان الأبوان نفساهما ما يزالان لا يكاشفان البنات
بالأمر صراحة . حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء أن بينهما شيئاً من

الخلاف فى الرأى • فان الجزالة ، بصفتها أمّا ، قد أخذت تظهر شيئاً من عدم الرضى ، وكان ذلك أمراً على جانب كبير من خطورة الشأن • وهناك عدا ذلك ظرف معقد شائك كان يمرض المشروع كله للاخفاق اخفاقاً حاسماً •

ان أصل هذا الظرف « المعقد الشائك » (على حد تعبير توتسكى) يرجع عهده الى زمن بعيد ، الى ثمانية عشر عاماً خلت • فعلى مقربة من احدى الأراضى التى يملكها آتاناى ايفانوفتش ، وهى أراض تقع فى أحد أقاليم وسط روسيا ، كان يعيش ملاك صغير فقير الحال تقريباً • وكانت حياة هذا الرجل سلسلة من المصائب والنوازل ، سلسلة تبلغ من التتابع والاتصال أنها تشبه أن تكون حكاية من الحكايات أو قصة من القصص • هو ضابط محال على التقاعد ، سليل أسرة عريقة النبالة ، لعلها تفوق فى رفعة المحتد أسرة توتسكى • كان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوف • وقد استطاع أخيراً ، وهو غارق فى الديون مرهق برهن عقاراته ، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضنى ، وبشغل يشبه أن يكون فى قسوته ومشقته شغل فلاح ، أن يعود الى استثمار أرضه الصغيرة استثماراً مناسباً • وكان أيسر نجاح يحققه ، يبت فيه شجاعة خارقة ، ويعيد اليه أملاً كبيراً ، حتى امتلأ ثقة وطمأنينة وتفاؤلاً ؛ وذهب ذات يوم الى مركز الاقليم ليقابل أحد دائنيه الكبار ، وليبرم معه اتفاقاً أو ينتهى معه الى تسوية فى حدود الامكان • فلما كان اليوم الثالث من اقامته بمركز الاقليم رأى عميد قرية يصل الى المركز على حصان ، محترق الحدين واللحية ، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأس فى وضع النهار ، فهلك امرأته ، لكن أولاده نجوا وسلموا •

لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد ، رغم أنه ألف

ضربات القدر ، ففقد عقله وجُنَّ ، ثم مات بحمى دماغية بعد شهر واحد .

وقد بيعت أراضيه المحترقة وبيع فلاحوه المبعوثون لسداد ديونه .
أما ابنتاه الصغيرتان ، وعمرهما ست سنين ، فقد تكرم آتاناى ايفانوفتش
توتسكى فكفلهما .

تربّت البنتان أولاً مع أولاد وكيل توتسكى ، وهو موظف محال
على التقاعد ، رب أسرة كبيرة العدد ، ألمانية فوق ذلك . ولم تلبث ناستاسيا
أن أصبحت وحيدة ، لأن أختها الصغرى ماتت بمرض السعال الديكى .
أما توتسكى الذى كان يعيش فى الخارج ، فلم يلبث أن نسيهما كليهما .
وبعد خمس سنين ، مرَّ آتاناى ايفانوفتش بالمنطقة ، فخطر بباله أن يزور
أراضيه هنالك ، فاذا هو يلاحظ فى منزله الريفى ، مع أسرة وكيله
الألماني ، فتاة حلوة عذبة لذيذة فى الثانية عشرة من عمرها ، فتاة فارغة
ماهرة ، ذكية لطيفة ، تبشر بأنها ستكون فى المستقبل بارعة الجمال
فاتنة الحسن . لقد كان توتسكى فى هذا المجال رجلاً ذا خبرة وتجربة ،
لا يخطئ ظنه ولا يخيب فأله . ولم يقض فى أراضيه هذه المرة الا بضعة
أيام ، لكنه قد اتسع وقته مع ذلك لأن يتخذ اجراءاته . فحدث تغير كبير
فى تنشئة الفتاة وتعليمها : جىء لها بمرربة سويسرية هى امرأة محترمة
متقدمة فى السن ، لها خبرة فى التربية والتعليم ، مثقفة ، قادرة على أن
تعلّم ، عدا اللغة الفرنسية ، علوماً شتى .

سكنت المربية السويسرية فى المنزل الريفى ، وسار تعليم الصغيرة
ناستيا بخطى سريعة . فما انقضت أربع سنوات حتى انتهت دراسة ناستيا ،
وسافرت المربية ، فجاءت عندئذ سيدة هى ملائكة لها أطيان تجاور أرضاً
يملكها توتسكى فى اقليم ناء . جاءت هذه السيدة فأخذت ناستيا تنفذاً
لأوامر آتاناى ايفانوفتش ، وعملاً بسلطات خوّلها اياها . ان فى تلك

الأرض الصغيرة التي يملكها توتسكى جناحاً ان يكن صغيراً فانه حديث البناء مؤثت تأثيثاً جميلاً فيه ذوق ، وفيه أناقة • وكان من المصادفات التي تشبه العمد أن تلك القرية نفسها كان اسمها هذا الاسم الموحى : «أوترادنويى» *

أخذت السيدة الفتاة الى ذلك المسكن الهادى رأساً ، ولما كانت دارها هي قريبة من ذلك المسكن ، وكانت أرملة لا ولد لها ، فقد أقامت مع الفتاة • وكان في خدمة ناستيا هنالك امرأة تتولى أعمال الانفاق الانفاق والحساب ، وخادم شابة لكنها ذات تجربة وخبرة •

وكان المسكن (الشاليه) يضم أدوات موسيقى ، ومكتبة مختارة تناسب الفتيات ، ولوحات ، وصوراً محفورة على الحشب ، وأقلاماً ، ومناقش ، وألواناً ؟ وكان يضم كذلك كلبه سلوقية جميلة •

وبعد أسبوعين وصل آتانازى ايفانوفتش بنفسه ...

ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤثر تلك القرية الصغيرة المعزولة النائية في السهوب إثارة عظيمة • فكان يأتيها كل صيف ، يقضى فيها شهرين ، أو ثلاثة أشهر في بعض الأحيان • وانقضى على هذا النحو زمن طويل هو أربع سنين هادئة وادعة سعيدة ، في جو من ترف البذخ وحسن الذوق •

وفي ذات يوم من مطالع الشتاء ، بعد نحو أربعة أشهر من احدى اقامات آتانازى الصيفية في أوترادنويى ، وهي اقامة لم تطل في تلك المرة أكثر من خمسة عشر يوماً ، جرت شائعة أو قل سمعت ناستاسيا فيليوفنا شائعة تقول ان توتسكى على وشك أن يتزوج بطرسبرج فتاة جميلة غنية نبيلة المحدث ، أى أن يتزوج زواجاً يناسبه • وقد اتضح فيما بعد أن الشائعة غير صحيحة من بعض النواحي : فالزواج لم يكن الا فكرة أو مشروعاً ، وما يزال كل شيء غامضاً مبهماً • ومع ذلك ولّد هذا الحادث

اضطراباً كاملاً وبلبلّة تامّة في حياة ناستاسيا فيليوفنا • وسرعان ما برهنت على أنها تملك ارادة حازمة ، وعزيمة قوية ، وصلابة لم تكن في الحسبان ؛ فاذا هي تترك مسكنها الريفى الصغير بلا تردد ، وتسافر الى بطرسبرج ، وتمضى على الفور وحيدة الى توتسكى •

ذُهل توتسكى ، وأراد أن يوضح لها الأمور وأن يتحل لنفسه الأعدار • لكنه أدرك منذ الكلمات الأولى تقريباً أن عليه أن يغيّر تغييراً تاماً ، طريقة كلامه ونبرة صوته ، وموضوعات حديثه الممتعة الأخاذة التى أصابت حتى ذلك الحين نجاحاً كبيراً ، وأن يغيّر منطقته نفسه ، أن يغير كل شيء ، كل شيء ! ان امامه الآن امرأة أخرى لا تشبه المرأة التى كان قد عرفها حتى ذلك الحين والتى تركها في شهر تموز (يولييه) بقرية أوترادنوبى •

لقد اتضح قبل كل شيء أن هذه المرأة الجديدة تعرف وتفهم أشياء كثيرة ، أشياء تبلغ من الكثرة أن المرء يتساءل أين عساها حصلت مثل هذه المعارف وكيف استطاعت أن تكون آراء واضحة هذا الوضوح كله • هل يمكن أن يكون ذلك قد تمّ لها فى مكتبتها التى هى مكتبة فيات ؟ وكأن هذا كله لم يكن كافياً أيضاً ، فهى تفهم الشؤون القضائية كذلك أكمل الفهم ، وفى ذهنها تصورات واضحة وضوحاً كبيراً ان لم يكن عن المجتمع كله ، فمن الطريقة التى تجرى بها بعض الأمور فيه • ثم ان طبعها الآن ليس طبعها فى الماضى • لقد زایلها ذلك النوع من الحشية ، لقد تحررت من ذلك الوجع المبهم الغامض الذى تتصف بمثله بنات المدارس الداخلية ، وتحررت من تلك الاندفاعات الساذجة الحلوة التى يلطفها فى بعض الأحيان حزن وقلق وخوف يمضى الى حد ذرف الدموع •

لا ، ان أمام توتسكى الآن امرأة لم يسبق أن تصورها فى هذه الصورة ، امرأة غريبة عجيبة ، تضحك مقهقهة بأعلى صوتها ، وتمطره

بوابل من سخریات مسمومة ، امرأة تعلن له صراحةً بأنها لم تشعر نحوه
فى يوم من الأيام بعاطفة غير عاطفة الاحتقار العميق الذى يبلغ مبلغ
التقزز الباعث على الغثيان ، وهو تقزز ملأ نفسها بعد انقضاء شعور الدهشة
الأولى فوراً •

ان هذه المرأة الجديدة تعلن له أنها لا يهمها فى شىء أن يتزوج
حالاّ أية امرأة ، ولكنها مع ذلك قد جاءت بدافع الشر وحده تحول بينه
وبين هذا الزواج ، لا لشيء الا لأنها تجد فى ذلك مسرة ، فلا يمكنها الا
أن تستجيب لنداء هذه المسرة • قالت له : « هبّ ذلك تسليّة على
حسابك • لقد آن لى أخيراً أن أضحك أنا أيضاً ! » •

بهذه الألفاظ انما عبّرت عن نفسها على الأقل • قد لا تترجم هذه
العبارات كلّ ما فى قرارة فكرها • ولكن بينما كانت ناستاسيا فيليوفا
الجديدة هذه تضحك ضحكاً مجلجلاً وهى تبسط حججها وتبدى
أسبابها ، كان آتانازى ايفانوفتش يدرس الموقف بينه وبين نفسه ، ويحاول
أن يضع شيئاً من النظام والترتيب فى خواطره وأفكاره • ودامت هذه
الدراسة مدة طويلة ، فقد أنفق فيها آتانازى ايفانوفتش قرابة أسبوعين ،
ولكنه فى ختام هذين الأسبوعين كان قد عزم أمره واتخذ قراره •

يجب ألا تنسى أن آتانازى ايفانوفتش كان عمره فى ذلك الأوان
نحو خمسين عاماً ، وكان رجلاً مهيباً رصيناً ، وكان ذا وضع اجتماعى
قوى راسخ ، وكان مركزه فى المجتمع الراقى يقوم على أسس متينة
مضمونة •

كان آتانازى ايفانوفتش يحب ويقدر ، أكثر من أى شىء فى العالم ،
شخصه وراحته ورخاءه ودعته ، كما يليق ذلك برجل له مثل تلك
المزايا العالية !... فأى اضطراب يعكّر الصفو ، بل أى قلق يسير

يعتري مجرى الأمور ، كان شيئاً لا يمكن أن يقبله أو أن يحتمله تنظيم
للحياة ساهم عمرٌ كاملٌ في اقامته وترسيخه .

وسرعان ما أوجت الى توتسكى تجربته الواسعة وحصافة رأيه
وصدق حكمه أنه أمام امرأة فريدة قادرة على أن تحقق وعيدها وتنفذ
تهديدها ، لا سيما وأنها لا تحرص على شيء في هذا العالم ، وأنها لا سبيل
اذن الى اغرائها . لا ، لا ! واضح أن الأمر هنا أمر آخر تماماً ! ان ههنا
نوعاً من اختلاط عاطفي واستياء خيالي روائي ليس له سبب واضح
ولا موضوع معيّن ، ان ههنا رغبة في الاحتقار لا يرتوى لها ظمأ ولا تقف
عند حد ، أى . . . ان ههنا شيئاً . . . سخيفاً كل السخف ، شيئاً فظاً
غليظاً جافياً لا يمكن قبوله في المجتمع الراقى المذهب ، شيئاً هو بالنسبة
الى رجل شريف كريم بلية من عند الله .

كان يمكن طبعاً أن تعين توتسكى ثروته وعلاقاته ، فتتيح له
سهولة أن يقوم بعمل من تلك الأعمال الحثيثة الصغيرة ، البريئة كل
البراءة ، التى يمكن أن تخرجه من المأزق وتخلصه من الورطة . وكان
واضحاً من جهة أخرى أن ناستاسيا فيليوفنا لا تقدر أن تفعل أى شيء
ضدّه ولو من الناحية القانونية القضائية مثلاً ؛ لا ولا تستطيع أن تثير
فضيحة ذات بال ، لأن من السهل على آتاناازى ايفانوفتش أن يجعلها تخفق
لا محالة . ولكن ذلك كله انما يصدق اذا تصرف ناستاسيا فيليوفنا
تصرف جميع الناس فى أمور كهذه الأمور ، ولم تبعد كثيراً عن القاعدة .
ولكن نفاذ البصيرة وسداد الرأى وحصافة الحكم انما خدمت آتاناازى
ايفانوفتش فى هذا المجال : فلقد استطاع أن يحزر أن ناستاسيا فيليوفنا
تدرك هى نفسها ادراكاً كاملاً أنها عاجزة من الناحية القانونية القضائية ،
واستطاع أن يحزر أن فى ذهنها شيئاً آخر غير هذا ، وذلك ما كان
يفضحه سطوع عينها وبريق نظراتها . انها لعدم حرصها على شيء البتة ،

ولعدم حرصها حتى على شخصها (لا بد أن يكون توتسكى على جانب كبير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليدرك فى تلك اللحظة أن ناستاسيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تحفل بشخصها البتة ولا تقيم لمصيرها أى وزن ؛ لا بد لتوتسكى الرئىى المستهتر المستخف الذى لا يصدق شيئاً ولا يؤمن بشئ غير مباحج الحياة الاجتماعية ، لا بد له خاصة من كثير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليؤمن بأن عاطفة ناستاسيا تلك جدٌ لا هزل) ، أقول أن ناستاسيا فيليوفنا ، لعدم حرصها على شئ البتة ، ولعدم حرصها حتى على شخصها كانت قادرة على ألا تحجم عن تحطيم حياتها تحطيماً لا رجعة عنه ، وعن تدمير وجودها بأسوأ الأساليب ، ولو اقتضى الأمر أن تذهب الى سيبيريا ، سجينه ، لا لشيء الا للتلذذ باهانة وايداء الرجل الذى تكرهه كرهاً يفوق طاقة الانسان على الكره .

ان آتانازى ايفانوفتش لم يُخف فى يوم من الأيام أنه جبان بعض الجبن ، وكان يسمى هذا الجبن محافظة . لذلك كان لا بد أن يروّعه أن يتصور أن يُقتل أمام الهيكل ، أو أن يقع له حادث آخر من هذا النوع على مرأى من الناس ، حادث غير مستحب وغير لائق . . . على أن اغتياله أو اصابته بجرح أو تلقيه بصفة فى وجهه أمام الملأ أو وقوع أى حادث له آخر من هذا النوع لم يكن يهمه وقوعه بقدر ما كانت تهمه طريقة وقوعه وصورة حدوثه على هذا النحو الذى لا يمكن أن يعد طبيعياً ولا يمكن أن يعد لائقاً مهذباً . . .

وبهذا نفسه انما كانت تهدده ناستاسيا فيليوفنا ، ولو تهديداً مضرراً حتى الآن . كان يعلم أنها تعرفه معرفة عميقة ، وأنها ستعرف أين تهوى عليه بضربتها . واذا أن ذلك الزواج كان ما يزال فكرة أو مشروعا ، فان آتانازى ايفانوفتش خضع وتراجع وأذعن واستسلم أمام ناستاسيا فيليوفنا .

وهناك أمر آخر سهّل عليه اتخاذ هذا القرار • ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى الاختلاف بين ناستاسيا فيليوفا الجديدة وبين ناستاسيا فيليوفا القديمة ، حتى من ناحية الجسد • ان ناستاسيا لم تكن في الماضي الابنية حلوة جداً ، أما الآن ••• آه ! ••• ان توتسكى قد ظل مدة طويلة لا يفكر لنفسه انه نظر اليها أربع سنين دون أن يراها حق رؤيتها ! صحيح أن انقلاباً في صلاتهما يبلغ ذلك المبلغ من المباشرة والمفاجأة لا بد أن يكون له شأن في هذا • ولكن توتسكى قد تذكر لحظات خطرت بباله فيها أفكار غريبة حين كان ينظر الى عينيها فكأنه يوجس في أعماقها سرّاً خفياً مظلماً لا يدري ما هو ! كانت تلك النظرة تحدّق الىه ، وثبت عليه ، وكأنها تعرض له لغزاً أو أحجية أو طلسماً • وكثيراً ما خطف بصره ، في أثناء السنتين الأخيرتين ، انكفاء لون ناستاسيا فيليوفا : كانت في بعض الأحيان تشحب شحوباً رهيباً ؛ والشئ الغريب أن هذا كان يزيد بها جمالاً •

كان توتسكى ، وهو في هذا يشبه أمثاله من السادة العجائز العاشرين اللاهين القاصفين ، كان في الماضي ينظر نظرة ازدراء الى استيلائه السهل هذا على فتاة بسيطة غير ذات خبرة ؛ ولكنه كان قد غيّر رأيه قليلاً في الآونة الأخيرة • ومهما يكن من أمر ، فانه قد قرر منذ الربيع الماضي أن يقف على ناستاسيا فيليوفا مهراً سخياً ، وأن يسرع في تزويجها برجل محترم واسع الصدر رحب الفكر ، له مركز في اقليم آخر (آه ••• ما أظفح استهزاء ناستاسيا فيليوفا الآن بتلك الفكرة ، وسخرها منها !) • أما الآن فان آتانازى ايفانوفتش ، وقد فتنته جدة الموقف وأغوته ، قال لنفسه ان في امكانه أن يستثمر هذه المرأة الشابة من جديد ، فقرر أن يجعل اقامتها ببطرسبرج ، وأن يحيطها بالترف والرخاء والبذخ • ذلك عدا أن في وسعه أن يفتخر في بعض الأوساط باستيلائه على امرأة

كهذه المرأة ، وأن يستمد من ذلك اعتزازاً ومباهاة وظهوراً . لقد كان آتانازى ايفانوفتش يحرص كثيراً على هذا النوع من المجد .

انقضت خمس سنين على إقامة ناستاسيا فيليوفا بيطرسبرج ، وتوضحت فى أثناء ذلك الوقت أمور كثيرة . ان وضع آتانازى ايفانوفتش ليس فيه ما يطمئن . وأسوأ ما فى الأمر أنه وقد خاف مرة ، استبد به الخوف حتى أصبح لا يستطيع التخلص منه . كان خائفاً ، حتى دون أن يعرف كثيراً ممّ هو خائف : كل ما هنالك أنه كان يخشى ناستاسيا فيليوفا . وفى خلال بعض الوقت ، أثناء السنتين الأولين ، أخذ يظن أن ناستاسيا فيليوفا تحاول أن تتزوجه . كان يفسّر صمتها عن رغبتها هذه بأنه كبرياء شديدة منها ، وكان مقتنعاً بأنها تنتظر أن يفتحها فى الأمر ، نافذة الصبر . ذلك تصور غريب فى الواقع . غير أن آتانازى ايفانوفتش قد أصبح كبير الظنون والهواجس . فكان اذا ساورته هذه الفكرة يتجهم وجهه ، وتأخذ تدور فى رأسه خواطر ثقيلة . حتى اذا اقتنع فجأة ، فى ذات يوم من الأيام ، بمناسبة حادث من الحوادث ، أنه لو عرض عليها أن يتزوجها لرفضت أن تتزوجه ، دُهِش دهشة شديدة ، بل شعر بشيء من الأسف والحسرة (ذلك هو قلب الانسان !) ، ولم يستلم بهذه الحقيقة الا بعد مدة طويلة .

تفسير واحد بدا له معقولاً : هو أن كبرياء « هذه المرأة الخيالية الشاذة » قد بلغ من الحدة والعلو أنها تفضّل أن تعبّر عن احتقارها دفعة واحدة برفض ، على أن تضمن لنفسها وضعاً مستقراً يبلوغ مرتبة لا تأملها . وأسوأ ما فى الأمر أن ناستاسيا فيليوفا أصبحت تسيطر على الموقف مزيداً من السيطرة شيئاً بعد شيء . لقد قاومت كل اغراء من نوع مادی ، مهما تكن ضخامته ، وهى رغم قبولها ما أحيطت به من ترف وبذخ ،

تعيش حياة متواضعة ، ولم تكد تدّخر شيئاً من مال خلال هذه السنوات
الحسن .

وقد تجرأ آتاناڨى ايفانوفتش فعمد الى حيلة بارعة كل البراعة
لطيفة كل اللطف لتحطيم سلاسلها وفك أغلالها ، فحاول بمعاونات ذكية
حاذقة ، على نحو خفى محكم لبق ، أن يفتتها بمغريات مثالية . ولكن
لا الأمراء ، ولا الفرسان ، ولا سكرتيرى السفارات ، ولا الشعراء ،
ولا الروائيون ، حتى ولا الاشتراكيون ، أمكن أن يؤثروا فيها أى تأثير .
لكأن قلبها من حجر ، ولكأن عواطفها قد جفّت وماتت الى الأبد .

كانت تعيش حياة أميل الى الانزواء ، تقرأ وتطالع وتدرس وتهوى
الموسيقى . كانت علاقاتها قليلة ، وكانت تنصرف بايثارها الى نساء طاعنات
فى السن سخيقات من زوجات الموظفين . وكانت تعرف ممثلتين ، وتعرف
عدداً من عجائز طبيبات أخريات . وكانت تتردد على أسرة كثيرة الأولاد
هى أسرة معلم طيب من معلمى المدارس الابتدائية ، وكان أفراد هذه الأسرة
يبادلونها الحب ويتهجون بزياراتها . وكثيراً ما كان يجتمع عندها فى
المساء ، خمسة أشخاص من معارفها أو ستة ، وقلماً يزيد العدد عن ذلك .
وكان توتسكى نفسه يحضر سهراتها حضوراً مطّرداً . وكان الجنرال
ايباتشين قد استطاع فى الآونة الأخيرة ، بعد شئ من المشقة ، أن يظفر
بزيارة بيت ناستاسيا فيليوفنا . وفى الوقت نفسه ، تمكن موظف صغير
اسمه فردشتينكو أن يتعرف عليها بدون أى عناء . انه نوع من مهرج
سوء الترية قليل الذوق يدعى خفة الظل وروح الدعابة ويميل الى
الشراب والسكر .

وكانت ناستاسيا تستقبل كذلك شاباً غريباً اسمه بتسين ، هو فتى
متواضع مرتب يعتنى بهندامه ، كان فقيراً بائساً فلما تخلص من الفقر

والبؤس أصبح مرأياً • وفي آخر آونة تعرفت ناستاسيا على جبريل
أردالبوتش •••

يجب أن نذكر أخيراً أن سمعة عجيبة كانت تحيط بناستاسيا
فيلبونا • ان جميع الناس يعرفون جمالها ، ولكن لا شيء غير ذلك ،
وما من أحد كان يمكنه أن يتباهى بأنه حظى منها بشيء ، ولا كان هناك
أحد يمكن أن يروى عنها أية قصة • فهذه السمعة وما تمتاز به ناستاسيا
من ثقافة ، ومن رشاقة ، ومن فكر ، ذلك كله قد أوحى الى آنانازي
ايفانوفتش خطة ما • وفي تلك الفترة من الزمن انما يقع التدخل النشط
الفعال الذي قام به الجنرال ايباتشين في القصة كلها •

حين سأل توتسكي صاحبه الجنرال بكثير من اللطف والمودة أن
يسدى اليه النصيحة التي يسديها صديق الى صديقه ، في أمر زواجه
باحدى بناته ، فانه قد فتح له قلبه بصدق كامل وصراحة تامة ، فقال انه
عزم أمره على ألا يحجم عن استعمال « أية وسيلة من الوسائل » في سبيل
الحصول على حريته ، وانه لن يعدّ نفسه في أمان ولو وعدته ناستاسيا
فيلبونا نفسها بأنها ستدعه هادئاً في المستقبل ، وان الأقوال أصبحت
لا تكفيه فلا بد له من ضمانات أكيدة وكفالات تامة • وناقش الرجلان
الأمر ، فقررا أن يعملتا متكاتفين •

اتفقا أولاً على أن يستعملا ألطف الأساليب ، وأن « يضربا على أنبل
أوتار النفس الانسانية » ان صح التعبير • فذهبا الى ناستاسيا فيليبونا ،
وأسرع توتسكي يتكلم عما في موقفه من سوء لا يطاق • أقرّ بأنه آثم
مذنب في كل أمر من الأمور ، ولكنه اعترف صراحة بأنه من حيث هو
رجل شديد الشبق عاجز عن السيطرة على نفسه ، لا يستطيع أن يشعر
بندامة فيما يتعلق بالخطيئة الأولى التي ارتكبها • وقال ان في نيته أن
يتزوج ، وانها تملك بين يديها مصير هذا الزواج المناسب الى أقصى

حد ، وانه يستنجد بشهامتها ونبل قلبها • وتكلم الجنرال هو أيضا ، بصفته أباً ، فقال كلاماً معقولاً مترناً ، تحاشي فيه أن يستدر العطف والحنان ولكنه ذكر أنه يعترف لها كل الاعتراف بحقها في تقرير مصير آتاناى ايفانوفتش ، ولم يفقه مع ذلك أن يبرز مدلته في كثير من الكياسة ذاكرًا أن مصير ابنته ، وربما مصير ابنتيه الآخرين ، رهن بما تتخذه هي من قرار • فلما سألت ناستاسيا فيليوفنا مستفهمةً « عما يراد منها على وجه الدقة » ، اعترف توتسكى ، صادقاً ذلك الصدق نفسه ، بأنها قد بلغت من تخوفه وترويعه منذ خمس سنين أنه أصبح لا يستطيع أن يشعر بطمأنينة كاملة وأمان تام الا اذا وافقت ناستاسيا فيليوفنا هي نفسها على زواجه • وأسرع يضيف الى ذلك أن هذا الذى يوحى به الآن يكون سخيلاً لولا أنه مستند الى اسباب قوية ومدعمٌ ببواعث متينة • فلقد لاحظ بوضوح كامل وعرف معرفة محققة أن شاباً من أسرة طيبة جداً ومحترمة جداً ، شاباً تعرفه وتستقبله في دارها ، هو جبريل آرداليوتتش ايفولجين نفسه ، مولته بحبها منذ مدة طويلة ، ويتمنى أن يحظى بعطفها ولو دفع نصف حياته ثمناً لذلك ؛ وهذه الاعترافات انما أسرَّ بها جبريل آرداليوتتش منذ زمن طويل اليه هو ، آتاناى ايفانوفتش ، صادقاً مخلصاً ، بكل ما يحمله له من صداقة ، وبكل ما يزخر به قلبه الشاب من اندفاع وحرارة ؛ كما ان ايفان فيدوروفتش ، حامى الفتى ، يعرف الأمر منذ مدة هو أيضاً ؛ ومن حق آتاناى ايفانوفتش أن يظن ، الا اذا أخطأ ظنه ، أن عواطف الفتى لا تجهلها ناستاسيا فيليوفنا أيضاً ، حتى لقد خيل اليه أنها تظهر بعض الرضى عنها وبعض الترحيب بها • وطبعي انه يصعب عليه أن يتحدث فى هذا الأمر أكثر مما يصعب ذلك على أى انسان آخر • ولكن اذا شئت ناستاسيا فيليوفنا أن تصدق أنه ، عدا مصلحته الأتانية ورغبته فى تنظيم حياته ، قد يريد لها الخير ، فلا بد أن تدرك أن عزلتها

تبدو له منذ مدة طويلة غريبة وأليمة • وهو واثق بأن هذه العزلة ليست
الا ظلمات كثيفة ، وأنها ناشئة عن الكفر بإمكان أن يجدد المرء حياته •
ولكنه مؤمن بأن حياتها يمكن أن تنبعث انبعاثاً رائعاً بالحُب والأسرة اللذين
سيضيفان عليها معنى جديداً •

وأضاف آتاناى ايفانوفتش يقول ان مواهب قد تكون لامعة تضع
عندها ، وان رضاها هذا عن حزنها ويأسها ، أى هذا النوع من الرومانسية ،
لا يتفق والحس السليم ولا يناسب ما تتحلى به نفس ناستاسيا فيليوفا
من نبل •

وبعد أن كرر مرة أخرى أن الكلام فى هذا الأمر يشق على نفسه
أكثر من أى انسان آخر ، ختم حديثه قائلاً انه لا يملك الا أن يأمل
ألا تستقبل ناستاسيا فيليوفا بالاحتقار والازدراء رغبته الصادقة فى أن
يكفل لها مستقبلها بأن يقدم اليها رأس مال مقداره خمسة وسبعون ألف
روبل • وأضاف معلقاً ان هذا المبلغ مكتوب لها فى وصية ، فلا داعى الى
أن تعدد تعويضاً ••• أو شيئاً من هذا القليل ••• ولا داعى على كل حال
الى ألا يصدق المرء وألا يففر هذه الرغبة الانسانية فى تخفيف عذاب
الضجير ، الخ ، الخ ، الخ •

الخلاصة أن آتاناى ايفانوفتش قال كل ما يحسن أن يقال فى مثل
هذه الأحوال •

ولقد تكلم آتاناى ايفانوفتش مدة طويلة ببلاغة وفصاحة ، وأشار
عرضاً - وهذا أمر هام جداً - الى أن هذه هى المرة الأولى التى يجيء
فيها على ذكر مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل ، فما من أحد على
الاطلاق ، سمع عن هذا قبل الآن ، حتى ولا ايفان فيدوروفتش •

وتكلمت ناستاسيا فيليوفا فأذهل جوابها الرجلين •

فلا شيء فيها الآن مما كان يسود كلامها من سخرية وعداوة وكره ،
ولا شيء من تلك الضحكة التي كانت ذكرها وحدها تجسد توتسكي
رعباً ، بالعكس : ان المرء ليحس بأنها تكاد تكون سعيدة من قدرتها أخيراً
على أن تجرى مع أحد الناس حديثاً فيه اخلاص وصراحة ، وفيه مودة
وصداقة . واعترفت بأنها كانت تتمنى منذ مدة طويلة أن تحصل على
نصيحة من صديق ، وأن الكبرياء وحدها هي التي منعتها من طلب النصح
حتى الآن . أما وقد تكسر الجليد ، فلا شيء يمكن أن يبهجها وأن
يسعدا أكثر من ذلك .

لقد بدأت ناستاسيا فيليبونا كلامها وهي تبسم ابتسامة حزينة ، ثم
ضحكت من كل قلبها حين قالت انها لن تثير زوبعة كالزوبعة التي أثارته
في الماضي ؛ وانها على كل حال قد غيّرت رأيها في أمور كثيرة منذ مدة
طويلة ، وانها رغم أن قلبها لم يتغير ، لا تملك الا أن تعترف بالأمر
الواقع ، فما حدث قد حدث ، وما مضى قد مضى ، حتى انها ليدشها بقاء
هذا الرعب في نفس آتاناى ايفانوفتش الى الآن .

ثم اتجهت بالكلام الى ايفان فيدوروفتش فقالت له ، باحترام عميق ،
انها قد سبق أن سمعت عن بناته ، وانها تمحضهن منذ مدة طويلة أصدق
الاعتبار وأعرق الاحترام ، وانها لتشعر بسعادة واعتزاز متى تصورت أن
في وسعها أن تنفعهن في شيء .

ولقد كان صحيحاً كذلك أن حياتها ، في تلك الآونة ، كانت شاقة
كالحلة ، كالحلة الى أبعد الحدود . لقد حزر آتاناى ايفانوفتش أحلامها .
نعم ، انها تود لو تتبع ، ان لم يكن بالحلب فبالحياة في أسرة مع الشعور
بغاية جديدة . لكنها لا تكاد تستطيع مع ذلك أن تقول شيئاً عن موضوع
جبريل آرداليوتتش . صحيح أنها يبدو لها أنه يحبها ، وصحيح أنها
تشعر من جهتها بأنه كان يمكنها أن تحبه لو آمنت بمشاة تعلقه وقوة

ارتباطه ، ولكن هبه صادقاً ، فانه ما يزال شاباً صغيراً ، فمن الصعب اتخاذ قرار . وعلى كل حال ، فان ما يعجبها فيه أكثر من أى شىء آخر هو أنه يعمل وأنه يعول أسرةً بكاملها .

وقد سمعت عنه أنه شاب نشيط ، فعّال ، عزيز النفس ، ذو أنفة ، طموح ، تواق الى الارتقاء . كما سمعت أن نينا ألكسندروفنا ايفولجينا ، أمّ جبريل آرداليوتش ، امرأةً جديرةً بالاعجاب ، خليقة بالاحترام من جميع النواحي ، وأن أخته باربارا آرداليونوفا فتاة نشيطة فعّالة ممتازة هي أيضاً . لقد كلمها بتسعين كثيراً عنهم ؛ وهى تعرف أن الأسرة كلها تتحمل أنواع الشقاء مرحلة متفائلة ؛ وهى تود أن تتعرف الى هذه الأسرة ، ولكن بقى عليها أن تعرف هل تحسن هذه الأسرة استقبالها ، وهل ترحب بها .

الخلاصة أنها على وجه الاجمال لا تعارض فكرة هذا الزواج ، لكنها ترى أن الأمر يستحق مع ذلك تفكيراً جدياً ، فهى تمنى لهذا ألا تُستحث على الاسراع كثيراً . أما فيما يتعلق بالحسنة وسبعين الف روبل ، فان آتاناازى ايفانوفتش قد أخطأ حين تخرج من الكلام عليها . فهى تعرف قيمة المال حق معرفتها ، وهى لذلك تقبل هذه الهدية مغتبطة . وشكرت لآتاناازى ايفانوفتش أيضاً أنه كان رقيق الشعور فلم يقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لا للجزال ولا لجبريل آرداليوتش . ولكنها تساءلت لماذا لا يُطلع جبريل على ذلك سلفاً هو أيضاً ؟ فانها لن تشعر بأى خجل من هذا المال حين تصبح عضواً فى الأسرة . ثم انها لا تتوى أن تعتذر لأى انسان عن أى شىء ، وتحرص على أن يُعرف هذا . وهى لن تقبل أن تزوج جبريل آرداليوتش الا حين تقتنع بأنه لا يضرر أية فكرة سيئة عنها ، لا هو ولا أسرته . ومهما يكن من أمر ، فهى لا تشعر بأنها آمنة فى شىء ، وهى تود أن يطلع جبريل آرداليوتش على ظروف حياتها أثناء

هذه السنين الخمس بمدينة بطرسبرج ، وعلى صلاتها بآنانازى ايفانوفتش ، وعلى الثروة التى استطاعت أن تجنيها ؛ وهى أخيراً ان قبلت هذا المال ، فلا تقبله ثمناً لمارها الذى لا تحس أنها مسئولة عنه ، وانما تقبله تعويضاً عن تحطيم حياتها •

وقد بلغت من الحماسة والحرارة والحمية أثناء تدفق لسانها بهذا الكلام كله (وذلك طبعى جداً على كل حال) أن الجنرال ايبانتشين شعر بارتياح كبير ، واعتبر القضية منتهية • أما توتسكى ، المروّع المذخور الى الآن ، فانه لم يصدق هذا الكلام تصديقاً تاماً ، وظل يخشى أن يكون تحت الأزهار أفعى •

ومع ذلك بدأت المباحثات بين الصديقين • فكانت النقطة التى تعتمد عليها حيلتهما ، أعنى امكان أن تتوله ناستاسيا فيليوفنا بحب جانبا ، كانت هذه النقطة تتوضح وتؤكد شيئاً بعد شيء ، حتى ان توتسكى نفسه كان يصل فى بعض الأحيان الى الاعتقاد بحظ من النجاح • وفى أثناء ذلك جرى حديث بين ناستاسيا فيليوفنا وبين جانبا ، حديث لم يتبادلا فيه الا كلاماً قليلاً ، فكان حياء ناستاسيا وخفرتها كانا يصدانها عن الكلام ؛ ومع ذلك قبلت حبه وارتضته ، لكنها أصرّت على أن تعلن له أنها لا تريد أن ترتبط بأى عهد ، وأنها الى أن يتم الزواج (اذا هو تم) تحتفظ لنفسها بحرية أن تقول : « لا » ، حتى آخر لحظة ؛ ومنحت جانبا هذه الحرية نفسها على كل حال •

وسرعان ما علم جانبا علم اليقين ، بفضل مصادفة مواتية ، أن اعتراض أسرته كلها على هذا الزواج ، واعتراضها على شخص ناستاسيا فيليوفنا نفسها ، وهو اعتراض كانت تفضحه مشاجرات متكررة ، كانت ناستاسيا فيليوفنا تعرفه بجميع تفاصيله • ومع ذلك لم تكلمه عنه فى يوم من الأيام ، مع أنه كان يتوقع أن تفتحه فيه كل يوم •

على أن هناك أشياء كثيرة أخرى ينبغي أن نقولها عن الظروف والأحداث التي أثارها مشروع الزواج هذا ، والتي أثارها المباحث بين الصديقين ، ولكننا قد استبقنا منذ الآن أموراً كثيرة ، لا سيما وأن بعض الظروف نم تكن تبدو في ذلك الأوان الا شائعات غامضة جداً .

من ذلك ما قيل من أن توتسكى قد علم ، لا أدري من أين ، أن ناستاسيا فيليوفا أصبحت لها علاقات سرية غير محدّدة المعالم ولا واضحة الغايات بالآسات ايبانتشين ؛ وهى شائعة لا يمكن أن يصدقها العقل . وفى مقابل هذا صدّق توتسكى رغم ارادته شائعة أخرى أخذت تسبب له فى الليل احلاماً ثقيلة وكوابيس مرهقة : لقد أكد له بعضهم أن ناستاسيا فيليوفا كانت على علم كامل بأن جانيا لن يتزوجها الا فى سبيل المال وحده ، وانه امرؤ حقير النفس ، أسود القلب ، شديد الطمع ، قليل الصبر ، حسود ، لا يحب الا نفسه ، ولا يسعى الا وراء مصلحته ؛ وقيل ان ناستاسيا قد علمت كذلك أن جانيا ان كان قد سعى الى الظفر بها فى الماضى عاشقاً مولهاً ، فانه منذ اليوم الذى قرر فيه الصديقان أن يستغلا غرامه لمصلحتها يبيعه ناستاسيا فيليوفا زوجةً شرعية له ، قد أخذ يكرهها كرهاً شديداً ويبغضها بغضاً قوياً فكأنها جائنوم أو كابوس ؛ ثم اختلقت الشهوة والكراهية فى نفسه اختلاطاً عجيباً ، حتى اذا قرر أخيراً ، بعد تردد طويل أليم ، أن يتزوج هذه « المرأة الفاسدة » ، كان فى قرارة نفسه قد حلف ليستقمن منها شرّاً انتقام ، وليجعلنها تدفع ثمن ذلك كله غالياً باهظاً . وقيل ان ناستاسيا فيليوفا كانت على علم بكل شيء ، وانها كانت تدبّر فى الخفاء أمراً .

وقد بلغ توتسكى من الخوف أنه أصبح لا يطلع ايبانتشين على هواجسه وعلى ما يحس به من نذر الشؤم . ومع ذلك كان فى بعض اللحظات يسترد رباطة جأشه ويستعيد تفاؤله ونشاطه واتعاشه ، كما يقع

هذا لكل انسان • ذلك ما حدث له ، مثلاً ، حين وعدت ناستاسيا فيليوفنا
اصدقاءها أخيراً بأن تعلن لهم كلمتها الأخيرة فى مساء الاحتفال بعيد
ميلادها •

غير أن هناك شائمة أخرى هى أغرب الشائعات وأبعدها عن أن
يصدقها العقل ، شائعة تتعلق بالمحترم ايفان فيدوروفتش نفسه ، كانت
تؤكد شيئاً بعد شيء وا أسفاه !

كان ذلك كله يبدو من النظرة الأولى جنوناً محضاً • لقد كان من
الصعب على المرء أن يصدق أن رجلاً مثل ايفان فيدوروفتش ، يمكنه
فى ختام حياته المشرقة الكريمة ، مع ما يملكه من سلامة الحس ورجاحة
العقل وسعة التجربة وغنى الخبرة وما الى ذلك ، أن يقع هو نفسه فى
غرام ناستاسيا فيليوفنا ، وأن تبلغ نزوته هذه حدّاً يشبه أن يكون حد
الوله العنيف والهوى الجارف • ماذا كان يأمل ؟ ان من الصعب على المرء
أن يجيب عن هذا السؤال • ولعل ايفان فيدوروفتش كان يعوّل على
على التواطؤ مع جانيا • ولقد كان توتسكى ، على كل حال ، يشتبه فى
وجود نوع من الاتفاق المضمّر بين الجنرال وجانيا ، وهو اتفاق قائم على
فهم متبادل • ومن المعروف أن الرجل الذى يستسلم لهوى جارف ،
ولا سيما اذا كان متقدماً فى السن ، قد يعمى عماوة كاملة ، فاذا هو يرى
أملاً حيث لا أمل ، واذا هو يفقد سداد الرأى وصدق الحكم فقدأ تماماً ،
واذا هو يتصرف تصرف صبي غرّ مهما يكن عظيم الذكاء !

كان معروفاً أن الجنرال قد هبّاً بعيد ميلاد ناستاسيا فيليوفنا عقدأ من
اللؤلؤ كلفة مبلغاً ضخماً ، وانه كان يعوّل على هذه الهدية كثيراً ، رغم
علمه بأن ناستاسيا فيليوفنا امرأة زاهدة فى المنفعة • وكان فى عشية عيد
الميلاد محموماً من شدة الاضطراب ، ولكنه استطاع أن يحسن اخفاء
عواطفه بحذق وبراعة •

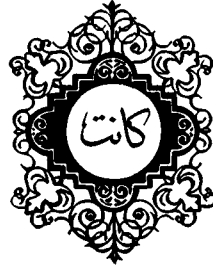
وعن ذلك العقد من اللؤلؤ انما كانت الجنرالة ايباتشين قد سمعت
الناس يتحدثون !

صحيح أن الزبابت بروكوفينا قد استطاعت منذ مدة طويلة أن
تدرك خفة زوجها وطيشه ، حتى لقد ألفت فيه هذه الخفة وهذا الطيش
واعتادت عليهما بعض الاعتياد • ولكن لم يكن في وسعها طبعاً أن تدع
لحادث خطير كهذا الحادث أن يتم • ان حكاية اللؤلؤ هذه تهمها الى أبعد
حد • وقد أدرك الجنرال الأمر في الوقت المناسب • انه منذ الليلة البارحة
قد سمع بضع كلمات ذات دلالة ، وهو يوجس أن مناقشة حاسمة ستقوم
اليوم •

لهذا السبب كان الجنرال ، في هذا الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا ،
لا يشعر بأى رغبة في أن يتناول طعام الافطار مع الأسرة • ولذلك كان
قد قرر ، حتى قبل وصول الأمير ، أن ينصرف من البيت بحجة العمل •
وكانت كلمة « الانصراف » تعنى عند الجنرال في بعض الأحيان « الفرار » !
كان لا يطمع في أكثر من أن يقضى النهار ، ولا سيما السهرة ،
بدون حادث ينقّص عليه صفوه •

وفجأة وصل الأمير في هذا الوقت المناسب •
قال الجنرال لنفسه وهو يدخل على زوجته : « الله أرسله » ! •••

الفصل الخامس



الجنرالة شديدة الاعتزاز بنبل محتدها • ففي
وسمك أن تتخيل انفعالها حين علمت • دون أى
تمهيد • ان ذلك الأمير ميشكين نفسه • الرجل
الأخير من سلالة أسرتها • الذى سبق أن سمعت
عنه أشياء غامضة • ليس الا شاباً مسكيناً أبله • يكاد يكون معوزاً •
ويضطره فقره الى قبول مساعدة أو معونة • وقد حرص الجنرال على أن
يوقظ فى نفس زوجته انفعالاً قوياً وأن يبعث فيها اهتماماً شديداً • ليصرفها
عن الموضوع الذى كان يشغل بالها • ويتحاشى بذلك أن تخوض فى موضوع
عقد اللؤلؤ •

حين تكون الجنرالة فى حالات قصوى • فانها تحملى بعينها • وترد
جسمها الى وراء • وتأخذ تنظر الى أمام زائفة الهيئة لا تقول كلمة
واحدة •

هى امرأة فارعة القوام • فى سنّ زوجها • شعرها أسمر قد ملأه
الشيب لكنه ما يزال كثيفاً • أنفها محدودب قليلاً • وجهها ضامر نحيل
أصفر • خذاها خاسفتان • شفتاها رقيقتان منضمتان • جبينها عال لكنه
ضيق • عيناها شهبوان واسعتان لهما فى بعض الأحيان تعبير لا يتوقعه المرء
البته • وقد ألفت منذ القديم أن تعتقد أن لنظرتها تأثيراً كبيراً • ثم بقيت
لها هذه القناعة الى الأبد •

– أن أستقبله ؟ تريد منى أن أستقبله الآن ؟ فوراً ؟

كذلك قالت الجئالة محملة بكل ما أوتيت من قوة ، محدقة الى ايفان فيدوروفتش الشيط الذي كان يتحرك حولها •

أسرع الزوج يجيها موضحاً :

– لا حاجة بك الى كثير من الاحتفال ومن التقيد بالمراسم معه ، اذا كنت تريدان أن تريه يا عزيزتى • انه لطفل حقاً ، بل انه ليشير بمض الشفقة • انه مصاب بنوبات مرض لا أدري ما هو ! لقد وصل الآن من سويسرا مرتدياً ثياباً غريبة كأنها على الزى الألمانى ، وليس معه قرش واحد ، حتى ليكاد يذرف دموعاً • أعطيته خمسة وعشرين روبلاً ، وآمل أن أجد له عملاً كتابياً صغيراً ! •• وأرجوكن ، يا سيداتى ، أن تطعمنه ، فانه ليخيل الى أنه فوق ذلك جائع جداً •••

تابعت الجئالة كلامها تقول بتلك اللهجة نفسها :

– انك لتدهشنى ! جائع وذو نوبات ؟ نوبات ماذا ؟

– أوه ! النوبات لا يصاب بها فى أحيان كثيرة ؛ ثم انه يكاد يكون طفلاً ، رغم أنه مثقف •

قال الجئال ذلك ثم التفت نحو بناته مرة أخرى وأضاف :

– نويت يا سيداتى أن أجرى له امتحاناً صغيراً • ليس ضاراً أن نعرف ما هو عليه قادر •

قالت الجئالة متحيرة أعمق التحير ، وهى لا تنفك تجل عينها منتقلةً بهما من زوجها الى بناتها ومن بناتها الى زوجها :

– ام ••• ت ••• ح ••• ن ؟

– آه ••• عزيزتى ••• لا تولى هذا الأمر شأنًا كبيراً ، ولا تقيمي

له أى وزن ! الخلاصة : افعل ما يحلو لك • لقد قام فى ذهنى أن أستقبله
استقبالاً لطيفاً ، وأن أدخله الى الأسرة ، لأن ذلك بدا لى عملاً حسناً
وفعلاً طيباً •

— أن تدخله الينا ؟ آت من سويسرا ؟...

— ما قيمة أن يكون آتياً من سويسرا ؟ على كل حال ، لن يكون الا
ما تريدن • ولئن تكلمت فى هذا الأمر ، فلأن الشاب يحمل اسم
أسرتك ، وقد يكون قريباً لك ؛ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه
لا يعرف حقاً أين يمكنه أن يوسّد رأسه • حتى لقد اعتقدت أن أمره
سيغنيك بعض الشيء ، لأنه واحد من السلالة على كل حال •

قالت البنت الكبرى ، الكسندرا :

— طبعاً يا ماما ، اذا كان فى وسعنا أن نستقبله بلا احتفال أو كلفة
أو تقيد بالمراسم ، وما دام جائعاً بعد رحلة طويلة ذلك الطول ، فلماذا
لا ندعوه الى أن يطعم معنا ؟ لا سيما اذا كان لا يعرف الى أين يذهب ••
— وهو فوق ذلك طفل حقيقى فيما يبدو ، حتى ليتمكن أن يلعب
المرء لعبة « كولان مايار » !...••

— لعبة « كولان مايار » ؟ ما هذا الكلام ؟

قاطعتها آجلانيا تقول بشيء من الحزن :

— أو ! ماما ! كفاك تظاهراً ، أرجوك •••

فلم تستطع البنت الثانية ، ذات الطبع الضاحك ، أن تكظم مرحها ،
فاذا هى تنفجر مقهقهة •

وقالت آجلانيا جازمة :

— أرسل اليه أن يجيىء يا بابا •

فرنَّ الجنرال الجرس وأصدر أمره بادخال الأمير ♦

قالت الجنرالة بحزم :

— ولكن على شرط أن نعقد حول عنقه منشقة حين يجلس الى
المائدة ♦ نادوا فيدور أو نادوا مافرا ليكون أحد وراءه يراقبه اثناء تناوله
الطعام ♦ أهو هادىء على الأقل حين توافيه تلك النوبات ؟ ألا يحرّك يديه
بإشارات ؟

— بالعكس ♦♦♦ انه مهذبّ لطيف يتقن آداب المجتمع ويتقيد بها♦
كل ما هنالك أنه قد يكون بسيطاً ساذجاً فى بعض الأحيان ♦ ها هو ذا
بنفسه على كل حال ! أقدم اليك الأمير ميشكين ، آخر من يحمل اسم
هذه السلالة ، ولعله قريب لنا ، فاستقبله بما يجب له من عاطفة ♦ سيهياً
الافطار يا أمير ، فشرّقنا بأن ♦♦♦ أما أنا فأرجوك أن تعذرني ♦♦♦ لأننى
مستعجل جداً ، حتى لقد تأخرت ♦♦♦

قالت الجنرالة بهيئة وقور :

— لا نجهل المكان الذى تستعجل الذهاب اليه !

— مستعجل جداً ، مستعجل جداً يا عزيزتى ، حتى لقد تأخرت !
ناولته دفاتر كنى ، يا سيداتى ، ليكتب لكن شيئاً ♦♦♦ انه خطاط ذو موهبة
نادرة ! موهبة ! لقد خطّ لى منذ برهة فى مكتبى عبارة : « ان المطران
بافنوس قد مهر هذا بتوقيعه » ♦♦♦ الى اللقاء ، الى اللقاء !

قالت الجنرالة :

— بافنوس ؟ مطران ؟

وبينما كان زوجها يتقهقر الى وراء ، صرخت تقول ملحةً محتدةً
احتداداً متزايداً يشوبه قلق :

- انتظر ! انتظر ! الى أين أنت ذاهب ؟ من هو بافنوس هذا ؟

- نعم نعم يا عزيزتى ، كان فى الزمان القديم مطران بهذا الاسم ..
ولكن الكونت ينتظرنى منذ مدة طويلة ، وهو الذى حدّد لى الساعة .
يا أمير ، الى لقاء قريب

وانسحب الجنرال مسرعاً أشد الاسراع .
قالت اليزابت بروكوفينا مفتاظة وهى تنقل نظرتها الحائقة نحو
الأمير :

- أنا أعرف أى كونت يعنى !
ثم أضافت تقول محاولةً أن تتذكر وقد لاح فى وجهها تبسم
واحتقار :

- هيه ! ما هى المسألة ؟ آ نعم من هو ذلك المطران ؟
حاولت ألكسندرا أن تتدخل (بينما كانت آجلايا تخطب بقدمها
الأرض نافذة الصبر) فقالت :

- ملما !

فقالت الجنرالة جازمة :

- لا تقاطعنى يا ألكسندرا ! أنا أيضاً أريد أن أعرف ! اجلس هنا
يا أمير ، على الكرسي الذى يقع قبالتى .. لا بل اجلس هنا ، فى الشمس ؛
اقرب من الضوء لأراك رؤية أوضح . طيب والآن حدثنى عن ذلك
المطران !

بدأ الأمير يتكلم وقد ظهر فى وجهه الانتباه والجد :

- هو المطران بافنوس

- بافوس ؟ عجيب ... هيه ... ثم ماذا ؟

كانت الجنرالة تلقى هذه الأسئلة نافذة الصبر دون أن تحوّل عنه بصرها ، وكانت تصاحب كل كلمة من كلمات جواب الأمير بهزّة من رأسها •

قال الأمير :

- عاش المطران بافوس فى القرن الرابع عشر ، وكان يرأس صومعة للنسك على نهر الفولجا فى الاقليم الذى يسمى الآن اقليم كوستروما • وقد اشتهر بحياته التقية الودعة ، وذهب مراراً الى بلاد التتار لحل أمور مختلفة • ففى مناسبة من تلك المناسبات ذيلّ احدى الوثائق بتوقيعه ، وقد رأيت أنا نسخة منها ، فأعجبني الخط ، فتعلمت محاكاته • ومنذ قليل حين أراد الجنرال أن يرى خطى ليجد لى عملاً ، كتبت عدة عبارات بأحرف مختلفة ، فكانت احدى هذه العبارات : « ان المطران بافوس قد وقّع هذا بخط يده » ، وقد كتبتها على طريقة بافوس فى الخط ، فأعجب الجنرال بها كثيراً ، والى هذا انما أشار منذ هنيهة •

قالت الجنرالة :

- يا أجلايا ، تذكرى : بافوس ؛ بل سجلى ، فأنا أنسى كل شىء •

لكنى أعترف بأننى كنت أتوقع شيئاً أهمّ من هذا • أين ذلك التوقيع ؟

- أظن أنه بقى على المنضدة فى مكتب الأمير •

- هاتونى به حالاً •

- لكننى أستطيع أن أخطه لك مرةً أخرى اذا شئت •

قالت ألكسندرا :

- طبعاً يا ماما ؛ والأفضل أن نأكل الآن ، فاتنا جميعاً جياع •

قالت الجنرالة :

- طيب • تعال يا أمير : أأنت جائع جداً ؟

- نعم ، بدأت أشعر الآن بجوع ؛ واني لأشكرك أجزل الشكر •

- حسن جداً أنك مؤدب مهذب ؛ واني لألاحظ أنك لست غريباً

الى الحد الذى أرادوا أن يصلوا اليه فى تصوير غرابتك • تعال ، اجلس

هنا ، قبالتي ، لأستطيع أن أنظر اليك (كذلك قالت له متحركة مشغلة

مهمة ، حين صاروا جميعاً فى قاعة الطعام) • ألكسندرا ، آديلايد ،

اهتما بالأمير ؟ ألا تريان أنه ليس مريضاً الى الحد الذى ••• ؟ ربما كنا

فى غير حاجة الى المنشفة • قل لى يا أمير : هل كانوا يعقدون منشفة حول

رقيبك ؟

- نعم ، أظن ، فى الماضى ، حين كان عمرى سبع سنين • أما الآن

فقد تعودت أن أضع المنشفة على ركبتي •

- هذا ما يجب • ونوباتك ؟

قال الأمير مدهوشاً بعض الدهشة :

- نوباتي ؟ أصبحت الآن نادرة • مع ذلك ••• لا أدرى ! يقال

ان المناخ هنا لن يكون مناسباً لحالتي الصحية •

قالت الجنرالة مخاطبةً بناتها وهى ما تزال تصاحب كل كلمة من

كلمات الأمير بهزة من رأسها :

- انه يجيد الكلام • لم أكن أتوقع ذلك • اذن لم يكن كل ما قيل

الا أكاذيب وترهات باطلة ، كالعادة !

ثم عادت تخاطب الأمير فقالت له :

- 'كل' يا أمير ، وقصّ علينا أين وُلدت وأين نشأت وترعرعت

وتربيت • أريد أن أعرف كل شئ • ان أمرك يهمنى كثيراً •

شكرها الأمير ، وأخذ يكرر ما سبق أن رواه مراراً في تلك
الصبيحة من النهار ... أخذ يكرره وهو يأكل بشهية كبيرة ..

ازداد ارتياح الجنرالة ورضاها شيئاً بعد شيء . وكانت البنات أيضاً
تصنّى الى حديث الأمير بانتباه . واستعرضت القرابة ، فاتفقت أن الأمير
يعرف شجرة النسب معرفة جيدة ، ولكنهم رغم جميع الجهود لم يتمكنوا
من العثور على أى قرابة تربط الأمير بالجنرالة . كل ما هنالك أنهم
يستطيعون أن يتصوروا أن قد كان بين الأسلاف الأبعدين قرابة غامضة
كالقرابة التى تكون بين أبناء الأعمام . وقد سرّت الجنرالة كثيراً بالحوض
فى هذا الموضوع الصعب ، لأنها رغم كل رغبتها ، قلّما أتيح لها قبل اليوم
أن تتحدث عن أجدادها ، لذلك نهضت عن المائدة منتعشة انتعاشاً كبيراً .
قالت :

– الأفضل أن نمضى الى قاعة الاجتماع ، فستحمل القهوة إلينا هناك .
وأضافت تشرح للأمير وهى تجرّه :

– هى غرفة مشتركة لنا جميعاً ، بل قل هى صالونى الصغير الذى
نجتمع فيه حين نكون وحيدات ، وتكون كل واحدة منا منصرفة الى
شئونها : فابتنى الكبرى ، الكسندرا ، تمزق على البيانو أو تقرأ أو تخطط ؛
وابتنى آديلايد ترسم مناظر طبيعية أو وجوهاً انسانية (دون أن تنهى أى
شئ فى يوم من الأيام) ؛ أما أجلايا فأنها لا تعمل شيئاً البتة . وأنا
أيضاً يسقط الشغل من بين يدي ، ولا أفصح فى انجاز شئ . ها نحن
أولاء وصلنا . اجلس يا أمير ، قرب المدفأة ، واقصص علينا . أريد أن
أعرف كيف تحكى . أريد أن أتأكد من ذلك ، فإذا رأيت الأميرة
المجوز بيلوكونسكايا حدثتها عنك . أريد أن تثير اهتمام الجميع . فهياً
تكلم !

قالت آديلايد التي كانت فى أثناء ذلك قد ركزت حاملة لوحاتها وتناولت فرائشها وصحن ألوانها وأخذت تنقل عن صورة مطبوعة منظراً طبيعياً كانت قد بدأت تصويره منذ مدة طويلة ، قالت :

- ماما ، يصعب على الانسان كثيراً أن يحكى ويقص فى ظروف كهذه الظروف التى تحيطين بها الأمير .

وجلست الكسندرا وآجلايا احدهما الى جانب الأخرى على أريكة صغيرة ، وقد عقدت كل منهما يديها على صدرها ، واستعدت للاصغاء الى الحديث . ولاحظ الأمير أن انتباه الجميع منصرف اليه منصب عليه .
قالت آجلايا :

- ما كنت لأحكى شيئاً أو لأقص شيئاً لو أُمّرت بهذا أمراً على هذا النحو .

- فقالت الجئراة :

- لماذا ؟ أى شىء خارق فى هذا ؟ ما عسى يمنعه من الكلام ؟ ان له لساناً . أريد أن أعرف كيف يجيد الحديث . اقصص ما تشاء . قل لنا هل أعجبتك سويسرا ، صِفْ لنا انطباعتك الأول هناك . سوف ترين : انه سيبدأ ، وسيجيد الحديث أيما اجادة .
بدأ الأمير الكلام فقال :

- كان انطباعى الأول قوياً جداً ...

فقاطعت الجئراة النافذة الصبر ، متلفتة الى بناتها قائلة لهن :

- هل رأيتم ؟ هل رأيتم ؟ لقد بدأ ...

فأوقفتها الكسندرا قائلة :

- دعيه يتكلم على الأقل يا ماما !

وهمست تقول لأختها آجلايا :

– قد يكون هذا الأمير مكارراً كبيراً ، لا أبله البتة !

فأجابتها آجلايا تقول :

– هذه حقيقة أكيدة لاحظتها منذ مدة • وانها لدناءة منه أن يمثل دور الأبله • هل يظن أنه يجنى من ذلك نفعاً ما ؟

استأنف الأمير كلامه فقال :

– كان انطباعى الأول قوياً جداً • حين أخذونى من روسيا واجتزنا مدناً ألمانية ، كنت لا أزيد على أن أنظر صامتاً ، وكنت لا ألقى أى سؤال (ما زلت أذكر هذا) وقد حدث ذلك فى أعقاب نوبات من مرضى عنيفة جداً أليمة جداً • وقد ألفت ، فى أوان النوبات ، حين يكثر تعاقبها ، أن أُصبح فى حالة انصحاق ، فأفقد ذاكرتى فقداناً تاماً ، وينقطع مجرى المنطق فى أفكارى ، (رغم أن فكرى يظل يعمل) فلا يتسلسل فى ذهنى أكثر من فكرتين أو ثلاث • أو ذلك هو على كل حال الانطباع الذى بقى فى نفسى • حتى اذا هدأت النوبة رجعت سليماً معافى ، قوياً كقونى الآن •

« أذكر أنني أحسست حينذاك بحزن لا يطاق ، حتى لقد استبدت بى رغبة فى البكاء • كنت لا أزيد على أن أشعر بدهشة وقلق • لقد فجأنى كثيراً أن كل شئ حولى كان أجنبياً • نعم ، لقد أصبحت فى «الخارج» • فهمت ذلك • ان هذا « الخارج » كله يهوى بى الى قاع الحزن واليأس • ثم لم أخرج من تلك الظلمات خروجاً كاملاً – ما زلت أذكر هذا – الا فى المساء ، بمدينة بال ، عند وصولنا الى سويسرا • وان نهقة حمار فى ميدان السوق هى التى أيقظتني من انصعافى • لقد أثرت نهقة الحمار فى نفسى تأثيراً قوياً ، وأعجبتنى اعجاباً شديداً ، لا أدرى لماذا ؟ وفى الوقت نفسه كان كل شئ فى رأسى يضىء • • • • »

قالت الجنرالة :

- حمار ؟ غريب ؟؟؟ ولكن لا ؟؟؟ لا غرابة • ان بيننا نحن معشر النساء من يقعن فى غرام حمار •

أضافت الجنرالة هذه الجملة الأخيرة ، وهى تنظر شبه غاضبة الى القتيات ، اللواتى كن يضحكن • وأردفت تقول :

- وذلك شئء تكلمت عنه أساطير اليونان الأقدمين • أكمل كلامك يا أمير •

تابع الأمير حديثه فقال :

- ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحب الحمير حباً عظيماً • أصبح هذا عندى عاطفة حقيقية صادقة • وأخذت أجمع معلومات عن الحمير • لم أكن قد رأيت حماراً قبل ذلك اليوم ؛ وسرعان ما عرفت أن الحمار حيوان مفيد جداً ، وأنه قوى نشيط صبور قنوع ذو مقاومة وجلد • وبواسطة هذا الحمار أخذت سويسرا كلها تعجبى ، فأنتهى ذلك حزنى •

- هذا كله غريب حقاً ، ولكن دعنا ؟؟؟ ولننتقل الى موضوع آخر • ما الذى يضحكك يا آجلایا ، وأنت يا آديلايد ؟ لقد تحدث الأمير عن الحمار فأجاد الحديث • هو رآه بنفسه ، فماذا رأيت أنت ؟ أنت لم تسافرى يوماً الى الخارج •

قالت آديلايد :

- سبق أن رأيت حماراً يا ماما !

وأضافت آجلایا :

- وأنا قد سمعت حماراً •

وأخذت البنات الثلاث تضحك • وضحك الأمير أيضاً •
قالت الجنرالة :

- هذا منكن شر وسوء ! اعذرهن يا أمير ، فانهن بنات طيبات
القلب ، واني لأشاجرهن دائماً ، لكنني أحبهن • هن طائشات العقل
مجنونات !...

قال الأمير ضاحكاً :

- لماذا ؟ لو كنت في مكانهن لما فوتُ الفرصة أيضاً • على كل حال،
أنا أعشق الحمار : الحمار شخص طيب مفيد •

قالت الجنرالة :

- وأنت يا أمير ، هل أنت طيب ؟ أسألك عن هذا من باب حب
الاطلاع •

وأخذ الجميع يضحكون من جديد •
وهتفت الجنرالة تقول :

- أنا أقصد ذلك الحمار اللعين ، ولم يخطر الأمير ببالى • تقى يا أمير
اننى لم أعقد أى ...
- مقارنة ؟

هكذا ساعدها الأمير فى اتمام جملتها ، وأضاف يقول وهو ما يزال
يضحك :

- لم يساورننى أى شك فى هذا !

قالت الجنرالة :

- حسن جداً أنك تضحك • اننى أدرك من هذا أنك شاب
طيب جداً •

أجاب الأمير :

- يتفق لى ألا أكون كذلك !

قالت الجنرالة على نحو غير متوقع :

- وأنا أيضاً طيبة ؛ بل قل ان شئت اننى طيبة دائماً ، وذلك عيى الوحيد ، لأن على الانسان ألا يكون طيباً على الدوام • اننى كثيراً ما أغضب منهن ، ومن ايفان فيدوروفتش خاصة ، ولكن المؤسف المحزن هو أننى لا أكون فى لحظة من اللحظات طيبةً كطيبتى أثناء الغضب ! منذ برهة ، قبل وصولك ، كنت قد غضبت فظاهرت بأننى لا أفهم شيئاً • ذلك يحدث لى أحياناً كما يحدث للأطفال • لقد لقيتسى آجلايا درساً • شكراً لك على هذا الدرس يا آجلايا • على كل حال ، ما أسخف هذا كله ! ترهات فى ترهات !... ما أنا بالغبية الى الحد الذى يبدو علىّ ، أو الى الحد الذى تريد أن توهم به بناتى • ان لى ارادة قوية وعزيمة صلبة ، ولست أخرج كثيراً • تعالى الى هنا يا آجلايا وقبّلينى ...

ثم قالت الجنرالة حين قبّلتها آجلايا على شفتيها ويدها بكثير من العاطفة :

- وكفاك عواطف سخيفة !

ثم التفتت الى الأمير تقول له :

- واصل حديثك يا أمير • قد تتذكر شيئاً يشوق الحديث' عنه أكثر مما يشوق الحديث' عن ذلك الحمار !

قالت آجلايا :

- ما زلت لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يحكى شيئاً على هذا النحو • لو طلب الىّ ما يُطلب اليه لما وجدت شيئاً أقوله •

- ولكن الأمير سيجد ما يقوله ، لأن الأمير ذكى الى أبعد حدود

الذكاء ؟ هو أذكى منك عشر مرات على الأقل ، أو اثنتى عشرة مرة •
أرجو أن تدركى هذا من الآن • برهن لهن على صحة قولى يا أمير ،
وأكمل • أما الحمار فنستطيع فعلاً أن ندعه الآن وشأنه • هيه ، ماذا رأيت
فى الخارج ، عدا ذلك الحمار ؟

قالت ألكسندرا :

- كان الحديث عن الحمار ذكياً جداً كذلك • لقد وصف لنا الأمير
حالته المرضية وصفاً شائقاً ، وذكر لنا كيف استرد حبه للأشياء على أثر
صدمة خارجية • لقد طالما اشتقت أن أعرف كيف يفقد الانسان عقله وكيف
يمكن أن يسترده ، ولا سيما حين يتم ذلك على نحو مباغت !

صاحت الجزالة تقول :

- أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أرى الآن أنه يتفق لك أيضاً أن
تكونى ذكية فى بعض الأحيان • والآن كفى ضحكاً ! أظن يا أمير أنك
توقفت عن الكلام حين وصلت الى وصف الطبيعة السويسرية ، فماذا عن
الطبيعة بسويسرا ؟

قال الأمير :

- وصلنا الى لوسيرن ، وقادونى فى تزهة على البحيرة • كنت أحس
أن هذا جميل ، ومع ذلك كنت منقبض الصدر •

سألت ألكسندرا :

- لماذا ؟

فأجاب الأمير :

- أنا نفسى لا أفهم علة ذلك • انى أشعر دائماً بانقباض فى صدرى،

وتمتلئ نفسي قلقاً حين أرى منظراً من هذا النوع أول مرة • على كل حال ، كان هذا يحدث أيام كنت ما أزال مريضاً

- أما أنا فكان يسعدني أن أرى ذلك كله • انى لأتساءل هل سنعزم أمرنا على السفر الى الخارج فى يوم من الأيام • لقد أصبحت منذ عامين لا أجد موضوعاً للوحة أرسماها :

« وُصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل » * •

يا أمير ، هلاًّ وجدت لى موضوع لوحة ارسماها !

قال الأمير :

- لست فى هذا المجال على شىء من خبرة • يخيّل الىّ أنه ليس على الرسام الا أن ينظر ويرسم •

- أنا لا أّحسن النظر •

قاطعهما الجئراالة قائلة :

- ما بالكما تتكلمان فى ألفاظ ؟ لست أفهم مما تقولان شيئاً ! ما هذا الذى تزعمينه ؟ « لست أحسن النظر » ! ان لك عيين فما عليك اذن الا أن تنظري ! واذا لم تستطعي أن تنظري هنا ، فلن تتعلمي فى الخارج أن تنظري • الأفضل أن تقول لنا يا أمير كيف كنت تنظر أنت ؟

قالت آديلايد :

- هذا أفضل • ان الأمير قد تعلم فى الخارج كيف يحسن النظر !

- لا أدرى كثيراً ! أنا لم أزد هنالك على أن أسترده صحتي • لا أدرى هل تعلمت أن أنظر • على كل حال ، كنت سعيداً طوال الوقت !

هتفت آجلايا :

- كنت سعيداً ؟ أنت تعرف كيف تكون سعيداً ؟ فكيف تستطيع أن

تقول اذن انك لم تتعلم أن تنتظر ؟ لا بد أن تكون قادراً على أن تعلمنا ما تعلمت !

قالت آديلايد وهي ما تزال تضحك :

- نعم ، علمنا ما تعلمت !

قال الأمير وهو يشاركهن الضحك :

- لا أستطيع أن أعلم أحداً شيئاً . اننى طوال الوقت الذى قضيته فى الخارج تقريباً ، قد عشت فى تلك القرية السويسرية الصغيرة ، ولم أكن أتركها الا فى القليل النادر لأقوم برحلة قصيرة . فماذا أستطيع أن أعلمكن ؟ كل ما ظفرت به فى البداية هو أننى استطعت ألا أشعر بملل وسأم . وتحسنت صحتى تحسناً سريعاً . وبعد ذلك أصبح كل يوم من الأيام نميناً فى نظرى ، أئمن فائمن ، وكنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً . كنت أرقد فى المساء سعيداً جداً ، وأستيقظ فى الصباح أشد سعادة أيضاً . أما سبب ذلك فأمر لا أدري كيف أعبر عنه !
سألته ألكسندرا :

- هل بلغت من السعادة أنك أصبحت لا تتوق الى شيء فى غير ذلك المكان ؟

- بلى ! فى البداية شعرت بذلك النوع من النداء ، فكنت أحس من ذلك بقلق وغم . كنت أفكر فى المستقبل ، وأتمنى أن أستشرف مصيرى . وكنت فى بعض اللحظات اضطررب اضطراباً كبيراً . ان هناك لحظات من هذا النوع كما تعلمين ، ولا سيما فى العزلة . كان فى تلك القرية الصغيرة شلال صغير نحيل يشبه أن يكون خيطاً من ماء ، يسقط من علو شاهق ، ويكاد يكون عمودياً ، وهو أبيض مزبد مرغٍ صاحب . انه يسقط من علو شاهق جداً ، ولكن المرء لا يشعر بالارتفاع الذى يسقط منه . ان

المسافة تبلغ نصف فرسخ علواً ، ولكن المرء يحسها خمسين خطوة • كنت أحب أن اسمع صوت سقوط الماء ليلاً • وفي تلك اللحظات انما كان يزداد اضطرابي •

« وفي بعض الأحيان أيضاً ، أثناء النهار ، على مكان ما من الجبل ، كنت أتوقف وحيداً بعد صعود طويل • من حولي أشجار صنوبر ضخمة قديمة تفوح منها رائحة الراتينج • وفي بعيد ، على مستوى أدنى ، تلوح قرينتا الصغيرة التي لا تكاد تُرى • والشمس تسطع • والسماء زرقاء • والصمت مطلق • فهناك انما كنت أحس أحياناً ذلك النداء نحو المجهول ، وأفدّر أنسى لو مضيت الى أمام قدماً ، وأوغلت الى بعيد ، الى بعيد ، وتجاوزت ذلك الخط الذي تلتقى عنده الأرض بالسماء ، فسأجد جواباً عن كل شيء ، وسرعان ما تنكشف لي حياة جديدة ، أكتف كثافة وأعنف عنفاً وأحرّ حرارة من الحياة عندنا ألف مرة • وكنت أحلم بمدينة كبرى مثل نابولي ، ملأى بالقصور ، وبالصخب ، وبالحركة ، وبالحياة ••• ما أكثر الأشياء التي حلمت بها !• ليس هناك شيء لم أحلم به ! وبعد ذلك خيل الى أن المرء يستطيع حتى في السجن أن يجد حياة عريضة واسعة • »

قالت آجلانيا :

– هذه الفكرة الأخيرة المحمودة سبق أن قرأتها في كتاب مختارات حين كنت في الثانية عشرة من عمري •

وقالت آديلانيد :

– هذا كله فلسفة • أنت فيلسوف جئت تعلمنا الحكمة !

قال الأمير مبتسماً :

– قد تكونين على حق • ربما كنت فيلسوفاً بالفعل ؛ ومن يدري ؟

لعلني أنوى أن أعلمكن الحكمة أيضاً ••• هذا جائز ، جائز جداً •

استأنفت آجاليا كلامها فقالت :

— فلسفتك لا تختلف ، على كل حال ، عن فلسفة أولامبي نيقولايفنا ،
أرملة الموظف التي تجيء إلينا من حين إلى حين متطفلة* . ان المشكلة
الكبرى عندها هي السعر الرخيص والقدرة على العيش بأقل نفقة ، فهي
لا تحسن الكلام الا عن كوبكات* . لاحظ أنها تملك مالاً : انها ماهرة
جداً* . ذلك بعينه هو شأن حياتك العريضة الواسعة في السجن ، ولعله
أيضاً شأنُ سنى سعادتك الأربع التي قضيتها في تلك القرية بائناً مدينة
نابولي ، ربما مع تحقيق شيء من ربح ، وان لم يتجاوز الربح كوبكات* .
قال الأمير :

— أما عن الحياة في السجن ، فمن الجائز ألا يكون كلامي صحيحاً
كل الصحة* . فأنما أنا سمعت هذا الكلام من رجل قضى في السجن قرابة
اثنى عشرة سنة* . انه أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبي* . كان هذا
الرجل يُصاب أحياناً بنوبات ، وكان كثير الحركة والاضطراب والتخبط ،
حتى لقد حاول أن ينتحر* . كانت حياته في السجن حزينة ، أوكد لكنّ
ذلك* . . . ولكن لا شك أنها كانت تساوى أكثر من كوبكات ، مع أنه
لم يكن له الا علاقات الابعكبوته وبشجرة صغيرة نبتت تحت نافذته* . . .
على اننى أفضل أن أقصّ عليك قصة لقاء آخر تم لى في العام الماضى* . ان
فى الأمر الذى سأحكىه لكنّ الآن شيئاً غريباً جداً ، غريباً بندرة حدوثه* .
هو رجل اُقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام ، اُقتيد معهم الى
المكان الذى سيتم فيه تنفيذ الحكم* ، وقرئ عليهم قرار المحكمة باعدامهم
رمياً بالرصاص لجريمة سياسية* . وبعد نحو عشرين دقيقة تلى عليهم قرار
آخر يعفو عنهم ، فبلغى حكم الاعدام ويبدله بحكم بالسجن مع الأشغال
الشاقة* . ولكن فى الفترة التى انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم
الثانى ، أى خلال العشرين دقيقة أو الربع ساعة على الأقل ، عاش الرجل

فى يقين مطلق بأنه ميت لا محالة بعد بضع لحظات • ما كان أشد رغبتي
الرهية فى أن اسمعه يصف المشاعر التى أحس بها أثناء ذلك ! حتى
لقد أخذت ألقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة مراراً ! كان يتذكر كل شيء
بوضوح خارق ، ويؤكد أنه لن يستطيع نسيان تلك الدقائق فى يوم
من الأيام • على مسافة عشرين خطوة من صقالة الاعدام التى وقف
قربها الناس والجنود ، كانت قد دُفَّت فى الأرض أعمدة ثلاثة ، اذ كان
هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالاعدام • اقتيد الثلاثة الأول نحو تلك
الأعمدة ، وشدُّوا اليها ، وألبسوا لباس المحكوم عليهم بالاعدام (وهو
نوع من جلباب طويل أبيض) ؛ وعُصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق •
وبعد ذلك جاءت تقف ، قبالة كل عمود ، زمرة الجنود التى ستطلق رصاص
الاعدام • ان الرجل الذى أحدثكنَّ عنه هو الثامن فى الترتيب • فكان
عليه اذن ان يذهب الى العمود فى الفوج الثالث • وجاء كاهن يبارك
الرجال المحكوم عليهم بالاعدام • ولم يبق لهم من الحياة الا خمس
دقائق يعيشونها • قال لى الرجل ان هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة
طولاً لا نهاية له ، غنية غنى لا ينضب • بدا له أنه خلال هذه الدقائق
الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة أنه ليس فى حاجة ، بعد ، الى
التفكير فى اللحظة الأخيرة • حتى لقد رتبَّ أموره واتخذ اجراماته على هذا
الأساس ، فحدَّد الزمان الذى سيودَّع فيه رفاقه ووقف عليه دقيقتين ،
وعين دقيقتين أخريين للتجمع على نفسه مرة أخيرة ، وترك الوقت الباقي
للقاء نظرة على ما حوله • وانه ليتذكر تذكرأ واضحاً أنه تقيّد بهذا
التوزيع للوقت تقيداً تاماً • كان سيموت وهو فى السابعة والعشرين من
عمره * ، مليئاً بالصحة والعافية ، زاحراً بالنشاط والقوة • وانه ليتذكر
انه حين ودَّع رفاقه ألقى على كل منهم سؤالاً لا علاقة له بالحالة الراهنة ،
حتى انه اهتم اهتماماً كبيراً بسماع أجوبتهم • حتى اذا فرغ من التوديع ،

جاء دور الدقيقتين اللتين نذرهما « للتجمع على نفسه » من أجل التأمل .
كان يعلم سلفاً ما الذى سيفكر فيه . كان يريد أن يتصور بأقصى سرعة
ممكنة وبأكبر وضوح ممكن ما سيحدث : هو الآن هنا ، هو الآن حى ؛
وبعد ثلاث دقائق سيصبح « شيئاً آخر » ، سيصبح شخصاً آخر أو شيئاً
آخر ، ولكن ماذا يصبح ؟ وأين يصبح ؟ كان يقدّر أنه سيعرف ذلك كله
خلال هاتين الدقيقتين ! وفى مكان غير بعيد ، كانت تقوم كيسة تلتصق قبتها
المذهبة تحت أشعة الشمس . انه يتذكر الآن شدة تحديقه الى تلك القبة
والى الأشعة التى كانت تنعكس عليها حينذاك . كان لا يستطيع أن يتزع
نفسه من تأمل تلك الأشعة : كان يترامى له أن تلك الأشعة هى طبيعته
الجديدة ، وأنه بعد ثلاث دقائق سيندمج فيها وينصهر معها . . . ان تلك
الحالة من عدم اليقين ومن الغفلة تجاه المجهول الذى سيحين حينه كانت
رهية فظيعة . ولكنه قال انه لا شئ كان أشقّ على نفسه عندئذ من هذه
الفكرة التى كانت تدور فى خاطره : « ليتنى أستطيع ألا أموت ! ليت
الحياة تُردُّ الى ! ما أعظم الأبدية التى سأنعم بها اذا أمكن ذلك ! لأحيلنَّ
كل دقيقة دهرأ ، ولأحصينَّ جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة ، ولا أبدد
منها واحدة ! » . وقال ان هذه الفكرة قد صارت آخر الأمر الى نوع من
جنون حتى أصبح لا يتمنى الا أن يُطلق عليه الرصاص .
صمت الأمير فجأة . وكان الجميع يتوقعون أن يستمر وأن يستخرج
من كلامه نتيجةً يختمه بها .

سأله آجلانيا :

— هل انتهيت ؟

فقال الأمير وكأنه يخرج من حلم :

— نعم . . . انتهيت !

— ولكن لماذا رويت هذا كله ؟

- هكذا ... تذكرته ... فى سياق الحديث !

قالت ألكسندرا :

- ولكنك أنهيت الكلام انهاءً مباعثاً جداً • لعلك كنت تنوى يا أمير أن تستخرج منه نتيجةً هى أنه ليس فى الحياة لحظة تقاس قيمتها بكوبكات، وإن خمس دقائق من الحياة تساوى كنوز الأرض كلها فى بعض الأحيان؟ هذا كله كلام محمود ... ولكن اسمح لى : ان ذلك الصديق الذى روى لك تلك الأحوال قد خُفِّفَ الحكم عليه من حكم بالاعدام الى حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة ، أليس كذلك ؟ معنى هذا أنه قد وُهِبَ له تلك « الحياة التى لا نهاية لها » ، فكيف استعمل ذلك الغنى كله من بعد ؟ هل عاش يحسب الدقائق فلا يضيع منها دقيقة واحدة ؟

- لا ... لقد ذكر لى الحقيقة هو نفسه ... لأننى سألته فى هذا الموضوع • انه لم يعيش بهذه الطريقة أبداً ، بل بدّد دقائق كثيرة •

- هذه اذن تجربة قاطعة : ليس فى وسع الانسان حقاً أن يعيش حياته « حاسباً » • ولا بد أن لهذا علةً وسيباً •

قال الأمير :

- طبعاً ، لا بد أن يكون لهذا علة وسبب • ويخيّل الى أيضاً ... • لكننى لا أستطيع مع ذلك أن أصدّق ... •
سألته آجلايا :

- هل معنى هذا أنك تتصور أن تحيا حياة فيها من الذكاء والحكمة ما ليس فى حياة الآخرين ؟

- نعم ... • خطر ببالى هذا فى بعض الأحيان •

- ولا يزال يخطر ببالك ؟

- نعم ... أقدر أنني أستطيعه •
بهذا أجاب الأمير وهو يتشم تلك الابتسامة الحجيلى العذبة نفسها ،
ناظراً الى آجلايا • ولكنه لم يلبث أن أخذ يضحك وهو ينظر اليها من
جديد مرحاً •

قالت آجلايا منزعجة بعض الانزعاج :

- يا له من تواضع !

قال الأمير :

- ما أعظم شجاعته ! أتن تضحكن بينما أنا قد أفلقتى هذه القصة
اقلاقاً بلغ من القوة اتنى حملت بها فى نومى ، ولا سيما تلك الدقائق
الخمسة ...

ونظر الأمير الى البنات مرةً أخرى باتباه وجد •
وسألهنّ مضطرباً على حين فجأة ، مع استمراره فى التحديق الى
أعينهن :

- أأتن غاضبات منى ؟

فصاحت الفتيات الثلاث يسألنه مدهوشات :

- ولماذا نغضب ؟

- لأن طريقي فى الكلام تشبه طريقة القاء درس ...

فأخذن يضحكن •

قال الأمير :

- اذا كتن قد غضبتن ، فلا تغضبى بعد الآن ! أنا أعرف أنني
عشت أقل مما عاش الآخرون ، واننى أفهم الحياة أقل مما يفهمها الآخرون •
ولا بد أن طريقي فى الكلام غريبة ! ••

واضطرب الأمير اضطراباً تاماً •
قالت آجلايا بقسوة والحاح :

- ما دمت تقول انك كنت سعيداً ، فلقد عشت أكثر من الآخرين
لا أقل منهم • فعلام الاعتذار والمواربة ؟ ولا يقلقك خاصة أنك تبدو
كمن يلقي درساً ؟ فان هذا لم يكن فيه أى انتصار • ان المرء يستطيع
بمثل تصوفك أن يملأ بالسعادة حياةً طولها مائة سنة • وسواء أأرؤك تنفيذ
حكم بالاعدام أم مدّوا اليك اصبعاً صغيرة ، فانك تستخرج من الأمرين
كليهما فكرة فلسفية وتظل راضياً سعيداً • فما أسهل الحياة هكذا !
تدخلت الجنرالة التي ظلت تدرس وجوه المتحاذين مدة طويلة
فقالت :

- ما لى أراك غاضبة حائرة دائماً ؟ ثم اننى لا أفهم أيضاً عمّ
تتكلمين ! أية اصبع صغيرة تقصدين ؟ ما هذا الهذر كله ؟ ان الأمير يقول
كلاماً حسناً ، وان يكن حزيناً بعض الشيء • فلماذا تحاولين أن تثبطى
همته وتدخلى اليأس الى قلبه ؟ لقد كان يضحك حين بدأ يتكلم ، ثم هاهو
ذا الآن مبهور مصعوق •

- لا بأس يا ماما ! وانها لحسارة يا أمير أنك لم تشهد تنفيذ حكم
بالاعدام فى يوم من الأيام ، والا لسألتك عن بعض الأمور •
أجاب الأمير :

- شهدت تنفيذ حكم بالاعدام •
صاحت آجلايا :

- رأيت اعداماً ؟ كان على أن أقدر ذلك ! هذا يزيد الطين بلة !
فما دمت قد شهدت اعداماً فكيف تستطيع أن تدعى أنك كنت سعيداً طوال
ذلك الوقت ؟ ألم أكن على حق ؟

وسألت آديلايد :

- أكانت تُنفَّذ في قريبتكم أحكام بالاعدام اذن ؟

- شهدت اعداماً بمدينة ليون • كنت قد سافرت الى ليون مع
شنايدر • وتم الاعدام يوم وصولنا •

عادت آجلايا تقول مصرّة ملحة :

- فماذا ؟ هل أعجبك المشهد كثيراً ؟ هل استخرجت منه تعاليم
نافعة ؟

قال الأمير :

- بل لم يعجبني البتة ، حتى انني مرضت بعده قليلاً • لكنني
أعترف بأنني كنت أنظر الى المشهد مشدوداً اليه شدة قوياً فكأنتي
لا أستطيع أن أحوّل بصرى عنه •

قالت آجلايا معترفة :

- أنا أيضاً ما كان لى أن أستطيع أن أحوّل عنه بصرى لو أتيح لى
أن أشهده !

- الناس هنالك لا يحبون للنساء أن تجيء لترى هذه المشاهد ،
حتى انهم يتحدثون عن أمثال هاته النساء فى الجرائد •

- ذلك لأنهم يرون أن هذا ليس من شأن النساء ، فكأنهم يريدون
أن يقولوا ان هذا من شأن الرجال وحدهم وأن يبرروه • يا للمنطق
العجيب ! لا شك أنك تشاطرهم رأيهم •

قالت آديلايد مقاطعة :

- اقصص علينا حادثة تنفيذ الحكم بالاعدام !

قال الأمير مضطرباً :

- ما كنت لأتمنى أن أفعل هذا ، اليوم •

• واكفهر وجهه •

فتدخلت آجلايا اللاذعة مرة أخرى تقول :

- لكأن حديثك الينا فى هذا الأمر يشق على نفسك ويحدث لك

ألمًا •

- لا بل لأننى عن ذلك الاعدام نفسه انما تحدثت منذ هنيهة •

- الى من تحدثت عنه ؟

- الى خادمكم ، بينما كنت أنتظر أن أُستقبل

قالت النساء الأربع تسأله :

- أى خادم ؟

- ذلك الذى يمكث فى حجرة المدخل رجل شائب أحمر

الوجه ، كنت فى حجرة المدخل أنتظر أن يستقبلنى ايفان فيدوروفتش •

قالت الجترالة :

- غريب !

وقالت آجلايا :

- الأمير رجل ديموقراطى • ولكن ما دمت قد قصصت الأمر على

ألكسى ، فانك لا تستطيع أن تضنّ به علينا •

وعادت آديلايد تقول :

- اننى أحرص على سماع هذه القصة حرصاً مطلقاً !

قال الأمير وهو يلتفت اليها ويتعش قليلاً (الحق أن الأمير كان

يتحمس بسرعة واضحة وثقة تامة) :

- منذ قليل ، خطر ببالي فعلاً ، حين سألتنى عن موضوع اللوحة

ترسمينها ، خطر ببالي فعلاً أن تصوّرى وجه رجل محكوم عليه بالاعدام،

وذلك فى الدقفة التى تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه ، أى بينما هو ما يزال واقفاً على المفصلة قبل أن يضطجع على اللوح •

سألت آديلايد :

– كيف ؟ الوجه ؟ الوجه وحده ؟ ان هذا لىكون موضوعاً غريباً شاذاً !!! أين اللوحة فى هذا ؟

قال الأمير مصرأ بحرارة :

– لا أدرى ، ولكن لم لا ؟ لقد رأيت فى مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة مماثلة * • وددن كثيراً لو أحدثك عنها • وسأفعل ذلك فى يوم من الأيام • لقد أثرت فى نفسى تأثيراً كبيراً •

قالت آديلايد :

– ستحدثنا حتماً عن اللوحة التى رأيتها بمدينة بال ، ولكن فيما بعد • أما الآن فاسترح لى لوحة الاعدام تلك • هل تستطيع أن تصفها كما تخيلها ؟ كيف يرسم ذلك الوجه ؟ أيرسم الوجه وحده ، هكذا ؟ وكيف هو ، ذلك الوجه ؟

بدأ الأمير يتكلم فقال بكل ما يملك من سلامة الطوية وحسن الارادة ، تقوده ذكرياته وكأنه نسى كل ما عدا ذلك فوراً :

– حدث ذلك قبل الموت بدقيقة • ففى اللحظة التى وضع فيها قدمه على المفصلة بعد أن اجتاز السلم ، فى تلك اللحظة التفت نحوى ، فرأيت وجهه وفهمت كل شىء • • • • • ولكن كيف السيل الى وصف هذا بكلمات ؟ انتهى لأتسنى كثيراً أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه ! الأفضل أن تكونى قد رأيت بعينيك ! ولقد قدّرت أنا منذ تلك اللحظة أن هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدة • ويجب على المرء أن يطلع على كل ما سبق ذلك ، كل ما سبقه ، كله ! كان الرجل يعيش فى

السجن ، وكان يقدّر أنه سيعيش أسبوعاً على الأقل ، قبل أن ينفذ فيه الحكم : كان يموّل على أن الاجراءات الشكلية طويلة ، وعلى أن الأوراق سترسل الى جهة أخرى فلا تعود منها قبل انقضاء أسبوع ، ولكن اتفق أن اختصرت الاجراءات لسبب من الأسباب • كان نائماً في الساعة الخامسة من الصباح • الوقت نهاية تشرين الأول (اكتوبر) • وفي الساعة الخامسة من الصباح يكون ظلام ويكون برد • دخل رئيس السجّانين مع الحرس بغير ضجة ولا ضوضاء ، ولمس كتفه لمساً خفيفاً • نهض الرجل على كوعه ورأى النور ، فقال يسأل : « ماذا جرى ؟ » ف قيل له : « الاعدام في الساعة العاشرة » • كان لا يزال النوم في عينيه ، ولم يشأ أن يصدّق أذنيه ، وحاول أن يناقش ، فقال ان الأوراق لا يمكن أن تصل قبل أسبوع آخر • ولكنه حين استيقظ تماماً كفّ عن النقاش وصمت • ذلك ما روى هناك • وقال الرجل : « ولكن هذه قسوة ، هكذا ، على حين فجأة ، دفعة واحدة ! » • ثم صمت من جديد ، وأصبح لا يريد أن يقول شيئاً • انقضت ثلاث ساعات أو أربع في الاستعدادات : الكاهن ، الافطار الذي يشتمل على خمرة ولحم وقهوة (أليس هذا استهزاء ؟ لو فكرنا في الأمر ملياً لرأينا أنه قسوة ! ومع ذلك يفعله هؤلاء لبساطة قلوبهم موقنين يقيناً تاماً من أنه رافة انسانية !) • ثم بدأ تنظيف الرجل (هل تعلمين ما هو التنظيف الذي يؤخذ به رجل محكوم عليه بالاعدام ؟) ثم اقتيد خلال المدينة الى المقصلة ••• أظن أن المرء ، هناك أيضاً ، حين يُقتاد الى المقصلة ، لا بد أن يعتقد أن حياة لا نهاية لطولها ما تزال أمامه • يخيّل اليّ أنه لا بد أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتماً : « ما زالت حياة طويلة أمامي • بقيت ثلاثة شوارع • ثم ذلك الشارع الآخر الذي فيه دكان خبّاز على اليمين ••• ما يزال هناك وقت قبل أن نصل الى دكان الخبّاز ! » • وفي كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء وآلاف

الوجوه وآلاف النظرات • ان عليه أن يحتمل ذلك كله ، وأن يحتمل خاصة هذه الفكرة : « هؤلاء ألوف من الناس لن يُعَدَم منهم واحد ، أما أنا فأُعَدَم ! » • على كل حال ، هذا كله يسبق الدقيقة الفاصلة • ولكن ها هو ذا السِّلَم الذى يؤدى الى المَقْصَلَة ، وها هو ذا الرجل يقف أمام هذا السِّلَم فيأخذ يبكي فجأة • انه مع ذلك رجل يزخر فحولة وقوة • هو واحد من قطاع الطرق فيما يظهر • كان الكاهن يجلس قربه طوال الطريق على العربة ، ولا ينفك يكلمه • أغلب الظن أن الرجل لا يسمع من كلام الكاهن شيئاً • لقد بدأ يصغى اليه فى البداية ، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم • نعم ، لا بد أن الأمور جرت على هذا النحو • وها هو ذا يصعد السِّلَم أخيراً (ان أرجلهم موثقة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا الا بخطى صغيرة) • كان الكاهن ، ولعله رجل ذكى ، قد كفَّ عن تكليمه ، فهو لا يريد الآن أن يمدَّ اليه الصليب ليقبَّله • كان الرجل منذ وصل الى السلم قد اصفرَّ اصفراراً شديداً ، أما الآن ، على المَقْصَلَة ، فقد أصبح اصفراره كاليابض •

« لعل ساقيه كاتا لا تستطيعان حمله ؛ انهما متصلبتان كالخشب ؛ ولا بد أنه كان يشعر بغثيان ، كأن شيئاً كان يعبت بحلقه • هل أحسست بشيء من هذا يوماً حين كنت تخافين ، أو فى لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملاً ، ولكنه يصبح بغير قدرة البتة ؟ يخيل الى أن الانسان ، حين يداهيه هلاكٌ لا سبيل الى تحاشيه ، كانهيار منزل فوقه مثلاً ، انما يشعر عندئذ برغبة لا تقاوم فى أن يقعد مغمضاً عينيه ، وليحدث ما يحدث !... »

« فى مثل هذه اللحظات من الضعف والوهن انما كان الكاهن يبادر ، بحركة سريعة ودون كلام ، فيقرَّب الصليب من شفتى الرجل لتقليه ، وهو صليب صغير من فضة ، ذو أربعة أفرع ، يقرَّبُه مراراً

كثيرة ، فى كل لحظة ... فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينيه وارتد الى الحياة لحظات قليلة واستأنفت ساقاه السير • كان يقبّل الصليب فى نهم وشراهة ، بسرعة شديدة ، كأنه يستعجل التزود بشيء ما ، كيفما اتفق ، ولكننى لا أصدّق أن يكون قادراً فى تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية •

« وظل الحال على هذا المنوال الى أن رقد الرجل على لوح الحشب الذى تسقط عليه سكين المفصلة ... هناك أمر غريب : ان من النادر أن يغمى على المرء أثناء هذه الثواني الأخيرة ! بالعكس : الدماغ يحيا عندئذ حياة أشدّ ، وأنشط ، بل وأقوى ، كآلة مندفعة فى عملها • اننى أتخيّل قمرعات الحواطر التى تقرع الرأس وتظل ناقصة ، وربما كانت غريبة بل ومضحكة : « هذا الرجل الذى ينظر الى ... ان له ثولولا فى جبينه • والجلاد : ان أحد أزرار سترته صدى ... » • وفى مثل هذه اللحظات يعرف المرء كل شيء ، ويتذكر كل شيء • هناك نقطة وحيدة لا يمكن نسيانها ولا يمكن تجنبها بأغماء ، وحول هذه النقطة انما يدور كل شيء • تصورى أن الأمر يظل على هذا النحو الى آخر ربع ثانية ، حين يكون الرأس قد أصبح تحت السكّين ، فالرجل ينتظر ... و « يعلم » • انه يسمع انزلاق الحديد فجأة فوقه • ذلك أنه يسمعه حتماً ، ولا يستطيع الا أن يسمعه • لو كنت أنا الشخص الذى ينفذ فيه الاعداء لتمدت أن أتصت ، ولسمعت صوت انزلاق الحديد! قد لا يدوم هذا الا معشار ثانية، ولكن المرء يسمع الصوت حتماً ! تصورى أن هناك من يدعون أن الرأس ، بعد انقطاعه وسقوطه ، ربما ظل يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط ! • يا له من احساس ! ... وماذا لو دام هذا الاحساس خمس ثوان ؟ ... ارسمى المفصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول ، الا تلك الدرجة الأخيرة

التي يضع عليها الجاني قدمه • انه يضع قدمه على هذه الدرجة ، فترى في اللوحة رأسه ، ووجهه الأصفر ، والصليب الذي يمدّه اليه الكاهن • وهو ينظر ، وهو « يعرف كل شيء » • ان اللوحة هي ذلك الصليب وذلك الرأس • نعم تلك هي اللوحة • أما رأس الكاهن ، ورأس الجلّاد ، ورأساً مساعديه ، ورؤوس بعض المشاهدين ، تحت ، وكذلك أعينهم ••• أما كل ذلك فيمكن أن يُضاف الى اللوحة خلفيةً أو ملحقات أو نوعاً من ضباب ••• هكذا أتخيّل أنا تلك اللوحة •

صمت الأمير ، ونظر الى المستمعات •

قالت الكسندرا وكأنها تخاطب نفسها :

- ليس في هذا شيء من تصوف طبعاً !

واقترحت آديلايد :

- والآن اقصص علينا كيف وقعت في الغرام !

فنظر اليها الأمير مدهوشاً ؟ فقالت آديلايد بنوع من التسرع :

- اسمع • يجب عليك أيضاً أن تحدثنا عن لوحة مدينة بال تلك ؟ أما الآن فأريد أن أسمعك تقص علينا حكاية وقوعك في الغرام • لا تدافع عن نفسك ، فلقد وقعت في الغرام • ثم انك متى قصصت شيئاً ، كففت عن أن تكون فيلسوفاً •

وسألته آجلالاً فجأة :

- انك متى فرغت من حكاية شيء تشعر فوراً بالجزى والعار مما

قلته • فلماذا ؟

قالت الجنرال مقاطعةً بلهجة حازمة وهي تلقي على آجلالاً نظرة

استياء :

- هذا غباء منك أخيراً !

فقلت ألكسندرا مؤيدة :

- نعم ، هذا خروج على العقل !

فقلت الجنرالة ملتفتة نحو الأمير :

- لا تصدقها يا أمير • انها تفعل ذلك عامدةً بدافع الحب والمكر •
ليست قليلة الأدب الى هذا الحد ! لا تذهبن بك الظنون كل مذهب اذا
رأيتهن يناكدنك هذه الماكدة ! لا شك أن في رموسهن أفكاراً ميتة ،
ولكنهن يحيينك منذ الآن ! أنا أعرف وجوههن !

قال الأمير ملحاً على هذه الأقوال :

- أنا أيضاً أعرف وجوههن •

قالت آديلايد باستطلاع وفضول :

- كيف ؟

وقالت البنتان الأخريان مشوقتين أيضاً :

- ماذا تعرف من وجوهنا ؟

لكن الأمير ظل صامتاً جاداً • وانتظرت البنات جميعاً جوابه • ثم

قال في رفق وجد :

- سأحكى لكن هذا فيما بعد !

صاحت آجلانيا :

- أنت تريد حتماً أن تستثير فضولنا وأن تدعنا في بلبلة ! يا للتعاضم

والنفاق !

وأسرعت آديلايد تقول :

- طيب • ولكن ما دمت من علماء الفراسة ، فلا بد أنك كنت في

يوم من الأيام عاشقاً مغرماً • لم يخطيء اذن ظني • فاقصص علينا قصة
عشقك !

قال الأمير بذلك الصوت العذب الرصين نفسه :

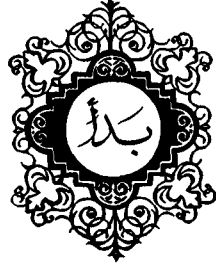
- أنا لم أكن عاشقاً • وانما ••• وانما كنت سعيداً بطريقة
أخرى •

- كيف ؟ بماذا ؟

- طيب • سأحكى لكن •

بذلك تتم الأمير وقد بدا عليه شرود الفكر •

الفصل السادس



الأمير يتكلم فقال :

- فى نظراتكن الىّ من شدة الاستطلاع ما يدل
على أنكن قد تفضين اذا أنا لم ألبّ رغبتكن فى
ارواء هذا الاستطلاع •

ثم أسرع يقول مبتسماً :

- لا ، لا ، كنت أمزح ! كان هناك ... كان هناك أطفال ، وكنت
أقضى وقتى كله مع الأطفال ، معهم وحدهم • هم أطفال القرية ، هم كل
العصبة التى تذهب الى المدرسة • ليس معنى هذا أنتى عنيت بتعليمهم ،
فلقد كان يعلمهم معلم هو جول تيو • جازز انتى كنت أعلمهم قليلاً ،
ولكن المهم أنتى كنت أقضى وقتى كله معهم ، وفى ذلك انما أنفقت السنين
الأربع التى أمضيتها هناك • لم أكن فى حاجة الى أى شىء آخر • وكنت
أقول لهم كل شىء ، ولا أخفى عنهم شيئاً • وقد أصبح آباؤهم وأمهاتهم
وأسرهم يحقدون علىّ آخر الأمر ، لأن الأولاد أصبحوا لا يستغنون
عنى ، فهم دائماً حولى • أما المعلم فقد أصبح عدوئى الأكبر • كان لى
أعداء كثيرون ، بسبب الأطفال • حتى ان شنايدر نفسه أخذ يلومنى •
فما الذى كانوا يخشونه هذه الحشية كلها ؟ ان فى وسع المرء أن يقول
للطفل كل شىء ، كل شىء • لشد ما أدهشنى دائماً مدى جهل الكبار
بالصغار ، بل ومدى جهل الآباء بأبنائهم أنفسهم • ما ينبغى أن تخفى عن

الأطفال شيئاً بحجة أنهم صغار ، وأنهم لم يَأْرِف الحين الذي يجب فيه أن يعلموا . يا لها من فكرة مؤسفة ضارة ! ان الأطفال يدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سنّاً من أن يستطيعوا الفهم ، مع أنهم في الواقع يفهمون كل شيء ! (ان الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى في أخطر ظرف أن يسدى بنصيحة رائعة) . وحين ينظر اليك هذا الطائر الصغير الجميل ، حين ينظر اليك سعيداً واثقاً ، فهل تستطيع أن تغشه دون أن تشعر بالحزى ؟ اننى اسميهم طيوراً صغيرة ، لأن الطيور خير ما فى العالم !

« أريد أن أقول ان الناس حقدوا علىّ فى القرية ، بسبب شيء معين على وجه التخصيص أما المعلم تيو ، فقد كان حقه غيرة وحسداً . كان فى أول الأمر لا يزيد على أن يهز رأسه ويدهش حين يرى أن الأطفال يفهمون عنى فهماً واضحاً ذلك الوضوح كله ، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئاً مما كان يعلمهم . ثم أخذ يسخر منى ويتهم علىّ ، حين قلت له اننا لا نملك ، لا أنا ولا هو ، أى شيء نعلمهم اياه ، وأنهم هم الذين يستطيعون بالأحرى أن يعلمونا شيئاً ما . كيف أمكنه أن يغار منى وأن يشهرّ بى مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الأطفال ؟ ان المرأ لتبرأ نفسه وتشفى حين يعيش مع الأطفال ! . . . كان يوجد فى مصحّ شنايدر مريض من المرضى كان انساناً شقيّاً كل الشقاء بائساً كل البؤس . ان شقاه يبلغ من الهول والفظاعة أنه قد لا يكون له شبيه أو نظير . كان يعالج هناك معالجة مجنون . ولكننى أعتقد أنه لم يكن مجنوناً ، وانما كان انساناً يتألم ألماً رهيباً لا أكثر فذلك هو مرضه كله . ليتكنّ تعلمن ماذا أصبح الأطفال عنده آخر الأمر ! ولكن الأفضل أن أحدثكن عن هذا المريض فيما بعد . أما الآن فسأحكى لكنّ كيف بدأ هذا كله . كان الأطفال فى البداية لا يحبوننى . ذلك أننى كنت كبيراً

جداً ، وكنت أخرق جداً • وأنا أعلم أنني لست وسيم الطلعة • وهناك عامل آخر هو أنني أجنبي • كان الأطفال في البداية يستهزئون بي ، بل انهم رموني بالحجارة حين رأوني أقبل ماريا • ولم أكن قد قبلتها من قبل الا مرة واحدة على كل حال •

وهنا لاحظ الأمير ابتسامات تلم بأفواه الفتيات اللواتي كن يصغين الى حديثه ، فأسرع يوقف التبسم قائلاً :

- لا ، لا تضحكن • لم يكن ذلك حباً • ليتكن تعرفن مدى تعاسة تلك المخلوقة ، اذن لرئتين لحالها مثلي • كانت من قريتنا • وكانت أمها امرأة عجوزاً دبّت فيها الشيخوخة وأضناها الهرم • وقد أذن لها عمدة القرية بأن تحوّل احدى نوافذ كوخها الحفير الى بسطة تعرض عليها ما تبيعه من بریم وخیط وتبغ وصابون بقروش قليلة تكاد تقيم بها أودها وتمسك عليها رmqها • كانت الأم مريضة متورمة الساقين دائماً ، فهي تظل قابعة وراء النافذة طول الوقت • وكانت ابنتها ماريا ، وهي في نحو العشرين من عمرها ، ضعيفة هزيلة نحيلة • لقد أضواها مرض السسل منذ مدة طويلة ، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام بأعمال الخدمة المضنية القاسية طوال اليوم في دور مختلفة • كانت تغسل الأرض وتنظف أواني المطبخ ، وتكنس الأحواش ، وتعتنى بالبهاائم في الحظائر • وقد أغواها فرنسي هو مندوب محل تجارى كان ماراً بالقرية فأخذها معه ثم لم يلبث أن تركها في عرض الطريق بعد أسبوع واحد ، ومضى في سبيله • فعادت الى البيت ، بعد أن تسوّكت واستجدت طوال الطريق ، عادت رثة الأسمال ، قذرة الهيئة ، مثقبة الخدابين • لقد ظلت تسير على قدميها أسبوعاً كاملاً ، وتنام حيث يتاح لها أن تنام ، فأصابها أثناء ذلك برد ، وكانت قدميها مجرحتين مقرّحتين ، وكانت يداها متورمتين متشققتين • ثم انها لم تكن جميلة في يوم من الأيام ، باستثناء عينيها الطيبتين العذبتين البريئتين • وكانت تصمت

صمتاً رهيباً • ذات مرة ، فى الماضى ، أخذت تغنى فجأة أثناء عملها • انى
لأنذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عندئذ وسخروا منها : « هه !
ماريا تغنى ؟ » • فخجلت ماريا خجلاً شديداً واضطربت اضطراباً كبيراً ،
ومنذ ذلك اليوم صمتت الى الأبد • فى ذلك الأوان كان الناس ما يزالون
يعاملونها معاملة لطيفة ، ولكنها حين عادت مريضة منزقة لم يشعر أحد
نحوها بأى عطف أو شفقة • ما أقسامهم فى مثل هذه الظروف ! ما أقطع
ما تتصف به آراؤهم الراسخة وأفكارهم السابقة من عنف لا رحمة فيه
ولا رأفة ! أمها نفسها كانت أول من استقبلها بغضب واحتقار • قالت لها :
« لقد لطخت شرفى بالعار ! » • كانت الأم أول من أسلمها للناس يعيرونها
ويخزونها • فحين عرف سكان القرية أن ماريا رجعت ، تواعدوا جميعهم
تقريباً على أن يلتقوا فى البيت الحقير الذى تسكنه العجوز : شيوخ وأطفال
ونساء وفتيات : جمهور كبير شره متعجل ! كانت ماريا مستلقية على
الأرض ، عند قدمي العجوز ، جائعةً ، رثة الثياب • وكانت تبكي • فلما
رأت جميع هؤلاء الناس أخفت وجهها فى شعرها المنفوش وتسطحت
مزيداً من التسطح • كان الجميع ينظرون اليها نظرتهم الى بهيمة نجسة
دنسة • المعاجز يقرعونها ويشتمونها ، والشباب يسخرون منها ، والنساء
يحقرننها ويؤنبنها وينظرن اليها باشمئزاز وتقزز نظرتهم الى دودة
عنكبوت • لقد سمحت الأم بهذا كله ، وكانت تهز رأسها مؤيدةً
محبذة • كانت منذ ذلك الحين قد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً حتى لكأنها
تحتضر • وقد ماتت فعلاً بعد شهرين • كانت تعلم أنها ستموت قريباً ،
ولكنها الى أن ماتت لم تفكر فى أن تصالح ابنتها • حتى انها أصبحت
لا تكلمها ، وصارت تجبرها على أن تبيت عند المدخل ، ولا تكاد تطعمها •
وكانت الأم فى حاجة دائمة الى وضع قدميها المريضتين فى ماء ساخن ،
فكانت ماريا تهبئ لها ذلك كل يوم ، وتعتنى بها ، والعجوز تقبل هذه
العناية صامتةً ، فلم تقل لماريا كلمة لطيفة فى لحظة من اللحظات •

« لكن ماريا كانت تتحمل كل شيء . وبعد ذلك ، حين تعرفت الى ماريا ، لاحظت أنها هي نفسها كانت تؤيد وتحبذ المعاملة التي عوملت بها ، وتعد نفسها أحقر الناس طراً . وحين أصبحت الأم لا تستطيع أن تهض ، أصبحت عجائز القرية تأتي اليها لتعتى بها واحدة بعد واحدة ، كما جرت العادة بذلك . ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يطعم أحد ماريا قط ، وأصبح الناس في القرية يطردها ، وأصبح الجميع يرفضون أن يعهدوا اليها بعمل ، حتى لأنهم يصفقون عليها ، وصار الرجال كأنهم لا يعدونها امرأة فهم ينطقون في حضورها كلمات بذية فاحشة . ولكنهم في بعض الأحيان ، في القليل النادر ، حين يكونون سكارى يوم الأحد ، يرمون لها على الأرض دريهمات قليلة ليضحكوا ، فتجمعها ماريا صامته . وكانت منذ ذلك الحين قد أخذت تبصق دماً . وصارت أسماها آخر الأمر قطعاً ممزقة ، حتى أصبحت تستحي أن تظهر للناس في القرية . وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشي حافية القدمين . وفي ذلك الأوان خاصةً انما اندفع الأطفال - وهم عصبهٌ يبلغ عددهم قرابة أربعين طفلاً - اندفعوا يهاجمونها بضراوة ، حتى ليرمونها بالوحل . طلبت ماريا من الراعي أن يسمح لها بحراسة الأبقار ، ولكن الراعي طردها . ومع ذلك أخذت تتبع القطيع الى المرعى كل صباح ، من تلقاء نفسها دون أن يأذن لها الراعي بذلك . واذ لاحظ الراعي أنها تنفعه في عمله كثيراً ، أصبح لا يطردها . حتى انه أصبح يعطيها بقايا غدائه من الجبن والحبز أحياناً . وكان يعد ذلك احساناً منه ونعمةً كبرى يمنُّ بها عليها .

« وحين ماتت أمها لم يخجل الكاهن من أن يذلَّ ماريا وأن يهينها على مسمع ومرأى من جميع الناس . كانت ماريا واقفةً وراء التابوت باطمارها البالية تبكي . وكان الناس قد توافدوا ذرافات لينظروا اليها سائرين وراء النعش . ففي تلك اللحظة قال الكاهن ، وهو رجل ما يزال

شاباً ولا يطمح الى شيء الا أن يكون واعظاً كبيراً ، قال وهو يومئذ الى ماريّا : « هذه هي التي كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة (وهذا خطأ ، فالعجوز مريضة منذ سنتين) • ها هي ذى أمامكم لا تجرؤ أن ترفع عينها لأن الله قد دمجها الى الأبد ، ها هي ذى حافية القدمين ممزقة الأسمال ، عبرةً لجميع أولئك الذين يفقدون الفضيلة ! ومن هي ؟ هي ابتها نفسها ! » ، وهلمّ جرّاً وهلمّ جرّاً ! •••

« تصوّرْ أن هذا الصغار من جهة الكاهن قد أرضى جميع الناس تقريباً • الا أن شيئاً قد حدث فى تلك اللحظة ، هو أن الأطفال قد تحزبوا لماريا ، لأنهم فى ذلك الأوان كانوا قد انحازوا جميعاً الى صفى وأخذوا يحبون ماريّا • اليكن تفصيل ما حدث :

« كنت قد أردت ان أصنع شيئاً لماريا • كانت ماريّا فى حاجة ماسة الى شيء من مال ، ولكننى لم أكن أملك هنالك قرشاً واحداً • لم أكن أملك الا دبوساً له فص من ماس • فلما مرّ بالقرية بائع مقايض يتقل من قرية الى قرية ، بعته الدبوس بثمانية فرنكات • لا شك أن الدبوس تساوى قيمته أربعين فرنكاً • وأخذت أبحث عن ماريّا ، وحدى ، مدة طويلة • فالتقيت بها أخيراً وراء سور القرية فى ممر بين الجبال قرب شجرة • فأعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها بأن تحرص عليها لأننى لن أملك غيرها • ثم قبّلها وطلبت منها ألا يذهب بها الظن الى أننى أطمع منها فى سوء ، ولم أقبلها لأننى مغرم بها ، بل لأننى أرثى لحالها وأرأف بها كثيراً ، وقلت لها اننى لم أعدها فى يوم من الأيام آمنة بل تعيسة • كنت أرغب رغبةً قوية فى مواساتها وتعزيتها ، وفى اقناعها بأنها يجب عليها ألا تشمر بالمذلة تجاه الآخرين ، ولكنها لم تفهم عنى حقّاً ؟ وقد أحسست أنا بذلك على الفور ، رغم انها ظلت صامتةً طول الوقت تقريباً ، مطرقة الى

الأرض ، خافضةً عينيها ، خجلت الى أبعد حدود الحجل • فلما فرغت من كلامي قبّلت يدي ، فأردت أن أقبل يدها تواءً ، لكنها انتزعت يدها بقوة •

« وفي تلك اللحظة انما فاجأتنا عصبية الأطفال • وقد علمت فيما بعد أنهم كانوا يراقبوننى منذ مدة طويلة • أخذ الأطفال يصفرون صغيراً عالياً ويصفقون بأيديهم تصفيقاً قوياً ، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً ، بينما كانت ماريّا تهرب راكضة • حاولت أن أكلمهم ، لكنهم رموني بالحجارة • وفي ذلك اليوم نفسه علم جميع الناس بالنبا ، علمت به القرية كلها • وسقط هذا كله مرةً أخرى على رأس ماريّا • فأخذوا يحتقرونها مزيداً من الاحتقار ؛ حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها ، ولكن الأمر لم يتجاوز حدود الكلام والله الحمد ! غير أن الأولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة • أصبحوا يطاردونها أكثر مما كانوا يطاردونها فى أى يوم من الأيام قبل ذلك ، وأخذوا يرمونها بالوحل • وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم ، ولكن سرعان ما كانت أنفاسها تنقطع بسبب مرض السيل الذى يعيث فى صدرها • صاروا لا يتركونها ، وأخذوا يقذفونها بأنواع السباب والشتائم • حتى لقد اضطرت مرةً أن أقتل معهم • وحاولت بعد ذلك أن أكلمهم • وصرت أحدثهم كل يوم ، فى كل مناسبة • فكانوا يقفون ليصفقوا الى كلامي مع استمرارهم فى اطلاق الشتائم صراخاً عالياً • حدثتهم عن مدى الشقاء الذى تعانيه ماريّا • فما هى الا فترة قصيرة حتى أخذوا يكفون عن اهاتى ، وتعودوا أن ينصرفوا صامتين • وتوصلنا أخيراً الى أن نتبادل الحديث • لم أٌخف عنهم شيئاً ، بل حكيت لهم كل شئ • فكانوا ينصتون الىّ بكثير من الاهتمام ، وسرعان ما أخذوا يرنون لحال ماريّا ، ويشفقون عليها • حتى لقد صار بعضهم يحيونها تحية لطيفة اذا التقوا بها غابرين • ولكنّ عادةً هناك : يحيى الناس بعضهم بعضاً اذا تلاقوا ، سواء أكانوا متعارفين أم غير متعارفين • تخيلن دهشة ماريّا • فى

ذات يوم حملت اليها طفلتان طعاماً ، ثم جاءتا ترويان لى ذلك • قالتا ان ماريأ أخذت تبكى ، وانهما الآن تجانها كثيراً • ولم تنقضى مدة قصيرة حتى أخذ جميع الأطفال يحبونها ، وحتى أخذوا يحبوننى أنا أيضاً فى الوقت نفسه • اصبحوا يجيئون الى أحياناً كثيرة ، ويطلبون منى دائماً أن أحكى لهم شيئاً ما • أظن اننى كنت أجيد الحكى ، فانهم كانوا يحبون كثيراً أن يستمعوا لى • ثم أصبحت لا أدرس ولا أقرأ الا لأستطيع أن أحكى لهم بعد ذلك ما درست وما قرأت • وعلى هذا النحو انما انقضت السنين الثلاث الأخيرة من حياتى هناك • وفيما بعد ، حين أخذ على الناس - ومنهم شنيدر - أننى أكلم الأطفال الصغار كما لو كانوا أشخاصاً كباراً ، دون أن أخفى عنهم شيئاً ، كنت أحييهم جميعاً بأن من العار أن نكذب على الأطفال ، وبأن الأطفال يعرفون كل شئ حتى دون أن نحدثهم عنه ، مهما نحاول اخفاء عنهم ، وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلمونه تعلماً فاسداً ، أما أنا فأطلمهم عليه بطريقة مناسبة • وحسبُ الاسان أن يتذكر طفولته هو حتى يدرك صحة ما أقول • لكننى لم أفلح فى اقناعهم •••

« كنت قد قبَلت ماريأ قبل موت أمها بنحو خمسة عشر يوماً • ولكن حين ألقى الكاهن خطبته ، كان جميع الأطفال قد انحازوا الى صفى • وأسرت أقصُ عليهم وأشرح لهم ما فعله الكاهن • ففضبوا جميعاً عليه ، حتى ان بعضهم بلغوا من غضبهم عليه أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد أوقفتم عن ذلك ، مبرهنأ لهم على أن عملهم هذا شر • ولكن أهل القرية كانوا قد علموا بكل شئ • وعندئذ انما أخذوا يتهموننى بأننى أضلُ الأولاد عن الطريق القويم ؛ وعلموا بعد ذلك أن الأولاد أصبحوا يحبون ماريأ ، ففلقوا قلقلأ شديداً • ولكن ماريأ كانت قد سعدت كثيراً •• » وبلغ أهل القرية من القلق أنهم حظروا على أولادهم أن يقابلوا

ماريا ، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفيةً الى حيث توجد مع القطيع فى مكان بعيد يقع على مسافة نصف فرسخ من القرية تقريباً ، فبعضهم يحمل اليها حلوى ، وبعضهم يجيء لا لشيء الا أن يعانقها ويقول لها : « أحبك يا ماريا » ، ثم يعودون الى القرية راكضين ركضاً سريعاً . غير أن ماريا أوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المبالغه . فانها ماكانت لتجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب فى يوم من الأيام . والحق أنها أصبحت مضطربة فرحة فى آن واحد . أما الأطفال ، ولا سيما البنات ، فقد كانوا يحبون خاصة أن يذهبوا اليها ليقولوا لها اننى أحبها ، واتى أحدتهم عنها كثيراً . وحكوا لها أنهم منى انما علموا كل شيء عنها ، وانهم الآن يحبونها ويرنون لحالها ويشفقون عليها ، وانهم سيظلون كذلك دائماً ؛ وكانوا بعد ذلك يجيئون الى بوجوه فرحة وهيئات منهمكة ليقولوا لى انهم رأوا ماريا وان ماريا تسلم على .

« وكنت أذهب فى المساء الى الشلال . ان هناك ركناً تخفيه أشجار الحور عن القرية اخفاءً تاماً . فالى هناك كان يجيء الأطفال فى المساء ليلتقوا بى ، حتى ان بعضهم كان يجيء خفيةً وسراً . أعتقد أن حبيبى لماريا كان يسعدهم أكبر السعادة ؛ وكان هذا فى الواقع هو الأمر الوحيد الذى كذبت عليهم فيه طول مدة اقامتى هناك . فانتى لم أحاول أن أبدد أوهامهم شارحاً لهم اننى لا أحب ماريا ، أى اننى لست عاشقاً لها مفرماً بها ، وانسا أنا أرئى لحالها ، وأرأف بها . كنت ألاحظ أنهم يفضلون أن يكون الأمر على نحو ما تصوروا وقرروا . كذلك سكتُ وتركت لهم أن يظنوا أنهم حزروا الحقيقة !

« وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة العاطفة والحنان أنهم بدا لهم ، فيما بدا لهم من أمور ، أنه اذا كان صديقهم ليون يحب ماريا هذا

الحب كله ، فلا يجوز أن تظل ماريا رثة الثياب الى هذا الحد ، ولا أن
تمشي حافية القدمين •

« تصورنَ أنهم جاموها بحذاءين وجوربين ، بل جاموها ايضاً
بشوب • أما كيف استطاعوا ذلك ، فهذا ما لا أفهمه • لقد تكاثرت العصبية
كلها على انفاذ الأمر • فإذا سألتهم لم يزيدوا على أن يضحكوا ، وكانت
البنات تصفّق بأيديها وتقبّلني • وكان يتفق لى فى بعض الأحيان ايضاً
أن أرى ماريا خفية • لقد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً ، فلا تكاد تستطيع
أن تمشي • ثم أصبحت أخيراً لا تنفع الراعى فى شيء ، لكنها ظلت تتبع
القطيع كل صباح ، وتجلس متحيرة منزوية • كان هنالك صخرة تهبط
هبوطاً عمودياً وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة ناتئة ، فكانت ماريا تجلس
فى القاع على الصخرة مخفية من جميع الجهات ، وتلبث على هذه الحال
لا تكاد تتحرك ، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع الى القرية • لقد
أوهنها السلُّ حتى صارت فى أغلب الأحيان تغمض عينيها وتستند الى
الصخرة وتغفو غفوّاً ضعيفاً وهى تتنفس بكثير من العناء • وقد بلغ وجهها
من الهزال أنه أصبح أشبه بهيكل عظم ؛ وكان العرق يتصب على جبينها
وصدغها •

« على هذه الحال كنت أجدها دائماً • وكنت لا أجيئها الا للحظة
قصيرة ، فقد كنت أنا ايضاً أحرص على أن لا يرانى أحد • فما ان أظهر
لها حتى تتنفض وتفتح عينيها وتهرع تقبل يدي • أصبحت لا أسحب
يديّ حين قبلهما ، فقد لاحظت أن ثقيل يديّ يسعدها • وكانت
ترتجف وترتمش وتبكي ما ظللت قريباً منها هناك • صحيح أنها حاولت
أحياناً أن تتكلم ، ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم عنها • كانت فى
بعض الأوقات كاللجنونة ، من فرط انفعالها الرهيب واشدها المذهل •
« وكان الأطفال يصحبونى أحياناً • وقد ألفوا فى مثل تلك الأحوال

أن يقفوا غير بعيد ، ليقوموا بمهمة الحراسة ويحمونا مما لا أدرى ! كان ذلك يبهجهم كثيراً ! حتى اذا انصرفنا بقيت ماريا وحيدة من جديد ، لا تتحرك ، مغمضة العينين ، مسندة رأسها الى الصخرة . لعلها كانت تحلم ...

« وفي ذات صباح لم تقو على أن تتبع القطيع ، ولبت في بيتها الصغير الحالى . وسرعان ما علم الأطفال بذلك ، فجاءوا يزورونها في النهار ، كلهم تقريباً . كانت مستلقية على سريرها وحيدة تماماً . وانقضى يومان لا يعتنى بها أثناءهما الا الأطفال مناوبة . حتى اذا عرف أهل القرية بعد ذلك أن ماريا تختصر ، جاءت عجائز تسهر عليها . يبدو أن الناس في القرية قد أخذوا يشفقون على ماريا آخر الأمر . أو هم أصبحوا ، على الأقل ، لا يحرمون على أولادهم أن يروها ، ولا يؤنبونهم اذا هم رأوها . وكانت ماريا طوال الوقت في حالة غفو ، الا أن نومها كان مضطرباً ، وكان يمزق صدرها سعال رهيب . وكانت العجائز تطرد الأولاد ، الا أن الأولاد يهرعون الى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا : « تحية يا صديقتنا الطيبة ماريا ! » فكانت ماريا ما ان تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش ، فاذا هي تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهى العجائز ، واذا هي تحييم بهز رأسها وتشكرهم . واستمر الأولاد على أن يأتوها بحلولى ، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئاً .

« أؤكد لكن أنها بفضل الأولاد انما ماتت سعيدة . وبفضل الأولاد انما نسيت شقاءها الأسود ، كأنها حصلت على غفران خطاياها ، ذلك أنها ظلت الى النهاية تعتقد أنها آمنة كبيرة . كان الأولاد يتدافعون على نافذتها تدافع المصافير تلطم الزجاج بأجنحتها ، ويصيحون قائلين لها كل صباح : « نحن نجباك يا ماريا ! » . وماتت ماريا بسرعة . وكنت أظن أنها ستعيش زمناً أطول من ذلك كثيراً .

« عشية موتها ، عند غروب الشمس ، ذهبت أعودها • لا بد أنها تعرفتني • صافحتها مرةً أخيرة • ما كان أشد يبوسة يدها ! وفى الغداة جاء من يقول لى ان ماريا ماتت !

« أصبح يستحيل عندئذ ضبط الأطفال • غمروا تابوتها بالأزهار ، ووضعوا على رأسها اكليلًا • وفى الكنيسة ، امتنع الكاهن فى هذه المرة عن ذكر سوءاتها • ومهما يكن أمر ، فإن الذين حضروا الدفن كانوا قلة قليلة هم عدد من الفضوليين • ولكن الأطفال هرعوا جميعاً حين وجب حمل النعش • واذ كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن يعاونوا • وركضوا وراء النعش ، وكانوا جميعاً يركضون • ومنذ ذلك الحين أصبح قبر ماريا ضريحاً يحجج اليه الأطفال • فهم فى كل سنة يفسمرونه بالأزهار ، وقد زرعوا حوله أشجار ورد •

« ولكن منذ دُفنت ماريا أخذ أهل القرية يضطهدونى فى أمر الأولاد • وكان الكاهن والمعلم أكبر المحرّضين على اضطهادى • حرّموا على الأولاد أن يرونى ، وحتى شنيدر وعد بأن يسهر على تنفيذ ذلك • لكننا كنا نستطيع أن نرى بعضنا بعضاً ، فتتخاطب بالاشارات من بعيد • ثم سوّيت الأمور من بعد ، غير أن ما حدث كان حسناً جداً : فبفضل تلك الاضطهادات ، اقتربت من الأطفال مزيداً من الاقتراب • حتى اننى فى السنة الأخيرة تصالحت تقريباً مع المعلم والكاهن • أما شنيدر ، فكان يكلمنى كثيراً ، ويناقش «مذهبي» المشوم فى معاملة الأولاد • أى مذهب؟ لقد أطلعنى شنيدر أخيراً على فكرة غريبة جداً كانت قد خطرت بباله - حدث هذا قبيل سفرى مباشرة - فقال لى انه مقتنع اقتناعاً تاماً بأننى أنا نفسى طفل حقاً ، طفل من جميع النواحي ، واننى ليس لى من صفات الرجل البالغ الراشد الا القامة والوجه ، أما من ناحية النفس والطبع والتكوين وربما الذكاء ، فما أنا بالرجل البالغ الراشد ، واننى قد أظل

على هذه الحال ولو عشت سنين عاماً • ضحكتُ من كلامه ذاك • فلا شك أنه لم يكن على حق • والا ففى أى شىء يمكن أن أَعَدَّ طفلاً ؟ هناك شىء واحد صحيح ، هو اننى لا أحب صحبة الكبار فعلاً ؛ لقد لاحظت هذا فى نفسى منذ مدة طويلة • وما زلت لا أحب صحبة الكبار ، ولا أحسن أن أكون معهم • ومهما يظهرُوا لى من طيب ونبل ، فاننى أظل أشعر بضيق ما بقيت معهم ، حتى اذا استطعت أن أتركهم وأن أمضى الى رفاقى أحسست بارتياح وغبطة ؛ ورفاقي هم دائماً أطفال ، لا لأننى أنا نفسى طفل ، بل لأنهم يجذبوننى لا أكثر !

« اننى منذ بداية اقامتى فى تلك القرية ، أثناء نزهاتى التى أقوم بها فى الجبل وحيداً حزيناً ، كنت اذا التقيت أحياناً ، ولا سيما عند الظهر ، ساعة الخروج من المدرسة ، بتلك العصبية الصاخبة من الأطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم ، صارخين ، ضاحكين ، لاعين ، كنت أشعر بنفسى كلها تتجه اليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة • لا أدرى كيف أفسّر هذا وكيف أعلّله ، ولكننى ما التقيت بهم مرةً الا شعرت بسعادة قوية تملأ قلبى وتغمر نفسى • كنت أتوقف وأضحك سعادةً حين أرى الى سيقانهم الصغيرة المتحركة النشيطة المتواصلة دائماً ، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون ، وحين أراهم يضحكون أو ييكون (ذلك أن بعضهم يكونون قد اتسع وقتهم أثناء الطريق من المدرسة الى المنزل ، لأن يتضاربوا ويبكوا ، ثم يتصالحوا ويستأنفوا لعبهم) • كنت عندئذ أنسى حزنى • وبعد ذلك ، طوال تلك السنين الثلاث ، أصبحت لا أستطيع حتى أن أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالضجر والسأم ، أو بالحزن والأسى ! لقد كان مصيرى كله مع الأطفال •

« لم أفكر يوماً فى أن أترك تلك القرية ، ولا خطر ببالى ساعةً أننى أستطيع أن أعود الى روسيا فى يوم من الأيام • كان يخيّل الىّ أننى

مقيم هناك الى الأبد ، لكننى فهمت أخيراً أننى لا أستطيع أن أكون عالةً على شنايدر ؛ وفى ذلك الأوان انما حدث أمر يبلغ من خطورة الشأن ، فيما يظهر ، أن شنايدر نفسه استحتى على الرحيل ، وكتب الى هنا باسمى . سوف أرى ما هو الأمر ، وسوف أطلب النصح . ولعل مصرى يتغير بذلك تغيراً تاماً ، ولكن المسألة ليست هنا ، وليس هذا أهم شيء . فانما الشيء الهام أن حياتى قد تغيرت تغيراً كاملاً منذ الآن . لقد تركت هناك أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً . لقد زال كل شيء . قلت لنفسى وأنا فى القطار : « أنا الآن ذاهب الى الناس . وربما كنت لا أعرف شيئاً . غير أن حياةً جديدة قد بدأت » . قررت أن أنفذ مهمتى بشرف واستقامة ، وثبات وصلابة . اننى أقدر أن حياتى مع الناس ستكون شاقة ومملة . فقررت أن أكون مهذباً مع الجميع ، وأن أكون صريحاً . لا شك فى أنهم لن يطالبونى بأكثر من ذلك ! وربما عدونى طفلاً هنا أيضاً . لا بأس ! ثم ان جميع الملأ يعدوننى أبله ! انى لأسأله لماذا يعدوننى كذلك ؟ صحيح اننى مرضت فى الماضى حتى صرت أشبه بأبله . ولكن فى أى شيء أنا الآن أبله ، ما دمت أدرك أنهم يعدوننى ابله ؟ حين أدخل الى مكان ما ، أحدث نفسى قائلاً : « انهم يعدوننى ابله ، وأنا مع ذلك ذكى ، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال ! » . كثيراً ما تدور هذه الفكرة فى رأسى .

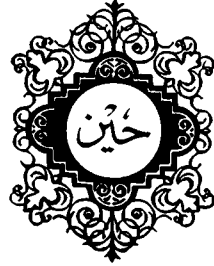
« حين تلقيت بمدينة برلين الرسائل الصغيرة التى استطاعوا أن يرسلوها الى من هناك ، أدركت أخيراً مدى ما يحملونه لى من حب . ان الرسالة الأولى تثير كثيراً من الألم دائماً ! ما كان أشد حزنهم حين صحبوني الى محطة القطار . كانوا قد بدأوا يستعدون لرحيلى منذ شهر قائلين : « ليون مسافر ، ليون مسافر الى الأبد » . أصبحنا نلتقى قرب الشلال

فى كل مساء ، ونأخذ نتحدث عن فراقنا المرتقب ، ونكون أحياناً مريحين كمرحنا فى السابق ، لكنهم تعودوا حين يتركوننى ليزهبا الى النوم ، أن يضمونى بأذرعهم ضمّاً قوياً فيه كثير من المحبة والحنان ، وذلك أمر لم يكونوا يفعلونه من قبل . وكان بعضهم يجيئون فرادى ، خفيةً عن الآخرين ، ليقبلونى على مهلهم دون رقيب . وفى يوم رحيلى ، جاءوا جمهرةً واحدةً ليصحبونى الى المحطة . ان المحطة تبعد عن القرية مسافة فرسخ . كانوا يكبحون شعورهم ويكظمون عاطفتهم فيمسكون عن البكاء ، غير أن بينهم من كانوا لا يفلحون فى ذلك فاذا هم ينشجون بأصوات عالية ، ولا سيما البنات . سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين ، لكن واحداً منهم انفصل عن الآخرين فجأةً ، وارتضى علىّ فى منتصف الطريق ، وطوقنى بذراعيه الصغيرتين ، وأخذ يقبلنى ، فاستوقف بذلك موكبنا كله . وحين ركبت وتحرك القطار صاحوا يودعونى بصوت واحد ، ولبثوا فى أماكنهم الى أن اختفى القطار عن أبصارهم اختفاءً تاماً . وكنت أنا أيضاً أنظر اليهم

« اسمعتنى . . . حين دخلت الى هنا منذ قليل ، فرأيت وجوهكن اللطيفة - أنا الآن انعم النظر فى الوجوه كثيراً - شعرت بفرح فى قلبى لأول مرة منذ الكلمات الأولى . ولا أتمكن اننى قلت لنفسى منذ برهة : لعلى خلقت انساناً محظوظاً بالفعل . اننى أعرف أن المرء لا يلتقى كثيراً بأناس يمكن أن يحبهم من أول وهلة . ومع ذلك ما كدت أترك القطار حتى التقيت بكن . أنا أعلم أن على الانسان أن يخجل من التحدث عن عواطفه الى جميع الناس ؛ ومع ذلك أرانى أحدثكن عن عواطفى ؛ اننى لا أحس تجاهكن أى شعور بالجل أو العار . اننى غير اجتماعى ، وقد لا أؤوركن مرةً أخرى الا بعد مدة طويلة . فلا تسئن تفسير ذلك ، ولا يذهبن بكن الظن خاصةً الى اننى لا أحرص عليكن ، أو أن شيئاً قد

صدر عنك فأذاني • لقد طلبت مني أن أصف لكن ما رأيته في وجوهكن •
يسرني أن أفعل هذا • فأما أنت يا آديلايد ايفانوفنا ، فإن لك وجهاً
سعيداً هو أقرب وجوهكن أثنى الثلاث الى القلب • وعدا أنك جميلة
جداً ، فإن المرء يقول لنفسه حين ينظر اليك : « ان لها وجه أخت طيبة » •
انك تواجهين الناس ببساطة ومرح ، لكنك تحسنين أيضاً سبر القلوب •
ذلك ما يوجهه الى وجهك • وأما وجهك أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا ، فإنه
هو أيضاً جميل محبب الى القلب ، ولكن ربما كنت تخفين حزناً مستسراً •
ليس هناك أى شك في أنك طيبة القلب ، لكنك لست فرحة • ان في
وجهك شيئاً يذكر بوجه « مادونا » هولباين بمدينة درسدن * هذا عنك
أنت • ترى هل حزرت ؟ أنت التي تعتقدين اني أحزر • وأما أنت
يا أليزابت بروكوفينا (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجئالة) ، فانتى
لا أحس احساساً بل أوقن يقيناً أنك طفلة حقيقية ، طفلة في كل شيء ،
طفلة في الحير وفي الشر على السواء ، وذلك رغم كل سنك • هل غضبت
لأننى أقول لك هذا ؟ انك لتعرفين رأيى في الأطفال وشعورى نحوهم •
ولا يذهبن بكن الظن الى اننى حدثكن عن وجوهكن بمثل هذه الصراحة
لأننى بسيط ساذج فحسب ، وربما كانت لى فكرة أبيتها • •

الفصل السابع



صمت الأمير ، كان الجميع ينظرون اليه فرحين ،
حتى آجلايا ، ولكن الفرح كان واضحاً في وجه
اليزابت بروكوفينا خاصة •

هتفت تقول :

— هذا هو الامتحان ! فيا أيتها الآسات ، أتن اللواتى كنت تقدّرُن
أن تحمينه حمايتكن لفتى صغير مسكين ، ها هو ذا قد تكرّم عليكن
فأبهجكن ، ثم تحفّظ فلم يعد بالمجىء اليكن الا نادراً • ها نحن أولاء
جميعاً غيات • وانه ليسعدنى ذلك • لكن أغبانا وأدعانا الى الضحك منه
والسخرية به انما هو ايفان فيدوروفتش • مرحى يا أمير ! منذ حين، كان
قد صدر أمرٌ بامتحانك !... أما ما قلته عنى من النظر فى وجهى ، فهو
الحقيقة بعينها • أنا طفلة • وأنا أعرف ذلك • وكنت أعرف ذلك قبل أن
تعرفه أنت • لقد أحسنت الافصاح عن رأىى بكلمة واحدة • اننى أجد
طبعك شبيهاً بطبعى من جميع النواحي ، وانى لسعيدة بهذا • نحن
كقطرتى ماء تشابهاً ، مع فرق واحد هو أنك رجل وأنتى امرأة ، وأنتى
لم أكن بسويسرا يوماً • ذلك هو الفرق كله •

هتفت آجلايا تقول :

- لا تتمجلي كثيراً يا ماما • لقد قال الأمير منذ هنيهة انه في جميع ما أسراً به الينا كان يبيت فكرة ، وانه لم يتكلم عبثاً ولهواً !
وقالت الأختان ضاحكتين .

- نعم ، نعم •

- لا تسخرن يا عزيزاتي • قد يكون أمكر منكنّ أثنى الثلاث
مجتمعات • لسوف ترين • ولكن لماذا لم تقل شيئاً عن آجلایا يا أمير ؟
ان آجلایا تنتظر ، وأنا أيضاً أنتظر •

- لن أقول شيئاً الآن • سأقول فيما بعد •

- لماذا ؟ يخيل الىّ أنك لاحظتها ملاحظة كافية !

- آآآ نعم نعم نعم ••• لاحظتها كثيراً • أنت آية من آيات الجمال
يا آجلایا ایفانوفنا • انك تبغين من الجمال أن المرء لا يجرو أن ينظر
اليك •

قالت الجنرالة ملحة :

- أهذا كل شيء ؟ وطبيعتها ؟

- يصعب على المرء أن يقضى في الجمال برأى • لم أتهياً لهذا بعد •
الجمال لغز •

تدخلت آديلائد قائلة :

- معنى هذا أنك تلقى على آجلایا لغزاً أو أحجية • حاولی أن
تحزري يا آجلایا • ولكن أليست جميلةً يا أمير ؟

أجاب الأمير بحرارة وهو ينظر الى آجلایا معجباً :

- جميلة جمالاً خارقاً • تكاد تكون في مثل جمال ناستاسيا
فيليوفنا ، رغم أن وجهها مختلف جداً •••

نظرت النساء الأربع بعضهن الى بعض مدهوشات •
وسأله الجنرالة :

- مَنْ ؟ ناستاسيا فيليوفا ؟ أين رأيت ناستاسيا فيليوفا ؟ أية
ناستاسيا فيليوفا ؟

- منذ قليل كان جبريل آرداليوتش يُرى ايضاً فيدوروفتش
صورتها •

- كيف ؟ حمل الى ايضاً فيدوروفتش صورتها ؟

- ليريه الصورة • ان ناستاسيا فيليوفا قد أهدت اليوم صورتها الى
جبريل آرداليوتش ، فجاء بها هذا الى الجنرال ليريه اياها •

صاحت الجنرالة تقول :

- أريد أن أرى الصورة ! أين هى تلك الصورة ؟ اذا كانت قد
أهدتها اليه هو ، فلا بد أنه محتفظ هو بها ، ولا بد أنه الآن فى حجرة
المكتب • انه يأتى للعمل هنا فى جميع أيام الأربعاء ولا ينصرف قبل الساعة
الرابعة • احضروا جبريل آرداليوتش حالاً ! بل لا تحضروه ! فلست
أموت شوقاً الى رؤيته ! يا أمير ، يا صديقى ، هلاًّ تُلطف فذهبت الى
حجرة المكتب ، فأخذت تلك الصورة منه ، ثم جئتُ بها الى هنا • قل له ،
من فضلك ، اننى أريد أن أرى الصورة !

قالت آديلايد بعد أن خرج الأمير :

- لا بأس به ! لكنه بسيط مسرف فى البساطة قليلاً !

فقالت ألكسندرا مؤيدة :

- نعم ، مسرف فى البساطة قليلاً ، حتى ليصبح من ذلك مضحكاً
بعض الشيء !

لا الأولى ولا الثانية كان يبدو عليها أنها تفصح عن كل رأيها ،
وتعبّر عن كل ما يخالج نفسها •

قالت آجلايا :

- ومع ذلك عرف كيف يحسن التصرف حين تحدث عن وجوهنا •
مدحنا جميعاً وسراً جميعاً ، حتى ماما •

صاحت الجنزالة تقول :

- لا تتخابى ! هو لم يمدحنى ، ولكن أنا التى شعرت بأننى
مدحت •

سألت آديلايد :

- هل تظنين أنه كان يحاول أن يحسن التصرف ويصل الى الهدف؟
- يخيّل الىّ أنه ليس بسيطاً الى الحد الذى يُظن فيه •

قالت الجنزالة غاضبة :

- ها هى ذى تعيد الكرة ! فى رأيى أنا أنكن أدعى منه الى الضحك
عليكن ! صحيح أنه ساذج قليلاً ، لكنه يعرف ماذا يريد - أقول هذا
بأنبل معانى هذا التعبير • هو مثلى تماماً •

قال الأمير يحدث نفسه نادماً وهو ذاهب الى حجرة المكتب : « لاشك
أننى أخطأت اذ جئت على ذكر تلك الصورة • ولكن لعلنى أحسنت اذ
تكلمت عنها مع ذلك » •

ان فكرة غريبة قد أخذت تومض فى ذهنه ، وان لم تكن بعد
واضحة كل الوضوح •

ان جبريل آرداليوتش ما يزال فى حجرة المكتب ، غارقاً فى أوراقه •
كان يبدو عليه أنه يستحق فعلاً الرواتب التى كان يتقاضاها من شركة
الأسهم •

واضطرب الى أقصى حدود الاضطراب حين طلب منه الأمير الصورة،
وروى له كيف علموا هناك بوجودها • وصاح يقول غاضباً حانقاً
مقهوراً :

- آه ••• آه ••• ما كانت حاجتك الى تلك الثروة كلها ؟

ثم تتم يقول من بين أسنانه :

- أنت لا تعرف شيئاً ••• أنت أبله !

قال الأمير :

- متأسف • قلت ما قلته دون تفكير ، أثناء الحديث • قلت ان أجاليا

تكاد تكون في مثل جمال ناستاسيا فيليوفا •

سأله جانيا أن يقصّ عليه الأمر بالتفصيل ، ففعل الأمير • فألقى

عليه جانيا نظرة ساخرة •

ودمدم يقول :

- أنت مغرم بناستاسيا فيليوفا طبعاً •••

ولكنه لم يكمل كلامه ، وشرّد فكره •

كان واضحاً أنه قلق • وذكرّه الأمير بأن الجنرالة تطلب منه

الصورة •

قال جانيا فجأة ، كأن فكرة مباغته قد وافته :

- اسمع يا أمير • هناك معونة ضخمة أحب أن أطلبها منك •••

ولكنني ••• حقاً ••• لا أدري •••

اضطرب جانيا ولم يكمل كلامه • كان يبدو نهباً لصراع داخلي ،

وكان يلوح عليه التردد في اتخاذ قرار •

انتظر الأمير صامتاً • وعاد جانيا يروز الأمير بنظرة ثابتة فاحصة

متفرسة • ثم بدأ يتكلم ثانية فقال :

- يا أمير ... انتى الآن ... لسبب من الأسباب ... سبب غريب
كل الغرابة ... بل سبب مضحك ... لست مسئولاً عنه ... وهذا على
هامش المسألة على كل حال ... أقول انتى الآن .. فيما أظن .. مؤاخذ
قليلاً هناك ... لذلك قررت أن أغيب مدة من الوقت الا اذا دُعيت .
لكننى مع ذلك فى حاجة قصوى الى أن أكلّم آجلايا ايفانوفنا . لقد
كتبت بضعة أسطر (كان جانيا يحمل بيده ورقة مطوية) ، ولكننى لا أدرى
كيف أوصلها اليها . فهل لك يا أمير أن تحمل هذه الورقة الى آجلايا
ايفانوفنا فوراً ، ولكن الى آجلايا ايفانوفنا وحدها ، أى دون أن يرى أحد
ذلك ؟ هل تفهمنى ؟ ليس الأمر أمر سرّ كبير ... ليس هناك أى شيء
يمكن أن ... ولكن هل تصنع لى هذا ؟

أجاب الأمير :

- لا يسرنى هذا كثيراً !

فألحَّ جانيا قائلاً :

- آه ... أمير ... المسألة بالغة الخطورة بالنسبة الى ... وقد
تجيئنى آجلايا ... صدّقنى ... اذا كنتُ أتجه اليك واستعين بك فلأن
المسألة بالغة الخطورة ... من ذا الذى يمكننى أن أكلفه بإيصال الرسالة
اليها سواك ! ان المسألة ذات خطورة ... خطورة رهيبية ، بالنسبة الى ...

كان وجه جانيا يعبر عن خوف بلغ من الفظاعة والهول أن الأمير
لم يرفض وأجاب يقول وهو ينظر الى جانيا نظرة اشفاق :

- طيب ... سأقلها .

فقال جانيا ضارعاً وقد اطمأن روعه :

- ولكن يجب ألا يلاحظ أحد ... وانى لأعتمد على عهد الشرف
الذى تقطعه على نفسك يا أمير ، أليس كذلك ؟

قال الأمير :

- لن أرى الرسالة أحداً •

أفلت من جانبا لفرط تعجله قوله :

- ليست الورقة مختومة ، ولكن ...

ثم أمسك عن اتمام كلامه خجلاً مضطرباً •

فأجابه الأمير ببساطة :

- لن أقرأها •

وأخذ الصورة ، وخرج من حجرة المكتب •

فلما أصبح جانبا وحيداً ، أمسك رأسه بيديه ، وقال يحدث نفسه :
« كلمة واحدة منها تكفى ... فربما أقطع عندئذ صلتى ب ... » • كان
من شدة انفعاله أثناء الانتظار ، لا يستطيع أن يعود الى أوراقه ، وأخذ
يندفع الغرفة من ركن الى ركن ••

وكان الأمير يمشى شارد اللب • لقد أدهشه ادهاشاً مزعجاً أن يكلف
بهذه المهمة • بل ان مجرد تصويره رسالةً يبعث بها جانبا الى آجلايا كان
يسوءه • لكنه قبل أن يصل الى الصالون قاطعاً اليه حجرتين ، توقف فجأة
كمن تذكر شيئاً ما ، وألقى نظرة على ما حوله ، ثم اقترب من النافذة
التماساً لمزيد من الضوء ، وأخذ ينعم النظر في صورة ناستاسيا فيليوفا •

كان كمن يحاول أن يحزر شيئاً يختبئ في هذه الصورة وقد
خطف انتباهه منذ قليل • لم يتركه ذلك الشعور الذى قام في نفسه
حينئذ ، ولكنه يحاول الآن أن يتثبت منه ، فيما يظهر •

ان هذا الوجه الحارق بجماله وبشيء آخر ، يخطف الآن انتباهه
بمزيد من القوة • ان فيه كبرياءً وعجباً ، وان فيه احتقاراً وازدراء ، بل

يكاد يكون فيه كره وبغض ، غير أنه يعبر في الوقت نفسه عن ثقة وبراءة
وسداجة غريبة . حتى ان هذا التضاد نفسه يوقظ في النفس شيئاً من
العطف والشفقة . ثم ان هذا الجمال الذي يبهز الأبصار لا يكاد يطاق :
جمال الوجه الشاحب ذي الحدين الحاسفين قليلاً ، والعينين الساطعتين . . انه
جمال غريب ! تأملها الأمير لحظة ، ثم تاب الى نفسه ، فألقى نظرة حوالية ؛
وها هو ذا يقرب الصورة من شفّيته بحركة سريعة فيقبّلها !
حين دخل الأمير الصالون بعد قليل كان وجهه هادئاً كل الهدوء .
ولكنه قبل ذلك ما ان صار في قاعة الطعام (قبل الصالون بحجرتين) حتى
كاد يصطدم عند الباب بآجلايا ، داخلةً .
لقد كانت وحيدة .

قال لها وهو يمد اليها الرسالة :

- رجائي جبريل آرداليوتش أن أنقل اليك هذا .

فتوقفت آجلايا ، وتناولت الورقة ، وألقت على الأمير نظرة غريبة .
لم يكن في هذه النظرة أى اضطراب أو خجل . كل ما هنالك شيء قليل
من دهشة ؛ حتى ان هذه الدهشة هي دهشة من الأمير وحده . فكأن
آجلايا كانت بهذه النظرة تطالب الأمير بأن يشرح لها كيف وجد نفسه
مُقْحَماً في هذه القضية ، وتطالبه بذلك في هدوء وتعال . وارتسم على
وجهها أخيراً شيء من سخرية ، ابتسمت ابتسامة خفيفة ومَرَّت .

تأملت الجُرْالة صورة ناستاسيا فيليبونا خلال مدة من الوقت صامتة ،
مع شيء من الاحتقار ؛ وكانت ممسكة بالصورة أمامها مادةً ذراعها الى
مسافة بعيدة مسرفة في البعد .

ودمدت تقول أخيراً :

- نعم ، هي جميلة ، بل هي جميلة جداً . لقد رأيتهَا مرتين ،
ولكن من بعيد .

ثم اتجهت الى الأمير فقالت له :

- اذن هذا هو نوع الجمال الذى تحبه ؟

فأجاب الأمير بشئ من الجهد :

- نعم هذا هو

- أقصد ... هل هو هذا بعينه ؟

- نعم هو بعينه ؟

- لأى سبب ؟

دمدم الأمير يقول رغم ارادته تقريباً ، كأنه يكلم نفسه ولا يجب
أحدًا :

- فى هذا الوجه ألم كبير وعذاب عظيم

قالت الجنرالة :

- على كل حال قد لا يكون هذا عندك الا هذياناً

ورمت الصورة على المائدة بحركة كبيرة متعالية • فتناولت ألكسندرا
الصورة ، واقتربت منها آديلايد ، وأخذت البنتان تنعمان النظر فيها معاً •
وفى تلك اللحظة عادت آجلانيا •

هتفت آديلايد تقول فجأة وهى تنظر الى الصورة بشراهة من فوق
كف أختها :

- يا لها من قوة !

فسألتهما الزابت بروكوفيينا بخشونة :

- أين ؟ أية قوة ؟

فقال آديلايد بحرارة :

— ان جمالاً كهذا الجمال لهو قوة • ان جمالاً كهذا الجمال يمكن
أن يقلب العالم !

وعادت الى مسند لوحتها شاردة الذهن مفكّرة •
لم تلق آجلايا على الصورة الا نظرة عابرة ، فجعدت عينيها ،
ومطت شفتيها السفلى ، ومضت تجلس منزوية عاقدة ذراعيها على صدرها •
دقت الجرسالة الجرس ، فدخل خادم فقالت له :

— ادع جبريل آرداليوتش • هو فى حجرة المكتب •
فهتفت ألكسندرا تقول :

— ماما !

فقالت الجرسالة حاسمة ، مانعة كل جواب :

— أريد أن أقول له كلمة ! كفى !

كان واضحاً أنها مهتاجة • والتفتت الى الأمير فقالت له :

— هل ترى يا أمير ؟ لم يبق عندنا هنا الا أسرار ، لا شيء الا
الأسرار ! يظهر أن هذا لا غنى له ... يا للغباوة ! وذلك فى أمر يقتضى
منتهى الصراحة والوضوح والصدق والاستقامة ! هناك مشروعات زواج
... وليست تعجبنى هذه المشروعات ! ...

أسرعت ألكسندرا توقفها عن الكلام من جديد قائلة :

— ماما ! ماذا جرى لك ؟

— ماذا تريدن يا ابنتى العزيزة ؟ أهى ترضيك أنت ، هذه
المشروعات ؟ لا مانع أن يسمع الأمير ... فنحن أصدقاء ! ... أنا وهو ،
على الأقل صديقان ... ان الله يبحث عن الأخيار أما الأسرار وأصحاب
النزوات ، فما أكثرهم ! ولا سيما أصحاب النزوات أولئك الذين يقررون

اليوم شيئاً ويفعلون فى الغد شيئاً آخر • هل تفهمين عنى يا ألكسندرا
ايفانوفنا؟ هنَّ يقلن ، يا أمير ، اننى غريبة الأطوار ، فى حين أننى
أستطيع أن أُميّز الأمور • ذلك أن العبرة بالقلب ، أما ما عدا ذلك
فسفاسف ! صحيح أن الذكاء لازم أيضاً ، بل قد يكون الذكاء أهمَّ شىء •
لا تضحكى ساخرة يا آجلايا ، فأنا لا أتناقض • فان الحمقاء التى لها قلب
وليس لها ذكاء ، لا تقلُّ شقاء عن حمقاء لها ذكاء وليس لها قلب • هذه
حقيقة قديمة • فأنا الحمقاء التى لها قلب وليس لها ذكاء ؛ وأنت الحمقاء
التي لها ذكاء وليس لها قلب ؛ وذلك هو السبب فى أننا كلتينا شقيتان ،
وفى أننا كلتينا نتألم ونتعذب •

لم تستطع آديلايد أن تكبح جماح نفسها ، بعد أن كانت بين جميع
الحاضرات أكثرهن احتفاظاً بمزاحها المرح الفرح ، فقالت :

– ما الذى يشيقك ياماما ؟

فقالت الجئالة حاسمة :

– يشقنى أولاً أن لى بنات متفهبقات كثيراً ••• ولما كان هذا كافياً
فلا داعى الى أن أفيض فى الكلام على ما عداه ! كفى ثرثرة ! سنرى كيف
تحسنان التصرف كلتاكما (ولست أعد آجلايا) بما تملكان من قوة فكر
وسنرى هل ستستطيعين ، أنت يا ألكسندرا ايفانوفنا المدهشة ، أن تكونى
سعيدة مع صاحبك السيد النبيل •••

واذ رأت جانيا داخلاً ، صاحت تقول :

– آ ••• وهذا عرس آخر •••

وحياً جانيا ، فأجابته دون أن تدعوه الى الجلوس :

– صباح الخير • هيه ••• اذن ستزف ؟

فتمتم جبريل آرداليونتش يقول مبهوتاً مصعوقاً :

- أُرِف ؟ كيف هذا ؟... كيف أُرِف ؟
لقد اضطرب اضطراباً فظيماً •
- أَتُصد ستزوج ؟ ذلك ما أسألك عنه ، اذا كان هذا التعبير
يرضيك أكثر !

فكذب جبريل آرداليوتش قائلاً وقد احمر وجهه من الحجل :
- ل ••• ل ••• لا ••• لن •• لن ••
وألقى نظرة سريعة على آجلايا التي كانت ما تزال متتحة ، ثم أشاح
وجهه بسرعة • كانت آجلايا تنظر اليه بهدوء وبرود ، دون أن تحوّل
عنه بصرها ، وكانت تراقب اضطرابه •

ألحت اليزابت بروكوفينا اللجوج تسأله :
- لا ؟ تقول لا ؟ يكفي • سأذكرك أنك في صباح يوم الأربعاء قد
أجبت عن سؤالى بقولك : « لا » • فى أى يوم نحن ؟ ألسنا فى يوم
الأربعاء ؟

أجابت آديلايد :
- أظن أنه يوم الأربعاء يا ماما •
- لا أحد يعرف الأيام والتواريخ • فى أى يوم من أيام الشهر
نحن ؟

قال جانيا :
- فى اليوم السابع والعشرين •
- فى السابع والعشرين ؟ هذا تاريخ مناسب من بعض النواحي •
طيب • استودعك الله ! عندك أعمال كثيرة فيما أظن ، وأنا يجب على أن
أرتدى ثيابى لأخرج • استرد هذه الصورة • واقفل تحيتى الى أمك
المسكينة نينا ألكسندروفنا ! الى اللقاء يا أمير ، يا صديقى ، يا صديقى !

زرني كثيراً • أما أنا فانتى ذاهبة الى المعجوز ييلوكونسكايا خصباً لأكلها
عك • واسمع يا عزيزى : انتى أومن صادقة بأن الله انما أرسلك من
سويسرا الى بطرسبرج من أجلى أنا . قد تعمل شيئاً آخر ، ولكنك
بعثت الى هنا من أجلى أنا خاصة • الله هو الذى شاء ذلك • الى اللقاء
يا عزيزاتى • ألكسندرا ، تعالى الى صديقتى •

وخرجت الجرنال • وتناول جانيا الصورة من على المائدة مضطرباً
طائش العقل ممتلىء النفس حقداً ، ثم التفت نحو الأمير وهو يتبسّم ابتسامة
مصطنعة :

– أنا عائد الى بيتى يا أمير • فإذا كنت ما تزال تنوى أن تقيم عندنا ،
فسأقودك الى هناك ، فانك لا تعرف العنوان •

قالت آجلآيا وهى تهض عن مقعدها :

– لحظة يا أمير • عليك أن تكتب شيئاً فى دفترى (الألبوم) • بابا
يدعى أنك خطاط • سأجيئك بالدفتر •

قالت آديلايد :

– الى اللقاء يا أمير • أنا أيضاً منصرفة •

وصافحت الأمير مصافحة قوية ، وابتسمت له ابتسامة فيها لطف
ومودة ومحبة ، وخرجت دون أن تلقى على جانيا نظرة واحدة •

قال جانيا وهو يصرف بأسنانه ويهرع نحو الأمير :

– أنت الذى ثرثرت فجئت على ذكر زواجى ... يا لك من
ثرثار وقح !

بهذا جمجم جانيا متعجلاً بصوت خافت ، وقد استعر وجهه سخطاً
وحقناً ، والتمعت عيناه خبثاً وشرّاً •

أجابه الأمير بأدب هادئ :

- أوكد لك أنك مخطيء . لقد كنت أجهل كل الجهل أنك ستزوج *

- لقد سمعتَ ايفان فيدوروفتش يقول منذ قليل ان كل شيء سيتقرر هذا المساء في منزل ناستاسيا فيليوفنا ، وهذا ما نقلته اليهن . أنت كاذب! أنيَ لهنَّ أن يعلمن النبأ بغير ذلك . من ذا الذي كان يمكن أن يبلغهن النبأ سواك ؟ ألم تشر العجوز الى هذا اشارة مباشرة ؟

- أنت أقدر مني على أن تعرف من عساه أطلعهن على النبأ ، اذا كنت تحسن حقاً أن قد كان ثمة اشارة . أما أنا فلم أقل كلمة واحدة . قاطعه جانبا يسأل محموماً :

- هل نقلت رسالتي ؟ ماذا كان الجواب ؟

ولكن آجلانيا دخلت في تلك اللحظة نفسها ، فلم يتسع وقت الأمير لأن يجيب *

قالت آجلانيا وهي تضع دفترها على المائدة :

- اليك الدفتر يا أمير . فاختر منه صفحةً واكتب لى شيئاً . هذه ريشة جديدة كل الجودة . لا ضير في أن تكون من معدن ؟ لقد سمعت أن الخطاطين لا يستعملون ريشة من معدن *

كانت وهي تكلم الأمير كأنما لا تلاحظ حتى وجود جانبا . ولكن بينما كان الأمير يهيئ الريشة ويختار صفحة ويستعد للكتابة ، دنا جانبا من المدفأة التي كانت تقف آجلانيا قربها على يمين الأمير ، وتمتم يقول في أذنها تقريباً ، بصوت مختلج متقطع :

- كلمة ، كلمة واحدة منك ، فأنجو !

التفت الأمير بحركة سريعة ونظر اليهما كليهما • كان يُقرأ في وجه جانبا كرب كبير ويأس هائل • لكأنه نطق بتلك الكلمات دون تفكير، كمن يلقي بنفسه في الماء •

تأملته آجلايا بضع لحظات بتلك الدهشة الهادئة نفسها التي ظهرت عليها منذ قليل أمام الأمير ؟ فكانت هذه الدهشة ، وهذه البلبلة اللتان يبدو أنهما ناشتان عن أن الفتاة لا تفهم شيئاً البتة مما يقال لها ، كانتا أشد هولاً وأفظع وقعاً في نفس جانبا من أعمق احتقار وأكبر ازدراء !
سأل الأمير :

– ماذا يجب أن أكتب ؟

فقلت آجلايا وهي تلتفت إليه :

– سأملئ عليك • أنت مستعد ؟ اكتب : « أنا لا أصلح للمساومات » •

والآن ضع التاريخ ، وأرني الكتابة •

مدَّ الأمير إليها الدفتر • فنظرت فيه وقالت :

– عظيم ! ان لك خطأ رائعاً • هذا جميل حقاً • شكراً • الى اللقاء

يا أمير !

ثم أضافت وقد تذكرت شيئاً ما :

– لحظة أخرى • تعال • سأهدى اليك تذكراً •

فتبعها الأمير ، ولكن آجلايا وقفت منذ صارت في حجرة الطعام ،

فمدت اليه رسالة جانبا وقالت له :

– اقرأ هذا !

تناول الأمير الرسالة ، ونظر الى آجلايا متحيراً • فقلت آجلايا :

– أنا أعرف على وجه اليقين أنك لم تقرأها ، وانك لا يمكن أن تكون

نجيَّ هذا الرجل وحامل أسرارهِ • اقرأ • انتى أصر على أن تقرأ •

كان يبدو أن الرسالة كُتبت على عجل • قرأ الأمير :

« اليوم يتقرر مصيرى ، تعلمين كيف • اليوم سأُضطر أن أقطع على نفسى وعداً لا نكول عنه • ليس لى أى حق فى اهتمامك بى ، ولست أحمل أى أمل • غير أنك نطقت كلمةً فى ذات يوم ، كلمةً واحدة ، فأثارت تلك الكلمة ظلام حياتى الحالك ، وأمسست منارةً لى • قولى لى كلمة أخرى كتلك الكلمة ، فتقذينى من الضياع ! قولى فقط : « أقطع كل صلة » ، فأفعل ذلك فى هذا اليوم نفسه • آه ••• هل يكلفك باهظاً أن تقول لى ذلك ؟ اننى اذ أطلب منك هذه الكلمة لا ألتبس الا علامة اكتراف وشفقة ، لا شىء غير ذلك ، لا شىء ، لا شىء ! اننى لا أجرؤ أن اسمح لنفسى بأى أمل ، لأننى « لا أستحق » • لكننى بعد كلمة واحدة منك سأرتضى فقرى من جديد ، وسأحتمل حالتى اليائسة فرحاً • سأستأنف الكفاح ، وسيسعدنى أن أكافح ، وسأبعت بالكفاح بعثاً آخر ، فأزخر بقوى جديدة •

« ابغى الى بكلمة الشفقة تلك وحدها (« لا شىء الا الشفقة » أحلف لك !) • ولا يفضيئك تهور رجل يائس ، رجل يفرق فيتجراً أن يقوم بجهد أخير ليتقى الهلاك •

« ج • اى • »

فلما فرغ الأمير من القراءة قالت آجلايا بلهجة قاسية :

- يزعم هذا الرجل أن كلمة « أقطع كل صلة » لا يمكن أن تعرضنى لشىء ولا يمكن أن تلزمنى بشىء ؛ وما هذه الرسالة ، كما رأيت ، الا نوع من تأكيد مكتوب • لاحظ مدى سذاجته فى الاسراع الى وضع خط تحت بعض الكلمات ، ومدى الغلظة فى ظهور فكرته المبيتة ونيتة

المخباء وراء ذلك • وهو يعلم على كل حال أنه لو قطع كل صلة من تلقاء نفسه ، بمحض ارادته ، دون أن ينتظر تشجيعاً منى ، وحتى دون أن يكلمنى فى هذا الأمر ، ودون أن يستطيع أن يعقد على أى أمل ، لكان من الممكن أن تتحسن عواطفى نحوه ، ولكان من الممكن أن أغدو صديقة له • وهو يعلم ذلك حق العلم على كل حال ! لكنه رجل دنس النفس • هو يعلم ذلك لكنه يطلب ضماناً • انه لا يستطيع أن يبنى عمله على الثقة انه يريد أن أعطيه أملاً ، فى مقابل المائة ألف روبل ! أما عن الكلمة التى يزعم فى رسالته أننى نطقت بها فأنارت حياته ، فذلك كله كذب واختلاق وقع • كل ما هنالك أننى شعرت نحوه بشيء من الشفقة فى يوم من الأيام • لكنه رجل وقع لا حياء فيه ، فسرعان ما قدّر أن فى وسعه أن يعقد أملاً • لقد فهمت أنا ذلك فوراً • وهو منذ ذلك اليوم يحاول أن يوقعنى فى الفخ ، وهذا بعينه ما حاوله فى هذا النهار أيضاً • ولكن كفى الآن ! خذ رسالته هذه ، وأعدها اليه متى خرجتما من الدار ، لا قبل ذلك •

.. وما هو الجواب الذى ينبغى أن أحمله اليه ؟

– لا جواب ، طبعاً ! ذلك خير جواب • اذن أنت تنوى أن تقيم فى

بيتهم ؟

قال الأمير :

– ان ايفان فيدوروفتش نفسه هو الذى نصحنى بهذا منذ قليل •

– فكن منه اذن على حذر ! اننى أنبّهك • لن يفتر لك ارجاع هذه

الرسالة التى سترجعها اليه !

صافحت آجلايا يد الأمير مصافحة خفيفة ، وخرجت • كان وجهها مقطباً مكفهرًا • حتى انها لم تبسم له وهى تحييه برأسها مودعة •

قال الأمير يخاطب جانبا :

- لحظة ، آخذ صرتى فوراً ثم تنصرف •
قرع جانبا الأرض بقدمه من نفاد الصبر • لقد اسودَّ وجهه حنقاً •
وأخيراً خرج الاثنان الى الشارع ، والأمير يحمل بيده صرّته •
سأله جانبا وهو يكاد يرتضى عليه :

- هيه ، الجواب ؟ ماذا قالت لك ؟ هل أعطيتها رسالتى ؟
فمدَّ اليه الأمير الرسالة صامتاً • فتصلب جانبا كالمتجمد ، وهتف
يسأل :

- كيف ؟ رسالتى ؟ آه ... لم يعطها الرسالة ! كان علىَّ أن أقدر
ذلك ! آه ... لعنة الله عليه ... الآن يتضح لى كيف أنها لم تفهم اذن
شيئاً منذ قليل ! ... ولكن كيف ، كيف أمكنك ألا تعطيها الرسالة ؟
آه ... لعنة الله على ...

- عفوك • ان ما حدث هو عكس هذا تماماً • لقد سهّلت لى
الظروف أن أعطيها رسالتك بعد أن أعطيتها أنت بلحظة واحدة ، مع
أدق الالتزام بما أوصيتنى به • واذا كانت الرسالة بين يديَّ الآن ، فلأن
أجلها قد ردتّها الىَّ منذ هنيهة •

- متى ؟ متى ردتّها اليك ؟
- منذ أنهيت الكتابة فى دفترها فدعنتى الى أن أتبعها (هل سمعتها؟) •
فلما صرنا فى قاعة الطعام مدّت الىَّ هذه الرسالة وطلبت منى أن أقرأها
ثم أرجعها اليك •

زأر جانبا قائلاً :

- أن تقرأها ؟ أن تقرأها ؟ وقرأتها ؟

تجمّد جانبا فى وسط الرصيف وقد بلغ من الشدّة أن فمه ظل
فانغراً ...

قال الأمير :

- نعم ، قرأتها •

- وهي التي أقرأتك الرسالة ، هي نفسها ؟ هي نفسها ؟

- نعم ، هي نفسها • صدّقني : ما كان لي أن أقرأها قط لولا أنني
أُمرت بذلك •

لبث جانبا صامتاً خلال لحظة ، يبذل جهوداً كبيرة من أجل أن يفهم
شيئاً ، ولكنه صاح يقول فجأة :

- مستحيل ! لا يمكن أن تكون قد طلبت منك قراءة الرسالة ! أنت
تكذب ! أنت قرأت الرسالة من تلقاء نفسك •

قال الأمير بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

- لقد قلت لك الحقيقة • صدّق أنني آسف أشد الأسف لما أحدث
هذا الأمر في نفسك من انزعاج وضيق •

- ولكن ، أيها الشقي ، لا بد أنها قالت لك شيئاً على الأقل ، حين
أعادت إليك الرسالة ؟ فهل حملتك جواباً ما ؟

- نعم ، طبعاً !

- فما بالك لا تتكلم اذن ! ما بالك لا تتكلم !

وقرع جانبا أرض الرصيف مرتين بقدمه اليمنى المتعلة جرموقاً من
مطاط فوق الحذاء •

قال الأمير :

- ما ان أنهت قراءة الرسالة حتى قالت لي انك تحاول أن توقعها
في الفخ ؛ فأنت تريد أن تحصل منها على وعدٍ بأمل ، فاذا قويتَ بهذا
الوعد ، أمكنك أن تقطع الصلة دون خسران ، وذلك بأمل مقداره

مائة ألف روبل ؛ وأضفت أنك لو فعلت دون أن تساومها ، أى لو قطعت تلك الصلة من تلقاء نفسك بمحض ارادتك دون أن تطلب منها أية ضمانات سلفاً ، لكان من الجائز أن تفوز بصدقها لك • أظن أن هذا هو كل ما قالته • آ • نعم ••• هناك شيء آخر : فحين سألتها بعد استرداد رسالتك ما جوابها ، قالت ان خير جواب هو ألا تعطي جواباً. أظن أن هذا هو ما قالته • سامحني اذا نسيت الألفاظ التي استعملتها هي نفسها نصاً ، فانا أنقل اليك ما أظن أنني فهمته •

استولى على جانبا غضب لا حدود له ، وانفجر حنقه دون أى سيطرة على نفسه ، فقال وهو يصرف بأنسانه :

- ها ••• هكذا !••• ترمى رسائل من النافذة ! آ ••• هي لا تصلح للمساومات ! طيب ••• طيب ••• ولكنني سأصلح لها أنا ••• ولسوف نرى !••• أنا لم أقل بعد كل شيء ••• لسوف ترى !••• لتصلها أخباري ! •••

كان يصمّر وجهه ، وكان يشحب لونه ، وكان يرغبى ويزيد ، ويهدد بقبضة يده ويتوعد • وسارا بضع خطوات وهما على هذه الحال • لم يتحرج جانبا أمام الأمير أى تحرج ، حتى لكأنه خال الى نفسه فى غرفته ، لأنه لم يكن يعده شيئاً مذكوراً • ثم توقف وقد فجأته فكرة مباغتة ، فقال يسأل الأمير :

- ولكن كيف أمكنك (وأضاف جانبا يقول بينه وبين نفسه : كيف امكن هذا الأبله) ••• كيف أمكنك أن تدخل الى خفايا أمورهن وأن تصبح محل سرهن ولماً ينقض على معرفتك بهن أكثر من ساعتين ؟ كيف هذا ؟

لم يكن ينقصه لاكمال أنواع عذابه الا أن تضاف اليها الغيرة • وما هي ذى الغيرة تمض الآن قلبه على حين فجأة •

أجابه الأمير قائلاً :

– هذا لا أستطيع أن أعلّله لك !

فرشقه جانبا بنظرة خبيثة شريرة ؛ وقال له :

– أمن أجل أن تهدى اليك ثقتها انما دعتك اذن الى قاعة الطعام ؟

لقد قالت انها تريد أن تهدى اليك شيئاً ، أليس كذلك ؟

– لا أفهم الأمر على غير هذا الوجه !

– ولكن لماذا ؟ حقاً انه لأمر عجيب !... ماذا فعلت هناك ؟ كيف

استطعت أن تحظى باعجابهن ؟ اسمع ...

كان جانبا يضطرب بكل قواه • وكان كل شيء في نفسه مشوشاً
يفعل ويفور ، فهو لا يستطيع أن يفلح في جمع شتات أفكاره • وتابع
كلامه فقال :

– اسمع ... ألا تستطيع أن تحاول أن تتذكر كل ما تحدثت فيه

وأن تعيده مرتباً منظماً متسلسلاً ، وأن تذكر كل ما قيل من البداية الى

النهاية ؟ ألم تلاحظ شيئاً يمكنك أن تتذكره ؟

أجاب الأمير :

– أوه ... هذا سهل ! منذ البداية ، منذ دخلت وتم التعارف ،

تحدثنا عن سويسرا •

– دعنا من سويسرا ... فلتنذهب سويسرا الى جهنم !... •

– ثم تحدثنا عن عقوبة الاعدام ... •

– عن عقوبة الاعدام ؟

– نعم ، عرضاً ... ثم وصفت لهن السنين الثلاث التي عشتها

هناك ، وقصصت عليهن قصة القروية المسكينة •

- فلتذهب القروية المسكينة الى جهنم ! أكمل ...
كان جانبا يدبب بقدميه من نفاد الصبر وشدة التمليل • وتابع
الأمير كلامه فقال :

- ثم ذكرت لهن كيف أن شنابير أطلعن على رأيه فى طبعى ،
ودفعنى الى ...

- فليذهب شنابير الى جهنم ! لا تهمنى آراؤه ! وبعد ذلك ؟
- بعد ذلك أخذت أتكلم عن الوجوه ، لا أدري بأية مناسبة ، أقصد
... عن تعبير الوجوه ، فقلت لأجلالاي ايفانوفنا انها فى مثل جمال ناستاسيا
فيلبوفنا تقريباً • وعندئذ انما أفلتت من لسانى كلمات عن الصورة ...
- لكنك لم تنقل اليهن ما كنت قد سمعته فى حجرة المكتب ، أليس
كذلك ؟ لم تنقله اليهن ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ، لم تنقله اليهن •
- أكرر لك أنتى لم أتقله اليهن ...

- ولكن ... عجب ... ألم تطلع أجلالاي أمها على الرسالة ؟
- أستطيع أن أضمن لك أنها لم تطلعها عليها • انتى لم أتركهن
لحظة • ثم انها لو أرادت أن تطلعها عليها لما اتسع الوقت لهذا •
- ولكن لعل شيئاً حدث ولم تلاحظه ...

ثم صاح جانبا يقول وقد خرج عن طوره تماماً :
- يا لأبله النحس ! ... انه عاجز حتى عن أن يروى الأمور على
نحو مناسب !

واذ شتم مرة فلم يلقى مقاومة ، أخذ يفقد كل تحفظ شيئاً بعد
شيء ، كما يحدث ذلك دائماً لبعض الأشخاص • حتى لقد كان من الممكن
وقد بلغ ذروة حقه أن يمضى الى حد البصق • لكن هذا الحق نفسه قد
أعماه • والا لكان قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذا « الأبله » الذى

يعامله هو هذه المعاملة يفهم في بعض الأحيان كل شيء بسرعة عظيمة ،
ودقة شديدة ، ويجيد الرواية اجادة تامة • غير أن شيئاً لم يكن في الحسبان
قد حدث على حين فجأة •

قال الأمير بفتة :

— يجب أن ألفت نظرك يا جبريل آرداليوتش أنتى فى الماضى كنت
مريضاً بالفعل ، حتى لقد أصبحت كالأبله ، ولكننى شُفيت منذ مدة
طويلة ، وانه ليؤلمنى أن أسمع أحداً يصفنى بأننى أبله • ورغم أن المرء
قد يعذرك بسبب ما أنت فيه من خيبة الآمال وسقوط الأمانى ، فقد شتمتنى
حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات ، وهذا ما لا أرضى عنه البتة ، لا سيما
وانه لا سبب له ، وانما أنت تندفع فيه اندفاعاً وتسترسل فيه استرسالاً
بغير داعٍ منذ أول لقاء بيننا • أفلا ترى والحالة هذه ، ما دمنا الآن عند
مفترق طرق ، أن نفترق هنا ، فذهب يمنةً وأذهب يسرة ؟ ان معى
خمسة وعشرين روبلاً ، ولا شك أننى واجد فدفقاً أبيت فيه •

أحس جانبا بخجل شديد واضطراب كبير ، حتى لقد احمر وجهه
من شعوره بالعار لأنه أخذ هذا الأخذ بفتة على وجهه لم يكن يتوقعه
البتة •

قال معتذراً بحرارة ، منتقلاً من الشتم المذع الى التهذيب الرقيق:

— سامحنى يا أمير ، ناشدتك الله ••• انك ل ترى ما أنا فيه من شقاء •
أنت لا تعرف بعد شيئاً ، فلو عرفت كل شيء لغفرت لى بعض الغفران
حتماً ، وان يكن سلوكى هذا لا يغتفر طبعاً •••

أسرع الأمير يطمشه قاتلاً :

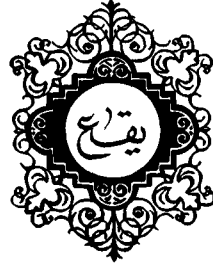
— لا أطلب كل هذه الاعتذارات • انى لأدرك أنك قلق مضطرب ،

وأن هذا هو السبب في شتمى • طيب • فلنذهب الى بيتك • أنا من
جهتى يسرنى هذا •

كان جانبا يقول لنفسه أثناء السير وهو يلقي على الأمير نظرات كره
وبغض : « لا ، يستحيل أن أتركه الآن • لقد أخذ منى هذا الوغد كل
ما كان يريد ، وها هو ذا يرمى عن وجهه القناع ••• ان فى الأمر شيئاً
مختفياً • سوف نرى • سوف يتقرر كل شيء ، كل شيء ، فى هذا اليوم
نفسه » •

وكانا قد وصلا الى الدار •

الفصل الثامن



بيت جانبا في الطابق الثاني ، ويوصل اليه سلم
نظيف فسيح نير ، ويتألف من ست غرف أو
سبع تتفاوت سعة ؛ وإذا كان هذا البيت عادياً في
الواقع ، فلا شك أن أجرته فوق طاقة موظف
متواضع يقع على كاهله عبء أسرة ، ولو بلغ مرتبه ألفى روبل . لكن
هذا البيت كان مهياً كذلك لاستقبال مستأجرين مع الطعام والخدمة ، ولم
يسكنه جانبا وأسرته الا منذ شهرين في أكثر تقدير ، على استياء من جانبا
نفسه ، وبالحاح من نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا اللتين كانتا
ترغبان في أن تكونا نافعتين هما أيضاً ، وأن تساهما في زيادة دخل العائلة
ولو قليلاً . كان جانبا يظهر امتعاضه ويعدّ هذا التدبير مسقوطاً . وهو
منذ أقاموا في هذا المنزل يشعر بحرج في المجتمع ، حيث ألف حتى ذلك
الحين أن يظهر فتى لامعاً يبشر بأن يكون له مستقبل فكانت هذه التنازلات
كلها وهذا الشيوع المزعج كله بمثابة جروح عميقة في نفسه . حتى
أصبح منذ بعض الوقت يثيره أبسط أمر من الأمور اثاره شديدة تخرجه
عن طوره ؛ وإذا كان لا يزال يرتضى أن يرضخ وأن يصبر ، فما ذلك الا
لأنه عقد النية بثبات وقوة وصلابة على أن يغير هذا الوضع كله في أقصر
مدة . ومع ذلك فان هذا التغيير نفسه ، والحلّ الذي انتهى الفتى اليه

وعزم أمره عليه ، قد أصبحا مسألة خطيرة ، مسألة يهدّد حلّها بأن تكون متابعه وهمومه أوفر عدداً وأشدّ ايلاًماً مما سبق •

كانت الشقة مشطورة شطرين بدهلين يبدأ من المدخل • ففي إحدى الجهتين تقع الغرف الثلاث الموقوفة على المستأجرين « الموصى بهم توصية خاصة » ؛ وفي تلك الجهة نفسها ، عند آخر الدهليز ، قرب المطبخ ، توجد حجرة صغيرة هي أضيق سائر الحجرات ، يعيش فيها وينام فيها ، على ديوان عريض ، ربّ الأسرة نفسه ، الجنرال المتقاعد ايفولجين ، الذى كانوا يضطرونه أن يكون خروجه ورجوعه من المطبخ وسلّم الحدم • وفي تلك الغرفة الصغيرة نفسها يسكن أيضاً الفتى الصغير كوكليا* ، أخو جبريل آرداليوتش ، وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية عمره ثلاثة عشر عاماً • كان هذا الفتى الصغير مضطراً هو أيضاً الى أن ينكمش حتى يستطيع أن يعيش فى هذه الغرفة وأن يطالع دروسه فيها ؛ فهو ينام على ديوان ثان ، متداع ، ضيق ، قصير ، مثقب الأعطية • وكان عليه عدا ذلك أن يمتنى بالجنرال وأن « يسهر عليه » ، لأن الجنرال كانت تزداد حاجته اليه يوماً بعد يوم •

أعطى الأمير غرفة الوسط ، فأما التى على يمينها فكان يسكنها فردشتينكو ؛ وأما التى على شمالها فما تزال خالية لم يقطنها أحد • ولكن جانبا قاد الأمير فى أول الأمر الى ذلك الجزء من الشقة ، الذى تقيم فيه الأسرة • ان الجزء يتألف من غرفة استقبال يحيلونها عند الحاجة الى غرفة طعام ، ومن صالون ليس فى الحقيقة صالوناً الا فى الصباح حتى اذا حلّ المساء أمسى حجرة مكتب فغرفة نوم لجانبا ؛ وهناك أخيراً غرفة ثالثة ، صغيرة مقفلة الباب دائماً ، هى غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا •

الخلاصة أن جميع الأشياء وجميع الأشخاص كانت فى هذه الشقة

محشورة متراصة تعيش فى مكان أضيق من أن يتسع لها • فكان جانيا لا يكف عن الصريف بأسنانه غيظاً ، وكان لا يفوت من يراه منذ أول نظرة أنه فى هذه الأسرة طاغية مستبد ، رغم حرصه على أن يظهر بمظهر من يحترم أمه ويوقرّها •

لم تكن نينا ألكسندروفنا وحيدة فى الصالون ، بل كانت تجالسها باربارا آرداليونوفنا • وكاتتا كلتاهما منهنكيتين فى النسيج بالابرة ، على تحدثهما مع زائر كان مهما هو ايفان بتسين • ان نينا ألكسندروفنا تبدو فى الخمسين من العمر • وجهها نحيل شاحب اللون ؛ وتحت عينيها هالتان زرقاوان • مظهرها كله يدل على المرض ، ويدل على شىء من الألم ، غير أن فى وجهها ونظرتها شيئاً من جاذبية • والمراء يدرك من أولى كلماتها أن لها طبعاً جاداً وخلقاً رصيناً ووقاراً صادقاً ؛ وأنها رغم الألم الذى يعبر عنه وجهها ، تملك جناحاً ثابتاً ، بل وعزيمة قوية • ثيابها متواضعة جداً ، فهى سوداء ، وهى على الزى الذى ترتديه العجائز ؛ ولكن حركاتها وآدابها وحديثها وسلوكها ، كل هذا يدل على أنها انسانية عرفت كذلك بيثة أرفع من هذه البيثة وأرقى •

أما باربارا آرداليونوفنا فهى فتاة فى الثالثة والعشرين من العمر ، متوسطة القامة ، نحيلة الجسم ، ان لم يكن وجهها جميلاً حقاً ، فان فيه سرّاً الفتنة بغير جمال ، وآية الجذب الى درجة الهوى • انها تشبه أمها كثيراً ، وتكاد ترتدى ما ترتديه أمها ، فلا أثر فى ثيابها لتبهرج أو تفندر • نظرة عينيها الشهابوين يمكن أن تكونا فى بعض الأحيان مرحتين كل المرح ، ملاطفتين كل الملاطفة ، لكن هذه النظرة هى فى الغالب الأعم رصينة مفكّرة ، مفرطة فى الرصانة مسرفة فى التفكير أحياناً ، ولا سيما فى هذه الآونة الأخيرة • ومن يراها يقرأ فى وجهها ثبات الجنان وقوة العزيمة أيضاً ، ولكنه يحس أن هذا الثبات وهذه العزيمة يمكن أن

يتجلبها عندها بأكثر مما يتجلبان عند أمها طاقةً دفاقة ومبادهة أصيلة أيضاً . ان لباربارا آرداليونوفنا طبيعة مندفة ، حتى لقد كان أخوها يخاف اندفاعاتها بعض الخوف أحياناً . وكان الزائر الذى تحدثانه ، يخاف اندفاعاتها بعض الخوف هو أيضاً . انه رجل ما يزال شاباً ، فى نحو الثلاثين من عمره ، يرتدى ثياباً متواضعة لكنها أنيقة . فى آدابه رقة ولطف ، وان يكن متصنعاً بعض التصنع . تدل لحيته الصغيرة القائمة الشقرة على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة ، أو قانع بها . اذا تحدث كان حديثه ذكياً شائقاً ، لكنه فى أكثر الأحيان صموت . وهو على وجه الاجمال يُحدث فى النفس شعوراً بالارتياح .

كان واضحاً أن باربارا آرداليونوفنا تهمة وتعنيه ، وهو لا يحاول أن يخفى عواطفه . وكانت هى تعامله بمودة وصداقة ، لكنها ما تزال تتأخر فى الاجابة عن عددٍ من أسئلة كان يظهر على باربارا أنها لا تعجبها . ولكن بتسين لا تشبث من ذلك عزيزته ولا يئأس . وكانت نينا ألكسندروفنا تظهر له حفاوة وبشاشة ، حتى لقد تعودت فى الآونة الأخيرة أن تسرّ اليه بما فى نفسها . وكان معروفاً من جهة أخرى أن بتسين قد وجد لنفسه اختصاصاً هو أن يقرض مالاً بفوائد ، لأجل قصيرة ، على رهون مضمونة . وكانت تربطه بجانيا صداقة قوية .

قام جانيا بواجب التقديم والتعريف ، ولكن على نحو متقطع . حياءً أمه بكثير من الحشونة ، ولم يسلم على أخته ، ثم سرعان ما خرج مقتاداً بتسين .

وجّهت نينا ألكسندروفنا الى الأمير بضع كلمات ترحيب ، ثم أمرت كوليا ، الذى ظهر فى العتبة ، بأن يقود الأمير الى الغرفة الوسطى . ان كوليا فى مرح بشوش ، فى طبيعته ثقة وبساطة . سأل كوليا الأمير وهو يدخله غرفته :

- أين أمتعتك ؟

- لى صرة وضعتها فى حجرة المدخل •

- سأجيئك بها حالاً • ليس عندنا خدام الا الطباخة وماتريونا ، لذلك

ترانى أساعد فى العمل • ان فاريا تراقب كل شىء وتغضب • قال جانيا
انك وصلت اليوم من سويسرا ، هه ؟

- نعم •

- هل سويسرا جميلة ؟

- جداً •

- فيها جبال ؟

- نعم •

- طيب • سأجيئك بحزمك •

دخلت باربارا آرداليونوفنا • وقالت :

- ستهىء لك ماتريونا سريرك • هل معك حقيبة ؟

- لا شىء الا صرة • ذهب أخوك ليجيئنى بها • لقد تركتها فى

حجرة المدخل •

عاد كوليا الى الغرفة وقال يسأل :

- لم أجد شيئاً الا هذه الصرة الصغيرة ، فأين وضعت الأخرى ؟

فأجابه الأمير وهو يتناول منه الصرة :

- ليس لى صرة أخرى •

- ها ... خشيت أن يكون فردشتينكو قد استولى عليها •

قالت له أخته بقسوة :

- لا تقل سخافات !

كانت باربارا تكلم حتى الأمير بلهجة خشنة تكاد تكون غير مهذبة •
قال لها أخوها :

– « يا بنتى العزيزة ! ! يمكنك أن تكلمينى بلهجة أرق • أنا لست
بتسعين !

– بل يمكننى أن أجلك يا كوليا ؛ انك غبى جداً •
وعادت تكلم الأمير فقالت :

– فى كل ما قد تحتاج اليه تستطيع أن تتجه الى ماتريونا • نحن
تغدى فى الساعة الرابعة والنصف • ولك أن تختار : تأكل معنا ، أو

يُحمل اليك الطعام فى غرفتك •

وعادت تخاطب كوليا فقالت :

– تعال يا كوليا ، لا تزعج السيد !

– هلمى بنا يا شديدة البأس !

وفىما كانا يخرجان اصطدما بجانيا •

قال جانيا يسأل كوليا :

– هل بابا هنا ؟

فلما أجابه كوليا بأن بابا هنا ، همس فى أذنه ببضع كلمات • فهزَّ

كوليا رأسه ملياً ، وخرج يتبع باربارا آرداليونوفنا •

– كلمة أخرى يا أمير نسيت أن أقولها لك فى زحمة هذه ••

القصص كلها ! لى رجاء أتوجه به اليك : قدّم لى هذه الخدمة – اذا كان

ذلك لا يكلفك جهداً كبيراً لا طاقة لك به – وهى ألا تثرثر هنا عمّاً

جرى بينى وبين آجلايا ، ولا أن تثرثر « هناك » عما ستراه هنا • ذلك

أن الأمور هنا أيضاً ليست جميلة كلها ، وان يكن هذا كله لا يعنينى ••

حاول على الأقل أن تحفظ لسانك اليوم •

أجاب الأمير متضيقاً من ملامات جانيا هذه :

– أؤكد لك أنى ثرثرت أقل كثيراً مما تظن .
كان واضحاً أن العلاقات بينهما تزداد سوءاً .
– على كل حال ... لقد تحملت اليوم بسبك ما فيه الكفاية !
الخلاصة : ذلك هو الرجاء الذى اتوجه به اليك .
قال الأمير :

– لاحظ أيضاً يا جبريل آرداليوتش أنى لم أكن مرتبطاً بشئ
هناك ، لم أكن قد بذلت لك أى وعد ، لم تكن قد طلبت منى أى أمر :
ما الذى كان ينبغى أن يمنعنى عن الاتيان على ذكر تلك الصورة ؟ انك
لم تسألنى هذا .

قال جانبا وهو يلقي على ما حوله نظرة احتقار :
– اف . يا لها من غرفة رديئة ! هى مظلمة ، مع هذه النوافذ التى
تطل على الفناء ! من كل النواحي ، لم يحالفك التوفيق حين وقعت فى هذا
المكان . على كل حال ، ذلك أمر لا شأن لى به ، ولا يهمنى فى قليل أو
كثير . لست أنا الذى أتولى هذه التأجيرات !

ظهر بتسين فى الباب ونادى جانبا . فأسرع جانبا يودع الأمير
وخرج ، رغم ما يبدو عليه من أن هناك أشياء أخرى كان لا يزال يريد
أن يقولها . ولكن كان واضحاً أنه لا يعرف من أين يبدأ ، وأنه متحرج
مرتبك ؛ حتى ان انتقاده للغرفة لم يكن له من غرض الا أن يخفى ما هو
فيه من تشوش واضطراب وبلبله .

ما ان فرغ الأمير من غسل وجهه ويديه ، ومن ترتيب زينتة بعض
الشئ ، حتى شقّ الباب مرةً أخرى ، فدخل عليه قادم جديد .

هو رجل فى نحو الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، عريض
المنكين ، يغطى رأسه الضخم شعرٌ أحمر مجعد ، وجهه سمين زاهر

اللون ، شفتاه سميكتان ، أنفه قصير عريض ، عيناه صغيرتان غائرتان في الشحم تعبّرتان عن سخرية وكأنهما تطرفان بغير انقطاع . في جملة شخصه شيء من وقاحة . ملابسه أدنى الى الإهمال .

لقد شق الباب في أول الأمر شقاً ضيقاً يتيح له أن يطل برأسه فحسب ؛ وأخذ هذا الرأس يفحص الغرفة خلال بضع ثوان ، ثم أخذ الباب يفتح ببطء الى أن ظهرت قامة الشخص كلها في العتبة ، ولكن الزائر لم يدخل مع ذلك ، فانما هو يكتفي الآن بالفرس في الأمير طارفاً بعينه ، الى أن أغلق الباب وراءه آخر الأمر ، واقرب ، فتناول كرسيّاً ، وأمسك يد الأمير امساکاً قوياً فأجلسه على الديوان قبلته .

قال وهو ينظر الى الأمير بهيئة انتباه واستفهام :

- أنا فردشتينكو . . .

فقال الأمير وهو يوشك أن ينفجر ضاحكاً :

- طيب ، ثم ماذا ؟

دمدم فردشتينكو وهو ما يزال ينظر تلك النظرة نفسها :

- مستأجر هنا .

- تريد أن نتعارف ؟

- هيه ! . . .

بهذا نطق الزائر وهو يشعث شعره ، ثم أخذ يحرق بنظره الى الزاوية المقابلة من الغرفة وهو يتنهد ؛ ثم عاد يلتفت نحو الأمير ويسأله فجأة :

- هل معك شيء من مال ؟

- قليل .

- كم بالضبط ؟

- خمسة وعشرون روبلاً •

- آرنها •

أخرج الأمير من جيب صدرته ورقةً ماليةً بخمسة وعشرين روبلاً ، ومدّها الى فردشتينكو • ففضّها هذا ، وفحصها ، وقلبها ، ثم نظر اليها من جهة الشفافية ، ثم قال مفكراً :

- غريب ! لماذا يقيم لونها هكذا ؟ ان أوراق الخمسة والعشرين روبلاً يقيم لون بعضها كثيراً ، على حين أن بعضها الآخر يحول لونها تماماً • خذها •

استرد الأمير ورقته المالية • ونهض فردشتينكو عن كرسیه • وقال للأمير :

- جئت لأحذرك أولاً من اقراضى مالا ، لأننى سوف أطلب منك أن تقرضنى ، فياك أن تلبى طلبى •••

- سمعاً وطاعة •

- هل تنوى أن تدفع هنا أجراً ؟

- نعم ، أنوى ذلك •

- أما أنا فلا • شكرآ • غرفتى الى جانب غرفتك • هى الأولى على اليمين • هل رأيتها ؟ حاول ألا تجيء الى كبرى • ولكن اطمئن : سأزورك أنا • هل رأيت الجنرال ؟

- لا •

- ولا سمعته ؟

- ولا سمعته طبعاً !

- فسوف تراه اذن وسوف تسمعه • ثم انه يطلب حتى منى أنا أن

أقرضه بعض المال • هأنذا نبهتكَ • « تنبيه للقارىء ! » • • • استودعك الله • هل يستطيع المرء أن يحيا إذا كان يسمى فردشتينكو ؟ هه ؟
- لم لا ؟

- استودعك الله •

• واتجه الزائر الى الباب •

لقد علم الأمير ، فيما بعد ، أن هذا السيد قد أخذ على عاتقه أن يذهل الناس بمرحه وغرابته وشدوذه ، ولكنه كان لا يفلح فى ذلك كثيراً ، حتى ان بعض الناس كانوا يضيّقون به وينزعجون منه ، فكان يتألم من ذلك صادقاً ، ولكن دون أن يكف عن القيام بمهمته •

عند عتبة الباب ، استطاع فردشتينكو أن يضيف على نفسه شيئاً من خطورة الشأن ، حين اصطدم بقادم جديد : فانه اذ تنحى أمام هذا الزائر الجديد الذى يجهله الأمير ، ليفسح له مجال المرور ، قد غمز بعينه عدة مرات مومئاً اليه ، فأتاح له ذلك أن يخرج محتفظاً بشيء من الثقة بالنفس •

القادم الجديد رجل طويل القامة ؛ يبدو فى الخامسة والخمسين من عمره أو يزيد ؛ بدين بعض البدانة ؛ وجهه محمر سمين مسطح قليلاً تحيط بعارضيه لحيتان كثيفتان شهباوان ؛ له شاربان ؛ عيناه واسعتان جاحظتان بعض الجحوظ • كان يمكن أن يكون لمنظره كله مهابة ، لولا أن فيه شيئاً من سقوط واهتراء بل ومن اتساع • انه يرتدى ردنجوتاً عتيقاً يكاد يكون مثقوباً عند الكوعين ؛ وفى قميصه اهمال وبقع ؛ ومن فمه نفوح رائحة فودكا خفيفة تشمها من قرب • ومع ذلك لا تعدم أوضاعه وحرركاته أن تحدث فى النفس بعض الأثر الحسن ، رغم أنها محسوبة مدروسة ، فهى تدل على رغبة واضحة عنده فى أن يخطف البصر بوقاره • اقرب الشخص من الأمير بغير تعجل ، وهو يتسم ابتسامة باشة

هاشة ، وتناول يده صامتاً ، وظل ممسكاً بها يتأمل وجهه فى ابتاه كأنه
يتعرف ملامح لا يجهلها •

ودمدم يقول برفق ولكن بوقار :

- انه هو ، هو • هو كما لو كان حياً • لقد سمعتهم ينطقون هذا
الاسم المعروف العزيز ، فاستيقظ فى نفسى ماضى كامل ••• أنت الأمير
ميشكين ؟

- نعم •

- أنا الجنرال ايفولجين ، متقاعد بائس • هل يمكنكى أن أسألك عن
اسمك واسم ابيك ؟

- ليون نيقولايفتش •

- نعم ، نعم ، هو بنفسه ! انت ابن صديقى ، بل استطيع أن أقول
انك ابن صديق طفولتى ، نيقولا بتروفتش !

- كان اسم أبى نيقولا لفوفتش •

- لفوفتش ، نعم ، لفوفتش •••

كذلك صحَّح الجنرال ، ولكن دون تعجل ، بل بثقة تامة ، كأنه
لم ينس قط ، وانما زل لسانه بغلطة •

وجلس ، وأمسك الأمير بيده هو أيضاً ، وأجلسه قربه •

- لقد حملتك بذراعى !

قال الأمير :

- أهذا ممكن ؟ لقد انقضى على موت أبى عشرون عاماً •

- نعم ، عشرون عاماً ، عشرون عاماً وثلاثة أشهر • لقد كنا فى
المدرسة معاً ، وما لبثت أن التحقت أنا بالسلك العسكرى •••

- أبى أيضاً خدم فى الجيش ، كان ملازماً ثانياً فى لواء
فاسيلكوفسكى *

- بل فى لواء بيلوميرسكى • لقد نقل الى لواء بيلوميرسكى عشية
وفاته تقريباً • وكنت أنا هناك ، وباركته الى الأبد • وأملك •••
هنا صمت الجنرال برهة قصيرة كأنما أوقفته عن الكلام ذكرى
حزينة •

فقال الأمير :

- ماتت هى أيضاً بعد ستة أشهر ، من إصابة ببرد •
- لا ، لم تمت من إصابة ببرد ، أبداً ، صدّق كلام رجل عجوز •
كنت أنا هناك • وقد شهدت جنازتها هى أيضاً • لقد ماتت من حزنها على
فقد أبيك ، لا من أصابتها ببرد • نعم ، انسى أنذكرها هى أيضاً ، الأمير !
آه ••• يا لعهد الشباب ! بسببها انما أوشكنا ، أنا والأمير ، مع أننا صديقا
طفولة ، أوشكنا أن يقتل كل منا صاحبه •

أخذ الأمير يصغى الى الجنرال بشيء من الشك والارتباب •

- كنت مولّها بحب أمك منذ أن كانت خطيبة ، منذ أن كانت خطيبة
صديقى • ولاحظ الأمير ذلك ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وجاءنى ذات
صباح فى الساعة السابعة ، فأيقظنى من نومى • ارتديت ثيابى مذهولاً ،
وساد صمت ••• صمت منه وصمت منى !••• أدركت كل شيء • أخرج
أبوك من جيبه مسدسين • مبارزة من خلال منديل • دون شهود • فیم
الشهود ما دام كل منا سيرسل صاحبه الى الآخرة بعد قليل • خشونا
المسدسين • نشرنا المنديل • اتخذنا مكانينا • أطبق كل منا بفوهة مسدسه
على قلب صاحبه ، وأخذ ينظر اليه محدّقاً فى عينيه • وفجأة انبجست
الدموع من العينين ، وارتجفت اليد : انبجست الدموع من عينيه وعينى

فى آن واحد ، وارتجت يده ويدي معاً ! ثم اذا كل منا يرتى بين ذراعى صاحبه طبعاً ، واذا نحن تنبارى فى الكرم ، فالأمير يصرخ قائلاً : « هى لك » ، وأنا أصرخ : « بل هى لك » ... الخلاصة ... الخلاصة ... سوف تسكن معنا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير مدمماً بشئ من السرعة :

- نعم ، ربما بعض الوقت ...

صاح كوليلاً يقول وقد ألقى نظرة من الباب :

- ترجوك ماما يا أمير أن تجيء إليها •

فهمَّ الأمير أن ينهض ، ولكن الجنرال وضع يده اليمنى على كتفه ، وعاد يجلسه على الديوان بحركة صداقة ؛ وقال له :

- لما كنت صديقاً وياً لأبيك فأنى أحرص على أن أبتَّك : أنا كما ترى قد سقطتُ ضحيةً لظروف فاجعة ، ولكن دون أن يصدر علىَّ حكم • ان نينا الكسندروفنا امرأة نادرة • وان باربارا آرداليانوفنا ، ابنتى ، فتاة نادرة ! والظروف تجبرنا على أن نؤجر غرفاً مفروشة ، وهذا سقوط لا أعرف كيف أسميه ... سقوط يصينى أنا ، أنا الذى كنت أوشك أن أعين حاكماً عاماً • وسنكون سعداء باستقبالك على كل حال • غير أن فى بيتى مأساة !

ألقى عليه الأمير نظرة استفهام فى كثير من الاستطلاع •

قال الأمير :

- يُدبَّر هنا زواج ، زواج نادر • زواج بين امرأة مشبوهة وشاب يمكن أن يصبح فتى مرموقاً فى البلاط الامبراطورى • يريدون أن يدخلوا تلك المرأة الى بيتى ، قرب ابنتى وزوجتى • ولكننى لن أدع لها

أن تدخل الى هذا البيت ما ظلمت أتتفس ! سوف أتدند على عتبة الباب ،
فلا تستطيع أن تدخل الا اذا مرّت فوق جسدى • أصبحت لا أكلم
جانبا ، بل صرت أتحاشى أن ألقاه • اننى أنبّهك الى هذا عامداً ، لأنك
لا بد أن تلاحظه على كل حال ، ما دمت ستقيم معنا • ولكنك ابن صديقى ،
ومن حقى أن آمل ...

قالت نينا ألكسندروفنا منادية ، وقد جاءت الى الباب بنفسها هذه
المرّة :

- هلاًّ تفضلت يا أمير فأدركننى فى الصالون •

هتف الأمير يقول :

- تصوّر يا عزيزتى • لقد اتضح أننى قد هدهدت الأمير
بذراعى !

ألقت نينا ألكسندروفنا على الجنرال نظرة لوم ، ثم ألقت على الأمير
نظرة استفهام ؛ لكنها لم تقل شيئاً • وتبعها الأمير • فما ان وصلا الى
الصالون وجلسا ، وما ان أخذت نينا ألكسندروفنا تقول للأمير شيئاً بصوت
خافت وعلى عجل ، حتى دخل الجنرال نفسه الى الصالون فجأة • فسرعان
ما صمتت نينا ألكسندروفنا ، وعكفت على حياكتها متضايقة تضائيقاً واضحاً ،
ولعل الجنرال قد لاحظ تضائيقها ، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى
اظهار مرح مزاجه • وهتف يقول مخاطباً نينا ألكسندروفنا :

- ابن صديقى ! وعلى نحو لم أكن أتوقعه ! لقد كفت حتى عن أن
أحلم بهذا الأمر منذ مدة طويلة ! ولكن هل من الممكن ، يا عزيزتى ،
أنك أصبحت لاتذكرين الرحوم نيقولا لفوفش ؟ انك قد عرفته مع ذلك
... بمدينة تفير ! *

قالت نينا الكسندروفنا :

- لا أتذكر نيقولا لفوفتش •

ثم التفتت الى الأمير تسأله :

- أهو أبوك ؟

قال الأمير :

- نعم ، هو أبى •

ثم أضاف يقول للجنرال مصححاً على خجل :

- لكن يخيّل الى أنه لم يمّت بمدينة تفير ، بل بمدينة الزابنجراد •

لقد قال لى بافلتشف •••

قال الجنرال مصرأ :

- بل مات بمدينة تفير • فانه قد نقل الى تفير قبيل وفاته بقليل ،

بل حتى قبل أن يتطور مرضه ذلك التطور المشؤم • كنت أنت صغيراً

جداً فى ذلك الوقت ، فلا تستطيع أن تتذكر النقل ولا السفر • أما

بافلتشف فمن الجائز جداً أنه أخطأ ، رغم أنه كان رجلاً ممتازاً •

- هل عرفت بافلتشف أيضاً ؟

- كان انساناً نادر المثال • لكننى أنا كنت شاهد عيان ، باركت

أباك وهو على فراش الموت •

قال الأمير مرة أخرى :

- لكن أبى مات متهماً ، وان كنت لم أستطع أن أعرف السبب فى

يوم من الأيام • لقد مات فى المستشفى •

- أوه ! السبب هو قضية الجندى كولباكوف ، وليس هناك أى شك

فى أن أباك كان سيخرج من المحاكمة بريثاً •

سأله الأمير بشوق شديد واستطلاع قوى :

- صحيح ؟ أنت متأكد ؟

هتف الجنرال يقول :

- طبعاً طبعاً • لقد انقضت المحكمة دون أن تصدر حكماً • قضية مستحيلة ! بل يمكن أن يقال انها قضية محفوفة بالسر • مات قائد حاميتنا ، النقيب لاريونوف ، فكُلِّفَ الأمير بأن يكون قائداً للحامية بالنيابة • وفي ذلك الحين ارتكب الجندي كولباكوف عمل سرقة ، اذ سطا على مواد حذائية لرفيق من رفاقه ، ثم باع المسروقات وشرب بشمها خمرة • طيب • هنا قرأه الأمير وهدده بالجلد ، وذلك بحضور الرقيب والعريف • طيب • عاد كولباكوف الى الكنتة ، واستلقى على مضجعه ، فما انقضى ربع ساعة حتى كان ميتاً • طيب • ولكن هذه الحالة لا يتوقعها أحد ، وتكاد تكون مستحيلة • ودُفن كولباكوف على كل حال • وكتب الأمير تقريراً بالواقعة ، فشطب اسم كولباكوف من قائمة الجنود • هل هناك ما هو خير من هذا ؟ ولكن ما ان انقضت على هذا الحادث ستة أشهر ، بعد أن كان الجنود يُستعرضون كل يوم ، حتى رثى الجندي كولباكوف من جديد في السرية الثالثة من الكتيبة الثانية من فوج مدفعية نوفوزمليانسك * ، وهو الفوج الذى ينتمى الى ذلك اللواء نفسه والى تلك الفرقة نفسها !

هتف الأمير متعجباً وقد بلغ ذروة الدهشة :

- كيف هذا ؟

فدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة فقالت وهى تنظر الى الأمير نظرة حزن تقريباً :

- لا ، ليس الأمر كذلك ! هذا خطأ ! « زوجى مخطيء » •

- « مخطيء » ؟ هذا تسرع فى الحكم ! اجهدى أن تحلى بنفسك سراً كهذا السر ! لم يفهم أحد من الأمر شيئاً • لقد كان يمكن أن أكون أول القائلين : « هذا خطأ » • ولكننى شهدت الأمر بعينى رأسى ، وعُيِّنت

عضواً فى اللجنة • فدلّت جميع المواجهات على أن الرجل هو ذلك الجندى نفسه كولباكوف الذى دُفِن قبل ستة أشهر على النحو الذى توجبه الأنظمة العسكرية ، من قرع الطبول وما الى ذلك • أنا أسلّم بأن هذه الحالة نادرة جداً ، حتى لتكاد تكون مستحيلة ، ولكن ***

هنا دخلت باربارا آرداليونوفنا ، فقالت تعلن لأبيها :

– غداؤك مجهز يا بابا •

– آ ••• عظيم ••• لقد أخذت أشعر بالجوع حقاً • ولكن يمكن أن يقال ان هذه الحالة سيكولوجية •••

قالت فانيا متململة :

– حساؤك سيبرد !

فجمعهم الجنرال يقول وهو يترك الغرفة :

– حالاً ، حالاً •••

وسُمع يتم كلامه وهو فى الدهليز: « وذلك رغم جميع التحريات ! »
قالت نينا ألكسندروفنا للأمير :

– سيكون عليك أن تغض الطرف عن أمور كثيرة فى آرداليون الكسندروفتش اذا بقيت عندنا • ومع ذلك آمل أنه لن يزعجك كثيراً •
انه يتناول وجبات طعامه وحيداً • أظن أنك تسلّم معى بأن لنا جميعاً عيوبنا و ••• خصالنا التى قد تكون غريبة شاذة ، حتى أن لبعض الناس من هذه العيوب وهذه الحصال أكثر مما لأولئك الذين يشار اليهم بالاصبع •
أريد أن أطلب منك هذا الطلب ملحة : اذا اتفق أن كلمك زوجى عن أجرة الغرفة فقل له انك دفعتها لى • اذا دفعت له مبلغاً فسيحسب طبعاً ، ولكننى أرجوك أن تتقيد بهذه القاعدة التى ذكرتها لك • ماذا يا فاريما ؟

كانت فاريا قد دخلت الغرفة، ومدت الى أمها صورة ناستاسيا فيليوفا دون أن تقول شيئاً • فارتعشت نينا ألكسندروفنا ، ارتعشت أول الأمر بنوع من الرعب ، ثم أخذت تنعم النظر في الصورة خلال بعض الوقت وقد ظهر على وجهها شيء من مراة • وأخيراً ألفت على فاريا نظرة استفهام فقالت فاريا :

— هذه هدية أرسلتها اليه اليوم • وسيقرر كل شيء في هذا المساء •
قالت نينا ألكسندروفنا مكررةً جملة ابنتها بصوت خافت ولهجة يائسة :

— هذا المساء ! اذن لم يبق مجال لأى شك ، ولا محل لأى رجاء •
انها باهداء هذه الصورة اليه قد أعلنت كل شيء • ولكن أهو الذى أراك الصورة ؟

أضافت نينا ألكسندروفنا هذه الجملة الأخيرة مدهوشة •
أجابت الفتاة :

— تعلمين أننا أصبحنا منذ شهر لا نكاد نتخاطب • ان بتسين هو الذى رو لى كل شيء • أما الصورة فقد رأيتها ملقاة على الأرض قرب المائدة فلممتها •

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير وهى تلتفت اليه فجأة :
— كنت أريد أن أسألك يا أمير ... والحق انى من أجل هذا انما رجوتك أن تأتى الى هنا ... كنت أريد أن أسألك : أنت تعرف ابني منذ مدة طويلة ؟ يخيل الى أنه قال انك اليوم وصلت من مكان ما ، اليس كذلك ؟

قدّم الأمير شروحاتاً موجزة ، مسقطاً أكثر من نصف الوقائع ، فكانت نينا ألكسندروفنا وفاريا تصغيان اليه بانتباه •

قالت نينا ألكسندروفنا :

– أنا لا أحاول أن أعرف شيئاً عن جبريل آرداليونتش حين ألقى عليك هذه الأسئلة • فما ينبغي أن تخطيء الظن في هذا المجال • وإذا كان هناك ما لا يريد ابني أن يعترف لي به من تلقاء نفسه ، فأنسى لا أحرص على أن أعرفه من غيره • وإذا كنت أكلّمك في هذا الموضوع فلأنه قال منذ قليل ، بحضورك ، ثم قال بعد انصرافك : « انه مطلع على كل شيء » ، فلا داعي الى التكلف والتصنع ! » • فما معنى هذا ؟ أى ••• أود لو أعرف مدى •••

في تلك اللحظة دخل جانيا وبتسين • فسرعان ما صمتت نينا ألكسندروفنا • وظل الأمير جالساً الى جانبها ، بينما ابتعدت فاريا قليلاً • وكانت صورة ناستاسيا ما تزال ظاهرةً على منضدة نينا ألكسندروفنا ، أمامها تماماً • فلما لمح جانيا الصورة قطب حاجبيه ، واكفهر وجهه ، وتناولها غاضباً ، فرماها على مكبه الذي يوجد في أقصى الغرفة •

سألته نينا ألكسندروفنا فجأة :

– هل في هذا اليوم يا جانيا ؟

– ماذا في هذا اليوم ؟

بهذا أجاب جانيا متنفّضاً ، ثم هجم على الأمير فجأة يقول :

– آ ••• فهمت ••• عدتْ تثرثر ! أهذا مرض فيك يا صاحب

السمو •••

قاطعه بتسين يقول :

– أنا المذنب يا جانيا ، أنا وحدي دون غيري •

فألقي عليه جانيا نظرة استفهام • فجمجم بتسين يقول :

— هذا أفضل يا جانيا ، لا سيما وأن القضية قد سوّيت ، بمعنى من

المعاني •

قال هذا ثم ابتعد ، وجلس قرب المائدة ، وأخرج من جيبه ورقة
ملأى كتابةً بالقلم الرصاص ، وأخذ يدرسها •

ظل جانيا واقفاً ، مكفهر الهيئة مربد الوجه ، ينتظر انفجار مشكلة
عائلية ، بكثير من القلق • حتى انه لم يخطر بباله أن يعتذر للأمير •

قالت نينا الكسندروفنا :

— ما دام كل شيء قد سوّى ، فإن ايفان بتروفتش على حق طبعاً •
أرجوك أن لا تقطّب يا جانيا وألا تهتاج • لن أسألك عمّا لا تريد أن
تقوله له من تلقاء نفسك ، وأؤكد لك أنني مذعنة كل الازعان • فلا تقلق •

قالت ذلك دون أن تترك حياكتها ، وقالته بهدوء ظاهر • فدهش
جانيا ، لكنه صمت حذراً متروياً ، وأخذ ينظر الى أمه منتظراً أن تفصح
بمزيد من الوضوح • ان المشاجرات العائلية قد أبهظته حتى الآن كثيراً ،
وكلفته ثمناً غالياً • ولاحظت نينا الكسندروفنا هذا الحذر وهذا التروى
من جانبها ، فأضافت تقول وهي تبسم ابتسامة مرة :

— ما زلت تشك ، فلا تصدقني • اهدأ بالاً • لن ترى دموغاً
ولا ضراعات ، منى على الأقل • ان رغبتى الوحيدة هي أن تكون سعيداً •
أنت تعرف ذلك جيداً • اننى مذعنة لقدرى ، لكن قلبي سيظل معك
دائماً ، سواء أبقينا معاً أم افترقنا • وأنا مسئولة عن نفسي وحدها فأحدث
بلساني وحده ؛ أما أحتك فلا تستطيع أن تطالبها بمثل هذا •

هتف جانيا يقول راشقاً أخته بنظرة سخر وكره :

— آه ... هي أيضاً ! أماء : اننى أكرر على مسامعك اليمين التي
سبق أن حلفتها لك : ما دمت حياً فلن يجرؤ أحد فى يوم من الأيام أن

ينتقص من احترامك • أياً كان الشخص المقصود ، أية كانت الانسانية التى ستجتاز عتبة بابنا ، فانى سأعرف كيف أفرض عليها توقيراً كاملاً وكيف ألزمها باحترام مطلق •

لقد بلغ جانبا غاية السرور والحبور • كان ينظر الى أمه بهيئة تعبر عن المصالحة ، وتكاد تزخر رقة وحناناً •

– ما كنت أخشى عليك من شيء يا جانبا ، فأنت تعرف ذلك حق المعرفة • وما من أجل نفسى قلق وتعمذت طوال هذه المدة • يقال ان كل شيء سيسوء بينكم هذا المساء ؟ فما الذى سيسوء ؟
أجاب جانبا :

– لقد وعدت بأنها ستعلن رأيها هذا المساء فى بيتها • فاما أن توافق واما أن ترفض •

– لقد تحاشينا أن نتكلم فى هذا الأمر منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، وحسنا فعلنا • أما الآن وقد تقرر كل شيء ، فانى لا أجد بدا من أن ألقى عليك هذا السؤال : كيف أمكنها أن تعلن لك موافقتها بل وأن تهدى اليك صورتها بينما أنت لا تحبها ؟ هل يمكن لامرأة لها مثل هذه •• هذه ال ••
– هذه التجربة أو الحبرة •••

– ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله • هل يمكن أن تكون قد استطعت أنت أن تخذعها الى هذا الحد ؟

ان سخطاً شديداً وحنقاً رهيباً قد داخلنا هذا السؤال بغتة • فظل جانبا صامتاً ، وفكّر لحظة ، ثم أجاب دون أن يحاول اخفاء سخريته :

– ها قد انقذت للانديفاع والاهتياج من جديد يا ماما ! انك لم تستطعي حتى الآن أن تسيطرى على نفسك وأن تتحكمى بمشاعرك ؛ وعلى هذا النحو انما كانت تبدأ الأمور عندنا دائماً ، فتشرب النار فى البارود •

لقد قلت انك لن تلقى لا أسئلة ولا ملامات ، وها هي ذى الأسئلة واللامات
تُستأنف ! لندع هذا الأمر ، فذلك خير وأبقى ... أؤكد لك ! حسبك
أنك أظهرت حسن النية وطيب الارادة . لن أتركك فى يوم من الأيام ،
بأى حال من الأحوال ! غيرى كان يفرُّ من أخت كهذه الأخت . انظرى
كيف تحدجنى ببصرها ! حسبنا هذا ! لقد كنت مبتهجاً أشد الابتهاج ..
ولكن كيف عرفت اننى أحاول خداع ناستاسيا فيليوفنا ؟ أما فاريا ، فلتفعل
ما تشاء . وكفانا هذا الآن !

كان جانيا يزداد حرارة وحماسة عند كل كلمة جديدة ، وكان
يسير فى الغرفة بلا هدف . ان أمثال هذه المحادثات سرعان ما تصبح هى
النقطة الحساسة لدى جميع أفراد الأسرة .

قالت فاريا :

- قلت اننى سأترك هذا البيت متى دخلت هى ، هذا عهد أقطعه على
نفسى ولن أخلفه .

هتف جانيا يجيبها :

- عناداً ! وعناداً انما ترفضين زواجك أيضاً . لماذا تلوين شفيتك
على هذا النحو احتقاراً واشمئزاً ؟ لست أعبا بشيء يا باربارا آرداليونوفنا
... فى وسعك أن تتفدى مشروعاتك منذ الآن اذا شئت . لقد بدأت أسأم
منك وأضيق بك !

واذ لاحظ جانيا أن الأمير ينهض صاح يقول له :

- كيف تقرر أخيراً أن تتركنا يا أمير ؟

كانت تداخل صوت جانيا منذئذ ، تلك الدرجة من الاهتياج التى
يكاد يكون الانسان فيها مسروراً من غضبه ، فهو يتقاد له بدون أى تحفظ،
بل يسترسل فيه بتلذذ متزايد ، وليكن ما يكون !

وكان الأمير قد التفت ليردَّ عليه ، لكنه اذ أدرك في تعبير وجهه المتشنج أنه لم يبق ثمة الا القطرة التي يطفح بها الكيل ، أشاح وجهه وخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفهم بعد لحظات ، من الأصدقاء التي كانت تصل اليه من الصالون ، أن الحديث قد أصبح منذ انصرافه أشدَّ صخباً وأكثر انفلاتاً .

اجتاز القاعة الكبيرة حتى حجرة المدخل ليصل الى الدهليز فالى غرفته . فلما بلغ الباب المفضى الى فسحة السلم سمع أحداً وراء الباب يحاول أن يشدَّ حبل الجرس . ولكن الجرس كان معطلاً فيما يظهر ، فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركاً ضعيفاً دون أن يُسمع له أى صوت . فسحب الأمير المزلاج ، وفتح الباب ، فإذا هو يتقهقر مذهولاً مرتعشاً بجسمه كله : كانت ناستاسيا فيليوفنا واقفةً أمامه ، وسرعان ما عرفها من معرفته صورتها . فلما لمحته ناستاسيا ومضت عيناها بمعنى الضيق والانزعاج ، وأسرعت تلج حجرة المدخل ، فتصدم الأمير بكتفها عند دخولها ، وتقول له بلهجة حاتقة وهي تنضو عنها معطفها :

- اذا كنتَ من الكسل بحيث لا تحمّل نفسك عناء اصلاح الجرس ، فلا أقل من أن توجد فى حجرة المدخل حين يقرع الباب قارع ! ها هو ذا يُسقط معطفى ، مذهولاً !

كان المعطف قد رقد على الأرض فعلاً . فان ناستاسيا فيليوفنا لم تنتظر أن يساعدها الأمير فى خلع المعطف ، فرمته على ذراعيه بحركة من كنفها دون أن تنظر اليه ، ولم يتسع وقت الأمير لأن يتلقاه .

- كان عليهم أن يطردوك من الخدمة . أبلغهم وصولى .

أراد الأمير أن يقول شيئاً ، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ؛ وها هو ذا يتجه نحو الصالون وعلى ذراعه المعطف الذى رفعه من الأرض .

– الآن يأخذ معطفي ! ما بالك تأخذ المعطف ؟ ها ها ها ! قل لى :
ألست مجنوناً بمض الشيء ؟

فقل الأمير راجعاً ، وحدّثْ إليها كالمتجمد • فلما ضحكت ابتسم هو
أيضاً ، ولكنه ما يزال عاجزاً عن تحريك لسانه بكلمة • فى اللحظة الأولى ،
حين فتح لها الباب ، اصفر لونه • أما الآن فان الدم يزدحم فى وجهه •

هتفت ناستاسيا فيليوفنا متمنّعة وهى تقرع الأرض بقدمها :

– ما هذا الأبله ؟ الى أين تذهب هكذا ؟ ستبلغ عن وصول من ؟

تمتم الأمير :

– عن وصول ناستاسيا فيليوفنا •

فسألته بقوة :

– لماذا تعرفنى ؟ أنا لم أرك يوماً ! هيّا أبلغ عن وصولى ••• ما هذه

الصرخات ؟

أجاب الأمير وهو يتجه نحو الصالون :

– يتشاجرون •

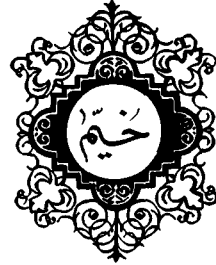
ودخل عليهم الأمير فى لحظة حاسمة : كانت نينا ألكسندروفنا متأهة
لأن تنسى نسياناً كاملاً أنها « مدعنة لكل شىء » • كانت تدافع عن فاريا •
والى جانب فاريا يقف بتسعين الذى كان قد ترك ورقته المطروسة كتابة •
أما فاريا فلم يكن يبدو عليها كثيراً أنها فقدت سيطرتها على نفسها • ليست
هذه الآسنة من النوع الخواف • ومع ذلك كانت فظاظات أخيها تصبح فى
كل كلمة أشد غلظة وأثقل وطأة ، فهى لا تطلق • ولقد اعتادت انفتاة فى
مثل هذه الأحوال أن تكف عن المناقشة ، فهى لا تريد على أن تنظر الى

أخيها صامتةً معبّرةً بوجهها عن السخرية ، دون أن تحول بصرها عنه لحظةً واحدة • انها تعرف هذا التكتيك ، وهي قادرة على أن تمضي فيه الى أقصى حدوده •

في تلك اللحظة بعينها انما دخل الأمير الى الغرفة معلناً :

- ناستاسيا فيليوفا !

الفصل التاسع



صمت شامل • نظر الجميع الى الأمير كأنهم
لا يفهمون ، ولا يريدون أن يفهموا • تجمّد
جانيا رعباً •

ان زيارة ناستاسيا فيليوفنا ، ولا سيما في مثل
هذه اللحظة ، هي في نظر كل واحد منهم أدعى حدث الى الدهشة
والعجب ، وأبعث حدث على الحيرة والارتباك ، على الأقل لأن ناستاسيا
فيليوفا تجيء أول مرة • لقد ظلت حتى الآن متكبرة متعالية ، فلم تعرب
في أحاديثها مع جانيا عن أية رغبة في معرفة أسرته ، بل لقد أصبحت
لا تجيء على ذكرها كأنها لا وجود لها • ورغم أن جانيا قد سرّ بمعنى
من المعاني ارجاء مثل هذا الحديث الذي يزعجه ويخرجه كثيراً ، فانه في
قرارة نفسه قد حقد على ناستاسيا وحمل لها ضغينة • ولقد كان على كل
حال يتوقع منها وخزات وسخریات في حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها
زيارة • كان يعلم علم اليقين أنها مطلّعة على كل ما كان يجري في بيته
عن خطوته لها ، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأى فيها • فقيامها بهذه
الزيارة « الآن » ، بعد اهداء الصورة ، في يوم عيد ميلادها ، في اليوم
الذي سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيرها ، ان قيامها بهذه الزيارة
الآن يشير الى قرارها ويدل عليه •

لم تطل البلبلة التي أحدثها دخول الأمير : فها هي ذى ناستاسيا

فيليوفنا بشخصها تظهر فى اطار الباب ، ثم تدخل الغرفة فتصدم الأمير مرة أخرى صدمة خفيفة •

– أخيراً ظفرت بأن أدخل ••• لماذا تربطون جرسكم ؟
كذلك قالت ناستاسيا فيليوفنا مرحةً وهى تمد يدها الى جانبا الذى صار الى جانبها بوثة واحدة •
وأردفت تسأله :

– مالى أرى وجهك متقلباً ؟ قد منى الى الحضور من فضلك •
كان جانبا قد فقد كل سيطرة له على نفسه ، فقدّمها الى أخته فاريا ، فتبادلت المراتبان نظرة غريبة قبل أن تمد كل منها يدها الى الأخرى •
كانت ناستاسيا فيليوفنا تضحك وتختبئ وراء قناع من المرح المصطنع ، أما فاريا فلم تحاول أن تخفى شيئاً ، فنظرتها ظلت مظلمة ثابتة ولم يظهر فى وجهها حتى طيف ابتسامة مما توجهه أبسط مبادئ الأدب والتهديب •
فاغتاظ جانبا من ذلك حتى كادت تنقطع أنفاسه • ولكن أوان ردّها الى الصواب قد فات ؛ لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة تبلغ من امتلائها بالتهديد والوعيد أنها قرأت فيها عنفاً شديداً فأدركت قيمة هذه اللحظة عند أخيها ، فبدأ عليها أنها أرادت أن تتساهل فاصطنعت لناستاسيا فيليوفنا ما يشبه أن يكون ابتسامة (ما يزال أهل هذا البيت يسرفون فى حب بعضهم بعضاً) •

وجاء دور نينا ألكسندروفنا فأصلحت الحال بعض الإصلاح ، رغم أن جانبا ، من فرط اضطرابه طبعاً ، قد قدّم ناستاسيا فيليوفنا اليها بعد تقديمها الى اخته ، ثم زاد على ذلك فذكر اسم امه قبل أن يذكر اسم ناستاسيا •

ولكن ما ان بدأت نينا ألكسندروفنا كلامها فقالت : « يسرنى جداً

أن ... » حتى التفتت ناستاسيا فيليوفنا نحو جانبا بحركة سريعة دون أن تدع للأم أن تكمل جملتها ، وصرخت تقول له بعد أن استقرت على كنبه صغيرة قرب النافذة ، دون أن تدعى الى الجلوس :

- أين حجرة مكتبك ؟ و ... وأين السكان الذى يستأجرون عندكم غرفاً مع الطعام والخدمة ؟ عندكم مستأجرون ، أليس كذلك ؟

احمر وجه جانبا احمراراً رهيباً ، وهمّ أن يثأنيء بجواب ؛ لكن ناستاسيا فيليوفنا كانت قد تابعت كلامها تقول :

- أين يمكنكم أن تسكنوا مستأجرين ؟ ليس لك حتى حجرة مكتب !

ثم التفتت فجأة نحو نينا ألكسندروفنا فقالت لها :

- هل التأجير يدر ربحاً على الأقل ؟

حاولت نينا ألكسندروفنا أن تعجب فقالت :

- التأجير يورث متاعب كثيرة . وكان ينبغي أن يدر ربحاً بطبيعة الحال ، غير أن ...

ولكن ناستاسيا فيليوفنا كانت قد انقطعت عن الاصفاء اليها ، لأنها التفتت الى جانبا وصاحت تقول له :

- ما لى أرى وجهك منقلباً هذا الانقلاب ! رباه ! ما هذا الوجه الذى له الآن ؟

كان وجه جانبا قد تشوه فعلاً بعد بضع لحظات من ذلك الضحك . لقد بارحه فجأة ما أحسه فى أول الأمر من ذهول ، وما بدا على وجهه فى أول الأمر من شدة مضحك مبعثه الخوف . ان شفتيه الآن منعقتان متشجبتان ، وقد أخذ يحدّق بنظرة ثابتة خبيثة شريرة ، دون أن ينطق

بكلمة واحدة ، ودون أن يحول بصره لحظة واحدة ، أخذ يحدّق الى وجه هذه الزائرة التى ما تزال تضحك •

غير أن ملاحظاً آخر كان موجوداً هناك ، ملاحظاً لم يكن هو أيضاً قد استطاع أن يتحرر من حالة البكم التى أغرقته فيها رؤية ناستاسيا فيليوفا • لكنه رغم أنه بقى مغروساً فى مكانه من اطار الباب كأنه «وتد» ، قد استطاع أن يلاحظ اصفرار جانبا وأن يرى ما طرأ على وجهه من تغير ينذر بشر • ان ذلك الملاحظ هو الأمير • وها هو ذا يتقدم الى الأمام خطوة على غير ارادة منه ، حتى لكأنه آلة ، وكان مروّعاً بمض الروح ، وقال لجانيا :

- اشرب قليلاً من ماء ، واكفف عن النظر هكذا

كان واضحاً أنه قال ذلك كله دون أى حساب ، بل ودون أية نية خاصة ، وانما هو انقاد لاندفاعه أولى • لكن أقواله هذه كان لها أثر خارق ، فكأن كل ما كان يعتمل فى نفس جانبا من حنق وغيظ وسخط قد انصب على الأمير دفعة واحدة ، فها هو ذا يمسكه من كتفه ، ويحدق اليه بنظرة فيها انتقام وحقد وكره ، صامتاً كأنه عاجز عن أن ينطق بكلمة • فسرى فى الجمع كله انفعال شامل ، حتى ان نينا ألكسندروفا اطلقت صرخة صغيرة • وقلق بتسعين فتقدم خطوة الى أمام • وكان كولييا وفردشتينكو قد ظهرا فى الباب فوقفا مذهولين مشدوهين ؟ وظلت فاريا وحدها خافضة رأسها ، ولكنها تراقب الأحداث بانتباه • كانت قد لبثت واقفة الى جانب أمها ، عاقدة ذراعيها على صدرها •

لكن جانبا لم يلبث أن عاد الى صوابه تقريباً ، فأطلق ضحكة عصبية ، ثم استرد وعيه كاملاً ، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحاً طبيعياً :

- ماذا دهالك يا أمير ؟ أترارك طبيياً ؟ لقد كدت تخيفنى •
والثفت الى ناستاسيا فيليوفنا ، وأضاف يقول :
- ناستاسيا فيليوفنا ، اسمحى لى أن أقدمه هو من أنسن
الناس ، وإن كنت لا أعرفه أنا نفسى الا منذ هذا الصباح
نظرت ناستاسيا فيليوفنا الى الأمير محتارة • وقالت :
- أمير ؟ أهو أمير ؟ تصوروا اننى منذ قليل ، حين رأيته فى حجرة
المدخل ، قد ظننته خادماً ، فأرسلته الى هنا ليبلغ عن وصولى ! ها ها ها !
قال فردشتينكو وقد اقترب مسرعاً ، مبتهجاً بأن الضحك قد
استؤنف :

- لا بأس ! لا بأس ! حصل خير على كل حال
- كدت أسيء معاملتك يا أمير ، فاعفر لى ، أرجوك ! .. فردشتينكو ،
ماذا تفعل هنا فى مثل هذه الساعة ؟ كنت آمل على الأقل ألا أصادفك
أنت هنا ..

قالت ناستاسيا فيليوفنا ذلك ، ثم سألت جانبا ثانية ، وهو ما يزال
مسككاً كف الأمير يقدمه اليها ويعرفها به :
- ماذا تقول ؟ أى أمير ؟ ميشكين ؟
فقال جانبا :

- هو مستأجر عندنا •
واضح أن الأمير قد قدّم على أنه شخص طريف نادر (جاء فى
الوقت المناسب جداً ليخرجهم من وضع خطأ) ، حتى لقد كاد يُدفع نحو
ناستاسيا فيليوفنا دفعا ؛ بل ان الأمير سمع كلمة « أبله » سمعاً واضحاً
يدمدم بها أحدهم وراءه على سبيل الشرح والتفسير ، ولعل قائلها هو
فردشتينكو •

تابعت ناستاسيا فيليوفا كلامها وهى تفحص الأمير من قمة الرأس الى أخمص القدمين بدون تحرج :

- قل لى : لماذا لم تصحح لى خطئى منذ قليل ، حين ارتكبت فى حقك
... تلك الغلطة الرهيبة ؟

كان يبدو على ناستاسيا توق شديد الى سماع جوابه ، لاقتناعها سلفاً بأن هذا الجواب سيبلغ من الحماسة أنها لن تستطيع الا أن تضحك منه .
تمتم الأمير يقول :

- لقد دهشت من رؤيتك فجأة أمامى ...

- وكيف عرفتَ أننى أنا ؟ أين التقيت بى قبل اليوم ؟ عجب ...
يخيّل الى حقاً أننى سبق أن رأيته فى مكان ما ! ... واسمح لى أن
أسألك أيضاً لماذا جمدت فى مكانك لا تتحرك ... ماذا وجدت فى من
شئ ينبغ هذا المبلغ من ... الفتنة ؟

قال فردشتينكو معجّداً وجهه :

- هيّا ... أجب ... لماذا لا تجيب ؟ آه ... حين أفكّر فيما كان
يمكن أن أجب به على مثل هذا السؤال لو كنت فى مكانك ! ... طيب
يا أمير ... ما أنت فى الحقيقة الا عييط ! ...

قال الأمير لفردشتينكو ضاحكاً كذلك :

- ولكن أنا أيضاً كان يمكننى أن أقول أشياء كثيرة لو كنت فى
مكانك .

ثم تابع كلامه مخاطباً ناستاسيا فيليوفا :

- فى هذا الصباح خطفت صورتك بصرى . وبعد ذلك تحدثت عنك
مع آل ايباتشين ، و ... فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ، حين كنت

بالقطار ، حتى قبل وصولي الى بطرسبرج ، حدثني عنك بازفيون روجويين كثيراً • وفي اللحظة التي فتحت لك فيها الباب ، في تلك اللحظة نفسها كنت بخاطري ، فاذا أنا أراك أمامي •

- ولكن كيف عرفت أنني أنا ؟

- عرفت ذلك من رؤيتي للصورة ، و ...

- وماذا ؟

- ولأنني انما كنت أتخيلك هكذا ؛ وأيضاً لأنني كنت كمن سبق أن رآك في مكان ما •

- ولكن أين ؟ أين ؟

- يخيل الى أنني سبق أن رأيت عينيك ... ولكن هذا مستحيل !
... لم يكن ذلك الا ... أنا لم أعش هنا قط • لعل ذلك حدث في حلم أثناء النوم ...

هتف فردشتينكو قائلاً :

- مرحى أمير ! لا ، لا ، انني أسحب جملتي التي قلتها • أسحبها ! •
أحسننت ...

ثم أضاف :

- رغم أن هذا كله انما هو في الحقيقة سذاجة وبراءة من جانبه !
كان الأمير قد نطق تلك العبارات القليلة بصوت مختلج متقطع مشوه ، حتى لقد كان يتوقف عن الكلام في كثير من الأحيان ليسترد أنفاسه • كان كل شيء فيه يدل على انفعال شديد • وكانت ناستاسيا فيليوفنا تتأمله باستطلاع قوى ، لكنها كفّت عن الضحك •
وفي تلك اللحظة نفسها جلجل صوت قادم جديد من وراء الجمهوز

الكثيف الذي كان يحتشد حول الأمير وناستاسيا فيليوفنا ، فشطر الجمهور شطرين ان صح التعبير • انه رب الأسرة ، الجنرال ايفولجين بشخصه ، يقف الآن أمام ناستاسيا فيليوفنا • كان يرتدى بدلة « فراك » تحتها قميص نظيف ، وكان شارباه مدهنين مطيين •

كان هذا فوق ما يستطيع جانبا أن يطيق وأن يحتمل •

ان جانبا شاب مغرور مفتون بالظهور متملىء حباً لنفسه الى درجة الهوس • وقد عمد خلال هذين الشهرين الأخيرين الى جميع الوسائل ليضفي على شخصه شأناً خطيراً وليلحها منزلة هامة • واذ شعر أنه ما يزال مبتدئاً في الطريق الذي رسمه لنفسه ، واذ كان غير واثق من قدرته على المضى الى آخر الشوط ، فقد قرر مستميتاً أن يتصف سلوكه في بيته بأكبر الوقاحة ، فكان في بيته طاغية مستبدّاً ، ولكنه لا يجرؤ أن يفعل هذا أمام ناستاسيا فيليوفنا التي تركته في بحران الشك الى آخر دقيقة ، وكانت تسيطر عليه بلا رحمة ، حتى لقد خلعت عليه لقب «الشحاذ النافذ الصبر» ، وهو لقب نُقل اليه أنها وصفته به ، فألى على نفسه ليجعلها تدفع ثمن ذلك في المستقبل غالياً ، مع احتفاظه بذلك الأمل الصياني وهو أن يحل كل المشكلات وأن يصلح جميع المتناقضات •

وهو الآن ما يزال مضطراً أن يشرب هذه الكأس المرة حتى الثمالة؛ والأنكى من ذلك أن عليه في مثل هذه اللحظة أن يتحمل تعذيباً يُعدُّ أقصى أنواع التعذيب عند انسان مغرور ، ألا وهو أن يحمر خجلاً ومذلة أمام أهله في بيته • فسرعان ما خطر بباله هذا الحاطر : « هل يستحق الثواب كل هذا العذاب في آخر حساب ؟ » •

ان ما يحدث الآن أمام عينيه لم يكن قد تخيله أثناء هذين الشهرين الأخيرين الا ليلاً ، وكان ذلك كابوساً يجمّده رعباً ويحرقه خجلاً ! ان اللقاء في داخل أسرته بين أبيه وناستاسيا فيليوفنا يتم الآن أخيراً • لقد كان

يحاول فى بعض الأحيان ، ليزعج نفسه ، ويعذب نفسه ، أن يتخيل الجنرال أثناء حفلة العرس ، ولكنه لم يستطع فى يوم من الأيام أن يكمل رسم هذه اللوحة الأليمة ، فسرعان ما كان يتركها • لعله كان يبالغ فى تضخيم هذه البلية تضخيماً كبيراً ، ولكن هذا ما يحدث دائماً للأشخاص المغرورين • لقد اتسع وقته خلال هذين الشهرين لأن يفكر ولأن يتخذ قراراً ؛ وآلى على نفسه ليردّن أباه الى الصواب مهما كلف الأمر ، ولو الى حين ، حتى لقد يبعده عن بطرسبرج اذا اقتضت الحال ذلك ، سواء أوافقت أمه أم رفضت • وهو قبل هذه اللحظة بدقيقتين ، أى عندما دخلت ناستاسيا فيليوفا ، قد بلغ من البهت والشدة أنه نسى نسياناً تاماً احتمال ظهور آرداليون ألكسندروفتش ، فلم يحتط للأمر أى احتياط ، ولم يتخذ أى تدبير !

وها هو ذا الجنرال يظهر الآن أمام جميع الناس ؛ وأكثر من ذلك أنه يحىء كالتهبىء لاحتفال فخم فهو يرتدى بدلة « فراك » ، وذلك كله فى اللحظة التى لا تحاول فيها ناستاسيا فيليوفا الا أن « تتحين فرصة » للاستهزاء به والتهكم على أسرته • (كان هو من هذا على يقين تام) • والا فما عسى أن يكون مغزى زيارتها ؟ أجاءت تلمس صداقة أمه وأخته ، أم جاءت لتهينهما فى عقر دارهما ؟

ثم ان الشك ينتفى انتفاءً تاماً متى رأى المرء موقف كل من المعسكرين • فأما أمه وأخته فقد جلستا متحيتين كمن أدركهما اذلال ، وأما ناستاسيا فيليوفا فقد كان يبدو عليها أنها نسيت حتى وجودها فى الغرفة !... ولئن استمرت فى اتخاذ هذا الموقف ، ان ذلك يدل حتماً على أنها تخفى فكرة وتبيّت نية !

استولى فردشتينكو على الجنرال ليقدمه فقال الجنرال وهو ينحنى بوقار ويتسم برصانة :

- آرداليون الكسندروفتش ايفولجين • جندى قديم جار عليه
الدهر ، أب لأسرة يسعدها أن تأمل أن تدخل فى عدادها سيده تبلغ هذا
المبلغ من الروعة

ولم يكمل كلامه • فان فردشتينكو قد أسرع يدس تحته كرسياً ؛
واذ أن الجنرال يكون ضعيفاً على ساقيه بعد وجبات الطعام فى العادة ، فقد
تهالك على الكرسي ، بل قل انه انهيار عليه انهياراً ، ولكن دون أن يشعر
من ذلك بأى اضطراب أو خجل • جلس أمام ناستاسيا فيليوفنا تماماً ،
وتناول يدها ، ثم حمل أصابعها الى شفتيه بحركة بطيئة مدروسة مع
اصطناع هيئة اللطف والبشاشة والتودد • كان الجنرال ، بوجه عام ، امراً
يصعب احراجه أو ارباكه أو بلبثته • وليس يخلو مظهره الخارجى ، اذا
استنينا شيئاً من الاهمال فى ملبسه ، ليس يخلو من مهابة ، وكان هو
لا يجهل ذلك • حتى لقد استطاع فى الماضى أن يُستقبل فى أرقى
مجتمع ، ثم لم يطرد من المجتمع الراقى طرداً نهائياً الا منذ سنتين أو ثلاث
سنين • ومنذ ذلك الحين انما أخذ ينقاد لبعض مواطن الضعف فيه بدون
تحفظ • ولكنه حافظ على شيء من الطلاقة والجازبية •

بدا على ناستاسيا فيليوفنا سرور عظيم بظهور آرداليون الكسندروفتش
الذى كان واضحاً أنها سبق أن سمعت عنه •

وأراد آرداليون أن يتكلم فقال :

- علمت أن ابنى

- آ نعم ابنك ! أنت أيضاً ظريف لطيف ! لماذا
لا تجيى الى أبداً ؟ أأنت الذى تختبئ أم أن ابنك هو الذى يخبئك ؟ أنت
على الأقل تستطيع أن تزورنى دون أن تعرّض سمعة أحد لخطر
استأنف الجنرال الكلام فقال :

- أبناء القرن التاسع عشر وآباؤهم ٠٠٠

وصاحت نينا ألكسندروفنا تقول بصوت عال :

- ناستاسيا فيليوفنا ، تفضلى فأذننى لأرداليون ألكسندروفتش
بالانصراف لحظة ، فانهم يطلبونه ٠٠٠

- آذن له ؟ أرجوك ٠٠ لقد سمعت عنه كثيراً فأنا أرغب فى معرفته
منذ مدة طويلة ! ما هى الأعمال التى تناديه ؟ أليس محالاً على التقاعد ؟
لن تتركنى يا جنرال ، لن تنصرف ، أليس كذلك ؟
- أتعهد لك بأن يزورك شخصياً ، أما الآن فهو فى حاجة الى شئ
من الراحة •

هتفت ناستاسيا فيليوفنا تسأله وهى تلوى شفتها استياءً كطفلة مغناج
اتنزعت منها لعبتها :

- أرداليون ألكسندروفتش ، يزعمون أنك فى حاجة الى راحة ٠٠
فأسرع الجنرال يتكفل بجعل وضعه أدعى الى الاضحاك أيضاً ،
اذ قال يخاطب زوجته بلهجة متفخمة ونبرة لائمة ، وهو يحمل احدى
يديه الى موضع القلب من صدره :

- عزيزتى ، عزيزتى ٠٠٠

فسألت فاريا أمها بصوت عال :

- ألا تريدان أن تخرجى يا ماما ؟
فأجابتها أمها !

- لا يا فاريا ، سأبقى الى النهاية !

لا يمكن الا أن تكون ناستاسيا فيليوفنا قد سمعت السؤال والجواب،
ولكن مرحها لم يزد من ذلك الا شدة وقوة • وأخذت تمطر الجنرال

بالأسئلة ، فما انقضت خمس دقائق حتى كان الجنرال يفيض فى الهذر
وسط ضحكات الحفل كله .

شدَّ كوليّا حافة سترة الأمير ، وقال له :

– أنت على الأقل ، أخرجه الى مكان ما ! ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟
أرجوك

وكانت تلمع فى عيني الصبي المسكين دموع استياء . وأضاف الصبي
يقول بينه وبين نفسه :

– لعنك الله يا جانيما !

استرسل الجنرال فى الاجابة عن أسئلة ناستاسيا فيليوفنا ، فقال :
– نعم ، كنت صديقاً حميماً لايقان فيدوروفتش ايباتشين فى الواقع .
فأنا وهو والمرحوم الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين الذى أتبع لى اليوم أن
أفرح بضمّ ابنه الى صدرى بعد فراق عشرين عاماً ، كنا لا نفترق ، كنا
أشبه بالفرسان الثلاثة : آئوس ، وبورنوس ، وآراميس . ولكن . . .
واحزنناه ! . . . واحد منا هو الآن فى القبر ، مضى ضحية النيمية ورسامة
لثيمة ؟ والثانى يمثل أمامك وما يزال يصارع النمام والرصاصات . . .
هتفت ناستاسيا فيليوفنا تسأله متعجبة :

– الرصاصات ؟

– هى هنا ، فى صدرى ، أصابتنى أثناء حصار كارس * ،
وما زلت أحسّها حين يسوء الجو . ثم انتى أحيا كما يحيا فيلسوف :
أتجول ، أتتزه ، ألعب « الضاما » بمقهى كبورجوازى اعتزل العمل ،
وأقرأ جريدة « الاستقلال » * . ولكننى قطعت صلتى بصاحبنا بورنوس –
ايباتشين قطعاً تاماً ، منذ ثلاث سنين ، فى أعقاب حادث وقع فى القطار
بصدد كلب صغير

سألته ناستاسيا فيليوفا باستطلاع شديد :

- كلب صغير ؟ ما تلك القصة ؟ كلب صغير ؟ فى القطار ؟ ...

وكانت كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما •

- أوه ! هى قصة سخيفة لا تستحق أن تُروى ، حدث لى مع مسز سميث ، صاحبة الأميرة بيلوكونسكايا ... لا تستحق أن تُحكى •

هفت ناستاسيا فيليوفا تقول فرحة :

- بل اقصصها علىّ ، يجب أن تقصصها علىّ حتماً !

قال فردشتينكو :

- أنا أيضاً لا أعرفها بعد • « هذا من الأمور الجديدة » •

قالت نينا الكسندروفنا بصوتها الضارع مرة أخرى :

- آرداليون ألكسندروفتش !

وصرخ كوليا يقول :

- بابا ، انهم يطلبونك ...

بدأ الجنرال يحكى القصة مسروراً فقال :

- قصة سخيفة تُحكى بكلمتين • منذ ستين تقريباً ، بعد تدشين خط السكة الحديدية بين ... ، كنت مسافراً بالقطار لأعمال هامة جداً تتعلق بتسليم منصبى (وكنت قد ارتديت الثياب المدنية منذ ذلك الحين) •

قطعت تذكرة سفر بالدرجة الأولى ، فلما صرت فى حجرة القطار جلست أدخّن ، بل قولى اتنى استمررت أدخّن ، لأننى كنت قد بدأت أدخّن قبل ركوب القطار ؟ وكنت وحيداً فى الحجرة • ولئن لم يكن التدخين ممنوعاً ، انه ليس مباحاً على كل حال • وانما جرى العرف بالتسامح فى أمره ، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص • وكان زجاج النافذة مخفوضاً •

وفجأةً ، قبل انطلاق رنة الايدان بتحريك القطار ، دخلت الحجرة سيدتان
وصلتا في آخر لحظة ، ومعهما كلب صغير ، وجلستا قبالي . ان احداهن
ترتدى ثياباً تبلغ غاية الأناقة ، لونها أزرق سماوى . والثانية أقل أناقة
من الأولى ترتدى ثوباً من حرير أسود فوقه كاب . والسيدتان كلتاها
على شيء من الجمال ، ولكنهما متعالتان متكبرتان . وكانتا تتحدثان باللغة
الانجليزية . استمرت أنا في التدخين . ولقد فكرت في الأمر طبعاً ،
لكننى قررت مع ذلك ألا أكف عن التدخين ، على أن أدير وجهى نحو
زجاج النافذة الذى ظل مخفوضاً . كان الكلب الصغير فوق ركبتى السيدة
التي ترتدى ثوباً أزرق بلون السماء ، وهو كلب صغير جداً جداً ، لا يكاد
يتجاوز حجمه حجم قبضة اليد ، جسمه أسود ، وقوائمه بيضاء كلب
نادر كل النادرة . وكان في رقبته طوق من فضة عليه نقوش . بقيت أنا
ساكناً صامتاً . لكننى لاحظت أن السيدتين تبدوان مستاءتين ، بسبب
السيجار طبعاً . فاحداهما تنفرس في وجهى من خلال نظارة تمسكها
بيدها . ظلت لا أردُّ بشيء ، ما دامت لا تقولان لى شيئاً ! لو كلمتاني
على الأقل ، لو طلبتا منى ألا أدخن ، اذن لكان يمكن أن ألام . . . ان
للشرف لغة يتخاطبون بها ، ان لهم لساناً يتكلمون به . لكن السيدتين لبثتا
صامتتين ! وفجأة بدون أى انذار أؤكد لك أن ذلك تمَّ
بدون أى انذار كأن السيدة قد فقدت عقلها انتزعت السيدة ذات
الثوب الأزرق انتزعت من يدي السيجار ، ورمته من النافذة . واستمر
القطار يسير ، بينما أنا أنظر اليها مبهوتاً مصعوقاً . انها امرأة وحشية ،
وحشية فعلاً ، وحشية تماماً ، رغم أنها جميلة ، بضعة ، طويلة ،
شقراء ، زاهية اللون ، (بل زاهية اللون كثيراً) . صعقتنى بنظرتها
صعقاً . وهأنذا ، دون أن أقول كلمة واحدة ، وبأدب كامل ، بل بأدب
يبلغ غاية الرقة ، أمدُّ اصبعيَّ الى الكلب ، فاحمله بهما من جلد رقبته

حماًلاً لطيفاً ... و ... أرميه من النافذة ليلحق بسيجارى • لم يكـ
يتسع وقته لأن يعول احوالة صغيرة ! ... واستمر القطار يسير •
هفت ناستاسيا فيليبونا تقول وهى تنفجر ضاحكة وتصفق بيديها
كصبيّة صغيرة :

– أنت شيطان !

وزأر فردشتينكو يقول :

– مرحى ! مرحى !

وابتسم بتسعين هو أيضاً ، رغم أنه كان هو أيضاً قد دُهِش واستاء
من دخول الجنرال • وحتى كوليا أخذ يضحك ، حتى لقد صرخ يقول
« مرحى ! » •

واصل الجنرال كلامه يقول متحمساً ، ظافراً :

– كنت على حق ، كنت على حق جداً • فاذا كان السيجار ممنوعاً
فى حجرة القطار ، فالكلاب أولى أن تكون ممنوعة أيضاً •
صرخ كوليا يقول متحمساً :

– مرحى ، بابا ! عظيم ، رائع ! او كنت فى مكانك لفعلت مثل الذى
فعلت أنت حتماً !

سألت ناستاسيا فيليبونا نافذة الصبر :

– وماذا فعلت تلك السيدة ؟

أظلم وجه الجنرال ، ثم قال :

– هى ؟ هنا جرت الأمور مجرى سيئاً : فبدون أن تقول كلمة
واحدة ، بدون أى تهديد ، صفعتى ! قلت لك : انها امرأة وحشية ،
وحشية تماماً !

- وأنت ؟

خفض الجنرال عينيه ، ورفع حاجبيه ، وأعلى كتفيه ، وزمَّ شفتيه ،
وباعد ذراعيه ، وقال أخيراً بعد صمت :

- لم أستطع أن أكبح جماح نفسي ؟

- هل ضربتها ضرباً شديداً ؟

- لا ، أحلف لك ! لقد أحدث الأمر يومئذ فضيحة ، لكنني لم
أضربها ضرباً شديداً . لم يكن ذلك مني الا ردّاً فعل ، لا لشيء الا أن
أبعدها . غير أن الشيطان دبّر لي هنا « مقلباً » ليعنّا ! فالسيدة التي تلبس
ثوباً أزرق بلون السماء اتضح انها انجليزية ، وأنها مرافقة الأميرة
يلوكونسكايا ، بل وتكاد تكون صديقتها . تخيّلِي الدراما : اغماءات ،
دموع ، حداد (كان الكلب الصغير أثيرهما) ، صيحات الأميرات الست
والسيدة الانجليزية ! ولقد ذهبت أعرب عن أسفى وأقدم اعتذارى طبعاً ،
حتى لقد كتبت رسالةً ، غير أنني لم أُستقبل ، لا أنا ولا الرسالة ، ونشأ عن
ذلك شقاق بيني وبين ايباتشين بطبيعة الحال . فهأنذا الآن مشنّع على ،
منفى عنهم ، مبعّد من صحبتهم !

سألت ناستاسيا فيليوفا فجأة :

- ولكن اسمح لي ، كيف يمكن هذا ؟ لقد قرأت منذ خمسة أيام
أو ستة ، في « الاستقلال » (وأنا أقرأها بانتظام) ، قرأت هذه القصة
نفسها تماماً ! حدث هذا على خط السكة الحديدية الذى يحاذى شاطئ
نهر الراين ، بين رجل فرنسى وامرأة انجليزية : هى انتزعت منه سيجاره
على النحو الذى وصفت ، وهو رمى كلبها الصغير القزم من النافذة بالطريقة
التي ذكرت ؟ وكل شيء جرى على نحو ما جرى لك دون أى اختلاف ،
فحتى ثوب السيدة كان أزرق بلون السماء !

احمر وجه الجنرال احمراراً شديداً • واحمر وجه كوليا أيضاً ،
وأمسك رأسه بيديه • وأسرع بتسكين يشيح وجهه • فكان فردشتينكو
وحده ما يزال يضحك ملء حلقه • أما جانيا ، فالأفضل ألا تتكلم عنه •
لقد ظل هنالك يعانى ألماً أخرس لا يطاق !

تمتم الجنرال يقول لناستاسيا فيليوفنا :

- أؤكد لك أن هذا الشيء نفسه قد حدث لى ...

وصاح كوليا :

- فعلاً وقع لأبى حادث مزعج مع مسز سميث ، خادم
بيلوكونسكايا • أنا أتذكر هذا •

عادت ناستاسيا فيليوفنا تلح مصرةً فى غير رحمة ولا شفقة :

- كيف يحدث لك هذا الشيء نفسه ؟ أتكرر قصة واحدة فى طرفى
أوروبا ، بجميع تفاصيلها ، حتى الثوب الأزرق الذى لونه كلون السماء ؟
سوف أرسل اليك العدد الذى قرأت فيه قصة تلك الحادثة من جريدة
« الاستقلال البلجيكى » •

وتابع الجنرال كلامه ملحاً :

- لاحظى مع ذلك أن الحادث الذى وقع لى عمره ستان !

- آ ... إذا كان الأمر كذلك ، ف ... طبعاً ...

قالت ناستاسيا فيليوفنا هذا وهى تضحك كأنما قد اعترتها نوبة
هسترية •

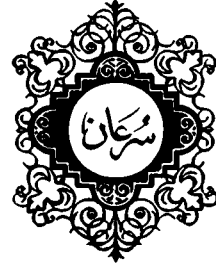
قال جانيا بصوت مرهق ، وهو يمسك أباه من كفه :

- بابا ، أرجوك أن تخرج معي قليلاً ... أريد أن أقول لك
كلمتين •

كان كره لا نهاية له يسطم في نظرتة •

وفي تلك اللحظة دوى في المدخل صوت الجرس قوياً عنيماً يكاد
ينخلع له الجرس انخلاعاً ، فكان يدل على زيارة غير عادية • فأسرع كولين
يفتح الباب •

الفصل العاشر



ما سُمعت ضوضاء جمهور آتية من حجرة المدخل • ان من كان فى الصالون يدرك أن عدة أشخاص قد دخلوا ، وأن آخرين ما يزالون يدخلون • كانت أصوات كثيرة تتكلم فى آن واحد ، وتصرخ عند المدخل وعند السلم الذى ظل بابَه مفتوحاً واضح أنهم زوار غريبون عجيبيون • أخذ جميع من فى الصالون ينظر بعضهم الى بعض متحيراً • واندفع جانبا الى الصالون الكبير ، غير أن عدداً من الأشخاص كانوا قد دخلوا الى هناك •

صاح صوت يعرفه الأمير ، صاح يقول :
- آ ... هانت ذا يا يهوذا ، يا خائن ! سلامٌ جانبا ، يا وغداً عريقاً !

وصاح صوت آخر يقول مؤيداً :
- نعم ، انه هو ، هو نفسه !
لم يبق لدى الأمير أى شك • ان أحد الصوتين هو صوت روجوين ، وان الصوت الآخر هو صوت ليديف •
تجمّد جانبا على العتبة مبهوراً مصعوقاً ، وأخذ ينظر صامتاً ، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الأشخاص العشرة أو الاثنى عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روجوين •

كانت هذه العصابة خليطاً عجيباً ، يتميز أفرادها لا بتنوعهم فحسب ، بل بفوضاهم كذلك ، حتى ان بعضهم دخلوا كما هم ، بفرواتهم ومعافطهم وكانوا يبدون جميعاً سكارى بعض الشيء ، رغم أن أحداً منهم لم يكن سكران فعلاً . وكان يظهر عليهم جميعاً أن كلاً منهم فى حاجة الى الآخرين يشدُّ بهم أزره ، ويستمد منهم شجاعته . ما كان لواحد منهم أن يجرؤ على أن يدخل لو كان وحيداً ، ولكنهم كانوا كمن يدفع بعضهم بعضاً الى الدخول دفماً . حتى روجويين الذى كان على رأسهم ، انما كان يدخل محاذراً ؛ فكان يبدو مظلم الوجه مشغول البال مهوم النفس الى درجة الهياج . أما الآخرون فلم يكونوا الا « كورس » هو فيه المغنى أو قل لم يكونوا الا عصابةً عليها أن تساعد قليلاً . كانت العصابة تضم ، عدا ليديف ، كانت تضم زالويجيف الذى عنى بتجديد شعره عناية كبيرة ، وترك فروته فى حجرة المدخل ، ودخل طلقاً متبخترأ ، ووراءه شخصان أو ثلاثة أشخاص من هذا الطراز نفسه كان واضحاً أنهم أبناء تجار ؛ وكان فى العصابة كذلك رجل يرتدى معطفاً على الزى العسكرى ، ورجل قصير سمين مفرط فى السمنة ما ينفك يضحك بغير انقطاع ؛ ورجل ضخم ، بدين هو أيضاً ، بدانة غير عادية ، يكاد يبلغ طوله مترين ، متجهم الوجه شديد الصمت ، لابد أنه كان يعوّل على قبضتى يديه كثيراً ؛ وطالب من طلاب الطب ؛ وبولندى مرح . وعلى فسحة السلم سيدتان تنظران الى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخلا . فأغلق كوليا الباب أمامهما وشدَّ المزلاج .

– سلام جانبا الوغد ! انك لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روجويين ، أليس كذلك ؟

هكذا ردَّ بارفيون روجويين حين وصل الى باب الصالون فوقف أمام جانبا . ولكنه فى تلك اللحظة نفسها ، لمح فى الصالون ، قبالة تماماً ،

على حين فجأة ، لمح ناستاسيا فيليوفنا • واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيل امكان أن يراها هنا • فما ان رآها حتى أحدثت رؤيتها في نفسه تأثيراً خارقاً ، فاذا هو يبلغ من الشحوب وانكفاء اللون أن شفّيته أصبحت زرقاوين •

قال في رفق بصوت خافت ، كأنما هو يحدث نفسه ، وقد شلّ
فلا يدري ماذا يفعل :

— ما يقال صحيح اذن • انتهى الأمر !...•••

ثم قال مخاطباً جانبا من بين أسنانه ، وهو ينظر اليه نظرة تفيض بغضب حائق لا يُغالب :

— طيب ••• ستحاسب !...•••

لقد انحبست أنفاس روجوين ، فلم يكذ يستطيع أن ينطق بهاتين الكلمتين مقطعتين الا بكثير من العناء • وتقدم في الصالون ، ولكنه حين أبصر نينا ألكسندروفنا وفاريا على حين فجأة ، توقف شاعراً ببعض الحجل رغم كل انفعاله • ودخل ليديف وراءه ، يتبعه كظله ، وقد نال منه السكر • ثم دخل الطالب ، فالعلاق ذو القبضتين الهائلتين؛ ودخل وراءهما زاليوجيف يحيى ذات اليمين وذات الشمال ؛ ثم دخل الرجل القصير السمين يحاول أن يشق لنفسه طريقاً • ان وجود السيدات قد كبّحهم قليلاً ، وكان واضحاً أنه يربكهم ارباكا كبيرا ، ولكن المرء يحس أن هذا الارباك سيزول متى حانت لحظة « البدء » ••• فان وجود السيدات لن يحول دون الفضيحة متى تُطلق اشارة « البدء » •

قال روجوين في ذهول ، ولكن مع شيء من الدهشة :

— كيف ؟ أأنت أيضاً هنا يا أمير ؟ وما تزال البادتان على حذاءيك ؟
وتنهّد • لكنه كان قد نسي الأمير وعاد ينقل بصره الى ناستاسيا

فيليوفنا ، وهو يقترب منها مزيداً من الاقتراب ، كأنما يجذبه اليها
مغناطيس •

وكانت ناستاسيا فيليوفنا ، هي أيضاً ، تنفرس في الدخلاء قلقةً
مستطلعة •

وأخيراً ناب الى جانبا صوابه • فقال بصوت عال وهو يلقي على
الدخلاء نظرة قاسية ، مخاطباً روجوين بخاصة :

- اسمحوا لى ! ما معنى هذا ؟ أأنتم هنا فى اسطبل أيها السادة ؟!
أمامكم هنا أمى وأختى •••

قال روجوين من بين أسنانه :

- نرى أنهما أمك وأختك •

وزاد ليديف يقول :

- واضح أنهما أمك وأختك •

وأغلب الظن أن صاحب القبضتين القويتين قدّر أن الحين قد حان ،
فإذا هو يهمهم •

فصاح جانبا رافعاً لهجته الى درجة الانفجار ، قائلاً :

- كفى ! أرجوكم أولاً أن تنتقلوا الى الغرفة الأخرى ، واسمحوا
لى بعد ذلك أن أسألكم •••

ضحك روجوين ضحكة شريرة ساخرة دون أن يتحرك من مكانه
وقال :

- عجيب ! لم يتعرفنى ! ألم تتعرف روجوين ؟

- هبنى التقيت بك فى مكان ما ، فأنسى •••

- هه ! التقيت بى فى مكان ما ! أنسيت اذن أنك منذ أقل من ثلاثة

أشهر قد سلبتني بالقمار مائتي روبل هي ملك أبي ؟ لقد مات الشيخ
المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك . أنت جررتني الى اللعب ،
وصاحبك كيف تولى العشر . أفلا تتعرفني اذن ؟ في وسع بتسين أن
يشهد . على كل حال ، يكفى أن أخرج من جيبي ثلاثة روبلات ، وأن
أريكها حتى تركم وتسير على أربع الى فاسيلفسكى أملاً في الحصول عليها .
هذا أنت ! تلك هي نفسك الحنسية ! وانما جئت الآن أيضاً لأشترك
كلك بالمال ! لا تنظر الى هذا ، فأنا أملك يا صاحبي مالاً كثيراً ، وفي
وسعي أن أشاركك أنت وجميع ذويك . . . لو شئت اشتريتك جميعاً ،
جميعاً ! . . .

كان روجوين يزداد اندفاعاً ، ويبدو أشد سكرأ لحظة بعد لحظة .
وهتف يقول :

— لا ، لا تطردني يا ناستاسيا فيليوفنا ! قولي لي كلمة واحدة
لا أكثر : أأنت مقبلة على الزواج به أم لا ؟
ألقي روجوين هذا السؤال كما يلقيه انسان يشعر بأنه هالك ،
وخطب ناستاسيا فيليوفنا كما يخاطب انسان الهه المعبود ، ومع ذلك كان
في لهجته جرأة هي جرأة من حكم عليه بالاعدام فلم يبق هنالك ما يخاف
أن يضع منه .

وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل !

شقلته ناستاسيا فيليوفنا بنظرة ساخرة متعالية . ولكنها حين ألقت
بصرها على فاريا ونينا الكسندروفنا ثم على جانبا ، غيّرت موقفها ، وقالت
تجيبه في رفق وجد ، بصوت تلوح فيه الدهشة :

— لا ، أبداً ، ماذا دهاك ؟ ثم كيف خطر ببالك أن تلقى على هذا
السؤال ؟

هتف روجوين يقول كمن جنّ فرحاً :

- لا ؟ لا ؟ أصحيح أنك لن تتزوجيه ؟ لقد زعمسوا لى أنك ستزوجه ٠٠٠ آه ٠٠٠ طيب ٠ يا ناستاسيا فيليوفنا ! هم يدعون أنك وعدت جانيا بأن تتزوجه ٠٠ كيف تتزوجين هذا ٠٠٠ هذا ال ٠٠ أذلك ممكن ؟ لقد قلت لهم هذا ٠ ان فى وسعى أن اشتريه كله بمائة روبل ، فإذا أعطيته ألف روبل أو قولى ثلاثة آلاف روبل فى سبيل أن يعدل عن الزواج ، لهرب عشية الزواج تاركاً خطيبته ٠ أليس هذا صحيحاً يا جانيا ، يا سافل ؟ ألن تقبل الثلاثة آلاف روبل ؟ خذ ! اليك هى ! من أجل هذا انما جئت اليوم ! لقد جئت لأحصل على توقيع منك بالعدول عن الزواج ٠ قلت سأشتريك ، ولسوف اشتريك فعلاً !

صرخ جانباً يقول وهو يحمر ثم يصفر ، ثم يصفر ثم يحمر :

- اذهب من هنا ! أنت سكران !

أحدثت هذه الصرخة انفجارات أصوات ٠ كانت عصبة روجويين لا تنتظر منذ مدة طويلة الا أول استفزاز ٠ وها هو ذا ليديف يهمس فى أذن روجويين ببعض الكلام مهتماً أشد الاهتمام ٠

أجاب روجويين :

- أصبتَ يا سيادة الموظف ! أصبتَ يا أيها السكران ! ولم لا ، أخيراً ؟

ثم هتف يقول وهو ينظر الى ناستاسيا فيليوفنا كالمجنون ، فتارةً برعب وتارةً بجرأة تشبه أن تكون وقاحة :

- ناستاسيا فيليوفنا ! اليك ثمانية عشر ألف روبل ! و ٠٠٠ وهناك مبالغ أخرى ! ٠٠٠

قال ذلك ووضع أمامها ، على منضدة صغيرة ، حزمة ملفوفة بورق أبيض ، ومربوطة بخيط .

ولم يجرؤ أن يكمل فكرته ، لم يجرؤ أن يتم ما كان يريد أن يقوله .

همس ليديف في أذنه مرة أخرى يقول مرتاعاً :

– لا ، لا هذا

كان واضحاً أن ضخامة المبلغ قد روعته ، وأنه يقترح تخفيضه .
فأجابه روجوين :

– لا يا صاحبي ، هنا أخطأت . . . هنا أنت غبي . .

واذ رأى شرراً يقدح في نظرة ناستاسيا فيليوفنا ، ناب إليه صوابه ، وأخذ يرتجف ، وأضاف يقول :

– بل نحن كلانا غيان ، أنت وأنا . . . آه . . . ما كان أشد حماقتي حين سمعت لك .

أضاف روجوين هذه الجملة الأخيرة بلهجة فيها ندم عميق .

فبعد أن لاحظت ناستاسيا فيليوفنا بكثير من الانتباه كيف انقلب وجه روجوين وتشوهه ، انفجرت تضحك فجأة ، ثم أضافت تقول بلهجة خالية من الكلفة ، طافحة بالوقاحة ، وهي تنهض عن الكنبه كأنما لتصرف :

– ثمانية عشر ألف روبل ، لي أنا ؟

وكان جانبا يراقب المشهد منقبض القلب .

صاح روجوين يقول :

– بل أربعون ألفاً ، أربعون ألفاً ، لا ثمانية عشر ! . . . لقد وعدني بتسعين وبسكوب بأن يدفع لي أربعين ألف روبل في الساعة السابعة !
أربعون ألف روبل عدأً ونقدأً ! . . .

أصبح المشهد دينياً حقاً ، ولكن ناستاسيا فيليوفا ظلت تضحك ، ولم تعزم أمرها على الانصراف ، كأنها تعتمد أن يطول المشهد . وقد نهضت نينا ألكسندروفنا وفاريا ، هما أيضاً ، ووقفنا تنتظران صامتتين مروّعتين ما عسى أن ينتهى اليه الأمر . فأما فاريا فعيناها تلتمعان ؛ وأما نينا ألكسندروفنا فقد هزّها تعاقب الأحداث هذا هزّاً قوياً كل القوة فهي ترتجف حتى لتكاد تسقط مغشياً عليها .

- إذا كان الأمر كذلك ، فأننى أرفع المبلغ الى مائة ألف . نعم ، فى هذا اليوم نفسه سأدفع مائة ألف روبل . بتسين ، ساعدنى فى جمع هذا المبلغ ، ولك حسابك !

همس بتسين قائلاً وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه:

- أنت سكران : سوف نستدعى الشرطة ! أين تظن نفسك ؟

قالت ناستاسيا فيليوفا كأنما تثيره وتحرضه :

- الحمرة هى التى تتكلم !

فأخذ روجويين يصرخ قائلاً وقد ازدادت حماسه ازدياداً كبيراً :

- لا ، أنا لا أكذب ! سوف تقبضين مائة ألف روبل ! هذا المساء !

سوف أبرهن على أننى لا أتباخل !

هنا أرعد صوت آرداليون ألكسندروفنش على حين فجأة يقول غاضباً

مهدداً وهو يتقدم نحو روجويين :

- ما معنى هذا كله أخيراً ؟

ان هذه الاندفاع المبالغية التى لم يكن يتوقعها أحد من المعجوز بعد

أن ظل صامتاً حتى ذلك الحين ، قد أحدثت أثراً مضحكاً ، فانطلقت

ضحكات هنا وهناك .

قال روجويين وهو يضحك ساخراً :

- من أين خرج لنا هذا ؟ تعال معنا أيها العجوز فتشرب حتى تسكر !

فصرخ كوليا الذى كان يبكى عاراً وغضباً :
- هذه دنائة !

وصاحت فاريا فجأة وهى ترتمش غضباً من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

- هل يُعقل ألا يكون بينكم واحد يُخرج هذه الوقحة من هنا ؟

فأجابت ناستاسيا فيليوفا تقول بمرح فيه احتقار :

- أنا أوصف بأننى وقحة ؟ ما كان أغباني حين جئت لأدعوهم الى سهرتى ! انظر كيف تعاملنى أختك يا جبريل آرداليوتش !

ظل جانيا بضع لحظات كالمصعوق من اندفاعه أخته ، ولكنه حين لاحظ أن ناستاسيا فيليوفا عازمة فى هذه المرة فعلاً على أن تنصرف ، هجم على فاريا كالمجنون فأمسك يدها بخنق شديد •

وهتف يسألها وهو ينظر اليها كمن يريد أن يحيلها الى رماد على الفور :

- ماذا فعلت ؟

كان قد خرج عن طوره ، وأصبح لا يدري ماذا يصنع •

صرخت فاريا تقول وهى ترشق أخاها بنظرة انتصار وتحد :

- ماذا فعلت ؟ وأنت الى أين تجبرنى ؟ أترك تريد منى ، أيها الرجل الساقط ، أن أقدم اليها اعتذارى هى التى أهانت أمك ، وغطت بيتك كله بالعار ؟

ولبثا على هذه الحال بضع لحظات ، وجهاً لوجه •

كان جانيا ما يزال ممسكاً يد أخته بيده • وحاولت فاريا أن تخلص

يدها مرةً أو مرتين بكل ما تملك من قوة ، لكنها لم تفلح ، فإذا هي بعد ذلك تخرج عن طورها فتبصق في وجه أخيها •

صرخت ناستاسيا فيليوفنا تقول :

— هذه فتاة حقاً ! يا بتسين ! أهثك !

زاغ بصر جانيا ، ونسى نفسه تماماً ، فرفع يده يريد أن يضرب أخته بكل قواه • وكان يمكن أن تسقط يده على وجهها ، لولا أن يداً أمسكت ذراع جانيا بانطلاقة سريعة فأوقفتها • لقد وقف الأمير بين الأخ وأخته •

قال الأمير حازماً ، ولكنه كان يرتعش بجميع أعضائه هو أيضاً ، كما يحدث في اثر اضطراب شديد :

— ما هذا ؟ أما كفاكم ؟! •••

فزأر جانيا قائلاً وهو يترك يد فاريا :

— أأظّل أجذك دائماً في طريقى ؟

وكانت يد جانيا قد أصبحت طليقة ، وكان قد بلغ ذروة السخط ، فإذا هو ينزل بيده على وجه الأمير صفعه قوية •

صاح كوليا يقول وهو يرفع ذراعيه :

— آه ••• آه ••• رباه ! •••

وانطلقت هتافات التمجيد من كل جهة • كان الأمير أصفر اللون ، يحدّق الى عيني جانيا بنظرة غريبة مثقلة لوماً ، وكانت شفاهه المختلجتان تحاولان أن تنطقا بشيء ما ، وكانت ابتسامة عجيبة غير مألوفة تشعّجها فما تستطيعان أن تقولاً شيئاً • واستطاع أخيراً أن يتلفظ فقال :

— أنا ، لا ضير ان ضربتني ••• أما هي ••• فلن أسمع لك بأن

تضربها ! •••

ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة ، فترك جانبا ، وأمسك رأسه
بيديه ، واتجه نحو الحائط ، وقال بصوت متقطع :

- آه ... لشد ما ستشعر بالحزى والعار من فعلتك !

وكان جانبا كالمصعوق فعلاً •

هُرِعَ كولا الى الأمير يقبّله ويواسيه ، وتبعه روجوين وفاريا
وبتسين ونينا ألكسندروفنا ... تبعه الجميع ، حتى الشيخ آرداليون
ألكسندروفتش •

تمتم الأمير قائلاً وهو ما يزال يتسم تلك الابتسامة غير المألوفة :

- ليس هذا بشيء ! ليس هذا بشيء !

وصرخ روجوين :

- لسوف يندم على ما فعل • لسوف تخجل يا جانبا من أنك أسأت
الى مثل ... هذه النعجة (لم يجد كلمة أخرى) • دعهم يا أمير ،
يا صديقي ؛ وتعال ... فسوف ترى كيف يعرف روجوين أن يحب !

تأثرت ناستاسيا فيليوفا ، هي أيضاً ، أشد التأثر من فعلة جانبا
وموقف الأمير • ان وجهها الذى يكون فى العادة شاحب اللون والذى
يعبر فى العادة عن شرود الذهن ، وذلك ما لا يتفق كثيراً مع ضحكها الذى
كانت تصطنعه اصطناعاً منذ قليل ، قد غيّرتة الآن عاطفة جديدة • هذا
واضح كل الوضوح • ومع هذا يحس المرء أنها لا تحرص على اظهار
ذلك ، فهى تحاول أن تحافظ على ما كان يعبر عنه وجهها من سخرية •
وفجأة تذكرت السؤال الذى أثاره الأمير منذ قليل ، فقدمت تقول
على حين بفتة ، ولكن بشيء من الجذ والرصانة منذ الآن :

- حتماً ، سبق أن رأيت هذا الوجه قبل الآن !

فهتف الأمير فجأة يقول بلهجة عتاب عميق ، لكنه عتاب فيه مودة
وصداقة :

- وأنت ، ألا تشعرين الآن بخجل ؟ أنت لست تلك المرأة التي
حاولوا أن يصفوها بما وصفوها به !... .

دُهِشت ناستاسيا فيليوفا ، وحاولت أن تبسّم كأنما لتخفى شيئاً ما .
وبعد أن ألقت نظرةً على جانبا اتجهت نحو باب الصالون مضطربة • لكنها
حتى قبل أن تصل الى حجرة المدخل ، عادت أدراجها فجأة ، فاقتربت من
نينا ألكسندروفنا فتناولت يدها وحملتها الى شفتيها • ودمدمت تقول بصوت
سريع ، وبحرارة ، وقد اشتعل وجهها واحمرّ :
- لقد حزر • صحيح أنني لست هكذا

ثم استدارت وخرجت ، ولكنها بلغت من السرعة في هذا كله أن
أن أحداً لم يتسع وقته لأن يعترف لماذا هي رجعت أدراجها ؟ كل
ما هنالك أنهم رأوها تكلمّ نينا ألكسندروفنا ببضع كلمات همساً ، ولعلمهم
رأوها تقبّل يدها • غير أن فاريا رأت كل شيء ، وسمعت كل شيء ،
وتابعتها بنظراتها مدهوشة •

عاد الى جانبا رشده ، فاندفع ليصحب ناستاسيا فيليوفا ، لكنها كانت
قد خرجت ، فأدركها في السلم •
صرخت تقول له :

- لا تصحبني ! الى اللقاء في هذا المساء ! لا تتخلف ! هل سمعت ؟

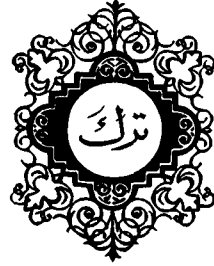
فعاد جانبا مضطرباً ، مفكراً ، واجماً • ان لغزاً ثقيلاً يجثم الآن
على قلبه ، بل هو الآن أثقل مما كان • وطافت صورة الأمير أيضاً
بخطاه •... .

وقد بلغ من عمق الاستغراق أنه لم يكن يرى انسحاب عصابة روجويين التي كان أفرادها يصدّمونه في المدخل متدافعين متعجلين ترك المنزل في اثر رئيسهم • كانوا جميعاً يتناقشون بحرارة شديدة وصوت عال • وكان روجويين نفسه يمشى الى جانب بتسين ، ويكلّمه ملحاً في شيء لا بد أنه خطير ولا يحتمل أى تأخير • حتى اذا مرّ أمام جانيا قال له:

— خسرت يا جانيا !

فتابعهم جانيا بنظرة قلقة •

الفصل الحادي عشر



الأمير الصالون وجلس نفسه في غرفته • فسرعان
ما أسرع اليه كوليا ليواسيه • كان يبدو على
الصبي المسكين أنه أصبح لا يستطيع الانفصال
عنه • قال له :

- أحسنت اذ انصرفت • ستسوء الأمور مزيداً من السوء هناك •
يحدث هذا في جميع الأيام • كل ذلك بسبب ناستاسيا فيليوفنا تلك •
قال الأمير :

- في أسرتك ، يا كوليا ، آلام كثيرة متراكمة •
- نعم ، هذا صحيح • والحق أننا ليس لنا أن نشكو • فالذنب كله
ذنبنا • ولكن لي صديقاً هو أشقى منا أيضاً • هل تريد أن أعرفك به ؟
- بسرور كبير • أهو أحد رفاقك ؟

- نعم ، تقريباً • سأشرح لك الأمر فيما بعد • انها جميلة ، ناستاسيا
فيليوفنا ، أليست كذلك ؟ لم يسبق لي أن رأيتها حتى الآن ، رغم كل
ما بذلت في سبيل ذلك من جهود • كانت اليوم باهرة حقاً ، باهرة ! كان
يمكنني أن أغفر لأخي جانبا كل شيء لو كان يتزوجها عن حب • أما أن
يأخذ مالاً فهذا هو العيب !

- نعم ، أخوك لا يعجبني كثيراً •

- أفهم ذلك جيداً ، ولا سيما بعد الذى فعله بك ... هل تريد أن أقول لك رأى ؟ هناك مواضع اجتماعية وأحكام شائعة لا أطيقها البتة .
يكفى أن يقوم مجنون أو معتوه أو حتى وغد مجرم ، يكفى أن يقوم وهو فى حالة هذيان بصفح أحد الناس حتى يتلطح شرف الرجل الذى تلقى الصفة ، الى الأبد ، فإذا هو لا يستطيع أن يغسل الاهانة الا بالدم ! اللهم الا أن يمشوا أمامه ركعاً ضارعين اليه أن يصفح ويغفر . فى رأى أن هذا طغيان واستبداد ، وأنه سخف ! وذلك هو موضوع الدراما التى كتبها ليرموتوف بعنوان : « الحفلة المقنعة » * ، والتى أجد أنها تافهة بلهاء ، بل وأنها مخالفة للطبيعة . يجب أن نذكر على كل حال أن تلك الدراما هى من الأعمال التى كتبها ليرموتوف فى طفولته تقريباً ...

- أعجبتى أختك كثيراً .

- أرايت كيف بصقت فى وجه جانيا ؟ شجاعةً فاريا ! ومع هذا فانك أنت لم تبصق ، وما أظن أن مردً ذلك الى نقص فى شجاعتك .
هه ! ها هى ذى بنفسها . صدق المثل : اذكر الذيب وحضر القضيبي .
كنت أعلم أنها لا بد أن تجيء ! ان فيها نبلاً وشهامة ، وان تكن لها عيوب ونواقص أيضاً .

كانت أول حركة من فاريا أنها قالت :

- أنت لا عمل لك هنا ولا شأن . اذهب الى أبيك . لا بد أنه يُضجرك يا أمير ؟

- لا ، بالعكس .

- ها هى ذى الأخت الكبرى تندفع وتثور ! ذلك هو عيها . ولكن ، بالنسبة ، لقد ظننت أن أبانا سيتبع روجوين . لا بد أنه نادم الآن على أنه لم يفعل .

وأضاف كوكيا يقول وهو يخرج :

- يستحسن فعلاً أن أذهب اليه فأرى ما هنالك !

قالت فاريا :

- الحمد لله ! استطعت أن أقود ماما وأن أرقدها ، ولم يحدث انفجار جديد • جانبا غارق في خجله وهمومه • هناك ما يدعو الى ذلك على كل حال !... يا له من درس !... لقد جئت لأشكرك ، ولأسألك أيضاً ألم تكن تعرف ناستاسيا فيليوفا قبل اليوم ؟

- لا ، لم أكن أعرفها •

- فلماذا قلت لها اذن ، وجهاً لوجه ، انها ليست « تلك » المرأة ؟

ألا ان من الجائز أن تكون قد حزرت الواقع !... على كل حال ، طاش عقلي ، وتاه فكري ، فأصبحت لا أفهم من الأمر شيئاً ! لا شك في أنها كانت تنوى أن تهيننا • ذلك واضح • وقد سبق أن سمعت عنها أشياء كثيرة غريبة • ولكن اذا صدق أنها جاءت لتدعونا أنا وماما ، فكيف نفسّر أنها بدأت بمعاملة ماما تلك المعاملة الغريبة ؟ ان بتسعين يعرفها جيداً • وقد قال انه لم يستطع أن يعمل سلوكها منذ قليل • وموقفها ذاك من روجوين ؟ ان من يحترم نفسه لا يسمح لنفسه بمثل هذه اللغة ، في منزل ... وأمي قلقة عليك كل القلق أيضاً •

قال الأمير وهو يحرك يده بحركة عدم الاكتراث :

- ما هذا بشيء !

- انه لغريب مع ذلك أنها أطاعتك ...

- كيف ... أطاعتني ؟

- حين قلت لها ان عليها أن تشعر بالحجل ، فاذا هي تتغير وتتبدل دفعةً واحدة •

ثم أضافت فاريا وهي تبسم ابتسامة خفيفة :

– ان لك عليها نفوذاً وسلطاناً يا أمير !

وفُتح الباب ، ودخل جانبا من حيث لم يكن يُتوقع دخوله البتة •
وحتى رؤية فاريا لم تحمله على التردد • تلبث عند العتبة لحظةً ، ثم دنا
من الأمير وقد بدا في وجهه الحزم والثبات ، وقال فجأة بانفعال قوى :

– يا أمير ، لقد كنت أنا دنيئاً ، فاغفر لى يا عزيزى !

كانت قسमत وجهه تعبر عن ألم كبير وعذاب شديد • فتأمله الأمير
مشدوهاً ولم يجب فوراً • فأسرع جانبا يكرر قوله نافذ الصبر :

– اغفر لى ، أرجوك ، اغفر لى • هل تريد أن أقبل يدك ؟

فما كان من الأمير ، وقد تأثر تأثراً شديداً ، الا أن عانقه بذراعيه
دون أن يقول كلمة واحدة • وتبادل الرجلان القبلات صادقة •

قال الأمير أخيراً وهو يسترد أنفاسه بكثير من العناء :

– ما كان ليخطر ببالي أنك قادر على هذا ••• كنت أظن أنك غير
قادر عليه •••

– على الاعتراف بأخطائي ؟ ••• انى لأتساءل كيف أمكنتى أن أعدّك
أبله ، أنت الذى ترى ما لا يستطيع الآخرون أن يلاحظوه فى يوم من
الأيام • انه ليكون مفيداً أن أجرى معك حديثاً ••• ولكن ••• ربما كان
السكوت أفضل ! •••

قال الأمير وهو يومئ له الى فاريا :

– وهذه انسان آخر يجب عليك أن تستغفره !

فصاح جانبا قائلاً وهو يشيح بوجهه عن أخته :

– لا ، لا ، هؤلاء جميعاً أعداء لى • تأكد يا أمير أنتى قمت بمحاولات
كثيرة وبذلت جهوداً كبيرة • لا ، هنا لا يغفرون غفراً صادقا قط !

فقالت فاريا فجأة :

— بل سأغفر لك !

— وهل تذهين هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليوفا ؟

— أذهب ، اذا أمرتني بأن أذهب • ولكن احكم في الأمر بنفسك :
هل يمكنني الآن أن أظهر هناك ؟

— ما دامت ليست « تلك » • انك ترين الألغاز التي تقوم في أذهانتنا
عنها ؟ ألا انها لتجيد التمثيل !...•

قال جانبا ذلك وضحك ضحكة ساخرة خيثة •

— أنا أدرك أنها ليست ما يترأى لنا ، وأن في جعبتها « مقالب »
أخرى • ولكن ما هي تلك « المقالب » ؟ ثم انتبه يا جانبا ! أنت تعرف
رأيها فيك على الأقل ؟ صحيح أنها قبّلت يد ماما ، ولنفرض أن سائر
الأمر تمثيل ، ولكنها مع ذلك قد سخرت منك وتهكمت عليك ! هذه
مذلات لا تساويها خمسة وسبعون ألف روبل ! لا يا أخى ! عهدي فيك
أنك قادر على الشعور بمواطف نبيلة ، لذلك ترانى أقول لك هذا الكلام •
صدّقتى • أنت نفسك لا تذهب إليها هذه الليلة ! حذار أن تذهب !
لسوف يجرى الأمر كله مجرى سيئاً !

فالت فاريا ذلك ، وأسرعت تخرج من الغرفة منفعة أشد الانفعال ••

قال جانبا وهو يضحك مستهزئاً :

— كذلك هنّ جميعاً ! هل يتخيّلن أنني أنا نفسى لا أعرف ؟
لا شك أنني أعرف أكثر مما يعرفون !

وهنا جلس جانبا على الديوان ، فكان واضحاً أنه ينوى إطالة زيارته •

تجاسر الأمير فقال خجلاً وجلاً :

- اذا كنت تعرف ، فلماذا اخترت اذن هذا التعذيب عالمًا أن خمسة وسبعين ألف روبل لا تساويه ؟

فدمدم جانبا يقول :

- ليس هذا هو الأمر • ولكن قل بالمناسبة ، فأنا أحرص على أن أعرف رأيك : هل هذا « التعذيب » تساويه خمسة وسبعون ألف روبل أم لا تسويه ؟

- أعتقد أنها لا تساويه •

- مفهوم • وعارٌ أن يتزوج الرجل على هذه الشروط •

- عار جداً !

- طيب ... فاعلم اننى سأتزوج مع ذلك ، واعلم أننى الآن أشد ثقةً و يقيناً مما كنت من قبل • فمئذ قليل ، كنت ما أزال متردداً ، أما الآن فقد انتهى الأمر ! لا تقل شيئاً ! أنا أعرف ماذا تريد أن تقول ... لا أريد أن أتكلم عما ظننت أنى سأتكلم عنه • كل ما هنالك اننى مدهوش من ثقتك و يقينك •

- مِمَّ ؟ من ثقتى و يقينى ؟

- من ثقتك أولاً بأن ناستاسيا فيليوفنا ستتزوجك حتماً ، وأن هذا أمر مفروغ منه ؛ ومن ثقتك ثانياً بأن هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ستُلقى فى جيبك رأساً • أقول هذا رغم أننى أجهل أشياء كثيرة على كل حال •

اقرب جانبا من الأمير بحركة نشيطة • وقال :

- طبعاً ، أنت لا تعرف كل شيء • والا فلماذا كان يمكن أن أقبل احتمال هذا الثقل كله ؟

- يخيّل الىّ أن ذلك يحدث في كثير من الأحيان : يتزوج الرجل طمعاً في مال ، ولكن المرأة هي التي تستولى على المال !
دمدم جانبا يقول واجماً مفكراً قلقاً :
- ل ... لا ! لن تجرى الأمور هذا المجرى في زواجنا !! هناك
... ظروف معنية ...

ثم أسرع يضيف :
- أما عن جوابها فلم يبق ثمة أي شك فيه ! ما الذي يدعوك الى افتراض أنها قد ترفضني ؟
- لا أعرف أكثر مما رأيت . وقد قالت باربارا آرداليونوفنا ، هي أيضاً ، منذ قليل ...

- هيه ! هن يقلن هذا الكلام ، لأنهن لم يبق لهن ما يقلنه ! أما روجوين فقد كانت تسخر منه ، ثق بهذا . ذلك شيء ميّزته واضحاً ، ذلك شيء لا يخفى عن البصر . عانيت منذ قليل لحظة قلق ، لكنني أرى الآن رؤية واضحة . اللهم الا أن يكون حكمك مبنياً على سلوكها مع أمي وأبي وفاريا ؟

- وعلى سلوكها معك .
- هب ملاحظتك صحيحة . ولكن هذا ليس الا روح الانتقام الأبدية لدى النساء . ان ناستاسيا فيليوفنا امرأة سريعة الاحتياج ، شديدة التأذي ، كثيرة الأنانية : لكأنها موظف من الموظفين المنسيين في كشوف الترقية ! لقد حرصت على أن تثبت لهم قوة شخصيتها ، وعلى أن تظهر لهم احتقارها ... لهم ... ولي أنا أيضاً ، ان شئت . هذا صحيح . لست أنكره ... لكنها ستزوجني مع ذلك . انك لا تستطيع أن تتخيل الألعاب التي يمكن أن تدفع اليها الكبرياء . ان هذه المرأة تعدني شخصاً جديراً بالاحتقار ،

لأننى على علمى بأنها خلية رجل آخر ، أرضى أن أتزوجها فى سبيل المال صراحةً • ولكنها لا يخطر ببالها أن شخصاً آخر كان يمكن أن يخذعها بطريقة أحقر وأدنا ، كأن يأخذ يحدنها مفيضاً مسهباً عن الأفكار اللبرالية والآراء التقدمية وتحرير المرأة وما الى ذلك ، ليجرّها بعد ذلك من أنفها ! ان فى وسعها بمثل هذه الأساليب أن يقنع هذه المجنونة اقناعاً سهلاً كل السهولة بأنه لا يختارها الا « لنبل قلبها ، وكثرة محنها » ، مع أنه فى حقيقة الأمر لا يفكر الا فى مالها • أما أنا فلا أحظى بالقبول والرضى ، لأننى أكره المواربة ••• ولكن كان علىّ فى الواقع أن ألجأ الى ذلك الأسلوب ! ثم قل لى : ما الذى تفعله هى ؟ ألا تفعل هذا الشيء نفسه ؟ فلماذا اذن تحقرنى ، وتمثّل هذا التمثيل كله ؟ السبب بسيط : هو أننى أرفض أن أروض ، وأظهر العزة والكبرياء أنا أيضاً ! على كل حال ، سوف نرى •••

– أترأك أحبتها من قبل ؟

– نعم ، فى بداية الأمر • ولكن كفى ! هناك نساء لا يصلحن لأن يتخذهن الا خيليات • لا أدعى بهذا القول أنها كانت خليلتى • فإذا رضيت أن تكون عاقلة وأن تعيش هادئة ، رضيتُ بذلك أنا أيضاً ، أما اذا أخذت تمرد وتثور ، فسرعان ما سأتركها فاراً بالمال • لا أريد أن أكون أضحوكة ، ذلك أهم شيء عندى !

قال الأمير بحذر :

– يخيل الىّ أن ناستاسيا فيليوفا ذكية ، فكيف تقع فى الفخ اذا كانت توجس هذا الشقاء كله سلفاً ؟ فى وسعها أن تتزوج رجلاً آخر • ذلك ما يثير دهشتى •••

– هنا يكمن الحساب كله ! انك لا تعرف كل شيء يا أمير •• ان

ههنا •• ثم انها مقتنعة على كل حال بأننى أحبها حباً يبلغ الجنون •• أؤكد لك ذلك ••• وأغلب الظن عندى أنها هى أيضاً تجبني على طريقتهما ، فكما يقول المثل : « من يحب حباً قوياً يعاقب عقاباً شديداً » • طوال حياتها ستظل تعدنى أسيراً تعذبّه (ولعل ذلك هو ما تحتاج اليه) ، مع حبها اياى على طريقتهما فى الوقت نفسه • انها تهيب نفسها لهذا ، فذلك هو طبعها • انها امرأة روسية الى أقصى حد ، أؤكد لك هذا • أما أنا فأتنى أخبئ لها أيضاً مفاجأة • ان ما حدث بينى وبين فاريا منذ قليل كان طارئاً عرضياً ، لكنه يفيدنى : لقد استطاعت أن تتأكد من تعلقى بها ، ومن أتنى سأقطع جميع الصلات فى سبيلها • هانت ذا ترى أتنى أنا أيضاً لست غيباً الى ذلك الحد • لا شك أنك تجدنى كثير الثرثرة • جائر جداً يا أمير أتنى أخطئ اذ أفضى اليك بهذه المسارآت كلها • ولكنى ما هجمت عليك هذا الهجوم الا لأنك أول انسان نبيل ألقاه فى حياتى ! لا تأخذ كلمة «الهجوم» هذه بمعنيين : لست حاقداً علىّ لما حدث منذ قليل، أليس كذلك؟ لعل هذه أول مرة أتكلم فيها مفتوح القلب منذ سنتين • الشرفاء هنا قليل : أشرفهم بتسين • ولكن يخيّل الىّ أنك تضحك ؟ ألا تضحك ؟ ان الأوباش يحبون الشرفاء كثيراً • ألم تكن تعرف هذه الحقيقة ؟ واذ اتنى ••• ولكن قل لى حقاً : فيم أنا وبَشْ؟ هلاً قلت لى هذا صريحاً صادقاً ! لماذا يقلدونها جميعاً فيعدونى وبَشْ؟ تصوّر فوق ذلك اتنى حين أسمع كلامها وأسمع كلامهم آخذ أعدُ نفسى وبَشْ مثلما يعدونى كذلك ! ذلك هو الصغار وتلك هى الحقايرة فى الواقع !

قال الأمير :

— أما أنا فلن أعدك بعد اليوم وبَشْ • الحق أتنى منذ قليل كنت على وشك أن أعدك وغداً بالفعل • ولكنك أفرحتنى الآن كثيراً ! هذا درس سأتنفع به فى المستقبل ، وهو ألا أحكم على الناس قبل أن تكون لى خبرة

بهم • أنا الآن أرى أنك لست وغداً ، بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول
انك لست حتى رجلاً فاسداً • فى رأى انك انسان عادى جداً ، ربما على
شئ من ضعف الارادة وقلة الأصالة •

ابتسم جانبا ابتسامة مريرة ، ولكنه لزم الصمت • ولاحظ الأمير أن
رأيه لم يحظ برضى جانبا • فخبجل من ذلك كثيراً ، وصمت هو أيضاً •
سأله جانبا فجأة :

– هل طلب منك أبى مالا ؟

– لا •

– سيطلب ، فلا تعطه • أما أنه كان انساناً لائقاً جداً ، فهذا أمر
أتذكره كل التذكر • لقد كان يُستقبل فى أرقى مجتمع • ما أسرع
ما يترددون ويسقطون ، هؤلاء الناس اللاتقون جميعاً ! أمر غريب !
يكفى أيسر تغير فى ظروف حياتهم حتى يهروا الى الدرك الأسفل ،
ثم لا يبقى منهم شئ • فكأنهم بارود اشتعل فاستحال كله دخاناً !
أؤكد لك أنه كان فى الماضى لا يكذب أبداً كما يكذب الآن ! كل ما هنالك
أنه كان شديد التحمس ، فانظر كيف صار الآن ! هذا ذنب الشراب
طبعاً • هل تعلم أنه يعول خلية ؟ ثم انه الآن ليس كذاباً بغير أذى • اننى
لا أفهم كيف تصبر عليه ماما هذا الصبر كله ، وكيف تتسامح معه هذا
التسامح كله ! هل روى لك قصة حصار « كارس » ؟ أو قصة حصانه
الأبلى الذى طفق يتكلم ؟ انه يصل الى هذا الحد أحياناً •

قال جانبا ذلك وانفجر يضحك ضحكاً مجلجلاً • ثم سأل الأمير :

– ما بالك تنظر الى هكذا ؟

– أدهشنى ما فى هذا الضحك من صراحة وصدق • أرى أنك
ما تزال قادراً على أن تضحك كما يضحك طفل • ومنذ قليل ، حين دخلت

لتصالحني ، سألتني : « هل تريد أن أقبل يدك ؟ » • هذا بعينه هو ما يفعله طفل حين يستغفر من ذنب • ما زلت قادراً اذن على هذا النوع من الكلام الطيب والاندفاع الصادق ! فما بالك تتساق هذا الاسياق في تلك القصة المشبوهة ، قصة الخمسة وسبعين ألف روبل • حقاً ان ذلك ليدو لي مستحيلاً لا يصدق •

– فما هي النتيجة التي تستخرجها من هذا كله ؟

– انني أتساءل ألسنت تسرع في سلوكك كثيراً ؟ أليس الأفضل أن تفكر أولاً ؟ قد تكون باربارا آرداليونوفنا على حق ...

قاطعه جانيا قائلاً :

– ها ... درس في الأخلاق ! ... أما أنتي ما زلت صبيّاً صغيراً فذلك أمر أعرفه أنا نفسي • وأكبر دليل على ذلك أنتي أثرت معك مثل هذا الحديث •

وتابع جانيا حديثه فاضحاً نفسه كفتي جُرحت كبرياؤه :

– لكنني لا أرتضى هذا الزواج بدافع الحساب وحده يا أمير • والا لكان من الممكن أن تخطيء حساباتي ، فما زلت لا أملك لهذا الأمر كل عدته من دماغ قوى وعزيمة صلبة • وانما أنا أقبل هذا الزواج مدفوعاً بهوى عفيف جامع ، وميل عارم لا يغالب ، لأن لي هدفاً رئيسياً • لعلك تظن أنني متى قبضت هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ، فسأشتري لنفسى مركبة فخمة • فاعلم اذن أن الأمر ليس كذلك • لسوف آخذ عندئذ في ابلاء سترة عتيقة عمرها ثلاث سنين ، ولسوف أعدل عندئذ عن جميع علاقاتي بالمتدى • ما أقل القادرين في بلادنا على المضى في طريقهم قدماً لا يجيدون عنه ، وان تكن نفوسهم جميعاً نفوس مرايين ! أما أنا فسأصمد وسأتابع السير الى النهاية • فانما المهم أن يسير المرء الى النهاية • تلك هي

المشكلة ! كان بتسين ، فى السابعة عشرة من عمره ، بيت فى الشارع ويبيع سكاكين • بدأ كفاحه ببضعة كوبكات • وهو يملك الآن ستين ألف روبل • ولكن ما أقسى الجهود التى بذلها والمصاعب التى قاساها فى سبيل ذلك ! أما أنا فأستطيع أن أتخطى جميع تلك المصاعب فأبدأ برأس مال كبير على الفور • فما ان تمض خمس عشرة سنة حتى يشير الى الناس بالنبان قائلين : « هذا ايفولجين ، ملك اليهود ! » • أنت تصفنى باننى خال من الأصلة • فاعلم يا عزيزى الأمير أن أكبر اهانة يمكن أن تلحقها بانسان فى عصرنا ومن جنسنا هى أن تتعته بأنه محروم من الأصالة والارادة والمواهب الخاصة ، وأن تقول عنه انه رجل عادى • انك لم ترض حتى أن تعدّنى وبشاً ذا قيمة ؟ وانى لأعترف لك بأننى أوشكت منذ قليل أن التهمك التهاماً بسبب ما قلته فى حقى ! لقد آلتنى أكثر مما آلتنى ايباتشين ذلك الذى يظن أننى لن أتورع عن أن أبيع امرأتى (لم يصرح بهذا ، ولكنه يضمره ، وهذه سذاجة منه ، فانه لم يحاول حتى أن يسبر ما بنفسى) • هذا كله يثيرنى منذ مدة طويلة يا صديقى ، وذلك هو السبب فى اننى محتاج الى مال • فمتى حصلت على المال ، أصبحت على جانب كبير من الأصالة ، ثق بهذا ! من هذه الناحية خاصة انما يجب أن يوصف المال بأنه حقير وبغيض ، لأنه يضاف على صاحبه حتى الموهبة ! وسيستمر الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم • قد تقول لى ان هذا الكلام كله صياني ، أو قد تقول لى انه كله شعر • لا خير ••• ليزدد الأمر بذلك سخفاً ، ولكنه سيتحقق • سأسير الى نهاية الشوط ، وسأصمد • صدق المثل : « يضحك جيداً من يضحك آخرأ » • لماذا يعاملنى ايباتشين هذه المعاملة ؟ أعن خبت وشر ؟ لا ••• وانما هو يعاملنى هذه المعاملة لأننى شخص يمكن اهماله تماماً ، فليس له قيمة أو وزن • أما حين أصبح ••• على كل حال ، كفى الآن كلاماً • لقد أرف الوقت ••• ثم ان

كوليا قد أطلَّ بأنفه مرتين ، ربما ليناديك الى الغداء • أما أنا فأخرج ••
ساتي اليك أحياناً • لن تضايق كثيراً عندنا ، فلسوف يتبنونك الآن
جميعاً ! حذار أن تفضحني • يخيلُ الى أننا لا نستطيع أن نكون الا
أصدقاء أو أعداء • قل لي يا أمير : لو أُنْهِ قَبْلَت يدك منذ قليل (كما
اقتُرحتُ ذلك صادقاً) أكنت أصبح بعد ذلك عدوَّك لهذا السبب ؟

قال الأمير وهو يضحك بعد لحظة من تفكير :

— حتماً ! ولكن لا الى الأبد ، بل الى حين ، فانك ما كنت لتستطيع
أن تصمد طويلاً ، فلا بد أن تغفر لي أخيراً •

قال جانبا :

— هيه ••• هيه !••• أرى أن على المرء أن يكون حذراً كل الحذر
مبك • انك حتى في هذا الجواب قد استطعت أن تدسَّ شيئاً من سم • من
يدري ! لملك عدو ! بالناسبة : ها ها ها !••• لقد نسيت : خيّل الى
منذ قليل أن ناستاسيا فيليوفا أعجبتك كثيراً ، هل هذا صحيح ؟

— نعم ، تعجبني !

— أأنت مغرم بها ؟

— ل ••• لا !

— ومع ذلك احمرَّ لونك ، وظهر العذاب في وجهك • طيب ليس
هذا بشيء • لن أسخر منك • الى اللقاء • هل تعلم أنها امرأة متمسكة
بالفضيلة ؟ هل تستطيع أن تصدِّق ذلك ؟ لملك تظن أنها خلية
الآخر ، توتسكي ؟ أخطأ اذن ظنك ! ما هي خليلته ، وذلك منذ زمن
طويل ! هل لاحظت خرافتها وخجلها في بعض اللحظات ؟ تلك هي
الحقيقة • ان أصحاب أمثال هذه الطباع هم الذين يجبون أن يسيطروا •
طيب • استودعك الله !

انسحب جانبا بكثير من اليسر والطلاقة والسهولة ، فكان عند
خروجه أحسن حالاً وأصفى مزاجاً منه عند دخوله •

أما الأمير فقد لبث جامداً نحو عشر دقائق ، لا يتحرك •

وأطل كوليا برأسه من الباب من جديد • فقال له الأمير :

- لن أتغدى يا كوليا ، فقد أفطرت عند آل ايباتشين منذ قليل
فأصبت حظاً كبيراً من الطعام •

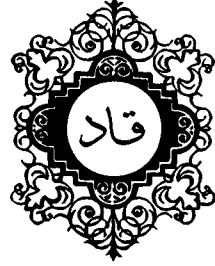
فدخل كوليا ، ومدَّ الى الأمير رسالة • انها ورقة مطوية ممهورة
بتوقيع الجنرال • يستطيع من ينظر الى كوليا أن يقرأ في وجهه مدى الألم
الذى يشعر به وهو يتناول الأمير الرسالة • وقرأ الأمير الرسالة ، فنهض
وتناول قبعته •

قال كوليا خجلان مضطرباً :

- ليس المكان بعيداً ، هو على مسافة خطوتين من هنا • بابا جالس
الى مائدة أمام زجاجة • انى لأسئلك كيف استطاع أن يقنعهم بأن يسقوه
دينياً • أرجوك يا عزيزى الأمير ألا تذكر لأحد اننى نقلت اليك هذه
الرسالة • لقد حلفت ألف مرة ألا أعود الى فعل هذا أبداً ، ولكننى أشعر
بشفقة عليه • ثم أرجوك أن لا تصانعه وتجاهله ؛ اعطه بضعة نقود
واكف بهذا !

- كنت أتوى أنا نفسى يا كوليا أن اننى فى حاجة الى أن أرى
أباك لسببٍ ما هياً بنا !

الفصل الثاني عشر



كوليا الأمير الى « مقهى - بلياردو » قريب من المنزل ، قبل شارع ليتانيايا ، يقع في قبو على الطريق . فالى اليمين ، فى حجرة صغيرة خاصة ، كان آرداليون ألكسندروفتش جالساً الى مائدة كما يجلس زبون قديم ، وقد وُضعت أمامه زجاجة ، وكان يقرأ جريدة « الاستقلال البلجيكي » فعلاً . كان ينتظر الأمير . فما ان أبصره حتى ترك جريدته وشرع يفيض فى شرح طويل حار لم يفهم الأمير منه شيئاً كثيراً على كل حال ، لأن الجنرال كان فى الواقع قد نمل . وقاطعه الأمير يقول :

- ليس معى ورقة عشرة روبلات ، ولكن اليك ورقة خمسة وعشرين روبلاً ، فبدّلها ورُدَّ الى خمسة عشر روبلاً ، والا بقيت بغير كوبك واحد !

- آ ... طبعاً ... طبعاً ... تأكد أن هذا سيتم فوراً فوراً ! ...
- ثم ان هناك شيئاً أريد أن أسألك عنه يا جنرال : ألم تزر ناستاسيا فيليوفنا فى يوم من الأيام ؟

صاح الجنرال يقول فى نوبة اختيال وغطرسة وسخريه :
- أنا ؟ لم أزرها فى يوم من الأيام ؟ أتسألنى أنا هذا السؤال ؟ مراراً

يا عزيزى مراراً!... لكننى انقطعت عن زيارتها آخر الأمر حتى لا يكون فى ذهابى إليها تشجيع على مصاهرة غير لائقة . لقد رأيت بعينك وكنتَ شاهداً على ما حدث منذ قليل : انى فعلت كل ما يستطيع أن يفعله أب لّين متسامح . لكن أباً من نوع آخر سيدخل المشهد بعد الآن ، ولسوف نرى عندئذ : هل المحارب القديم المظفر هو الذى سينتصر على المؤامرة ويحبطها ، أم أن « غادة كاميليا » وقحة هى التى ستستطيع أن تدخل أسرة نبيلة كريمة المحتد !

— انما أردت أن أسألك ألا تستطيع ، بصفتك من رواد منزلها ، أن تدخلنى هذا المساء الى بيت ناستاسيا فيليوفا ؟ ولا غنى لى عن أن يتم هذا فى المساء نفسه . أنا فى حاجة الى أن أراها ، لكننى لا أعرف كيف أدخل عليها . صحيح أننى قدّمت إليها منذ قليل ، ولكننى غير مدعو . هى تقيم فى هذه الليلة حفلة . على اننى مستعد أن أخالف بعض الأصول، ولو تعرضت لأن أكون أضحوكة ، فى سبيل أن أدخل إليها بطريقة أو بأخرى .

هتف الجنرال يقول بحماسة :

— ذلك يطابق فكرتى كل المطابقة يا صديقى الشاب .

ثم أردف يقول وهو يأخذ المال ويضعه فى جيبه :

— أنا لم أزعجك بالمجيء الى هنا من أجل هذا الأمر التافه (يقصد المال) ، وانما استدعيتك لاقتراح عليك أن تصحبنى فى هجوم على ناستاسيا فيليوفا ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! ما أقوى الوقع الذى سيحدثه هذا التحالف فى نفسها ! سأتظاهر بأننى أزورها مهتئاً بعيد ميلادها ، فأعرف عندئذ كيف أفرض ارادتى أخيراً ، لا بطريقة مباشرة ، بل بطريقة غير مباشرة ، ولكن الأمران واحد . وسيعرف جانبا عندئذ ما الذى يجب عليه أن يعمله : فاما أن يختار أباً أحقّ بالاعتبار وأجدر بالاحترام واما ..

ان صح التعبير ... الى آخره ... ولكن ما يكون ! ان فكرتك خصبة جداً . ستتحرك فى الساعة التاسعة ، ما يزال فى الوقت متسع .

– أين تقيم ناستاسيا فيليوفا ؟

– فى مكان بعيد عن هنا ، قرب « المسرح الكبير » ، فى عمارة ميتوفتسوف ، المطلة على الميدان تقريباً ، بالطابق الأول ... ولن يكون عندها ناس كثير ، رغم أن الليلة عيد ميلادها ، وستفرك الحفل فى ساعة مبكرة .

تقدم المساء كثيراً ، وما يزال الأمير جالساً يصغى الى الجنرال ويتنظره ، والجنرال ما ينفك يشرع فى سرد حكايات جديدة لا ينهى أية واحدة منها . كان ، حين وصل الأمير ، قد أمر بزجاجة جديدة لم يتنه من شربها الا بعد ساعة . . ثم طلب زجاجة أخرى ، فكان مصيرها مصير سابقتها . ومن حقنا أن نفترض أن الجنرال قد اتسع وقته لأن يقص على الأمير سيرة حياته كلها تقريباً . ونهض الأمير أخيراً ، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر ... فسكب الجنرال لنفسه آخر قطرات الزجاجة ، ونهض متجهاً نحو باب الخروج مترنح الخطو بعض الترنح . كان الأمير فى حالة كرب شديد ، وكمد قوى . لم يستطع أن أن يشرح لنفسه كيف أمكنه أن يعتمد على الجنرال وأن يركن اليه بمثل هذه الغباوة وهذه البلاهة . والحق أنه لم يكن قد اعتمد عليه أو ركن اليه قط ، وانما هو عوّل عليه ليستطيع الدخول الى بيت ناستاسيا فيليوفا ، ولو دفع ثمن ذلك فضيحة صغيرة . غير أنه لم يتصور أن تقع فضيحة ضخمة .

كان الجنرال قد أخذ منه السكر كل مأخذ ، فانطلق لسانه فصيحاً فصاحةً متدفقة لا ينضب معنيها ، فهو لا ينفك يتكلم بغير انقطاع أو مهادنة ، وهو لا يننى يتحدث بانفعال وقد « امتلأ قلبه دموعاً » . وكان مدار

حديثه على ما أصاب أسرته من انهيار ودمار نتيجةً لسوء سلوك أفرادها ،
وعلى أنه قد آن الأوان لأن يضع لهذا التدهور حداً آخر الأمر •

ووصل الرجلان الى شارع ليتانيا • ما يزال الثلج يذوب • وهذه
ريح باردة رطبة عفنة تصفر في خلال الشوارع • العربات تهدر في الوحل ،
والحيول المترفة والأفراس الحسيسة تضرب الأرض بحوافرها المنعّلة •
والمشاة يطوّفون على طول الأرصفة جمهوراً مبتلاً بالماء ، بينه سكارى •
قال الجنرال :

– هل ترى الطوابق الأولى المضيئة من هذه العمارات ؟ انها جميعاً
يسكنها رفاقي القدامى ، وأنا ••• أنا الذي خدمت أكثر منهم وتأملت أكثر
منهم ، أمشي على قدمي في اتجاه « المسرح الكبير » ، الى بيت امرأة سيئة
السمعة مشبوهة الأخلاق ! رجل في صدره ثلاث عشرة رصاصة ••• ألا
تصدقني ؟ ومع ذلك فمن أجلى وحدى انما ارسل بيروجوف * برقية الى
باريس ، وترك سياستوبول المحاصره الى حين ، ثم حصل نيلاتون ، كبير
أطباء البلاط بباريس ، باسم العلم ، اذنأً بالمرور الى سياستوبول المحاصرة
ليفحصني • وكانت القيادة العليا على علم بما حدث • « آه ان ايفولجين هو
الذي أصيب بثلاث عشرة رصاصة !•• » كذلك كانوا يتحدثون عني •
هل ترى ، يا أمير ، ذلك المنزل ، هناك ؟ في ذلك الطابق الأول يسكن
رفيقي القديم الجنرال سوكولوفتش مع ذريته النبيلة المحتد ، الغفيرة
العدد • ان ذلك المنزل ، وثلاثة منازل أخرى في شارع نفسكي ومنزلين
آخرين بشارع مورسكايا ، هي الآن كل حلقة علاقتي ، أقصد علاقتي
الشخصية • لقد أذعنت نينا ألكسندروفنا للظروف منذ مدة طويلة • أما أنا
فما أزال أتذكر ••• بل أتجراً فأقول ما أزال أذوق بعض الراحة في
صحبة رفاقي القدامى ومرعوسى الذين ما يزالون يعبدون عبادتي ان
صح التعبير • ذلك الجنرال سوكولوفتش مثلاً ••• على اني منذ

مدة طويلة لم أزره ولا رأيت آنا فيدوروفنا ... أنت تعلم يا أمير : حين يصبح المرء عاجزاً عن استقبال أحد في بيته ، فانه يُضطر أخيراً الى الانقطاع عن زيارة الآخرين ... ومع ذلك ... هم ! ... يخيل الى أنك لا تصدقني ... ولكن ، بالمناسبة ، لماذا لا أدخل على هذه الأسرة اللطيفة ابن خير اصدقاء طفولتي ؟ الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! سوف ترى هنالك فتاة رائعة ، ماذا ! بل فتاتين ، بل ثلاث فتيات ، هن زينة المجتمع وزينة عاصمتنا : جمال ، ثقافة ، فكر ... قضية المرأة ، قصائد ، ذلك كله ستراه هناك وقد انصهر في تنوع موفق منسجم ! ناهيك عن أن كل واحدة منهن تملك مهراً مقداره ثمانون ألف روبل عدأً وتقداً ، على الأقل ، وهذا لا يفسد شيئاً بطبيعة الحال ، رغم جميع قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية ... الخلاصة : يجب علىّ حتماً أن أدخلك الى هذه الأسرة ، يجب علىّ ذلك حتماً ، هذا واجب يقع على عاتقي ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين ! تصور وقع ذلك في النفوس !

قال الأمير يسأله :

– الآن ؟ حالاً ؟ فهل نسيت اذن أن ...

– لم أنس شيئاً البتة ! ادخل من هنا ! اصعد هذا السلم الرائع ! يدهشني أن السويسري غائب . ولكن هذا اليوم عطلة ، والسويسري يغيب في يوم العطلة . لم يطردوا ذلك السكّير حتى الآن . ان سوكولوفتش هذا مدين لي بكل سعادة حياته ، وبكل نجاحه وارتقائه في عمله ، مدين بذلك لي وحدي دون غيري . ولكن ... ها نحن وصلنا .

كفَّ الأمير عن الاعتراض على هذه الزيارة ، فكان يتبع صاحبه طائماً حتى لا يثير حنقه ، وهو يأمل أن يتبدد الجنرال سوكولوفتش وأسرته كلها رويداً رويداً كما يتبدد سراب ، وأن يتضح أن هذا الجنرال لم يوجد

فى يوم من الأيام ، فىعودا يهبطان السلم بهدوء وأمان وسلام • فما كان أشد زعر الأمير حين أخذ يفقد ذلك الأمل : ذلك أن الجنرال كان يقوده على السلم قيادة رجل واثق بأنه سيجد أصدقاءه ، وهو ما ينفك يذكر للأمير مزيداً من التفاصيل عن سيرة حياتهم وأوصاف أشخاصهم بوضوح شديد ودقة رياضية • حتى اذا بلغنا « الطابق الأول » ، توقفا يمينه ، أمام باب شقة غنية ، فأمسك الجنرال قبضة الجرس ، فهمَّ الأمير أن يهرب ، ولكن ظرفاً خاصاً أوقفه عن الهرب لحظة • قال الأمير :

- لقد أخطأت يا جنرال ، فأننى أرى على الباب صفيحة كتب عليها اسم كولاكوف ، وأنت تريد أن تفرع جرس سوكولوفتش •
قال الجنرال :

- كولاكوف ... كولاكوف لا يدل على شيء • البيت بيت سوكولوفتش ، وأنا أفرع جرس بيت سوكولوفتش • لا يهمنى كولاكوف ولا أعاباً به ولا أكثر له ... ثم ها هم يفتحون الباب •
فتح الباب فعلاً ، وظهر خادم أعلن أن « سادته قد خرجوا » •
أخذ آرداليون ألكسندروفتش يكرر بصوت فيه حزن عميق :
- خسارة ، خسارة حقاً أن يخرجوا فى هذا اليوم بعينه !
ثم قال يخاطب الخادم :

- قل لهم اذن يا صاحبى ان الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين قد جاءا يؤكدان لهم احترامهما ، ويعبران لهم عن شديد أسفهما ...
وفى تلك اللحظة ، ظهر وراء الباب المفتوح شخص آخر لعله الناظرة أو المربية • انها سيدة فى نحو الأربعين من العمر ، ترتدى ثوباً قاتم اللون ، اقتربت مستطلعة محاذرة ، حين سمعت اسمى الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين •

قالت وهى تتفرس فى الجنرال باتباء :

- ان ماريا ألكسندروفنا ليست فى البيت • لقد ذهبت مع الأنسه ألكسندرا ميخائيلوفنا الى منزل جدتها •

- ألكسندرا ميخائيلوفنا أيضاً ؟ يا لسوء الحظ • أرجوك أن تفضلنى فتقللى الى ألكسندرا ميخائيلوفنا تحيتى واحترامى ، آملاً أن تتذكرنى ••
الخلاصة : أبلغها أنتى أرجو لها من كل قلبى أن تتحقق تمنياتها التى أعربت عنها مساء يوم الخميس أثناء سماعها موسيقا شوبان • سوف تتذكر ••• انقلى اليها أخلص مودتى وأصدق أمانىَّ ! الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !

قالت السيدة وقد اطمأنت :

- لن أنسى أن أنقل اليها ذلك !

وبينما كانا يهبطان السلم استمر الجنرال يعبر بحماسة لم تقرر عن أسفه وحزنه لأنه لم يجد أحداً فى المنزل ، فحرم الأمير بذلك من عقد صلة جميلة رائعة •

- هل تعلم يا عزيزى ؟ اننى لأكاد أكون شاعراً ؟ هل لاحظت ذلك؟

نم ختم كلامه يقول فجأةً على نحو لا يمكن توقعه :

- ولكن ••• ولكن يخيّل الى أننا أخطأنا تماماً • لقد تذكرت الآن أن آل سوكولوفتش يسكنون فى عمارة أخرى ، وأعتقد أنهم الآن بموسكو • نعم ، لقد أخطأت بعض الخطأ ، ولكن ••• لا قيمة لهذا !

قال الأمير مبهوتاً :

- أودُ أن أعرف شيئاً واحداً • هل يجب أن أعدل عدولاً تاماً عن الاعتماد عليك ؟ أليس الأفضل أن أذهب اليها وحدى ؟

- تعدل ؟ تعتمد ؟ وحدك ؟ ولكن لماذا ؟ لماذا والامر عندى امر
رئيسى تتوقف عليه أشياء كثيرة ، ويرتبط به مصير أسرتى ؟ لا يا صديقى !
انك لا تعرف ايفولجين حق معرفته • من قال « ايفولجين » فقد قال
« صخرة » • « اعتمد على ايفولجين اعتمادك على صخرة » • ذلك ما كان
يُقال عنى منذ أن كنت فى فصيلة الفرسان أولَ عهدى بالجيش • وانما
ينبغى لى ، قبل أن نذهب الى هناك ، أن أمر مروراً عابراً بمنزل ألفت منذ
بضع سنين أن أريح فيه نفسى قليلاً بعد الشدائد والمحن

- أتريد أن تمر اذن بمنزلك ؟

- لا بل أريد أن أذهب الى الكابينة تيرتيف ، الى أرملة الكابتن
تيرتيف ، مرئوسى القديم بل وصديقى فعند الكابينة انما تتبعت
نفسى ، وهناك انما أرمى نوائبى وأحزاني العائلية • واذ كنت أجد نفسى
اليوم أزرخ تحت وطأة عبءٍ روحى ثَقيل ، فاننى
دمدم الأمير يقول :

- أظن اننى قد ارتكبت حماقة كبرى حين أزعجتك ثم انك
الآن استودعك الله !

صاح الجنرال يقول :

- مستحيل ، لا يمكننى أن أدعك تمضى هكذا يا صديقى الشاب !
هى أرملة ، هى ربة أسرة تعرف كيف تجد فى نفسها أوتاراً تهز كيانه
كله ! لن تطول زيارتى لها أكثر من خمس دقائق • أنا أُستقبل فى هذا
البيت بغير كلفة أو حرج ، حتى لكأننى فى بتى • سأرتاح بعض الراحة ،
وسأرتب زيتنى قليلاً ، ثم نمضى بعربة الى ميدان « المسرح الكبير » • ثق
بأننى فى حاجة اليك طوال السهرة • انظر • هذا هو المنزل • لقد وصلنا
آه كوليا أوصلت منذ الآن ؟ هل مارتا بوريسوفنا هنا ، أم أنت
وصلت فى هذه اللحظة ؟

أجاب كوليا وقد اصطدم بهما عند باب الفناء :
- أوه ! لا ! أنا هنا منذ مدة طويلة ، عند هيووليت • لقد ساءت
صحته مزيداً من السوء ، واضطر أن يرقد في الفراش هذا الصباح •
كنت قد نزلت لأشتري أوراق لعب •

واذ لاحظ كوليا حالة أبيه ، صاح يقول وهو يتفحص وضعه
ومشيته :

- ولكن ما هذا يا بابا ! الله الله ! الخلاصة ... هلمّ نصعد !
ان لقاء كوليا هذا دفع الأمير الى أن يتبع الجنرال في دخوله الى بيت
مارتا بوريسوفنا ، على ألا يمكث هنالك الا دقيقة واحدة • لقد كان الأمير
في حاجة الى كوليا • أما عن الجنرال فقد قرر الأمير أن يتركه على كل
حال ، وأصبح لا يغفر لنفسه أنه فكّر في الاعتماد عليه • وطال الصعود
حتى الطابق الثالث على سلم الخدمة •
سأل كوليا أباه أثناء صعود السلم :
- هل تنوى أن تعرّف بالأمير ؟

- نعم يا عزيزى ، سوف أعرفّ به : الجنرال ايفولجين والأمير
ميشكين ... ولكن كيف ... هي مارتا بوريسوفنا ؟
- هل تعلم يا بابا ؟ الأفضل ألا تذهب اليها • لسوف تلتهمك التهاماً !
انقضت على غيابك ثلاثة أيام ، وهى تنتظر أن تحمل اليها مالا • لماذا
وعدها بذلك ؟ هكذا أنت دائماً ، دبّر أمرك الآن !

وقفوا في الطابق الثالث أمام باب واطيء • كان الجنرال قد خارت
عزيمته وبارحته شجاعته ، فهو يدفع الأمير الى أمام ، محتثياً به • دمدم
يقول له :

- أنا سأبقى وراءك • أحب أن أحدث لها مفاجأة !

دخل كوليا أول الداخلين • وظهرت على الباب سيدة مثقلة الوجه بالحضاب ، ترتدى نعلين بالين وقميصاً فضفاضاً ، قد ضفرت شعرها غداً صغيرة ، وهي فى نحو الأربعين من العمر ، فما ان ظهرت حتى انعدمت المفاجأة التى أرادها الجنرال انعداماً • فانها ما كادت تلمحه حتى طفقت تشتم وتلعن قائلة :

- هذا هو ! هذا هو الوغد النجس الوقح ! قلبى حدثنى بأنه آتٍ • •
تمتم الجنرال قائلاً وهو يصطنع ابتسامة بريئة :
- فلندخل ، لا قيمة لهذا !

ولكن هذا لم يكن غير ذى قيمة • فما ان قطعوا حجرة المدخل المظلمة الواطئ سقفها ، فصاروا فى غرفة ضيقة أثنائها نصف دسته من كراسى القش ، ومائدتان للعب ، حتى استأنفت ربة البيت بكاءها تقول بلهجة دامعة مدروسة يبدو أنها مألوفة لها معهوده فيها :

- ألا تخجل أيها الهمجى ، أيها الطاغية المستبد الذى يسوم أسرتى سوء العذاب ، ايها الشرير الزنديق الكافر ؟ لقد نهبتنى ومصصت دمنى ، أفلا يكفئك هذا ؟ الى متى أظل أتحملك ، يا رجلاً بلا حياة ولا شرف ؟
جمجم الجنرال يقول مرتعساً محتاراً مفلول السلاح :

- مارتا بوريسوفنا ، مارتا بوريسوفنا ! هذا • • • هذا هو الأمير ميشكين • الجنرال ايفولجين والأمير ميشكين !
قالت الكابتينة فجأة تخاطب الأمير :

- هل تصدقنى اذا قلت لك ان هذا الرجل الوقح لم يرحم أولادى اليتامى ، لم يرأف بهم ، لم يشفق عليهم ؟ لقد سلب كل شئ ، أخذ كل شئ ، باعه أو رهنه ، ولم يترك لى شيئاً • ما عساي صانعةً بايصالات الدين هذه كلها أيها المحتال الماكر الذى لا ضمير له ؟ أجنبنى أيها الوغد ، أجنبنى

أيها الجشع الذى لا يشبع : بم أطعم أولادى اليتامى ؟ هكذا يجيء دائماً :
سكران حتى لكانه ميت من فرط السكر ، عاجزاً عن الوقوف على ساقية !
ماذا فعلتُ أنا حتى استحققت غضب الله ، أيها اللص الدنيء السافل !
أجبنى !

ولكن الجنرال كان عاجزاً عن الصمود أمام العاصفة • قال :

– مارتا بوريسوفنا ، خذى ••• هذه خمسة وعشرون روبلاً ••
هى كل ما أستطيعه الآن بفضل صديقى النيل جداً ! يا أمير ! لقد أخطأ
ظنى خطأ قاسياً ! هذه هى الحياة •••

ثم نأنا يقول بمشقة ، واقفاً فى وسط الغرفة ، مترنحاً الى جميع
الجهات :

– ولكن ••• اعذرني الآن ••• اننى أشعر بضعف ••• أرجو أن
تعذرني ! لينوتشكا ، عزيزتى ••• الى بوسادة !

أسرعت لينوتشكا * ، وهى صبية فى الثامنة من عمرها ، فجاءت
بوسادة وضعتها على الديوان المتهرى القاسى المنجد بقماش مشمّع •
فجلس الجنرال ، وكان واضحاً أن هناك أشياء كثيرة مايزال يريد أن يقولها •
لكنه ما ان مس الديوان حتى مال الى جانب والتفت نحو الحائط ونام نوماً
عميقاً • وبحركة فيها كثير من الاحتفال والتألم أشارت مارتا بوريسوفنا
للأمير الى كرسى قرب مائدة اللعب ، فجلس الأمير عليه ، وجلست هى
قبالة ، وأسندت خدها الأيمن الى يدها ، وأخذت تتهد وهى تتأمل الأمير
صامتة • واقترب من المائدة ثلاثة أولاد ، بنتان وصبى ، كبراهم لينوتشكا •
فوضعوا أيديهم على المائدة جميعاً ، وأخذوا يلاحظون الأمير بانتباه هم
أيضاً • وظهرو كولي ، خارجاً من الغرفة المجاورة •
قال له الأمير :

- يسعدنى جداً أنتى وجدتك هنا يا كولييا • فلعلك تستطيع أن تساعدنى • انتى فى حاجة الى أن أذهب الى ناستاسيا فيليوفنا حتماً • وقد طلبت من أرداليون ألكسندروفتش منذ حين أن يقودنى الى بيتها ، ولكن ها هو ذا قد نام • فهل لك أن تصحبنى الى هناك ، لأنتى لا أعرف الشوارع ولا الاتجاه ؟ لكننى أعرف العنوان : ميدان « المسرح الكبير » ، عمارة ميتوفزيفا •

- ناستاسيا فيليوفنا ؟ انها لم تقطن ميدان « المسرح الكبير » فى يوم من الأيام • ثم ان أبى لم يضع قدمه فى بيتها قط ، اذا أردت أن تعرف الحقيقة • غريب أنك ظننت أن فى وسعك أن تعتمد عليه • انها تسكن غير بعيد عن فلاديميرسكايا ، بشارع « الأركان الخمسة » • ان بيتها أقرب كثيراً من ميدان « المسرح الكبير » • الساعة الآن هى التاسعة والنصف • وانه ليسرنى أن أقودك الى مسكنها •

وسرعان ما خرج كولييا والأمير • واضطرا أن يمضيا سيراً على الأقدام ، لأن الأمير لم يكن قد بقى معه ما يدفع منه كراء عربة ، مع الأسف !

- كنت أود لو أعرفتك بهيوليت • انه الابن الأكبر لهذه الكابيتينة ذات القميص الفضفاض • لقد كان فى الغرفة المجاورة • انه مريض ، وقد ظل راقداً طوال هذا اليوم • لكنه فتى غريب الأطوار • هو سريع التأذى • وقد خيلَ الى أنه قد يخجل اذا أنت جئت فى مثل هذا الوقت أنا أقل شعوراً بالحرج منه • لأن الرجل أبى ، على حين أن المرأة أمه ، ولا عار يلحق بالذكر كالعار الذى يلحق بالأشى • قد يكون هذا خطأ من الأخطاء التى يرتكبها المجتمع فى أحكامه ، اذ يجعل لأحد الجنتين غلبةً على الجنس الآخر • ان هيوليت فتى رائع ، لكنه مستعبد لبعض الآراء الاجتماعية السائدة •

- قلتَ انه مريض بالسل ؟

- نعم ، وأعتقد أن من الخير له أن يموت بسرعة • لو كنت في مكانه
لتمنيت أن أموت حتماً • انه يرثي لحال أخيه وأخته • لو كان في وسعنا
أن نستأجر شقة مستقلة ، لو كنا نملك مالاً ندفعه أجراً لشقة مستقلة ،
لتركنا أسرتنا وعشنا معاً • هذا حلم لنا • هل تعلم انه غضب غضباً شديداً
حين قصصتُ عليه حالتك ؟ هو يزعم أن من الجبن والحقارة أن يتلقى
المرء صفةً ثم لا يدعو خصمه الى مبارزة • يجب أن نذكر أنه في درجة
من الحق كان لا بد لي معها من الانقطاع عن التحدث اليه • اذن دعتك
ناستاسيا فيليوفنا الى بيتها أنت أيضاً على الفور ؟
قال الأمير :

- لا ، لم تدعني •

فصاح كوليا قائلاً وهو يقف في وسط الرصيف :

- فكيف تستطيع اذن أن تذهب اليها ؟ لا سيما و ... أنت ...
ترتدى مثل هذا اللباس ، بينما هي تقيم حفلة فخمة ذات أبهة ؟
- حقاً لا أدري كيف سأستطيع أن أدخل • ان استقبلت كان بها ،
والا فلا • أما عن ملابسى ، فليس في يدي حيلة •
- ولكن هناك سبب يدعوك الى الذهاب ؟ أم تراك لا تبغى الا أن
« تقضى بعض الوقت » * في صحبة مجتمع محترم ؟

- لا ... الواقع أن ... أعنى ... هناك سبب يدعوني الى الذهاب
اليها حقاً • يصعب على أن أوضح ما بنفسى ، ولكن ...

- أما ما هو ذلك السبب ، فهذا أمر يخصك أنت ولا شأن لى به •
غير أن الشيء الذى يهمنى هو ألا تدعو نفسك ، بغير سبب ، الى سهرة
تضم هذه النخبة الفتانة من « غادات كانيليا » ، وجنرالات ، ومرابين •

فلولا أن هناك سبباً يدعوكم الى الذهاب ، اذن لسخرت منك واحتقرتك يا أمير ! معذرة ! ليس ثمة الا قلة من أناس شرفاء ، ولا يكاد يوجد أحد يستحق الاحترام . ان المرء مضطر أن ينظر اليهم من فوق ، ومع ذلك تراهم جميعاً يطالبون بالاحترام . وفي طبيعتهم فاريا . هل لاحظت يا أمير أن جميع الناس في عصرنا هذا مغامرون ؟ ولا سيما عندنا ، في روسيا ، في وطننا الحبيب ! أما كيف أمكن أن يحدث هذا كله ، فذلك ما لا أفهمه ! لقد كان كل شيء يبدو متين القواعد راسخ الأسس ، والآن ... ان جميع الناس يقولون هذا الكلام ويكتبونه في كل مكان ، ان جميع الناس يتهمون والآباء يتراجعون أول المتراجعين ، ويحمرّون خجلاً من عاداتهم القديمة وأخلاقهم الماضية . اليك هذا المثال : أبٌ بمدينة موسكو يوصى ابنه بأن « لا يصدّ شيء » في سبيل الحصول على مال * . تحدثوا عن هذا في الجرائد . انظر أيضاً الى أبى الجنرال ! انظر الى أين وصل ! ولكن هل تعلم ؟ يخجل الى أن الجنرال رجل شريف مع ذلك . أحلف لك ! الفوضى والشراب هما وحدهما أفسداه ! الأمر كذلك ، أوكد لك ! خسارة ! انتى أخاف أن أعلن هذا الرأى ، لأن الجميع يضحكون عليه ويسخرون منه . شيء مؤسف حقاً ! وبماذا يفضلهُ أولئك الأذكاء ؟ هم جميعاً مرابون ، جميعاً بغير استثناء ! ان هيبوليت لا يؤاخذ المراهين ولا يستكر عملهم . هو يزعم أن الربا ضرورة ، ويتكلم عن ايقاع اقتصادى ، وعن مد وجزر ، وما لا أدري أيضاً ! شيطان يأخذهم ! هذا يضايقنى كثيراً من هيبوليت ، ولكن هيبوليت حائق ! تصور ان أمه الكابيتنيه تأخذ مالا من الجنرال ، ثم تقرضه من هذا المال نفسه بالربا لأسبوع ! يا للعار ! وهل تعلم أن أمى ، أمى أنا ، أقصد نينا ألكسندروفنا ، الجنرالة ، ترسل الى هيبوليت أمتعة ومالا ، بل وتساعد بواسطته اخوته الصغار لأن أهمهم تهملهم ؟ وكذلك تفعل فاريا أيضاً .

— هانت ذا ترى بعينيك اذن يا كوليا ! أنت تزعم أن لم يبق هناك أناس شرفاء أقوياء ، وأن لم يبق هناك الا مرابون • فما قولك بأملك وما قولك بفاريا ؟ أليستا قويتين ؟ أليس دليلاً على قوة الخلق عند الانسان أن يساعد الناس في مثل هذه الظروف ؟

— ان فاريا تفعل ما تفعله جيداً للظهور وميلاً الى التفاخر ، حتى لا تكون دون أمها • أما أمي ••• فقولك عنها صحيح ••• انتى احترامها ؟ نعم انتى احترامها وأبرر سلوكها • حتى ان هيبوليت نفسه يشعر شعورى ، رغم أن عواطفه قد قست قسوة تامة • كان فى أول الأمر يسخر من أمي ويعد ذلك منها صفاراً وحطة ، أما الآن فقد أخذ يتأثر بعض التأثير أحياناً • هم ••• أنت تعد ذلك اذن قوة • سأسجل هذا • ان جانبا يجهله • ولو سئل لوصفه بأنه تشجيع على الرذيلة •

أفكت من الأمير قوله رغم ارادته ، بينما كان غارقاً فى أفكاره :
— ها ••• جانبا يجهله ؟ يخيل الى أن جانبا يجهل أشياء كثيرة أخرى !

قال كوليا :

— هل تعرف أنك تعجبني كثيراً يا أمير ؟ ان الحادث الذى وقع منذ ذلك الحين لا يبارح ذهنى •

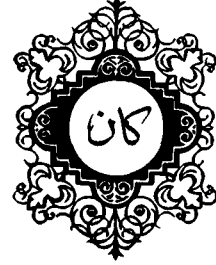
— أنت أيضاً تعجبني كثيراً يا كوليا •

— اسمع : على أى نحو تقدّر أن تعيش هنا ؟ أنا سوف أجد لنفسي عملاً بعد حين ، فأكسب بعض المال ، فاذا عشنا معاً ، أنت وهيبوليت وأنا ، كان فى وسعنا أن نكترى شقة وأن نستقبل الجنرال فى بيتنا ، فما رأيك ؟
— أقبل ذلك بسرور عظيم • على كل حال سوف نرى فى المستقبل •
أما الآن فأنا مضطرب ••• مضطرب جداً • ماذا ؟ وصلنا ؟ فى هذا المنزل ؟

... ما أفخمه مدخلاً ! حتى أن هناك سويسرياً • طيب !... لا أدرى
يا كوليا كيف يمكن أن تجرى الأمور •
كان الأمير مضطرباً حائراً ، حقاً !
قال كوليا يشجعه :

– سوف تقص على كل شيء غداً ! لا تدع للوجل سيلاً الى نفسك •
اسأل الله أن يمدك بعونه ، لأننى أشاركك جميع آرائك • استودعك الله •
أنا عائد الى هناك ، وسأروى هذا كله لهيوليت • أما أنهم سيستقبلونك ،
فكن من ذلك على يقين ، لا تخش شيئاً ! انها امرأة غريبة الطبع متفردة !
اصعد هذا السلم • البيت فى الطابق الأول • سيدلك عليه السويسرى •

الفصل الثالث عشر



الأمير أثناء صعوده السلم يشعر بقلق شديد ، ويحاول أن يستجمع شجاعته بكل ما يملك من قوة • وكان يحدث نفسه قائلاً : « اسوأ الاحتمالات ألا أُستقبل ، وأن يأخذوا عني فكرة سيئة ، أو أن يستقبلوني ليستهزئوا بي ويتهكموا عليّ » • • • طيب • • • لا بأس ! » • والواقع أن ذلك ليس ما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر • غير أنه لم يكن يجد جواباً مطمئناً عن هذا السؤال : « ماذا جاء يعمل هنا ، ولماذا جاء ؟ » • ذلك أنه حتى لو أتيح له أن يقول لئاستاسيا فيليوفنا : « لا تزوجي هذا الرجل ، لا تضيعي نفسك ، فهو لا يحبك ، وإنما يحب مالك وحده ، وأنه قال لي ذلك هو نفسه ، وإن أجلايا ايبانتشين قاله لي كذلك ، وانتي جئت لأنقل اليك هذه الحقيقة » ، فإن من المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحاً صادقاً من جميع الوجوه • وكان الأمير يلقي على نفسه سؤالاً آخر لا سبيل الى حله ، سؤالاً يبلغ من الخطورة أنه كان لا يجرؤ حتى على أن يفكر فيه ، ولا يستطيع أن يسلم به ، ولا يعرف كيف يصوغه • ولكن أية كانت شكوكه وأنواع قلقه ، فقد دخل أخيراً ، وطلب ناستاسيا فيليوفنا •

ان ناستاسيا فيليوفنا تشغل شقةً ان لم تكن واسعة جداً فهي مجهزة أحسن تجهيز • انها أثناء اقامتها ببطرسبرج مدة هذه السنين الخمس ، قد أغدق عليها آتانا زى ايفانوفتش اغداقاً كبيراً خلال فترة معينة في أول

الأمر • كان لا يزال يأمل أن يحافظ على حبها ، وكان لا يزال يموّل على أن يفتتها بالرخاء والترف ، لعلهم بأن الانسان يألف الرخاء والترف بسهولة كبيرة ، فيصعب عليه بعد ذلك أن يستغنى عنهما متى أصبحا ضرورة من الضرورات شيئاً بعد شيء • ولقد كان توتسكى وفيّاً للعادات القديمة لا يغير منها شيئاً ، وظل يؤمن بأن للحواس سلطاناً لا يقهر ، فهو لذلك يحترم هذا السلطان احتراماً لا حدود له • وكانت ناستاسيا فيليوفنا لا تكره الترف بل وتحبه ، لكنها - وهذا هو الشيء الغريب - لم تستعبد له ، حتى لكانها قادرة على أن تستغنى عنه في كل لحظة ؛ بل انها حاولت عدة مرات أن تعلن ذلك ، فدُهِش توتسكى وانزعج • على أن هناك أشياء كثيرة في ناستاسيا فيليوفنا كانت تدهشه وتسوؤه (حتى لقد بلغ بعد ذلك حدّاً احتقارها) • فالى جانب عامة الناس الذين كانت تحيط نفسها بهم أحياناً ، وهذا يكشف عن ميل طبيعي فيها ، أخذت تظهر لديها ميول أخرى غريبة كل الغرابة ، هى خليط وحشى عجيب من أذواق شتى تجعلها قادرة على أن تحب وتستعمل أشياء أو وسائل لا يمكن أن يقبل استعمالها انسانٌ أوتى حظاً من رقى النفس وعلو الثقافة • لعل آتاناڝى ايفانوفتش كان يمكن أن يفقه مثلاً أن يراها تتظاهر أحياناً بأنها تجهل جهلاً ساذجاً بريئاً أن الفلاحات الروسيات لا يلبسن ملابس داخلية من قماش الباتيسستا مثلما تلبس هى ؛ فلو فعلت لكان ذلك منها شيئاً جميلاً أخذاً • ان جميع الجهود التى بذلها آتاناڝى ايفانوفتش فى المرحلة الأولى من تربيتها وتعليمها انما كانت تهدف الى بلوغ مثل هذه النتيجة ، وفقاً للبرنامج الذى وضعه على أساس خبرته الواسعة العميقة • لكن ثمرات جهوده خيبت آماله واأسفاه ! ومع ذلك فقد بقى فى ناستاسيا فيليوفنا شيء يفرض نفسه على آتاناڝى ايفانوفتش ، هو تفرد نادر يفقته ويفريه ويفويه ،

وظل متسلطاً عليه مستبداً به ، حتى بعد أن تداعت جميع الآمال التي عقدها على هذه المرأة الشابة .

استقبلت الأمير خادمة (كانت ناستاسيا فيليوفا لا تستخدم الا نساء) فأصغت الى كلامه وهو يطلب منها أن تبلغ عنه ناستاسيا فيليوفا ، أصغت الى كلامه دون أن تظهر عليها أية حيرة ، فدُهِش الأمير من ذلك دهشةً كبيرة . فلا حذاء المتسخان ، ولا قبعة العريضة حوافها ، ولا معطفه الذي ليس له أكمام ، ولا هيئته المضطربة ، لا شيء من ذلك كله أحدث في نفسها أى تردد . وقد ساعدته فى خلع معطفه ، ورجته أن ينتظر فى حجرة المدخل ، وأسرعت تبلغ عنه فوراً .

كان المدعوون عند ناستاسيا فيليوفا هم أصحابها المألوفين . حتى لقد كان عدد الناس فى عيد ميلادها هذا أقل مما كان فى أعياد ميلادها السابقة . فمنهم أولاً وقبل كل شيء آتاناى ايفانوفتش توتسكى ، وايفان فيدوروفتش ايباتشين ، وكانا يُظهران كلاهما كثيراً من التودد والبشاشة ، ولكن كان يبدو عليهما مع ذلك نوع من قلق ثقيل سببه توقعهما الواضح المحرق الى أن يعرفا أخيراً ما وعدت به ناستاسيا فيليوفا من اعلان اجابتها فى موضوع جانبا . وكان هناك جانبا بطبيعة الحال . كان يبدو هو أيضاً قاتم المزاج كثير التفكير ، حتى انه من فرط ذلك يوشك أن يكون «قليل الأدب» ، فهو فى أكثر الأحيان معتزل منزو صامت . وهو لم يجزئ أن يصطحب فاريا ، ولكن ناستاسيا فيليوفا لم تلمع الى ذلك ولم تشر اليه ، بينما هى ، فى مقابل ذلك ، ما ان سلّمت عليه حتى ذكرته بالحادثة التي وقعت له مع الأمير . ولم يكن الجنرال ايباتشين قد علم بالأمر بعد ، لذلك أظهر اهتماماً وأصغى متنبهاً . فطفق جانبا عندئذ يقص ، بلهجة جافة وأسلوب متحفظ ولكن بصراحة مطلقة ، ما قد جرى بعد الظهر ، واضاف الى ذلك أنه قد مضى الى الأمير يستغفره .

وذكر في هذه المناسبة ، بحرارة وحماسة ، الرأي الذي ذهب الى أن الامير أبله ، فاستغرب ذلك الرأي استغراباً شديداً ، وقال انه يؤمن بنقيض هذا الرأي تماماً ، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن الأمير « رجل يعرف ماذا يريد » • وقد أصغت ناستاسيا الى هذا الرأي بكثير من الانتباه ، وكانت تلاحظ جانبا مستطلعة مستغربة •

لكن الحديث سرعان ما انحرف نحو روجوين الذي شارك في الحادث مشاركة رئيسية هو أيضاً ، وأثار هو أيضاً اهتمام آتاناى ايفانوفتش وايفان فيدوروفتش اثارة كبيرة • وقد اتفق أن استطاع بتسين أن يقل بعض المعلومات الخاصة عن روجوين الذي ظل حتى الساعة التاسعة من المساء تقريباً يسعى هنا وهناك لتنفيذ غرضه وتحقيق مآربه • لقد كان روجوين يصصر اصراراً شديداً على أن تُجمع له المائة ألف روبل في ذلك المساء نفسه •

قال بتسين أثناء حديثه :

– صحيح أنه سكران ، ولكن يبدو أن المائة ألف روبل ستُجمع له أخيراً ، مهما تكن المصاعب • كل ما هنالك اننى لا أدري هل يتم ذلك في هذا اليوم نفسه ، ولا أدري هل يكون المبلغ كاملاً • غير أن الذين يعملون في الأمر كثيرون ، فهناك كيندر ، وهناك تريبالوف ، وهناك بيسكوب •

وختم بتسين كلامه قائلاً :

– ان روجوين مستعد لدفع أية فائدة عن هذه القروض ، وذلك لأنه في سكرين ، سكر الحمرة وسكر فرحته الأولى •

هذه الأنباء كلها قد استقبلها الحضور باهتمام مكفهر بعض الشيء • وكانت ناستاسيا فيليوفا صامتة ، وكان واضحاً أنها لا تريد أن تفصح عن رأيها ؛ وكذلك جانبا من جهة أخرى •

لعل الجنرال ايباتشين كان فى قرارة نفسه أشد قلقاً من أى شخص آخر : ان الآلىء التى قدّمها فى النهار قد استقبلت بأدب فاتر وكياسة جامدة حتى لكأن شيئاً من سخريه كان يخالط ذلك الأدب وتلك الكياسة . وبين جميع المدعويين كان فردشتينكو مشرق المزاج مرحاً ، فكان يضحك ضحكاً مجلجلاً ، كما يحسن ذلك فى يوم عيد ، وكان ضحكه فى بعض الأحيان بغير مناسبة تدعو الى الضحك ، لا لشيء الا لأنه قد فرض على نفسه هذا الدور ، دور المهرّج . أما آتانازى ايفانوفتش الذى اشتهر هو نفسه بأنه محدث بارع لبق ، والذى كان فى السهرات الماضيه هو الذى يمسك زمام الحديث ويوجه دفته ، فانه فى حالة اضطراب ليست معهوده فيه .

وأما المدعوون الآخرون ، وعددهم قليل على كل حال ، فهم : معلم مدرسة عجوز يرثى المرء لحاله ، ولا يدرى الا الله لماذا دُعى الى هذه الحفلة ؛ وشاب فى ريعان الصبا لا يعرفه أحد من الحضور ، خجول خجلاً رهيباً ، صموت صمتاً عنيداً ؛ وسيدة جريئة فى نحو الأربعين من عمرها كانت فى الماضى ممثلة ؛ وسيدة شابة جميلة جمالاً رائعاً ، ترتدى ثياباً أنيقة أشد الأناقة غنية كل الغنى ، لكنها قليلة الكلام جداً .

كان هؤلاء جميعاً لا عاجزين عن تنشيط الحفلة فحسب ، بل كانوا عاجزين حتى عن العثور على موضوعٍ لحديث .

لذلك كان ظهور الأمير فى هذه الظروف أمراً مناسباً جاء فى محله وفى أوانه . ولئن أحدث الابلاغ عن وصوله شيئاً من الحيرة والبلبله ، ورسم على الشفاء ابتسامات دهشة ، لا سيما وأن الحضور قد أدركوا من امارات الاستغراب التى لاحت فى وجه ناستاسيا فيليوفنا أنها لم تكن قد خطر ببالها أن تدعوه قط ، فان ناستاسيا فيليوفنا ما لبثت بعد بادرة الاستغراب الأولى هذه أن أظهرت على حين فجأة رضى وارتياحاً بلغا من

القوة أن أكثر المدعويين أسرعوا يتهيأون لاستقبال الزائر الذى قادته المصادفة استقبالاً فرحاً مرحاً •

قال ايفان فيدوروفتش يختم كلامه :

- رغم أن براءته الساذجة هى التى تتحمل تبعة ذلك ، ورغم أن تشجيع ميول من هذا النوع أمر خطر على كل حال ، فليس سيئاً أن خطرت بباله فكرة المجيء الآن ، وان يكن ذلك شذوذاً ؛ حتى لقد يحمل الينا شيئاً من مرح ، اذا صدق ما أعرفه عنه •

وأسرع فردشتينكو يقول :

- ولا سيما أنه دعا نفسه بنفسه !

قال الجنرال يسأل بخشونة ، لأنه يكره فردشتينكو :

- أى خير فى هذا ؟

- عليه أن يدفع رسم الدخول !

- ما أمير اسمه ميشكين كرجل اسمه فردشتينكو !

بهذا أجاب الجنرال مندفعاً ، ولم يكن قد استطاع أن يعتاد أن تضمه هو وفردشتينكو سهرة واحدة يكونان فيها نديين •

أجاب فردشتينكو وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- على مهلك يا جنرال ! عليك أن تراعى فردشتينكو وأن تداريه •
ان لى هنا حقوقاً خاصة •

- ما هى هذه الحقوق الخاصة ؟

اتيح لى فى المرة الماضية شرف شرحها للمحفل • ومع ذلك يسرنى أن أكرر لسعادتك ما سبق أن شرحته • ان جميع الناس هنا يا صاحب

السعادة ، كما تستطيع أن تلاحظ ذلك ، يملكون فكراً ، أما أنا فمحروم من الفكر . ومن باب التعويض عن ذلك حصلت على إذنٍ بأن أقول الحقيقة ، لأن كل انسان يعلم أن الحقيقة لا تنتمي الا الى المحرومين من الفكر . أضف الى ذلك اننى أحب الانتقام ، ومرد هذا أيضا الى اننى محروم من الفكر . فأنا أحتمل الاساءات والاهانات مدعناً ، ما ظل الرجل الذى أساء الىّ وأهاننى محتفظاً بما له من حظوة ، حتى اذا بدت أولى علائم فقدته الخطوة ، تذكرت الاساءة أو الاهانة التى ألحقها بى ، فتأرت لنفسى ، فرفست ولبطت ، على حد التعبير الذى استعمله فى وصفى ايفان بتروفتش بتسين ذات يوم ، وهو رجل لا يرفس أحداً ولا يلبط أحداً قط . هل تعرف حكاية كيرلوف * « الأسد والحصار » يا صاحب السعادة ؟ هما نحن ، أنت وأنا ، يا صاحب السعادة ! لقد كتبت الحكاية عنا نحن .

قال الجنرال غاضباً :

- أراك تفرط مرة أخرى !

وكان فردشتينكو لا ينتظر الا هذا ليستم فى كلامه ، وليمضى الى أبعد من ذلك ، فاستأنف كلامه يقول :

- ما بك يا صاحب السعادة ؟ لا تقلق ! أنا أعرف مكانى يا صاحب السعادة . فاذا قلت اتنا ، أنت وأنا ، الأسد والحصار اللذان تحدثت عنهما الحكاية ، فمن المفهوم اننى أحتفظ لنفسى بدور الحمار ، بينما أنت الأسد يا صاحب السعادة ، كما ورد فى حكاية كيرلوف * :

**أسد قوى يهرب الغابات
فقد القوى اذ دب فيه الهرم**

فأنا الحمار يا صاحب السعادة .

أقلت من لسان الجنرال قوله بغير ترو ولا تبصر :

— في هذه النقطة ، أوافقك على رأيك !

ذلك كله كان فظاظة وغلظة طبعاً ؛ وكان واضحاً أنه ميّت ومقصود . غير أن فردشتينكو كان قد ملك الى الأبد حقّ أن يكون مهرجاً . حتى لقد صاح يقول في ذات يوم : « ثم انتي انما أَسْتَقْبِلُ هنا لهذا الغرض ، وانما يُحْتَفَظُ بي هنا لهذا الغرض ، أعني من أجل أن أتكلّم بهذه الطريقة . والا فهل يمكن أن يُسْتَقْبَلَ رجل مثلي ؟ أنا أفهم ذلك وأدركه ... هياً ! ... هل من المقبول أو من المعقول أن أوضع ، أنا فردشتينكو ، جنباً الى جنب مع سيد نبيل مرهف الفكر والشعور مثل آتانازى ايفانوفتش ؟ لا بد لي اذن أن أخلص من ذلك الى هذه النتيجة ، وهى أنتى لا تيسر لى هذا الا لأنه غير مقبول وغير معقول ! » .

ولكن فردشتينكو كان رغم عاميته وابتذاله يفلح أحياناً فى أن يكون لاذعاً جداً ؛ فكان ينبغي للذين يريدون أن يُسْتَقْبَلُوا فى دار ناستاسيا أن يتحملوا فردشتينكو . ولعل فردشتينكو قد أدرك منذ البداية أن ناستاسيا فيليوفنا اخذت تستقبله لأنه استطاع أن يزجج توتسكى منذ أول يوم . كما أن جانيسا قد تحمّل منه عذاباً لا نهاية له . فهذا المعنى عرف فردشتينكو أن يكون ذا نفع كبير وفائدة عظيمة لناستاسيا فيليوفنا .

قال فردشتينكو وهو يراقب بطرف عينه أثر كلامه فى ناستاسيا فيليوفنا :

— أما الأمير فسيأخذ يغنى لنا أغنية على الموضة .

فقال ناستاسيا فيليوفنا بخشونة :

— لا أظن ذلك يا فردشتينكو ، وأنا أنصحك بأن لا تندفع كثيراً .

- آ ... اذا كان ينعم بحماية خاصة ، فلم يبق علىَّ الا أن أكون رقيقاً لطيفاً ، وأن ...

لكن ناستاسيا فيليوفنا كانت قد نهضت دون أن تصفى الى كلامه ، ومضت تستقبل الأمير •

قالت وهى تظهر أمام الأمير فجأة :

- يؤسفنى اننى نسيت من تعجلى أن أدعوك منذ قليل • واننى ليسرنى جداً أن تهيبى لى بنفسك فرصة شكرك وتهنئتك على ما تملك من روح التصميم •

كانت وهى تتكلم تنظر الى الأمير بانتباه ، محاولة أن تفسّر لنفسها سبب مجيئه •

ولقد كان يمكن أن يردَّ الأمير على كلماتها اللطيفة ، لكنه كان مبهوراً مبهوراً فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة •

وقد لاحظت ناستاسيا فيليوفنا ذلك مسرورةً مبتهجة • لقد كانت فى ذلك المساء فى أبهى حلة وأجمل زينة ، وكان منظرها يحدث فى النفس أثراً قوياً •

أمسكت الأمير من يده ، وقادته الى حيث كان المدعوون • وقد توقف الأمير على حين فجأة قبيل دخول الصالون وأسرع يهمس فى أذنها منعلاً منعلاً شديداً :

- كل شئ فىك رائع كامل •• حتى نحولك وشحوبك •• لا يمكن أن يتمنى لك المرء غير هذا ••• لقد بلغت من قوة الرغبة فى المجيء اليك أننى ••• معذرة ••• سامحينى •••

قالت ناستاسيا فيليوفنا ضاحكة :

- لا تعتذر ، والا أفقدت بادرتك غرابتها وطاقاتها • كانوا على

صواب حين قالوا ان فيك غرابة وتفرداً • اذن أنت تعدنى رائعة كاملة ؟

- نعم •

- هنا أنت تخطيء ، رغم أنك تعدُّ أستاذاً فى فن الحزر والتنبؤ •
سأذكرك بذلك فى هذا المساء نفسه

وقد مت الأمير الى ضيوفها الذين كان أكثر من نصفهم قد عرفه من قبل • وسرعان ما وجد توتسكى شيئاً لطيفاً يقوله • وبدأ على الحفل شيء من الاتعاش ، وأخذوا جميعاً يتكلمون ويضحكون • وأجلست ناستاسيا فيليوفا الأمير الى جانبها •

صرخ فردشتينكو يقول وقد طفا صوته على جميع الأصوات :
- أى غرابة حقاً فى مجيء الأمير ؟ ان المسألة واضحة جلية •

فقال جانبا فجأة بعد أن ظل أخرس حتى ذلك الحين :

- بل المسألة واضحة كل الوضوح ، جلية كل الجلاء ! لقد ظلمت أراقب الأمير هذا اليوم بلا انقطاع تقريباً ، منذ اللحظة التى رأى فيها صورة ناستاسيا فيليوفا على مكتب ايفان فيدوروفتش • وانى لأتذكر تذكراً واضحاً أن فكرة قد قامت فى ذهنى حينذاك ، وترسخت الآن فى نفسى قوية ، حتى أن الأمير نفسه قد أسرَّ الىَّ باعترافات عنها ، أقول هذا عابراً

نطق جانبا تلك العبارة كلها بجهد كبير لا يخالطه أى مزاح ، حتى أن وجهه كان مكفهراً ، فأثار ذلك شيئاً من الدهشة •

أجاب الأمير يقول وقد احمر وجهه :

- أنا ما أسررت اليك بأى اعتراف ، ولم أزد على أن أجبتُ عن سؤال ألقيته أنت علىَّ •

أعول فردشتينكو يقول :

- مرحى ! مرحى ! هذا كلام فيه صدق على الأقل ، فيه صدق
وحذق •

وضحك الجميع مقهقهين • فقال بتسين بصوت خافت فيه اشمزاز :
- لا تصرخ هذا الصراخ يا فردشتينكو !

وقال ايفان فيدوروفتش :

- لم أكن أتوقع منك ، يا أمير ، « لمحات » من هذا النوع ، لمحات
لا يجيد مثلها الا ... الا ... لقد كنت أتصورك فيلسوفاً لا أكثر ! ألا
ان على المرء أن يخشى الماء الساكن !

- حين رأيت كيف يحمر الأمير احمرارَ فتاة بريئة لمزاحة بريئة ،
انتهيت الى أن هذا الشاب النيل يضرر قلبه أشرف النيات ويضم أجمل
المشاعر !

كذلك قال بل زازاً يقول على دهشة من الحضور كافة، معلم المدرسة
الأهتَم الذى يبلغ من العمر نحو سبعين عاماً ، والذى لبث صامتاً خلال ذلك
الوقت ، وكان لا يتوقع أحد منه أن ينطق بكلمة واحدة طوال السهرة •
فانطلقت الضحكات مجلجة مزيداً من الجلجلة • وظن المعجوز المسكين ان
الناس تضحك لنكتته الفكهة فأخذ يشاركهم الضحك وهو ينظر اليهم ،
حتى ألت به نوبة سعال شديد • وكانت ناستاسيا فيليوفنا تحب هذا النوع
من الرجال الشيوخ والنساء المعجائز الذين يتصفون بشئ من الغرابه
والتفرد والشذوذ ، بل كانت تحب حتى ضعاف العقول ، فأخذت تلاطفه
وتدله ، حتى لقد قبلته ، ثم أمرت بأن يُصبَّ له فنجان آخر من الشاي •
وطلبت من الخادمة أن تجيئه بخمارها فدثرت به وأمرت باضافة حطب الى
الموقد •

وحين سألت الخادمةَ عن الساعة ، أجابتها الخادمة بأن الساعة هي
العاشرة والنصف • فقالت ناستاسيا فيليوفنا مخاطبة الحفل •

- ألا تشربون شيمانيا أيها السادة ؟ لقد حضّرت الشيمانيا ، فعسى أن تجعلكم الشيمانيا أكثر مرحاً ؟ فارفموا التكليف ، أرجوكم

ان هذه الدعوة الى الشراب ، ولا سيما بعبارات تبلغ هذا المبلغ من السذاجة ، قد بدا صدورها عن ناستاسيا فيليوفنا غريباً كل الغرابة . ان الجميع يعرفون التقيد بالقواعد الصارمة والآداب الدقيقة التي كانت تسود حفلاتها السابقة . لقد اخذت السهرة تنتعش ولكنها فاقت في انتعاشها المؤلف في أمثالها . لم يرفض أحد الشيمانيا : قبلها الجنرال أولاً ، ثم السيدة المترجة ، فالشيخ المسكين ، ثم فردشتينكو ، ثم قبلها الجميع آخر الأمر . لقد قبل توتسكى ، هو أيضاً ، كأساً من الشيمانيا ، بغية أن يسبغ شيئاً من روح الدعابة اللطيفة على المجرى الجديد الذى جرت فيه السهرة . لكن جانبا وحده لم يشرب شيئاً . أما ناستاسيا فيليوفنا التى تناولت كأساً كذلك ، وأعلنت أنها ستشرب اثناء السهرة ثلاث كئوس على الأقل ، فقد كان من الصعب على المرء أن يفهم شيئاً من حركاتها المفاجئة العنيفة ، وضحكها المعصبي الذى لا موضوع له ، والذى تتخلله فترات تفكير متجهم صامت . قدّر بعضهم أنها تعاني من حمى . وبدءوا يلاحظون أخيراً أنها تنتظر هى نفسها شيئاً ما ، فهى تلقى نظرات كثيرة متكررة على ساعة الجدار ، وهى قد أخذ يظهر عليها نفاذ الصبر وشروء الفكر .

سألها السيدة الجريئة قائلة :

- كأنك تعانين شيئاً من حمى !

فأجابتها ناستاسيا فيليوفنا ، مصفرة الوجه فعلاً ، جاهدة أن تكبح ارتعادها :

- بل اننى اعانى حمى شديدة ، لذلك تدرت بخمادى .

فقامت من حولها حركة اضطراب وقلق .

اقترح توتسكى قائلاً وهو ينظر الى ايفان فيدوروفتش :

– ماذا لو تركنا مضيفتنا ترتاح ؟
فهتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول بالحاح ذى دلالة :
– لا ، أبداً أيها السادة ! أنا أصر على أن تبقوا • اننى لا أستطيع
الاستغناء عن وجودكم هذا المساء •

واذ كان جميع الضيوف تقريباً يعلمون سلفاً أن قراراً يبلغ مبلغاً
كبيراً من خطورة الشأن سيُتخذ فى أثناء هذه السهرة ، فقد بدت لهم
هذه الكلمات مثقلة بالمعاني • وتبادل الجنرال وتوتسكى نظرة جديدة •
وسرت فى جانبا رعشة •

قالت السيدة الجريئة :

– يستحسن أن تنظّم « لعبة صغيرة » •

فصاح فردشتينكو يقول متحمساً :

– أنا أعرف لعبة جديدة رائعة • هى على كل حال لعبة لم تُجرَب
الا مرة واحدة ، ثم لم تنجح !

سأله السيدة الجريئة :

– ما هى هذه اللعبة ؟

– اجتمعنا فى ذات يوم لفيفاً من الأصحاب • فلما شربنا قليلاً –
والحق يقال – اقترح أحدهم أن يقصّ كل واحد منا ، دون أن ينهض
عن المائدة ، قصة عن نفسه ، على شرط أن يكون فى قرارة ضميره مقتنعاً
بأن القصة التى سيرويها هى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته ، وعلى شرط أن
يكون صادقاً كل الصدق ، خاصة أن يكون صادقاً كل الصدق فلا يكذب
البته !

قال الجنرال :

– فكرة عجيبة !

- ليس هناك فكرة أعجب منها يا صاحب السعادة ، ولكن هذا نفسه سرٌ حسنٌها •

قال توتسكى :

- شئ مضحك ! لكنه مفهوم ! نوع مقلوب من التباهى والمفاخرة !

- لعل هذا بعينه هو ما كانوا ينشدونه يا آتاناى ايفانوفتش •

قالت السيدة الجريئة :

- امثال هذه اللعب تبكى أكثر مما تضحك !

قال بتسين :

- لعبة سخيفة !

سألت ناستاسيا فيليوفا :

- وهل نجحت اللعبة ؟

- لم تنجح ! جرت الأمور مجرى سيئاً ! صحيح أن كل واحد روى حكاية ، وذكر أموراً صادقة كثيرة ، حتى أن بعضهم كان يجد فى رواية قصته لذة - تصوروا ! - ولكنهم جميعاً شعروا بالحزى والعار آخر الأمر ، ولم يقولوا على متابعة اللعبة الى نهايتها ! يمكن أن نقول بوجه عام ان اللعبة كانت مسئّية ، ولكن فى بابها طبعاً !

قالت ناستاسيا فيليوفا وقد تحمست فجأة :

- يحسن حقاً أن نجرب ! حقاً يجب علينا أن نجرب هذه اللعبة أيها السادة ! اتنى لاحظ أننا لم نستطع حتى الآن أن نخلق جواً مرحاً فى هذا المساء ، ليت كل واحد منا يقبل أن يقص شيئاً ما ... من هذا النوع طبعاً ، اذا هو أراد ... فكل واحد حر ، هه ؟ ولعلنا نستطيع أن نمضى فى هذا الى آخر الشوط • على كل حال ، اللعبة طريفة جداً ! •

قال فردشتينكو :

- فكرة عبقرية ! غير أن السيدات معفيات ... السادة وحدهم هم الذين سيقصون !... وسنحدد دور كل واحد بالقرعة ، كما فعلنا في المرة السابقة ، هذا لا بد منه ! والذي لا يريد أن يروى حكاية ، له أن يتمتع طبعاً ... ولكن لا بد انكم توافقون على أن هذا لن يكون لطيفاً منه ! ليكتب كل واحد اسمه على ورقة أيها السادة ، ولنضع الأوراق كلها في قبة ، هنا ! وستولى الأمير سحب الورقة واحدة بعد واحدة بالقرعة . مهمتكم بسيطة جداً . على كل واحد منكم أن يقصّ قصة أسوأ فعل ارتكبه في حياته . وهذا سهل جداً أيها السادة ! سوف ترون ! حتى اذا لاحظت في ذاكرة أحدكم توائماً ، توليت أنا تنشيطها !

كانت الفكرة مستهجنة فلم ترض أحداً . فبعضهم تقطبت حواجبهم واكفهرت وجوههم ، وبعضهم رسموا على شفاههم ابتسامات ساخرة . واحتج بعض آخر ، ولكن دون الحاح شديد ، مثل ايفان فيدوروفتش الذي كان لا يريد أن يُسَخَط ناستاسيا فيليوفنا والذي كان قد لاحظ مدى افتتانها بهذه الفكرة الغريبة ، ربما لما تتصف به هذه الفكرة من غرابة توشك أن تكون استحالة . ولقد كانت ناستاسيا فيليوفنا امرأة لا ينشئ عزمها ولا تتراجع عن رغباتها متى قررت أن تظهر هذه الرغبات ، ولو كانت نزوات شاذة وبدوات لا تجديها نفعا . وانها الآن لفي حالة تكاد تكون هسترية ، فهي تتحرك كثيراً وتضطرب اضطراباً شديداً وتضحك ضحكاً تشنجياً ، ولا سيما في الرد على ما كان يديه توتسكى من احتجاج قلق . كانت عيناها القائمتان تسطعان ، وقد ظهرت على خديها الشاحين بقمتان حمراوان . ولعل ما في وجوه بعض المدعويين من تعجبهم

واشمئزاز كان يزيد ضرام رغبتهما الساخرة فى ازعاجهم ؛ ولعل ما كان يرضيها فى تلك الفكرة التى اقترحها فردشتينكو انما هو استخفافها واستهتارها وقسوتها • حتى لقد أيقن بعضهم أن ناستاسيا فيليوفا تبيّت نيةً ما • على أن الحضور قد قبلوا الاقتراح أخيراً ، فالفكرة طريفة شائقة على كل حال ، وهى بالنسبة الى بعضهم مغرية أشد الاغراء ، وكان فردشتينكو أكثر الحضور نشاطاً وحركة •

قال المراهق الصموت سائلاً فى خجل :

- فماذا لو كانت القصة يستحيل على المرء أن يرويها ••• بحضور سيدات ؟

فأجابه فردشتينكو قائلاً :

- ما عليك فى هذه الحالة الا أن تمتنع عن روايتها • يا للشباب الساذج ! لكانه لا يوجد أفعال أخرى سيئة كثيرة !

قالت السيدة الجريئة صائحة :

- أما أنا فلا أدري ماذا أختار من بين أفعالى السيئة !

فعاد فردشتينكو يكرر :

- النساء معفيات من ضرورة رواية شئ • لكنهن معفيات فحسب • أما من شئت منهن أن تذكر شيئاً من وحى ذاتها ومن تلقاء نفسها ، فلها أن تفعل ذلك مشكورة • والرجال أيضاً معفون اذا أزعجتهم هذه اللعبة كثيراً •

سأل جانيا :

- ولكن كيف أبرهن على أننى لا أكذب ؟ اذا كذبت فقدت اللعبة كل معناها • ومن ذا الذى يمكن ألا يكذب ؟ ان كل واحد سوف يكذب ، هذا أكيد !

صاح فردشتينكو يقول فى نوبة من حماسة شديدة :

- يكفى أن نرى أحد الأشخاص يكذب حتى نشعر من هذا وحده بمتعة • أما أنت يا جانيتشكا فليس لك أن تخشى الكذب حقاً ، لأن الفعل الذى هو أسوأ ما ارتكبت فى حياتك من أفعال سيئة يعرفه الجميع منذ الآن • تصوروا كذلك أيها السادة ، تصوروا بأى عين سينظر كل منا الى الآخر غداً بعد جميع القصص التى سنرويها !

سأل توتسكى بوقار وحرصاته :

- أهذا ممكن ؟ أهذا جدُّ حقاً يا ناستاسيا فيليوفنا ؟

قالت ناستاسيا فيليوفنا ساخرة :

- من يخشى الذئب لا يذهب الى الغابة ! *

وعاد توتسكى يقول ملحاً ، بينما كان قلبه يزداد ويشتد شيئاً

بعد شئ :

- لكن اسمح لى يا سيد فردشتينكو : كيف يمكن أن تجعل من هذه اللعبة لعبة مجتمع ؟ أؤكد لك أن الألعاب التى من هذا النوع لا تنجح أبداً • ولقد قلت أنت نفسك ان هذه اللعبة لم تنجح مرة •

- كيف لم تنجح ؟ ألم أفصص فى المرة الأخيرة كيف اتفق لى أن سرقت ثلاثة روبلات ؟ ألم أفصص ذلك ؟

- صحيح • ولكن لم يكن فى وسعك أن تقص القصة على نحو يظهرها صادقة ، فيصدقك المستمعون ، أليس كذلك ؟ لقد ذكر جبريل أرداليونتش منذ هنيهة - وهو فى ذلك على صواب - أنه يكفى أن يشم المستمع رائحة كذب فى القصة حتى تفقد اللعبة معناها • ان الحقيقة غير ممكنة هنا الا بالمصادفة ، أو بنوع فاسد من حب الظهور لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره فى هذا المكان •

صاح فردشتينكو قائلاً :

- يا لك من رجل مرهف الفكر لطيف الحس حقاً ! انك لتثير دهشتي يا آتاناڙى ايفانوفتش . انظروا ايها السادة : انه حين نبه الى اننى لم أستطع أن أتحدث عن سرقتى على النحو الذى يجعلها تشبه الحقيقة قد أفهمنا بالطف أسلوب وأنعم طريقة أننى فى الواقع لم يكن فى امكانى أن ارتكب جريمة السرقة (اذ ليس من اللائق أن يتحدث المرء عن مثل هذه الأمور) ، رغم أنه ربما كان فى قرارة نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن فردشتينكو يمكن أن يسرق ! ولكن هلموا يا سادتى هلموا : أصبحت الأسماء فى القبة ، ومنها اسمك أنت ما آتاناڙى ايفانوفتش ، فالجميع اذن موافقون . ابدأ يا أمير !

أعطس الأمير يده فى القبة دون أن يقول شيئاً ، وأخرج منها أول ورقة فكانت ورقة فردشتينكو ، ثم سحب الثانية فكانت ورقة بتسين ، ثم سحب باقى الأوراق واحدة بعد واحدة ، فكانت الثالثة ورقة الجنرال ، وكانت الرابعة ورقة آتاناڙى ايفانوفتش ، وكانت الخامسة ورقة هو ، وكانت السادسة ورقة جانيا ، الخ . ولم تكن السيدات قد وضعت فى القبة أوراقاً .

هتف فردشتينكو يقول :

- يا لسوء حظى ! لقد كنت آمل أن يخرج اسم الأمير أول اسم ، وأن يخرج اسم الجنرال بعده ! من حسن الحظ على كل حال أن اسم ايفان بتروفتش يأتى بعد اسمى ، فهذه مكافأة لى أو تعويض على . واضح اذن يا سادة أننى أنا الذى يجب ان أكون القدوة الحسنة فى هذه اللعبة ، ولكن ما يؤسفنى أكثر من أى شئ آخر فى هذه اللحظة هو اننى امرؤ تافه كبيراً وأننى لا أتميز بشئ ، فحتى رتبتي ليس لها أى شأن . ما قيمة أن يكون فردشتينكو قد ارتكب عملاً سيئاً فى الواقع ؟ وماهو أسوأ أعمالى ؟

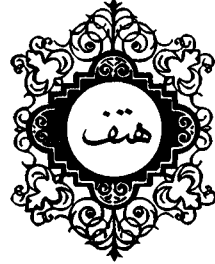
حقاً انه ليصعب على الاختيار ! اللهم الا أن أقص حكاية السرقة تلك نفسها ، فأبرهن لآنانازى ايفانوفتش أن من الممكن أن يسرق المرء دون أن يكون لصاً .

- لقد استطعت أن تقنعنى أيضاً يا سيد فردشتينكو أن من الممكن أن يجد المرء متعة ولذة فى أن يروى قصص أعمال قذرة ، حتى دون أن يكون أحد قد طلب منه ذلك . على كل حال ... معذرةً يا سيد فردشتينكو !

قالت ناستاسيا فيليوفنا تحسم الموقف بلهجة فيها تملل وانزعاج :
- ابدأ يا فردشتينكو ! لقد أسرفت فى التطريز والتوشية حتى لتكاد لا تفرغ من ذلك !

ولاحظ الجميع أنها بعد نوبة الضحك الأخيرة التى اتابتها ، قد ارتدت فجأة الى نوع من الحذر المتجهم ، وانها أصبحت أسهل استشارة وأسرع احتياجاً . ولكنها ما تزال تصرُّ على تنفيذ نزوتها بالحاح عنيد مستبد . كان آنانازى ايفانوفتش فى مثل الجحيم عذاباً . وقد أحققه كذلك موقف ايفان فيدوروفتش الذى كان يحتسى كأس الشمبانيا هادئاً ، ولعله كان عازماً على أن يقصَّ قصةً متى جاء دوره .

الفصل الرابع عشر



فردشتينكو يقول :

- أنا انما أثرت كثيراً لأننى يعوزنى الفكر .
ولكنى سأبدأ . لو كان لى فكر كفكر آتاناى
ايفانوفتش أو ايفان فيدوروفتش ، للبت أنا
أيضاً صامتاً ساكناً طوال السهرة كلها . يا أمير ، اسمح لى أن أسالك
هل توافقنى على هذا رأى : يخيل الىّ أن عدد اللصوص فى العالم أكبر
من عدد غير اللصوص ، حتى لقد يمكن القول انه ما من انسان لم يسرق
طوال حياته شيئاً ما . هذا انطباع شخصى ، لا أستتج منه مع ذلك أن
ليس فى العالم الا لصوص ، رغم أن القول بهذا رأى كثيراً ما أغراني ،
أعترف لك بذلك . فما رأيك أنت ؟

قالت داريا ألكسيفنا (السيدة النشيطة الجريئة) :

- ما أسخف هذا الكلام ! ما أغبى هذا الهذر ! ليس ممكناً أن يكون
جميع الناس قد سرقوا شيئاً ما . أنا لم أسرق شيئاً فى يوم من الأيام .
- أنت لم تسرقى فى يوم من الأيام يا داريا ألكسيفنا ، ولكن ماقول
الأمير الذى أرى أنه احمر وجهه ؟

قال الأمير وكان قد احمر وجهه فعلاً :

- يخيل الىّ أنك على حق فيما تقول ، ولكنك تبالغ كثيراً .

- ولكن ألم تسرق أنت نفسك شيئاً ما فى يوم من الأيام يا أمير ؟
تدخل الجنرال يقول :

- كلام مضحك سخيف ! هلاً فكرت فيما تقول يا سيد فردشتينكو؟
وقالت داريا ألكسيفنا حاسمة :

- أمرك بسيط : انك حين أخرجت خجلت أن تروى شيئاً ، لذلك
تحاول أن تجر الأمير معك ، لأنه لا يملك عن نفسه دفاعاً •
قالت ناستاسيا فيليوفا بشدة وفسوة :

- فردشتينكو ! لك أن تقصّ أو أن تسكت • ولكن لا تهتمّ الا
بنفسك ؟ لقد أخذت تفقدنى صبرى !

- حالاً يا ناستاسيا فيليوفا • ولكن ما دام الأمير قد اعترف (وانى
لألح على هذه النقطة ، لأن ما قاله انما هو اعتراف حقاً) ، فأنا أَسْأَلُ
عما عسى أن يقصه علينا شخص آخر (لا أَسْمِيهِ) اذا هو أراد أن يقول
الحقيقة يوماً • أما أنا أيها السادة ، فالحق أن ما سأرويهِ لكم ليس شيئاً
كثيراً ، فهو بسيط غاية البساطة ، وهو عدا ذلك غيبى وبشع • لكننى أؤكد
لكم مع ذلك اننى لست لصاً ، واننى ارتكبت فعل السرقة ذاك دون أن
أدرى لماذا ! لقد حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، فى فيلا صديق من
الأصدقاء ، هو سيمون ايفانوفتش اشتينكو، يومَ أحد • كان عنده ضيوف •
فلما انتهى الغداء بقى الرجال يتجاذبون أطراف الحديث أمام كأس •
وخطر ببالي أنا أن أطلب من ماريا سيمونوفنا ، ابنة صاحب الدار ، أن
تعزف لنا شيئاً على البيانو • فلما اجتزت احدى الغرف لمحت على منضدة
عمل ماريا ايفانوفنا ورقة نقدية خضراء بثلاثة روبلات لا شك أنها كانت
قد أخرجتها لحاجة من حاجات الدار • لم يكن فى الغرفة أحد • تناولت
الورقة ودسستها فى جيبي • لماذا ؟ لا أدرى ! اننى لا أعرف السبب الذى

لعله دفعنى الى ذلك • ولكننى أسرعرت أعود الى المائدة • ولبت هنالك أنظر ، منفلاً بعض الانفعال • كنت أثرثر بلا توقف ، وأروى فكاهات ، وأضحك • ثم جلست قرب السيدات • وبعد انقضاء قرابة نصف ساعة ، لوحظ اختفاء الورقة النقدية ، فسُئل عنها الخدم • وحامت الشبهة حول داريا ، الخادمة • أظهرت كثيراً من الاهتمام والاستطلاع ، وشاركت فى الاستجابات ، حتى لأتذكر اننى ، حين ارتبكت داريا ارتباكاً تاماً ، أخذت أقنعها بضرورة الاعتراف ، وحلفت برأسى لأضمن لها تسامح ماريا ايفانوفنا ، وذلك على مسمع ومرأى من جميع الحضور • فكان هؤلاء ينظرون الىّ ، وكنت أشعر بلذة عظيمة من تدفقى فى الكلام والوعظ بينما الورقة النقدية فى جيبى • وفى مساء ذلك اليوم نفسه شربت بالمال خمرة فى أحد المطاعم : دخلت فأمرت لنفسى بزجاجة من خمر «لافيت» • لم يحدث قبل ذلك أن طلبت زجاجة على هذا النحو دون أن آكل شيئاً • ولكننى كنت أستعجل اتفاق ذلك المال • على أننى لم أشعر بأى ندم خاص ، لا فى ذلك الحين ، ولا بعده • ولا أعتقد أن فى امكانى أن ارتكب ذلك الفعل مرة أخرى • صدّقونى : ان الأمر لا يهمنى • انتهت القصة • هذا كل شئ •

قالت داريا الكسيفنا مشمزة :

– لكننى أعتقد أن هذا العمل ليس أسوأ عمل ارتكبته فى حياتك طبعاً !

وعقب آتاناازى ايفانوفتش :

– بل ليس هذا عملاً وانما هو حالة نفسية مرضية •

وسالت ناستاسيا فيليوفنا دون أن تحاول اخفاء تقززها :

– وماذا جرى للخادمة ؟

- طردوها منذ الغد طبعاً • ذلك بيت شديد لا يتهاون في أمر كهذا
الأمر !

- وتركت لهم أن يطردوها ؟

- هه ! فهل كنتم تريدون اذن أن أثنى بنفسى واعترف بفعلتى ؟
بذلك أجب فردشتينكو ، وقد دُهِش ، على كل حال ، من الأثر
السئ الذى أحدثته قصته فى نفوس الحضور •
هتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول :

- ما أقدر هذا العمل !

- هوه ! أطلبون من انسان أن يروى أسوأ فعل ارتكبه فى حياته
ثم تريدون أن يكون هذا الفعل ناصعاً مثالقاً ؟ ان أسوأ الأفعال قدر دائماً
يا ناستاسيا فيليوفنا • لسوف يثبت لنا ذلك ايفان بتروفتش بعد قليل • ثم
ان كثيراً من الناس يظهرون بمظهر باهر ، ويوهمون بأنهم مثال الفضيلة
لأنهم يملكون الثراء ! وما أكثر الذين يملكون الثراء فى هذه الأيام !
ولكن ليتنا نعرف الوسائل التى استعملوها للوصول الى ذلك ••• انهم
لا يتورعون عن شيء ، ولا يتخرجون من شيء !

الخلاصة أن فردشتينكو قد خرج عن طوره ، وأصبح سليط اللسان
ناسياً نفسه متجاوزاً كل حد • ان كثرة خيثة تجعد الآن وجهه • لعله
كان يتوقع أن تحدث قصته فى نفوس سامعيه أثراً غير هذا الأثر تماماً ،
مهما بيد توقعه هذا غريباً • ان هذا النوع من « الزلات » الرديئة
و « التباهى الخاص » ، على حد تعبير توتسكى ، أمر مستمر مألوف عند
فردشتينكو ، وهو يناسب طبعه ، ويعبر عن خلقه •

ارتعدت ناستاسيا فيليوفنا غضباً ، وحدقت اليه بنظرة ثابتة ، فسرعان

ما استولى عليه رعب شديد ، فصمت وقد جمده الخوف من أن يكون قد أسرف قليلاً .

قال آتاناڝى ايفانوفتش يقترح متهمكاً :

– ألا نحسن صنعاً اذا نحن اكتفينا بهذا ؟

فقال بتسعين :

– هذا دورى أنا ، لكننى أستعمل حقى فى الرفض ، فلا أروى شيئاً .

– ترفض ؟

– لا أستطيع يا ناستاسيا فيليوفا . ثم اننى اعد مثل هذه اللعبة غباوة

وحماقة !

قالت ناستاسيا فيليوفا وهى تلتفت نحو ايباتشين :

– يا جنرال ، أعتقد أن الدور دورك الآن . فاذا امتعت أنت أيضاً

فقد انهارت لعبتنا كلها ، ولسوف يؤسفنى ذلك كثيراً ، لأننى أنوى أن

أقص فى الختام قصة عمل مأخوذ « من حياتى أنا » . لكننى لا أريد أن

أفعل ذلك قبلك وقبل آتاناڝى ايفانوفتش ، اذ لا بد أن تشجعانى .

قالت ناستاسيا فيليوفا جملتها الأخيرة هذه ضاحكة . فهتف الجنرال

يقول بحرارة وحماسة :

– أوه ! اذا كنت أنت تعدين بذلك ، فاننى مستعد أن أروى لك قصة

حياتى كلها . وأعترف لك باننى قد هأت قصة أحكيها متى جاء دورى .

تجراً فردشتينكو فقال وهو ما يزال خجلاً بعض الشيء ، لكنه

يتسم ابتسامة وقة مع ذلك :

– يكفى أن يراك المرء يا صاحب السعادة حتى يحزر ما شعرت به

من لذة أدبية فى سبك قصتك .

وألقت ناستاسيا فيليوفا على الجنرال ، هى أيضاً ، نظرة خاطفة ،

وابتسمت • ومع ذلك كان يستطيع المرء أن يرى أن أعصابها كانت تزداد
توتراً ، وأن اضطرابها كان يزداد شدة • وارتعش آتانا زى ايفانوفتش
حين علم أنها ستقص ، هي أيضاً ، حكاية ما •
بدأ الجنرال كلامه فقال :

– لقد اتفق لى ، أيها السادة ، كما يتفق لكل انسان ، أن ارتكبت
فى حياتى أفعالاً لا توصف بأنها أنيقة جداً ، ولكن أغرب ما فى الأمر
أننى أعد القصة القصيرة التى سأرويها لكم الآن هى أسوأ فعل اقترفته فى
حياتى • صحيح أن خمسة وثلاثين عاماً على وجه التقريب قد انقضت على
حدوث تلك القصة ، ولكننى لم أستطع قط أن أحرّر ذاكرتى من ذلك
الانطباع الذى يقبض صدرى • هى حكاية غيبة جداً على كل حال • كنت
لا أزال أيامئذ فى الجيش برتبة مرشح ؛ وانكم لتعرفون ما المرشح : دم
يفلى ويفور ، وجيب خالٍ الا من قروش معدودة • وكان لى تابع اسمه
نيكيفور يهتم بالقيام بأعباء البيت اهتماماً شديداً ؛ فهو يوفر ويقتصد ،
ويرتق ويرقّع ، ويمسح الأرض ويلمّع البلاط ، بل هو يسرق من كل
مكان كل ما يتاح له أن يسرقه خلسةً ليزيد به رزقى • كان يمتاز بأمانة
تامة واستقامة نادرة وشرف لا يضارع • أما أنا فكنت فى معاملته الرجل
الذى يوصف بأنه قاس ، ولكنه عادل • ولقد بقينا فى الحامية مدة من الوقت
بمدينة صغيرة • كنت قد أُعطيت بطاقة سكنى فى ضاحية من الضواحي ،
عند أرملة ملازم ثانٍ محال على التقاعد • هى عجوز قصيرة فى الثمانين
من عمرها أو فى نحو ذلك • وكان بيتها الحشبي يشبهها بلى وتداعياً
وتهديماً ، وكانت تبلغ من الفقر أنها ليس عندها حتى خادمة تساعد فى
أعمال البيت • غير أن الشيء الذى تتميز به خاصةً هو أنها كان لها فى
الماضى أسرة كبيرة العدد وأقرباء كثيرون • وتعاقت السنون فبعضهم ماتوا
وبعضهم سافروا أو نسوها • أما زوجها فكانت قد دفنته منذ ما يقرب من

خمسـة وأربعين عاماً • وقد احتفظت خلال مدة طويلة بفتاة حذاء هي بنت أختها ، وكانت الفتاة فيما يروى عنها شريرة خبيثة كساحرة ، حتى لقد عضت خالتها في اصبعها ذات يوم ، لكن الفتاة ماتت آخر الأمر هي أيضاً ، فأصبحت المعجوز تدبر أمورها بنفسها وحيدة منذ ثلاث سنين • وكنت أشعر عندها بضجر شديد وسأم قوى ، فليس ثمة ما يمكن أن أعقد عليه أملاً • وأخيراً سرقت من دجاجي في ذات يوم ديكاً • وظل الأمر غامضاً ، ولكن لا يمكن أن يكون السارق أحداً غيرها • وقد تشاجرنا تشاجراً عنيفاً في موضوع الديك ، واستطعت بعد ذلك بمدة قصيرة أن أحصل على إذن بتغيير مسكني تلبيةً لطلبي ، فأرسلت الى ضاحية أخرى عند بائع طويل اللحية غفير الذرية • اننى أتذكر هذا كأنتى أراه اليوم • انتقلنا أنا ونيكفور فرحين ، وتركنا المعجوز لحزبها وعارها • وبعد ذلك بثلاثة أيام ، عدت الى البيت من التدريب فبادرنى نيكفور بقوله : « لقد أخطأت ، سيادتك ، اذ تركت للمعجوز وعاء الحساء ، فانتى لم يبق عندى وعاء أصب فيه الحساء » • فتجمدت من الدهشة طبعاً وقلت : « كيف تركنا لها وعاء الحساء ؟ » ، وأخذ نيكفور يشرح لى الأمر ، فتبين أن المعجوز قد رفضت عند رحيلنا أن تردّ اليه وعاءنا ، زاعمة أنها تحتفظ به بدلاً عن آنية كنت قد كسرتها لها ، وأننى أنا الذى اقترحت عليها ذلك • فلما شرح لى نيكفور ذلك ، فار دم « المرشح » فى عروقي طبعاً ، بسبب حقارة هذه المرأة وصغارها ، فاذا أنا أثب وأطير ؛ فما وصلت الى المعجوز حتى كنت خارجاً عن طورى ، ووجدتها جالسة فى المدخل وحدها ، لا طية فى ركن من الأركان كأنما لتحتمى من الشمس ، مسندةً خدها الى يدها • فنزلت عليها نزول الصاعقة ، وأخرجت لها كل ذخيرتى من الشتم والسب : « يا كيت وكيت ! » ••• على الطريقة الروسية ••• هل لاحظتم ؟ لكنها بدت لى غريبة عجيبة : فهى ما تزال جالسةً أمامى تحدّق الى بعينيها

الجاحظتين دون أن تحييني بكلمة واحدة ، وما تزال نظرتها غريبة غرابة شديدة ، وكأنها كانت ترجع قليلاً . وهدأتُ أخيراً ، ونظرت إليها ، وسألتها ، فطلت صامتة لا تجيب . فلبثت متحيراً من هذا الصمت ، في جو هذه الشمس الغاربة وهذا الذباب المدندن ؛ ثم اضطربت أخيراً ففعلت راجعاً . وقبل أن أصل الى دارى استدعيت الى القيادة ، واضطرت أن أمرّ بسرّيتي ، ثم لم أعد الى بيتي الا في الليل . فكانت الكلمات الأولى التي بادرني بها نيكيفور هي : « هل تعلم ، سيادتك ، أن صاحبة البيت ماتت منذ قليل ؟ » فسألته : متى ؟ فقال : اليوم في هذا المساء ، ربما منذ ساعة ونصف ساعة . اذن فقد ماتت لحظة كنت أغرقها بالشتائم والسباب ! بلغتُ من قوة الشدّة انني لم أثب الى رشدى الا بعد وقت . أصبحت المعجوز لا تفارق فكّري ، حتى لقد حلمت بها في الليل . صحيح انني امرؤ لا أومن بالخرافات ولا أتطير ، ولكنني ذهبت في اليوم الثالث أشيّع جنازتها واحضر دفنها . وصرت مع مضي الزمن أفكّر في هذه القصة مزيداً من التفكير . لا أزعم أن هذه القصة قد احتلت فكّري كله ، ولكنني أقول انها كانت تنبثق في ذهني على حين فجأة ، فأشعر بانزعاج واضطراب . وفهمت أخيراً ما الذي كان يفجؤني أكثر من أى شيء آخر : هذه امرأة ، أو قل بلفة هذا العصر ذى النزعة الانسانية : هذه كائن حي ، عاشت زمناً طويلاً حتى نسيها الموت . ولقد كان لها في الماضي أولاد ، وزوج ، وأسرة ، وأقرباء . وكان ذلك كله يغلى ويفور من حولها ان صح التعبير ، وكانت تحوطها ابتسامات من كل صوب ؛ وفجأة لم يبق من ذلك كله شيء ، وغاب بما يشبه أن يكون ضربة سحر ، فاذا هي تبقى وحيدة مثل . . . مثل ذبابة خريف ، كأنها تحمل على ظهرها لعنة العصر . وقادها الله أخيراً الى نهايتها ، فطارَتْ هي أيضاً في ذات مساء لطيف من أماسي الصيف عند غروب الشمس . هذه فكرة زاخرة بالعبر طبعاً . ولكن

المرشح الشاب ، بدلاً من أن يغمرها بالدعوات وبدلاً من أن يذرف العبرات ، يضع يديه على خاصرتيه ، وينفخ صدره ، ويمطر العجزو المحتضرة بوابل من الشتائم المقدعة ثاراً لنفسه ، لأنها سلبته وعاء الحساء . لا شك في أنني أثمت ، ذلك أمر لا جدال فيه . ورغم أنني أصبحت منذ زمن طويل أعداً ذلك الفعل غريباً عني ، لتقدم العهد أولاً ، ولتغير طبعي ثانياً ، فما زلت أشعر بأسف وحسرة ، حتى أنني أدعش من ذلك ، لا سيما وأنني ان كنت آتماً ولا شك ، فلست آتماً كل الأتم : فما الذي حملها على أن تموت في تلك اللحظة نفسها ؟ من الواضح على كل حال أن عذر ذلك العمل السيء أن له بواعث نفسية ، وأنه ثمرة حالة سيكولوجية . ومع ذلك لم يهدأ بالي هدوءاً تاماً ولم تطمئن نفسي طمأنينة كاملة ، الا حين قررت ، منذ نحو خمسة عشر عاماً ، أن أقف مبلغاً من المال على ملجأ من الملاجئ لا يواء امرأتين عجوزين ، لتكون أيامهما الأخيرة من حياتهما الأرضية أخف وطأةً على نفسيهما بفضل ظروف معاشية أفضل . حتى أنني أتوى أن استمر في وقف هذا المال اراتاً . تلكم هي القصة كلها . أعود فأقول : لعل في حياتي آتماً أخرى ، ولكن هذا الفعل الذي رويت لكم الآن قصته هو الذي يبدو لي اسوأ عمل ارتكبته في حياتي .

فما ان انهى الجنرال كلامه حتى انبرى فردشتينكو يقول :

– انك ، يا صاحب السعادة ، بدلاً من أن تروى لنا قصة أسوأ عمل ارتكبته في حياتك ، رويت قصة أفضل عمل قمت به في حياتك ، فخيبت بذلك فال فردشتينكو .

وقالت ناستاسيا فيليوفنا بهدوء واهمال :

– حقاً يا جنرال . . . ما كنت أتصور أن يكون لك قلب طيب !

خسارة . . .

فسألها الجنرال وهو يضحك ضحكة تحجب وتلطف :

– خسارة ؟ لماذا ؟

وشرب جرعة من السمبانيا ، بشيء من الاعتزاز •

جاء الآن دور آتانا زى ايفانوفتش الذى هيا نفسه لرواية قصة هو أيضاً • كان الحضور يقدرون أنه ، كما فعل ايفان فيدوروفتش ، لن يرفض أن يروى قصة ، وكان بعضهم ، لأسباب معينة ، ينتظرون قصته بكثير من الشوق واللهفة ، وهم يلقون على ناستاسيا فيليوفا نظرات مختلصة • وبوقار عظيم يتفق ومهابته ، أخذ آتانا زى ايفانوفتش يسرد واحدة من « قصصه اللطيفة » بصوت هادئ عذب • (يجب أن نذكر عابرين أن آتانا زى ايفانوفتش رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، على شيء من الصلع والشيب ؛ بدين بعض البدانة ، خداه زاهيتان رخوتان خاسفتان قليلاً • أسنانه صناعية • يرتدى ثياباً أنيقة فضفاضة ، ويلبس قميصاً ناصع البياض • يدها البضتان البيضاءون تخطفان الانتباه • فى بنصر يده اليمنى خاتم ثمين من ماس) • فكانت ناستاسيا فيليوفا طوال مدة سرده قصته لا تنفك تنعم النظر فى شريط الداتيللا الذى يزدان به كمها والذى كانت تقرصه باصبعين من يدها اليسرى ، فلم يتسع لها أن تنظر الى القصاص ولو مرة واحدة • بدأ آتانا زى ايفانوفتش كلامه فقال :

– ان الشيء الذى يسهل مهمتى هو اننى مضطر اضطراراً مطلقاً أن أروى أسوأ فعل ارتكبته فى حياتى • فلا مجال فى مثل هذه الحالة لأى تردد ، فالضمير وذاكرة القلب يمليان على اختيار القصة ويفرضانها فرضاً • يجب على أن اعترف ، وأنا أشعر بغير قليل من الماراة ، أن بين الأعمال الطائشة و ... الصيانية التى ارتكبتها والتى قد يكون عددها لا نهاية له ، أن بين تلك الأعمال عملاً نُفِشت ذكراه فى نفسى عميقة فلا سبيل الى نسيانها • حدث ذلك منذ قرابة عشرين عاماً • كنت عندئذ فى اقامة قصيرة بالريف عند أفلاطون أوردتسيف الذى انتخب منذ برهة وجيزة مارشالاً

للطبقة النبيلة ، وكان يقضى أعياد آخر العام فى أراضيه مع امرأته الشابة .
وكان عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا يقع فى تلك الفترة نفسها ، فكانت تُهيأ
لهذه المناسبة حفلة رقص . وفى ذلك الأوان كانت الرواية التى ألفها
الكسندر دوما الابن « غادة الكاميليا » رائجة رواجاً عظيماً فى المجتمع
الراقى ، وكانت قد أحدثت فى ذلك المجتمع ضجة كبيرة . وهى فى رأى
عمل أدبى لا يمكن أن يموت ، بل ولا يمكن أن يشيخ . كانت جميع السيدات
فى الريف متحمسة له أشد التحمس ، ولا سيما اللواتى قرأنه . فجمال
القصة ، وطرافة الموقف ، وأصالة الشخصية الرئيسية ، والتصوير المرفف
ليئة ملأى بالأمور الجذابة ، وجميع تلك التفاصيل الأخاذة المثورة فى
الكتاب (كاستعمال باقات من أزهار الكاميليا بيضاء وحمراء على التناوب) ،
الحلاصة أن الكتاب ، فى جملته وتفصيله ، كان قد أحدث أثراً كبيراً هزَّ
نفوس الناس هزاً قوياً . وأصبحت أزهار الكاميليا موضةً يتهافت عليها
الناس تهافتاً شديداً ، ويسعون إليها سعياً محموماً ، ويريدون شراءها مهما
يكن الثمن . وانى لأسألكم : هل يمكن أن يوجد كثير من أزهار الكاميليا
فى مقاطعة صغيرة حين يريد جميع الناس أن يشتروا أزهار الكاميليا لحفلات
الرقص ، ولو لم تكن حفلات الرقص هذه كثيرة . وكان بطرس
فورخوفسكى فى ذلك الأوان يموت حياً وهياماً بآنفيسا ألكسيفنا . لست
أدرى حتى هذه اللحظة هل كان بينهما شئ ، أقصد هل كان يمكن أن
يساوره أمل جدى . وانما المهم أن المسكين أخذ يسعى هنا وهناك
كالشيطان المسعور بغية الحصول على أزهار كاميليا لحفلة الرقص التى
ستقام بمناسبة عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا . . وكان قد عُرِف أن الكونتيسة
سوتسكى (من بطرسبرج) وهى صديقة زوجة الحاكم ، وصوفيا
بسبالوفا ، ستجئان حتماً ومعهما باقات من أزهار الكاميليا البيضاء . فكانت
آنفيسا ألكسيفنا ترغب فى أن يهدى أحد إليها أزهار كاميليا حمراء ليكتمل

بها تأثيرها وسحرها . فكان أفلاطون التمس في أشد الضيق وأكبر الحرج . انكم تعلمون ما واجبات الزوج : لقد تورط فوعد بباقة من أزهار الكاميليا الحمراء . ولكن ما العمل ؟ ان كاترين ألكسندروفنا ميتستشيفا ، التي هي أرهب منافسة لأنفيسا ألكسيفنا في كل شيء ، والتي يمكن أن توصف العداوة بينهما بأنها عداوة تبلغ درجة الطعان ، كانت قد نشلت من المنطقة كلّ ما فيها من أزهار الكاميليا قبل حفلة الرقص بيوم واحد . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن أنفيسا ألكسيفنا اتابتها نوبات بكاء ، وأغمى عليها ، الخ ! لقد هلك أفلاطون ! ان من الواضح أن بطرس اذا استطاع في هذه اللحظة الحاسمة أن يحصل على الباقة المطلوبة ، فستحقق أموره تقدماً كبيراً . ان العرفان بالجميل والشعور بالامتنان لا حدود لهما في حالات كهذه الحالات . أخذ بطرس يسعى هنا وهناك كمن مسّه جن ، ولكن الأمر كان مستحيلاً ، حتى انه لا مجال للتفكير فيه ! وهأنذا ألقى بطرس ، عشية عيد ميلاد أنفيسا ، عند جارة من جيران أسرة أوردتسيف ، فأراه مشرق الوجه مهلل الأسارير .

سأله :

« - ماذا حدث ؟ »

« - وجدت ، أوريكا ! * »

« - انك لتدهشني حقاً ! كيف وجدت ؟ وأين ؟ »

« - بمدينة ايكاييسك (مدينة صغيرة بالمقاطعة المجاورة تقع على مسافة لا تكاد تبلغ عشرين فرسخاً) . يوجد هناك تاجر طويل اللحية واسع الثراء ، اسمه تريبالوف . يعيش مع امرأته وحيدتين ويتخذان عصافير الكناري بمثابة أولاد ، ويهويان الأزهار هوى عظيماً ، وعندهما أزهار كاميليا . »

« - ولكن هذا أمر غير مضمون . ماذا لو منعها عنك ؟ »

« - سأركم عندئذ أمامه ، وأظل قابلاً على قدميه الى أن يوافق ،
ثم لا أنصرف قبل أن يعطيني الأزهار !

« - متى تسافر اليه ؟

« - غداً في الفجر ، الساعة الخامسة •

« - طيب • أسأل الله أن يمدك بعون من عنده !

شعرت حقاً بسعادة كبيرة له • وعدت الى دار أسرة أوردتسييف •
وفيما كنت أهمُّ أن أمضى الى السرير لأنام ، خطرت ببالي على حين فجأة
فكرةٌ من أطرف الفكر • فسرعان ما ذهبت الى المطبخ ، فأيقظت
سافيلي ، الحوذي ، ووعدته بخمسة عشر روبلاً إذا هو قرن الحيل بالعربة
في خلال نصف ساعة • فما انقضى نصف ساعة حتى كانت العربة تنتظرنى
عند الباب طبعاً • وقد أُبلغت في أثناء ذلك أن آنيسا ألكسيفنا قد اتابها
صداع ، وأملت بها حمى ، وأنها تهذى •

ركبت العربة ، وانطلقنا • وتوقفت بعد الساعة الرابعة بقليل أمام
نزل ايسايك أنتظر طلوع الفجر ، فما ان طلع الفجر حتى استأنفت
المسير ؛ وفي الساعة السابعة كنت عند تريبالوف أحدثه في أمرى •
قلت له :

- هل عندك أزهار كاميليا ؟ كن أباً رحيماً ، ساعدنى ، أنقذنى ،
فانحنى لك حتى الأرض محياً شاكراً •

ورأيت الشيخ طويل القامة ، مبيض الشعر ، قاسى الهيئة ، رهيباً
مخيفاً • وسمعته يقول :

- ل ... لا ... لا ! لا تحاول ! عبثاً تحاول ! اننى أرفض !

وهأنذا أسقط على قدميه ، وأنبطح ... نعم أنبطح انبطاحاً تاماً
كاملاً • فخاف الرجل ، وقال ينادينى :

« - ما هذا الذى تفعله يا بنى ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ رباه !

فصحت أقول له :

« - ان حياة انسان هي المعرّضة للخطر !

» - طيب .. طيب ... خذ أزهار الكاميليا ... وكان الله معك !
فأخذت أجنى أزهار كاميليا حمراء ! كانت أزهاراً رائعة ، فتانة !
جنيت كل ما ضمته منها حديقته • وتنهد الشيخ • فأخرجت من جيبي
ورقة نقد بمائة روبل • فقال :

» - لا يا بني ، لا تلحق بي هذه الالهانة !

فقلت له :

» - طيب ، اذا كان الأمر كذلك ، ففضل بدفع هذه المائة روبل
لمستشفى المدينة ترفيهاً عن المرضى •
قال :

» - هذا ، هذا شيء آخر يا عزيزي ! هذا عمل طيب نبيل ، عمل
يرضى الله • سأقدم هذه الهبة نيابةً عنك •
أعجبني ذلك الشيخ ، ذلك الشيخ الروسي الأصل ، الأصل حقاً ،
الأصيل حتى الأرومة ، ذلك الشيخ الذي يتسمى الى ما يسمى باسم « الطبقة
الكريمة حقاً » •

وعدت أدراجي مفتوناً بالنجاح الذي حققته ، ولكنني سلكت طريقاً
ملتوية ، حتى لا ألتقي ببطرس • فما ان وصلت حتى أرسلت الباقية الى
أنفيسا ألكسيفنا لتفاجأ بها متى استيقظت من نومها • وفي وسعكم أن
تصوروا دهشتها ، وامتنانها ، والدموع الذي ذرفتها اعترافاً بالجميل !
وهذا هو أفلاطون الذي كان أمس متهدماً مدمراً ميتاً ، ها هو ذا يرتدى
على صدرى ناشجاً • وا أسفاه ! ذلك هو شأن جميع الأزواج دائماً منذ
ابتدع ... الزواج الشرعي ! لا أجرؤ أن أضيف شيئاً الى ما قلت ، عدا

أن جميع آمال ذلك المسكين بطرس انهارت منذئذ انهياراً لا قيام لها بعده !
ولقد قدّرت في أول الأمر أنه سيذبحني اذا عرف الدور الذي قمت به
في هذه القضية ، حتى لقد تأهبت للأمر واستعددت ، ولكن حدث ما لم
يكن في وسعي حتى أن أتصور أن في الامكان أن يحدث : لقد أغمى
عليه ، وفي المساء أخذ يهذى ، وفي الغد كانت قد انتابته الحمى الدماغية ،
فهو يجهدش باكياً مع تشنجات شديدة كطفل • حتى اذا أبلّ من مرضه
بعد شهر ، طلب نقله الى القوقاز * • قصة كأنها رواية من الخيال • وانتهى
به المطاف الى ان قُتل في القرم ؛ وكان أخوه ستيفان فورجوفسكى قد
اشتهر في ذلك الأوان قائداً متفوقاً لاحدى كتائب الجيش •

لا أنكر أنني ظلمت خلال سنين طويلة أعاني من عذاب الضمير :
لماذا طعنته تلك الطعنة ؟ ولقد كان يمكن أن يهون الأمر في نفسي لو أنني
كنت هائماً مثله بحب آفيسا ألكسيفنا • ولكن الأمر ليس كذلك ، وانما
كان « شطارة » منى أو « شيطنة » لا أكثر • ومن يدرى ؟ فلولا أنني
سلبت الفتى باقة الزهر تلك ، لجاز أن يكون الى الآن حياً ، سعيداً ، بل
مغموراً بسعادة طافحة ، ولما خطر بباله أن يمضى الى مقاتلة الأتراك •

أنهى آتانازى ايفانوفتش سرد قصته وقوراً رصيناً كما بدأها •
ولاحظ الحضور أن عيني ناستاسيا فيليوفنا قد قدحتا شرراً ، وأن شفيتها
قد اختلجتا حين ختم آتانازى ايفانوفتش كلامه • فأصبحتا محطّ الأنظار
المستطلعة •

هتف فردشتينكو يقول بصوت داعم ، اذ أدرك أنه أصبح يحسن بل
يجب أن يقول كلمته :

- ضحكوا على فردشتينكو ! خدعوه ! غشوه ! ذلكم هو ما يسمى
خداعاً وغشاً !

- لم يجبرك أحد على شيء ! كان عليك أن تفهم اللعبة فهماً أصح .
كان عليك أن تتعلمها من أناس أذكاء .

ان داريا ألكسيفنا هي منذ مدة طويلة الصديقة الوفية والشريكة
الدائمة للسيد توتسكى .

قالت ناستاسيا فيليوفا باهمال وفتور :
- أنت على حق يا آتانازى ايفانوفتش . ان هذه اللعبة مضجرة ممله
تبعث السأم فى النفس ، وقد آن لنا أن تنتهى منها . سأقص عليكم الآن
ما وعدتكم به ، ثم نتقل جميعاً الى اللعب بالورق .
قال الجنرال مؤيداً بحرارة :

- ولكن يجب أن نسمع القصة التى وعدتنا بها قبل كل شيء !
قالت ناستاسيا فيليوفا بصوت واضح دون أن تتحرك ، قالت مخاطب
الأمير :

- يا أمير ، ان صديقىَّ العزيزين ، الجنرال وآتانازى ايفانوفتش ،
يصران كثيراً على أن أتزوج . فقل لى رأيك : أيجب أن أتزوج أم لا ؟
سوف أقرر لنفسى ما تقررره أنت لى .

اصفرَّ وجه آتانازى ايفانوفتش ، وجمد الجنرال ، والتفت جميع
الرءوس نحو الأمير ، وحدقت اليه جميع الأعين . وتجمد جانيا فى مكانه .
سألها الأمير بصوت يضعف وينطفئ :
- تتزوجين ... من ؟

فأجابته ناستاسيا فيليوفا بذلك الصوت نفسه ، الثابت القاطع
الواضح :

- جبريل آرداليوتتش ايفولجين .
ساد الصمت بضع لحظات . كان الأمير كمن يجهد أن ينطق بكلمة

واحدة دون أن يستطيع ذلك ، وكأن حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدره
فيسحقه سحقاً • ثم همس يقول أخيراً وقد استرد أنفاسه بكثير من
المشقة والعناء :

— ل ••• لا ••• لا تتزوجيه !

فقالت ناستاسيا فيليوفنا تخاطب جبريل آرداليوتش بصوت فيه
سلطة واضحة وفيه شيء من أبهة :

— ذلك ما سيكون • هل سمعت قرار الأمير ؟ انه يتضمن جوابي أنا
أيضاً • فلنفرغ من هذه القضية دفعة واحدة الى الأبد !

تمتم آتانازي ايفانوفتش يقول بصوت مرتجف :

— ناستاسيا فيليوفنا !

وأضاف الجنرال بصوت مؤثر لكنه قلق :

— ناستاسيا فيليوفنا !

وسرت في الحضور مهمة ، وظهرت بينهم حركات انفعال •

فقالت ناستاسيا فيليوفنا وهي تتفرس في وجوه ضيوفها مدهوشة :

— ماذا أيها السادة ؟ علام هذا الانفعال ؟ وفيم استطالت وجوهكم

هذه الاستطالة ؟

ثأنا توتسكى متلعثما متعثراً في الكلام :

— ولكن ••• تذكرى يا ناستاسيا فيليوفنا أنك وعدت ••• من

تلقاء نفسك ••• دون ضغط أو اكراه ••• وكان في وسعك •• الى حد

ما •• أن تدارى وتراعى ••• لا أكاد أستطيع أن •• ربما كنت مضطرباً

••• لكن ••• على كل حال ••• الخلاصة : الآن ••• في لحظة كهذه

اللحظة ، وأمام هذا الحفل كله من الناس ، وبهذه الطريقة ••• نختم

بهذه « اللعبة الصغير » قضية هى على هذا الجانب العظيم كله من خطورة الشأن ، قضيةً هى قضية شرف وقلب ... قضيةً يتوقف عليها ...

- حقاً لا أفهمك يا آتانا زى ايفانوفتش . انك تخطب فى كلامك خبط عشواء ! أولاً : ما معنى قولك هذا : « أمام هذا الحفل كله من الناس » ؟ ألسنا هنا أصحاباً حميمين ؟ وما اعتراضك على هذه « اللعبة الصغيرة » ؟ لقد نويت حقاً أن أروى حكاية . وهأتا ذا فعلت . أليست حكايتى جميلة ؟ ما الذى يجرّدها فى نظرك من الجد ، ويضفى عليها طابع اللعب ؟ ألم تسمعنّى أقول للأمير : « سأقرر لنفسي ما تقررهُ أنت الى » ؟ فلو قد قال « نعم » لوافقت فوراً ، أما وأنه قال « لا » ، فقد رفضت . فكيف تستطيع أن تصف ذلك بأنه خال من الجد ، بينما كان مصرى كله مرهوناً بكلمة واحدة . هل يمكن أن يكون هناك جدٌ أكبر من هذا الجد ؟

دمدم الجنرال يقول وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من هذه السلطة المهينة التى منحت للأمير :

- ولكن لماذا الأمير ؟ ثم ، ما مجيء الأمير الى هنا ؟ ماذا جاء يعمل ؟ - انا انما استشرت الأمير ، لأنه أول شخص آمنت بأنه مخلص لى اخلاصاً تاماً كاملاً . لقد آمن هو بى منذ أول نظرة ألقاها علىّ ، وأنا أومن به أيضاً .

وأخيراً نطق جانبا فقال بصوت مرتجف وقد شحب لونه وانعقف فمه بجعدة عجيبة :

- لم يبق لى الا أن أشكر لئاستاسيا فيليوفنا ما عمدت اليه من لطف عظيم ورهافة قصوى ... فى حقى . طبعاً كان لا بد أن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن ... الأمير ... فى هذه القضية ... انما ...

- ... يسعى الى الحصول على الخمسة وسبعين ألف روبل ، أليس كذلك ؟

بهذا قطعت ناستاسيا فيليوفنا كلام جانبا فجأة • وتابعت تقول :
- أهذا ما كنت تريد أن تقوله ؟ لا تدافع عن نفسك ! هذا ما كنت تريد أن تقوله حتماً ! يا آنازى ايفانوفتش ، لقد نسيت نسياناً تاماً أن أضيف ما يلى : استردّ الخمسة وسبعين ألف روبل ، واعلم أنتى أعتقك مجاناً ! يكفى هذا ! أنت أيضاً محتاج الى أن تتنفس ! تسع سنين وثلاثة أشهر ! غداً تبدأ الحياة الجديدة ! أما اليوم فنحتفل بعيد ميلادى ، وهذه أول مرة أستقل فيها بنفسى ، وأتحرر من غيرى ! يا جنرال ، استردّ أنت أيضاً لآلك ، واهدها الى زوجتك ! اليك اللآلىء ! خذها ! وسوف أترك هذه الشقة منذ غد ، فلا سهرات بعد اليوم أيها السادة !

قالت هذا الكلام ونهضت كأنما لتخرج •

فارتفعت أصوات من كل صوب تنادىها :

- ناستاسيا فيليوفنا ! ناستاسيا فيليوفنا !

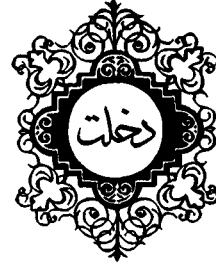
واضطرب الجميع ، وبارحوا أماكنهم ، وأحاطوا بها ، وأخذوا يصفون فى قلق شديد الى أقوالها المتقطعة المحسومة الهاذية • كانوا يشعرون جميعاً بأن فى هذا نوعاً من اختلال ، أو من جنون ، دون أن يفهموه ، أو أن يستطيعوا تعليله لأنفسهم •

وفى تلك اللحظة دقّ جرس الباب على حين فجأة دقة قوية تشبه من جميع النواحي الرنة التى ترجّعت فى بيت جانبا بعد الظهر من ذلك اليوم •

فهتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول :

- ها ٠٠٠ جاءت الخاتمة ! أخيراً ! الساعة هي الحادية عشرة
والنصف • أرجوكم أن تجلسوا أيها السادة • لقد حان موعد الخاتمة !
قالت ذلك وعادت تجلس • وكانت تنبض على شفيتها ضحكة غريبة •
وصمتت تنتظر انتظاراً محموماً وهي تنظر الى الباب •
دمدم بتسعين يقول لنفسه :
- لا شك في أنه روجويين قد جاء بالمائة ألف روبل !

الفصل الخامس عشر



الخدمة كاتيا * مرتاعة أشد الارتياح ، وقالت :
- حدث ما لا يعلمه الا الله يا ناستاسيا فيليوفنا !
هناك نحو عشرة أشخاص اجتاحوا حجرة المدخل
سُكّارى يطلبون الدخول • وقد سألونى أن أبلغ
عن وصول روجيين ، وزعموا أنك على علم بالأمر •

- صحيح يا كاتيا ، أدخلهم فوراً !
- حقاً ؟ أدخلهم جميعاً ••• يا ناستاسيا فيليوفنا ؟ ان حالتهم فظيعة ،
انهم مخيفون !

- جميعاً ، أدخلهم جميعاً يا كاتيا ، لا تخشى شيئاً ، أدخلهم حتى
آخرهم ، والا دخلوا دون أن تأذنى لهم بالدخول • هل تسمعين الضجة
التي يحدثونها منذ الآن ؟ انها عين الضجة التي أحدثوها بعد الظهر من
هذا اليوم !

ثم قالت ناستاسيا فيليوفنا ملتفتة الى ضيوفها :

- أيها السادة ، ربما أزعجكم أن أستقبل عصابة كهذه العصابة
بحضوركم • أنا أسفة • سامحونى • ولكن لا بد من ذلك • اننى أرغب
كثيراً فى أن توافقوا على أن تكونوا شهودى فى هذه الخاتمة ، ولكن لكم
ما تشاءون طبعاً !

استمر الحضور فى دهشتهم يتهايمسون ويتبادلون النظرات • لقد أصبح واضحاً كل الوضوح أن ذلك كله كان محسوباً مرتباً مهياً ، وأنه بات من المستحيل اكراه ناستاسيا فيليوفا على ترك فكرتها ، رغم أنها قد جنّت طبعاً ! وكان حب الاطلاع قد استبد بهم جميعاً ، ولم يكن هناك ما يدعو أحداً منهم الى أن يرتاع ارتياحاً شديداً على كل حال • لم يكن بين الحضور الا سيدتان اثنتان : داريا ألكسيفا ، وهى امرأة محنكة سبق أن رأت فى حياتها أموراً كثيرة ، وليس ترويعها بالأمر السهل • تلك هى السيدة الأولى • أما الثانية فهى تلك المرأة المجهولة الصموت التى كانت على جانب عظيم من الجمال • لكن المجهولة البكماء كانت فى أغلب الظن عاجزة عن ان تفهم أى شئ • انها ألمانية كانت مارةً ببطرسبرج ، وهى تعجل الروسية • ورغم أنها لم تصل الا منذ مدة قصيرة ، فقد جرت العادة أن تدعى الى بعض الحفلات • انها ترتدى ثياباً جميلة فاخرة ، وتصفّف شعرها كأنها متأهة لدخول مسابقة ، فالناس يدعونها الى الحفلات صورة فانة تزين السهرة ، تماماً كما يُزَيّن البيت بلوحة أو آنية خزف أو تمثال أو قطعة أثاث ثمينة تُستعار من الأصدقاء فى المناسبات •

وأما عن الرجال فان بتسين ، مثلاً ، صديق للفتى روجوين • وفردشتينكو يشعر بأنه أشبه بسمكة فى الماء • وجانيا الذى لم يستطع بعد أن يثوب الى رشده ، كان يشعر شعوراً لا يقاوم ، رغم انه شعور مبهم ، بحاجة الى أن يبقى حتى النهاية مسمراً فى مكانه أمام الناس • ومعلم المدرسة العجوز الذى لم يفهم شيئاً كثيراً مما كان يحدث ، قد أوشك أن يجهش باكياً ، وكان يرتجف من الخوف ارتجافاً ، لشعوره بجو القلق والحشية حول ناستاسيا فيليوفا التى يحبها كما يحب حفيدته ؛ ولكنه يؤثر أن يموت على أن يترك ناستاسيا فيليوفا فى لحظة كهذه اللحظة • وفيما يتعلق بآنانازى ايفانوفتش ، فانه كان لا يستطيع طبعاً أن يعرّض

نفسه لأحداث من هذا النوع تسيء اليه والى سمعته ، ولكنه كان مرتبطاً بهذه القضية ارتباطاً شخصياً قوياً ، فهو مشدود اليها لا يستطيع منها فكاًكاً ، رغم المجرى الجنونى الذى أخذت تجرى فيه ! لذلك قرر أن يبقى حتى النهاية ، صامتاً مع ذلك ، مكتفياً بالمشاهدة كما يقتضى وقاره ، وكما تقتضى كرامته ومهابته ! والجنرال ايباتشين الذى سبق أن أهين قبل لحظات بتلك الطريقة السخيفة فى ردّ هديته اليه ، كان هو الشخص الوحيد الذى يحق له أن يزداد غضبه ، لما يراه من هذه الأنواع الجديدة من الشذوذ ، كظهور روجويين مثلاً . ان من كان فى مثل رتبته ، حسب تساهلاً وتنازلاً أن يرضى المشاركة فى سهرة تضم أشخاصاً مثل بتسين أو فردشتينكو . لقد غلبه الهوى على أمره ، فسقط تلك السقطة . ولكن الشعور بالواجب واعتبار الرتبة والمركز ، واحترام الذات ، قد انتصرت أخيراً ، فأصبح لا يطيق وجود روجويين وعصبته . لذلك التفت نحو ناستاسيا فيليوفا يريد أن يعبر لها عن ذلك ، ولكن ما ان فتح فيه وهمّ بالكلام حتى قاطعته تقول :

— آ ... جنرال ... لقد نسيتك . ولكن ثق اننى قد تسبأت باعتراضك . فاذا كنت متضايقاً تضايقاً شديداً ، فاننى لا ألح عليك ولا أحب أن احتجزك ، رغم أنك أنت من أرغب أقوى رغبة فى أن يكون بقربى هذه اللحظة . مهما يكن من أمر ، فأنا أشكر لك المتعة التى هيأتها لى معرفتى بك ، وأشكر لك التفاتتك الكريمة التى أعتر بها ، ولكن اذا كنت تخشى أن ...

فهتف الجنرال يقول وقد استولت عليه نوبة من روح الفروسية السمحة السخية :

— عفوك يا ناستاسيا فيليوفا ! لمن تقولين هذا الكلام ؟ لأبقين بقربك ولو لمجرد الاخلاص لك والتفانى فى سبيلك ، فاذا وُجد خطر من

الأخطار مثلاً ... ثم اننى متعجب أشد التعجب ، اعترف لك بذلك •
أريد ان أقول ان من الممكن أن يفسدوا السجاد ، حتى لقد يكسرون شيئاً
من الأشياء ... فالحق أنه ما ينبغي أن يُسمح لهم بالدخول أبداً ياناستاسيا
فيليوفا !

قال فردشتينكو معلناً :

– هذا روجوين بشخصه !

وهمس الجنرال يسأل آتازى ايفانوفتش مسرعاً :

– ما رأيك ؟ ألا تظن أنها جُنّت ؟ لا أقصد بالجنون معناه المجازى

بل معناه الطبى ، الطبى ..

فأجابه توتسكى قائلاً بشيء من المكر والحُبث :

– قلت لك منذ زمان طويل ان بها استعداداً للجنون ...

– تضاف الى ذلك الآن حالة الحمى هذه ...

كانت عصبة روجوين تتألف تقريباً من أولئك الأفراد أنفسهم
الذين كانت تتألف منهم بعد الظهر من ذلك اليوم ؛ وانما أضيف اليها
الآن شيخ ضئيل فاسق كان فى زمانه مديراً لصحيفة حقيرة من الصحف
التي تقدّم اليها الرشوات خوفاً من التشهير ويُروى عنه أنه رهن أسنانه
الذهبية ليشرب بئسها خمراً ؛ وقد أضيف الى العصبة أيضاً ملازم ثان
محال على التقاعد ، يشبه ذلك الذى رأيناه بعد الظهر متميزاً بقبضتى يديه
القويتين ؛ وهو فى الحق ندّ له ومنافس ، بالمهنة والوظيفة معاً ! ان جميع
افراد عصبة روجوين كانوا لا يعرفونه ، ولكنهم التقطوه فى الطريق على
رصيف شارع نفسكى ، الذى تغمره أشعة الشمس ، حيث كان يستوقف
المارة ليطلب منهم مساعدة ، بأسلوب يشبه أسلوب مارلنسكى * ، زاعماً
لهم أنه « كان هو نفسه فى الماضى يهب لكل سائل من السائلين عشرة

روبلات أو خمسة عشر روبلاً » • ولم يلبث الندآن المتنافسان أن شعرا بعداوة متبادلة ، فالسيد ذو القبضتين يرى أنه قد أهين اهانة مباشرة حين ضمَّ هذا « السائل » الى الجماعة ، ولكنه بحكم طبعه الصموت كان لا يزيد على أن يصدر همهمات كههمات دب ، ويقابل بأشد الاحتقار محاولات التودد الكثيرة ، والانحناءات اللطيفة التي كان يقوم بها « السائل » اظهاراً لأدبه ورقه • كان واضحاً أن الملازم الثاني هو من أولئك الذين يؤثرون ، من أجل أن يشقوا لأنفسهم طريقاً ، يؤثرون حسن التصرف وبراعة التدبير على استعمال القوة والعنف؛ هذا الى أن قامته أقل ضخامة من قامة السيد ذى القبضتين القويتين • وقد أشار عدة مرات ، بطريقة مرهفة ، دون أن يثير نقاشاً صريحاً ، ولكن بشيء من التفاخر والتباهي ، الى أفضلية الملاكمة الانجليزية (البوكس) ، مفصحاً بذلك عن أنه رجل غربي المذهب والاعتقاد • فكان السيد ذو القبضتين الضخمتين ، حين يسمع كلمة «البوكس» ، لا يزيد على أن يتسم ابتسامة تهكم وغضب ، وكان لاحتقاره كل مجادلة ، يقتصر بين الفينة والفينة ، في صمت وبما يشبه المصادفة ، على أن يُظهر أو يمدّ الى أمام ذلك الشيء الوطني جداً ، الروسى جداً : قبضةً ضخمة نامية العضلات كثيرة العقد مغطاة بشعر أحمر • فكان يتضح للجميع حينذاك أن هذا الشيء الوطني جداً اذا هو هوى على هدفه باحكام ، استطاع أن يهشمه تهشيماً •

وكما لوحظ بعد الظهر من ذلك اليوم ، لم يكن أحد من عصابة روجوين سكران سكرأ شديداً ، وذلك بفضل جهود روجوين الذي ظل طوال النهار لا تقيب عن فكره زيارة ناستاسيا فيليوفنا في بيتها • وقد اتسع وقته هو نفسه لأن يصحو من السكر صحوأ شبه كامل • ولكنه في مقابل ذلك ، بعد جميع تلك المشاعر التي عاناها في ذلك اليوم العجيب ، والتي لا تشبه في شيء كلَّ ما سبق أن عرفه طوال حياته ، كان مرهقاً مخبولاً •

ان شيئاً واحداً قد ظل ماثلاً في ذهنه وفي ذاكرته وفي قلبه بغير انقطاع .
ومن أجل ذلك كان قد قضى وقته كله ، منذ الساعة الخامسة بعد الظهر
حتى الساعة الحادية عشرة من المساء ، وهو في حالة همٍّ وغمٍ وقلق
لا حدود لها ، قضى وقته كله ساعياً وهناك عند أمثال كندر وأمثال
يسكوب اللذين شارفا على الجنون هما أيضاً من كثرة ما تحركا في سبيل
قضاء حاجته وتبدير أمره . المهم على كل حال أن المائة ألف روبل ، عدأً
ونقداً ، التي ألمت اليها ناستاسيا فيليوفنا الماعاً خاطفاً ساخراً ، وغامضاً كل
الغموض ، قد أمكن جمعها قروضاً بفوائد باهظة تبلغ من الفداحة أن
يسكوب نفسه كان يستحي أن يتحدث فيها مع كندر الا همساً .

وكما حدث بعد الظهر من ذلك اليوم ، كان روجوين يتقدم عصبة
ويسير في طليعتها ، وكان رجاله يمشون وراءه ، مدركين لتفوقهم ،
شاعرين مع ذلك بشيء من الحشية . وكانت ناستاسيا فيليوفنا هي التي
يخشونها خاصةً ، لا يدرى الا الله لماذا ! حتى لقد كان بعضهم يتصور
أنهم « سوف يُرمون الى أسفل السلم » . وكان زاليوجيف ، المغوى
الأنيق ، واحداً من هؤلاء . غير أن بينهم رجالاً آخرين ، ولا سيما
صاحب القبضتين الجبَّارتين ، كانوا في قرارة أنفسهم يحتقرون ناستاسيا
فيليوفنا احتقاراً مطلقاً ، بل وكانوا يكرهونها كرهاً شديداً ، وكانوا
يشعرون أنهم انما ذهبوا الى بيتها ذهابهم الى مدينة محاصرة . ومع ذلك
فان الترف العظيم الذي رأوه في الحجرتين الأوليين ، وجميع هذه الأشياء
التي لم يتح لهم طوال حياتهم حتى أن يحلموا بمثلها ، والأثاث النادر
واللوحات الجميلة وتمثال فينوس الكبير ، كل هذا قد أحدث في نفوسهم
احتراماً لا سبيل الى مغالته ، بل وأحدث في نفوسهم ما يشبه الخوف .
على أن هذا لم يمنعهم طبعاً من أن يتسللوا الى الصالون وراء روجوين
قليلاً قليلاً ، بفضول وقح ، رغم ما شعروا به من خوف . ولكن حين

رأى صاحب القبضتين الضخمتين و « السائل » وبضعة أشخاص آخرين ، حين رأوا الجنرال ايبانتشين بين المدعويين ، خارت قواهم حتى همّوا أن ينسحبوا الى الغرفة المجاورة ، الا واحداً منهم هو ليديف الذى لم يتزعزع ، حتى لقد كان يمشى مع روجوين جنباً الى جنب تقريباً ، لادراكه قيمة مبلغ هو مليون واربعمئة ألف روبل يحمل روجوين بيده منه مليوناً كاملاً . يحسن أن نلاحظ مع ذلك أن الجميع ، ومنهم ليديف العارف بالقانون ، كانوا لا يدركون حدود سلطتهم على وجه الدقة ، ولا يعلمون هل كل شيء مباح لهم الآن حقاً أم هو غير مباح . ففى بعض اللحظات كان ليديف مستعداً لأن يحلف أن كل شيء مباح ، وفى لحظات أخرى كان يتابه قلق ويشعر بالحاجة الى أن يتذكر بعض مواد القانون - استعداداً للطوارئ - ولا سيما المواد التى تشجع وتطمئن .

أما الأثر الذى أحدثه صالون ناستاسيا فيليوفا فى نفس روجوين فكان مختلفاً عن الأثر الذى أحدثه فى نفوس أصحابه كل الاختلاف . فانه ما ان أزيلت الستارة أمامه ، فأبصر ناستاسيا فيليوفا ، حتى أصبح كل ما عداها لا وجود له فى عالمه ، كما حدث له هذا بعد الظهر ، غير أنه حدث الآن على نحو أتم وأكمل . واصفرَّ وجهه وتوقف لحظةً من الوقت . ان المرء يستطيع أن يتصور شدة خفقان قلبه . حدّق الى ناستاسيا فيليوفا بضع لحظات ، وجلَّ الهيئة زائغ العقل ، لا يحوّل عنها بصره . ثم اقترب من المائدة فجأة كمن فقد عقله وهو يكاد يترنح ، فاصطدم أثناء خطوه بكرسى بتسين وداس بحذاءيه الوسخين شريط الداتيل الذى يزىّن حافة الثوب الأزرق المترف الباذخ الذى ترتديه الألمانية الصموت الرائعة الجمال . فلم يعتذر عن ذلك ، بل ولم يلاحظه . فلما دنا من المائدة وضع عليها شيئاً غريباً كان قد دخل به ممسكاً اياه بيديه كليهما . هو حزمة سميكة من ورق ، يبلغ علوّها نحو اتنى عشر سنتيمتراً ويبلغ

طولها نحو ستة عشر؛ قد لُفَّت بعدد من أعداد جريدة «أنباء البورصة» * ، وأحكم ربطها بخيط متين . وضع روجويين الحزمة على المائدة ، ووقف ، ولبت على هذه الحال متهدل الذراعين لا ينطق بكلمة واحدة ، كاللهم الذى ينتظر صدور حكم المحكمة . لم تتغير ثيابه التى كان يرتديها بعد الظهر ، فيما عدا منديل من حرير أخضر وأحمر معقود حول عنقه بدبوس ضخم من الماس على شكل فراشة ، وفيما عدا خاتم كبير له فص ضخم من ماس تزدان به أصبع متسخة من أصابع يده اليمنى .

وكان ليديف قد توقف على مسافة بضع خطوات من المائدة . أما الآخرون فكانوا ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، يتسللون الى الصالون قليلاً قليلاً . وقد هرعت كاتيا وباشا * ، خادمتا ناستاسيا فيليوفنا ، هرعتا هما أيضاً ، وأخذتا تلقيان من وراء الستارة نظرات مبهوطة قلقة .

قالت ناستاسيا فيليوفنا تسأل روجويين بعد أن تفرست فيه محدقة مستطلعة ، قالت تسأله وهى تومىء بعينها الى « الشئ » :

— ما هذا ؟

فأجاب روجويين يقول بما يشبه أن يكون زفرة :

— مائة الف !

— وفى بوعده مع ذلك هل رأيتم ؟ اجلس من فضلك ، هنا ، على هذا الكرسي . سأقول لك شيئاً بعد قليل . من هؤلاء الذين جثت بهم؟ كل العصبة التى كانت معك بعد الظهر ؟ طيب ، فليدخلوا . يستطيعون أن يجلسوا على ذلك الديوان هناك ، وعلى هذا الديوان الآخر ، وعلى هذين المقعدين ماذا ينتظرون ؟ ما بالهم لا يدخلون ؟ ألا يريدون أن يدخلوا ؟

كان بعضهم قد شعروا بالوجل فعلاً ، فانسحبوا الى الغرفة المجاورة

واستقروا بها ينتظرون الأحداث ، ولكن بعضاً آخر بقوا فجلسوا حيث دعوا الى الجلوس ، مؤثرين مع ذلك أن يظلوا بعيدين عن المائدة ، ولا سيما في الأركان ، فمنهم من لا يزال يرغب في الامحاء فعلاً ، ومنهم من كان يسترد جرائته بسرعة تفوق الحد الطبيعي .

وجلس روجوين على الكرسي الذي عيّنه له هو أيضاً ، لكنه لم يبق جالساً مدة طويلة ، فما لبث أن عاد ينهض ولم يجلس بعد ذلك . شيئاً فشيئاً أخذ يميّز المدعوين ويتصفح وجوههم . فلما رأى جانبا ابتسم ابتسامة مسمومة ودمدم يقول بينه وبين نفسه : « هه ! » . ولاحظ وجود الجنرال ووجود آتاناڝى ايفانوفتش فلم يضطرب أى اضطراب ، بل ولم يشعر بأى استغراب . ولكنه حين أبصر الأمير الى جانب ناستاسيا فيليوفنا لبث مدةً طويلة لا يستطيع أن يحوّل عنه نظره المدهوشة ، وكأنه عاجز عن أن يعمل لنفسه هذا اللقاء . ان من يراه يحس في بعض اللحظات أنه يعاني نوبة هذيان حقاً . فهو ، عدا الانفعالات التي كابدها طوال هذا اليوم ، كان قد قضى الليلة الماضية كلها في القطار ، ولم يكن قد نام خلال ثمان وأربعين ساعة تقريباً .

قالت ناستاسيا فيليوفنا وهى تلتفت نحو ضيوفها وقد ظهر في وجهها تحدٍ زاهرٌ بتمللمل محموم :

— يا سادة ، هذه مائة ألف روبل ! هنا ، فى هذه الحزمة القادرة : ان هذا الرجل الذى ترون قد صرخ يقول كالمجنون بعد الظهر من هذا اليوم انه سيجيئنى فى المساء بمائة ألف روبل ، وقد انتظرتة . انه يجيئنى بالمال ليشترينى . بدأً بثمانية عشر ألف ، ثم ارتفع بوثة واحدة الى أربعين ألفاً ، ثم ارتفع أخيراً الى المائة ألف التى ترون . لقد وفى بوعده على كل حال ! هيه . ما أشد اصفرار وجهه ! . حدث هذا كله منذ مدة قصيرة فى بيت جانيتشكا . ذهبت الى الأسرة التى كانت ستصير أسرتى ، ذهبت

أزور أمه ، فاذا بأخته تصرخ فى وجهى قائلة : « هل يمكن ألا يكون هناك أحد يُخرج هذه الوقحة ؟ » • ورمت وجه أخيها ببصقة فى الوقت نفسه • قوية الشكيمة !

قال الجنرال بلهجة العتب ، وقد أخذ يفهم القضية قليلاً على طريقته :
- ناستاسيا فيليوفنا !

فقال ناستاسيا :

- ماذا يا جنرال ؟ أترك تعدُّ كلامى هذا غير لائق ؟ كفانى تمثيلاً !
لقد ظلمت سنين ، فى شرفتى من « المسرح الفرنسى » ، أعرض نفسى مثلاً للفضيلة التى لا سبيل الى الاقتراب منها ، وظلمت أفرُّ كاللوحشة من جميع أولئك الذين كانوا يلاحقوننى ويطاردوننى ، وظلمت اصطنع هيئة البراءة المتكبرة المتعالية ، فما كان ذلك كله الا سخافة وجنوناً ! انظر ...
لقد جاء رغم ذلك ، رغم تلك السنين الخمس التى قضيتها متمسكةً بأهداب الفضيلة ، جاء يضع المائة ألف روبل على المائدة ؛ ولا شك فى أنهم أعدوا عربات الترويكما ، وأن العربات تنتظرنى • لقد قدَّر لى سعراً هو مائة ألف روبل ! يا جانيشكا ، أرى أنك ما تزال غاضباً منى • ولكن هل صحيح أنك أردت أن تدخلنى فى أسرتك ، أنا التى « أصلح لأمثال روجويين » !
ألم تسمع ما قاله الأمير منذ قليل ؟

تمتم الأمير بصوت مختلج :

- أنا لم أقل انك تصلحين لروجويين ؛ أنت لم تُخلقى لمثل

روجويين •

انفجرت داريا ألكسيفنا تقول فجأة :

- ناستاسيا فيليوفنا ! كفى يا عزيزتى ! كفى يا يمامتى ! اذا صحَّ أنك أصبحت لا تطيقينهم ، فما الذى يحملك على مداراتهم ؟ ولكن هل من الممكن أن تقبلى الرحيل مع هذا الرجل ، ولو فى سبيل مائة ألف

روبل ؟ صحيح أن مائة ألف روبل ليست شيئاً سيراً ! ولكن ما عليك الا أن تأخذها ، هذه المائة ألف روبل ، ثم تتخلصى من الرجل الذى قدمها اليك . ذلك ما يجب فعله مع أمثال هؤلاء الناس . لو كنت فى مكانك لعرفت كيف أسيرهم جميعاً ***

كانت داريا ألكسيفنا قد بلغت حدَّ الغضب . انها امرأة طيبة القلب ، سريعة التأثر .

قالت لها ناستاسيا فيليوفنا مبتسمة :

- لا تغضبى يا داريا ألكسيفنا ! لقد كلمت جانبا دون غضب . هل وجهت اليه أى لوم ؟ صحيح أننى لا أستطيع أن أفهم الآن كيف أمكن أن أبلغ من الغباء حدَّ الطمع فى الدخول الى أسرة كريمة شريفة . لقد رأيت أمه ، وقبلت يدها . أما عن سلوكى فى بيتك يا جانيتشكا فقد تعمدته تعمداً ، من أجل أن أدرك ، مرةً أخيرة ، المدى الذى يمكن أن تمضى اليه : وائى لأعترف لك بأنك أثرت دهشتى . كنت أتوقع أشياء كثيرة . لكننى لم أتوقع هذا ! كيف تريد أن تتزوجنى وأنت تعلم أنه قدّم الى لآلىء كلك اللآلىء عشية زواجك تقريباً ، وائى قبلت أخذها ؟ وروجوين؟ انه فى بيتك نفسه ، أمام أمك وأختك ، انما ساوم على . ورغم ذلك جئت تطلبنى للزواج ، حتى لتكاد تصطحب اختك . أصحيح اذن ما قاله عنك وروجوين من أنك مستعد فى سبيل ثلاثة روبلات أن تزحف منبطحاً على بطنك حتى جزيرة فاسيلفسكى ؟ *

قال وروجوين فجأة بصوت خافت ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل :

- انه مستعد أن يفعل ذلك !

وتابعت ناستاسيا فيليوفنا كلامها تقول :

- لو كنت تموت جوعاً لعذرتك . ولكن يظهر أنك تقبض رواتب طيبة ! ثم انك ، عدا العار ، لا ترفض أن تتزوج امرأة تكرها (ذلك أنك

تكرهنى ، فأنا أعرف ذلك حق المعرفة) • لا ، لا ، انتى مستعدة لأن
أصدق الآن أن رجلاً مثلك يمكن أن يقتل فى سبيل أن يحصل على
مال ! هذا شأن جميع الناس الآن • انهم ظامئون الى المال ظمًا يفقدهم
عقولهم ! حتى الأطفال يحملون بأن يكونوا مرايين ؛ أو هم يأخذون
سكيناً فيلفونها بحريير ، ويتسللون بهدوء ورفق وراء رفيق لهم ليذبحوه
كما يُذبح خروف * • قرأت عن هذا حديثاً • يمكن أن توصف بأنك
رجل لا حياء له • وأنا أيضاً امرأة بغير حياء ، ولكنك أسوأ منى • أما صاحب
باقه الأزهار ، فلا أتكلم عنه الآن •••

هتف الجنرال يقول آسفاً أشد الأسف :

– أأنت من أسمع ياناستاسيا فيليوفنا ؟ أتقولين مثل هذا الكلام ، أنت
ذات الشعور الرقيق ، والفكر المرفف ؟ ما هذه اللغة ؟ ما هذه التعابير ؟
أخذت ناستاسيا فيليوفنا تضحك قائلة :

– أنا الآن سكرى يا جنرال ، أحب أن ألهو وأقصف ! ان هذا
اليوم يومى ، هو يوم عيدى ، هو يوم فرحى الذى انتظرته طويلاً !
يا داريا ألكسيفنا ، انك تريه ، ذلك السيد ، « صاحب أزهار الكاميليا » ،
الذى يضحك هناك ، الذى يضحك منا •••
– أنا لا أضحك يا ناستاسيا فيليوفنا • أنا لا أزيد على أن أصغى
بأكبر انتباه •

كذلك ردّ توتسكى على ناستاسيا فيليوفنا بوقار وحرصانة • وتابعت
ناستاسيا كلامها تقول :

– انك تريه • لماذا عذبتى طوال خمس سنين دون أن أردّ اليه
حريته ؟ هل كان يستحق منى ذلك العناء كله ؟ انه ما يجب أن يكون ،
لا أكثر من ذلك ولا أقل ••• ولسوف يحكم علىّ بأننى أنا المذنبه فى
حقه • لقد ضمن لى تششّة راقية وتربية عالية ••• وغالى كما تُعال

كوتيسية ، وما أكثر ما أنفق في سبيلي من مال ! حتى لقد عثر لي هناك على رجل شريف ليتزوجني ، وعثر لي هنا على جانيثسكا • وفوق ذلك كله ، هل تصديق أنني لم أعاشره خلال تلك السنين الخمس كلها ، وإنما كنت آخذ ماله وأظنني صاحبة حق فيه ؟ إلى هذا الحد اختلقت في عقلي الأمور ! تقولين لي ان عليَّ أن آخذ المائة ألف روبل وأن أطرده هذا الشاب الذي يهديها إليَّ اذا كنت أشمئز منه • الحق أنني أشمئز ••• لقد كان في وسمي أن أتزوج ، منذ زمن طويل ••• وكان في وسمي أن أتزوج رجلاً خيراً من جانيا ، ولكن ذلك أيضاً كان يثير اشمئزاً • لماذا قضيت اذن هذه السنين الخمس أشمئز كرهى وأغدى بغضى ؟ هل تصديق أنني بلغت حدَّ التساؤل أحياناً منذ أربع سنين : « لماذا لا أتزوج صاحبي آتاناى ايفانوفتش ؟ » • كان ذلك يخطر ببالى من قبيل الحقد والشر • الله يعلم ما الذى كان يجول في فكرى حينذاك ! وكنت أستطيع طبعاً أن أجبره على أن يتزوجني ! هو نفسه كان لا يرجو خيراً من ذلك ، هل تصديق ؟ صحيح أنه كان يكذب ولكنه كان ملتهاً فلا يطيق صبراً • أحمد الله على أنني قد أتيح لي أن أفكّر فانتفيت الى أنه لا يستحق منى كل ذلك الكره ! فبلغت عندئذ من شدة الاشمئز منه أنني لو طلب أن يتزوجني لرفضت • واستمر ذلك التمثيل خمس سنين ! لا ، لا ، من الأفضل أن أنزل الى الشارع ، فهناك مكانى ! أو أن ألهو وأفصف مع روجوين ، أو أن أعمل غسالة منذ الغد ! ذلك أن كل ما أحمله ليس ملكى ، فاذا انصرفت رميت له كل شيء ، كل شيء ، حتى آخر خرقة ، ومن ذا الذى يمكن أن يريدني بعد ذلك ، بعد أن أصبح فقيرة معدمة ؟ أسألى جانيا هل يريدني بعد أن أفعل هذا ؟ حتى فردشتينكو لن يقبل ! •••

قاطعها فردشتينكو قائلاً :

- جائر ألا يرغب فيك فردشتينكو ! اننى رجل صريح ! ولكن فى

مقابل ذلك ، يمكن أن يتزوجك الأمير فى هذه الحالة • انك الآن تستكين ،
فهلاً نظرت الى الأمير ! اننى أراقبه منذ مدة طويلة ...

التفت ناستاسيا فيليوفا الى الأمير مستطلمة • وسأله :

- أهذا صحيح ؟

فقال الأمير لاهناً :

- صحيح •

- أتزوجنى كما أنا ، بدون شىء ؟

- نعم يا ناستاسيا فيليوفا ...

دمدم الجنرال يقول :

- وهذا شىء جديد !... كان يمكن أن تتوقع ذلك !

وحدّق الأمير بنظرة قاسية أليمة نافذة الى وجه ناستاسيا التى ماتزال
تتفرس فيه •

قالت وهى تلتفت نحو داريا ألكسيفنا من جديد :

- هذا شخص آخر يتقدم ! وانه ليفعل راضياً ، أنا أعرف ذلك •
لقد وجدت محسناً ، وان يكن صحيحاً فى أغلب الظن ما يقال من أنه ••
قليلاً ! ولكن بأى مورد تقدّر أن تعيش يا أمير اذا بلغ بك الحب مبلغ
اتخاذى زوجة لك ، أنا التى أصلح لمثل روجويين ؟...•

قال الأمير :

- أنا أعدك امرأة صالحة شريفة يا ناستاسيا فيليوفا ، وأنت
لا تصلحين لروجويين ولا خلقت لمثله •
- أنا ؟ انا امرأة صالحة شريفة ؟ أنا ؟

- أنت •

- أوه!... هذا كلام خيالى مستمد من الروايات!... هذه حكايات قديمة يا أمير ، يا صديقى • لقد أصبح الناس فى هذه الأيام أعظم ذكاء وأشد فطنة ، وما ذلك كله الا سفساف وترهات ! ثم ... أى زوج عسك تكون أنت الذى ما تزال فى حاجة الى مربية تُعنى بأمرك ؟

نهض الأمير وقال بصوت مختلج وجل ، ولكن بلهجة تعبر فى الوقت نفسه عن اقتناع عميق :

- أنا لا أعرف شيئاً يا ناستاسيا فيليوفنا ... أنا لم أر شيئاً ... انك على حق ولكننى ... أعتقد أنك أنت التى تسبغين علىَّ شرفاً اذا ارتضيتى زوجاً • أنا لست شيئاً • أما أنت فأنت قد تأملت ، وأنت قد خرجت طاهرة نقية من جحيم كهذا الجحيم • وذلك شئ كثير • لماذا تشمرين بالعار وتريدين أن ترحلى مع روجوين ؟ انها الحمى ... لقد رددت الى السيد توتسكى السبعين ألف روبل ، وأنت تقولين انك ستركين له كل شئ ، كل ما هو موجود فى هذا المكان • ما من أحد هنا قادر على أن يفعل ما تفعلين • اننى ... يا ناستاسيا فيليوفنا ... اننى أحبك • أنا مستعد لأن أموت فى سبيلك يا ناستاسيا فيليوفنا • لن أسمح لأحد أن يقول فىك كلمة سوء يا ناستاسيا فيليوفنا ... واذا كنا فقيرين ، فلسوف أعمل يا ناستاسيا فيليوفنا ...

هنا سُمع صوت فردشتينكو وليديف يضحكان ساخرين • واستاء الجنرال نفسه فأصدر هذا الصوت « همّ » ! ولم يستطع بتسين وتوتسكى أن يمتعا عن التبسم ، ولكنهما لم يلبثا أن كبها ابتسامتهما • أما سائر الحضور فكانوا فانغرى الأفواه من الدهشة •

وتابع الأمير يقول بذلك الصوت الوجمل نفسه :

- ولكن من الجائز ألا نكون فقيرين البتة ، بل غنيين جداً يا ناستاسيا فيليوفنا • على أنني لست متأكداً من شيء • يؤسفني أنني لم أستطع حتى الآن أن أعرف شيئاً طوال هذا اليوم ، ولكنني تلقيت وأنا بسويسرا رسالةً من موسكو بعث بها إلى رجل اسمه السيد سالازكين ، وفيها يلفتني أن على أن أطلب بحقي في ميراث يظهر أنه ضخم جداً • إليك الرسالة ...

وأخرج الأمير من جيبه رسالةً بالفعل •

دمدم الجنرال يقول :

- أليس هذا هدياناً ؟ أترانا في مستشفى مجانيين ؟

وخيم الصمت لحظة •

سأل بتسين :

- هل قلت ان الرسالة قد بعثها إليك سالازكين يا أمير ؟ هذا رجل معروف جداً في بيتنا ، هو رجل مشهور من رجال الأعمال ، فاذا صحَّ أنه هو الذي بعث إليك بهذه الرسالة ، فان في وسعك أن تثق به كل الثقة ، وأن تطمئن إليه كل الاطمئنان • من حسن الحظ أنني أعرف توقيعه ، فقد كان لي عمل معه في الآونة الأخيرة • فاذا سمحت لي أن ألقى على الرسالة نظرة فقد أضىء لك الأمر •

مدَّ الأمير إليه الظرف صامتاً ، بيد مرتعشة •

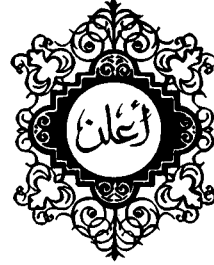
وانتفض الجنرال قائلاً وهو يلقي على الحضور نظرة مبهوتة :

- ماذا ؟ ماذا ؟ أميراثٌ حقاً ؟

وانصبت جميع الأنظار على بتسين بينما هو يقرأ الرسالة • لقد ألهمت الرسالة فضول الحاضرين بنار جديدة • أصبح فردشتينكو لا يستطيع

الاستقرار فى مكانه • وصعق روجوين فهو يلقى نظرات حائرة مضطربة
قلقة على الأمير تارة وعلى بتسين تارة أخرى ، وينقل بصره بينهما بغير
توقف • وأصبحت داريا ألكسيفنا أثناء هذا الانتظار كالجالسة على ابر •
ونفذ صبر ليديف نفسه فترك ركنه ، وحنى جسمه نصفين يحاول أن
يقرأ الرسالة من فوق كتف بتسين ، وكأنه يتوقع أن يُصفع صفعه قوية
من لحظة الى أخرى معاقبةً له على فضوله •

الفصل السادس عشر



بتسعين أخيراً وهو يطوى الرسالة ويردها الى
الأمير ، أعلن يقول :

- هذه قضية مؤكدة • سوف ترث ، دون القيام
بأى مسعى خاص ، ثروة طائلة جداً ، الت اليك

من خالتك في وصية لا مجال للطعن فيها على الاطلاق •

صاح الجنرال يقول :

- غير معقول !

• وكان انطلاق صيحته أشبه بدوى انفجار •

• ولبت الآخرون فاغرى الأفواه من التعجب •

عندئذ أخذ بتسعين يشرح الأمر ، مخاطباً ايفان فيدوروفتش خاصة ،
فقال ان للأمير خالة ماتت منذ خمسة أشهر ، هي الأخت الكبرى لأمه ،
ولكن الأمير لا يعرفها معرفة شخصية ولم يرها في يوم من الأيام ؛ وهي
من أسرة بابوشين ، وكان أبوها تاجراً من الطبقة الثالثة بموسكو ، أفلس
ثم مات فقيراً معوزاً ؛ وكان الأخ الأكبر لهذا الرجل ، وقد مات منذ مدة
قصيرة ، يحتل مكاناً عالياً في عالم التجارة • فلما مات ابنه منذ سنة في
غضون شهر واحد ، مرض من شدة الحزن مرضاً شديداً ومات • وكان
أرمل ، وليس له الا وريث واحد هو ابنة أخيه ، خالة الأمير ، التي كانت
امراً فقيرة جداً تعيش في بيت أناس غرباء • وحين آل اليها هذا الميراث

كانت مصابة بداء الاستسقاء وكانت تُحتضر • لكنها أسرعَت تكلف
سلازكين بأن يبحث عن الأمير ، حتى لقد اتسع وقتها لأن تكتب وصيتها •
ويبدو أنه لا الأمير ولا الطبيب الذى كان ضيفاً عليه بسويسرا أرادا أن
ينتظرا الابلاغ الرسمى أو أن يعمدا الى التثب من الأمر : وانما وضع
الأمير الرسالة فى جيبه وقرر أن يجيء الى روسيا •••

وختم بتسين كلامه مخاطباً الأمير فقال :

- الشيء الوحيد الذى أستطيع أن أقوله لك هو أن هذا الأمر كله
لا بد أن يكون ثابتاً لا جدال فيه لا من جهة الواقع ولا من جهة الحق ،
وان فى امكانك أن تعد أقوال سلازكين فى هذا الموضوع بمثابة مال فى
جيبك • أهتاك يا أمير • من الجائز أن تنال أنت أيضاً مليوناً ونصف
مليون ، ان لم يكن أكثر من ذلك • لقد كان بابوشكين واسع الثراء •
جأر فردشتينكو يقول :

- مرعى لآخر رجل من سلالة الأمراء ميشكين •
وأعول ليديف يقول بصوت مخمور أبع :

- مرعى !

وقال الجنرال مصعوقاً من الدهشة :

- وأنا الذى أقرضته خمسة وعشرين روبلاً كما يُقرض رجل
بائس !••• ها ها ها !••• أمر أغرب من الخيال !••• طيب !••• تهانىَّ
يا عزيزى ، تهانىَّ !•••

قال الجنرال ذلك ونهض متجهماً نحو الأمير ليقبّله • واقتدى به
آخرون فاسرعوا يحدقون جميعاً بالأمير • وحتى أولئك الذين كانوا قد
انسحبوا الى الغرفة المجاورة أخذوا يظهرن فى الصالون من جديد •
وقامت ضوضاء مضطربة ، فمن أحاديث مبهمة ، الى صيحات تعجب ، بل

والى صرخات نداء تطالب بشامبانيا • وأخذ الحضور يتزاحمون ويصدم بعضهم بعضاً كأنما أصابتهم جميعاً حمى • حتى لقد كادوا ينسون ناستاسيا فيليوفنا خلال برهة من الوقت ، وكادوا ينسون أنها سيدة فى بيتها رغم كل شيء • ولكنهم تذكروا شيئاً بعد شيء ، فى وقت واحد على وجه القريب ، أن الأمير قد عرض عليها منذ هنيهة أن يتزوجها • فإذا بهذا التذكر يفاقم الحالة ويجعل الوضع أشد امعاناً فى الجنون • وقد دُهِش توتسكى أعمق الدهشة ، لكنه كان لا يزيد على أن يرفع كفيه ، حتى ليكاد يكون الشخص الوحيد الذى ظل جالساً • أما الآخرون فقد كانوا جميعاً يحتشدون حول المائدة فوضى • ولقد أكدوا فيما بعد أن ناستاسيا فيليوفنا انما فقدت عقلها فى تلك البرهة •

كانت ناستاسيا فيليوفنا قد لبثت جالسةً ، وظلت بعض الوقت تجيل على الحضور نظرة غريبة مدهوشة ، كأنها لم تفهم ما حدث ، فهى تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن تدركه • ثم التفتت الى الأمير فجأةً ، فحدقت اليه باتباه ، عابسةً مهددة • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة • فلعلها قد ظنت أن الأمر لم يكن الا مزاحاً أو سخرية ، حتى اذا رأت الأمير تخلصت من ذلك الوهم بسرعة ، وعادت الى الوجوم والتفكير ؛ وها هى ذى الآن تبسم وكأنها لا تعرف كثيراً لماذا تبسم ...

ودمدت تقول بلهجة ساخرة :

— اذن سأصبح أميرة حقاً !

وألقت نظرةً على داريا ألكسيفنا دون ارادة منها ، ثم انفجرت تضحك • وتابعت كلامها فقالت :

— هذه خاتمة لم تكن فى الحسبان ... ليس ... ليس هذا ما كنت أتوقعه ... هيه أيها السادة ! ما بالكم تظلمون واقفين ، هلاً تفضلتم فجلستم وهنأتمونا أنا والأمير ! يخيل الى أن أحداً قد طلب شامبانيا •

هلاً أصدرت أوامرك يافردشتينكو ؟ يا كاتيا ، ويا باشا (هكذا نادت خادمتها حين لمحتهما فجأة على الباب) تقدّما الىّ ! سوف أتزوج ، هل سمعتما ؟ سوف أتزوج الأمير ، انه يملك مليوناً ونصف مليون ؟ هو الأمير ميشكين ، وسوف يتزوجنى !

هتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد هزتها هذه الأحداث هزاً عميقاً :

- وليكن الله مَعك ! لقد آن الأوان ...

تابعت ناستاسيا فيليوفا كلامها :

- طيب يا أمير ... اجلس بقربى ، هنا ، واليك الشمبانيا • وهياً

يا سادة ، اشربوا نخب صحتنا !

أعولت أصوات كثيرة تهتف :

- مرحى !

واحتشد عدد كبير من الحضور حول زجاجات الشمبانيا ، واحتشد حولها خاصةً جميع أفراد عصابة روجوين على وجه التقريب • غير أن كثيراً من الحضور قد أحسوا ، رغم صراخهم ، ورغم استعدادهم لمزيد من الصراخ ، أن الجو قد أخذ يتغير ، على ما كان فى الأحداث من غموض وإبهام ؟ واضطرب بعضهم فبدأ ينتظر التهمة مرتاباً قلقاً ؟ وتهامس بعضهم يقول ان الحالة عادية جداً ، وان الأمراء كثيراً ما يتزوج احدهم أية امرأة ، حتى لقد يتزوج فتاة غجرية يختطفها اختطافاً •

أما روجوين فقد كان جامداً ساكناً يراقب المشهد وقد انعقد وجهه بتجميدة حيرى •

وجاء الجنرال الى الأمير خلصةً من جانب ، وهمس يقول له مرتباً وهو يشده من كمه :

- يا أمير ، يا عزيزى ، نب الى رشذك !

فرأته ناستاسيا فيليوفا وسمعت كلماته ، فاذا هي تنفجر ضاحكةً
ضحكاً مجلجلاً ، وتقول :

- لا يا جنرال ، أنا نفسي الآن أميرة ، سمعتَ ذلك بأذنك ، ولن
يسمح الأمير الآن بأن أ'هان. يا آتانا زى ايفانوفتش ، أنت على الأقل هنتى .
سوف أستطيع بعد الآن أن أجلس فى كل مكان الى جانب زوجتك .
ما رأيك ؟ أليس لمثل هذا الزوج نفع ؟ مليون ونصف مليون ... وهو
عدا ذلك أمير ... وفوق هذا كله يقال انه أبله ... فهل هناك ما هو
خير من ذلك ؟ الآن انما ستبدأ الحياة حقاً ! فات الأوان يا روجوين ،
جئت متأخراً ! خذ حزمك . سوف أتزوج الأمير . أنا أغنى منك .
لكن روجوين كان قد أدرك أخيراً ما يجرى . فارتسمت على وجهه
علامات ألم لا سبيل الى مغالته ، وضمَّ يديه احدهما الى الأخرى
متضرعاً ، وأفلتت من صدره أنه توجع ، ثم هتف يقول للأمير :

- تنازل عن طلبك !

فأخذ الحضور يضحكون من حوله .

وانبرت داريا ألكسيفنا تعجب منتصرةً :

- يتنازل لك أنت طبعاً ، أليس كذلك ؟ انظروا الى هذا الفلاح
الذى يلقى ماله على المائدة ! ان الأمير يتخذها زوجة له ، أما أنت فتجئ
لفضيحة !

- أنا أيضاً أتزوجها . فوراً . فى هذه اللحظة . وسوف أدفع كل
شئ ...

قالت داريا ألكسيفنا مستاءةً :

- انظروا الى هذا السكران الخارج من الحمارة ! يجب أن يُطرد !
واشتد الضحك .

فقال ناستاسيا فيليوفا وهي تلتفت نحو الأمير :

- هل تسمع يا أمير ؟ انظر كيف يساوم فلاح ليشتري خطيته !
قال الأمير :

- انه سكران ، وهو يحبك كثيراً •

- ألن تخجل من أن خطيتك قد أوشكت أن تهرب مع روجوين ؟

- كنت تعانين من حمى وما تزالين ، فكأنك كنت تهذين •

- ألن تخجل أيضاً حين يقال لك فى المستقبل ان زوجتك كان
يعولها توتسكى خليفة له ؟

- لا ، لن أخجل !... ان ذلك لم يحدث بارادتك !

- ألن تأخذ على هذا الأمر فى يوم من الأيام ؟

- أبداً !

- انتبه ! لا تورط نفسك على مدى الحياة !

قال الأمير برفق وهدوء ، وب عاطفة تشبه أن تكون شفقة :

- ناستاسيا فيليوفا ، لقد قلت لك منذ لحظة اننى أعد موافقتك شرفاً
لى ، وانك أنت التى تشرفيننى ، لا العكس ! وقد ابتسمت أنت لأقوالى
هذه ، وسمعت من حولى ضحكات • جائز أن تعبرى كان مضحكاً جداً ،
وأنتى كنت أنا نفسى مضحكاً جداً ، لكننى أعتقد بأننى أفهم أين هو
الشرف ، وأنا على يقين من أننى قلت الحقيقة • منذ قليل ، كنت تريدان
أن تضيعى نفسك تضيعاً لا عودة منه ولا رجعة عنه ، لأنك لو فعلت لما
غفرت لنفسك ذلك السلوك فى يوم من الأيام • وأنت مع ذلك لم تأتى
فى شيء • يستحيل أن تكون حياتك قد ضاعت ضائعاً تاماً • ما قيمة أن
يكون روجوين قد سعى اليك ، وما قيمة أن يكون جبريل آرداليوتش قد
حاول أن يخدعك ؟ علام العودة الى هذا بنير انقطاع ؟ ان ما فعلته أنت

لا يقدر عليه الا قليل من الناس ، أكرر لك هذا • أما الرحيل مع روجوين فقد اتخذت فيه قرارات وأنت مريضة • وانك ما تزالين مريضه الى الآن ، وما تزالين تعانين من حمى ، وخير ما يمكن أن تفعله في هذه اللحظة هو أن تمضى الى فراشك فتنامي • ولو قد تبت روجوين لتركة منذ الغداة ومضيت تعملين غسالة • انك ذات كبرياء وشمم يا ناستاسيا فيليوفنا ؛ ولسوف أعتنى بك وأسهر عليك • فى هذا الصباح ، حين رأيت صورتك ، أحسست أننى أرى وجهها أعرفه • لقد شعرت فوراً بأنك قد سبق أن ناديتى ... سوف ... سوف أحترمك كثيراً يا ناستاسيا فيليوفنا •

بهذا ختم الأمير كلامه بفتة على غير توقع ، واحمر وجهه حين تذكر نوع الناس الذين كان يتكلم أمامهم •

وكان بتسين قد خفض رأسه حياءً ، وأطرق الى الأرض • وقال توتسكى بينه وبين نفسه : « هو أبله ، نعم ، لكنه يعرف أن لا شئ يساوى المديح • يعرف هذا بالفطرة ! » • ولا حظ الأمير أيضاً ما كان من شرر فى نظرة جانبا الذى كان يحدجه من ركنه حائقاً كأنه يريد أن يحيله رماداً •

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد فاضت نفسها عاطفة وحناناً :

— هذا ما يسمى قلباً طيباً !

ودمدم الجنرال يقول بصوت خافت :

— رجل مثقف ، لكنه ضائع !

وقالت ناستاسيا فيليوفنا :

— شكراً * يا أمير ؟ ما من أحد قال لى مثل هذا الكلام حتى الآن •

كانوا يضعون لى سمرأ ويحدّون لى ثمنأ ، ولكن ما من رجل شريف

طلبني للزواج في يوم من الأيام • هل سمعته يا آتانا زي ايفانوفتش ؟ ماهو الأثر الذي أحدثته في نفسك كلمات الأمير ؟ أغلب الظن أنك تجد هذا كله يكاد يكون بعيداً عن اللياقة والحشمة ؟ • يا روجويين ، انتظر لحظة ! على كل حال ، لا أرى أنك تنوى الانصراف • ما يزال من الجائز أن أرحل معك • الى أين كنت تريد أن تأخذني ؟ فقال ليديف من الركن الذي هو فيه :

— الى ايكاتيرنهوف * *

بينما لم يزد روجويين على أن ارتعش ، وكان ينظر بكل عينيه وكأنه لا يصدق أذنيه • كان مصعوقاً كمن ضرب على رأسه بفتة •

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول مروعة :

— ما هذا الذي تقولينه يا عزيزي ؟ أتراك جُننت ؟

فصاحت ناستاسيا فيليوفنا تقول وقد انفجرت ضاحكة ونهضت واثبه :

— هل أخذت كلامي مأخذ الجد اذن ؟ أنا أرضى أن أضيع حياة برىء ؟ ذلك أمر خليق بأن يفعله آتانا زي ايفانوفتش • فهو امرؤ يجب أن يفسد على الأبرياء حياتهم • هلمَّ نرحل يا روجويين • هيء حزمة الأوراق المالية ! ليس أمراً هاماً أن تريد أن تتزوجني • حسبك أن تدفع مالاً • ومن الجائز ألا أقبل أن أتزوجك • هل تصورت أن تقدم لي الزواج وأن تحتفظ لنفسك بالمال ؟ لست غبية الى هذا الحد • أنا أيضاً قليلة الحياء خالعة العذار ! لقد كنت خليلة توتسكي أعاشره سفاهاً ! • يا أمير ، أنت الآن في حاجة الى آجلابا ايباتشين لا الى ناستاسيا فيليوفنا • ولو ارتكبت هذه الحماقة لأصبحت مضغة في الأفواه ، ولأشار اليك باصبعه حتى رجلٌ مثل فردشتينكو ! أنت لا تخشى ذلك ؟ ولكنني أنا أخاف أن أكون سبب ضياعك ، وأخاف أن تلومني على هذا في المستقبل • أما ما تقوله عن الشرف الذي أُسبغه عليك اذا أنا تزوجتك ، فان توتسكي

يعرف من أمر هذا الشرف ما يجب أن يُعرف ! أما أنت يا جانيتشكا فقد خسرت آجلايا ايباتشين • هل تعلم ذلك ؟ لولا أنك ساومت معها ، لتزوجتك حتماً • هكذا أتم جميعاً • ينبغي لكم أن تختاروا بين المرأة الشريفة والغاية البغى ، وليس ثمة خيار آخر ! فان لم تفعلوا ذلك تحيّرتم وارتبكتهم واختلطت أموركم ••• انظروا الى الجنرال كيف ما يزال فاعراً فاه !

قال الجنرال مردّدأ وهو يرفع منكبيه :

— هذه مدينة سدوم ، هذه مدينة سدوم !••

كان الجنرال قد نهض هو أيضاً • وكان جميع الحضور قد وقفوا على كل حال • وكانت ناستاسيا كمن جُنَّ جنونها •

قال الأمير في أنين وهو يلوى يديه حسرةً ولوعة :

— أهذا ممكن ؟

فردّت ناستاسيا فيليوفا تقول :

— أكنت تظنه مستحيلاً ؟ قد أكون أنا نفسى ذات كبرياء وشمم ، مهما أكن قليلة الحياء خالعة العذار ! لقد قلت منذ هنيهة اننى امرأة كاملة • يا لهذه المرأة الكاملة التى تلقى بنفسها فى الوحل لا لشيء الا أن تفخر بأنها ركلت بالقدمين مليوناً ولقب أمير ! أنا أصلح لك زوجة بعد هذا ؟ يا آتانازى ايفانوفتش ، لقد رميت المليون من النافذة فعلاً ، فكيف أمكنك أن تتصور أننى سأعِد نفسي سعيدة بأن أتزوج جانيتشكا مدفوعة الى ذلك باغراء الخمسة وسبعين ألف روبل التى تدفعها ؟ خذها ، خذ روبلاتك البالغة خمسة وسبعين ألفاً يا آتانازى ايفانوفتش (انك لم توصلها حتى الى مائة ألف ، فتفوّق عليك روجوين) • أما جانيتشكا فسوف أتولى مواساته بنفسى • لقد خطرت ببالى فكرة • والآن أريد أن ألهو وأقصّف •

ألست من بنات الشوارع ؟ قضيت عشر سنين فى سجن • وقد آن لى أن
أصبح سعيدة • هلمَّ يا روجوين ، هىء نفسك ! لنرحل !
فزأر روجوين يقول وقد كاد يُجنُّ فرحاً :
- لنرحل ! هيه ! أتم ••• نريد خمراً ! أف !•••
- هىء خمراً • سوف أشرب • وهل سنسمع موسيقا ؟
- نعم ، سنسمع موسيقا ، سنسمع موسيقا •••
كذلك أجاب روجوين ، فلما رأى داريا الكسيفنا تتقدم نحو
ناستاسيا فيليوفنا ، جأر يتابع كلامه قائلاً :
- لا تقتربى ! لا تقتربى ! انها لى أنا ! كل شىء لى أنا ! هى ملكتى!
اتهى الأمر !

كان يختق فرحاً • وكان يدور حول ناستاسيا فيليوفنا صارخاً يقول
لكل واحد : « لا تقرب ! » • وقد تجمعت عصبته كلها فى الصالون •
فبعضهم يشرب ، وبعضهم يصرخ ويضحك ضحكاً صاخباً ، وجميعهم مهتاج
يشعر بفرح غامر • وكان فردشتينكو يحاول منذ ذلك الحين أن يجد له
مكاناً بينهم •

وتحرك الجنرال وتوسكى مرةً أخرى يريدان أن يسجبا • وكان
جانيا قد حمل قبعة يده هو أيضاً ، لكنه ظل أخرس لا ينطق بحرف ،
وظل جامداً لا يتحرك ، كأنه عاجز عن انتزاع نفسه من المشهد الذى
يجرى أمامه •

- لا تقرب !

كذلك كان يجأر روجوين •

فانفجرت ناستاسيا تضحك وتقول له :

- مابالك تعمل هذا الاعوال ؟ أنا ما زلت فى دارى سيدة نفسى • تكفى

اشارة واحدة منى حتى تطرد شر طردة • أنا لما آخذ مالك بعد •
ما يزال المال فى مكانه • هاته الى هنا • أعطنى الحزمة كلها • أهذه الحزمة
هى التى تضم مائة ألف روبل ؟ فطاعة ! ولكن ماذا بك يا داريا ألكسيفنا ؟
أكان يجب علىَّ حقاً أن أفسد حياته ؟ (سألت هذا السؤال وهى تومىء
الى الأمير) • كيف يمكنه أن يتزوج وهو ما يزال فى حاجة الى مربية
أطفال ؟ سوف ينوب الجنرال عن مربية أطفال ، سوف يقوم له بهذا
الدور • انظرى كيف يحوم حوله ويدلّله ! انظر يا أمير : ان خطيتك
قد أخذت المال لأنها مومس ، وأنت كنت تريد أن تتزوجها ! ولكن ما بالك
تبكى ؟ أتجد فى هذا مرارة شديدة ؟ أضحك مثلى •••

كذلك تابعت ناستاسيا فيليوفنا كلامها وقد تالأت على خديها ، هى
أيضاً ، دمتان كبيرتان • وواصلت تقول :

— اتكل على الزمن • سوف ينقضى كل شيء • لأن يغيّر المرء رأيه
الآن خير من أن يغيّره فى المستقبل ••• ولكن ما بالكم تكون جميعاً ؟
هذه كاتيا قد أخذت تذرف الدموع هى أيضاً • لماذا تبكين يا كاتيا ،
يا صغيرتى ؟ سوف أترك لكما أنت وباشا أشياء كثيرة • لقد اتخذت لهذا
الأمر ما يجب اتخاذه من تدابير • والآن ، وداعاً ! أنت الفتاة الشريفة ،
كنت أجبرك على أن تخدمينى أنا العاهرة ! هذا أفضل يا أمير ! حقاً هذا
أفضل ! والا فسوف تحقرنى فى النهاية ، فلا تتحقق لنا سعادة • لا تحلف
الأيمان المغلطة ، فلن أصدقك • ما كان أسخف أن أوافق على أن
تتزوج !••• لا يا أمير ، ان الأفضل أن نفترق على صداقة ، لأننى أنا
أيضاً حاملة ، فلو تزوجنا لما كان فى ذلك أى خير ! ألم أحلم بك أنا أيضاً ؟
انك على حق : لقد حلمت بك زمناً طويلاً ، منذ أن كنت بالريف ، عنده •
قضيت هناك خمس سنين ، وحيدة تماماً • فكنت أتعقل من خواطر الى
خواطر ، ومن أحلام الى أحلام ، حتى وصلت الى تصور رجل مثلك ،

طيب ، شريف ، رقيق ، غبى بعض الغباء أيضاً ، يأتبنى على حين فجأة
فيقول لى : « ما أنت بآئمة يا ناستاسيا فيليوفا • اننى أحبك وأعبدك ! » •
نعم كنت استرسل فى الأحلام أحياناً الى درجة الجنون ! فاذا بهذا الرجل
يصل ، ليقضى شهراً أو شهرين كلَّ عام ، ثم يتركنى مهانةً ملطخة
الشرف بالعار مهتاجةً مدنَّسة • أردت ألف مرة أن ألقى بنفسى فى
الغدير ، لكننى كنت جبانة ، فأعوزتنى الشجاعة ••• والآن ، أنت مستعد
يا روجوين ؟

- كل شيء مهياً !

ورددت عدة أصوات تقول :

- كل شيء مهياً !

- وعربات الترويكات تنتظر تحت ، مع أجراسها •

تناولت ناستاسيا فيليوفا حزمة الأوراق المالية بيديها • وقالت :

- يا جانيا ، خطرت ببالى فكرة • أريد أن أعوِّض عليك خسارتك

لماذا ينبغي أن تفقد كل شيء ؟ يا روجوين ، هل تعتقد أنه مستعد أن يزحف

منبطحاً حتى فاسيلفسكى فى سبيل ثلاثة روبلات ؟

- نعم ، انه مستعد أن يزحف منبطحاً •

- فاسمع اذن يا جانيا • أريد أن أتأمل نفسك مرةً أخيرة • لقد

عذبتنى طوال ثلاثة أشهر • وجاء الآن دورى أنا • هل ترى هذه الحزمة ؟

انها تضم مائة ألف روبل ! سوف أرميها فى الموقد ، على مرأى من جميع

الحضور ، ليكونوا كلهم شهوداً • فتمتى أمسكت النار بها من كل جهة ،

فأسرعُ أنت الى الموقد ، ولكن بدون قفازين ، بل عارى اليدين ، واشمر

كمكَّ واستلَّ الحزمة من النار • فاذا أفلحت فى ذلك كانت المائة ألف

روبل لك أنت ! لن يكون عليك الا أن تحرق أصابعك قليلاً ، ولكن

المكافأة مائة ألف روبل، فكّر في الأمر! هل يستغرق استلالها وقتاً طويلاً؟ لا ... وفي أثناء ذلك سيتاح لي أن أعجب بنبل نفسك وعلوّ همتك ، بينما أنت تشلّ مالي من النار ! الجميع شهود على أن المال سيكون مالك أنت ! أما إذا لم تشلّ أنت الحزمة من النار فسوف تحترق الحزمة • لن أسمح لأحد بأن ينتشلها • ابتعدوا جميعاً الى وراء ، الى وراء ! المال مالي أنا ! هو ثمن ليلتي مع روجوين ! هل هذا المال مالي أنا يا روجوين ؟

– لك أنت يا فرحتي ، لك أنت يا ملكتي !

– فابتعدوا اذن الى وراء ، ابتعدوا كلكم ، أنا أفعل ما أشاء ، لا تضايقوني ! يا فردشتينكو ، حرّك النار لتوريها ! فأجابها فردشتينكو يقول مصعوقاً :

– لا تطاوعني يداي يا ناستاسيا فيليوفا !

فهتفت ناستاسيا فيليوفا تقول :

– طيب ، طيب •

وأمسكت الملقط ، فحرّكت الجمر ، حتى اذا ارتفعت ألسنة اللهب، رمت الحزمة في الموقد •

صرخ الجميع ، حتى أن كثيرين منهم رسموا على أنفسهم اشارة الصليب • وارتفع من جميع الجهات صياح يهتف :

– مجنونة ، مجنونة !

وهمس الجنرال في اذن بتسين قائلاً :

– أليس الأفضل أن نوقتها بالجمال ؟ أو أن نستدعي ... هي مجنونة ، أليس كذلك ؟ مجنونة حقاً ؟

فأجابه بتسين بصوت خافت ، شاحب الوجه مرتعش الجسم عاجزاً عن تحويل بصره عن الحزمة التي أخذت النار تمسك بها :

– ل... لا ! ليس هذا بالجنون تماماً •

فاتجه الجنرال عندئذ الى توتسكى يسأله :

– مجنونة ، أليست مجنونة ؟

فدمدم ايفانوفتش يقول شاحب الوجه هو أيضاً :

– ألم أقل لك انها امرأة « طريفة » ؟

– مائة ألف روبل !

وسمعت من جميع الجهات صيحات تقول :

– يا لطيف يا رب !

احتشد الحضور جميعاً قرب الموقد ، يحاولون جميعاً أن يروا ،
ويطلقون جميعاً صيحات الدهشة ... حتى لقد اعتلى بعضهم كراسى
وراح ينظر من فوق رموس الآخرين • وكانت داريا ألكسيفنا قد أسرع
الى الغرفة المجاورة مروّعة الهيئة توشوش كاتيا وباشا • وكانت الألمانية
الجميلة قد ولّت هاربة •

جأر ليديف قائلاً وهو يزحف على ركبتيه أمام ناستاسيا فيليوفنا ،
ويمد ذراعيه نحو الموقد :

– ماتوشكا ! ايتها الملكة القادرة على كل شىء .. هذه مائة ألف روبل !
مائة ألف ! رأيتها بعيني ، حُزمت أمامي ! ماتوشكا الرحيمة ! مرينى
فأرمى جسمى كله فى الموقد ، وأضع فى النار رأسى الأشيب ! ... ان
عندى امرأة مريضة ... فاقدة الساقين ... وثلاثة عشر طفلاً هم جميعاً
يتامى • لقد دفنت أبى فى الأسبوع الماضى • انهم يتضورون جوعاً •
ناستاسيا فيليوفنا !

كذلك زأراً ليديف ، وأخذ يزحف نحو الموقد •

فصرخت ناستاسيا فيليوفنا تقول وهى تدفعه :

- الى وراء ! ابتعدوا جميعاً ! ماذا تنتظر يا جانيا ؟ لا تستح ! هلم !
هذه فرصتك !

لكن جانيا كان قد تحمل كثيراً خلال ذلك النهار وتلك الليلة ، ولم يكن قد تهيأ لهذا الامتحان الأخير الذى لا يُتوقع ! انشطر الحشد أمامه شطرين ، فاذا جانيا يصبح قبالة ناستاسيا فيليوفنا وجهاً لوجه ، على مسافة ثلاث خطوات • كانت واقفة عند الموقد تنتظر ، دون أن تحوّل عنه نظرتها الملتهبة الثابتة • ان جانيا يقف الآن برداء « الفراك » ، حاملاً قبعة بيديه ، صامتاً لا يجيب ولا يتحرك ، عاقداً ذراعيه على صدره ، يتأمل اللهب •
وكانت ابتسامة تائهة تطوف بوجهه الشاحب شحوباً شديداً •

صحيح أنه كان لا يستطيع أن يحول عينيه عن النار ، وعن الحزمة التى أخذت تسود ، غير أن شيئاً جديداً كان يبدو أنه اجتاح نفسه واستولى عليها • لكأنه حلف ليحتملنّ التعذيب حتى النهاية ، فهو لا يبدي حراكاً ؛ حتى أصبح واضحاً للجميع بعد بضع لحظات أنه لن يتنسل الحزمة من النار ، أنه لا يريد ذلك •

وكانت ناستاسيا فيليوفنا تصرخ قائلة له :

- ستحترق الحزمة ، فتكون أنت الملوم ؛ ولتشنقن نفسك حزناً
وكمداً بعد ذلك • لست أمزح !

ان النار التى نبتت فى أول الأمر من بين حطبتين خامدتين قد بدا عليها بعد ذلك أنها اخذت تنطفئ تحت وطأة الحزمة • غير أن لهباً رقيقاً أزرق ما يزال عالقاً بطرف من الخطبة • وأخيراً جاءت شرارة دقيقة طويلة تمس الحزمة ، ثم تجرى على طوال الورقة التى تلفها حتى زواياها ، ثم اذا بالنار تمسك الحزمة كلها فجأة ، فيخرج منها لهب ساطع • واذا بالحضور جميعاً يصيحون !

عاد لييدف يعول قائلاً وهو يتجه نحو الموقد من جديد :

- ماتوشكا !

ولكن روجوين أمسكه ودفعه •

ولم يكن روجوين نفسه الا نظرة جامدة • كان لا يستطيع أن
يحوّل بصره عن ناستاسيا فيليوفا • وكان يشعر من ذلك بنشوة وسكر •
كان فى السماء السابعة •

كان يهتف قائلاً وقد جنّ جنونه ثملاً :

- هذه ملكة حقاً ! هذه من بلدنا فعلاً ! من منكم ، يا عصابة من
أوغاد ، يستطيع أن يفعل مثل الذى تفعل ؟
وكان الأمير يراقب المشهد حزيناً صامتاً •
قال فردشتينكو مقترحاً :

- أئسلها بأسناني اذا كوفت بورقة واحدة قيمتها ألف روبل •
فجأراً الرجل ذو القبضتين الضخمتين الذى كان واقفاً وراء الجميع ،
جأراً يقول وقد اعترته نوبة كرب هائلة :

- أنا مستعد أن أئسلها بأسناني أيضاً •

ثم صاح يقول وقد رأى اللهب :

- انها تحترق ! سوف يحترق كل شيء !

وهتف الجميع بصوت واحد :

- أخذت تحترق ! أخذت تحترق !

واندفع الجميع تقريباً نحو الموقد • قالت ناستاسيا :

- جانيا ! لا داعى الى التخرج ! لا تستح ! أقول لك هذا اخر

مرة !

أعول فردشتينكو قائلاً وهو يهجم على جانبا كالمسعود ويشده
من كفه •

- هلمَّ أيها المتبجح ! سوف يحترق المال ! أوه ! نحس !
تصدى جانبا لفردشتينكو فدفعه عنه بكل قواه ، واستدار ، ومشى
نحو الباب ، لكنه ما ان خطا خطوتين حتى ترنح وسقط على الأرض •
فصاح الحضور يقولون :
- اغمء !

وعاد ليديف يزقق ضارعاً :
- ماتوشكا ! سوف تحترق !
وزأر الحشد من كل جهة :
- سوف تحترق بلا سبب !
وصرخت ناستاسيا فيليوفا منادية :
- يا كاتيا ، يا باشا ، جيئاه بماء ، وجيئاه بخمرة !
ثم أمسكت الملقط ، وانتشلت الحزمة • كانت الورقة التي تلف
الحزمة قد احترقت كلها تقريباً وهلكت ، ولكن أمكن أن يُرى فوراً أن
ما بداخلها لم يمسه أذى • كانت الحزمة ملفوفة بثلاث صحائف من
ورق الجرائد ، وكان المال سليماً • تنفس الجميع الصعداء •
قال ليديف بخان :

- لعل ورقة واحدة بألف روبل قد فسدت ، ذلك في أكثر تقدير •
أما الباقي فسلم لم يمسه سوء •
هتفت ناستاسيا معلنةً وهي تضع الحزمة قرب جانبا :
- هذه الأموال كلها له ! الحزمة كلها له ! هل تسمعون كلامي

يا سادة ؟ لقد ملك من القوة ما أتاح له ألا يأخذها • لقد صمد ! هذا دليل على أن كبريائه ما تزال أكبر من جشعه • لا تقلقوا ، سوف يفيق من اغمائه ! ولولا أنه قد أغشى عليه لكان من الممكن أن يقتلني !... هه ، ها هو ذا يفيق منذ الآن ! يا جنرال ، يا ايفسان بتروفتش ، يا داريا ألكسيفنا ، يا كاتيا ، يا باشا ، يا روجوين ، هل سمعتموني ؟ ان الحزمة كلها له ، له هو ، لجانيا ! أهديها اليه وأملكه اياها ، تعويضاً له ... عما لا أدري ! قولوا له ذلك ! فلتبق الحزمة بقربه • يا روجوين هلم ، سرّ ! وداعاً يا أمير ، هذه أول مرة أرى فيها كائناً انسانياً ! وداعاً ، آتانازى ايفانوفتش ! و « شكراً » •

وسارت عصبة روجوين كلها نحو باب الخروج بضجة وصخب وضوضاء وصراخ يدوى فى البيت كله ، سارت تتبع روجوين وناستاسيا فيليوفنا •

وفى القاعة ألبستها كاتيا وباشا معطفها ؛ وهرعت الطباخة مارتا من مطبخها • فقبلتهنّ ناستاسيا فيليوفنا جميعاً • سألتها وهنّ يبكين ويقبلنّ يديها :

- هل يمكن يا ماتوشكا أن تتركينى حقاً ؟ والى أين عساك تذهين؟ وفى يوم عيد ميلادك ، فى يوم كهذا اليوم ؟

- أذهب الى الشارع يا كاتيا ، سمعت ذلك • هناك مكانى • الا أن أعمل غسّالة • شئت آتانازى ايفانوفتش • أبلغنه سلامى ، ولا تظننّ بى سوءاً ...

وهرع الأمير نحو باب الخروج • كان الجميع قد أخذوا يستقرون فى عربات الترويكات الأربع التى كانت أجراسها تتحرك بغير انقطاع • واستطاع الجنرال أن يدركه فى السلم • قال له وهو يمسك ذراعه :

- ما هذا يا أمير ؟ تب الى عقلك • اتركها ! لقد رأيت كيف هي •
أقول لك هذا قولة أب •••
نظر اليه الأمير ولكن دون أن يقول كلمة واحدة • ثم انتزع ذراعه
منه ، وهبط السلم راکضاً •

واستطاع الجنرال وهو واقف على درجات المدخل الذى بارحته
عربات الترويكما منذ هنيهة ، استطاع أن يرى الأمير يشب الى أول مركبة
ويصبح مهيباً بالحوضى : « الى ايكاترنهوف ! اتبع عربات الترويكما ! » •
ثم وقفت مركبة الجنرال الفخمة أمام درجات المدخل ، فركبها ، ومضى الى
منزله بآمال جديدة وحسابات جديدة ، وبمقد النلاىء الذى حاذر أن
ينساه ! وفى وسط تلك الحسابات ، تراءت له صورة ناستاسيا فيليوفنا
الفتاة الأخاذة مرةً أو مرتين فتهد يقول : « خسارة ، خسارة حقاً ! امرأة
ضائعة ! مجنونة ! نعم ••• ولكن ما أصبح الأمير يحتاج اليه الآن ليس
امرأة مثل ناستاسيا فيليوفنا ••• فلعل من الخير أن جرت الأمور هذا
المجرى » •

وان أقوالاً فيها عبر كهذه العبر تقريباً قد نطق بها شخصان آخران
من ضيوف ناستاسيا فيليوفنا قررا أن يسيرا معاً بضع خطوات • فقد قال
ايفان بتروفتش بتسين يخاطب آتانازى ايفانوفتش :

- هل تعلم يا آتانازى ايفانوفتش ؟ يظهر أن فى بلاد اليابان تقاليد
من هذا النوع : يذهب الشخص المهان الى الشخص الذى أهانه فيقول له :
« أنت أهنتنى فلذلك جئتك الآن أبقر بطنى أمامك » ، ثم يقر بطنه على
مرأى من الشخص الذى أهانه ، ولعله يشعر بارتياح كبير ورضى عظيم
كأنه انتقم لنفسه فعلاً • ما أكثر الطبائع العجيبة فى هذا العالم يا آتانازى
ايفانوفتش !

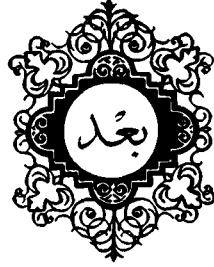
فأجابه آتانازى ايفانوفتش مبتسماً :

- فأنت ترى اذن أن شيئاً من هذا القليل هو ما حدث الآن • هم •
أمر فكه على كل حال ••• وتشبيهه بديع ! ولكنك رأيت بنفسك يا صديقي
العزيز جداً ايفان بتروفتش اننى قد فعلت من جهتي كل ما كان فى وسعى
أن أفعله • لا يمكننى أن أفعل المستحيل على كل حال ! يجب أن توافقنى
على هذا • ولكن يجب أن توافقنى أيضاً على أن هذه المرأة كانت لها مواهب
رفيعة ، وميزات ساطعة ! لو استطعت ، منذ قليل ، أن أجزى لنفسي ، وسط
مدينة سدوم تلك ، أن أفصح عما يدور فى خاطري ، لوددت أن
أجيبها بقولى انها هى نفسها أكبر مبرّر وأعظم مسوِّغ لى تجاه جميع تلك
التهم ! من ذا الذى يمكنه ألا تغويه هذه المرأة فى بعض الأحيان الى حدٍ
يفقد معه عقله ••• وسائر ما عدا ذلك ؟ انظر الى ذلك الجلف روجوين
الذى أتاها بمائة ألف روبل ! هَبْ كل ما حدث هناك منذ قليل عرضاً
طارئاً ، واندفاعاً رومانسياً لا داعى اليه ، لكنه فى مقابل ذلك غنى
بالألوان ، طريف أعظم الطرافة ! عليك أن تعترف بهذا ! آه ••• حين
أفكر فيما كان يمكن أن يخرج من اجتماع طبع كهذا الطبع وجمال كهذا
الجمال !••• لكن كل شيء ضاع ، رغم جميع جهودى ، بل ورغم كل
ما هيأته لها من أسباب التربية والثقافة ! هى ماسة لم يمكن صقلها • قلت
ذلك غير مرة •

قال آتاناى ايفانوفتش ذلك ، وزفر زفرة عميقة •

الجزء الثاني

الفصل الأول



يومين اثنين من أحداث السهرة التي شهدناها في بيت ناستاسيا وختنا بها الجزء الأول من قصتنا ، أسرع الأمير ميشكين يسافر الى موسكو ليغني بأمر الميراث المفاجيء الذي آل اليه على غير توقع . وقد زعم بعضهم في ذلك الأوان ان هناك أسباباً دعت الأمير الى الاسراع في السفر . ولكننا لا نستطيع فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكذلك فيما يتعلق بجميع الأحداث التي وقعت للأمير بموسكو ، أو التي وقعت له طوال مدة غيابه عن بطرسبرج عامة ، لا نستطيع أن نقدم الا معلومات قليلة . لقد دام غياب الأمير ستة أشهر تماماً . ومع ذلك فحتى الذين كانت تحضهم أسباب معينة على أن يهتموا بمصيره ، لم يستطيعوا أن يعلموا عنه الا أشياء قليلة جداً طوال تلك المدة . صحيح أن هناك شائعات كانت تصل الى مسامع بعضهم في أحيان نادرة ، ولكن تلك الشائعات كان أكثرها غريباً عجيباً ، وكانت متناقضة في جميع الأحيان على وجه التقريب . وكان أفراد أسرة ايباتشين التي لم يتسع وقت الأمير حتى لتوديعها قبل سفره ، أكثر الناس اهتماماً به وتقصياً لأبنائه . ثم ان الجنرال قد التقى به أثناء تلك الفترة ، حتى انهما تناقشا نقاشاً جاداً مرتين أو ثلاث مرات . غير أن الجنرال لم يذكر لأسرته شيئاً عن لقائه بالأمير . والواقع أن السكوت عن ذكر الأمير في الآونة الأولى التي أعقبت سفره ، أي خلال شهر كامل تقريباً ، كان قاعدة في منزل الجنرال ايباتشين . الجنرالة اليزابت

بروكوفيتنا وحدها أعلنت في البداية أنها « قد أخطأ ظننا فيه خطأ قاسياً » .
ثم أضافت بعد شهرين أو ثلاثة أشهر قولها : « ان أبرز سمة في حياتها
هى أنها تُخدع في أمر الناس دائماً » ، ولكنها في هذه المرة لم تذكر اسم
الأمير ، وأطلقت حكمها غامضاً مبهماً . واغتازت من بناتها بعد عشرة أيام
فختت كلامها بهذه العبارة : « كفانى أخطاء ! لا خطأ بعد الآن ! »

لا نستطيع الا أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد ساد المنزل خلال مدة
طويلة نوعٌ من اعتكار المزاج ، شئ من الثقل والتوتر ، جوٌّ مليءٌ بأُمور
غير معلنة يمكن أن يثير الشقاق في كل لحظة . كان جميع من بالمنزل
مكتئباً مظلم النفس . والجنرال مشغول بمساعيه وأعماله ليلاً ونهاراً : انه
ما رئى في حياته كلها أكثر انهماكاً بالعمل وأكثر جدّاً ونشاطاً منه في هذه
الفترة ، ولا سيما في وظيفته . ان ذويه لا يكادون يرونه . أما الآنسات
ايباتشين فكنَّ لا يعبرن عما يدور في أذهانهن بصوت عالٍ . وللمهن
كنَّ لا يتحدثن فيما بينهن الا قليلاً . انهن فتيات فيهن كبرياء وأتفة ،
بل فيهن أيضاً حياء وخفر حتى حين يخلو بعضهن الى بعض ؛ ولكن هذا
لا ينفي طبعاً أنهن يفهم بعضهن عن بعض لا من أول كلمة فحسب ، بل
من أول نظرة أيضاً . فلا يكون ثمة داعٍ الى كلام كثير في بعض الأحيان .
الشئ الوحيد الذى كان يمكن أن يلاحظه ملاحظ غريب عن البيت ،
لو أمكنه أن يوجد فيه ، هو أن الأمير ، كما تدل على ذلك بعض العلامات ،
وهى قليلة على كل حال ، وقد أشرنا اليها من قبل ، أن الأمير قد استطاع
أن يحدث في أسرة ايباتشين انطباعاً خاصاً ، رغم أن الأمير لم يظهر في
منزل هذه الأسرة الا مرة واحدة كانت من جهة أخرى طارئة عارضة .
قد لا يكون ذلك الانطباع الا حبّ اطلاع ، تعلله وتفسّره ما وقع للأمير
من أحداث غريبة ، وما عرف في حياته من مغامرات عجيبة . غير أن ذلك
الانطباع قد بقى في نفوس أفراد الأسرة .

وشيئاً فشيئاً ، غابت الشائعات التي انتشرت في المدينة أول الأمر ، غابت هي نفسها في ظلام المجهول . صحيح أن بعض الناس كانوا يتحدثون عن أمير صغير ساذج (لم يكن يستطيع أحد أن يعين اسمه على وجه الدقة) قد ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وتزوج امرأة فرنسية كانت مارةً بالبلاد مروراً عابراً ، فهي راقصة معروفة من فرقة « الكانكان الفرنسى » التي تعمل في « قصر الأزهار » بباريس . غير أن ناساً آخرين كانوا يؤكدون أن الذى ورث تلك الثروة الطائلة إنما هو جنرال ، وأن تاجراً روسياً شاباً ، ثرياً ثراءً لا يُحصى ، هو الذى تزوج راقصة الكانكان الفرنسية ؛ وأن هذا الشاب قد أحرق على لهب شمعة - لا لسبب غير التباهى - سبعين ألف روبل من الأوراق المالية على وجه التمام والكمال .

ولكن انتشار الشائعات سرعان ما انقطع بفضل بعض الظروف . لقد لبث روجوين مع أفراد عصبته أسبوعاً في محطة ايكاترنهوف ، غارقين فى مجنون رهيب يوماً بعد يوم ، وهو مجنون شاركت فيه ناستاسيا فيليوفا . حتى اذا انتهى الأسبوع سافر روجوين على رأس أفراد عصبته الى موسكو (ولعل بين هؤلاء من كان يمكن أن يروى شيئاً) ؛ وعلم العدد القليل من الناس الذين يمكن أن يهتموا بهذا الأمر ، علموا من شائعات أخرى ، أن ناستاسيا فيليوفا قد هربت واختفت غداة يوم الرحيل الى ايكاترنهوف ، وأمكن أن يُعرف أنها سافرت الى موسكو . فأدرك الناس أن هناك صلةً بين هروبها وبين سفر روجوين .

وسرت شائعات أيضاً عن جبريل آرداليوتشس ايفولجين الذى كان معروفاً فى بيئته هو أيضاً . غير أن حادثاً وقع له فسرعان ما أبرد حرارة ألسنة السوء ، بل انتهى الى وقف جميع الأقاويل السيئة فى حقه وقفاً تاماً : لقد مرض مرضاً شديداً ، وانقطع عن الظهور فى المجتمع ، وغاب حتى من مكتبه . ثم أبلَّ من مرضه بعد شهر ، غير أنه لسبب من الأسباب

ترك عمله في شركة الأسهم ، وحل محله موظف آخر . ولم يظهر كذلك في منزل أسرة ايباتشين ، واضطر الجنرال ، هو أيضاً ، أن يتخذ لنفسه سكرتيراً آخر . ولقد كان في وسع أعداء جبريل آرداليوتش أن يفترضوا أنه قد بلغ من الشعور بالعار مما حدث له أنه أصبح يستحي أن يظهر في الشارع . ولكن الحقيقة هي أنه كان مريضاً حقاً : كانت تعثره نوبات وسواس ، وكان كثير الوجوم ، شديد السوداوية ، سريع الاحتياج .

وفي ذلك الشتاء نفسه تم زواج باربارا آرداليونوفا وبتسين . فرأى جميع الذين يعرفونهما أن هناك علاقة مباشرة بين هذا الزواج وبين تصميم جانيا على ألا يعود الى عمله ، فهو الآن ليس عاجزاً عن مساعدة أسرته فحسب ، بل هو نفسه أصبح في حاجة الى مساعدة ، بل يكاد يحتاج الى أنواع خاصة من العناية .

ولنذكر ، مستطردين ، ان اسم جبريل آرداليوتش أصبح هو أيضاً لا يُلفظ أبداً في منزل أسرة ايباتشين ، فكأن جبريل آرداليوتش لم يوجد في يوم من الأيام ، لا في هذا المنزل ولا في العالم . ومع ذلك عرف جميع أفراد الأسرة (بل عسرفوا ذلك بسرعة كبيرة) أمراً هاماً يتعلق به : ففي تلك الليلة التي كانت ليلة حاسمة في حياته ، بعد الحادث الأليم الذي وقع له في بيت ناستاسيا فيليوفا ، لم ينم جانيا حين عاد الى بيته ، بل ظل ينتظر عودة الأمير كالمحموم من نفاذ الصبر . وكان الأمير قد سافر الى ايكاترينهوف هو أيضاً ، فلم يعد منها الا بعد الساعة الخامسة من الصباح . فدخل عليه جانيا عندئذ غرفته ، ووضع أمامه على المائدة حزمة الأوراق المالية التي تجففت أطرافها من نار الموقد ، والتي كانت ناستاسيا فيليوفا قد وهبتها له أثناء اغمائه . ورجا الأمير ملحاً أن يتولى ردّ هذه الهدية الى ناستاسيا فيليوفا في أول مناسبة . ولقد كان جانيا ،

حين دخل على الأمير ، فى حالة نفسية عدائية ساخطة • ولكن يظهر أن الرجلين قد تبادلأ أقوالاً مكث بعدها جانباً عند الأمير ساعتين كاملتين لم ينقطع فى أثنائهما عن البكاء ناشجاً نشيجاً مريراً • وافترقا أخيراً على مودة وصداقة •

هذا النبأ الذى وصل الى جميع أفراد أسرة ايباتشين كان صحيحاً كل الصحة ، كما ثبت ذلك فيما بعد • انه لمعجب طبعاً أن يمكن وصول هذا النوع من الأنباء الى علم أناس آخرين بمثل تلك السرعة الشديدة • من ذلك مثلاً أن كل ما حدث فى بيت ناستاسيا فيليوفا قد عُرف فى منزل أسرة ايباتشين منذ الغد بتفاصيل كثيرة • وفيما يتعلق بالأنباء الخاصة بجيريل آرداليوتش كان يمكن أن نفترض أن باربارا آرداليونوفا هى التى نقلتها الى أفراد أسرة ايباتشين ، لأنها جاءت الى الآسات ايباتشين فسرعان ما قامت بينها وبينهن صلات عميقة ، وهذا أمر أثار أشد الدهشة فى اليزابت بروكوفينا • ولكن باربارا آرداليونوفا رغم أنها وجدت أن من الضرورى - لا ندرى لماذا ؟ - أن تعقد تلك الصلات الوثيقة بأسرة ايباتشين ، لم تحدث الآسات عن أخيها حتماً • فانها هى أيضاً امرأة ذات كبرياء ، على طريقتها الخاصة ، وان تكن قد قبلت أن تربطها صداقة بأولئك اللواتى طردن أخاها طرداً على وجه التقريب • فى الماضى ، رغم أنها قد عرفت الآسات ايباتشين ، كانت لا تراهن الا نادراً • وهى حتى الآن، على كل حال ، لا تكاد تظهر فى الصالون قط ، وانما تأتى من مدخل الخدمة كأنها عابرة عبوراً • ان اليزابت بروكوفينا لم تظهر لها فى يوم من الأيام بشاشة أو ترحيباً ، لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، وان تكن تحمل لأمها نينا ألكسندروفا كثيراً من الاعتبار ، وتقديرها قدراً كبيراً • فكانت تُدهش وتغضب ، وتغزو تلك العلاقات الجديدة التى قامت بينهما وبين فاريا الى النزوة وحدها ، والى استبداد بناتها اللواتى أصبحن على حد تعبيرها

« لا يعرف حقاً ماذا يخترعن من أساليب لمضايقتها » • ولكن ذلك كله لم يمنع باربارا آرداليونوفا من مواصلة زياراتها ، سواء قبل زواجها وبعد زواجها •

بعد سفر الأمير بشهر أو يزيد قليلاً ، تلقت الجنرالة ايباتشين رسالة من الأميرة العجوز بيلوكونسكايا التي سافرت قبل خمسة عشر يوماً الى موسكو لزيارة ابنتها الكبرى المتزوجة هناك • فأحدثت تلك الرسالة في نفس الجنرالة بعض الأثر ؛ ورغم أنها لم تنقل من مضمون هذه الرسالة شيئاً الى بناتها أو الى زوجها ، فقد أدرك ذووها من علامات كثيرة أن في نفسها غلياناً بل واضطراباً • انها تُجرى مع بناتها أحاديث غريبة ، في موضوعات غير مألوفة • كان واضحاً انها تريد أن تفضي بما في نفسها ، لكنها تلجم لسانها لسبب من الأسباب • انها ، يوم تلقت الرسالة ، قد أظهرت للجميع عاطفة رقيقة، حتى انها قبّلت آجلايا وآديلايد، واعترفت أمامهما بأخطائها وعيوبها فلم تعرف البتة ماذا كانت تلك الأخطاء ولا ماهي طبيعة تلك العيوب • وقد أصبحت العجوز متساهلة متساهلة على حين فجأة حتى في معاملة ايفان فيدوروفتش الذي ظلت غاضبةً منه ساخطة عليه مدة شهر كامل • ولكن العجوز عادت منذ الغد تندم على الرقة والحنان اللذين أظهرتهما بالأمس ، ووجدت السبيل الى مشاجرة الجميع حتى قبل أن يحين موعد العشاء • ثم عاد الجو يصفو في المساء من جديد ، فبقيت الجنرالة هادئة المزاج طوال أسبوع ، وذلك أمر لم يحدث لها منذ زمن بعيد •

ولكن الجنرالة تلقت رسالةً أخرى من الأميرة بيلوكونسكايا بعد أسبوع ، فقررت في هذه المرة أن تتكلم • فأعلنت أن « العجوز بيلوكونسكايا » (كانت الجنرالة لا تسمى الأميرة أثناء غيابها الا بهذا الاسم) قد بثت اليها بمعلومات مطمئنة جداً عن ذلك « الشاب الغريب

الأطوار •• الأمير •• لقد استطاعت العجوز أن تهتدى الى الأمير بموسكو، وحصلت على معلومات عنه ، حتى لقد اطلعت على أشياء حسنة جداً في حقه • وقد زارها الأمير ، فأحدث في نفسها أثراً يكاد يكون خارقاً • « ذلك أمر يراه المرء من مجرد أنها دعته أن يزورها كل يوم ساعة أو ساعتين ، وأنه يزورها فعلاً بانتظام ، وأنها لم تضجر منه حتى الآن » • بهذا ختمت الجئالة كلامها وأضافت إليه أن الأمير أصبح بفضل « العجوز » يُستقبل في أسرتين أو ثلاث من أرقى الأسر • « حسنٌ أنه لا يبقى معتكفاً في بيته كناسك ، وأنه لا يظهر خجولاً كعبي » •

حين اطلعت الأم بناتها على هذه الأمور ، لاحظن أنها أخفت عنهن مع ذلك كثيراً من فقرات الرسالة • وللهن عرفن هذا من باربارا آرداليونوفنا التي تستطيع أن تعرف بل تعرف حتى كل ما يعرفه بتسين عن الأمير بموسكو ؛ وبتسين لا بد أن يعرف أكثر مما يمكن أن يعرف أى شخص آخر • لكنه رجل متكتم أشد التكتم في شئون الأعمال ، وان يكن يُطلع فاريبا على بعض الأمور طبعاً • هكذا سرعان ما تفاقم شعور العداوة الذي تحمله الجئالة لباربارا آرداليونوفنا •

ومهما يكن من أمر ، فقد تكسّر الجليد وأصبح يمكن التحدث عن الأمير جهاراً على حين فجأة •

وعدا ذلك تأكد تأكداً واضحاً ، مرةً جديدة ، أن مرور الأمير بمنزل أسرة ايباتشين قد أحدث انطباعاً خارقاً وولّد اهتماماً شديداً • حتى الجئالة أدهشها الأثر الذي خلفته في بناتها أبناء موسكو • أما البنات فقد أدهشن أن أمهن التي سبق أن أعلنت لهن جهاراً أن « أبرز سمة في حياتها هي أنها تتدخّل في أمر الناس دائماً » ، لم يمنعه ذلك من أن تعهد بالأمير في موسكو الى حسن رعاية العجوز بيلوكونسكايا ، ذات

السلطة الكبيرة » ، لا سيما وأنها قد اضطرت حتماً أن تتضرع اليها ، لأن
« العجوز » امرأة ليس اقناعها بالأمر السهل .

ولكن ما ان تكسّر الجليد، وما ان دارت الريح حتى أسرع الجنرال،
هو أيضاً ، يذكر ما كان يعلم . ولكنه اقتصر على « جانب الأعمال من
الأمر » ، اقتصر على هذا الجانب وحده دون غيره . فأتضح أنه ، في سبيل
مصلحة الأمير ، قد كلف شخصين من موسكو ، هما أهل الثقة ومن
أصحاب النفوذ الكبير في الوقت نفسه ، بأن يسهرا على الأمير ، وأن يسهرا
خاصةً على وكيله سالازكين . ان كل ما قيل عن الميراث أو قل عن « أن
هناك ميراثاً » قد اتضح أنه صحيح ، لكن مقدار الميراث أصبح في الحساب
الأخير أقل كثيراً مما ظُن في بداية الأمر . فلقد كانت التركة مضطربة
متشابكة ، وكانت مثقلة بالديون ، كما أن ورثةً أديعاء تقدموا يطالبون
بحقوقهم في الميراث ؛ والأمير نفسه تصرف تصرفاً بعيداً عن تصرف رجل
من رجال الأعمال ، رغم جميع النصائح التي أسديت إليه . « كان الله
في عونته ، طبعاً » . لقد أصبح الجنرال ، بعد أن انكسر جليد الصمت ،
يسعده أن يقول هذا الكلام باخلاص كامل ، ذلك أن هذا الشاب « رغم
أنه ... قليلاً » يستحق كل خير . لكنه قد ارتكب بعض الحماقات . من
ذلك مثلاً أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديوناً قد أبرزوا
للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها * ، حتى ان بعضهم لم
يبرزوا أية وثائق على الاطلاق ، لأنهم أدركوا حقيقة الأمير وحزروا
طبيعته . فهل تصدقون ماذا حدث ؟ لقد أراضاهم الأمير كلهم تقريباً ،
رغم ملاحظات أصدقائه الذين برهنوا له على أن هؤلاء الناس ليس لهم أى
حق شرعى . ولكنه فعل ذلك لأنه ظهر أن بعضهم قد أصابه ضرر بالفعل .
وقد أكدت الجئزالة أن الأميرة بيلوكونسكايا قد كتبت اليها شيئاً بهذا
المعنى ، وأن ذلك « غباء طبعاً ، غباء شديد ، ولكن لا سبيل الى شفاء رجل

أبله » . هذا ما أضافته الجنرالة بلهجة قاطعة ، وإن يكن وجهها قد فصح رضاها عن سلوك « الأبله » الزعوم ، وارتياحها له . الخلاصة أن الجنرال لاحظ أن امرأته مهتمة بالأمر حتى لكأنه ابنها ، وأنها من جهة أخرى تبدى لابتها آجلايا عاطفة كبيرة وحناناً عظيماً . فلما رأى ذلك اتخذ الوضع الذى يليق اتخاذه فى الأمور الهامة ، الى حين .

لكن هذه الحالة النفسية الحسنة لم يطل عمرها أيضاً . فما ان انقضت خمسة عشر يوماً حتى حدث تغير مفاجئ آخر . فأظلم وجه الجنرالة من جديد ، أما الجنرال فانه بعد أن هزّ منكبيه مرتين أو ثلاثاً عاد يرضخ « جليد الصمت » . وجلية الأمر أن الجنرال كان قد تلقى قبل أسبوعين خبراً سرياً مقتضباً لكنه مؤكد ، يقول ان ناستاسيا فيليوفا التى كانت قد اختفت فى موسكو ثم عثر عليها روجويين ، قد اختفت مرة أخرى ثم اهتدى اليها روجويين مرة ثانية فوعده بآن تتزوجه . وها هو ذا الجنرال يعلم بعد ذلك بأقل من أسبوعين أن ناستاسيا فيليوفا قد هربت مرة ثالثة، قيل مثولها مع روجويين أمام الكاهن فى الكنيسة للزواج ، وأنها الآن مختبئة بمكان ما فى الأقاليم ؟ وأن الأمير ميشكين قد اختفى هو أيضاً ، تاركاً جميع شؤونه لوكيله سالازكين ، « فاما انه سافر معها واما أنه مضى يلاحقها، فذلك أمر مجهول ، ولكن لا بد أن هناك شيئاً » . ذلك مااستتجه الجنرال . وقد تلقت اليزابت بروكوفينا ، هى أيضاً ، أنباء مزعجة . الخلاصة أن الناس بمدينة بطرسبرج أصبحوا بعد سفر الأمير بشهرين لا يجيئون على ذكره الا لماماً ، أما أسرة ايباتشين فان « جليد الصمت » لم يتكسر فيها بعد ذلك . ولكن باربارا آرداليونوفنا واصلت زياراتها للآسات .

وإذا تركنا الآن جميع تلك الشائعات وجميع تلك الأنباء ، وجب علينا أن نذكر أن سلسلة من التغيرات قد حدثت فى أسرة ايباتشين عند

اقتراب فصل الربيع ، وهى تغيرات لم تسمح للأسرة كثيراً أن تفكر فى الأمير ، لاسيما وأن الأمير لم يدلّ على وجوده ، ولعله لم يشأ أن يدلّ على وجوده . ففى أثناء الشتاء تقرر شيئاً فشيئاً أن تسافر الأسرة لقضاء الصيف فى الخارج ، أعنى أن تسافر الزابت بروكوفينسا وبناتها ، لأن الجنرال لا يستطيع طبعاً أن يجيز لنفسه تضييع وقته فى « تسليات لا طائل فيها ولا جدوى منها » . وقد تم اتخاذ هذا القرار بعد الحاح شديد واصرار مستمر من قبل الاخوات الثلاث اللواتى كن على يقين من أن أبويهما اذا لم يوافقا على قيامهن برحلة الى الخارج ، فانما يكون مرد ذلك الى اهتمامهما الدائم بتزويجهن والبحث لهن عن عرسان .

ولعل الأبوين قد اقتنعا من جهتهما بأن العرسان يمكن أن يتقدموا فى الخارج أيضاً ، وبأن رحلة يقمن بها فى الصيف لا تعطل شيئاً ، حتى لقد « تسهّل الأمور » .

ويحسن أن نذكر هنا أن الزواج الذى كان مزمماً أن يتم بين آنانازى ايفانوفتش وتوسكى وكبرى بنات ايباتشين قد انفسخ من تلقاء نفسه ، وأن توسكى لم يتقدم بأى طلب رسمى فى خطبة الفتاة . ولقد تم ذلك على نحو طبعى جداً ، دون مناقشات كثيرة ، ودون أى صراع فى داخل الأسرة ؛ كل ما هنالك أن أحداً أصبح لا يجيء على ذكر هذا الموضوع بعد سفر الأمير ، لا من هذا الطرف ولا من ذاك . ولا شك أن هذا كان أحد أسباب الجو الثقيل الذى خيم على منزل أسرة ايباتشين ، وان تكن الجلالة قد أعلنت منذ تلك اللحظة أنها مستعدة أن « ترسم اشارة الصليب بكلمات يديها حمداً لله وشكراً » . أما الجنرال فانه رغم اعترافه بصحة المآخذ التى كانت تأخذها عليه امرأته ، ورغم اعترافه بأنه مخطئ مذهب ، قد ظل معتكر المزاج متجهم النفس مدة طويلة ، لأنه

كان آسفاً على آتاناڤى ايفانوفنا حقاً : « ثروة طائلة كهذه الثروة ، ورجل بارع هذه البراعة ! » . وعلم الجنرال بعد ذلك بمدة قصيرة أن آتاناڤى ايفانوفتش قد أغوته امرأة فرنسية من المجتمع الراقى كانت مارةً بالبلاد ، وهى مركيزة من أنصار الشرعية ، وأن الزواج قد حُدِّد موعده ، وأن المركيزة ستأخذ آتاناڤى ايفانوفتش الى باريس أولاً ، ثم الى مكان بمقاطعة بروتانيا بعد ذلك . قال الجنرال : « يتزوج فرنسية ؟ لقد ضاع اذن ! » .

كان آل ايباتشين يهش اذن رحلة الصيف . غير أن حدثاً جديداً جاء يغير كل شئ على حين فجأة ، فيتأجل السفر مرة أخرى ، ويفرح الجنرال وزوجته من ذلك فرحاً كبيراً . ان أميراً اسمه « شتس . . » * ، وهو شخصية معروفة ، معروفة بأحسن الصفات ، قد وصل الى بطرسبرج قادماً من موسكو . انه واحد من أولئك الرجال المثقفين ثقافة حديثة ، الفعاليين النشيطين ، الشرفاء المستقيمين ، المتواضعين الذين يريدون أن يكونوا نافعين بكل صدق واخلاص ، والذين يعملون بغير انقطاع ، ويتميزون بذلك الاستعداد النادر الثمين لأن يستعملوا نشاطهم دائماً . انه لا يحاول أبداً أن يضع نفسه فى مقدمة الناس ويتحاشى ما يقوم بين الاحزاب من اضطراب عقيم وبلاغة لا طائل تحتها ؛ ولا يعد نفسه بين رجال الصف الأول ، ولكنه كان مع ذلك يدرك دلالة الأحداث الجارية والتبدلات القائمة ادراكاً سليماً . كان فى أول الأمر موظفاً بالدولة ، ثم شارك فى جهاز الحكم المحلى (زمتوف *) . وكان الى ذلك عضواً مراسلاً فى عدة جمعيات علمية روسية ، وكان له فى هذا المجال شأن محترم . وقد ساهم ، متعاوناً مع مهندس من أصدقائه ، فى رسم مسارٍ سليم لواحدٍ من أهم خطوط سككنا الحديدية التى كان تنفيذها مزمعاً فى ذلك الحين . ان عمره خمسة وثلاثون عاماً . وهو ينتمى الى أرقى طبقة فى المجتمع ،

ويملك ثروة « ممتازة ، متينة ، لا يمكن جحودها » على حد تعبير الجنرال نفسه الذى أتيح له بمناسبة عمل من الأعمال الهامة أن يلتقى بالأمير عند الكونت ، رئيسه فى سلم الوظيفة •

ومن غرائب طبع الأمير أنه كان لا يتحاشى أبداً أن تكون له اتصالات « برجال الأعمال » الروس • وقد اتفق أن تعرف أيضاً الى أسرة الجنرال • فأحدثت فيه آديلايد ايفانوفنا ، البنت الوسطى من بنات الجنرال ، أثراً قوياً • فلما كان مطلع الربيع أعلن رغبته فى زواجها • وقد أعجبت به اليزابت بروكوفينا ورضيت عنه • وكان طبعياً أن تأجلت الرحلة • وعيّن للزواج موعد فى الربيع •

وكان يمكن أن تتم الرحلة فى وسط الصيف أو فى نهايته ، ولو نزهةً تقوم بها الأم اليزابت بروكوفينا وابنتاها اللتان بقيان لها ، لولا أن شيئاً جديداً آخر قد حدث • ففى نهاية الربيع (وكان زواج آديلايد قد تأخر وتأجل الى منتصف الصيف) • أدخل الأمير « شتت ••• » الى منزل أسرة ايباتشين شاباً يمت اليه بقرابة بعيدة ، لكن بينه وبينه معرفة قوية • هو شاب اسمه يوجين بافلوفتش ر ••• * ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، ضابط من ضباط الامبراطور*، يتمتع بحظ كبير من الجمال ، ينتمى الى « سلالة شهيرة » ، وينعم عدا ذلك بأنه مرهف الفكر ، مرح الطبع ، لاعم ، « عصرى » ، « مثقف ثقافة نادرة » ، ويملك ثروة طائلة • ولكن الجنرال ريباب دائماً فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة • لذلك راح يستطلع حقيقة الأمر ، فاتهى « الى أن الى الشاب غنى حقاً فيما يظهر ، ولكن لا بد من مزيد من التحقق والتثبت » • وعدا ذلك فان هذا الضابط الذى يُنتظر له « مستقبل عظيم » قد كتب العجوز بيلوكونسكايا من موسكو توصى به خيراً ، وتكيل له مديحاً كبيراً • كل ما هنالك أن سمعته كانت

تشوبها شوائب صغيرة : علاقات غرامية و « غزوات » قام بها الشاب فحطم بعض القلوب الحساسة ، فيما يقال •

فحين رأى الشاب آجلایا أصبح يلزم منزل آل ايباتشين ملازمة شديدة • ولئن لم يقل شيئاً حتى الآن ، ولو في صورة تلميح ، فان الأبوين أصبحا يعتقدان أنه لا مجال للتفكير في السفر الى الخارج هذا الصيف • أما آجلایا ، فلعلها كانت ترى رأياً آخر •

ذلك كله حدث قبيل عودة بطل قصتنا الى المسرح • كانت الظواهر الخارجية تدل على أن الأمير المسكين ميشكين كان قد نسيه أهل بطرسبرج في تلك الفترة نسياناً يكاد يكون تاماً ، فلو خطر بباله أن يعود الى الظهور بين أولئك الذين كانوا يعرفونه ، لبدا كالهابط من السماء •

بقى علينا مع ذلك أن نروى واقعة من الوقائع قبل أن نفرغ من هذه المقدمة •

بعد سفر الأمير ، بقي كولييا ايفولجين يعيش كما كان يعيش في الماضي ، فهو يذهب الى المدرسة ، ويتدرد على صديقه هيوليت ، ويعتني بأبيه ، ويساعد فاريا في أعمال البيت أى يشتري لها ما يجب شرائه من السوق • غير أن المستأجرين قد تبعثروا بسرعة: فردشتينكو ترك المنزل بعد أحداث سهرة ناستاسيا فيليوفنا بثلاثة أيام ، وسرعان ما غاب عن الأعين ، فليس يراه أحد ، وليس يسمع عنه أحد شيئاً • كل ما هنالك أنه كان يقال عنه ، ولكن بغير جزم أو قطع ، انه كان يسكر في مكان ما • وبرحيل الأمير رحل عن البيت آخر مستأجر • فلما تزوجت فاريا بعد ذلك مضت نينا ألكسندروفنا ومضى جانبا يسكنان عندها في منزل بتسين بحى اسماعيلوفسكى* • أما الجنرال ايفولجين فقد حدث له في تلك الفترة نفسها تقريباً حادث لم يكن في حسابه قط : لقد أودع السجن بسبب ديون عليه • ذلك أن صديقه أرملة الكابتن طالبت بسداد سندات تصل قيمتها

الى ما يقرب من ألفى روبل ، وهى سندات كان الجنرال قد وقّعها لها
فى فترات مختلفة . وقد دُهِش الجنرال من ذلك دهشة هائلة . لا شك أن
الجنرال المسكين قد وقع « ضحية ايمانه العظيم بنبل القلب الانسانى » .
لقد ألف تلك العادة المطمئنة ، وهى أن يوقع سندات كيفما اتفق ، فلم
يخطر بباله أن فى الامكان أن تُستعمل هذه السندات فى يوم من الأيام .
كان يظن أن الأمور تقف عند حدود توقيع السندات . ولكن هذا الحادث
خبب آماله وبدّد أوهامه . فكان يهتف قائلاً وقد جلس الى مائدة مع
أصدقاء جدد فى سجن تاراسوف أمام زجاجة خمر وهو يحدثهم عن
حصار كارلس ، وعن قصة الجندى الذى بُعث من الموت حياً ، كان
يهتف قائلاً : « فكيف يثق المرء بالناس بعد هذا ، كيف يحضهم ثقته
النييلة ؟ » .

والحق أنه كان يعيش فى السجن حياة مريحة ممتعة جداً . حتى
لقد كان بتسين وفاريا يقولان انه وجد هنالك مكانه الملائم له ، وكان جانيا
يشاطرهما هذا الرأى تماماً . ان المسكينة نينا ألكسندروفنا وحدها كانت
تبكى بكاءً مرّاً على غير مرأى من أحد (وكان ذلك يثير دهشة أفراد
أسرتها) ، وكانت رغم مرضها المستمر تجرّ نفسها كلما أمكنها ذلك ،
فتخرج من حىّ اسماعيلوفسكى ، وتمضى تزور زوجها .

ولكن منذ « حادثة الجنرال » (على حد تعبير كوليا) ، أو منذ زواج
فاريا على وجه العموم ، أفلت كوليا من سلطة أسرته افلاتاً يكاد يكون
تاماً ، حتى لقد بلغ من ذلك أنه أصبح لا يعود الى البيت للمبيت الا نادراً .
كان يقال انه قد عقد صلات جديدة كثيرة ، وأنه عدا ذلك اكسب
شهرة كبيرة فى سجن المدنيين . فكانت نينا ألكسندروفنا لا تستطيع الاستغناء
عنه أثناء زياراتها لزوجها فى السجن . وكفّ أهلُه فى البيت عن مساءلته

ولو من باب حب الاطلاع • ان فاريا التي كانت من قبل قاسية فى معاملته أشد القسوة ، أصبحت لا تلقى عليه الآن أى سؤال عن غيابه • أما جانيا فكان فى بعض الأحيان (وهذا ما أثار دهشة ذويه) يثرثر معه بمودة كبيرة ، رغم كآبته وسوداويته ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث فى الماضى قط ، لأن جانيا المعتز بعمره البالغ سبعة وعشرين عاماً كان لا ينتبه أى انتباه بشوش الى أخيه الذى لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ، بل كان يعامله معاملة خشنة ، ولا يطلب من الأسرة كلها الا أن تكون قاسية معه ، ولا يفتأ يهدد بأنه « سيشدُّ له أذنيه » ، فكان هذا يخرج كوليّا عن « حدود قدرة الانسان على الصبر والاحتمال » • أما الآن ففى وسعنا أن نقول ان كوليّا يكاد يكون فى بعض الأحيان حاجة ماسة لأخيه لا غنى له عنها • وكان كوليّا قد فاجأه من جانيا انه ردّ المال ، وكان لذلك مستعداً لأن يغفر له أشياء كثيرة •

بعد سفر الأمير بثلاثة أشهر ، عرفت أسرة ايفولجين أن كوليّا قد تعرّف على أسرة ايباتشين ، بل وأن الآنسات يحسنّ استقباله كثيراً • لقد علمت فاريا النبأ بسرعة ، رغم أن كوليّا لم يعتمد على وساطتها للتعرف على أسرة ايباتشين وانما تولى تقديم نفسه بنفسه • وشيئاً فشيئاً أحبه الآنسات ايباتشين • ونظرت اليه الجئالة فى أول الأمر نظرة شزراء ، لكنها أخذت تحبه هى أيضاً حين عرفت « أنه صريح وأنه لا يداهن ولا يتملق » • فلما أن كوليّا كان لا يحاول أن يتملق أحداً فذلك أمر صحيح كل الصحة • وقد عرف كيف يضع نفسه فى موضع الند ، وفى موضع المستقل ؛ ولئن كان يقوم أحياناً بقراءة بعض الروايات أو المجلات للجئالة ، فما ذلك الا لأنه كان فتى خدوماً على الدوام • على أنه قد تشاجر مع اليزابت بروكوفينا تشاجراً قاسياً ، مرةً أو مرتين ، فغتها بأنها مستبدة طاغية ، وأعلن لها أنه لن يضع قدمه فى منزلها بعد الآن •

فأما المرة الأولى فكانت بسبب « قضية المرأة » ، وأما المرة الثانية فكانت بمناسبة هذه المشكلة : أى الفصول أنسب لاصطياد البلابل • ومهما بيد لكم الأمر غريباً ، فإن الجنرالة قد أرسلت اليه غداة غد خادماً يحمل اليه منها رسالةً ترجوه فيها أن لا يتخلف عن المجيء اليها • فلم يعاند كولين ، وجاء اليها فى الحال • كانت آجلانيا وحدها لا يسرها وجوده كثيراً - لا يدرى أحد لماذا ؟ - وكانت تنظر اليه من على • ومع ذلك كان مكتوباً عليها أن تحدث لها على يديه هو مفاجأة • ففى ذات يوم - وكان ذلك فى أسبوع عيد الفصح - انتهز كولين فرصة اختلائه بها لحظةً ، فمدَّ اليها رسالةً كان قد طُلب منه أن ينقلها اليها بنفسه دون واسطة ، فتسلمتها منه بيدها ذاتها • أَلقت آجلانيا نظرة تهديد على هذا « الفتى الوقح » ، ولكن كولين خرج دون أن ينتظر حدوث شئ آخر غير ذلك • وفضت الفتاة الرسالة فقرأت ما يلى :

« لقد أوليتنى شرفاً عظيماً فى ذات يوم ، حين وثقت بى واطمأنت الى • ولملك نسييتى الآن نسياناً تاماً • فلا أدرى كيف تجرأت على أن اكتب اليك هذه الكلمة • لكننى أحسست برغبة لا تقاوم فى أن أذكرَكَ بى ، أن أذكرَكَ أنت خاصةً • مراراً كثيرة كان يمكن أن تنفغتنى كثيراً أنت وأختاك ، لكنك كنت أنت الوحيدة التى أراها بخيالى منكن • انتنى فى حاجة ماسة اليك • أنت لى ضرورة لازمة ، لازمة جداً • ليس هناك ما أطلبه منك ، ولا ما أرويه لك عنى • وليس هذا ما كان يمكن أن يحضنى على الكتابة اليك • ولكن أقوى رغبة تجيش فى نفسى هى أن أعلم أنك سعيدة ، فهل أنت سعيدة ؟ ذلك هو كل ما أردت أن أقوله لك •

ابن عمك : الأمير ل • ميشكين

بعد أن قرأت آجلانيا هذه الرسالة القصيرة المضطربة الحالية من

الانسجام ، احمرّت فجأة ، ولبثت مطرقة تفكر • يصعب علينا أن نتابع مجرى خواطرها • لقد طرحت على نفسها هذا السؤال ، فيما طرحت من أسئلة أخرى : هل أطلع أحداً على هذه الرسالة ؟ وأخيراً رمت الرسالة في درج منضدتها ، بينما انتشت شفتاها على ابتسامة ملفزة ساخرة •

وفي الغد تناولت الرسالة مرة أخرى ودسّتها في كتاب ضخّم مجلد تجليداً سميكا • هذا ما كان تفعله دائماً بالأوراق التي تحب أن تهتدى إليها بسرعة • واقتضى أسبوع قبل أن يخطر ببالها أن تنظر في عنوان الكتاب : « دون كيشوت دولاماش » * لا ندرى لماذا جعلها هذا العنوان تنفجر ضاحكة • لا ولا ندرى هل أطلعت أختاً من أختيها على الرسالة •

ولكنها حين أعادت قراءة الرسالة ومض في ذهنها سؤال : هل يُعقل أن يختار الأمير هذا الصبي الوقح المتفطرس رسولاً ، وربما رسولاً وحيداً ؟ وسألت عن هذا الأمر كوليا ، مع استمرارها على مخاطبته بتعالٍ وخيلاء • ولكن « الصبي » ، على سرعة تأذيه في العادة ، لم يلق بالاً إلى هيئة الاحتقار التي ظهرت على آجلايا • وشرح لها باختصار ، وبشيء من الجفاف أو الحشونة ، أنه قد أعطى الأمير عنوانه استعداداً للمصادفات ، وأنه عرض عليه خدماته ، وذلك قبل أن يغادر الأمير بطرسبرج ، ولكن هذه المهمة هي مع ذلك المهمة التي كلفه بها الأمير ، وأن هذه الرسالة هي الرسالة الأولى التي تلقاها منه • ومن أجل أن يبرهن كوليا على صحة قوله ، أظهرها على الرسالة التي وجهها الأمير إليه شخصياً • فلم تخرج آجلايا أى تخرج من قراءة هذه الرسالة التي كان نصها ما يلي :

« عزيزى كوليا ، أرجو أن تسلم آجلايا إيفانوفنا الرسالة المختومة المرفقة • وأتمنى لك صحة جيدة »

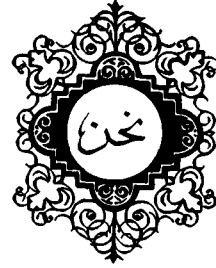
ولك أخلص العاطفة من صديقك :

الأمير ل • ميشكين

قالت آجلآيا بلهجة الأسف وهى ترد الرسالة الى كوليا :
- انه لشيء مضحك مع ذلك أن يمنع مثل هذا الصبي كل هذه
الثقة •

ثم ابتعدت وقد لاحت فى وجهها علامات احتقار •
كان ذلك أكثر مما يستطيع أن يطبق كوليا الذى استعار لهذه
المناسبة من جانيا منديله الأخضر الجديد دون أن يشرح له السبب •
فأحس بالاهانة احساساً قاسياً •

الفصل الثاني



الآن في مطلع حزيران (يونيه) : الجو في
بطرسبرج رائع منذ أسبوعين • ان اسرة
ايانتشين تملك في بافلوفسك* فيلا مترفة أنيقة •
أخذت اليزابت بروكيفونا تتحرك وتسعى بكل
قوة على حين فجأة لتذهب الى هناك • فما انقضى يومان الا وقد تم الانتقال •
وبعد هذا السفر بيوم أو يومين وصل الأمير ليون نيقولايفتش
ميشكين من موسكو بقطار الصباح • لم ينجى الى المحطة أحد لانتظاره
واستقباله ، لكنه حين نزل من حافلة القطار خيل له فجأة أنه يميز في
الجمهور المحتشد حول المسافرين عينين ملتهبتين كانتا تتفرسان فيه تفرساً
غريباً • حاول أن يعرف مصدر تلك النظرة ، لكنه لم يميز بعدئذ شيئاً •
لعل ذلك لم يكن الا وهماً ، لكن هذا الوهم قد ترك في نفسه أثراً
مزعجاً ، ولم يكن الأمير في حاجة الى هذا ليكون حزيناً مهموماً مغموماً •
كان ثمة شيء يبدو أنه يشغل باله ويقلق نفسه •

ركب عربة أقلته الى فندق غير بعيد عن شارع ليتانيايا • فاستأجر
في ذلك الفندق الذي لم يكن باهر المنظر ، استأجر غرفتين صغيرتين
معمتين سيئاً أثنائهما • وأسرع يفسل يديه ووجهه ، ويبدل ثيابه دون أن
يطلب شيئاً ، وخرج متمجلاً كمن يخشى أن يضع وقتاً أو أن تفوته
زيارة •

لو أن شخصاً من الأشخاص الذين عرفوه قبل ستة أشهر ، يوم وصوله الى بطرسبرج ، لو أن شخصاً من أولئك الأشخاص رآه في تلك البرهة ، لاحظ تحسناً ملحوظاً واضحاً في مظهر الأمير . ولكن ذلك لم يكن من الامر الا ظاهره فحسب . ان ملابسه وحدها قد تغيرت تغيراً كاملاً : ان رداءه الآن قد أعدّه له خياط من أحسن الحياطين بموسكو . ومع ذلك كان يعيب هذا الرداء أنه مسرف في الانقياد للموضة (ذلك دائماً شأن الحياطين الذين يملكون من حسن الارادة أكثر مما يملكون من رفاة الذوق) ، ولا سيما بالنسبة الى شخص لا يفهم من أمور الزينة شيئاً . فلو رآه ملاحظ ميّال الى السخرية لاستطاع اذا هو أنعم النظر في الأمير أن يجد فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء . ولكن ما أكثر الأشياء التي يمكن أن تبعث على الضحك والاستهزاء !

ركب الأمير عربة وأمر الخوذي بأن يقوده الى حي « الرمال » * . وسرعان ما اهتدى هنالك في أحد شوارع مجموعة رودجستنسكى الى العنوان الذي كان يبحث عنه ويسعى اليه : انه بيت صغير من خشب ، بيت لطيف المظهر ، أدهشته نظافته والعناية به ، تحيط به حديقة مزروعة أزهاراً ، نوافذه المطلة على الشارع مفتوحة ، ومن خلالها يُسمع صوت حاد يكاد يكون صارخاً هو صوت رجل يبدو أنه يقرأ كتاباً أو يلقي خطاباً . والصوت تقطّعه انفجارات ضحك من حين الى حين . دخل الأمير فناء البيت ، وصعد درجات المدخل ، ودق الباب ، ففتح له ، فسأل عن « السيد ليديف » .

قالت طبّاخة مشمورة الأكمام الى الكوعين ، وهي توميء بيدها الى مدخل الصالون :

— هو ذا !

ان هذا الصالون ، المغطاء جدرانانه بورق أزرق قاتم ، كان معني

بنظافته ، بل كان فيه شيء من اسراف فى التألق : يتألف أثاثه من مائدة مستديرة ؛ وديوان ؛ وساعة برونزية ذات نواس ، تحت غطاء من زجاج ؛ ومراة ضيقة مثبتة فى الحائط ؛ وثرىا صغيرة قديمة تتدلى فيها قطع الكريستال ، معلقة بالسقف بسلسلة من برونز .

فى وسط تلك الغرفة كان يقف السيد ليديف بنفسه ، مديراً ظهره الى الباب الذى دخل منه الأمير ، مرتدياً قميصاً بغير سترة من شدة الحر ، متدفقاً فى حديث مسهب بلهجة عاطفية وهو يلطم صدره . وكان سامعوه : فتى فى الخامسة عشرة من عمره يقظ الهيئة فطناً ذكياً ، قد أمسك بيده كتاباً ؛ وفتاة فى نحو العشرين من عمرها ترتدى ملابس الحداد وعلى ذراعها طفل صغير ؛ وبنية فى الثالثة عشرة ترتدى ثياب الحداد أيضاً وتضحك ملء حلقها ؛ ثم شخصية غريبة مستلقية على الديوان : انه فتى فى نحو العشرين من عمره ، حسن الهيئة وسيم الطلعة اسمر اللون طويل الشعر كثيفه ، واسع العينين أسودهما ، وعلى وجهه زغب خفيف بمثابة لحية وعارضين . وكان يبدو على هذا الفتى أنه ما ينفك يقاطع خطاب ليديف ليعارضه ، وعن ذلك انما كانت تنشأ نوبات الضحك لدى جمهور المستمعين فى أغلب الظن .

— لوكيان تيموفتشس ! لوكيان تيموفتشس ! عجب أمرك ! هلاً نظرت من هنا ! آه آه آه على كل حال ، افعل ما يحلو لك ! آه آه آه .

وخرجت الطباخة محمّرة الوجه غضباً ، وهى تحرك ذراعيها بحركة العجز .

والتفت ليديف ، فلما رأى الأمير ، ظل مبهوراً خلال بضع لحظات ، ثم أسرع نحوه مبتسماً ابتسامة ذليلة ، لكنه توقف عند العتبة من جديد ، متجمداً من الدهشة ، وتمتم يقول :

- صا . صا . صاحب السمو الأمير ! * .

وفجأة ، وكأنه ما يزال عاجزاً عن السيطرة على نفسه وامتلاك زمام ارادته ، استدار على عقيبه واندفع نحو الفتاة التي ترتدى ملابس الحداد وتحمل على ذراعيها طفلاً صغيراً ، اندفع نحوها بلا سبب ظاهر ، فتقهقرت الفتاة الى وراء ، أمام هذه الهجمة التي لم تكن في الحسبان . لكنه سرعان ما تحول عنها ، وأخذ يتهجم على البنية التي عمرها ثلاثة عشر عاماً ، والتي ما تزال عاجزة عن أن تسيطر على ضحكها أو أن تلجمه ؛ فلم تملك أن تحتمل صراخه ففرّت الى المطبخ بوثبة واحدة . وخطب ليديف الأرض بقدمه ليروّعها مزيداً من الترويع ، ولكنه حين التقت نظرتة بنظرة الأمير الذي كان خجلاً أشد الخجل ، قال شارحاً :

- ذلك . . للاحترام ! هيء هيء

فبدأ الأمير يقول :

- انك لتخطيء جداً اذ

لكن ليديف لم يمهله لاتمام كلامه ، بل قاطعه يقول :

- حالاً ، حالاً . . . ، بسرعة الريح

وغاب ليديف من الغرفة مسرعاً .

أخذ الأمير يتأمل الفتاة والصبي والشخصية المضطجعة على الديوان مدهوشاً . لقد كانوا جميعاً يضحكون . فأخذ يضحك مثلهم .

قال الفتى :

- ذهب يرتدى « الفراك » .

قال الأمير :

- ما أكثر ما يضايقني هذا كله ! . . . لقد كنت أعوّل على

ولكن قل لي : أهو مثلاً

- سكران ؟ تريد أن تسأل أهو سكران ؟ لا ، ما هو بالسكران
البته ! كل ما فى الأمر أنه أنه شرب ثلاث كتوس ، أو أربعاً ، وربما
خمساً ، حتى لا يخل بالقاعدة لا أكثر !

كذلك صاح صوت انطلق من على الديوان •

وقد همَّ الأمير أن يجيب المتكلم ، ولكن سبقته الفتاة التى كان
وجهها الحلو الجميل يعبر عن أكبر الصراحة • قالت :

- انه لا يشرب كثيراً فى الصباح قط • فإذا أردت أن تكلمه فى
أعمال ، فافعل • هذا هو الوقت المناسب • أما حين يعود الى البيت مساءً ،
فانه يكون نملأً فى بعض الأحيان • وقد أصبح يتفق له الآن ، ولا سيما
فى الليل ، أن يطفىف يبكى ، ثم يأخذ يقرأ لنا فى الكتاب المقدس بصوت
عال ، لأن أمنا ماتت منذ خمسة أسابيع •

قال الفتى الراقد على الديوان :

- لئن هرب فلأنه يصعب عليه أن يحييك • أراهن أنه الآن يحاول
أن يخدعك ويضللك ، وأنه الآن بسيل اجتراح الضربة التى يهيئها لك •
- منذ خمسة أسابيع ماتت ، منذ خمسة أسابيع فقط •••

كذلك صاح يقول ليديف وقد عاد الى الصالون مرتدياً « الفراك » ؟
وطرفت عيناه ، وأخرج من جيبه منديلاً يجفف به دموعه • وأردف يقول :

- يتامى ! انهم يتامى !

قالت الفتاة :

- ما هذا يا بابا ؟ لماذا ارتديت رداءً مهترئاً مثقياً ؟ ان عندك هناك ،
وراء الباب ، ردنجاتاً جديداً • أما رأيتَه اذن ؟
- اسكتى يا جرادة ! أهذه أنت ؟

قال ليديف ذلك وخط الأرض بقدمه ليخيفها ، لكنها في هذه المرة لم تزد على أن ضحكت ، وقالت :

- لماذا تحاول أن تخيفني ؟ أنا لست تانيا * • لن أهرب • اسمع • سوف توقظ ليوبوتشكا * ، وسوف تعاودها تشنجات • علام هذا الصراخ ؟

صاح ليديف يقول بحركة رعب مفاجئة :

- دعي لسانك ملتصقاً بسقف حلقك ، فلا تحركيه !

ثم أسرع نحو الطفلة التي كانت نائمة على ذراعى الفتاة ، فرسم عليها إشارة الصليب عدة مرات وهو زائغ الهيثة • وقال :

- احفظها يا رب ! صنها يا رب ! احمها يا رب !

ثم أضاف يقول متجهاً الى الأمير :

- هذه الطفلة هي ليوبوف ، ابنتي انا • ولدت لى بزواج شرعى جداً من امرأتى هيلينا التى ماتت أثناء الوضع • وهذه الطائر اللقلق هي ابنتى فيرا ، ترتدى ملابس الحداد • • أما هذا • • أما هذا • • أوه • • فهذا • •

- لماذا تقطع كلامك ؟ أكمل ! لا تضطرب !

هتف ليديف قائلاً بحماسة :

- يا صاحب السمو ، هل تابعت فى الجرائد أنباء قاتل أسرة جيرامين ؟*

فأجابه الأمير مدهوشاً :

- نعم •

- فهذا هو قاتل أسرة جيرامين بنفسه ! هذا هو بعينه !

قال الأمير :

- ما معنى هذا الكلام ؟

فأجاب ليديف :

- لتفاهم : أنا أتكلم بطريقة الرمز والكناية • أريد أن أقول أنه هو القاتل المقبل لأسرة جيرامين أخرى ، اذا وُجدت أسرة جيرامين أخرى • انه يستعد لهذه الجريمة ...

أخذ الجميع يضحكون ، وخطر ببال الأمير أن ليديف لعله كان يسترسل في هذه التهريجات لأنه كان يتنبأ بأسئلة يلقيها عليه الأمير فلا يعرف بماذا يجب عنها ، فهو اذن يريد ارجاء الأمر وكسب الوقت •

صرخ ليديف يقول بلهجة رجل أصبح لا يسيطر على نفسه :
- ان هذا القتي ثائر متمرّد مدبر مؤامرات • هل في وسعي أنا أن أعدّ لسان الأفمى هذا ، أن أعدّ هذا الزاني ، أن أعدّ هذا الشيطان الرجيم ، ابناً لأختي آيسيا ؟ ابناً وحيداً لأختي آيسيا ؟

- اخرس ايها السكير ! هل تصدق يا أمير أنه قد وضع في رأسه الآن أن يصبح محامياً • انه يريد أن يتعلم مهنة المحامكة ، ويتمرن على على البلاغة والفصاحة ، حتى اذا كلم أولاده كلمهم بلهجة الخطابة ! منذ خمسة أيام ترفع في محكمة الصلح * • ترفع لمصلحة من ؟ ان امرأة عجوزاً كانت قد ناشدته أن يحامي عنها ضدّ مراب نذل سلبها خمسمائة روبل هي كل ما تملك • فهل دافع عن المرأة العجوز ؟ لا ... وانما ترفع لمصلحة المرابي ، وهو يهودى اسمه سايدلر ، لأن هذا المرابي وعده بخمسين روبلاً ...

صحّح ليديف كلام ابن اخته قائلاً بصوت تبدل الآن تبديلاً تاماً ، فكأنه لم يصرخ منذ هنيهة :

- خمسين روبلاً اذا ربحت القضية ؟ أما اذا خسرتها فخمسة روبلات فحسب !

- وقد أخفق طبعاً ! ان القضاء اليوم غير ما كان بالأمس • انهم لم

يزيدوا على أن ضحكوا منه • هذا لا ينفي أنه ظل معتزاً بمرافقته اعترافاً كبيراً • اسمع ماذا قال فى المرافعة : « سادتى القضاة النزيهين ، تصوروا أن موكلى ، وهو شيخ مسكين كسيح يعيش من عمل شريف ، تصوروا أن موكلى هذا هو الآن بسيل أن يفقد آخر لقمة خبز • تذكروا الأقوال الحكيمة التى قالها المشرّع : « واحكموا بين الناس بالرحمة » * فهل تصور أنه يلقي على مسامعنا هذه المرافعة فى كل صباح كما ألقاها هناك ؟ اتنا نسمعها اليوم خامس مرة • كان يرددها لحظة وصولك منذ برهة • فالى هذه الدرجة هو مفتون بها • يتلوها ويتلمظ • وهو يستعد الآن للدفاع عن موكل آخر من هذه الطينة نفسها • أنت الأمير ميشكين ، فيما أظن ، ألسنت الأمير ميشكين ؟ لقد حدثنى عنك كولىا كبيراً ، وقال انه لم يرَ فى حياته رجلاً أذكى منك •

فقال ليديف مؤيداً :

– نعم نعم ، ليس فى العالم رجل أذكى منه !

– هذا كاذب • كولىا يحبك صادقاً ، أما هذا فهو يسمح ظهرهك لينال حظوتك • وأنا لا اتوى البتة أن أتملقك ، تستطيع أن تصدقنى • ولكنك لا يعوزك الحس السليم : فاحكم بينى وبينه • واتجه الشاب المستلقى على الديوان الى خاله يسأله :

– هيه ... ما رأيك فى أن يفصل فى قضيتنا الأمير ؟ لقد أراحنى جداً أنك جئت يا أمير !

قال ليديف بلهجة قاطعة ، وهو يلقي نظرة بغير ارادة منه على « الجمهور » الذى عاد يتحلق حوله :

قال الأمير مقطباً حاجبيه :

– ما المسألة ؟

لقد كان الأمير مصاباً بصداغ فعلاً ، ولكنه كان عدا ذلك يزدد
اقتناعاً ، لحظة بعد لحظة ، بأن ليديف يخادعه ويسعى الى مهرب ويحاول
التملص .

قال ابن الأخت :

— هأنا ذا أعرض لك المسألة . انا ابن اخته . ففى هذه النقطة ،
خلافاً لعادته ، لم يكذب . وأنا لم أتمم دراستى ، لكننى أريد اتمامها ،
وسوف أتمها لأننى أملك قوة الارادة . وبانتظار ذلك أريد ، لأعيش ، أن
أُعيّن موظفاً فى السكة الحديدية براتب قدره خمسة وعشرون روبلاً .
اننى اعترف ، على كل حال ، بأنه ساعدنى مرتين أو ثلاثاً . ولقد كان معى
عشرون روبلاً ، فخسرتها فى القمار . نعم يا أمير ! هل يمكنك أن
تصدق ذلك ؟ لقد بلغت من الحطة والدناءة والصغار اننى خسرتها فى
القمار !

صاح ليديف يقول :

— خسرتها مع رجل نذل ، رجل نذل كان ينبغى لك أن لا تدفع
له شيئاً .

تابع الشاب كلامه فقال :

— أما أنه نذل فهذا صحيح ، ولكن كان من واجبي أن أدفع . وأما
أنه وغد حقير ، فهذا ما أسلّم به ، ولكن لا لأن الرجل قد ضربك ضرباً
مبرحاً فحسب ، بل لأسباب أخرى كثيرة أيضاً . يا أمير ، الرجل ضابط
مطرود من الجيش ، ملازم محال على التقاعد ، كان أحد أفراد عصابة
روجوين ، وكان يعطى دروساً فى الملاكمة . ان جميع أفراد تلك العصابة
هائمون الآن على وجوههم منذ تخلص منهم روجوين . على أن أنكى مافى
الأمر أنتى كنت أعلم أنه وغد دنىء ، ووبش حقير ، وتافه لا يصلح لشيء ،

ومع ذلك غامرت بآخر روبلات أملكها مقامراً معه (لعبنا لعبة البالكي) *
قلت لنفسي : اذا خسرت ذهبت الى الحال لوكيان ، فما زلت أثقل عليه حتى
يساعدني . تلك هي الدناءة ، ذلك هو الصغار ! الصغار المحض ! لقد كان
ذلك حقارة واعية !

قال ليديف مؤيداً :

- نعم ، حقارة واعية !

أجاب ابن الأخت يقول بحرارة وهمة :

- لا تسرع الى التباهى بالانتصار ! انه يتعجل كثيراً في الابتهاج !
وقد جئت الى خالي - يا أمير - واعترفت له بكل شيء . تصرفت تصرفاً
نيبلاً ، لم أدار نفسي ولا دافعت عن خطيئتي . بالعكس : اتهمت سلوكي
أقسي الاتهام ، ونعته بأبشع النعوت ، وأدنته أشد الادانة . الجميع هنا
يشهدون بذلك . ومن أجل أن أدخل الوظيفة التي أهدف الى دخولها ،
لا بد لي حتماً من الارتفاع بمستوى ملاسبي ، ذلك أننى ارتدى اسمالاً
بالية وخرقاً رثة . بل انظر الى حذائى ! اننى لا أستطيع أن أتقدم الى
وظيفتي الجديدة بهذه الثياب . واذا أنا لم أتقدم خلال المهلة المحددة ،
فسيُعين للوظيفة شخص آخر ، فأبقى عندئذ عاطلاً عن العمل ،
ولا بدري الا الله متى أجد وظيفة أخرى ! أنا الآن لا أطلب منه أكثر من
خمس عشرة روبلاً . وله على عهد أن لألجأ اليه بعد اليوم قط ، وأن
أردد اليه آخر قرش له على في غضون ثلاثة أشهر . ولسوف أفي
بوعدي . أنا أعرف ما هو العيش على الحبز و « الكفاس » * طعاماً وشرباً
خلال أشهر بكاملها ، ولكننى قوى الارادة قادر على الاحتمال . فى غضون
ثلاثة أشهر أكون قد كسبت خمسة وسبعين روبلاً . فاذا أضفنا الى القرض
الذى اطلبه منه الآن ما سبق أن أقرضنى من مبالغ أخرى يكون مجموع
الدين الذى له على خمسة وثلاثين روبلاً . فسأملك اذن من المال

ما ابرىء ببعضه ذمتى • أما الفوائد فليطلب من الفوائد ما يشاء ، وليأخذه
الشیطان ! أهو لا يعرفنى ؟ أسأله يا أمير : أرددتُ اليه المال الذى ساعدنى
به أم لا ؟ هو غاضب علىّ لأننى دفعت لذلك الملازم • ليس هناك سبب
آخر • ذلك هو شأنه : لا شيء له ، اذن لا شيء لغيره !

صاح ليديف يقول :

- وهو لا ينصرف ! انه مضطجع هنا حيث تراه ، لا يريد أن
يتحرك !

- سبق أن قلت لك : لن أنصرف قبل أن تعطينى ما أطلبه منك •
لماذا يبدو عليك التبسم يا أمير ؟ كأنك لا تستحسن فعلى •

قال الأمير كأنما على مضض :

- لست ابتسم ، ولكننى أرى أنك مخطيء قليلاً •

- بل قل صراحة اننى مخطيء تماماً • لا توارب • لماذا كلمة
«قليلاً» هذه ؟

- اذا شئت : لنقل انك مخطيء خطأ تاماً •

- اذا شئت ! انك لمضحك حقاً ! أتظن اننى لا أدرك أن طريقي
هذه خالية من الكياسة ؟ أنا أعلم أن المال ماله ، وأنه يستطيع التصرف فيه
على ما يريد له هواه ، وأننى أبدو كمن يريد أن يسلبه اياه • ولكنك
لا تعرف الحياة ••• أنت يا أمير ! اذا لم يلقن المرء أمثال هؤلاء الناس
درساً فلا يجب أن ينتظر منهم شيئاً • فلا بد من تلقينهم درساً • ان
ضميرى طاهر نقى : أقول لك ذلك صادقاً كل الصدق ، مخلصاً كل
الاخلاص ؛ لن ألحق به أى ضرر ، لن أصيبه بأى أذى ، سأردُّ اليه ماله ،
مع الفوائد أيضاً • فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ لأى شيء يصلح اذا لم

يقدم خدمة ؟ بل انظر كيف يتصرف هو نفسه • اسأله عن سلوكه مع الآخرين وعن فنه فى خداع الناس • بأية وسائل أصبح مالكا لهذا المنزل؟ اننى مستعد لأن أقطع رأسى اذا ثبت أنه لم يغششك حتى الآن ، وأنه ليس بسيل التفكير فى أسلوب يخدعك به مزيداً من الخداع • أتبتسم؟ ألا تصدق ما أقول ؟

قال الأمير :

- يخيل الىّ أن هذا كله ليس له كبير صلة بقضيتك •
- أنا مضطجع هنا منذ ثلاثة أيام ، فما أكثر ما رأيت خلال هذه المدة !

بهذا هتف الشاب دون أن يصفى الى كلام الأمير ؛ وتابع يقول :

- هل تصور أن عنده شكوكاً وشبهات حول هذه الملاك ، حول هذه الفتاة التى أصبحت اليوم يتيمة ، حول ابنة خالتي التى هى بنته ؟ انه يبحث فى كل ليلة عن عشيق لعلها خبأته فى غرفتها ، ويتسلل الى هنا بخطى كخطى الذئب ينظر تحت ديوانى الذى أرقد عليه عسى أن يجد شيئاً • لقد أطاش الشك صوابه • انه يرى لصوصاً فى جميع الزوايا والأركان • يثب عن سريره فى الليل كل لحظة ، ويمضى يثبت من أن الأبواب والنوافذ قد أُحكمت اغلاقها ، حتى انه يذهب الى الموقد يفتشه • ويتكرر ذلك فى ليلة واحدة سبع مرات أحياناً • فى المحكمة يترافع عن أوغاد وأوباش • وهنا ينهض فى كل ليلة ثلاث مرات أيضاً ليصلى وليتجه الى الله بدعائه • يجثو على ركبتيه فى الصالون ويظل يلطم جبهته بالأرض ويرتل ويتضرع مدة نصف ساعة • لا شك أن هذا نمرة السكر • لقد صلى على روح كوتيسية بارى * • سمعته بأذنىّ هاتين • وسمعه كولياً أيضاً • الخلاصة : لقد فقد العقل تماماً !

هتف ليديف يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً وغضب غضباً
قويّاً :

— هل رأيت يا أمير ، هل سمعت كيف يتهمك علىّ ويستهزئ بي .
قد أكون سكّيراً ، وقد أكون زير نساء ، وقد أكون لصاً ، وقد أكون
إنساناً مسيئاً من جميع النواحي ، غير أن هناك شيئاً لا يعرفه هذا الرجل
الذي يحقّرني الآن ، وهذا الشيء هو أنني أنا الذي كنت أقمّطه وأنظفه
حين كان في المهد صيياً . كنت أقضي ليالي بكاملها ساهراً عليه مع أمه
أختي آنيسيا التي توفى عنها زوجها وهوت الى حضيض الفقر والبؤس .
رغم أنني كنت لا أقلّ عنهما فقراً وبؤساً ، فقد كنت أعتنى بهما اذا
مرضا ، وأمضى أسرق حطباً من عند البواب ؛ وكان بطني خاوياً في أكثر
الأحيان ، لكنني كنت أغني وأصفق بأصابعي لينام الطفل . لقد دلّته
وأسرفت في تدليله ، ثم ها هو ذا الآن يضحك عليّ ويسخر مني . ثم أي
ضير يلحق بك أنت ، اذا أنا رسمت اشارة الصليب مصلباً على روح
كوتيسة باري ؟ يا أمير ، منذ ثلاثة أيام ، قرأت سيرة حياتها لأول مرة في
موسوعة من الموسوعات . ولكن هل تعلم أنت من هي كوتيسة باري ؟
تكلم : أتعلم أم لا ؟

دمدم الشاب يقول رغم ارادته تقريباً ، ولكن بلهجة ساخرة :

— لكأنك الانسان الوحيد الذي يعلم ذلك !

قال ليديف يجيبه :

— هي كوتيسة خرجت من حمأة العار فأصبحت شبه ملكة ،
حتى ان امبراطورة كبيرة خاطبتها بقولها « يا ابنة عمي » * في رسالة
كتبها بخط يدها . وحين تنصيب الملك (هل تعرف ما هو تنصيب
الملك ؟) تطوّع كاردينال هو سفير البابا ليلبسها جوربها الحريريين :

كان يعد ذلك شرفاً له ، رغم علو مقامه ، وقداسته منصبه ! هل تعلم ذلك؟
أرى فى وجهك أنك تجهل هذا • فكيف ماتت هذه الكونتيسة ؟ أجب
ان كنت تعلم !

– دعنى وشأنى ! انك تضجرنى !

– اسمع كيف ماتت • بعد جميع تلك الأمجاد ، وبعد تلك المكانة
التي جعلتها نصف ملكة ، جرّأها الجلاد سامسون الى المقصلة ، رغم أنها
كانت بريئة ، وذلك ليدخل المسرة والبهجة الى نفوس العاميات من نساء
باريس • وقد بلغت من الذعر والرعب أنها لم تفهم شيئاً مما كان يُراد
أن يُفعل بها ، فلما أحسّت أن الجلاد يخنى رقبتها ليضعها تحت سكين
المقصلة ، ويدفعها الى أمام ركلاًّ بقدميه ، بينما الناس من حولها يضحكون
مقهقهين ، أخذت تصرخ قائلة : « لحظة واحدة أخرى يا سيدى الجلاد ،
لحظة واحدة أخرى ! » * • اذن لعل تلك اللحظة هى التى ستشفع لها
عند الله فيغفر لها ، ذلك أنه لا يمكن أن يتخيل المرء عذاباً للنفس
الانسانية أكبر من ذلك العذاب ! هل تعلم ماذا تعنى كلمة « عذاب » ؟ *
انها تعنى تلك اللحظة بعينها ! حين قرأت الفقرة التى تذكر صرخة
الكونتيسة ضارعةً أن 'تمهل لحظة' واحدة ، انقبض قلبى كأنما أمسك
بها فكاً كماشة • أى ضير يصيبك أنت ، أيها التافه ، اذا أنا خطر
بإلى أن أدعو الله لتلك الحاططة الكبيرة أثناء صلواتى قبيل الرقاد ؟ لكن
فعلت ذلك ، فربما لأن أحداً لم يدر فى خلدّه حتى الآن أن يصلّى على
روحها أو أن يدعو لها أو حتى أن يرسم من أجلها اشارة الصليب •
لسوف يبهج قلبها حتماً ، فى الحياة الآخرة ، أن تحسّ أنه قد وُجد على
هذه الأرض خاطئٌ مثلها صلىّ على روحها ولو مرة واحدة ! ما بالك
تضحك ساخراً ؟ ألسنت تؤمن بهذا أيها الملحد ؟ وما مدى علمك بهذه
الأشياء أنت ؟ ثم انك قد سمعت كلامى فنقلته محرّفاً أو ناقصاً : أنا لم

أصلّ على روح كوتيسة بارى فحسب ، وانما قلت : « اللهم هَبْ راحة النفس للخطئة الكبيرة الكوتيسة بارى ، ولجميع أولئك اللواتي يشبهنها ! » . وهذا يختلف كثيراً عما نقلته أنت ، ذلك أن فى العالم الآخر كثيراً من الحاططات الكبيرات اللواتي عرفن تقلب الحظ ، وقاسين من ظروف الحياة ، وتوجمن من عذاب الاحتضار والانتظار . ولقد دعوت أيضاً لك ولأمثالك ، أمثالك من الوقحين الذين طلقوا الحياء وخلعوا العذار ! هكذا صليت أنا ، ما دمت تقحم نفسك فى التنصت على صلواتي ! .

قاطع ابن الأخت خاله قائلاً :

– طيب طيب ... كفى هذا ! صلّ كما تشاء ، وليأخذك الشيطان !
لا حاجة الى الصراخ ...

ثم التفت الى الأمير فأضاف يقول بلهجة اصطنع فيها السخرية :

– ويجب أن نقول لك يا أمير ان عندنا عالماً هو خالى هذا ! أكنت لا تعرف ذلك ؟ انه يقضى وقته الآن عاكفاً على قراءة جميع أنواع الكتب والمذكرات التى من هذا النوع !

قال الأمير وقد بدأ يشعر نحو الشاب بكره :

– مهما يكن من أمر ، فان خالك رجل لا يخلو ... من قلب !

قال الشاب :

– أماديحك هذه ستصعد الى رأسه ، فتطيش عقله . انظر كيف يتلذذ بمذاقها منذ الآن ، واضعاً يده على صدره ، مضيقاً فتحة فمه ! صحيح أنه ليس خالياً من الاحساس ! لكنه رجل خدّاع ، وهو فوق ذلك سكّير ، فهذه هذه البلية ! لقد اختل عقله كسائر أولئك الذين أدمنوا على السكر زمناً طويلاً . لذلك ترى كل ما فيه يتفكك .

أنا أسلمم بأنه يجب أولاده ، وأنه كان يعامل المرحومة معاملة فيها احترام
•• بل انه يحبني أنا أيضاً ، والحمد لله على أنه لم ينسني في وصيته •

صاح ليديف يقول غاضباً :

- لن أورك شيئا !

قال الأمير بصوت جازم وهو يتحول عن الشاب :

- اسمع يا ليديف ، انني أعرف بالتجربة أنك رجل جد في شئون
الأعمال متى شئت ••• ولست أملك من الوقت الا قليلاً جداً ••• فاذا
كنت ••• معذرة ••• نسيت اسمك واسم نسبك الى أبيك ، فهلاً
ذكرتني بهما ؟

- تـ ب ••• تـ ب ••• تيموفتى •

- ثم ؟

- لوكيانوفتش •

فانفجر الجميع ضاحكين من جديد • وهتف ابن الأخت يقول :
- لقد كذب ! كذب حتى في ذكر اسمه • يا أمير ، ليس اسمه
تيموفتى لوكيانوفتش بل لوكيان تيموفتش ! قل لنا لماذا كذبت ؟ لوكيان
أو تيموفتى ، ألا يستوى الأمران ؟ وأى فرق بالنسبة الى الأمير أن يكون
اسمك لوكيان أو تيموفتى ؟ يميناً انه يكذب للكذب ••• لأنه تعود أن
يكذب !

سأل الأمير وقد نفذ صبره :

- هل صحيح ما يقول ؟

- صحيح • اسمى لوكيان تيموفتش •

بهذا اعترف ليديف ذليلاً خافضاً عينيه طائعاً واضحاً يده على قلبه

من جديد •

- ولكن لماذا كذبت اذن ؟ يا رب السماء !

تمتم ليديف يقول وهو يخفض رأسه مزيداً من الحفض :

- من المذلة !

- لا أرى أين المذلة فى هذه الكذبة ! آه ... ليتنى أعرف فقط

أين أجد كوليا .

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة وقد بدا عليه أنه يهيمُ أن ينصرف .

فقال الشاب :

- سأقول لك أين كوليا .

فأسرع ليديف يقاطعه قائلاً :

- لا ، لا !

وتابع الشاب كلامه فقال :

- بات كوليا الليلة عندنا ، ومضى فى الصباح يبحث عن الجنرال الذى أخرجه أنت من سجن الديون يا أمير ، لا يعلم الا الله لماذا ! أمس وعد الجنرال أن يأتى الى هنا ليبيت ، ولكنه لم يظهر . ولعله ذهب يسكن على بعد خطوتين من هذا المكان فى « فندق الميزان » . فلا بد اذن أن يكون كوليا هناك . الا أن يكون قد ذهب الى بافلوفسك يزور أسرة ايبانتشين . كان يريد أن يذهب اليهم منذ أمس ، اذ كان معه مال . فستجده اذن اما فى « فندق الميزان » واما فى بافلوفسك .

هتف ليديف يقول :

- فى بافلوفسك ، فى بافلوفسك ! أما الآن فلنذهب الى الحديقة ، من

أجل أن ... نشرب هناك القهوة ...

قال ليديف ذلك وأمسك الأمير من ذراعه فجراً الى الخارج ، الى

فناء يفضى الى الحديقة من باب صغير .

الحديقة صغيرة ، لكنها جميلة • وبفضل حسن الجو كانت الأشجار
جميعها فى تفتح كامل •

أجلس ليديف الأمير على دكة من خشب مدهون بلون أخضر ،
أمام مائدة مثبتة فى الأرض ، خضراء اللون هى أيضاً • وجلس أمامه •
وجيء بالقهوة بعد لحظة ، فلم يرفضها الأمير • وظل ليديف يحدّق الى
عينى الأمير بشراهة ، مفرطاً فى الاكرام والمراعاة •

قال الأمير وهيئته هيئة انسان يفكر فى شئ آخر لا صلة له بما يقول
البتة :

- لم أكن أعرف أن لك ملكاً •

قال ليديف كأننا ليستأنف شكواه :

- يتامى !

ولكنه سرعان ما كفّ عن ذلك •

كان الأمير ينظر الى أمام ، ذاهلاً ، فلا شك أنه قد نسى العبارة التى
قالها منذ لحظة عن ملك ليديف • وانقضت دقيقة • ان ليديف مايزال
يحدّق الى محدثه منتظراً شرحاً أوسع •
قال الأمير وكأنه عاد الى شعوره :

- طيب ، ماذا ؟ ها ••• نعم ••• أنت تعلم الأمر حق المعلم
يا ليديف • لقد جئت اليوم عقب الرسالة التى تلقيتها منك • فتكلم !

اضطرب ليديف ، وأراد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يزد على أن نطق
بأصوات غير مفهومة • فكان الأمير يصبر عليه ، ويتسم ابتسامة حزينة •

- يخيّل الىّ أننى أفهمك جيداً يا لوكيان تيموفتش • كنت
لا أتوقع مجيئى طبعاً • كنت تقدّر أننى لن أترك عزلتى عند تلقى أول رسالة
لم تبعثها الىّ الا من باب تبرئة الذمة • ولكن هأت ذا ترى اننى جئت •

هلمَّ . . . لا تحاول أن تخدعنى . انقطع عن خدمة اثنين فى آن واحد .
لا يجب أن يكون لك سيدان . ان روجوبين موجود هنا منذ ثلاثة أسابيع .
أنا أعرف كل شيء . هل استطعت أن تبيعه هذه المرأة كما فعلت فى المرة
الماضية ؟ قل الحقيقة .

- بل اكتشفها بنفسه ، هذا الشيطان الحيث !

- لا تشتمه : يظهر أنه أساء معاملتك .

- قال ليديف مهتاجاً :

- أشبعنى ضرباً ، نعم ، أشبعنى ضرباً . وفى قلب موسكو حرَّض
على كلبه الفظيع ، كلبه السلوقي الرهيب ، فظل الكلب يطاردنى من أول
الشارع الى آخره .

- انك تعدنى طفلاً يا ليديف . قل لى : أهى تركته جادة حين
تركته بموسكو منذ مدة قصيرة ؟

- جادة ، جادة ، بل انها قد تركته هذه المرة قيلول الاحتفال
بالزواج . . . كان يعدُّ الدقائق بانتظار أن يحين موعد الاحتفال بالزواج .
هربت من موسكو الى بطرسبرج ، فجاءت الى رأساً تقول : « انقذنى ،
هوى لى عندك مأوى يا لوكيان ، ولا تذكر للأمير شيئاً . انها تخشاك أكثر
مما تخشاه أيضاً يا أمير ، وذلك هو السر !

قال ليديف ذلك وحمل اصبعه الى جبينه متخابئاً . سأله الأمير :

- والآن ، هل قرَّبت بينهما من جديد ؟

- يا سمو الأمير العظيم . . . هل كان يمكننى أن أعارض هذا
التقارب بينهما ؟

- طيب . سأستطلع الأمر بنفسى . ولكن قل لى : أين هى الآن ؟
عنده ؟

- لا ، لا • انها ما تزال تعيش وحدها • وهى تقول : « أنا حرة » •
اعلمْ يا أمير انها تلح كثيراً على هذه النقطة • انها ماتتفك تكرر : « ما أزال
أملك حريتى كاملة » • ما تزال تقيم فى شارع بطرسبرجسكيا ، عند
زوجة أخى ، كما ذكرت لك هذا فى رسالتى •

- أهى الآن هناك ؟

- نعم • اللهم الا أن تكون فى بافلوفسك ، فلعلها انتهزت فرصة
جمال الجو ، فمضت تصطاف عند داريا ألكسيفنا • انها تكرر دائماً قولها :
« أنا أملك حريتى كاملة » • أمس تباغت باستقلالها أمام نيقولا
آرداليونوفتش * (كولا) • هذه علامة سيئة •

وأخذ ليديف يتسم •

- هل يزورها كولا فى أحيان كثيرة ؟

- صبى طائش ، صبى لا أفهمه ، عاجز عن المحافظة على سر •

- هل كان ذهابك إليها منذ مدة طويلة ؟

- اننى أذهب إليها كل يوم ، بلا تخلف !

- اذن ذهبت إليها أمس ؟

- لا • منذ ثلاثة أيام لم أرها •

- خسارة أنك سكران قليلاً يا ليديف ! ولولا ذلك لألقيت عليك

سؤالاً آخر •

أجاب ليديف وهو ينصب أذنه :

- لا ، لا ، لم أشرب شيئاً البتة •

- قل لى : على أى حال تركتها ؟

- هم • • • • تركتها على حال امرأة تبحت •

- امرأة تبحث ؟

- نعم ، امرأة تبحث بغير انقطاع ، كأنما هي فقدت شيئاً . أما زواجها المرتقب ، فإن مجرد تفكيرها فيه يثير اشمئزازها ، وهي تنضب اذا حدثت فيه . وقد أصبحت لا تعباً « بصاحبنا » أكثر مما تعباً بقشرة برتقالة ، بل قل انه أصبح لا يوقظ في نفسها الا شعوراً بالهول . انها تمنع أى انسان من أن يأتي على ذكره وهما لا يلتقيان الا فى حالات الضرورة القصوى وهو يدرك ذلك حق الادراك . ولكن لا بد لها من الازعان أخيراً ، فلن تفلت منه ! . . . انها قلقة ، ساخرة ، ملتبسة ، سريعة الاهتياج !

- ملتبسة سريعة الاهتياج ؟

- نعم ، سريعة الاهتياج . من ذلك أنها أوشكت أن تشد شعري اثناء حديث بسيط قام بينى وبينها فى زيارتى الأخيرة لها .
سأله الأمير وقد قدّر أنه لم يسمع كلام ليديف سماعاً واضحاً :

- كيف ؟

- سأقول لك . لقد حدث هذا بينما كنت أقرأ لها رؤيا القديس يوحنا . ان للسيدة خيالاً مضطرباً قلقاً . هـ هـ ! وقد لاحظتُ لديها ، عدا ذلك ، ميلاً بارزاً الى المناقشات الجدية والموضوعات الحارقة . انها تؤثر هذه الموضوعات ، وترى أن محادثتها فيها دليل على احترامها . هذا هو الواقع . وأنا متمكن جداً من تأويل رؤيا القديس يوحنا التى أدرسها منذ خمس عشرة سنة ، وقد وافقتنى على رأيى حين قلت لها انا وصلنا الى العهد الذى يمثلُه الحصان الثالث ، الحصان الأسود الذى يمسك راحبه ميزاناً بيده . ذلك أن كل شئ فى عصرنا هذا يُزان بميزان وينظم بعقد ، وليس لأحد من هم الا أن يبحث عن حقه ويسعى اليه . « ثمنية قمح بدينار ،

وثلاث ثمنيات شعير بدينار * . وهم فوق ذلك يريدون جميعاً أن يحتفظوا بحرية الفكر وطهارة القلب ، وصحة الجسم ، وجميع ما وهب الله . لكنهم لن يصلوا الى هذا بطرق الحق وحدها . لأن الحصان الشاحب لونه سيظهر هو وراكبه الذى اسمه « الموت » والذى يتبعه « الجحيم » * . هذه هى الموضوعات التى نعالجها حين نلتقى ، فتأثر بها تأثراً قوياً .

سأله الأمير ' وهو ينظر اليه مدهوشاً :

— هل تؤمن أنت نفسك بهذا كله ؟

— أؤمن وأؤول . اننى ، وأنا الفقير العارى ، لست الا ذرة فى الزوبعة الانسانية . من ذا الذى يحترم ليديف ؟ ان كل واحد يجرب مكره فيه ، ويكاد يركله برجليه ان صح التعبير . ولكننى فى مجال التأويل أساوى أكبر سيد من السادة . تلك هى ميزة الذكاء . ان فكرى المتوقد قد أفزع عظيماً من العظماء ذات يوم فأخذ يرتعش على مقعده . حدث ذلك منذ سنتين ، قيل أعياد الفصح . ان صاحب السعادة نيل ألكسيفتش ، حين سمع عنى أيام كنت تحت امرته فى الوزارة ، استدعانى الى مكتبه خصيصاً ، وسألنى : « هل صحيح أنك استاذ فى تأويل النبوءات الخاصة بالأعور الدجّال ؟ » ، فلم أكنه أن هذا حق ، وأخذت أقرأ عليه وأشرح له النص المقدس . ولم أحاول أن ألطّف ما يشتمل عليه النص من تهديد بأخطار رهية ، بل توسعت فى شرح الرموز وغصت الى أعماق معنى الأرقام . وقد أخذ يضحك فى أول الأمر ، ولكنه ازاء دقة الأرقام ووضوح المقارنات ، لم يلبث أن أخذ يرتعش ، ثم رجائى أن أطوى الكتاب وأن أنصرف . وأمر لى فى عيد الفصح بمكافأة . ولم ينقض على ذلك أسبوع حتى فاضت روحه وذهبت الى بارئها .

— ما هذا الذى تقوله يا ليديف ؟

- هو الحقيقة بعينها ، فقد سقط من مركبته بعد العشاء ، فاصطدم
صدغه بحجر حائط فمات على الفور • ان سجلات وظيفته تدل على أن
عمره كان ثلاثة وسبعين عاماً • وهو رجل يضرب لونه الى حمرة ، أبيض
الشعر ، معطر دائماً ، مبتسم بغير انقطاع ، كطفل • وقد تذكر بطرس
زاخارتش عندئذ زيارتي له فقال : « تنبأت أنت بما حدث له » •

نهض الأمير لينصرف • فدُهِش ليديف ، حتى لقد آلمه أن يراه
متعجلاً هذا التعجل • فجازف وقال له بلهجة فيها كثير من الاكرام
والمدارة والمراعاة :

- أرى أنك أصبحت لا تكترث !

فأجاب الأمير يقول منزعجاً :

- الحق أن صحتي سيئة • اننى أشعر بثقل فى رأسى • قد يكون
مردٌ هذا الى مشقة السفر •

قال ليديف على وجل واستحياء :

- تحسن صنعاً اذا مضيت ترتاح وتستجم فى الريف •

فظل الأمير وافقاً واجماً • وتابع ليديف كلامه يقول :

- أنا مثلاً ، سأذهب الى الريف مع جميع أفراد الأسرة بعد يومين
أو ثلاثة أيام • هذا أمر لا غنى عنه لصحة الطفل الوليد ؛ وسيتيح لى السفر
اجراء جميع الاصلاحات اللازمة هنا • والى بافلوفسك انما سأذهب أيضاً •
قال الأمير يسأله فجأة :

- وأنت أيضاً ستذهب الى بافلوفسك ؟ ها ••• اذن يذهب جميع
الناس هنا الى بافلوفسك ! وتقول ان لك هنالك منزلاً ريفياً ، أليس
كذلك ؟

- لا يذهب جميع الناس الى بافلوفسك • ولكن ايفان بتروفتش
بتسين قد تنازل لى عن احدى الفيلات التى حصل عليها هناك بثمان بخص •
المكان جميل ، مرتفع ، محضوضر • وتكاليف المعيشة غير باهظة ، والمجتمع
راق ، وسوف نستمتع هناك بالموسيقى * • ذلك هو السبب فى أن بافلوفسك
يرتادها الناس كثيراً • على أنني سوف أكتفى بجناح صغير ، أما الفيلا • •

- هل أجرتها ؟

- ل • • • لا • • • لم أؤجرها تماماً •

قال الأمير يقترح عليه فجأة :

- أنا أستأجرها •

واضح أن ما كان ليديف يريد أن يقود اليه انما هو هذا الطلب •
ان هذه الفكرة تدور فى ذهنه منذ ثلاث دقائق • ولم يكن مع ذلك يبحث
عن مستأجر ، فان هناك شخصاً أعلن له أنه « قد » يستأجر الفيلا • وكان
هو يعلم أن كلمة « قد » هذه تعدل اليقين • لكنه تصوّر فجأة النفع التى
سيجنيه من تأجيره الفيلا للأمير ، فسمح لنفسه بهذا على أساس أن
المستأجر الآخر لم يثبت وعده بالاستئجار • قال يخاطب نفسه : « هذا
نزاع جديد يلوح فى الأفق ، وهذه هى الأمور تجرى مجرى جديداً كل
الجنة ! » • لذلك استقبل اقتراح الأمير بنوع من الحماسة ، فلما سأله
الأمير عن الكراء رفع يديه بحركة تعنى أنه لا يكثر بالكراء ، وأنه
لا يطمع فى منفعة •

قال الأمير :

- طيب • سأدفع لك ما يرضيك • سوف أسأل عن السعر ، فلا
تخسر شيئاً •

وكانا على وشك أن يخرججا من الحديقة • فاذا بليديف يندندن
قائلاً ، وهو يتوآب حول الأمير فرحاً :

- فى وسعى يا أمير ، فى وسعى يا أمير ، اذا أنت شئت ذلك ، أن
أبلغك أمراً هاماً جداً عن المسألة التى تهمننا ...

توقف الأمير • وتابع ليديف كلامه :

- ان داريا ألكسيفنا تملك ، هى أيضاً ، فيلا فى بافلوفسك ...
- وبعد ؟

- ان الشخصية التى يعيننا أمرها هى صديقتها ، ويظهر أنها تنوى
أن تتردد عليها كثيراً فى بافلوفسك • ان لها هدفاً •
- أى هدف ؟

- آجلآيا ايفانوفنا ...

- هوه ! كفى يا ليديف !

لذلك قاطع الأمير ليديف ممتعضاً امتعاض انسانٍ مُسَّت فيه نقطة
موجعة • وأضاف :

- ليس هذا هو الأمر • الأفضل أن تقول لى متى تنوى أن تسافر •
واعلم ان الاسراع فى السفر يناسبنى أكثر مما يناسبنى الابطاء ، لأننى
فى الفندق ...

كان الرجلان قد اجتازا الحديقة وهما يتحدثان • ولم يرجعا الى
المنزل ، بل عبرا الفناء متجهين نحو باب الخروج •
قال ليديف بعد لحظة تفكير :

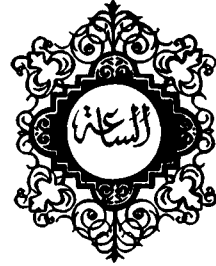
- أرى أن من الخير أن تترك الفندق فى هذا اليوم نفسه ، فتأتى
تقيم هنا ، ثم تسافر معاً الى بافلوفسك بعد غد •

قال الأمير شارد الذهن ، وهو يصل الى الشارع :

– سوف أرى •

تابعه ليديف بنظره • وقد أدهشه هذا الدهول المفاجيء في الأمير
الذي نسي أن يودّعه حين خرج ، بل غفل حتى عن تحيته • ان هذا
النسيان لا يتفق وما عهد ليديف في الأمير من حسن الآداب وبشاشة
المعاملة ولطف السلوك •

الفصل الثالث



تقارب الثانية عشرة ظهراً • كان الأمير يعرف أنه لن يجد في المدينة من آل ايبانتشين الا الجنرال الذي تمنعه أعماله من مغادرة المدينة • حتى ان هذا نفسه ليس مؤكداً •

خطر ببال الأمير أن الجنرال قد يستعجل أخذه الى بافلوفسك ؛ ولكن الأمير يحرص كثيراً على زيارة يجب أن يقوم بها قبل أن يذهب الى بافلوفسك • فقرر أن يبحث عن المنزل الذي كان لا بد أن تقوده اليه تلك الزيارة ، ولو ترتب على ذلك أن يصل الى دار آل ايبانتشين متأخراً ، وأن يؤجل رحلة بافلوفسك الى الغد •

والمسعى الذي سيقوم به الأمير يشتمل على بعض المخاطر من بعض النواحي • ومن ثم كان ارتباكه وكان تردده • وكان يعلم أن المنزل الذي يجب أن يهتدى اليه يقع في شارع « الباسلاء » الذي لا يبعد عن شارع « الحدايق » • فقرر أن يتجه اليه من هذه الجهة آملاً أن يعزم أمره أثناء الطريق على قرار حاسم •

فلما اقترب من تقاطع الشارعين أدهشه الاضطراب الشديد الحارق الذي اجتاحه واستولى عليه • لم يكن يتوقع أن يحس بقلبه يخفق هذا الحفقان القوى • ولفت نظره أحد المنازل من بعيد • أغلب الظن أن غرابة مظهر هذا المنزل هي التي لفتت نظره • وقد تذكر بعد ذلك أنه قال عندئذ

لنفسه : « لا شك أن المنزل الذى أبحث عنه هو هذا » • وتقدم مدفوعاً بفضول شديد ليتحقق من صدق تخمينه ، مع شعوره سلفاً بأنه سيزعجه أن يصدق ظنّه • المنزل عمارة كبيرة مظلمة ذات ثلاثة طوابق ، ليست بذات طراز ، واجهتها خضراء اللون وسخة • ان عدداً قليلاً جداً من المباني التى من هذا النوع والتى يرجع عهدها الى نهاية القرن الماضى ما يزال قائماً فى هذا الحى من بطرسبرج (حيث يتغير كل شيء بسرعة) • انها مباني متينة ، سميكة الجدران ، واسعة النوافذ جداً ، تُحصّن شبابيكها أحياناً بقضبان حديدية فى الطابق الأرضى الذى تشغله دكان صرّاف (من ملة الحصيان *) • ان المخصى الذى يملك الدكان يسكن عامةً فى الطابق الذى يعملوها • وان ظاهر هذه المنازل كباطنها جفوة وعبوساً : فكل شيء يبدو للمرء فيها بارداً ، موصداً ، سرّياً ، دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن يحلل بواعث هذا الشعور بسهولة • لا شك ان التراوح بين الخطوط المعمارية فى هذه المنازل يشتمل على شيء يُشعر بالسرية والحفا • ويندر أن يسكن هذا المنازل الا تجار •

اقترب الأمير من باب الفناء ، وقرأ على لوحة معدنية : « منزل روجويين ، بورجوازي فخرى ورائى » * • وتغلب على تردده فدفع باباً ذا زجاج ، ودخل ، فانغلق الباب وراءه محدثاً ضجة • وصعد الى الطابق الأول على السلم الكبير • ان السلم مبنى بالحجار غليظة ، غائب فى الظل بين جدران مدهونة بلون أحمر • كان الأمير يعرف أن روجويين يحتل مع أمه وأخيه كل الطابق الأول من هذا المبنى الكتيب • فتح له الخادم الباب ؟ ودون أن يُخبر بوصوله ، قاده خلال سلسلة من الغرف : دخلا أولاً الى قاعة عرض ، جدرانها تحاكى المرمر ، وأرضها من خشب السنديان ، وأثاثها الثقيل الغليظ من طراز عام ١٨٢٠؛ ثم ولجا سلسلة من حجرات صغيرة يقطعها المرء بلف ودوران وتخرج • ثم صعدا درجتين أو

ثلاث درجات ، ثم هبطا درجتين أو ثلاث درجات . وفي النهاية قرعا باباً .
ففتح لهما بارفيون سيميونوفتش روجوين بنفسه . فلما رأى روجوين
الأميرَ جمد في مكانه ذاهلاً ، واصفر لونه ، حتى صار يشبه ، خلال بضع
لحظات ، تمثالاً من حجر . ان نظرتِه المحدثّة الثابتة تعبر عن دعر
ورعب ، وان فيه تقلصه ابتسامة مبهوتة . لقد بدا له حضور الأمير حادثاً
لا يتصوره العقل ، بل حادثاً يكاد يكون معجزة . ود هس الزائر من
هذا ، رغم أنه كان يتوقع أن يحدث حضوره أثراً من هذا النوع .
قال الأمير وهو يشعر بحرج :

— ربما كان مجيئي مزعجاً يا بارفيون . فاذا صحّ هذا فسوف
أنصرف .

فقال بارفيون وقد تاب الى رشده :

— لا ، أبداً ! تفضل ادخل !

كان الرجلان يتخاطبان بصيغة المفرد . لقد أتيح لهما أن يلتقيا
بموسكو كثيراً وطويلاً . حتى لقد اشتملت لقاءاتهما على لحظات تركت
في نفس كل منهما أثراً لا يمحي . ولم يلتقيا بعد ذلك منذ أكثر من
ثلاثة أشهر .

ما يزال وجه روجوين شاحباً . وما تزال تشنجات خفيفة خاطفة
تقلص هذا الوجه . ورغم أنه أدخل الزائر فانه ما يزال يشعر باضطراب
لا حيلة له في دفعه . ودعا الأمير الى الجلوس على مقعدٍ قرب المائدة ،
ولكن الأمير حين التفت نحو روجوين مصادفةً ، تجمّد في مكانه تحت
نظرة غريبة غريبة هائلة كان يلقيها عليه روجوين ، حتى لكأنها تخترقه
اختراقاً ؛ وعادت الى ذهنه في الوقت نفسه ذكرى حديثة ، أليمة ، مبهتة ؛
فبدلاً من أن يجلس ، لبث واقفاً ، ساكناً سكوناً كاملاً ، محدقاً الى عيني

روجوين بنظرة ثابتة خلال لحظات • فأخذت عنا روجوين تسطمان
ببريق فيه مزيد من القوة • وابتسم روجوين أخيراً ، ولكن ابتسامته
كانت تشي باضطرابه وحزنه •

وتمتم يقول للأمير :

- لماذا تنظر الى هذه النظرة الثابتة ؟ اجلس •

فجلس الأمير • وقال :

- بارفيون ، كلمني بصراحة • أكنت تعلم أنني سأصل الى بطرسبرج
اليوم ؟

أجاب روجوين وهو يتسهم ابتسامة مرة :

- كنت أقدر أنك قد تجيء ، وهأنت ذا ترى أنني لم يخطيء
تقديرى ، ولكن كيف كان يمكننى أن أحزر أن وصولك سيكون فى هذا
اليوم نفسه ؟

كان العنف والحق فى لهجة هذا السؤال الذى ألقاه روجوين
والذى كان فى الوقت نفسه جواباً ، باعثاً جديداً للأمير على الدهشة •
فقال الأمير برفق ولين بينما كان الاضطراب يجتاح نفسه :

- وهبك عرفت اننى سأصل « فى هذا اليوم نفسه » ، فلماذا تغضب
هذا الغضب ؟

- وأنت ، لماذا تلقى على أنك ذلك السؤال ؟

- لأننى فى هذا الصباح ، بينما كنت أنزل من القطار ، لاحظت
فى زحمة الجمهور عينين تشبهان كل الشبه العينين اللتين كنت تحدّق بهما
الى من ورائى منذ برهة •

فجمع روجوين يقول مرتاباً :

- غريب ! ترى ، هما عينا من ؟

ولكن خيّل الى الأمير أن روجيين قد ارتعش •
قال الأمير :

- لا أدري • كان ذلك في زحمة الجمهور • ومن الجائز على كل
حال أن أكون قد توهمت • أصبحت تتابني أو هام كثيرة من هذا النوع
في الآونة الأخيرة • لقد صرت ، يا عزيزي بارفيون ، في حالة قريبة
من الحالة التي كنت عليها قبل خمس سنين ، أيامَ كانت تعتريني نوبات •
دمدم بارفيون قائلاً :

- جائز أنك كنت فريسة وهم • لا أدري !

وتغيرت ابتسامة التلطف التي كانت مرتسمة على شفّته في تلك
اللحظة ؛ وظهرت ابتسامة جديدة تعبر عن مشاعر متفرقة وعواطف شتى
كان عاجزاً عن أن يؤلف بينها •

قال يسأل :

- أأنت مسافر الى الخارج مرة أخرى ؟
ثم أضاف فجأة :

- هل تتذكر كيف التقينا في الحريف الماضي في قطار بسكوف -
بطرسبرج ••• هل تتذكر معطفك ولبّادتي حذاءيك ؟
وأخذ روجيين في هذه المرة يضحك بخبث صريح ومكر واضح
سرّاً أن يطلق لهما العنان •

سأله الأمير وهو يلقي نظرة على الحجرة :
- هل استقر بك المقام هنا تماماً ؟

- نعم ، أنا هنا في بيتي ؟ أين تريد لي أن أذهب ؟
- نحن لم نلتق منذ مدة طويلة • وقد سمعت عنك أشياء يصعب على
أن أصدّقها •

أجاب روجوين بجفاف :

- ما أكثر ما يقوله الناس !

- ولكنك طردت عصبتك كلها ، ولجأت الى منزل أهلك ، وأصبحت لا تهرب منه • هذا شيء حسن • هل المنزل لك أنت ، أم هو مشترك بين الأسرة كلها ؟

- هو لأُمى • وشقتها تقع في الجهة الأخرى من الممر •

- وأين يسكن أخوك ؟

- أخى سيميون سيميوفتش يسكن في جناح •

- أهو متزوج ؟

- هو أرمل • ما حاجتك الى معرفة هذا ؟

نظر اليه الأمير دون أن يجيب • لقد أصبح واجماً شارد الذهن ، فكأنه لم يسمع السؤال • ولم يلح روجوين ، بل سكت ينتظر •
ولبت الاثنان صامتين برهة من الوقت •
قال الأمير :

- تعرفت منزلك من أول نظرة ، من على مسافة مائة متر !

- كيف هذا ؟

- لا أدري كيف أعبر لك • ان لمنزلك هيئة هي هيئة أسرتك كلها ، وهيئة طراز حياتك • ولكن اذا سألتني أن أشرح لك مصدر هذا الشعور عندي ، لم أستطع أن أفعل • أغلب الظن أن هذا نوع من الهذيان • حتى انني ارتعب حين أرى مدى تأثير هذه الأمور • لم تكن في ذهني أية فكرة عن المنزل الذي تسكنه ، ولكن ما ان رأيته حتى قلت لنفسى : « هذا بعينه نوع المنزل الذي لا بد أن يسكنه ! » •

قال روجوين وقد ارتسمت على شفّته ابتسامة غامضة ، دون أن يفلح في ادراك الفكرة المهمة التي قالها الأمير :

- حقاً ! وان جدى هو الذى بنى هذا المنزل • وقد سكنه دائماً أناس من ملة « الحصيان » ، هم آل خلودياكوف • ولا يزالون يستأجرونه حتى اليوم •

قال الأمير وهو ينظر حواله :

- ظلام حالك ! انك تعيش فى غرفة معتمة جداً •

كانت الحجرة غرفة واسعة ، عالياً سقفها ، لا يدخلها ضوء ، مزدحمة بأثاث من الأثاث : مناضد ، مكاتب ، خزائن ملأى بالسجلات والقراطيس • وكان هناك ديوان عريض منجّد بجلد أحمر لا شك فى أن روجوين يستعمله سريراً • ولاحظ الأمير على المائدة التى كان روجوين قد أجلسه قربها ، لاحظ كتابين أو ثلاثة كان أحدها ، وهو « كتاب التاريخ » الذى ألفه سولوفييف * ، مفتوحاً على صفحة محدّدة بشرطة • وقد علّقت بالجدران بضع لوحات زيتية ذات أطر مزخرفة ، وقد بلغت من القمامة والشحر أن المرء لا يكاد يميّز فيها شيئاً البتة • غير أن هناك صورة رجل بالحجم الطبيعي لفتت نظر الأمير • هو رجل فى نحو الخمسين من العمر ، يرتدى ردنجوتاً أجنبياً التفصيلة ولكنه طويل الحواف ، ويتدلى على عنقه وسامان ، وله لحية متناثرة قصيرة شائبة ، ووجه مجعّد أصفر ، ونظرة متجهمة عابسة •

سأل الأمير :

- أليس هو أباك ؟

فأجاب روجوين يقول مبتسماً ابتسامة سيئة كأنها هو يتأهب لأن يقذف بمزاحة ثقيلة فى حق أبيه :

- نعم ، هو بعينه !

- هل كان ينتمى الى ملة « المؤمنين القدامى » ؟ *

- لا ! كان يذهب الى الكنيسة . ولكنه كان يزعم فعلاً أن الشعائر القديمة كانت أقرب الى الحق . وكان عدا ذلك يحترم « ملة الحصيان » . وكانت حجرة مكتبه هى هذه الحجرة التى نحن فيها الآن . لماذا سألتنى هل كان ينتمى الى « المؤمنين القدامى » ؟

- هل ستحتفلون بالعرس هنا ؟

- هـ هنا

كذلك أجاب روجوين الذى أوشك أن يرتجف عند سماع هذا السؤال المفاجئ ، غير المتوقع .

- هل سيتم الزواج فى القريب ؟

- أنت تعلم أن هذا لا يتوقف علىّ أنا .

- بارفون ، أنا لست عدوك ، ولست أنوى أن أعرق أى أمر من أمورك ، أو أن أقف عقبةً فى طريقك . أكرر لك هذا الآن كما سبق أن أعلنته لك ذات مرة ، فى لحظة شبيهة بهذه اللحظة . انك تعلم اننى لست الذى منع زواجك حين كان على وشك أن يتم بموسكو . ففى المرة الأولى « هى » التى هرعت الى لحظة زفافكما تقريباً لترجونى أن أُنقذها منك . هذه كلماتها هى أكررها لك بنصّها . ثم هربت منى أنا أيضاً . فاهتديت أنت اليها وقدتها الى الكنيسة مرة أخرى للزواج . والآن يُقال لى انها فرّت منك من جديد وجاءت تلوذ ببطرسبرج . هل هذا صحيح ؟ ان لبيديف هو الذى أبلغنى النبأ . وبسبب ذلك انما جئت . ولقد علمت أمس ، فى القطار ، من فم أحد أصدقائك القدامى - وهو زاليوجيف ، اذا أردت أن تعرف من هو - علمت أنكما عدتما فترابطتما . ان رجعتى

الى بطرسبرج ليس لها الا هدف واحد : هو أن أقنعها أخيراً بأن تسافر الى الخارج لتسترد صحتها . فهمي في رأيي مريضة جسماً وروحاً . رأسها ، خاصة ، مريض ؛ وحالتها تتطلب عناية كبيرة . ولا أنوى أن أصحبها ، وانما أريد أن أرتب سفرها دون أن أشاركها فيه . أقول لك الحقيقة خالصة . ولكن اذا صدق أنكما رتبتما أموركما من جديد ، فلن أظهر أمام عينيها قط ، ولن أضع قدمي في بيتك . أنت تعلم أنني لا أخدعك ، لأنني كنت صادقاً معك على الدوام . لم أكتسك رأيي في هذا الأمر يوماً ؛ قلت لك دائماً أنني أعتقد بأنها ستضع حتماً اذا هي ارتبطت بك . ولسوف تضع أنت أيضاً . . . بل قد يكون ضياعك محتوماً أكثر من ضياعها . اذا انفصلتما من جديد ، سرّني ذلك كثيراً ، لكنني لن أساعد في تحقيق هذه القطيعة بينكما . فاطمن اذن ، ولا يخالجنك في ريب ، ولا تساورنك شبهة . ثم انك تعلم حقيقة الأمر : أنا لم أكن منافساً « حقيقياً » لك في يوم من الأيام ، حتى حين لجأت الى ولادتي بي . هأت ذاً تضحك : انني أعرف سبب ضحكك . نعم لقد عشنا هناك ، أنا وهي ، منفصلين ؛ بل لقد عاش كل واحد منا في فيلا مستقلة : « أنت على علم تام بهذا » . ألم أشرح لك قبل الآن « أنني أحبها لا حباً بل شفقة » . أعتقد أن التعريف صادق . ولقد صرّحت لي حينذاك بأنك تفهم ما أريد أن أقول . فهل هذا صحيح ؟ هل فهمت حقاً ؟ ما أشد هذا الكره الذي أراه في نظرتك ! أنا انما أتيت لأهدىء بالك وأطمئنك ، لأنك أنت أيضاً عزيز في نفسي . انني أحبك كثيراً يا بارفيون . أقول هذا وأرحل ثم لا أرجع قط . وداعاً !

نهض الأمير . فقال له بارفيون برقة ورفق ، ولم يكن قد نهض ، وانما هو ما يزال مسنداً رأسه الى يده اليمنى :

– ابق معي قليلاً ، فاني ما رأيته منذ مدة طويلة .

فعاد الأمير يجلس • وساد صمت ، ثم قال روجويين :

- حين لا تكون أمامي يا ليون نيقولايفتش ، فانتى سرعان ما أشعر
بكره شديد لك ، وحقد قوى عليك • انتى فى خلال هذه الأشهر الثلاثة
التي لم أرك أثناءها كنت أبغضك فى كل لحظة من اللحظات • فلو استطعت
لسرّنى أن أقتلك بالسّم حتماً ••••• يميناً لو استطعت لفعلت ذلك !•••••
هذه هى الحقيقة • ولكن كرهى لك زال خلال ربع الساعة هذا الذى
قضيناه معاً ، فاذا أنت عزيز فى نفسى كما كنت عزيزاً فيها من قبل • ابق
معى قليلاً •••••

أجابه الأمير بمودة وصداقة ، محاولاً أن يخفى عواطفه تحت ستار
ابتسامة خفيفة :

- حين أكون بقربك فانك تثق بى ، حتى اذا ابتعدت عنك بارحتك
ثقتك وعدت ترتاب فى من جديد • انك تشبه أباك !
- أثق بك حين أسمع صوتك • أنا أدرك حق الادراك وأفهم كل
الفهم أنتى لا يمكن اعتبارى مساوياً لك ، لا يمكن اعتبارى نداً لك •••••
قال الأمير وهو ينظر الى روجويين مدهوشاً :

- لماذا أضفت هذه الجملة الأخيرة ؟ هانت ذا تغضب من جديد !
- نحن هنا ، يا صديقى ، لا 'نسأل رأينا ، وانما تترتب الأمور دون
استشارتنا !

وصمت روجويين برهة ثم أردف يقول بصوت خافت :

- كل واحد منا يجب بطريقته الخاصة ، أى اننا مختلفان فى كل
شئ • فأنت مثلاً تقول انك تحبها شفقةً ؛ أما أنا فلا أشعر نحوها فى الواقع
بأية شفقة • ثم انها تكرهنى كرهاً عميقاً كاملاً • انتى أراها الآن فى

أحلامي كلَّ ليلة : أراها مع شخص آخر ، وأراها تسخر مني . وهذا بعينه ما يحدث في الواقع يا عزيزي . انها ستزوجني أنا ، ولكنها لا تفكر في أكثر مما تفكر في حذاءين أبدلتها منذ لحظة . هل تصدقني اذا قلت لك انني لم أرها منذ خمسة أيام ، خوفاً من أن أذهب اليها ؟ فلو ذهبت اليها لسألتني لماذا جئت ... لشد ما غمرتني بالحزى والعار منذ الآن !

- بالحزى والعار ؟ ماذا تقصد ؟

- كأنك لا تعرف ! لماذا هربت من الكنيسة حين كنا على وشك الزفاف ؟ ألم تهرب من أجل أن تفرَّ معك ؟ أنت نفسك سلَّمت بهذا منذ برهة .

- عجب . ألا تصدقني حين أقول لك ان ...

- ألم تجليني بالحزى والعار حين قامت في موسكو بمغامرة مع ضابط من الضباط اسمه زميتوجنيكوف ؟ أنا أعرف هذه الحقيقة الآن معرفة اليقين ، وقد حدث الأمر بعد أن حدَّدت هي نفسها يوم العرس !

هتف الأمير بقول :

- مستحيل !

فقال روجوين باقتناع :

- أنا على يقين من هذا . قد تزعم لي أنت انها ليست كذلك . قلْ هذا الكلام لغيري يا عزيزي ! قد تتصرف معك أنت تصرفاً آخر ، حتى لقد يُشعرها مثل هذا الفعل عندئذ بهول رهيب . أسلِّم لك بذلك . ولكنها معي لا يزعاها وازع كهذا ، ولا يساورها تورع من هذا النوع ! هذه هي الحقيقة . انها لا تعدني شيئاً مذكوراً ، انها لا تقيم لي أى وزن ! اننى أعلم علم اليقين أن علاقة نشأت بينها وبين ذلك الضابط كيللر الذى

كان يمارس الملاكمة ، لا لشيء الا لتجعلنى هزأة ! انك لا تعرف مدى ما لقيت منها بموسكو من عذاب ، ولا تعرف ما أنفقت بسببها من مال !! •
سأله الأمير مروّعاً :

- فلماذا تفكر فى تزوجها الآن ؟

لم يجب روجويين بشيء فى أول الأمر ، وحجج الأمير بنظرة ثابتة ناقبة • ثم قال بعد برهة صمت :

- لم أذهب إليها مرة واحدة منذ خمسة أيام • اتنى أخشى دائماً أن تطردنى • انها ما تنفك تكرر قولها : « ما زلت حرة التصرف بنفسى • فاذا شئت طردتك طرداً تاماً وسافرت الى الخارج » •
وأضاف روجويين يقول كالاستطرد ، وهو يلقي على الأمير نظرة ثابتة ملحة :

- سبق أن حدثنى هى عن هذا • صحيح أنها تتكلم أحياناً بغير قصد الا أن تخيفنى • انها تجدد فى دائماً ما يمكن أن تتخذة موضوعاً للتندر والضحك • وفى أحيان أخرى تقطّب حاجيها ويكتسى وجهها طابع الهمّ والغم ، وتسكت فلا تنطق بحرف : وذلك هو ما أخشاه أكثر من أى شيء آخر • قلت لنفسى فى يوم من الأيام : لن أذهب إليها فارغ اليدين • فماذا حدث ؟ ان الهدايا التى حملتها إليها لم تزد على أن حرصتها مزيداً من التحريض على السخرية بل وعلى الغضب • حتى لقد أعطت خادمتها كاتيا شالاً رائماً أهديه إليها ، شالاً لعلها ما رأت مثله فى حياتها قط ، رغم الترف الذى كانت تعيش فيه • وأما أن أسألها تحديد يوم الزواج فذلك أمر لن أجازف فأفعله • ما أحلى وضع الخطيب الذى لا يجروء حتى أن يزور مَنْ ستكون زوجته ! لهذا ترانى أقبع فى بيتى ! حتى اذا نفذ صبرى ، ونضبت مقاومتى ، مضيت خلصةً أحوم حول منزلها أو أختبئ

فى ركن من الشارع • وفى ذا تمرة بقيت واقفاً أمام باب منزلها كالحارس
الى مطلع الصبح تقريباً • كان قد تراءى لى اننى ألاحظ شيئاً ما • ولاشك
أنها رأتنى من النافذة ، فها هى ذى تصرخ قائلة : « ما عساك تستطيع أن
تفعل بى اذا رأيت أننى أخونك ؟ » واذ لم أطق صبراً أجبتها قائلاً :
« أنت تعرفين » •

سأله الأمير :

— ما الذى تعرفه ؟

— أننى لى أن أعلم !

قال روجوين ذلك وهو يضحك ضحكة ساخرة • وواصل كلامه
فقال :

— لم أستطع ، بموسكو ، أن أفاجئها مع أحد ، رغم اننى تجسست
عليها مدة طويلة • فأخذتها مرة وقلت لها : « لقد وعدتنى بأن تتزوجينى •
وستدخلين أسرة محترمة • هل تعرفين ماذا أنت ؟ انظرى ماذا أنت ! » •
— أفلتَ لها هذا ؟

— نعم ؟

— فماذا قالت ؟

— قالت : « أنا الآن لا أوافق على أن أكون زوجتك ؛ وربما كنت
لا أرضاك خادماً ! » •

« فأجبتها :

— وأنا لن أتحرك من هذا المكان •

» فقالت :

— وأنا سأنادى كيلر ليطردك ويضعك خارج الباب •

» فهجبت عليها ، فما زلت أضربها حتى تغطى جسمها ببقع زرقاء •

صاح الأمير يقول :

— هذا مستحيل !

فقال روجويين مؤكداً بصوت خافت ، ولكن عينيه كانتا تلتزمان :

— بل هذه هي الحقيقة أقولها لك خالصةً • وظللت يوماً ونصف يوم على وجه الدقة لا أنام ولا أشرب ولا آكل ولا أغادر الغرفة • ظللت راكماً على ركبتي أمامها أقول لها :

« سأفطس ، لكنني لن أخرج ما لم تكوني قد غفرت لي ، وإذا وضعتني على الباب مطروداً ، مضيت أنتحر غرقاً ، إذ ما عساي أصبح بدونك ؟ » • وظلت هي طول النهار كالمجنونة ، فتارةً تبكي ، وتارةً تريد أن تقتلني بسكين ، وتارةً تشتتني • واستدعت زاليوجيف وكيللر وزميوجنيكوف وسائر الآخرين ، لترتهم حالي ولتدّلني أمامهم •

« — هلموا نذهب الى المسرح هذا المساء عصبيةً واحدة ، وليق هو هنا اذا لم يشأ أن ينصرف ، فليست مضطرة أن أقبع بالبيت لأحرسه • • سيُقدّم اليك الشاي دون أن أكون حاضرة يا بارفيون سميونوفتش ؛ لا بد أنك اليوم جائع •

« ورجعتُ من المسرح وحيدة • وقالت لي !

« — انهم جناء رعيديون • • • انهم يخافون منك ، ويريدون أن يخيفوني أنا أيضاً منك • قالوا لي : « انه لن ينصرف هكذا • • • انه لا يتورع عن قتلك » • ولكنني ، أنا ، حين سأمضي الى غرفتي للنوم بعد قليل ، لن أقفل الباب بالمفتاح ، فانظر الى أي حد أخاف منك ! أريد أن تعرف هذا وأن تراه • هل شربت شيئاً ؟

« — لا ، ولن أشرب •

« - تريد أن تظهر أنفةً وكبرياءً ، ولكن هذا لا يناسبك كثيراً .
« وفعلت ما قالت . لم تقفل الباب بالمفتاح . وحين خرجت في الصباح
من غرفتها أخذت تضحك ، قالت :

« - أتراك جُنت ؟ أتريد أن تموت من الجوع حقاً ؟

« قلت لها :

« - اغفرى لى !

« - لا أريد أن أغفر لك . ولقد أنبأتك بأننى لن أتزوجك . هل
لبثت على هذا المقعد حقاً طوال الليل بدون أن تام ؟

« - نعم ، لم أنم لحظة واحدة .

« - ما أعظم هذا المكر ! . ألن تحتسى شيئاً من الشاي ؟ ألن تتعشى
أيضاً ؟

« - قلت لك . لا أريد الا أن تغفرى لى .

« - ليتك تعلم الى أى حد لا يناسبك هذا الوضع ! انه لا يناسبك
أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج * . أتراك تتصور أنك
بهذا تخيفنى ؟ ولكن فيم يهمنى أنا أن يكون بطنك خاوياً ؟ هه !...»

« وغضبت . لكن غضبها لم يدم طويلاً ، وعادت الى التهكم على .
أدهشنى أن يزول غضبها بمثل تلك السرعة ، مع ما يتصف به طبعها من
حقد وميل الى الانتقام . عندئذ خطر ببالى اننى فى نظرها أهون شأنًا من
أن تحقد علىّ مدة طويلة . وكان ما خطر ببالى حقاً . فقد سألتنى :

« - هل تعرف ما البابا فى روما ؟

« فأجبته :

« - سمعت عنه .

« قالت :

« - هل درست التاريخ العام يوماً يا بارفيون سيمونتش ؟

« - لم أدرس شيئاً .

« - اذن سأعطيك كتاباً تقرأ فيه قصة بابا غضب من امبراطور * ،

فاضطره أن يظل ثلاثة أيام لا يشرب ولا يأكل ، جائياً على ركبته ، حافي القدمين ، عند مدخل قصره ، الى أن تفضل فعفا عنه وغفر له . هل تتصور ما قد دار في ذهن الامبراطور الراكع من أفكار خلال تلك الأيام الثلاثة ، وما قد حلف بينه وبين نفسه من أيمان ؟ ولكن انتظر : سأقرأ عليك هذا بنفسى .

« وركضت تجيء بالكتاب . وقالت لى : « هى أشعار » . وأخذت

تقرأ على فقرة يدور الكلام فيها على مشاريع الانتقام التى آلى ذلك الامبراطور على نفسه لينفذنها ، بينما كان راکعاً مذلاً خلال تلك الأيام الثلاثة . وأضافت تسألنى : « هل يمكن أن لا يعجبك هذا يا بارفيون سيمونوفتش ؟ » .

« قلت لها :

« - ان كل ما قرأته صحيح .

« - ها ... انك ترى هذا صحيحاً . واذن فلعلك أنت أيضاً تقول

لنفسك : « حين تصبح زوجتى ، فلأذكرنها بهذا اليوم ، ولاتقمن لنفسى ! » .

« - لا أدرى ! ذلك ممكن !

« - كيف لا تدري ؟

« - لا أدرى . ليس هذا ما أفكر فيه الآن .

« - فى أى شىء تفكر اذن ؟

« - اليك ما أفكر فيه : حين تنهضين ، وتمرين بقربي ، فانتى أنظر اليك ، وأتابعك بعينى ، وأسمع حفيف ثوبك ، فيسقط قلبي ؛ وحين تغادرين الغرفة ، أتذكر كل كلمة من كلماتك بلهجتها ؛ وطوال الليل لم أفكر فى شيء ، وانما كنت أصغى الى أنفاسك ، ولاحظت أنك تحركت فى سريرك مرتين ... »

« قالت ضاحكة :

« لعلك نسيت الكلمات التى هويت بها علىّ أيضاً ؟

« - ربما كنت أفكر فيها ، لا أدرى ... »

« - فماذا اذا لم أغفر لك ولم أتزوجك ؟

« - سبق أن قلت لك : ألقى بنفسى فى الماء فأموت غرقاً .

« قالت وقد شرد فكرها :

« - وقد تقتلنى قبل أن تلقى بنفسك فى الماء ؟

« ثم غضبت وخرجت ، وبعد ساعة عادت فقالت لى عابسة :

« - سوف أتزوجك يا بارفيون سيمونوفتش . لا لأننى أخشاك ،

فانه ليستوى عندى أن أهلك بهذه الطريقة أو بتلك . لكننى لا أجد

مخرجاً أفضل من هذا المخرج ، اجلس . سوف تؤتى بعشائرك . واذا

تزوجتك فساكون امرأة وفيه ، فلا يراودك شك فى هذا ، ولا تقلق .

وأضافت تقول بعد برهة صمت :

« - كنت أعدك من قبل خادماً حقيقياً ، لكننى كنت مخطئة .

« وهنا حدثت موعد زواجنا . غير أنها هربت منى بعد أسبوع

ولجأت الى ليديف . ولما وصلت الى بطرسبرج قالت لى : « أنا لم أعد

عن زواجك ، لكننى أريد أن أتمهل ، فما زلت حرة التصرف بنفسى ،

فاتنظر أنت أيضاً ، اذا شئت أن تنتظر . . . الى هذه المرحلة وصلنا الآن
... ما رأيك فى هذا كله يا ليون نيقولايفتش ؟

فأجاب الأمير وهو ينظر الى روجويين بحزن :
- ما رأيك أنت ؟

فهتف روجويين قائلاً :

- هل لى أنا من رأى ؟

وأراد أن يضيف شيئاً ، لكنه أمسك عن الكلام ، وقد ألمّ به كرب
شديد .

نهض الأمير من جديد لينصرف . وقال بصوت خافت ولهجة حاملة ،
كأنما هو يجيب عن سؤال خفى يطرحه هو نفسه فى باطنه :

- على كل حال ، لن أخلق لك أى صعوبة ، ولن أضع أمامك أى
عثرة .

قال روجويين وقد انتعش وسطعت عيناه :

- هل تعرف ما سأقوله لك ؟ اننى لا أفهم أن تتنازل لى عنها هذا
التنازل . أتكون قد كففت عن حبها تماماً ؟ كنت فى السابق حزيناً
مغموماً . لاحظت أنا هذا بوضوح . ولماذا جئت الى هنا مسرعاً ذلك
الاسراع كله ؟ أمن باب الشفقة ؟

قال روجويين ذلك وقد تقلصت شفتاه بابتسامة ساخرة . فسأله
الأمير :

- أظن أننى أكذب عليك وأخدعك ؟

- لا . اننى أثق بك . لكننى لا أفهم موقفك . لا بد أن شفقتك
أعنف من حبى .

والتمع فى عينى روجوين كره تعجز الكلمات عن التعبير عنه •
قال الأمير مبتسماً :

– ان حبك القوى يشبه الكره الشديد • حتى ليكادان يختلطان •
واذا انقضت هذه العاطفة يوماً فسيكون الأمر عندئذ أنكى وأدهى •
يا عزيزى المسكين بارفيون ، أنا الذى أقول لك هذا ...
– ماذا ؟ أعتقد أننى سأذبحها ؟
ارتعش الأمير • وقال :

– ستركها فى يوم من الأيام كرهاً رهيباً ، بسبب هيامك بها الآن ،
وبسبب ما تحمله اليوم من آلام • أما أنها يمكن أن تفكر فى تزوجك ،
فهذا شيء لا أفهمه حقاً ، فحين أنبت به لم أكد أصدقه ، وشعرت منه
بحزن • لقد سبق أن غيرت رأيها مرتين فتركك قبل الاحتفال بالزفاف •
معنى هذا أنها كانت توجس شيئاً ... فما الذى يمكن أن يردّها الآن
نحوك ؟ أهو مالك ؟ من السخف أن نفترض هذا الافتراض ، لا سيما وأنك
قد بددت منذ الآن جزءاً كبيراً من ثروتك • فهل يكون السبب هو الرغبة
فى الزواج لا أكثر من ذلك ؟ ولكن فى وسعها أن تجد زوجاً آخر
غيرك • وأى زوج آخر خير لها منك ، لأنك أنت قد تذبحها ، ولعلها
توجس هى ذلك وتتبا به • أليكون جموح هواك ، أو عنف هيامك هو
الذى يجذبها اليك ؟ قد يكون الأمر كذلك ... لقد سمعت أن هناك نساء
يعشقن هذا النوع من العشق ... ولكن ...
وأمسك الأمير عن الكلام وشرد فكره •

سأله روجوين الذى كان يرصد أيسر حركة من حركات وجهه :
– لماذا ابتسمت أيضاً حين نظرت الى صورة أبى ؟
– لماذا ابتسمت ؟ ابتسمت لفكرة خطرت ببالى ، هى أنك لولا هذا

الهيام الذى يعذبك ، لأصبحت تشبه أباك خلال فترة وجيزة من الزمن :
تحبس نفسك فى هذا المنزل مع زوجة مطيعة بكاء ، ولا يسمع منك أحد
الا كلاماً قليلاً قاسياً ، ولا تصدّق اسناناً بل ولا تشعر بالحاجة الى أن
تثق بانسان ، وتكتفى بأن تجمع المال فى الظل والصمت . وفى أكثر تقدير ،
تهتم عند نهاية العمر بالكتب القديمة ، وترسم اشارة الصليب باصبعين . . *

– اسخر منى ! لقد قالت لى هذا الكلام نفسه منذ مدة غير طويلة ،
حين نظرت الى هذه الصورة . ما أغرب التقاء رأيكما هذا الالتقاء !
سأله الأمير متحيراً :

– ماذا ؟ هل جاءت الى بيتك ؟

– نعم ، وتأملت الصورة طويلاً وسألتنى عن المرحوم ، وختمت
كلامها قائلة : « ذلك ما كنتَ ستصير اليه بمضى الزمن . ان لك أهواء
عيفة عارمة يا بارفيون سيميويتش ، أهواء تبلغ من العنف والعرامة أنها
يمكن أن تؤدى بك الى سيبيريا ، الى السجن ، لولا أنك ذكى ، ذلك أنك
ذكى جداً (تلك كانت كلماتها بنصها ، صدّق أو لا تصدّق . وكانت هذه
أول مرة تقول لى فيها ذلك) . وأضافت تقول : « كان يمكن أن تترك
جميع السخافات التى تتعلق بها اليوم ؛ واذا أنك محروم من الثقافة ، فانك
كنت ستصرف عن كل شيء الا جمع المال . كنت ستبقى فى بيتك ،
كأبيك ، مع أصحاب ملتك « الحصيان » ، حتى لقد ينتهى بك الأمر الى
اعتناق ملتهم . انك تحب مالك حباً يبلغ من القسوة أنك قد تجمع
لا مليونين بل ربما عشرة ملايين ، ولو اقضى ذلك أن تموت جوعاً فوق
أكياس الذهب التى تملكها ، لأنك تفعل كل شيء بهوى شديد وولع
عنيف ، ولا يقودك خطاك الا الهوى الشديد والولع العنيف ! » . ذلك
ما قالته لى بنصه ، كلمة كلمة على وجه التقريب . لم تكن قد كلمتى

بهذه اللغة فى يوم من الأيام • انها لا تحدثنى عادةً الا فى سفاسف
 وترّاهات ، أو هى تأخذ تسخر منى وتهكم علىّ • وفى تلك المرة بدأت
 بالاستهزاء ، ثم تجهم وجهها وأظلم • واستعرضت المنزل كله كأنها كانت
 تشعر بخوف من شيء ما • قلت لها : « سوف أُعَيِّر هذا كله ، وأعيد
 تربيته ، أو سوف أشتري منزلاً آخر لزواجنا » • فأجبتنى قائلة : « لا ،
 لا ، ما ينبغي تغيير شيء هنا • سنعيش على هذا النسق نفسه • أريد أن
 أقيم بقرب أمك حين أصبح زوجتك » • وعرفّتها بأمى • فأظهرت لها
 احتراماً كاحترام البنت أمّها • ان أمى مريضة منذ سنتين ، وقد أصبحت
 لا تملك قواها العقلية كاملةً ؛ ولا سيما بعد أن مات أبى ، فكأنها ارتدت
 الى الطفولة منذ ذلك الحين • ساقاها مشلولتان • وهى لا تتكلم • ولا تزيد
 على أن تحرّك رأسها بإشارة لمن يقصدونها • اذا لم تُؤت بطعامها فقد تظل
 يومين أو ثلاثة أيام لا تطلب شيئاً • وقد تناولت يد أمى اليمنى ، فضمت
 أصابعها لرسم اشارة الصليب ، وقلت لها : « باركيها يا أمى ، فسوف
 تكون زوجتى • وعندئذ قبّلت يد أمى بحرارة وقالت : « أنا على يقين
 من أن أمك تألت كثيراً » • وحين لمحت هذا الكتاب الذى تراه سألتنى :
 « أخذت تقرأ تاريخ روسيا اذن ؟ » (هى التى قالت لى ذات يوم
 بموسكو : « يجب عليك أن تتقف قليلاً ، فقرأ « تاريخ روسيا » مثلاً
 - تأليف سولوفيف - لأنك لا تعرف شيئاً البتة !) • وأضافت تقول :
 « أحسنت • استمر ! سأضع لك بنفسى قائمةً بالكتب التى يجب
 عليك أن تقرأها قبل كل شيء ، هل تريد ؟ » • لم تكن قد كلمتني بهذه
 اللهجة فى يوم من الأيام ، أبداً • دُهِشت دهشة شديدة • دُهِلت •••
 شُدهت ••• ولأول مرة تنفست كما يتنفس انسان عادت اليه الحياة •
 قال الأمير بصدق :

- يسرنى هذا كثيراً يا بارفيون ، يسرنى كل السرور • من يدري؟
قد يشاء الله أن يجمع بينكما •

فصاح روجوين يقول مندفعاً :

- لن يكون هذا أبداً !

- اسمع يا بارفيون : اذا كنت تحبها هذا الحب كله ، فهل يُعقل أن لا تحرص على أن تستحق اعتبارها واحترامها ؟ واذا كنت تحرص على ذلك ، فهل يُعقل أن تأس من الوصول اليه ؟ لقد قلت لك منذ قليل اننى لا أفهم كيف قبلت أن تزوجك • ولكن لا بد أن يكون لقبولها هذا سبب ، وان كنت لا أدركه • لا يمكن أن يشك المرء فى هذا • انها مقتنعة بحبك ، ولكنها مقتنعة أيضاً بأن لك مزايا معينة • لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وما ذكرته لى الآن يأتى مؤيداً ومصدقاً لاعتقادي هذا • أنت نفسك تقول انها استطاعت أن تخاطبك وأن تعاملك بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة التى كانت تعتمد اليها من قبل فى مخاطبتك وفى معاملتك • أنت كثير الشك شديد الغيرة ، وذلك هو السبب فى أن خيالك ضخّم الشر الذى لاحظته فيها • مما لا شك فيه أن رأيها فىك ليس سيئاً الى الحد الذى يصورّه لك وهمك ، ويعبّر عنه لسانك • والا كان علينا أن نسلّم بأننا اذا تزوجتك كان تحكم على نفسها ، عامدة متعمدة ، بأن تهلك غرقى أو مذبوحة • هل هذا معقول ؟ من ذا الذى يمضى الى الموت بارادته واعياً بصيراً ؟

كان بارفيون يصفى الى كلمات الأمير المختلجة المرتعشة ، وهو يتسم ، ولم يسع الأمير الا يقول له مغموماً :

- ما هذه النظرة العابسة المشثومة التى تلقيها علىّ يا بارفيون ؟
فهتف روجوين يقول أخيراً :

- أن تهلك غرقى أو مذبوحة ! هيه ••• صحيح ••• اذا تزوجتني
فمن أجل أن تُذبح يدي حتماً ! لا ••• هل يُعقل يا أمير أن لا تكون
قد فهمت حقيقة الأمر فى هذه القضية كلها بعد ؟

- لا أدرك ماذا تعنى •

- جائز أن لا تفهمنى على كل حال !••• يزعم بعضهم فعلاً أنك
على شئ من ••! انها تحب رجلاً آخر • هل فهمت ؟ انها تحب الآن
رجلاً آخر كما أحبها أنا • وهذا الرجل الآخر ، هل تعلم من هو ؟ انه
« أنت » ! ماذا ؟ ألم تكن تعرف هذا ؟

- أنا !

- نعم ، أنت • لقد بدأت تحبك منذ حفلة عيد ميلادها • لكنها تقدّر
أنه يستحيل عليها أن تتزوجك ، لأنها لو تزوجتك لجللتك بالعار ،
ولأفست مستقبلك • هى تقول : « الناس تعلم من أنا » • انها تؤكد هذا
الكلام ، ولم تتخرج من أن تعلمه لى جهاراً • هى تخشى عليك أنت أن
تضيّع وأن تلتطخ شرفك بالعار • أما أنا ففى وسعها أن تتزوجنى ،
فليس فى هذا ضير • تلك هى قيمتى عندها ، وذلك هو قدرى فى نظرها •
احفظ هذا !

- ولكن كيف أمكن أن تهرب منك وأن تلجأ الىّ ثم تهرب منى ••
- لعود الىّ ؟ هه ••• هل يستطيع المرء أن يعرف ماذا يدور فى
رأسها ، وماذا يجول فى خاطرها ؟ هى الآن فى حالة من حمى ! يوماً
تصبح قائلةً لى : « اننى أنزوجك كما يلقى المرء نفسه فى الماء • فلتتزوج
بأقصى سرعة ! » ، وتمضى تتعجل الاستعدادات بنفسها ، وتحدد يوم
الزفاف ••• حتى اذا اقترب ذلك اليوم خافت أو راودتها أفكار أخرى
أو ساورتها خواطر أخرى لا يدرى ما هى الا الله ! لقد رأيتها بمينيك :

انها تبكى ، وتضحك ، وتتخبط هنا وهناك كالمحمومة . فأى غرابة فى
أنها هربت منك أنت أيضاً ؟ لقد هربت منك لأنها أدركت عنف الهوى
الجارف الذى تحمله لك . كان بقاؤها بقربك فوق طاقتها . زعمت منذ
قليل أنتى اهدت اليها أو عثرت عليها بموسكو . ليس هذا صحيحاً .
انها هى التى سارعت الى هاربة منك ، وقالت لى : « حدّد يوماً للزواج ،
أنا مستعدة ! أحضر شمبانيا ! وهلمّ نسمع الفجريات ! » وكانت تصرخ .
لولاى لألقت نفسها فى الماء منذ مدة طويلة . أؤكد لك . واذا كانت
لا تلقى بنفسها فى الماء حتى الآن ، فربما كان ذلك يرجع الى أنها ترانى
أفظم من الموت غرقاً . انها تتزوجنى حقاً وغيظاً .

هتف الأمير يقول :

ـ ولكن كيف ترضى أنت أن ... كيف ...

ولكنه لم يكمل كلامه . وكان ينظر الى روجوين مروّعاً . فسأله
روجوين وهو يضحك ضحكاً ساخراً .

ـ لماذا لا تكمل سؤالك ؟ هل تريد أن أقول لك فى أى شيء تفكر
فى هذه اللحظة ؟ انك تسأل نفسك : « كيف يمكن أن تتزوجه الآن ؟
كيف يمكن قبول مثل هذا الزواج والسكوت عنه » . ذلك هو شعورك
وتلك هى عاطفتك حتماً ...

ـ اعود فأكرر لك يا روجوين اننى لم أجد اليك لهذا الغرض ،
وان الفكرة التى كانت فى ذهنى ليست هذه الفكرة .

ـ جائز أن لا تكون قد جئت لهذا الغرض ، وأن لا تكون الفكرة
التي كانت قائمة فى ذهنك أول الأمر هى هذه الفكرة ، ولكن لا شك

فى أن هذا هو ما تفكر فيه الآن • دحك من الماحكة ! لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله ؟ هل كنت لا تعرف شيئاً من ذلك حقاً ؟ انك لتدهشنى !

تمتم الأمير يقول وقد بلغ ذروة الانفعال :

- ذلك كله غيرة يا روجوين ! هذا مرض • انك تفقد الاعتدال والقصد ••• انك تغالى وتبالغ ••• ولكن ما هذا الذى عندك ؟

فأسرع بارفيون ينتزع من يدى الأمير سكيناً صغيرة تناولها الأمير من على المائدة بقرب الكتاب دون وعى ، وقال له وهو يعيد السكين الى مكانها:
- دعها !

وواصل الأمير كلامه فقال :

- لكأنتى كنت أوجس هذا كله حين وصلت الى بطرسبرج ••• لم أكن أحب أن أجيء ••• كنت أريد أن أنسى كل ما يربطنى بهذه المدينة ويشدنى اليها ، وأن استأصله من قلبى استئصالاً ! هيأ ••• استودعك الله !••• ولكن ما هذا الذى عندك ؟

كان الأمير ، أثناء الكلام ، قد تناول السكين مرة أخرى ذاهلاً • فاتزع روجوين السكين من يده ، ورماها على المائدة • السكين ذات شكل بسيط شائع • قبضتها من قرن وعل ، ونصلها يبلغ طوله نحو خمسة عشر سنتيمتراً ، وعرضها يناسب هذا الطول •

فحين لاحظ روجوين دهشة الأمير من انتزاع السكين من يديه مرتين ، تناول السكين غاضباً ودسّها فى الكتاب ثم رمى الكتاب على مائدة أخرى •

سأله الأمير ذاهلاً مستغرقاً فى تفكيره :

- أأنت تستعملها قطعاً ورق !

- نعم •••

- لكنها سكين حديقه •
- وهل يستحيل قطع صحائف الورق بسكين حديقه ؟
- لكنها ... جديدة تماماً •
- أى خير فى هذا ؟ ألا أستطيع أن اشترى سكيناً جديدة ؟
- كذلك صاح روجوين وقد اتابه خنق شديد • وكان غضبه يزداد عند كلمة يقولها الأمير •
- ارتعش الأمير وحدّق الى روجوين • ثم قال ضاحكاً وقد تاب اليه وعيه كاملاً :
- ما دهانا ؟ اعذرنى يا عزيزى • فانتى حين يثقل رأسى ويعاودنى مرضى كما حدث لى الآن ... أصبح ذاهلاً ذهولاً مضحكاً • ليس ذلك هو السؤال الذى كنت أريد أن ألقيه عليك ... نسيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه • استودعك الله •
- قال روجوين :
- ليس هذا هو الطريق •
- نسيت !
- من هنا ! سأريك الطريق !

الفصل الرابع



الحجرات نفسها التي سبق أن قطعها الأمير • كان روجوين يتقدمه قليلاً • ودخلا الصالون الكبير الذي كانت معلقة بجدرانها لوحاتٌ هي جميعاً صور أساقفة ومناظر طبيعية لا يميّز المرء فيها شيئاً • ان فوق الباب المفضى الى الغرفة المجاورة لوحةً شكلها غريب، فطولها يبلغ مترين وعلوّها لا يزيد على ثلاثين سنتيمتراً • انها تمثل يسوع المسيح ، المخلّص ، لحظة نزوله عن الصليب •

ألقى الأمير على الصورة نظرةً سريعةً وكأنه تذكر شيئاً ما ، لكنه لم يتوقف • وهمّ أن يتخطى العتبة • كان يشعر بانقباض في صدره ونقل في قلبه ، ويتمجّل مغادرة هذا المنزل • لكن روجوين توقف فجأة أمام اللوحة • وقال :

- جميع هذه اللوحات التي تراها هنا انما اشترى المرحوم أبى كلّ واحدة منها بروبيل أو روبلين في مبيعات عامة • كانت له هذه الهواية • وقد فحص اللوحات رجلٌ خير ، فوصفها جميعاً بأنها غير ذات قيمة ، الا هذه التي تراها فوق الباب والتي اشتراها أبى روبرلين أيضاً ••• فقد وصفها بأنها ليست غير ذات قيمة • وقبل وفاة أبى ، وُجد من عرض عليه أن يشتريها منه بثلاثمائة وخمسين روبلاً ؛ حتى ان سافليف ، ايفان دمترتش سافليف ، وهو تاجر ثرى من كبار هواة الصور ، قد عرض

عليه أربعمائة روبل ثمناً لها • وفي الأسبوع الماضي عرض على أخى
سيمون سيمونوفتش خمسمائة روبل ؟ ولكننى رفضت واحتفظت بها
لنفسى •

قال الأمير وقد اتسع وقته للتدقيق فى اللوحة ، وانعم النظر اليها :
- ولكن •• ولكن هذه اللوحة منسوخة عن لوحة هانس هولباين* •
ويخيل الى أنها نسخة ممتازة ، رغم اننى لست على جانب كبير من
الخبرة والدراية فى هذا المجال • لقد رأيت هذه اللوحة فى الخارج ،
ولا أستطيع أن أنساها • ولكن ماذا ••• ماذا بك ؟

كان روجوين قد ترك اللوحة فجأة ، واستأنف السير • صحيح أن
ما كان قد اعترى روجوين من ذهول واحتياج يمكن أن يعلل تقلبات
مزاجه هذه • غير أن الانقطاع المباغت عن حديث لم يكن الأمير هو الذى
بدأه قد أثار دهشة الأمير ؟ كما ان امتناع روجوين عن الردّ على سؤاله
بدا له غريباً كذلك •

وهذا هو روجوين يسأل الأمير على حين فجأة بعد بضع خطوات :
- قل لى يا لىون نيقولايفتش ••• كنت أريد منذ مدة طويلة أن
ألقى عليك هذا السؤال : - أأنت تؤمن بالله أم لا ؟

قال الأمير على غير ارادة منه :
- ما أغرب سؤالك ••• وما أغرب نظرتك ! •••

ودمد روجوين يقول بعد صمت ، كأنه قد نسى سؤاله مرة أخرى :
- اننى أحب أن أنظر الى هذه الصورة !

فهتف الأمير يقول وقد ساورته فكرة مباغته :
- هذه الصورة ! ان هذه الصورة يمكن أن تفقد بعض الناس
إيمانهم !

فقال روجوين مؤيداً كلام الأمير على غير توقع :

— حقاً ... انها تفقد المرء ايمانه ! ...

وكانا قد بلغا باب الخروج . فقال الأمير وهو يتوقف فجأة :

— كيف ؟ أنا قلت كلامي من باب المزاح تقريباً ، وأنت تأخذه مأخذ الجدل ! لماذا سألتني منذ لحظة هل أؤمن بالله ؟

— لا لشيء ... هكذا ... وكنت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال من قبل . ان في هذه الأيام أناساً كثيرين لا يؤمنون بالله . لقد عشت في الخارج . فهل صحيح ما كان يقوله لي احد السكّيرين من أن الذين لا يؤمنون بالله هم في بلادنا ، روسيا ، أكبر عدداً منهم في أى بلد آخر ؟ لقد قال لي ذلك السكّير : « الالحاد أسهل علينا منه على الآخرين ، لأننا سرنا شوطاً أبعد ... » .

وابتسم روجوين ابتسامة مرة . انه حين ألقى سؤاله كان قد فتح الباب فجأة ، وانتظر خروج الأمير واضعاً يده على قبضة الباب . ودُهن الأمير ، لكنه تخطى العتبة ، وتبعه روجوين الى فسحة السلم مغلقاً الباب وراءه نصف اغلاق . وبقي الرجلان واقفين وجهاً لوجه ، وكأنهما لا يعرفان الى أين وصلا من أمرهما ولا ما الذى يجب عليهما أن يفعله .

قال الأمير وهو يمد الى روجوين يده :

— طيب ... استودعك الله !

فقدم روجوين وهو يشد على اليد الممدودة اليه شداً قوياً ، ولكن على نحو آلى تماماً :

— استودعك الله .

وهبط الأمير درجةً ثم التفت يستأنف الكلام مع روجوين . كان

واضحاً أنه لا يريد أن يتركه على تلك الحال • قال له مبتسماً ، وقد
شجذت همته ، عدا ذلك ، ذكرى مباحته :

- فيما يتعلق بالايمان ، أذكر اننى فى الأسبوع الماضى قد حدثت لى
أربع مقابلات فى غضون يومين • ففى ذات صباح ، أثناء سفرى على خط
جديد من خطوط السكة الحديدية ، ظللت أترثر مدة أربع ساعات مع
رجل اسمه س • • • ، كنت تعرفت اليه حينذاك • كنت قد سمعت عن
هذا الرجل كثيراً قبل ذلك ، فسمرت فيما عرفت أنه ملحد • انه رجل
واسع الثقافة ، غزير الاطلاع ، وقد سرّنى أن أتيت لى فرصة المناقشة
مع عالم يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من وفرة الاطلاع • وكان فوق ذلك
انساناً جمّ التهذيب ، فكان يكلمنى كما يكلمّ قرين قرينه ، أو كما يكلم
نداً له فى سعة العلم وسداد الرأى • انه لا يؤمن بالله • غير أن هناك
شيئاً خطف انتباهى فى مناقشته هو أنه طوال مدة حديثنا لم يد أنه يواجه
الموضوع الحقيقى ، أو يعالج المسألة الحقيقية • ومما فاقم دهشتى أننى قبل
ذلك ، كلما التقيت بزنادقة أو قرأت كتباً تذهب هذا المذهب ، كان يبدو
لى دائماً أن هؤلاء الناس لا يتكلمون عن المسألة الحقيقية ، وان كانوا
يتكلمون عنها فى ظاهر الأمر • وقد عرضت على الرجل شعورى هذا ،
ولكن لعلنى عرضته عليه عرضاً مضطرباً مبهماً أو لعلنى لم أ'حسن
الافصاح ولم أ'حسن التعبير ، لأن الرجل لم يفهم من كلامى شيئاً البتة • •
وفى المساء حللت بنزول للمبيت • وكانت جميع المناقشات ، عند وصولى ،
تدور على جريمة ارتكبت فى الليلة السابقة ، خلاصتها أن اثنين من الفلاحين
ليسا شابين ولا كانا سكرانين ، وهما صديقان منذ مدة طويلة ، قد قررا
بعد احتساء الشاى أن يستأجرا غرفة يبيتان فيها • ولكن أحدهما كان قد
لاحظ منذ يومين أن رفيقه يملك ساعة من فضة معلقة بجبل أصفر ومزدانة
بلاّلىء من زجاج ، ولم يكن الرفيق قد رأى هذه الساعة فى حوزة رفيقه

من قبل • ليس الرجل لصاً ، حتى لقد كان أميناً مستقيماً ؛ لا ولا كان فقيراً اذا قيس بغيره من الفلاحين • غير أن هذه الساعة قد أعجبت وأغرته الى حد أصبح لا يستطيع معه أن يقاوم وأن يصمد • فلما رأى رفيقه ينكفى الى الجهة الأخرى ، استلّ سكينه ، وتسلسل اليه من وراء محاذراً ، وحسب ضربته ، ورسم اشارة الصليب رافعاً عينيه الى السماء ، وتمتم يدعو الله بلهجة مرة : « اغفر لى يا رب ، باسم يسوع المسيح ! » ، ثم ذبح رفيقه بضربة واحدة ، كما يُذبح خروف ، وأخذ منه ساعته •

انفجر روجوين يضحك ضحكاً شديداً كمن اعترته نوبة عصبية • فكان هذا الضحك يثير الدهشة بعد المزاج القاتم الذى كان يستبد به منذ قليل • وأخذ روجوين يصرخ فى تشنج ، والضحك يخنقه :

— هذا ما يعجبني ! هذا أجمل من كل شيء ! الأول لا يؤمن بالله البتة ، والثانى يؤمن به ايماناً يبلغ من القوة أنه يذبح الناس وهو يتلو دعاءه ••• لا يا أمير ، لا يا أخى ، هذا شيء لا يمكن اختراعه اختراعاً • آ ••• آ ••• آ ! لا ، لا ، هذا أجمل من كل شيء حقاً ! •••

وما ان هدأ روجوين قليلاً ، وان كان الضحك ما يزال يُرْعِش شفّيته على تشنج ، حتى استأنف الأمير كلامه فقال :

— وفى صباح الغد خرجت أتجول بالمدينة قليلاً • فرأيت جندياً سكران ، قد اختلت ثيابه تماماً ، وراح يمشى على الرصيف الخشبي مترنحاً • وها هو ذا يقترب منى ويقول لى « اشتر منى هذا الصليب يا سيدى • انه من فضة • وأنا أبيعك اياه بعشرين كوبكاً » • رأيت فى يده صليباً مربوطاً بشريط أزرق مهترى لا بد أنه قد انتزع من عنقه منذ قليل • ولكن الصليب من قصدير صرف ، ذلك أمر تراه العين من أول نظرة • هو صليب كبير الأبعاد ، من الطراز البيزنطى ، ذو ثمانية أفرع •

أخرجت من جيبي عشرين كوبكاً ، وأعطيتها السكران ، ولم ألبث أن علقت الصليب بمنقى . ما كان أعظم فرحه بأنه استطاع أن يفتش ماراً ساذجاً ! وانطلق على الفور يشرب بضمن صليبه خراً ، لا شك في ذلك البتة ! كان كل ما ألاحظه في روسيا يحدث في نفسي تأثيراً قوياً . كنت في الماضي لا أفهم من أمر بلدى شيئاً ، كنت جاهلاً جهلاً مطبقاً . وفي البلاد الأجنبية ، أثناء السنين الخمس التي عشتها فيها ، لم أكن قد احتفظت عن روسيا الا بذكرى خيالية . تابعت سيرى وأنا أقول لنفسي : « لا ، سأنتظر مدة أخرى قبل أن أدين هذا الحائن . الله وحده يعلم ما يحدث في قلوب هؤلاء السكارى الضعيفة ! » وبعد ساعة ، بينما كنت عائداً الى المنزل ، صادفت امرأة طيبة تحمل رضيعاً . ان المرأة ما تزال شابة ، ولعل الطفل في الأسبوع السادس من عمره . لقد ابتسم لأمه لأول مرة منذ ولادته ، ابتسم لها منذ لحظة ، فاذا هي ترسم على نفسها اشارة الصليب بكثير من التقى . سألتها (وكنت أسائل الناس دائماً) : « لماذا رسمت اشارة الصليب أيها الشابة ؟ » . فأجابتنى قائلة : « كفرحة الأم التي ترى أول ابتسامة في ثغر ابنها هي فرحة الرب حين يرى من علياء سمائه مذبياً يدعو دعاءً صادقا من أعماق قلبه » . انها فلاحه بسيطة تلك التي عبرت لى ، بهذه الألفاظ نفسها تقريباً ، عن فكرة تبلغ هذا المبلغ من الرهافة ، فكرة تتناسب هذا الانتساب الصادق الى المسيحية ، فكرة تمسّر دفعة واحدة عن روح الديانة المسيحية كلها ، وهى أن الرب أبونا جميعاً ، وأن فرحة الرب بالانسان كفرحة الأب بابنه ! هذه فكرة أساسية من أفكار المسيح ! هى أم ، طبعاً . . . ومن يدرى ؟ فلربما كانت زوجة ذلك الجندى . اسمع يا بارفيون ، لقد سألتنى عن هذا الأمر منذ قليل ، فإليك جوابى : ان جوهر العاطفة الدينية مستقل عن جميع البراهين ، وجميع الأفعال السيئة وجميع الجرائم وجميع مذاهب الالحاد . ان فى هذه العاطفة شيئاً لا يمكن أن تدركه ولا يمكن أن تناله

أدلة الملحين في يوم من الأيام • وسيظل الأمر على هذا النحو أبد
الدهر • غير أن أهم شيء هو أن هذا يلاحظ في النفس الروسية أسرع
ما تكون الملاحظة وأوضح ما تكون الملاحظة • وتلك هي النتيجة التي
أخلص إليها • هذه قاعة من أولى القاعات التي تكونت في نفسى عن بلادنا
روسيا • هناك أمور كثيرة يجب أن تعمل يا بارفيون ، أمور كثيرة يجب
أن تعمل في عالمنا الروسى ، صدّقنى ! تذكر لقاءاتنا وأحاديثنا بموسكو
... لم أكن أرغب أية رغبة في أن أعود الآن الى هنا • ولم أكن أتصور
أن أجدك على هذه الحال أبداً • وكفى هذا !... استودعك الله ... الى
اللقاء ! أسأل الله أن يكون معك !...

قال الأمير ذلك ثم استدار وأخذ يهبط السلم • فلما وصل الى
الفسحة الأولى ، صرخ بارفيون يسأله من فوق :
- ليون نيقولايفتش ! ذلك الصليب الذى اشتريته من الجندى ، هل
هو معك الآن ؟

فأجابه الأمير وقد توقف من جديد :

- نعم ، هو معى •

- أرنه •

هذه غرابة أخرى ! تردد الأمير ، ثم صعد درجات السلم ، وأخرج
الصليب من قميصه دون أن ينزعه عن عنقه • فقال له روجويين :

- هب لى هذا الصليب •

- لماذا ؟ هل أنت ...

- أحمله وأعطيك صليبي فتحمله ...

- تريد أن تتبادل صليبينا * ؟ ليكن ذلك يا بارفيون اذا شئت ! سوف
يسعدنى هذا • فلنكن أخوين •

انتزع الأمير صليبه القصديرى ، وانتزع بارفيون صليبه الذهبى ،
وتبادلا الصليبين • كان بارفيون صامتاً لا يتكلم • فما كان آلم الدهشة
التي شعر بها الأمير حين لاحظ أن الرية والابتسامة المرة التي تكاد تكون
ساخرة ما برحتا ظاهرتين في وجه أخيه في الصليب ، أو قل على الأقل
انهما تظهران ظهوراً واضحاً في بعض اللحظات • وأخيراً تناول روجويين
يد الأمير صامتاً ، ولبت جامداً لا يتحرك خلال برهة كأنما هو عاجز عن
اتخاذ قرار ، ثم جرّ الأمير في النهاية وراءه قائلاً له في دمدمة خافتة
لا تكاد تُسمع : « تعال » • فاجتازا فسحة الطابق الأول ، وقرعا جرس
الباب المقابل ، فسرعان ما فتحت الباب امرأة عجوز محدودة الظهر ترتدى
سواداً وتضع على رأسها منديلاً ، فلما رأت روجويين انحنت أمامه انحناءً
شديداً دون أن تتكلم • فسألها روجويين عن أمر من الأمور مسرعاً ،
واقاد الأمير يدخله البيت دون أن ينتظر جوابها • واجتازا مرةً أخرى
حجرات كثيرة مظلمة ، نظيفة نظافة خارقة ، أثاثها قديم بارد متشقق
مكسو بأغطية بيضاء ؛ ودون أن يطلب روجويين الإبلاغ عن حضوره ،
أدخل الأمير رأساً في غرفة صغيرة لها مظهر صالون ، يقطعها حاجز من
خشب الآكاجو الملمّع ، وفي طرفي الحاجز بابان صغيران ، ووراء غرفة
النوم في أغلب الظن • في ركن من الصالون ، على مقعد قرب المدفأة ،
كانت تجلس امرأة عجوز صغيرة ، لا يبدو أنها طاعنة في السن كثيراً ،
لكن شعرها قد أبيض تماماً ، وعقلها قد ارتد الى الطفولة (يقتنع
المرء بذلك منذ أول نظرة) • انها ترتدى ثوباً من صوف أسود ، وتلف
عقها بمنديل كبير أسود ، وتضع على رأسها طاقية ناصعة البياض مزدانة
بأشرطة سوداء • وكانت قدماها موضوعتين على دكة صغيرة • وبقربها
تجلس عجوز أخرى ، أكبر منها سنًا ، شديدة النظافة ، مرتدية ثياب الحداد
أيضاً ، وعلى رأسها طاقية بيضاء هي الأخرى • لا شك أنها قرية فقيرة

من قريبات المعجوز الأولى • وكانت الثانية تحيك بالأبرة جورباً • لا بد
أنهما تبقيان على هذه الحال طول الوقت لا تتكلمان • فحين رأت المعجوز
الأولى روجوين والأمير ابسمت لهما ، وحتت رأسها عدة مرات بإشارات
تعبر عن العاطفة والرضى •

قال لها روجوين بعد أن قبّل يدها :

— أماء ، هذا صديقى الكبير الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين • لقد
تبادلنا صليبتنا • وكان لى بمثابة الأخ فى فترة ما بموسكو ، وله على آلاء
كثيرة • باركيه يا أماء ، كما لو كان ابنك • انتظرى يا أماء ، سأساعدك
فى ضمّ أصابعك •••

ولكن المعجوز رفعت يدها اليمنى قبل أن يتسع وقت روجوين لأن
يلمسها ، فضمّت ثلاثاً من أصابعها ، ورسمت إشارة الصليب فوق رأس
الأمير ثلاث مرات بكثير من التقى والخشوع • ثم حنت له رأسها من جديد
بإشارة ودود خنون •

قال بارفيون :

— تعال الآن يا ليون نيقولايفتش • فمن أجل هذا وحده انما جئت
بك الى هنا •••

وأضاف يقول للأمير حين بلغا فسحة السلم :

— انها لا تفهم شيئاً مما يقال لها ، ولم تفهم شيئاً من كلامى ، ومع
ذلك باركك • معنى ذلك أنها أرادت من تلقاء نفسها ••• طيب •••
أستودعك الله ••• لقد آن الأوان لنا كلينا •

قال روجوين ذلك وفتح الباب • فهتف الأمير قائلاً وهو ينظر اليه
 نظرة فيها عتب رقيق :

— دعنى أعانقك على الأقل قبل أن أنصرف !

وأراد الأمير أن يحتضنه بذراعيه • ولكن بارفيون ما كاد يهيم أن
يرفع ذراعيه حتى عاد يسبلهما • انه لم يستطع أن يعزم أمره • وأشاح
وجهه حتى لا يرى الأمير • وجميعهم يقول بصوت مبهم وهو يضحك
ضحكة غريبة :

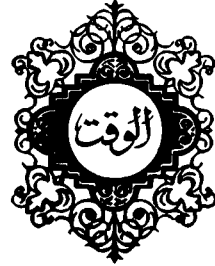
– لا تخف ! لن أقتلك من أجل ساعة ، وان كنت قد أخذت
صليكَ !

لكن وجهه انقلب فجأة ، فاذا هو يشحب شحوباً رهيباً ، واذا شفتاه
تأخذان بالارتجاف ، واذا عيناه تسطمان • ورفع ذراعيه ، وعانق الأمير
عناقاً قوياً ، وقال بصوت لاهت :

– خذها ما دام هذا هو القدر ! هي لك ! اننى اتنازل لك عنها ! • •
تذكرَ روجوين !

ثم ترك الأمير دون أن يلقي عليه نظرة ، وعاد يدخل مسرعاً ويفلق
الباب وراءه بقرعة شديدة •

الفصل الخامس



متأخر ، فالساعة قاربت الثانية والنصف • لم يجد الأمير الجنرال ايباتشين فى بيته • فوضع بطاقته، وقرر أن يمضى الى فندق « الميزان » عسى أن يجد فيه كوليا ، أو يترك له كلمة اذا لم يجده •

ف قيل له فى الفندق ان يقولوا آرداليوتشس قد خرج فى الضحى ، وطلب أن يذكر لمن يسأل عنه « أنه قد يعود فى نحو الساعة الثالثة ، فاذا بلغت الساعة الثالثة والنصف قبل أن يعود فيكون معنى ذلك أنه سافر بالقطار الى بافلوفسك ليزور الجنرالة ايباتشين ، وأنه سيتعدى هناك » • بقى الأمير فى الفندق ينتظر ، وانهز الفرصة فأمر لنفسه بغداء •

ولكن كوليا لم يظهر لا فى الساعة الثالثة والنصف ، ولا فى الساعة الرابعة • فخرج الأمير من الفندق وأخذ يمشى على غير هدى •

ان بطرسبرج تعرف عند بداية الصيف فى بعض الأحيان أياماً لذيذة مضية دافئة هادئة • ولقد كان ذلك اليوم واحداً من تلك الأيام النادرة ، كأنما على عمد • ظل الأمير يطوف فى المدينة زمناً دون هدف أو غاية • انه لا يعرف المدينة معرفة جيدة • وكان يتوقف أحياناً عند مفارق الطرق أمام بعض المباني ، أو يتلبث فى الميادين والساحات ، أو يقف على بعض الجسور • وفى لحظة من اللحظات دخل مطعم حلوى ليسترريح قليلاً • لقد كان ينعم النظر فى المارة باستطلاع قوى وفضول شديد أحياناً ، ولكنه

فى أكثر الأحيان لا يلاحظ المارة ، ولا يعرف أين هو • انه الآن فى حالة قلق عميق وتوتر أليم ، وهو فى الوقت نفسه يشعر بحاجة قصوى الى العزلة • انه يريد أن يخلو الى نفسه وحيداً ، وأن يستسلم لألم ذلك التوتر استسلاماً سليماً ، فلا يسعى الى أى مخرج منه ؛ وهو يدفع سيل الأسئلة التى كانت تغزو قلبه ونفسه ، يدفعها عنه مشمئزاً ؛ ويجمع قائلاً لنفسه دون أن يشعر تقريباً : « أنا مسئول عن هذا كله ؟ » •

وفى نحو الساعة السادسة وجد نفسه على رصيف خط السكة الحديدية الذى يصل بين تسارسكوى وسيلو • ان العزلة قد أصبحت ثقيلة الوطأة على نفسه فهو لا يطيقها ولا يحتملها • ان اندفاعه جديدة قد استولت على قلبه بقوة وحرارة ، وان ضياءً ساطعاً قد أثار الظلمات التى كانت تغلأ نفسه بالغم والقلق • اشترى تذكرة سفر الى بافلوفسك ، متعجباً أن ينطلق بأقصى سرعة • غير أن هناك شيئاً كان يلاحقه ويطارده ولا شك ، شيئاً واقعياً لا خيالياً كما لعله كان يظن • فما ان همَّ أن يركب القطار ، حتى رمى تذكرة السفر على الأرض ، وغادر المحطة واجماً مفكراً مضطرباً • وبعد قليل ، حين صار فى الشارع ، بدا كأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة ، كأنه أدرك شيئاً غريباً جداً كان يقلقه منذ مدة طويلة • لقد باغت نفسه مشغولاً بأمرٍ ما يرح يلازمه منذ زمن ، لكنه لم يكن قد لاحظته حتى ذلك الحين • انه منذ كان فى فندق « الميزان » ، وربما قبل ذلك ، قد أخذ فجأة يبحث عن شىء من حوله بين الفينة والفينة • انه كان ينسى هذا الشىء أحياناً ، حتى لقد كان ينسأه مدة طويلة ، مدة نصف ساعة ، لكنه ما يلبث أن يلتفت بغتةً من جديد ، ليعود يبحث من حوله فلقاً •

ولكنه ما ان لاحظ فى نفسه هذه الاندفاع المراضية التى كانت حتى ذلك الحين غير شعورية والتى كانت قد استولت على نفسه منذ مدة طويلة ،

حتى انبجست أمامه على حين فجأة ذكرى أخرى اهتم بها اهتماماً قوياً . تذكر أنه حين لاحظ أنه ما انفك يبحث عن شيء ما حوله ، انما كان واقفاً على الرصيف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى الدكاكين ، وأنه كان نعم النظر بكثير من الاستطلاع والاهتمام فى الأشياء المعروضة داخل الواجهة . فأصرَّ عندئذ على أن يتحقق من أنه قد وقف أمام تلك الدكان فعلاً ، منذ ما لا يزيد عن خمس دقائق تقريباً . فاذا لم يكن ذلك وهماً من أوهام الخيال لا أكثر ، أفلا يكون من الجائز أنه خلط بين الأمور ؟ هل لتلك الدكان وتلك الأشياء المعروضة فى واجهتها وجودٌ حقاً ؟ ذلك أنه كان يحس فعلاً ، منذ مطلع النهار ، أنه فى حالة مرضية تكاد تكون نفس الحالة التى كان يحسها فى الماضى عند بداية نوبات مرضه القديم . كان يعلم أنه يصبح فى تلك الفترات ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، وأنه يتفق له عندئذ أن تختلط عليه الأشياء وتتشابه عليه الوجوه ، اذا هو لم ينتبه اليها انتبهاً خاصاً مشدوداً . غير أن هناك سبباً خاصاً كان يدفعه الى التحقق من أنه وقف أمام تلك الدكان فعلاً حينذاك . لقد كان بين الأشياء المرتبة فى الواجهة الزجاجية شيء نظر اليه حتى لقد قدَّر له ثمناً هو ستون كوبكاً . انه يتذكر هذا الأمر رغم ذهوله ورغم اضطرابه . فاذا كانت تلك الدكان موجودة ، واذا كان ذلك الشيء موجوداً فى الواجهة بالفعل ، فانما يكون قد توقف هنالك بسبب ذلك الشيء . ويترتب على هذا أن ذلك الشيء قد همَّ فى ذاته الى درجة بعيدة فلفت انتباهه حتى فى حالة الاختلاط الأليمة تلك التى كان عليها حين خرج من المحطة . مشى الأمير وهو ينظر الى اليمين بما يشبه أن يكون خوفاً ، وقلبه يخفق من شدة القلق وفرط نفاذ الصبر . ولكن ها هى ذى الدكان . لقد وجدها أخيراً ! كان قد ابتعد عنها قرابة خمسمائة خطوة حين بدا له أن يقفل راجعاً . وها هو ذا الشيء الذى قدَّر له ثمناً هو ستون كوبكاً . قال الأمير مؤكداً تقديره : « نعم ،

ستون كوبكاً ، انه لا يساوى أكثر من ذلك ! » • وضحك • لكن ضحكه كان هسترياً • وشعر بثقل فى قلبه ، وانقباض فى صدره ! هو يتذكر الآن تذكرأ واضحاً أنه منذ قليل ، فى هذا المكان نفسه ، أمام هذه الواجهة ذاتها ، قد التفت بقوة ، كما التفت فى الصباح حين فاجأ نظرةً يلقيها عليه روجوبين • فلما تأكد أنه لم يخطئ الظن (وذلك أمر كان موثقاً به يقيناً مطلقاً حتى قبل أن يتحقق منه) ، ترك الدكان وابتعد مسرعاً • ان عليه أن يفكر فى هذا كله بأقصى سرعة • لقد وضع الآن أن ماحدث فى المحطة لم يكن وهماً كذلك ، وأن شيئاً واقعياً لا شك أنه ذو صلة بكل قلقه السابق قد حدث له فعلاً • الا أن نوعاً من نفوز داخلى لا يقاوم قد تغلب عليه أيضاً ، فلم يشأ أن يفكر • لقد عدل عن التفكير عدولاً تاماً • وها هو ذا يفكر فى أمور أخرى •

تذكر ، فيما تذكر ، أن نوبات الصرع التى كان يعانيتها ، كانت تشتمل على لحظة تسبق النوبة بزمان قصير جداً (وذلك حين توافيه النوبة أثناء اليقظة لا أثناء النوم) ، لحظة يضطرم فيها ذهنه فجأةً وسط الحزن وظلمات النفس والاختناق ، وتستمر فيها جميع قواه الحيوية دفعةً واحدة ، فيتضاعف احساسه بالحياة ، ويشد وعيه لذاته • ان الفكر والقلب يشرفان عندئذ بضياء ساطع ، فاذا باضطرابه وشكوكه وقلقه ومخاوفه تهدأ على الفور ، وتصير الى نوع من طمأنينة عليا زاخرة بوعى لعله العلل وغاية الغايات • غير أن تلك اللحظات أو تلك الومضات ليست ، بعد ، الا استشرافاً للهنية الأخيرة ، للثانية الأخيرة التى تبدأ بها النوبة • هى ثانية لا تطلق طبعاً • ولقد كان اذا فكّر فى هذا بعد أن تعود اليه صحته ، كان يقول لنفسه : ما هذه الومضات وهذه الاشرافات التى نظن أنها ومضات واشراقات « وعى أعلى » ومن ثم « حياة عليا » ، ما هى اذن الا مرض ، ما هى الا فساد الحالة السليمة ، فاذا كان الأمر كذلك لم يكن

ثمة حياة عليا ، بل حالة يجب أن تمدَّ من أدنى الحالات !... ومع ذلك قاده هذا الى استنتاج مفارق غريب الى أبعد حدود المفارقة والغرابة فقال يحسم الأمر : « أى خير فى أن تكون هذه الحالة مرضاً ، أى خير فى أن تكون هذه الحالة حالة توتر غير سوى ، ما دامت النتيجة ، أى ما دامت تلك اللحظة التى يتذكرها المرء ويتأملها حين تعود اليه صحته تبدو له أعلى درجة من درجات الانساق والانسجام والجمال ، وما دامت تحدث له عاطفة لا عهد له بها ولا خطرت بباله ، هى عاطفة التمام والامتلاء ، والقصد والاعتدال ، والسكينة والطمأنينة ، والاندماج بالصلاة فى أعلى مركَّب للحياة ؟ » كانت هذه التعبيرات الضبابية تبدو له مفهومة تماماً ، رغم أنها ما تزال ضعيفة غير قوية . أما أن ثمة « جمالاً وتواصلًا بالصلاة » و « مركَّباً أعلى للحياة » فى حقيقة الأمر ، فذلك ما لم يكن يراوده فيه ريب ، ولا يمكن أن يقبل فيه أى شك . ذلك أن ما يحسه فى تلك اللحظات ليس أخيلة سراب أو رؤى أحلام مرضية باطلة ، كذلك التى تنشأ عن الخنثيش أو الأفيون أو الحمر ، مما ينحدر بالعقل ويفسد النفس . ان فى امكانه أن يحكم فى هذا حكماً سليماً عند الخروج من حالته المرضية . لا ، لا ، ان تلك اللحظات انما هى جهد خارق فى سبيل الوعى - اذا كان لا بد من وصف تلك الحالة بكلمة - وهى فى الوقت نفسه التعبير المباشر عن الوعى ذاته . واذا كان يتفق له أن يقول لنفسه بوضوح وجلاء فى تلك الثانية ، أعنى فى تلك اللحظة الأخيرة التى تسبق الفيضانية : « نعم ، ان المرء مستعد لأن يهب حياته كلها فى سبيل هذه اللحظة » ، فانه كان واثقاً كل الثقة بأن هذه اللحظة تساوى حياةً بكاملها حقاً . على أنه كان لا يحرص حرصاً شديداً على الجانب الجدلى المنطقى من استنتاجه ، فان خيال العقل واضطراب النفس وبلاهة الذهن كانت تبدو له نتيجة واضحة لتلك « اللحظات العليا » ، فلو أراد أحد أن يشرع فى مناقشة

جادة معه حول هذا الموضوع لرفض المناقشة • لا شك أن استنتاجه، أغنى تقديره لتلك الثانية ، كان يشتمل على خطأ ، ولكن واقعية الاحساس ذاته كانت تفرض نفسها عليه وتقلقه • كيف يمكنه أن لا يقيم وزناً للواقع ، كيف يستطيع أن لا يعبأ بالواقع ؟ ذلك أن ما حدث له قد حدث له حقاً ، في الواقع ؛ ولقد قال لنفسه فعلاً أثناء تلك الثانية ان هذه الثانية بما تحمله اليه من سعادة غير ذات حدود ، يمكن أن تساوى حياة بكاملها •

لقد قال ذات يوم لروجين أثناء لقاءتهما بموسكو : « في تلك اللحظة يصبح ما جاء في رؤيا يوحنا مفهوماً عندي ، وهو قوله الحارق : « لن يكون يومئذ زمان » * • وقد أضاف الأمير يقول حينذاك مبتسماً : « لعل هذه اللحظة هي تلك اللحظة نفسها التي لم تتسع لأن ينسكب خلالها على الأرض ماءُ الجرة التي قلبها النبي محمد حين وافته غيبوبته ، لكنه استطاع خلالها أن يرى وأن يتأمل جميع السماوات » •

نعم ، كان يتفق له بموسكو أن يلتقي روجيين في أحيان كثيرة ، وكانت تجرى بينهما أحاديث في موضوعات أخرى أيضاً •

« لقد قال لي روجيين منذ قليل انني كنت له بمثابة أخ • ان روجيين يتكلم بهذه اللغة اليوم لأول مرة » • هذا ما خطر ببال الأمير • خطر بباله وهو جالس على دكة تحت شجرة في « حديقة الصيف » • كانت الساعة في نحو الساعة من المساء • الحديقة خالية • وهذه سحابة دكناء تحجب الشمس عند غروبها • الهواء خائق كأننا نوشك أن تهب زوبعة • والأمير مرتاح الى حالة التأمل هذه • كان بذكرياته وفكره يتعلق بأى شيء يقع عليه بصره • ان هذا يسرُّه ويرضيه • وكان ما ينفك يشعر برغبة في نسيان شيء ما ، شيء راهن ، شيء أساسي • ولكنه ما ان ينظر حواليه حتى تعود اليه الفكرة المحاصرة التي كان يود أن يتخلص منها • لقد تذكر ، في لحظة من اللحظات ، الحديث الذي جرى بينه وبين خادم المظم

عن جريمة القتل الغريبة كل الغرابة ، التي وقعت منذ مدة قصيرة ،
وأثارت كثيراً من الصخب والمناقشات • ولكنه ما كاد يتذكر هذا حتى
حدث له شيء غريب أيضاً •

ان رغبة ذات قوة خارقة لا تغالب ، رغبة توشك ان تكون غواية ،
قد سلبته ارادته • فنهض عن الدكة التي كان جالساً عليها ، وخرج من
الحديقة ، ومضى قدماً نحو الضفة اليمنى • انه منذ قليل ، حين كان على
أرصفة نهر نيفا ، قد سأل أحد المارة عن ذلك الحى من أحياء بطرسبرج ،
الذى يقع وراء النهر ، فدلّه الرجل عليه ، لكن الأمير لم يذهب الى ذلك
الحى حينذاك • ولم يكن يفيد أنه يذهب اليه اليوم على كل حال • لقد
حصل على العنوان منذ مدة طويلة ، وكان سهلاً عليه أن يهتدى الى منزل
قريبة ليديف ، لكنه كان على شبه يقين من أنه لن يجدها فى بيتها •
« لا شك أنها سافرت الى بافلوفسك ، والا لكان كولينيا قد ترك كلمة فى
فندق « الميزان » ، كما اتفق على ذلك » • فاذا كان يتجه الآن الى منزل
قريبة ليديف ، فانه لا يفعل ذلك من أجل أن يراها • ان هناك شيئاً آخر
يفريه بالذهاب الى هناك ، شيئاً هو فضول مظلم أليم • ان فكرة جديدة
مفاجئة قد ومضت فى ذهنه •••

ولكن كان يكفى الآن أن يسير وأن يعرف الى أين هو يسير حتى
يأخذ يمضى من جديد دون أن يلاحظ الى أين هو يسير • وأصبح ينفر
أشد النفرة من الايغال فى تحليل «فكرته المبالغته» ، بل لقد أصبح يستحيل
عليه ذلك •

وأخذ ينعم النظر فى كل ما يقع عليه بصره ، مركّزاً انتباهه تركيزاً
أليماً ••• أخذ ينظر الى السماء والى نهر نيفا • حتى لقد حاول أن يشرع
فى حديث مع طفل التقى به • لعل حالته المرضية كانت تتفاقم • ان

العاصفة تقترب ، ولو ببطء • ان رعداً يُسمع منذ الآن في بعيد • وأصبح
الهواء خانقاً جداً •

وبدون سبب من الأسباب ، استيقظت في ذهن الأمير ذكرى ابن
أخت ليديف ، الذى رآه منذ ساعات ، وأخذت تفرض نفسها عليه بغير
انقطاع ، كما تفرض نفسها على المرء جملةً موسيقيةً تحاصره فيظل
يرددّها وقد ضاق بها أشد الضيق • شئ غريب : ان ابن اخت ليديف
يتراءى له الآن بملامح القاتل الذى جاء ليديف نفسه على ذكره حين
عرّفه بابن اخته ، والذى كان الأمير قد قرأ قصته منذ مدة قصيرة • كان
الأمير ، منذ وصوله الى روسيا قد قرأ كثيراً وسمع كثيراً عن
أمثال هذه القصص ؛ وكان يتابع هذه المسائل باهتمام شديد واصرار
عنيد • حتى انه أثناء حديثه مع خادم المطعم قد أظهر اهتماماً قوياً بتلك
الجريمة نفسها التى كانت أسرة جيرامين ضحيتها • وهو يتذكر الآن أن
الخادم فتى ليس بالغنى البتة ، فيه رصانة ووقار ، وفيه روية وتعقل ،
« ولكن الله وحده يعلم ما حقيقته • ان من الصعب على المرء أن ينفذ الى
أعماق أناس جدد فى بلد جديد » • وبدأ الأمير مع ذلك يؤمن بالنفس
الروسية ايماناً قوياً حاراً • ألم يلاحظ ، خلال هذه الأشهر الستة ،
أشياء كثيرة ، جديدةً عليه ، لا عهد له بها من قبل ، ولم تخطر له ببال ،
ولا كان يتوقعها بحال من الأحوال ؟ ولكن نفس الآخر ظلمات ، والنفس
الروسية ظلمات ، ظلمات فوق ظلمات ، أمام كثير من الناس • ها هو ذا
قد ارتبط بروجويين ، منذ مدة طويلة ، ارتباطاً وثيقاً ، ارتباطاً «أخوياً» ،
ولكن هل هو يعرف روجويين ؟ ثم ان هذا كله يشتمل فى بعض الأحيان
على كثير من الغموض والفوضى والاضطراب والاختلاط والصغار ! وابن
اخت ليديف ذاك ••• يا له من فتى دعى دنىء كريبه ! « فعلاً » ، بماذا
أسأت اليه ؟ (كذلك تسأل الأمير) أهو الذى قتل أولئك الأشخاص

السة ؟ يبدو أنتى أخلط ... شىء غريب ! ... اتنى أشعر بدوار ...
ولكن ما كان أجمل وألطف محيّا ابنة ليديف الكبرى ... تلك التى
كانت تحمل الطفل فى ذراعها ! ... وما كان أصفى تعبير وجهها الذى
يكاد يكون وجه طفلة صغيرة ، وما كان أروع ضحكتها التى تكاد تكون
ضحكة طفلة صغيرة ! « * غريب أن ينسى ذلك الوجه وأن لا يتذكره الا
الآن ! ان ليديف الذى يقرع الأرض بقدميه ليرؤّعهم ، لعله يحبهم جميعاً
أعظم الحب ، لعلهم يعبدون عبادة * والأمر الثابت الذى لا شك فيه ولا يقل
يقيناً عن أن اثنين واثنين أربعة ، هو أن ليديف يحب ابن اخته كذلك
حباً عظيماً * »

ثم كيف أمكنه أن يتولى اصدار حكم مبرم عليهم ، هو الذى وصل
منذ مدة قصيرة ؟ كيف يحق له أن يصدر أحكاماً من هذا النوع ؟ هذا
ليديف نفسه : ألم يظهر اليوم أنه لغز ، أنه مشكلة ؟ هل كان يتوقع أن
يجد ليديف هكذا ؟ هل عرفه حتى اليوم فى هذه الصورة ؟ ليديف
وكونتيسة بارى ... رباة ! اذا قتل روجويين ، فانه لن يقتل على هذا
النحو المشوش على الأقل * لن يكون هناك فوضى كهذه الفوضى * سلاح
يطلب صنعه وفقاً لرسم معيّن ، وستة أشخاص يُذبحون دفعةً واحدة *
فى نوبة هذيان وجنون ! لا ، ان روجويين لا يطلب صنع سلاح وفقاً
لرسم معيّن ... ولكن هل ثابت " اذن أن روجويين سيقتل ؟ ارتعش
الأمير ، وهتف يخاطب نفسه وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من الشعور
بالحجل والعار : « أليست جريمة " ، أليست حطة " منى أن افترض هذا
الافتراض بمثل هذه الصراحة السفهية ؟ * »

وتسمّر فى مكانه مذهولاً * لقد تذكر فجأةً محطة بافلوفسك التى
كان فيها منذ حين ، ومحطة نيقولا ، والسؤال المباشر الذى ألقاه على
روجويين عن « النظرة » ، و صليب روجويين الذى يحمله هو الآن معلقاً

بعنقه ، ومباركة أم روجوين التي قاده اليها روجوين من تلقاء نفسه ،
والمعاقبة التشنجية الأخيرة ، وتنازل روجوين له عن حبيبته تنازلاً نهائياً
أعلنه روجوين منذ قليل وهو على سلم البيت • وبعد ذلك كله يفاجيء
نفسه باحثاً بحثاً متصلاً عن شيء ما حوله ••• وتلك الدكان •• وذلك
الشيء المروض في الواجهة الزجاجية ، الذي قدّر له ثمناً هو ستون
كوبكاً ••• يا للحطة والصغار ! ••• وها هو ذا الآن يسير الى « هدف
خاص » تدفعه اليه تلك « الفكرة المباحة » • كان الكمد والألم قد استوليا
على نفسه استيلاءً تاماً • وأراد الأمير أن يعود الى الفندق رأساً • حتى
لقد استدار وأخذ يمشى في اتجاه الفندق ، لكنه لم يلبث أن وقف بعد
دقيقة واحدة ، ففكّر وعاد يسير في اتجاهه الأول •

وكان قد بلغ الضفة اليمنى وأصبح غير بعيد من المنزل • قال لنفسه
مبرراً : لا شك أنه لا يذهب الآن الى هناك لتحقيق ذلك الغرض نفسه ،
ولا من أجل تلك « الفكرة الخاصة » ذاتها • كيف أمكن أن يخطر بباله
هذا ؟ نعم ، لقد عاوده مرضه ، ذلك أمر لا ريب فيه : ولعله نوبة
ستوافيه في هذا اليوم نفسه • فمن اقتراب النوبة انما تنشأ هذه الظلمات
جميعها ، والنوبة هي التي حملت اليه تلك « الفكرة » • ولكن الظلمات
تبددت ، والشيطان ولي هارباً ، ولم يبق هنالك شكوك ••• ان قلبه يفيض
الآن فرحاً ! وانه منذ زمن طويل لم يرها « هي » ، وهو في حاجة الى أن
يراه ، و ••• نعم ••• انه يودّ لو يرى روجوين • فلو رآه لأمسك
يده وذبحها اليها معاً • ان قلبه طاهر نقى ••• أهو منافس لروجوين ؟
ليذهبن الى روجوين منذ الغد ليقول له انه رآها • ألم يهرع الى هنا ،
كما قال ذلك روجوين منذ قليل ، لسبب واحد هو أنه يريد أن يراها ؟
لعله سيجدها مع ذلك في بيتها ، فهو ليس متأكداً من أنها سافرت الى
بافلوفسك •

نعم ، ينبغي الآن توضيح كل شيء ، حتى يستطيع هؤلاء وأولئك من الناس أن يقرأ بعضهم ما في قلوب بعض غير التباس أو اشتباه . فلا يكون بعد اليوم تنازلات ظلماء محمولة كتنازل روجويين ، بل أفعال يقبلها المرء بحرية ووضوح . هل يعجز روجويين عن تحمل الوضوح ؟ لقد ادعى أنه يجب هذه المرأة حباً لا يشتمل لا على عطف ولا على شفقة أو رأفة . صحيح أنه أضاف الى ذلك قوله : « لعل شفقتك أكبر من حبي » . ولكنه قد تقول على نفسه . هم ! أن يأخذ روجويين في قراءة كتاب ، أليس هذا وحده فعلاً يشتمل على عطف أو على بداية عطف ؟ أليس وجود هذا الكتاب بين يديه دليلاً على أنه أدرك ادراكاً كاملاً ما يجب أن يكون عليه موقفه ازاء هذه المرأة ؟ لا ، ان في نفسه شيئاً أعمق من الوله . « وهل وجه هذه المرأة لا يوقظ في النفس الا الوله ؟ وهل يمكن أن يوقظ وجهها ولها في هذه الآونة ؟ ان وجهها لا يأسر النفس كلها الا بالألم والعذاب اللذين يعبر عنهما ، انه . . . » .

هنا أحس الأمير بذكري كاوية أليمة تلسع قلبه . نعم ، ذكرى أليمة . تذكر العذاب الذي سبق أن عاناه حين لاحظ فيها علائم جنون لأول مرة . ان ذلك الاكتشاف قد رماه في هوة اليأس حينذاك . كيف أمكنه أن يتركها حين هربت منه الى روجويين ؟ كان ينبغي له أن يندفع في ملاحقتها ومطاربتها بدلاً من أن ينتظر أنباءها وأخبارها .

ولكن . . . هل يمكن أن لا يكون روجويين قد لاحظ أعراض جنونها حتى الآن ؟ « هم » . ان روجويين ينسب كل ما تفعله الى دوافع أخرى هي دوافع الهوى ! ان غيرته خطأ وضلال . ماذا أراد أن يقول بافتراضه ذاك الذي أفصح عنه منذ قليل ؟ ، (واحمر الأمير فجأة وأحس في قلبه بما يشبه أن يكون ارتجاجاً) .

ولكن مافائدة العودة الى هذه الذكريات ؟ ان هناك جنوناً في الطرفين

كليهما • أما فيما يتعلق به هو ، فقد كان الأمير يرى أن من غير المعقول أن يحب الانسان هذه المرأة حبَّ غرام ، بل لقد كان يرى أن ذلك أمر قاس وغير انساني • قال الأمير يحدث نفسه : « نعم ، ان روجوين قد تقول على نفسه ظالماً • ان له قلباً يزخر بالمحبة ، وهو قادر على أن يتألم وعلى أن يشعر بالشفقة • وحين سيعرف الحقيقة كلها ، حين سيقتنع بأن هذه المرأة مخلوقة بائسة مختلة العقل شبه مجنونة ، فلن يسهه الا أن يغفر لها كل الماضي ، وكل آلامها • وسوف يصبح لها عندئذ خادماً وأخاً وصديقاً ومعيناً • سوف يردُّه العطف الى الطريق القويم ، وسوف تكون هي له تعليماً من التعاليم ، لأنها القانون الأساسي وربما القانون الوحيد الذي يحكم الوجود الانساني » • ما أشد ندم الأمير الآن على السلوك الذي سلكه مع روجوين ، وهو في نظره سلوك غير شريف ، سلوك لا يُغتفر • لا ، ليست النفس الروسية هي الظلمات ، ليست هي اللغز ، وانما اللغز نفسه هو ، لأنه أمكن أن يتخيل تلك الشناعة • ان روجوين قد وصفه بأنه أخ ، لا شيء غير بضع كلمات فيها حرارة ومودة قالها له بموسكو ، فما باله هو ... ولكن ذلك كله لم يكن الا مرضاً ، لم يكن الا هذياناً ... سوف ينقضي كل هذا • ما أغرب تلك الهيئة المتجهمة الذي بدت على روجوين حين قال له منذ قليل انه « بسيل فقد ايمانه » ! لا بد أن الرجل يعاني ألماً رهيباً • هو يدعى أنه « يحب أن ينظر الى لوحة هولباين » : ليست المسألة أنه يحب أن ينظر اليها ، بل المسألة أنه يشعر بحاجة الى ذلك • ان روجوين ليس ذا طبيعة ملتتهة فحسب ، بل هو كذلك ذو مزاج مناضل : انه يريد استرداد الايمان الذي فقده ، يريد استرداده بأي ثمن ، مهما يكلفه ذلك من عناء • انه يشعر الآن بضرورة ذلك ، وهو من هذا في ألم شديد ... نعم ، الايمان بشيء ، الايمان بأحد ! ولكن ما أغرب تلك اللوحة ، لوحة هولباين ! ... آ ... هذا هو

الشارع ، وربما هذا هو المنزل الذى أبحث عنه نعم ، هذا هو المنزل :
رقم ١٦ ، « دار زوجة فليسوف » . هذه هى الدار .

قرع الجرس ، وطلب ناستاسيا فيليوفا .

فأجابته صاحبة الدار بنفسها قائلة ان ناستاسيا فيليوفا قد سافرت مند
الصباح الى بافلوفسك ، وانها نزلت ضيفاً على داريا ألكسيفنا ، « وانها قد
تمكث عندها بضعة أيام » . ان السيدة فليسوفا امرأة قصيرة فى نحو
الأربعين من العمر ، مديبة الوجه حادة العينين ، لها نظرة مأكرة فاحصة .
سألت الزائر عن اسمه وقد لاح فى وجهها شيء من معنى السر . فأراد
الأمير فى أول الأمر أن لا يجيب عن سؤالها ، لكنه ما لبث أن عدل عن
رأيه ، فعاد ليرجوها ملحاً أن تنقل اسمه الى ناستاسيا فيليوفا . فسجلت
السيدة هذه التوصية بكثير من العناية والاهتمام ، مصطنعة لهجة خاصة
هى لهجة المسارة فكانها تريد أن تقول : « لا تخف . لقد فهمت ! » .
يظهر أن اسم الزائر قد أحدث فى نفسها أثراً قوياً . ألقى الأمير عليها
نظرة ذاهلة ، واستدار على عقبيه ، وعاد يسير فى الطريق المؤدى الى
فندقه . لكن حالته الآن لا تشبه الحالة التى كان عليها حين قرع جرس
باب السيدة فليسوفا . لقد تغير مظهره كله فى طرفة عين : فهو الآن يسير
شاحب الهيئة ، واهن العزم ، معذب النفس ، قلقاً مضطرباً ؛ ركبته
تترنحان ، ابتسامة حائرة زائفة تلمُ بشفتيه المرزقتين : ان « فكرته
المباغتة » قد جاء الآن ما يؤكدها ويبررها . وأحسَّ الأمير مرةً أخرى
أن الشيطان استلمه . فما الذى حدث فأكد فكرته وبرَّرها ؟ لماذا يعتربه
مرةً أخرى هذا الارتجاف ، وهذا العرق البارد ، وهذه الظلمات الكثيفة
فى النفس ؟ ألاَّنه رأى « تينك العينين » من جديد ؟ ولكن ألم يتعمد أن
يترك « حديقة الصيف » لفرض واحد هو أن يراها ؟ تلك كانت
« فكرته المباغتة » . لقد شعر برغبة قوية غيفة فى أن يرى « تينك

العينين ، اللتين رآهما منذ قليل ليقتنع اقتناعاً نهائياً بأنه سيجدهما لا محالة « هناك » ، قرب تلك الدار . فإذا كان قد رغب في رؤيتهما تلك ، الرغبة القوية الحارة كلها ، فلماذا أُرهِق هذا الارهاق كله واضطرب ذلك الاضطراب كله حين رآهما ، كأنه أمام حادث لم يكن في حسبانهِ ؟ نعم ، انهما نفس « تينك العينين » (لا مجال للشك في هذا الآن) اللتين رشقناه بنيراهما صباحاً في محطة نيقولا * وسط الجمهور حين نزل من القطار . وهما نفس تينك العينين (تماماً) اللتين شعر بثقلهما على كفيه ، بعد الظهر ، في منزل روجويين ، حين كان يهمُّ أن يجلس . لقد أنكر روجويين ذلك . حتى لقد سأل وهو يتسم ابتسامة متقلصة باردة كالصقيع : « هما عينا من ؟ » . وهاتان العينان نفسهما ، رآهما الأمير مرةً أخرى ، مرةً ثالثة في ذلك اليوم نفسه ، قبل برهة قصيرة ، في محطة خط تسارسكوى * ، عندما همَّ أن يركب القطار مسافراً لرؤية آجلانيا . لقد راودته عندئذ رغبة محمومة مسعورة في أن يقترب من روجويين وأن يقول له « هما عينا من ؟ » . ولكنه خرج من المحطة مسرعاً ، ثم لم يشب الى وعيه الا أمام دكان بائع سكاكين ، فقدّر لشيء رآه في الواجهة الزجاجية ، شيء له نصاب من قرن الوعل ، قدّر له ثمنه هو ستون كوبكاً .

ان شيطاناً عجيباً رهيباً قد استولى عليه استيلاء نهائياً ، وأصبح لا يريد أن يتركه . فذلك الشيطان هو الذى أوحى اليه أثناء تأمله جالساً تحت شجرة زيزفون في « حديقة الصيف » ، أن روجويين يلاحق كل خطوة من خطواته منذ الصباح ، حتى اذا عرف أن الأمير لن يسافر الى بافلوفسك (وهذا وحده نبأ رهيب عنده) قرّر أن يذهب « الى هناك » ، الى حى بطرسبرج القديمة ، ليتربّح فيما حول الدار وحول ذلك الرجل الذى عاهدته في ذلك اليوم نفسه « على أن لا يزورها » ، وقال له « انه لم ييجئ الى بطرسبرج لهذا الغرض » .

حينئذ هرع الأمير الى تلك الدار باندفاعة مباغتة • فأية غرابة اذن
فى أن يلقى هنالك روجوين ؟ انه لم ير الا رجلاً شقياً بائساً تعذبه
خواطر مظلمة لكنها مفهومة • ثم ان ذلك الرجل السئ الحظ لم يحاول
حتى أن يحتبىء • نعم ، لا شك أن روجوين قد كذب حين أنكر أثناء
الحديث الذى جرى بينهما بعد الظهر • لكنه فى محطة تسارسكوى قد
ظهر دون اختباء تقريباً • واذا كان قد اختبأ أحد فان الأمير هو الذى اختبأ
لا روجوين الذى يقف الآن قرب الدار • لقد وقف روجوين منتظراً
على الرصيف المقابل ، على مسافة خمسين متراً ، عاقداً ذراعيه فوق صدره •
واضح أنه لا يحاول الاختباء ، حتى لكأنه يرغب فى أن يُرى • ان موقفه
هو موقف المتهم ، هو موقف القاضى ، لا موقف ال • • • موقف مَنْ
فعلاً ؟

ولكن الأمير ، بدلاً من أن يقترب منه ، مضى مبتعداً كأنه لم يلمحه ،
مع أن أعينهم قد التقت ، فلماذا ؟ (نعم ، لقد التقت أعينهم ، وتبادلا
نظرة) • ألم يكن ينوى قبل ذلك هو نفسه أن يمسك يده وأن يذهب
« الى هناك » فى صحبته ؟ ألم يكن ينوى أن يمر به فى الغد ليقول له انه
ذهب اليها ؟ ومنذ قليل ، فى منتصف طريقه الى الدار ، ألم يتحرر من
من شيطانه حين غمرت نفسه فرحة مفاجئة ؟ أم ترى كان فى
شخص روجوين أو قل فى الوضع العام لهذا الرجل ، « طوال ذلك
اليوم » ، أى فى مجموع أقواله وحركاته وأفعاله ونظراته ، شئ يمكن أن
يرد توجهات الأمير الرهيبة وايحاءات شيطانه المثيرة ؟

ذلك كله كان يشتمل على ملاحظات تخطف البصر ، ولكن يصعب
تحليلها وترتيبها ، ويستحيل كذلك أن يُنسب اليها أساس منطقى • ومع
ذلك ، رغم هذه الصعوبة ، ورغم هذه الاستحالة ، كانت تحدث انطباعاتاً

اجمالياً لا يمكن التخلص منه ، انطباعاً يتحول من تلقاء نفسه الى اقتناع مطلق •

اقتناع ، ولكن بماذا ؟ آه ... لشد ما كان السخف العجيب و «الدناءة المنحطة في هذا الاقتناع» والصغار الشديد في « هذا التوجس » ، لشد ما كان هذا كله يعذب الأمير ؛ وما أعنف اللوم والتقريع اللذين كان الأمير يأخذ بهما نفسه لهذا كله ! كان الأمير يقول لنفسه مكرراً معنفاً بلهجة الاتهام والتحدى : « أفصح عن ذلك الاقتناع بصراحة على الأقل ، ان كنت تجرؤ ! عبّر عن فكرتك بوضوح ، بدقة ، بغير مواربة ومداورة ! أوه ! أنا انسان غير مستقيم ، غير شريف ! (هذا ما كان يضيفه وقد اعترته نوبة استياء تخضب وجهه بحمرة شديدة) • بأى عين سأجرؤ أن أرى هذا الرجل بعد الآن طوال حياتي ؟ آه ... يا لهذا اليوم ! يا رب ! ما هذا الكابوس الثقيل ! • • • »

وفي ختام هذه العودة الطويلة الشاقة من حى بطرسبرج القديمة ، جاءت دقيقة استبدت بالأمر خلالهما رغبة قوية لا تقاوم فى أن يذهب الى روجوين فوراً ، وأن يعاقبه ساكباً دموع الندامة ، وأن يقول له كل شئ ، فيفرغ من هذه القضية دفعة واحدة • ولكنه كان قد وصل الى الفندق •• ان الفندق ، والممرات التى فيه ، والغرفة التى نزلها الأمير ، والمبنى نفسه ، ان ذلك كله كان قد أثار انزعاج الأمير الى أقصى حد ، منذ أول وهلة • وقد شعر عدة مرات خلال ذلك النهار بنفور خاص واشمئزاز شديد حين كان يتصور أن عليه أن يعود الى ذلك الفندق • وها هو ذا الأمير يقول مخاطباً نفسه : « ولكن ماذا أصابنى ؟ اننى أشبه امرأة مريضة ••• فأنأ أومن اليوم بجميع أنواع التوجسات ومشاعر التنبؤ ! » • قال الأمير ذلك لنفسه بلهجة فيها غضب وسخرية • وحين وافقه هذه الفكرة ، توقف أمام الباب الكبير • ان حادثاً واحداً من بين جميع أحداث النهار

يحتكر في هذه اللحظة فكره ، لكن الأمير يواجهه الآن « بهدوء وبرود » ،
« مالكاً كامل عقله » ، « لا من خلال كابوس ثقيل » • لقد تذكر السكين
التي كانت على مائدة روجويين • وها هو ذا يتساءل مستغرباً فكرته نفسها :
« ولكن أى غرابة فى أن يكون على مائدة روجويين ما يشاء من
سكاكين ؟ » • وتضاعف استغرابه حين تذكر ، على حين فجأة ، توقفه بعد
الظهر أمام دكان بائع السكاكين • وها هو ذا يهتف قائلاً : « ولكن !
عجيب ! • • • أية علاقة يمكن أن تكون بين • • • » ولم يكمل جملته • ان
نوبة جديدة من الشعور بالحجل والحزى ، بل ومن الشعور بالكمد واليأس
تقريباً ، قد سمرته فى مكان أمام الباب • ولبت جامداً برهةً من الوقت
لا يتحرك • انها لظاهرة تحدث كثيراً ، أن تستيقظ فى ذهن المرء ذكرى
لا تطاق ، ذكرى رهيبية ، فاذا هى تشلّه عن الحركة بضع ثوان • قال
الأمير يكرر لنفسه متجههم الوجه مظلم الهيئة : « نعم ، أنا انسان بلا قلب ،
أنا رجل جبان ! » ، وتحرك الى أمام ليدخل ، ولكنه • • • توقف من
جديد •

ان مدخل الفندق ، وهو فى العادة قليل الضوء ، كان عندئذ مظلماً
ظلاماً حالكاً ، بسبب اقتراب هبوب العاصفة التى أعتمت نهاية ذلك النهار •
وقد هبت العاصفة فى اللحظة التى عاد فيها الأمير ، وأخذت تهطل أمطار
غزيرة كالسيول • فلما همّ الأمير أن يدخل بعد وقفة قصيرة عند عتبة
الباب الخارجية ، لمح فى الداخل على حين فجأة ، رجلاً واقفاً فى الظلام
على أول السلم • كان يبدو على هذا الرجل أنه ينتظر شيئاً ، لكنه سرعان
ما غاب فى مثل لمح البصر سرعة • واذا لم يميّز الأمير قسماً وجهه ،
فانه لا يستطيع أن يقول جازماً من هو على وجه الدقة لا سيما وأن ناساً
كثيرين يمرون هناك ، ففى كل فندق حركة لا تنقطع ، والناس بين داخل
وخارج وسائر فى الممرات • غير أن الأمير قد اقتنع على الفور اقتناعاً تاماً

لا يتزعزع بأنه قد تعرّف ذلك الرجل وأن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون أحداً آخر غير روجوين . وها هو ذا يسرع مقتنياً أثره مطارداً خطاه على السلم . انه محطم القلب . وقال لنفسه واثقاً : « سيتضح الآن كل شيء ! » . ان السلم الذى اندفع فيه الأمير يفضى الى ممرات الطابق الأول والطابق الثانى . انه سلم من حجر ، كسلالم جميع المباني القديمة ، وهو مظلم ضيق ، يصعد ملتقاً حول عمود ضخمة . وقد جعلت فى هذا العمود عند الفسحة الأولى فجوة لا يزيد طولها عن قدم ولا يزيد عرضها عن نصف قدم عمقاً ، فيستطيع رجل أن يقف فيها . فلما وصل الأمير الى هذه الفسحة لاحظ على الفور ، رغم الظلام ، أن أحداً كان مختبئاً فى الفجوة ، فأراد فى أول الأمر أن لا يكثرث بالأمر وأن يتخطى الفسحة دون أن ينظر الى يمين . ولكنه لم يكذب يتقدم خطوة واحدة حتى أصبح لا يستطيع أن يسيطر على نفسه فالتفت .

عندئذ التقت بعينه العينان اللتان التقتا بهما بعد الظهر ، « العينان نفسها » ، التقتا بعينه فجأة . ان الرجل الذى كان مختبئاً فى الفجوة قد تقدم خطوةً ليخرج منها . وبقي الرجلان واقفين وجهاً الى وجه ، متلامسين تقريباً ، خلال ثانية . ثم أمسك الأمير الرجل من كتفيه وجراً . فى السلم نحو الضوء ليتفرس فيه مزيداً من التفرس .

سقطت عينا روجوين ، وتقلصت شفتاه بابتسامة حق . ورفع يده اليمنى التى كانت تشهر أداة من الأدوات . لم يخطر ببال الأمير أن يصده . ولكن الأمير تذكر ، فيما بعد ، أنه صرخ يقول :
- روجوين ! لا أصدّق هذا !

لقد بدا للأمير عندئذ أن شيئاً ما يفر أمامه على حين فجأة . ان ضياء «داخلياً» ذا سطوع خارق قد أثار نفسه . لعل الأمر لم يدم الا نصف ثانية . ولكن الأمير احتفظ بذكرى واضحة واعية عن النبذة الأولى

للصرخة الفظيعة التي انطلقت من صدره والتي تعجز جميع قواه عن
كبحها • ثم انطلقاً شعوره في لحظة ، وغاب في الظلمات •

لقد اعترته نوبة صرع ، وذلك أمر لم يحدث له منذ زمن طويل
جداً • تعلمون أن هذه النوبات تبغت المريض مباغتةً ، فيتشوه عندئذ
وجهه وتشوه نظرته تشوهاً سريعاً لا يُصدّق • ان تشنجات وتقبضات
تقلّص جسمه كله وقسمات وجهه جميعها • وان أناتٍ رهيبة لا يتصورها
الخيال ولا يمكن أن تشبّه بشيء ، تخرج عندئذ من صدره • هي أنات
ليس فيها ما يذكر بالإنسان ؛ ويصعب بل ويستحيل أن يتخيّل المرء حين
يسمعا أن هذا السكين هو الذى يطلقها ، وانما يميل به الظن الى الاعتقاد
بأنها صادرة عن كائن آخر مخبئ في داخل المريض • هذا ، على الأقل ،
ما يقوله كثير من الأشخاص حين يريدون أن يصفوا شعورهم ازاء تلك
الأنات • ان منظر المريض الذى اعترته نوبة الصرع يحدث فى نفوس
كثير من الناس رعباً لا سبيل الى مغالته •

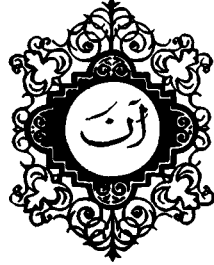
لعل روجوين قد شعر بمثل ذلك الرعب المفاجئ • ولعل هذا
الرعب المفاجئ حين أضيف الى انفعالات أخرى هو الذى جمّده فى
مكانه فأنقذ الأمير من طعنة السكين الذى كانت ستقتله لا محالة • لم يتسع
وقت روجوين لأن يدرك النوبة التى جندلت خصمه • ولكنه حين رأى
خصمه يترنح ويسقط منقلباً على السلم فجأة ، مصطدماً بنقرته على احدى
الدرجات ، أسرع يهبط الدرجات أربعاً أربعاً ، متحاشياً الجسم المتمدّد ،
وولىّ هارباً من الفندق كالمجنون •

وكان من شأن التشنجات والتقبضات أن دحرجت الجسم درجةً
درجة (وكان عدد الدرجات لا يزيد على خمس عشرة) حتى أسفل
السلم • ولم تمض خمس دقائق حتى اكتشف فاحتشد الناس من حوله •

وكانت بركة من الدم تحيط برأسه فأثار ذلك شكوكاً وشبهات : أحادثة طارئة أم جريمة مقترفة ؟ غير أن عدداً من الأشخاص لم يلبسوا أن أدركوا أن الأمر أمر نوبة صرع . وتعرف خادم الفندق الأمير ، فقال انه نزول من نزلاء الفندق قدم في هذا الصباح . ثم تبددت الشكوك والشبهات تبديداً تاماً بفضل مصادفة سعيدة جاءت في أوانها .

ان كوليا ايفولجين الذى كان قد وعد بأن يأتى الى فندق «الميزان» قبل الساعة الرابعة ثم عدل عن رأيه فسافر الى بافلوفسك ، قد رفض ، لسبب لم يكن فى الحسبان ، أن يتغدى عند الجترالة ايباتشين ؛ وعاد الى بطرسبرج ، وأسرع الى « فندق الميزان » فوصله فى الساعة السابعة من المساء . فلما وجد الرسالة التى تبلغه أن الأمير بالمدينة ، هرع الى العنوان المشار اليه فى الرسالة . فقبل له فى الفندق ان الأمير قد خرج . فنزل الى قاعة الطعام ينتظره وهو يحتسى الشاي ويصغى الى أنغام الأرغن الآلى . وشامت المصادفة أن يسمع أناساً يتحدثون عن رجل سقط على السلم فى نوبة صرع ، فأوجس بما يشبه النبوءة أن الرجل قد يكون هو الأمير ، فأسرع الى مكان الحادث فتعرّف الأمير فعلاً . وسرعان ما اتخذت الاجراءات اللازمة فأُصعد الأمير الى غرفته . وقد تاب الى الأمير بعض شعوره ، لكنه لم يسترد وعيه كاملاً الا بعد مدة طويلة . وقال الطبيب الذى استدعى لفحص جروح الرأس ان الاصابات بسيطة ليس فيها خطر، ونصح للمرضوض بكمادات . وبعد ساعة من الزمن كان الأمير قد عاد يعي كل ما يحيط به وعياً كاملاً . وعندئذ نقله كوليا بالعربة من الفندق الى دار ليديف . فاستقبله استقبالاً فيه كثير من الاهتمام والرعاية والاحترام . حتى لقد قدّم فى سبيله موعد السفر الى الريف ، فبعد ثلاثة أيام كان الجميع فى بافلوفسك .

الفصل السادس



منزل ليديف في الريف فيلا صغيرة لكنها مريحة بل جميلة • والجزء المهدى للتأجير منها قد أولى تزيينه عناية خاصة • ففي الشرفة الواسعة المطلّة على الشارع عند مدخل الدار وضعت أحواض كبيرة من خشب مدهون باللون الأخضر ، فيها شجيرات برتقال وليمون وياسمين صُفّت صفّاً لا بد أن يكون له أجمل الأثر ، في تقدير ليديف وفي حسابه • ان عدداً من هذه الشجيرات قد اشترى مع العقار نفسه ؛ وبلغ ليديف من إعجابه وافتائه باصطفافها على الشرفة أنه انتهاز فرصة بيع بالمزاد فاشترى عدداً آخر من نوعها ؛ فلمّا نقلت الشجيرات كلها الى الفيلا ووضعت في مكانها ، أصبح ليديف يهبط درجات الشرفة عدة مرات كلّ يوم ليتأمل منظرها من الشارع ، حاسباً في كل مرة الزيادة التي سيطلبها من المستأجر •

أعجب الأمير بالفيلا كثيراً ، وكان ما يزال واهن الجسم ، خائر القوة ، محطّم البدن • الواقع أنه منذ وصوله الى بافلوفسك ، أى في اليوم الثالث الذي انقضى على نوبة الصرع ، كان قد استردّ مظهر الصحة والعافية ، ولكنه لمّا يشعر بأنه أبلّ ابلالاً تاماً • وقد أسعده أن يرى من حوله ناساً خلال تلك الأيام الثلاثة : كوليّا الذي لا يكاد يتركه ، وأُسرة ليديف (باستثناء ابن الأخت الذي رحل لا يدري أحد الى أين) ،

وليديف نفسه • حتى لقد سرَّه أن زاره الجنرال ايفولجين ببطرسبرج قبل سفره •

وفى ذلك المساء الذى وصل فيه الى بافلوفسك ، اجتمع حوله على الشرفة عدد من معارفه ، رغم أن الوقت متأخر : جاء جانيا أول من جاءوا ، فلم يكذب يعرفه الأمير من شدة تغيره وفرط نحوله وهزاله ؛ ثم جاءت فاريا ومعها بتسين ، وكانا يصطفان فى بافلوفسك أيضاً • وكان الجنرال ايفولجين يلبث عند ليديف طول الوقت تقريباً ، وكأنه انتقل معه ، وكان ليديف يبذل قصاره لبقية بقربه ولينمعه من مقاربة الأمير • وكان يعامله معاملة الصديق للصديق ، وكان يبدو على الرجلين كليهما أنهما صديقان منذ عهد بعيد • وقد رآهما الأمير عدة مرات فى أثناء تلك الأيام الثلاثة يندفعان فى محادثات طويلة ، فكانا يصيحان حتى ليبدو عليهما أنهما يتناقشان فى مسائل علمية ، وذلك أمر كان واضحاً أنه يلقى هوى فى نفس ليديف • فمن رآهما قال ان ليديف أصبح لا يستطيع الاستغناء عن الجنرال •

وكان ليديف يتخذ هذه الاحتياطات ازاء أسرته أيضاً ، مدارةً للأمير ومراعاةً له ، منذ اقامتهم فى الفيلا • فكان بحجة عدم ازعاج الأمير لا يدع لأحد أن يدنو منه ، فمتى أظهر أولاده أنهم ماضون الى الشرفة التى يجلس فيها الأمير ، قرع الأرض بقدمه وركض وراءهم ، رغم أن الأمير قد رجا أن لا يبعدوا عنه • وكانت فيرا نفسها ، التى تحمل الطفل بذراعيها ، لا تتجو من حركاته هذه ، وكان يردُّ على اعتراضات الأمير قائلاً :

— ان رفع التكليف هذا لا بد أن يؤدى الى قلة الاحترام ، اذا نحن أجزناه • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ذلك يكون من جانبهم مفاجأةً للياقة والكياسة •••

فكان الأمير يعترض قائلاً :

- لماذا ؟ أؤكد لك أن رقابتك وقسوتك لا تزيدان على أن تحزناني .
قلت لك مراراً اننى أشعر بسأم وضجر من الوحدة ، وانك تضاعف
هواجسى ومخاوفى حين أراك ما تنفك تحرك يديك بإشارات وإيماءات ،
وتسير على رءوس الأصابع .

كان الأمير يُلَمِّح بذلك الى العادة التى ألفها ليديف خلال هذه
الأيام الثلاثة وهى أن يدخل عليه فى كل لحظة ، فيطرد جلساءه بحجة
توفير الهدوء والسكينة للمريض . كان ليديف يبدأ بأن يشق الباب ، فيُدخل
منه رأسه ، ويتفحص الغرفة كأنما ليتحقق من وجود الأمير فيها ، ومن
أنه لم يهرب ؛ ثم يدنو من المقعد خلسةً على رءوس الأصابع ، فيروِّع
الأمير أحياناً بظهوره المفاجئ غير المتوقع ، ويسأله بغتة أهو فى حاجة الى
شئ ؟ فاذا رجاه الأمير أخيراً أن يدعه وشأنه خرج طائماً دون أن يقول
كلمة واحدة ، سائراً على رءوس الأصابع أيضاً ، محرّكاً يديه بإشارات
 وإيماءات كذلك ، كأنما ليوهم بأنه لم يدخل الا عابراً ، وأنه لم يبق ثمة
ما يضيفه ، وأنه خارج ولن يعود . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يظهر
مرةً أخرى بعد ربع ساعة ، ان لم يكن بعد عشر دقائق .

وكان كوليا الذى يجوز له أن يلقي الأمير فى كل لحظة بغير حظر
وأن يبقى معه ما شاء أن يبقى ، يثير غيرة ليديف الذى كان هذا التفضيل
يفظه ويحتقه الى أبعد الحدود . وقد لاحظ كوليا أن ليديف كان يقف
وراء الباب فى بعض الأحيان نصف ساعة يتجسس على حديثه مع الأمير ،
ولم يغب عن بال كوليا طبعاً أن ينبه الأمير الى ذلك .

قال الأمير يحتج على ليديف :

- انك تحجر علىّ كأنك ولىّ أمرى . وأنا أفهم أن يكون الأمر

على غير هذه الحال ، على الأقل هنا فى الريف • فاعلم أنتى سأستقبل من أريد استقباله ، وانتى سأذهب الى حيث يحلو لى أن أذهب •

فأجابه ليديف محرّكاً ذراعيه :

- طبعاً ، بدون أدنى شك !

فنظر اليه الأمير من الرأس الى القدمين •

- قل لى يا لوكيان تيموفتشس : هل نقلت الى هنا الخزانة الصغيرة

التي كانت عندك فى بطرسبرج ، فوق سريرك ؟

- لا ، لم أنقلها !

- كيف ؟ أتركها هناك ؟

- لا سليل الى نقلها • فلو أردت نقلها لوجب انتزاعها من الجدار •

انها مثبتة فى الجدار تثبيتاً قوياً متيناً •

- قد يكون ثمة خزانة مثلها هنا ؟

- نعم ، بل ثمة خزانة أفضل منها • وهذا أحد الأسباب التي دفعتنى

الى شراء هذه الفيلا •

- آ ••• ومن هو ذلك الشخص الذى حجبت عنه الوصول الى

غرفتى منذ ساعة ؟

- هو ••• هو الجنرال • نعم ، صحيح ، لم أسمح له أن يدخل •

ليس هذا المكان مكانه • يا أمير ، انتى احترم هذا الرجل احتراماً عميقاً •

انه ••• انه رجل عظيم ، ألا تصدقنى ؟ طيب ••• لسوف ترى !••• ومع

ذلك فان الأفضل يا سمو الأمير أن لا تستقبله فى بيتك •

- هلاًّ سمحت لى أن أسألك لماذا يجب أن لا أستقبله فى بيتى ؟

ولماذا أراك الآن ، يا ليديف ، تقف على رموس الأصابع وتظل تدنو منى

دنوّ من يريد أن يفضى الىّ بسرّ همساً فى الأذن ؟

أجاب ليديف فجأة ، وهو يلطم صدره بيده ، قائلاً بلهجة مؤثرة :
- من حظتي وصغاري ! اننى أحس ذلك . هذا حطة وصغار !
ولكن ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيفاً الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ؟
- مضيفاً الى حد الغلو ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟

- نعم ، مضيفاً الى حد الغلو ! هو أولاً يهين نفسه لأن يستقر فى منزلى ساكناً مقيماً . هبنا قبلنا هذا على كل حال . ولكن المهم أنه لا يشعر بحرج ، فسرعان ما يحشر نفسه فى الأسرة . لقد سبق أن درسنا معاً روابط القرابة التى تجمعنا ، فلاحظنا أننا أقرباء بالمصاهرة . وأنت أيضاً تمت اليه بقربى من جهة أمك . شرح لى ذلك أمس . فإذا كنت أنت قريبه ، فنحن اذن قريبان يا سمو الأمير . على كل حال ، هذه مسألة بسيطة . . . لا تعدو أن تكون نقطة ضعف يسيرة فى الجنرال وليس لها نتائج ذات بال . لكنه قد أكد لى قبل لحظة أنه طوال حياته ، منذ حصل على رتبة مرشح الى اليوم الحادى عشر من شهر حزيران (يونيه) من العام الماضى ، لم يقل عدد الضيوف فى بيته كل يوم عن مائتى شخص ، فالمائدة لا تخلو فى لحظة فى اللحظات : فمن افطار الى غداء الى شاي الى عشاء خلال خمس عشرة ساعة متصلة غير منقطعة . وقد قال ان هذه الحال دامت ثلاثين عاماً بلا انقطاع ، فلا يكاد يتسع الوقت أثناء ذلك لتجديد غطاء المائدة ؟ وما ان ينهض ضيف لينصرف حتى يجيء ضيف آخر فيحل محله . وفى أيام الأعياد ، ولا سيما أعياد الأسرة الامبراطورية ، كان عدد ضيوف الجنرال يبلغ ثلاثمائة . وقد بلغ عددهم سبعمائة عند الاحتفال بالذكرى الألفية لروسيا * . شئ رهيب . ان قصة كهذه القصة لا تبشر بخير ، وانه لمن الخطر أن يستقبل المرء فى بيته أناساً يبلغون هذا المبلغ من كرم الضيافة . لذلك تساءلت ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيفاً الى حد الغلو ، بالنسبة اليك ، وبالنسبة الى أيضاً .

- ولكننى لاحظت أنكما كتبنا على أتم وفاق ، فهل كان ظنى خطأ ؟
- انتى أحمل هذره على محمل المزاح ، بروح الأخوة . فأن نكون قريين بالمصاهرة فهذا لا يضيرنى ، بل هو شرف لى . انتى أعدُ الجنرال شخصاً ممتازاً رغم ضيوفه المائتين ورغم الحفلة الألفية . أعلن هذا صادقاً كل الصدق ، مخلصاً كل الاخلاص . لقد قلت لى منذ هنيهة يا أمير انتى أدنو منك دنوً من يريد أن يفضى اليك بسرٍ يملكه . فاعلم أن لدى سرّاً أريد أن أفضى به اليك : هناك اسانه أعلمتنى منذ برهة أنها تمنى كثيراً أن تلقاك خفيةً .

- لماذا خفيةً ؟ مستحيل . سأذهب اليها بنفسى ، اليوم اذا لزم الأمر .
عاد ليديف يقول وهو يجرى اشارات كبيرة :
- لا ، لا . ليست مخاوفها هى ما تظن أنت . بالمناسبة . ان الشيطان يأتى كل يوم سائلاً عن صحتك .
- أنت تصفه دائماً بأنه شيطان . وأرى أن هذا يوجب الشبهة والشك !

أجاب ليديف مسرعاً :
- لا مجال لشبهات وشكوك . وانما أردت أن أقول انه ليس هو من تخشاه تلك الانسانه . ان مخاوفها ترجع الى غير هذا !
سأله الأمير منزعجاً من اصطناعه هيئة السر :
- الى ماذا ترجع مخاوفها ؟ قل بسرعة !
فأجاب ليديف ضاحكاً :
- ذلك هو السر !
- سرٌ من ؟
- سرٌ . لقد منعتنى أنت نفسك يا سمو الأمير أن أتكلم أمامك ..

بهذا تتم ليديف • واذا لاحظ مقتبلاً مبتهجاً أنه استطاع أن يثير حب الاطلاع عند محدثه ، أضاف يقول :

- ان تلك الانسنة خائفة من آجلایا ایفانوفنا •

فقطب الأمير حاجیه ثم قال بعد دقيقة صمت :

- عیناً لأتركّن منزلك يا ليديف ! أين جبریل آرداليوتش

وأسرة بتسين ؟ عندك ؟ هل جئت بهم الى هنا أيضاً ؟

- سیأتون ، سیأتون • وسیأتی الجنرال أيضاً بعدهم • سأفتح أبوابی

كلها ، وسأنادی بناتی جميعهن ، جميعهن فی هذه اللحظة نفسها •

بهذا همس ليديف مذعوراً وهو يحرك يديه ويركض من باب الى

باب •

وفی تلك اللحظة ظهر كولیا فی الشرفة آتياً من الشارع ، فأعلن

أن زائرات هن الیزابت بروكوفينا وبناتها الثلاث واصلات وراءه •

فقال ليديف يسأل مضطرباً لهذا النبأ أشد الاضطراب :

- أیجب أن أدخل أسرة بتسين وجبریل آرداليوتش أم لا ؟ أیجب

أن أسمح للجنرال بالمجيء ؟

قال الأمير ضاحكاً :

- لمَ لا ؟ فليدخل من يشاء أن يدخل • أوكد لك يا ليديف أنك

فهمت علاقاتی فهماً خطأً منذ أول يوم • أنت فی ضلال متصل مستمر •

ليس هناك أی سبب يدعونی الى أن اختبئ عن أحد •

فحين رآه ليديف ضاحكاً اعتقد أن من واجبه أن يقلده ، فأخذ

يضحك هو أيضاً • كان واضحاً أنه مسرور أشد السرور رغم اضطرابه

الشديد •

كان النبأ الذي أعلنه كولیا صحيحاً : لم يكن كولیا يتقدم أفراد

أسرة ايبانتشين الا بضع خطوات ، ليلغ عن قدمهن • وهكذا دخل زوار
من جهتين فى آن واحد : فأفراد أسرة ايبانتشين جئن من جهة الشرفة ،
بينما جاء بتسين وجانيا والجنرال ايفولجين من شقة ليديف •

ان كولا هو الذى أعلم أسرة ايبانتشين بمرض الأمير وبوصوله الى
بافلوفسك • وكانت الجنرالة حتى ذلك الحين فى حيرة أليمة • كان زوجها
قد نقل الى الأسرة ، أمس الأول ، بطاقة الأمير ، فاستتجت الزبات
بروكوفينا بدون أى تردد أن الأمير لن يتأخر عن المجيء الى بافلوفسك
لزيارتهم • وعبئاً حاولت الآسات أن يعترضن على استئاجها بأن الأمير
الذى لبث ستة أشهر لا يكتب اليهن قد لا يستعجل زيارتهن ، فريما كانت
له بطرسبرج مشاغل أخرى - من ذا يعرف شئونه ؟ وقد ضاقت الجنرالة
بهذه الاعتراضات، وانزعجت منها ، وأعلنت أنها مستعدة لأن تراهن على أن
الأمير سيجيء فى الغد اذا تأخر • وانتظرته فى الغد طوال الصباح ، ثم
انتظرته على الغداء ، ثم انتظرته أخيراً فى السهرة • فلما هبط الليل اعتكر
مزاجها واشتدت شراستها ، فصارت تشاجر الجميع ، ولكن دون أن تقحم
اسم الأمير فى مشاجراتها طبعاً • ولم تشر اليه فى اليوم اتالى كذلك •
ولكن آجلايا أفلتت منها هذه الملاحظة أثناء العشاء ، قالت : « ان ماما غضبى
لأن الأمير لم يجيء إلينا » ، فأسرعت الجنرالة تقول : « ليس هذا خطأه » ،
ونفضت غاضبةً وغادرت المائدة !

ووصل كولا أخيراً فى المساء ، فأبلغهن أنباء الأمير ، وحكى لهن
كل ما عرفه عما وقع له • فكان هذا فرحة انتصار لأليزابت بروكوفينا ؛
ومع ذلك طفقت تؤاخذ كولا ، فقالت معرّضةً به : « يقضى هنا أياماً
بكاملها فلا نعرف كيف تتخلص منه ، حتى اذا احتجنا اليه غاب فكأنه
مات ! » • أوشك كولا أن يغضب حين سمع قولها : « فلا نعرف كيف
تتخلص منه » ، لكنه كبح شعوره وأرجأ حقه • ولقد كان يمكنه أن

يفغر كل الغفران فى الواقع لولا أن التعبير يبلغ هذا المبلغ من جرح الاحساس وايداء الكرامة ، نعم كان يمكنه أن يفغر كل الغفران ، لشدة اغتباطه بما ظهر على اليزابت بروكوفينا من انفعال واضح وقلق بَيِّن حين علمت بمرض الأمير • وألحت الجنرالة طويلاً على ضرورة ايفاد رسول الى بطرسبرج ليجيء بطبيب شهير يعتنى بالأمر المريض ، ففتتها بناتها عن ذلك ، ولكنهن لم يشأن أن يقصرن عن أمهن حين أعلنت فجأة أنها تريد أن تزور المريض •

قالت وهى تتحرك هنا وهناك :

— ما ينبغي أن تتينا أو أن تصدنا قواعد البروتوكول اذا كان الفتى على فراش الموت ! أهو صديق للأسرة أم لا ؟
قالت آجلآيا :

— ولكن « لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج ! » * •
— طيب • لا تذهبي أنت • وذلك أفضل • لأن أوجين بافلوفتش سيحجى ، فلا بد أن يكون أحدٌ فى استقباله •
وقد أسرع آجلآيا ، بعد هذا الحوار ، تنضم الى أمها وأختها طبعاً ؛ وكانت تلك نيتها منذ البداية على كل حال • ووافق الأمير « شتش ••• » الذى كان يصحب آديلايد ، على أن يرافق السيدات تلبية لطلب الفتاة • وكان منذ مدة طويلة ، منذ أن صارت له علاقات بأسرة ايبانتشين ، قد اهتم اهتماماً شديداً بسماع كلامهن عن الأمير • وكان يعرف الأمير ، فقد التقى به قبل نحو ثلاثة أشهر فى مدينة صغيرة بالريف ، وقضى معه خمسة عشر يوماً ؛ وقصَّ أموراً عن هذا الشاب الذى كان يحمل له أجمل المحبة وأطيب المودة • لذلك رضى ، متهججاً بتهججاً صادقاً ، أن يشارك فى زيارة صاحبه القديم • ولم يكن الجنرال ايفان فيدوروفتش بالمنزل فى ذلك اليوم ، ولا كان أوجين بافلوفتش قد وصل •

لا تزيد المسافة بين فيللا أسرة ايباتشين وفيللا ليديف على ثلاثمائة
خطوة •

وحين دخلت الجنرالة على الأمير كان أول شعور مزعج أحست به هو أنها وجدت حوله جمهرة كبيرة من الناس ، لا سيما وأن شخصين أو ثلاثة أشخاص منهم كانوا ممن تكرههم • يضاف الى ذلك أنها دُهِشت كثيراً حين تقدم اليها الأمير فرأت شاباً يدل ظاهره على أن صحته جيدة ، ويرتدى ثياباً أنيقة ، ويبدو عليه المرح والبشر ، بدلاً من أن ترى الفتى العليل الذى كانت تتوقع أن تراه ؟ فوقفت لا تصدّق عينها ، فما كان أشد فرح كوليّا الذى كان فى وسعه أن يطلعها على حقيقة الأمر قبل أن تخرج من دارها ، ولكنه حرص على أن لا يفعل ، لأنه تنبأ ما كراً بالفضب المضحك الذى لا بد أن تُظهره حين ترى صديقها العزيز فى صحة جيدة ! حتى لقد مضى كوليّا فى الوقاحة الى أبعد من ذلك ، فأعلن انتصاره وتباهى بنجاحه ، ليجعل اليزابت بروكوفينا تبلغ من الفضب أقصى ذروة • لقد كان كوليّا يخز الجنرالة دائماً ، وكانت وخزاته فى بعض الأحيان جارحة جداً ، رغم ما بينهما من صداقة •

ردّت عليه الجنرالة قائلة وهى تجلس على المقعد الذى قدّمه نحوها
الأمير :

— صبرك يا عزيزى ، لا تتعجل هذا التعجل كله ! لا تفسد انتصارك !
وأُسرع ليديف وبتسين والجنرال ايفولجين يقدّمون مقاعد للآنسات • قدّم الجنرال كرسياً لأجلاليا • وقرّب ليديف كرسياً آخر للأمير « شئت • • • » وهو ينحني أمامه انحناء شديداً باحترام عظيم • وحيّت فاريا الآنسات بكثير من الحرارة والتودد على عادتها ، وأخذت تنهاس معهن •

قالت الجنرالة :

- صحيح يا أمير أنتى كنت أقدر أن أجذك فى السرير ، من فرط ما ضخمت مخاوفى الأمور ؛ وانى لأعترف لك ، حتى لا أكذب ، بأننى تضايقت كثيراً حين رأيتك تطلق المحيّا منذ قليل ، ولكننى أحلف لك أن هذا التضايق لم يدم الا دقيقة واحدة هى المدة التى كان لا بد منها للتفكير .
 انتى حين أفكّر يصبح سلوكى أسلم وكلامى أعدل وأرشد . أظن أن هذه حالتك أنت أيضاً . يجب أن قول لك انتى لو كان لى ابن مريض لما سُررت بشفاؤه أكثر من سرورى بشفائك . فإذا لم تصدق كلامى كان هذا عاراً عليك لا على . ولكن هذا الولد الحيث يسمح لنفسه بأن يدبر لى مكائد أنكى كثيراً من هذه المكيدة . يظهر أنك ترعاه وتحنيه . فاعلم اذن انتى فى ذات يوم قريب سأحرم نفسى من متعة وشرف صحبته ، صدّقنى ...

صاح كولينيا يقول :

- ولكن ما هو الذنب الذى ارتكبته ؟ لو قد أكّدت لك أن الأمير أبلّ من مرضه تقريباً لما ارتضيت أن تصدقينى . لقد كنت تريدان أن تتصوريه راقداً على فراش الموت . تلك صورة تشوقك أكثر ...

قالت اليزابت بروكوفينا تسأل الأمير :

- أأنت باقى هنا مدة طويلة ؟

- الصيف كله ، وقد أزيد .

- أأنت وحيد ؟ ألم تتزوج ؟

أجاب الأمير مبتسماً من سذاجة الجنرالة فى القاء هذا السؤال .

- لا ، لم أتزوج .

- لا تبسم ! ذلك يمكن أن يحدث . لكننى أفكر فى الاصطاف :

لماذا لم تنزل عندنا ؟ ان فى دارنا جناحاً بكامله لا يشغله أحد • على كل حال ، هذا شأنك أنت !

ثم أضافت تسأل بصوت خافت وهى تومىء بعينها الى ليديف :
- أنت مستأجر عند هذا الشخص ؟ ما باله يتلوى طول الوقت ؟
وفى تلك اللحظة ظهرت فيرا فى الشرفة خارجة من شقة ليديف •
انها على عادتها تحمل الطفل بذراعيها • وكان ليديف يدور حول الكراسى
لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ولكنه لا يعزم أمره على أن ينصرف ، وها هو
ذا يهجم فجأة على ابنته ويأخذ يحرك يديه بإشارات كثيرة ليعدها ،
حتى لقد نسى نفسه فقرع الأرض بقدمه •

أسرعت الجذالة تسأل :

- أهو مجنون ؟

- لا ، ولكنه ...

- فلعله اذن سكران ؟ ...

ثم أضافت تقول بعد أن ألقت نظرة على سائر الزوار :

- لست تُغبط على هؤلاء الذين يحيطون بك ويصحبونك • على كل حال ، هذه فتاة لطيفة • فمن تكون هذه الفتاة ؟

- هى فيرا لوكيانوفنا ، ابنة ليديف هذا •

- آ ... هى لطيفة حلوة حقاً ... أريد أن أتعرف اليها •

ولكن ليديف الذى سسمع أقوال المديح هذه ترجيها الزابت
بروكوفينا ، كان قد أخذ يقود ابنته نحوها ليقدمها اليها •

قال فى أنين وهو يقترب باحترام واجلال :

- يتامى ! انهم يتامى • والطفل الذى تحمله بذراعيها يتيم أيضاً •

هذه أخته ليوبوف، ابنتي التي وُلدت لي من زواجي الشرعي جداً بزواجي
إيلينا التي توفاه الله أثناء الوضع منذ ستة أسابيع ... نعم ... هي للطفل
بمثابة أم ، رغم أنها ليست الأخت ، ليست الأخت ، ليست الأخت
فحسب ...

- وأنت أيها الرجل لست إلا غيياً فحسب • اغفر لي صراحتي •
وكفى الآن هذا !

ثم أضافت تقول وقد اعترتها نوبة استياء مفاجئة :

- أحسب أنك تدرك ذلك بنفسك !

فأجاب ليديف وهو ينحني باحترام عميق :

- هذه هي الحقيقة بعينها !

سألته آجلايا :

- قل لي يا سيد ليديف : يدعى بعضهم أنك تفسر رؤيا يوحنا ،
فهل هذا صحيح ؟

- هذه هي الحقيقة بعينها ! ما برحت أفسرها منذ خمسة عشرة عاماً •

- سمعت منك ، بل أظن أن الجرائد جاءت على ذكرك •

قال ليديف وقد أخذ يشعر بفرح :

- لا • الجرائد تكلمت عن شارح آخر مات فحللت محلّه •

- هلاً سررتني ، ما دمتا جيراناً ، فجئت إلى ذات يوم لتفسّر لي

بعض فقرات من رؤيا يوحنا • انني لا أفهم منها شيئاً •

وكان الجنرال يفولجين جالساً إلى جانب آجلايا يحرقه العذاب من

أنه لا يستطيع التدخل في الحديث ، فاذا هو يقول الآن فجأة :

- لا أستطيع أن أعفى نفسى من واجب تنبيهك يا آجلابا ايفانوفنا
الى أن هذا كله ليس الا تدجيلاً منه ، صدّقينى ...

وتابع الجنرال ايفولجين كلامه يقول :

- صحيح أن للحياة فى الريف حقوقها ، كما أن لها مسراتها .
ولأن يستقبل المرء فى بيته رجلاً دخيلاً من أجل أن يشرح له رؤيا يوحنا
فهذه نزوة كغيرها من النزوات ، ولعلها نزوة بارعة الذكاء ، لكننى ...
مالك تنظرين الى مدهوشة ؟ اسمحى لى أن أقدم اليك نفسى : أنا الجنرال
ايفولجين . لقد حملتك على ذراعى يا آجلابا ايفانوفنا .

دمدمت آجلابا تقول وهى تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تتفجر
ضاحكة :

- سعيدة بمعرفتك . اننى أعرف باربارا آرداليونوفنا ونيئا
ألكسندروفنا ...

غضبت اليزابت بروكوفينا حتى احمرت أشد الاحمرار . ان
الغضب الذى كظمته فى قلبها مدة طويلة كان فى حاجة الى أن ينطلق .
وكانت لا تطيق احتمال الجنرال ايفولجين الذى سبق أن عرفته فى الماضى
منذ زمن بعيد . قالت له باندفاع :

- أنت تكذب ، يا عزيزى ، على عادتك ! انك لم تحمل ابنتى على
ذراعىك فى يوم من الأيام !

فانبرت آجلابا تؤيد كلام الجنرال فجأة فتقول :

- بلى يا ماما . أنت نسيت . لقد حملنى على ذراعيه فعلاً . كان
ذلك فى مدينة تفير التى كنا نقيم بها أيامئذ . كان عمرى ست سنين ، مازلت
أتذكر هذا . وقد صنع لى قوساً وسهماً وعلمنى الرماية فاصطدت حمامة .
ألا تتذكر أننا اصطدنا معاً حمامة ؟

وهتفت آديلايد تقول :

- وأعطاني خوذة من كرتون وسيفاً من خشب • أنا أيضاً أتذكر •

وزادت ألكسندرا فقالت :

- أنا أيضاً أتذكر • حتى لقد تشاجرتما على الحمامة الجريح ،
فوضعت كل واحدة منكما في ركن • واضطرت آديلايد أن تتسمر في
مكانها مع خوذةها وسيفها •

حين ذكرَ الجنرال آجلايا بأنه حملها على ذراعيه ، فانه لم يكن
يبغي الا أن يقول شيئاً ما ليجرى معها حديثاً ، كما يفعل هذا نفسه كلما
أراد أن يتعرف الى شبان أو شبابات •

ولكن شامت المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن يكون كلامه في هذه
المرة صحيحاً ، لأنه ذكرَ بواقعة صادقة كان قد نسيها هو نفسه ، فلما
قالت آجلايا على غير توقع انهما اصطادا حمامة معاً ، عادت اليه ذاكرته
دفعاً واحدة ، فذكر كل شيء بأدق تفاصيله ، كما يحدث ذلك في أحيان
كثيرة للشيوخ حين يتذكرون ماضياً بعيداً • انه ليصعب علينا أن نقول ماهو
الشيء الذي أثار انفعال الجنرال المسكين من تلك الذكرى (وكان ثملاً
على عادته) ، ولكن مما لا شك فيه أنه قد انفعِل انفعلاً قوياً وتأثر تأثراً
شديداً • فصاح يقول :

- أتذكر ، نعم أتذكر كل شيء ! كنت عندئذ كابتن • وكنت أنت
صغيرة جداً ، لطيفة حلوة !... يا نينا ألكسندروفنا !... يا جانبا !...
كان ذلك في الزمن الذي استقبلت فيك عندكم ...

قالت الجنرالة :

- فانظر الى أين صرت الآن ! على أن الشراب لم يخنق فيك

العواطف النبيلة ، ما دمت تتأثر هذا التأثير من تلك الذكرى • ولكنك
عذبت امرأتك عذاب الشهداء • وبدلاً من أن تكون قدوةً ومثالاً
لأولادك أخذت تستدين وتستدين الى أن وضعت فى السجن •
اذهب من هنا يا صاحبي ! انسحب الى أى مكان ، الى ما وراء الباب ، الى
ركن من الأركان ، لتبكي براءتك القديمة الذاهبة ، فلعل الله أن يغفر لك
ويتوب عليك ! هيا ، اذهب ! اننى أكلمك جادةً لا هازلة • لا نىء ينفع
فى اصلاح المرء كما تنفعه ذكرى ماضيه نادماً !

لم يكن ثمة داع الى مزيد من الكلام : لقد كان الجنرال يملك
الحساسية المفرطة التى يملكها المدمنون عادةً ، وكان يؤله كما يؤلم سائر
الساقطين أن يتذكر أيامه السعيدة • فيها هو ذا ينهض ويتجه نحو الباب
طائماً صاغراً ، فسرعان ما أشفقت عليه اليزابت بروكوفينا ، فصاحت
تتاديه قائلة :

— أورداليون ألكسندروفتش ، صديقى ، انتظر دقيقة ! نحن جميعاً
خطاة آمنون • فمتى شعرت بأن ضميرك قد هدأ بعض الهدوء واسترد
شيئاً من السكينة والطمأنينة ، فتعال الى زائراً لتتحدث لحظةً عن الماضى •
من ذا الذى يستطيع أن يؤكد أننى لم أرتكب من الذنوب أضعاف
ما ارتكبت أنت ؟ ولكن استودعك الله الآن ، اذهب ، انصرف ، فليس لك
هنا شأن ...

أضافت تقول هذه العبارة الأخيرة فجأة وقد روَّعها أن رأتها عائداً •
همّ كوليناً أن يلحق بأبيه ، ولكن الأمير قال له :

— الأفضل أن لا تتبعه الآن • والا اعتكر مزاجه وفسد ما ينعم به من
صفاء وسعادة !

فقال اليزابت بروكوفينا :

- صحيح ! دعه ! ستلحق به بعد نصف ساعة •

وجازف ليديف فقال :

- هذا تأثير قول الحقيقة للانسان مرة في حياته : لقد تأثر حتى

الدموع •

فأسرعت الزبابت بروكوفينا ترده الى مكانه قائلة له :

- وأنت أيضاً ، يا صاحبي ، لا بد انك سيد مدهش اذا صدق

ما سمعته عنك !

أخذ وضع كل واحد من الزوار المجتمعين على الشرفة يتضح شيئاً بعد شيء • واستطاع الأمير طبعاً أن يدرك حق الادراك دلائل عاطفة المودة التي تحملها له الأميرة وبناتها • فقال لهن بلهجة صادقة انه قبل زيارتهن كان قد عقد النية على أن يذهب اليهن في ذلك اليوم نفسه رغم سوء حالته الصحية ، ورغم أن الوقت متأخر • فأجابه الزبابت بروكوفينا ، وهي تلقي على الزوار نظرة ازدراء ، ان انفاذ تلك النية ما يزال ممكناً • فلم يلبث بتسعين ، وهو رجل مهذب مسير ، أن نهض على الفور وانسحب الى شقة ليديف • وقد أراد أن يقتاد ليديف ، ولكنه لم يحصل منه الا على وعد بأنه سيدركه في الحال • وكانت فاريا تتحدث مع الفتيات فلم تتحرك • وقد سُرَّت هي وجانيا من انصراف الجنرال • وانصرف جانيا بعد بتسعين بقليل • انه خلال الدقائق القليلة التي قضاها على الشرفة بحضور أسرة ايباتشين قد حافظ على موقف متواضع كريم رصين ، ولم يضطرب بتأثير نظرة السيطرة التي ألقتها عليه الزبابت بروكوفينا مرتين من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ان الذين عرفوه من قبل لا بد أن يبدو لهم الآن أنه تغير تغيراً كبيراً • وقد أحدث وضعه أثراً حسناً جداً في نفس آجلايا •

- أظن أن جبريل آرداليونوفتش هو الذى خرج الآن ، أليس كذلك ؟

هكذا سألت آجلايا فجأةً ، على عادتها فى الليل الى مقاطعة حديث الآخرين أحياناً على حين بغتة ، دون أن توجه الكلام الى أحد بعينه •
فأجاب الأمير بقوله :

- نعم هو •

قالت آجلايا :

- كدت أنكره فما أعرفه • لقد تغير كثيراً • • • • • لقد تحسّن !

قال الأمير :

- سرّنى تغيره هذا أعظم السرور •

وأضافت فاريا تقول بلهجة تعبر عن شفقة ويخالطها فرح خفى :

- كان مريضاً جداً •

وسألت اليزابت بروكوفينا بنبرة فيها غضب ويكاد يكون فيها دعر:

- فى أى شىء تحسّن ؟ من أين جئت بهذا ؟ اننى لا أرى فيه شيئاً تحسّن ؟ ما الذى تجديده أنت ؟

صاح كوليا يقول فجأةً وكان ما يزال واقفاً قرب كرسى اليزابت بروكوفينا :

- لا شىء أحسن من « فارس فقير » * •

قال الأمير « شئت • • • • • وهو يضحك :

- هذا رأى أيضاً •

وأعلنت آديلايد قائلة :

- وهو رأى كذلك •

فسألت الجنرالة وهى تحدّق اليهما بنظرة فيها حيرة وغضب :

- أى « فارس فقير » ؟

ثم أضافت تقول غاضبة حين رأت أن آجلایا احمر وجهها :

- لا بد أنها سخافة من السخافات ! ما « الفارس الفقير » هذا ؟

قالت آجلایا بلهجة فيها غطرسة شديدة :

- أهذه أول مرة يشوّه فيها هذا الصبى ، الأثير عندك ، أقوال

الآخرين ؟

كانت آجلایا تعتریها نوبات غضب فى كثير من الأحيان ، ولكن انقيادها لنوبات الغضب يصحبه دائماً شىء يبلغ من سذاجة الطفولة وخراقة التصرف أن المرء لا يملك أحياناً الا أن يضحك حين يراها • وكان هذا الضحك يخرجها عن طورها لأنها لا تستطيع أن تجد له تفسيراً ، وكانت تتساءل كيف يستطيع هؤلاء الناس وكيف يجسرون أن يضحكوا من سلوكها •

وحين قالت آجلایا عبارتها الأخيرة فى حق كوليّا ضحكت أختها وضحك الأمير « شتش • • • » • حتى أن الأمير ليون يقول لا يفتش نفسه لم يستطع أن يحبس ابتسامته ، وان يكن وجهه قد احمر لا ندرى لماذا ! أما كوليّا فقد انتصر وطفق يضحك ملء حلقه • فمضت آجلایا ، فزادها ذلك جمالاً • ان الاضطراب والغضب اللذين شعرت بهما قد ضاعفا فتتها الأخاذة •

وعادت تتكلم فقالت :

- ألم يسبق لهذا الصبي أن شوَّ أقوالك نفسها في أحيان كثيرة؟

قال كوليا :

- أنا لم أزد على أن كررت صيحةً من صيحات الإعجاب التي تطلقونها . فمنذ شهر ، حينما كنت تقرئين « دون كيشوت » ، قلت انه لا شيء أحسن من « فارس فقير » . لم أكن أعرف من ذا الذي كنت تقصدين حينذاك : أهو دون كيشوت ، أم أوجين بافلتش ، أم شخص آخر ؟ وانما المهم أن أقوالك كانت تعنى أحداً ما . وقد جرى حول هذا حديث طويل طويل

قالت الزابت بروكوفينا بلمهجة حادة :

- أرى يا صديقي أنك تسمح لنفسك بالاسراف قليلاً فيما تمضي اليه من افتراضات

فتابع كوليا كلامه مباحكاً :

- أنا الوحيد ؟ لقد تكلم الجميع في هذا وما زالوا يتكلمون : فمنذ لحظة واحدة قال الأمير « شتش » . . . وآديلايد ايفانوفنا والآخرون انهم من أنصار « الفارس الفقير » . فهذا الفارس موجود اذن بالفعل ، وفي رأيي أننا كان في وسعنا جميعاً أن نعرف من هو ، لولا آديلايد ايفانوفنا .

سألت آديلايد ضاحكة :

- ما ذنبي أنا ؟

- ذنبك أنك لم تقبلي أن ترسمي لنا صورة وجهه ! ان أجلبا ايفانوفنا قد رجتك أن تفعل حتى لقد أمدتكَ بجميع تفاصيل اللوحة كما تصورها هي ، ألا تتذكرين ؟ ولكنك لم تشائى

- ولكن كيف كان في وسمى أن أفعل ، ومن ذا الذي كان يمكنني أن أصورَها ؟ ان « الفارس الفقير » هو كما وُصف لي رجل

لم يرفع أمام أحد حافة خوذته الفولاذية

فما هو الوجه الذي يجب أن أهبه له ؟ ماذا أصوّر ؟ أأصور حافة خوذة ؟ أأصور وجهاً ليس وجه أحد ؟
صاحت الجنرالة تقول منزعجة :

- لست أفهم شيئاً ؟ ما حافة الخوذة هذه التي تتكلمون عنها ؟
وكانت الجنرالة في الواقع قد بدأت تحدّد شخصية صاحب هذا اللقب (الذي لعله قد تم تخيله منذ مدة طويلة) ، اعني لقب « الفارس الفقير » .

غير أن الأمر الذي أثار استياءها خاصة ، انما هو ما رأيته في هيئة الأمير ليون يقولان يقتش من اضطراب كاضطراب طفل في العاشرة من عمره . فهتفت تقول :

- أما لهذه السخافات من آخر ؟ هلاًّ شرحت لي أخيراً قصة « الفارس الفقير » هذه ؟ أهذا سرٌّ كبير فلا تجوز مقارنته ؟

ولكن الجميع لم يزدوا على أن استمروا في الضحك .
فتدخل الأمير « شتت . . . » أخيراً فقال ليحوّل الحديث عن مجراه :
- الأمر أمر قصيدة روسية غريبة بعض الغرابة ، لا أكثر من ذلك .
هي أبيات من قصيدة لا ذنب لها ولا رأس ، تصوّر فارساً فقيراً . فمئذ نحو شهر ، في ذات مساء بعد العشاء ، كنا قد ضحكنا كثيراً ونحن نبحث

على عادتنا عن موضوع اللوحة الجديدة التى سترسمها آديلايڊ ايفانوفنا •
انك لا تجهلين أن هذا البحث عن موضوع للوحات آديلايڊ ايفانوفنا قد
أصبح واجباً من واجبات الأسرة منذ زمن طويل • وفيما نحن نبحث ،
وقمنا على موضوع « الفارس الفقير » •• ولست أدري من ذا الذى خطرت
بباله فكرته قبل الآخرين •

صاح كوليا يقول :

– هذه فكرة آجلايا ايفانوفنا !

وتابع الأمير « شئت ••• » كلامه فقال :

– جائز جداً • ولكننى لا أذكر • فبعضهم ضحك من الموضوع ،
وبعضهم أكد أنه ليس ثمة موضوع أرفع منه ولا أسمى ، ولكن لا بد على
كل حال من أن نخلع على « الفارس الفقير » وجهاً • فأخذنا نبحث عن
وجه بين وجوه جميع الناس الذين نعرفهم ، ولكن أحداً منهم لم يقع عليه
الاختيار ، ووقف الأمر عند ذلك الحد • هذا كل شئ • ولا أدري لماذا
خطر ببال نيقولا آرداليونوفتش أن يعيد هذا الأمر الى الأذهان • فان
ما كان مسلياً ومناسباً منذ شهر قد أصبح اليوم غير ذى قيمة •

قالت اليزابت بروكوفينا بلهجة قاطعة :

– لأن ثمة غمزاً مضمرأ ، غمزأ جارحاً مؤذياً •

قالت آجلايا :

– لا شئ من ذلك البتة • وليس ثمة الا التعبير عن احترام عميق •

نطقت آجلايا تلك الكلمات بلهجة فيها رصانة شديدة غير متوقعة •
فهى لا تسيطر على أعصابها سيطرة تامة كاملة فحسب ، بل يبدو عليها
أيضاً من بعض القرائن أنها الآن مسرورة باتساع نطاق المزاح • وقد

حدث هذا الانقلاب فى نفسها حين لوحظ أن اضطراب الأمير قد أخذ يشتد مزيداً من الاستداد .

- يضحكون كالجائنين ، ثم اذا بهم يتحدثون فجأة عن احترامهم العميق ! جنون مطبق ! لماذا الاحترام ؟ أجيبني فوراً : من أين جاءك هذا الاحترام العميق بفتة بلا سبب ظاهر ؟

فقال آجلايا تجيب عن السؤال الذى ألقته عليها أمها نائرة ، قالت تجيب بتلك اللهجة الرصينة الوقور نفسها :

- تكلمت عن احترام عميق ، لأن تلك الأشعار فى القصيدة تتحدث عن رجل قادر على أن يكون له مثل أعلى ، وقادر متى حدد لنفسه ذلك المثل الأعلى على أن يؤمن به ايماناً أعمى وعلى أن ينذر له حياتها كلها . وهذا أمر ليس شائعاً فى زماننا الحاضر . ان القصيدة لا تعين لنا المثل الأعلى الذى يؤمن به « الفارس الفقير » ، ولكننا نرى بوضوح أن ذلك المثل الأعلى نوع من صورة مضىة هى « آية الجمال الطاهر النقى » ؛ حتى ان الفارس العاشق يلف عنقه بمسبحة بدلاً من أن يلفعه بمنديل . صحيح أن هناك أيضاً شعاراً غامضاً مبهماً ملفزاً تعبّر عنه هذه الأحرف الثلاثة « آم.ب. » * التى رسمها على ترسه .

فانبرى كوليا يصحّح قائلاً :

- بل « آم.د »

فردّت آجلايا غاضبة :

- بل « آم.ب. » ، ولا أراجع . من الواضح على كل حال أن الفارس الفقير كان لا يقيم أى وزن لما هى عليه سيدته ، ولا لما كانت تفعله . حسبه أنه اختارها وآمن « بجمالها الطاهر النقى » حتى ينحى أمامها الى الأبد . وميزته أنه ، ولو أصبحت بعد ذلك لصة ، يظل يؤمن

بها ويظل مستعداً لأن يدافع عن جمالها الطاهر النقي • يبدو أن القصيدة أرادت أن تجسّد في صورة استثنائية فذة قوة فكرة الحب الفروسي طبعاً • ولكن هذا المثل الأعلى يصل في « الفارس الفقير » الى أعلى درجاته ، ويبلغ حدّ التقشف والنسك والزهد • يجب أن نعتز بأن القدرة على الشعور بمثل هذه العاطفة ، التي تقتضى بذاتها شكيمة قوية وطبعاً صلباً واردة عنيدة ، هي شيء لا يُستهان به ، وهي شيء محمود جداً من جهة ما ، بصرف النظر عن دون كيشوت هنا • ان « الفارس الفقير » هو دون كيشوت ، هو دون كيشوت "جدي" لا هزلي • اننى لم أفهمه في البداية ، حتى لقد ضحكت منه وتندرت عليه ، أما الآن فأننى أحب « الفارس الفقير » ، وأحترم جسارته واقدامه خاصة •

صمتت آجلايا • انه يصعب على المرء حين ينظر اليها أن يعرف
أكانت جادةً فيما قاله أم كانت هازلة •

– فاعلمى أن هذا « الفارس الفقير » رجل غبى رغم كل ما وصفته به من جسارة واقدام • وأنت يا صغيرتى قد تدفقت تلقيننا درساً كاملاً ، فصدقيني اذا قلت لك ان هذا لا يناسبك • وهو على كل حال لا يُطاق • ما هي أشعار تلك القصيدة ؟ أنشدني أبياتها • لا بد أنك تحفظينها • اننى أحرص على سماعها أشد الحرص • أنا لم أطق الشعر فى حياتى • فلعل ذلك كان منى احساساً أشبه بالنبوءة • تجمل بالصبر ياأمير ، ناشدتك الله • واضح أن الصبر خير ما يمكن أن تتذرع به أنا وأنت •

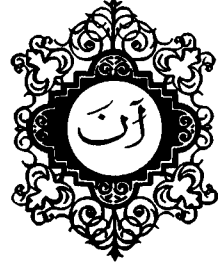
أضافت الجزالة قولها هذا تخاطب الأمير • وكان واضحاً أنها مستاءة
أشد الاستياء ، ممتعة أكبر الامتعاض •

أراد الأمير أن يقول شيئاً ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة • آجلايا وحدها التى أجازت لنفسها هذه

الجرأة كلها في « تلقين درسها » ، كانت لا تُظهر أى اضطراب ، بل وكانت تبدو راضيةً عن نفسها ، مقتبحةً بما قالته . وها هي ذى تنهض على الفور بمثل ذلك الوقار نفسه وبمثل تلك الأبهة نفسها ، كأنها كانت متهيئة لانشاد تلك الأشعار ، فهي لا تنتظر الا أن يدعوها أحد الى ذلك . وها هي ذى تتقدم الى وسط الشرفة ، وتقف قبالة الأمير الذى ما يزال جالساً على كرسيه .

نظر الجميع اليها بشيء من الدهشة . كان الأمير « شتد » ، وأختائها ، وأمها ، وجميع الحضور تقريباً ، يشعرون بحرج وضيق ازاء هذه الاندفاع الطفولى الذى يقدرّون انه سيتجاوز حدود القصد والاعتدال . ولكن كان واضحاً أن آجلانيا مفتتنة أشد الأفئتان بهذه الطريقة فى التمهيد لانشاد القصيدة . وهمّت اليزابت بروكوفينا أن تحملها على العودة الى الجلوس فى مكانها ؛ ولكن فى اللحظة التى أوشكت فيها الفتاة أن تنشد قصيدتها ، صعد من الشارع الى الشرفة زائران جديدان آخذان فى الحديث بصوت عال . انهما الجنرال ايفان فيدوروفتش ايبانتشين وفتى يتبعه . فأحدث ظهورهما دهشة .

الفصل السابع



الشاب الذى يصحب الجنرال هو فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، حسن التكوين ، له وجه وسيم ذكى ، وعينان واسعتان تفيضان نشاطاً ومكراً . أثبت آجلايا حتى أن تلفت اليه واستمرت تشدد قصيدتها متظاهراً بأنها لا تنظر الا الى الأمير ، ولا تتجه الى أحد غيره . فأدرك الأمير أنها تخفى وراء ذلك نية خاصة . غير أن مجيء الزائرين الجديدين خفف ارتباطه قليلاً على كل حال . فما ان رأهما حتى نهض نصف نهوض ، وحرّك رأسه من بعيد يحيى الجنرال تحية فيها مودة ، وأوصى بإشارة من يده أن لا يقطع انشاد القصيدة . ثم مضى يقف وراء كرسيه ، مستنداً بكوعه الأيسر على ظهر المقعد ، ليسمع تمة القصيدة وهو فى وضع أكثر طلاقة وأقل اضحاً كما من وضع رجل غاطس فى مقعد . وانبرت اليزابت بروكوفينا من جهتها تهيب بالزائرين أن يتوقفا ، وذلك بحركة من يدها قامت بها مرتين .

اهتم الأمير اهتماماً شديداً بالشاب الذى يصحب الجنرال . وأحسن أنه قد يكون أوجين بافلوفتش رادومسكى الذى سمع عنه كثيراً ، وفكّر فيه غير مرة . غير أن اللباس المدنى الذى كان يرتديه هذا الشاب قد حيّره ، ذلك أنه قد سمع أن أوجين بافلوفتش عسكرى لا مدنى* . وكانت ابتسامة ساخرة تطوف بشفتى الزائر الجديد طوال مدة انشاد القصيدة . فكان الشاب كان يعرف ، هو أيضاً ، قصة « الفارس الفقير » .

قال الأمير يخاطب نفسه : « لعله هو الذى اخترع هذا » •

أما آجلايا فكانت حانتها النفسية مختلفة كل الاختلاف • ان التصنع والافتعال اللذين بدأت بهما لقاء القصيدة قد حلت محلها عاطفة رزينة ملأى بمعنى الأشعار التي كانت تلقىها • وكانت تنطق كل كلمة من الكلمات نطقاً يبلغ من قوة التعبير وجمال البساطة أنها في آخر انشادها لم تأسر انتباه السامعين فحسب ، بل برّرت كذلك ، بابرار قوة الوحي وعمق الالهام في هذه القصيدة ، برّرت الأبهة التي اصطنعتها منذ قليل حين نصبت قامتها في وسط الشرفة • ان في وسع المرء أن لا يرى الآن في ذلك التصنع الا علامة احترام بالغ ذكى غير محدود تحمله الفتاة للقصيدة التي تولت لقاءها • كانت عيناها تسطعان ؛ وسرت في وجهها الجميل ، مرتين ، رعدة حماسة لا تكاد تدر ك •

واليكم ما أشدته :

فقيرا كان الفارس
وصموتا وبسيطا ،
ومظلما كان وجهه وشاحبا ،
وكانت نفسه جسورة وصريحة •
لاحت له رؤيا
حفرت في قلبه
أثرا عميقا
التهبت نفسه منذ ذلك اليوم •
حول عينيه عن النساء ،
قال أن وورى التراب ،
لم يخاطب امرأة بكلمة •
بمسبحة لف عنقه ،
لا بمنديل لفعها

ولم يرفع أمام أحد
حافة خوذته الفولاذية •
بحب ظاهر امتلا قلبه
ظل وفيا لرؤياه ،
وبدمه على ترسه
كتب : نون • فاء • باء
وفي صحارى فلسطين
بينما الفرسان بين الصخور
يهبون الى القتال
ذاكرين أسماء سيئاتهم
كان يصيح بحماسة عاتية قائلا :
يا ضياء السماء ، ايتها الوردة المقدسة !
وبانقضاضه كالصاعقة ،
كان يجندل الأعداء •
وحين عاد الى قلعته البعيدة
عاش فيها معتزلا ناسكا ،
وظل صامتا ، وحزينا ،
ومات كمجنون •

حين تذكر الأمير تلك اللحظات فيما بعد ، عذبت فكره مسألة
لا يجد الى حلها سبيلا : كيف أمكنهم أن يجمعوا بين عاطفة صادقة هذا
الصدق ، جميلة هذا الجبال ، وبين سخرية سافرة غير محجبة ، سخرية
سيئة ذلك السوء كله ؟ لم يراوده شك فى أن ثمة سخرية • السخرية
واضحة لها ما يؤكدها : ان آجلايا قد سمحت لنفسها أثناء اللقاء أن تبدل
الأحرف « ألف ، ميم ، باء » بالأحرف : « نون ، فاء ، باء » • هو واثق
بأنه لم يخطئ السمع (وذلك ماجاء البرهان عليه فيما بعد) • وكيف كان

الأمر فان مزاحة آجلايا - ذلك أن المسألة لا تعدو أن تكون مزاحة
مهما تكن جارحةً ومهما تتضمن من خفة وطيش - إنما كانت ميّنة
مقصودة . فالجميع ما برحوا منذ شهر يتكلمون عن « الفارس الفقير »
ويضحكون .

على أن الأمير حين رجع الى هذه الذكريات فيما بعد ، اقتنع بأن
آجلايا قد نطقت هذه الأحرف « نون ، فاء ، باء » دون أن تضيف عليها
لهجة مزاح أو تهكم ، ودون أن تبرزها إبرازاً يظهر معناها الحيء .
بالعكس ؛ لقد نطقها برصانة تبلغ من الهدوء ، وبساطة تبلغ من البراءة
والسذاجة أن المرء يمكن أن يظن أن هذه الأحرف موجودة فعلاً في نص
القصيدة المطبوع .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأمير لم يلبث أن شعر بعد سماع القصيدة
بضيق شديد وألم قاس . ان اليزابت بروكوفيتسا لم تلاحظ تبديل
الأحرف وما يختبئ وراء هذا التبديل من تلميح . وكل ما أدركه الجنرال
ايفان فيدوروفتش هو أن هناك أشعاراً تُشَدُّ أما السامعون الآخرون فقد
أدرك كثيرون منهم قصد آجلايا فأدهشتهم جسارتها هذه ولكنهم صمتوا
فكأن شيئاً لم يكن . وأما أوجين بافلوفتش فإنه لم يدرك فحسب (وهذا
ما يراهن عليه الأمير) ، بل حاول أن يفصح أيضاً عن أنه أدرك ، فزاد
مقدار السخرية في ابتسامته .

هتفت الجنرالة تقول في اندفاعه اعجاب صادق ، منذ انتهى انشاد
القصيدة :

- رائع ! لمن هذه الأشعار ؟

فصاحت آديلايد تقول :

- هي لبوشكين يا ماما . لا تُشعرينا بالخرى والعار ! كيف يمكن
أن يجهل أحد أنها لبوشكين ؟

فقلت الزابت بروكوفينا بلهجة مرة :

- ان المرء يمكن أن يصبح من معاشرتك أشد غباوة وأكثر جهلاً !
هذا معيب ! عليكن أن تأتينني بقصيدة بوشكين هذه متى رجعنا الى البيت !
- أظن أننا ليس فى بيتنا شئ من شعر بوشكين •
قلت ألكسندرا :

- بلى ! عندنا مجلّدان مهترئان ملقيان فى البيت منذ عهد بعيد !
- يجب ارسال احد الى المدينة فوراً لشراء كتب بوشكين • فليذهب
فيدور أو ألكسى فى أول قطار • والأفضل أن يذهب ألكسى • آجلا يا ،
تعالى ! قبّلينى ! لقد أحسنت القاء القصيدة ايما احسان !
ثم أضافت تهمس فى أذنها قائلة :

- ولكن اذا كانت نيرتك فى القاء القصيدة صادقة ، فانتى أرئى
لحالك • واذا كنت قد أردت أن تسخرى منه فانتى لا أويد شعورك • وفى
الحالين كان الأفضل أن لا تلقى هذه القصيدة • هل تفهمين عنى ؟ اذهبي
الآن يا آنسة ، سناود الكلام فيما بعد • لقد طال مكوثنا هنا •

فى أثناء ذلك كان الأمير قد سلّم على الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايباتشين الذى قدم اليه أوجين بافلوفتش رادومسكى •

- لقد أدركته فى الطريق • ذهب من القطار الى البيت رأساً فقيل
له انتى جئت الى هنا التحق بسائر الأسرة •••
قال أوجين بافلوفتش مقاطعاً :

- وقد علمت أيضاً أنك هنا ؟ واذا كنت أرغب منذ مدة طويلة لا فى
التعرف اليك فحسب ، بل وفى التماس صداقتك أيضاً ، فانتى لم أنشأ أن
أضيّع وقتاً ••• أأنت مريض ؟ انتى لم أعرف هذا الا منذ لحظة •••

أجاب ليون نيقولايفتش وهو يمد اليه يده :

- شُفيتَ شفاءً تاماً ، ويسعدني أن أتعرف اليك . لقد سمعت عنك كثيراً ، حتى اننى تحدثت في أمرك مع الأمير « شتت »

تصافح الرجلان بعد تبادل هذه الأقوال المهدبة ، ثم حدّق كل منهما الى عيني الآخر . وسرعان ما أصبح الحديث عاماً . ولاحظ الأمير ، الذى أصبح الآن يلاحظ بسرعة ويقظة ، حتى لقد يرى أشياء لا وجود لها ، لاحظ أن الجميع قد أدهشهم أن يروا أوجين بافلوفتش مرتدياً ثياباً مدنية لا عسكرية . وقد بلغت دهشتهم من القوة أنها محت سائر ما عداها من مشاعر . لا بد أن تغير الثياب هذا يدل على وقوع حادث هام . وتحيرت آديلانيد وألكسندرا فبادرتا الى سؤال صاحب الشأن عن الأمر . وبدا على الأمير « شتت » ، وهو قريب الشاب ، قلق شديد . وكان الجنرال منفعلاً انفعالاً يكاد يخالط صوته . آجلايا وحدها كانت هادئة كل الهدوء ، فألقت على أوجين بافلوفتش نظرة فضول وكأنها تساءل هل تناسبه الثياب المدنية أكثر مما تناسبه البزة العسكرية ، وما هى اللحظة حتى أشاحت وجهها عنه ثم لم تهتم به قط . وامتنعت اليزابت بروكوفينا عن سؤاله كذلك، رغم أنها لعلها شعرت ببعض القلق هى أيضاً . وأحسَّ الأمير أن هناك شيئاً من الفتور تشعر به الجنرالة نحو أوجين بافلوفتش .

ردّد ايفان فيدوروفتش يقول مجيباً عن جميع الأسئلة :

- دُهِشت أشد الدهشة . . . لم أصدّق عينيّ حين رأيته بثياب مدنية لا عسكرية بطرسبرج . ما هذا التغير المفاجئ ؟ ذلك هو اللغز ! انه هو نفسه أول المنادين بأن على المرء أن لا يحطّم الكراسى * .

وخرج من الحديث الذى دار حول هذا الموضوع أن أوجين بافلوفتش كان منذ زمن طويل قد أفصح عن نيته فى ترك الخدمة العسكرية . ولكنه كان ، كلما أثار هذا الموضوع ، يتكلم بلهجة تبلغ من

قلة الجدل أن أحداً لم يصدِّقه • ذلك عدا أنه اعتاد أن يخلع على الأمور الهامة الخطيرة صفة الهزل ، فلا يعرف أحد أصدقه أم لا يصدقه ، ولا سيما حين يعتمد هو نفسه أن يحثّر الناس وأن يضلّهم في شعاب الظنون !
قال رادومسكى مرحاً :

- لكننى لا أدع الخدمة العسكرية الا الى حين ، لا أدعها الا بضعة أشهر ، أو سنةً في أكثر تقدير •
فقال الجنرال بحرارة وهمة :

- لكننى لا أرى ضرورة هذا ، فى حدود معرفتى بشئونك وأعمالك على الأقل •

- ألا يجب علىّ أن أزور أطياني ؟ ألم تصحنى أنت نفسك بذلك ؟
ثم اتنى أود أن أقوم برحلة الى الخارج ••
وسرعان ما انحرف الحديث ، ولكن القلق ظل ظاهراً ، فاعتقد الأمير أن أمراً خطيراً يختبئ تحت هذا التبدل •

قال أوجين بافلوفتش سائلاً وهو يدنو من آجلايا :

- هل عاد « الفارس الفقير » اذن الى بساط البحث ؟

فما كان أشد دهشة الأمير حين ردّت عليه الفتاة بنظرة مشدوّهة مستفهمّة ، كأنما لتفهمه بأن « الفارس الفقير » لم يكن موضع بحث بينهما فى يوم من الأيام حتى انها لا تفهم ماذا يريد أن يقول ؟
وكان كوليما ما يزال فى جدال مع اليزابت بروكوفيتنا ، فهو مايقئاً يردد قائلاً :

- فات الأوان ، فات الأوان ، لا يمكن ارسال أحد الى المدينة فى

هذه الساعة ليحيى بكتب بوشكين • سأظل أكرر هذا ثلاثة آلاف مرة اذا
لزم الأمر : فات الأوان !

قال أوجين بافلوفتش وهو يتعد عن آجلايا مسرعاً :

- فعلاً ••• فات الأوان ••• الوقت متأخر الآن ••• أظن أن
التاجر ستغلق أبوابها بطرسبرج بعد قليل ، فالساعة قاربت التاسعة •
قال ذلك وهو ينظر فى ساعته •

وقالت آديلايد :

- انتظرنا حتى الآن ، ففى وسعنا أن ننتظر الى غد •

وأضاف كولا :

- لا سيما وأنه لا يليق بأبناء المجتمع الراقى أن يهتموا بالأدب
كثيراً • اسألنى أوجين بافلوفتش • لأن يملك المرء عربية ذات مقاعد صفراء
وعجلات حمراء ، فذلك أرقى وأميز •

قالت آديلايد :

- لقد اقتبست هذا أيضاً من كتاب يا كولا !

فقال أوجين بافلوفتش معقياً :

- صحيح ان كل ما يقوله مستمد من قراءات ، فهو قادر على أن يتلو
عليكم صفحات بكاملها مستمدة من مجلات نقدية ، وقد سعدت بمعرفة
حديث نيقولا آرداليوتش منذ زمن طويل ؛ ولكنه فى هذه المرة لا يردد
جملة قرأها ، وانما هو يلعب الى عربتى ذات المقاعد الصفراء ، التى تجرى
على عجلات حمراء فعلاً • ولكننى أحب أن أقول لك اننى أبدلت عربتى
تلك ، فجاء كلامك متأخراً عن الوقت المناسب •

أصغى الأمير الى كلام رادومسكى ... فلاحظ أن الشاب يسلك سلوكاً لا مأخذ عليه ، وأنه متواضع مرح • وأعجبه فيه خاصة أنه يعامل كوكلاء معاملة فيها مودة اند للند ، حتى حين يناكده كوكلاء •

– ما هذا الذى تجيئنى به ؟

كذلك قالت اليزابت بروكوفينا تسأل فيرا ، بنت ليديف ، التى وقفت أمامها فجأة ، مثقلة الذراعين بعدة كتب كبيرة الحجم أنيقة التجليد تكاد تكون جديدة •

قالت فيرا :

– هذا بوشكين ! هذا شاعرنا بوشكين ! أمرنى بابا بأن أهدى اليك كتبه •

فقالت اليزابت بروكوفينا مدهوشة :

– كيف ؟ أهذا معقول ؟

– لا ، لا ، ما هذا بهدية ! ما هذا بهدية ! ما كان لى أن أجزى لنفسى ذلك !

هكذا قال ليديف محتجاً وقد ظهر وراء ابنته على حين فجأة • وتابع كلامه يقول :

– وانما أتنازل لك عن هذه الكتب بيعاً بسعر الشراء • انها نسخه أسرتنا من مؤلفات بوشكين ، طبعة آنكوف * ، التى أصبح الثور عليها الآن مستحيلاً • أتنازل عنها بيعاً بسعر الشراء • اننى يا صاحب السعادة أقدمها اليك باحترام ، على نية أن تبيعها اياها فتُسبغ بذلك نهما النيل الى المباحج الأدبية •

- اذا كنت تبعها فأنا أشكر لك ذلك • لا تخف ، لن تخسر شيئاً
ولكن كفاك تلويّاً وتعقفاً ، أرجوك !! • سمعت عنك أنك غزير الاطلاع
جم المعرفة ، فستحدث معاً فى يوم من الأيام • هل تتولى حمل الكتب الى
بنفسك ؟

قال ليديف وهو يظهر سروره ورضاه بحركات شتى من التلوى
والتعقف :

- بكل احترام واجلال •••

واتزع الكتب من يدي ابنته •

- حسن • اثنى بها • اثنى أعفك من الاحترام والاجلال ، ولكن
لا تضع الكتب !

ثم أضافت تقول وهى تحدق الى عينه •

- ولكنى اشترط أن لا تتخطى عتبة باب بيتى ، فأنى لا أنوى أن
استقبلك هذا اليوم • غير أن فى وسعك أن ترسل الى ابنتك فىراً حالاً
اذا شئت • لقد أعجبتنى كثيراً •

قالت فىراً لأبيها بلهجة تدل على نفاد الصبر :

- لماذا لا تقول شيئاً عن أولئك الذين ينتظرون هناك ؟ اذا لم تدخلهم
فسوف يقتحمون الباب • لقد بدأوا باحداث صخب وضجة •

ثم أضافت تخاطب الأمير الذى كان قد تناول قبعته :

- يا ليون نيقولايفتش ، ان فى بيتك أربعة أفراد ينتظرونك منذ مدة
طويلة ، ويحدثون جلبةً لأن أبى لا يسمح لهم بأن يدخلوا عليك •

سألها الأمير :

- من هؤلاء الزوار ؟

- يدعون أنهم يجيئون اليك لعمل من الأعمال ، لكنهم أناس لا يتورعون أن يستوقفوك في الشارع اذا لم يُسمح لهم بالدخول .
فالأفضل يا ليون نيقولا يقتش أن تدخلهم وتتخلص منهم . عبثاً حاول جبريل آرداليونوفتش وبتسين أن يفاوضاهم ، انهم لا يريدون أن يسموا ، لا يريدون أن يسموا شيئاً البتة !

قال ليديف وهو يحرك يديه بإشارات كثيرة :

- هذا ابن بافلشتشيف ! ابن بافلشتشيف . لا داعي الى استقباله ، لا داعي . ان هؤلاء الناس لا يستحقون أن تصفى اليهم وتسمع كلامهم ، بل انه لا يليق بك يا سمو الأمير أن تزعج نفسك من أجلهم . نعم ، لا يستحقون . . .

هتف الأمير يقول بانفعال عميق :

- ابن بافلشتشيف ؟ آه ! أنا أعلم أن . . . ولكنى عهدت الى جبريل آرداليونوفتش أن يهتم بهذه القضية . هو نفسه قال لي منذ لحظة ان . . .

هنا ظهر جبريل آرداليونوفتش في الشرفة خارجاً من شقة الأمير . وظهر بعده بتسين . ان ثمة ضجة تُسمع من الغرفة المجاورة . وان صوت الجنرال ايفولجين المدوّى يحاول أن يطنى على أصوات عدة أشخاص آخرين . هرع كوليا يستطلع بواعث هذه الجلبة .

قال أوجين بافلوفتش :

- شيء شائق جداً !

فحدث الأمير نفسه بقوله : « هو اذن على علمٍ بالأمر » •

وقال الجنرال ايفان فيدوروفتش متحيراً وهو يسأل بنظرة جميع الوجوه ، كأنما يدهشه أن يكون الوحيد الذى يجهل هذه الحكاية الجديدة :

- ابن بافلشتشيف ؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص هو ابن بافلشتشيف ؟

أيقظ الأمر اهتمام الجميع ، وشحذ انتباههم • فما كان أشد دهشة الأمير حين رأى أن قضية شخصية لا تتعلق بأحد غيره قد أثارت هذا الاهتمام كله لدى جميع الحضور •

قالت آجلايا وهى تقترب من الأمير برصانة ووقار :

- الأفضل أن تسوَّى هذه القضية فوراً ، وأن تسوَّىها «بنفسك» •
اسمح لنا بأن نكون جميعاً شهوداً لك • انهم يريدون أن يطلعوك يا أمير •
فعليك أن تبرئ نفسك تبرئة ساطعة باهرة • انتهى لأبتهج سلفاً حين أتصور أنك فاعل ذلك •

وهتفت الجنرالة تقول :

- أنا أيضاً أتمنى أن يوضع حدٌ لهذا الادعاء الدنيء ! لقنهم درساً قاسياً يا أمير ، لا ترأف بهم ! لقد صدَّعوا رأسى بهذه القضية ، ما أكثر ما زعلت لك • انه لمن الشائق أن تراهم • ادعهم الى المجيء • سنبقى هنا •
فكرة آجلايا فكرة حسنة •

ثم قالت الجنرالة تسأل الأمير « شتت • • • » :

- هل سمعت عن هذه القضية يا أمير ؟

- نعم ، سمعت عنها ، بل سمعت عنها في بيتكم أتم • اننى أحب كثيراً أن أرى هؤلاء الشبان •

- هم عديمون * ، أليس كذلك ؟

قال ليديف وهو يتقدم خطوة ويكاد يرتجف من شدة الانفعال :

- لا ، ليسوا عديمين بمعنى الكلمة ، هم فئة أخرى ، من نوع على حدة ! ابن اختي يزعم أنهم أكثر غلوّاً من العديمين • تخطئ يا صاحب السعادة اذا ظننت أنك بحضورك ستربكهم وتخيفهم • هؤلاء فتية لا يهابون أحداً • ان بين العديمين أناساً مثقفين على الأقل ، حتى لقد تجد بينهم علماء • أما هؤلاء فهم يفوقون العديمين لأنهم أناس عمليون • صحيح أنهم منحدرون من العديمين ، ولكنهم منحدرون منهم على نحو غير مباشر ، بطريقة مواربة • انهم لا يعبرون عن أنفسهم بمقالات فى الجرائد ، بل يمشون الى الوقائع رأساً • لا يعنيه مثلاً أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه ولا جدوى منه * ، ولا يعنيه أن يبرهنوا على أن من الواجب تقسيم روسيا وتجزئتها • لا ، هذه أمور لا تهمهم • وانما هم يرون أن من حقهم ، متى رغبوا فى شئ من الأشياء ، أن لا يصدّهم عنه أى عائق وأن لا تعترضهم أية عقبة ، فاذا اقتضى الأمر أن يقتلوا ثمانية أشخاص فعلوا دون تردد • اننى انصحك يا أمير بأن لا ...

لكن الأمير كان قد مضى يفتح الباب للزوار • وقال وهو يتسهم :

- انك تتجنى عليهم يا ليديف • صحيح أن ابن اختك قد سبّب لك متاعب كثيرة • لا تصدّقه يا اليزابت بروكوفينا • أوكد لك أن أمثال جورسكى وأمثال دانييلوف * ليسوا الا حالات فردية استثنائية • أما هؤلاء الشبان ... فانهم مخطئون لا أكثر !... على اننى أؤثر أن لا أتحدث معهم هنا أمام الجميع • معذرة يا اليزابت بروكوفينا : سوف يدخلون ،

فأقدمهم اليكم وأعرّفكم بهم ، ثم أخرج معهم • ادخلوا أيها السادة ،
تفضلوا •••

والحق أن الأمير كانت تشغل باله وتعذبه فكرة أخرى • كان يتساءل أليست هذه مكيمة مدبرة لهذه الساعة بعينها ولهذا الاجتماع نفسه ، لا من أجل أن تتاح له فرصة الانتصار ، بل من أجل أن تهيأ له أسباب التلطف بالخزى والعار ؟ ومع ذلك كان يأخذ على نفسه انقياده لمثل هذا « الشك الشاذ الحيث ! » ، ويشعر من ذلك بحزن شديد ، حتى لكأنه يمكن أن يموت من الشعور بالخزى والعار على الفور لو استطاع أحد أن يكشف أن فكرة كهذه الفكرة قد خطرت بباله أو دارت في خلد له ! وحين ظهر الزوار كان مستعداً أصدق الاستعداد لأن يعد نفسه أخط الناس قاطبةً من الناحية الأخلاقية بين هؤلاء الذين يحيطون به •

دخل خمسة أشخاص : أربعة قادمين جدد ، ووراءهم الجنرال ايفولجين الذى كان يبدو منفعلاً أشد الانفصال ، وكان يبدو أن نوبة فصاحة وبلاغة قد استولت عليه واستبدت به • قال الأمير يحدث نفسه مبتسماً : « لا شك فى أن هذا معنى ! » • وكان كولينيا قد تسلسل الى الجماعة ، فهو يتحدث بجرارة الى هيبوليت ، احد أفراد العصابة ، وكان هيبوليت يصفى الى كلامه مبتسماً ابتسامة عدم التصديق •

أجلس الأمير القادمين • انهم شبان فى غضارة العمر ، يكادون أن يكونوا مراهقين ، حتى ليستغرب المرء أن يُستقبلوا بهذا الاحتفال كله وهم فى هذه السن • وحين رأى ايفان فيدوروفتش هؤلاء الصبيان الأغرار - وكان يجهل كل شيء عن هذه « القضية الجديدة » ولا يفهم منها شيئاً البتة - استاء استياءً شديداً ، حتى لقد كان يمكن أن يعترض ويحتج لولا أن صدّه عن ذلك ما لاحظته لدى امرأته من اهتمام غيف بشئون الأمير الشخصية ، وهو اهتمام كان يبدو له فى الوقت نفسه غريباً عجيباً • على

أنه بقي ولم ينسحب ، مدفوعاً الى ذلك بحب الاطلاع من جهة ، وبحب فعل الخير من جهة أخرى ، فلهذا يمكن أن يكون نافعا ، ولعله يستطيع أن يفرض مهابته بما له من سلطة . ولكن التحية التي حياه بها الجنرال ايفولجين من بعيد حين دخل ، قد أضربت استياءه من جديد ، فاكفهر وجهه وقرر أن يلوذ بالصمت فما ينطق بحرف .

بين الزوار الشبان الأربعة كان واحد منهم على الأقل في نحو الثلاثين من عمره . انه ذلك الملاكم الليوتنانت المتقاعد الذي كان أحد أفراد عصبة روجوين ، والذي كان يتباهى بأنه أعطى في الماضي صدقة قدرها خمسة عشر روبلاً . في وسع المرء أن يقدّر أنه قد انضم الى الآخرين رقيقاً يشد أزرهم ويثبت عزيمتهم ويهب الى مساعدتهم اذا اقتضى الأمر . وبين صحبه الثلاثة ، كانت المنزلة الأولى وكان الدور الأكبر لذلك الذي يسمى « ابن بافلشتيف » ، رغم أنه كان هو نفسه يعرف نفسه للناس باسم آتيب بوردوفسكى . انه فتى أشقر ؛ في وجهه بثور ؛ ثيابه فقيرة قذرة ؛ يبلغ رذنجوته من الاتساخ أن كميّه يلعمان ؛ تدل صدرته الوسخة المعقودة أزرارها حتى النحر على أنه لا يلبس تحتها قميصاً ؛ يلفع عنقه مندبل من حرير أسود ملطخ متلفف كجبل ؛ يده غير مغسولتين ؛ نظرتة تعبّر عن مزيج من سذاجة ووقار ؛ نحيل الجسم أميل الى الطول ؛ يبدو في نحو الثانية والعشرين من العمر ، لا يكشف وجهه لا عن أى سخرية ولا عن أى تفكير ، لا يقرأ المرء في هذا الوجه الا امتلاءً غيياً بليداً بما يظن أنه حقه ، والا حاجة غريبة مستمرة في الوقت نفسه الى الشعور بأنه مساء اليه مهان ؛ يتكلم بلهجة فيها انفعال ؛ وفي كلامه المتدفق السريع المتردد الذي يضيع جزءاً من الألفاظ ما قد يوهم بأنه ثناء أو بأنه أجنبي مع أنه روسى صرف .

وكان يصحبه ابن اخت ليديف الذي سبق أن عرفه القارىء ،

وكان يصحبه كذلك هيبوليت . ان هيبوليت فتى فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر . ينم مجياه عن ذكاء ، لكن وجهه دائم التقلص ، يحمل طابع المرض الرهيب الذى يأكله أكلاً . انه نحيل أشد النحول ، حتى لكأنه هيكل من عظم ؛ وهو صاحب اللون ، كالشمع اصفراراً ؛ له عيانان ساطعتان متقدتان ، وعلى خديه بقعتان حمراوان ؛ وهو لا ينفك يسعل بغير انقطاع ؛ وكل كلمة من كلماته ، وكل زفرة من زفراته تصحبها حشرة تقريباً . واضح أنه بلغ المرحلة الأخيرة من مرض السل ، فاذا رآه المرء قدّر أنه لن يعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة . كان يبدو مرهقاً ، فما كاد يدخل حتى تهالك على كرسي قبل أن يجلس الآخرون . وقد دخل رفاقه وهم يفتعلون شيئاً من الأبهة والاحتفال . كان يبدو عليهم أنهم مرتبكون بعض الارتباك ، لكنهم يصطنعون خطورة الشأن كأنهم يخشون أن يعرضوا مهابتهم للضياع . وذلك وضع يتعارض تعارضاً غريباً مع ما اشتهروا به من أنهم أناس يستخفون بالسفاسف الاجتماعية ولا يعبأون بالآداب السخيفة التافهة ، ومن أنهم لا يعرفون الا قانوناً واحداً هو مصلحتهم .

دمدم « ابن بافلستشيف » يقول معرفاً بنفسه :

- آتيب بوردوفسكى .

وقال ابن أخت ليديف معرفاً بنفسه ، ناطقاً اسمه بوضوح وتميز كأنما هو يعتز به :

- فلاديمير دوكتورنكو :

وتمتم الليوتان القديم قائلاً فى التعريف بنفسه :

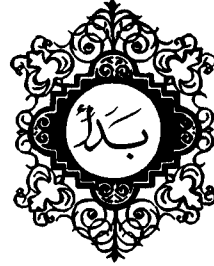
- كيلر .

وصاح الزائر الأخير يقول بنبرة غير متوقعة :

- هيو ليت تيرتيف *

جلس هؤلاء كلهم صفّاً واحداً أمام الأمير • حتى اذا فرغوا من تقديم أنفسهم وذكر أسمائهم عبسوا وقطبوا ، وأخذوا ينقلون طاقياتهم من يد الى يد ، زيادةً في اظهار قوة البأس • كان كل منهم متأهباً لأن يتكلم ، لكنه يلتزم الصمت ، ويتخذ وضع الانتظار والاستفزاز ولسان حاله يقول : « لا يا صاحبي ، لن نتخذنا وتقرر بنا ! » • ان المرء ليحس أنهم متى قيلت الكلمة الأولى التي تحطم الجليد فسوف يندفعون في الكلام جميعاً في آن واحد يقاطع بعضهم بعضاً ما استطاع الى ذلك سبيلاً !

الفصل الثامن



الأمير الكلام فقال :

- لم أكن أتوقع أن أرى أحداً منكم يا سادة •
ولقد كنت أنا نفسي مريضاً حتى هذا اليوم • أما
قضيتك (قال الأمير ذلك متجهاً بالكلام الى آتیب
بوردوفسكى) ، فانتى قد عهدت بها منذ شهر الى جبريل آرداليونوفش ،
كما أنبأتك بذلك فى حينه • ثم انتى لا أرفض أن أبحث معكم الأمر
بنفسى • ولكن لا بد أنكم توافقونى على أن بحث هذا الأمر الآن •••
فاذا كنتم تقدرون أن البحث لن يطول فانتى اقترح عليكم أن تتقلوا معى
الى غرفة أخرى ••• ان عندى فى هذه اللحظة أصدقاء ، وأرجوكم أن
تصدقوا أن •••

فقاطعه ابن اخت ليديف قائلاً ببلهجة فيها شدة وتسلط ، دون أن
يرفع صوته مع ذلك :

- أصدقاء ••• ليكن عندك ما شئت من أصدقاء ••• ولكن اسمح
لنا أن نعلن أنك كان فى وسعك أن تسلك معنا سلوكاً أقرب الى الأدب
والتهذيب ، وأن لا تجعلنا نتظر فى حجرة المدخل ساعتين •

فما ان قال ابن اخت ليديف ذلك الكلام حتى اندفع آتیب
بوردوفسكى يقول فجأة وقد بلغ ذروة الانفعال :

- طبعاً ... طبعاً ... وأنا أيضاً ... انظروا كيف يتصرف
الأمراء ! .. أنا لست خادمك ! ولكننى ... ولكننى ...

كانت شفتاه تختلجان وكان صوته يرتجف من فرط الغيظ ، وكان
الزبد يخرج من فمه فقاعات تنفجر ، وكان تدفقه فى الكلام يبلغ من
السرعة أنه أصبح بعد عشر كلمات لا يفهم البتة •

وقال هبوليت بصوت صارخ :

- نعم هذه أساليب الأمراء !

ودمد الملاك قائلاً :

- لو كان هذا السلوك موجهاً الىّ ، أغنى لو أن هذا الأسلوب
استُعمل معى لا مع بوردوفسكى ، لكنك ...
قال الأمير :

- صدّقوا يا سادة أننى لم أعلم بوجودكم هنا الا منذ دقيقة واحدة •
وعاد ابن أخت ليديف يقول :

- لسنا نخشى أصدقاءك مهما يكن شأنهم يا أمير ، لأننا على حق •
واستأنف هبوليت زعيقه فقال وقد ازدادت حرارته ازدياداً واضحاً:
- من ذا الذى أجاز لك - اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال -
من ذا الذى أجاز لك أن تعرض قضية بوردوفسكى لحكم أصدقاءك ؟ قد
لا نكون مستعدين لأن نقبل هذا الحكم • اتنا نعرف ما عسى أن تكون قيمة
هذا الحكم !

ارتبك الأمير من هذا الاستهلال أشد الارتباك ، فلم يعرف كيف
يدس فى زحمة هذا الكلام جواباً • قال :

- لكننى سبق أن قلت يا سيد بوردوفسكى ان فى وسعنا ، اذا أنت

لم تشأ أن تشرح الأمر هنا ، فى وسعنا أن تنتقل ، الى غرفة أخرى على الفور . وأعود فأقول لك اننى لم أعلم بحضوركم الا فى هذه البرهة .
وعاد بوردوفسكى يغنم وهو يلقي حوله نظرة ريب وشك ،
ويزداد اندفاعاً على قدر شعوره بقلّة الثقة :

- ولكن لا يحق لك ، لا يحق لك ، لا ... لا يحق لك ... ان
اصدقك ... هه ! لا يحق لك ...

ثم توقف عن الكلام فجأة كأن شيئاً قد تحطم فيه ؛ ومال بجسمه الى
أمام ، ثم حدّق الى الأمير ، كما لو كان يريد أن يسأله ، حدّق اليه
بعينه الحسرتين اللتين تخذّدهما أوردة صغيرة حمراء .
فبلغ الأمير من الدهشة فى هذه المرة أنه لم يجد كلمة يقولها ،
ونظر هو أيضاً الى بوردوفسكى محملاً .
وفجأة نادته الزابت بروكوفينا قائلة له :

- اقرأ هذا فى هذه الجلسة نفسها يا ليون نيقولايفتش : فان له علاقة
مباشرة بقضيتك .

وأسرعت تم الى جريدة أسبوعية ساخرة * ، ودلّته باصبعها على
مقالة فى الجريدة .

ان ليديف الذى كان يريد أن تنظر اليه الجئالة نظرة حسنة كان
قد استل تلك الجريدة من جيبه لحظة دخول الزوار ، فوضعها تحت بصر
الجئالة مشيراً لها الى عمود مؤشّر عليه بالقلم الرصاص . فاذا بالأسطر
القليلة التى اتسع وقتها لأن تقرأها تحدث فى نفسها أعماق الاضطراب .
تمتم الأمير يقول خجلاً أشدّ الحجل :

- لعل الأفضل أن لا تكون القراءة جهاراً . سأطلع على المقالة
وحدى ... فيما بعد ...

فما كان من اليزابت بروكوفينا الا أن انتزعت الجريدة من يدي
الأمير بحركة تمللم وتذمر ، قبل أن يستطيع الأمير أن يلقي على المقالة
غير نظرة سريعة ، ثم مدّت الجريدة الى كوليا وقالت له :
- طيب ... اقرأ أنت ... اقرأ على الفور ... وقرأ بصوت
عال ... اقرأ جهاراً ... هل سمعت ؟ جهاراً ، جهاراً ! ...

ان اليزابت بروكوفينا امرأة شديدة الاندفاع ، حتى لقد ترفع
في بعض الأحيان جميع المواسي دون تفكير ناضج ، وتقلع في عرض البحر
رغم العواصف • شعر ايفان فيدوروفتش بقلق • وبينما كان الحضور
حائرين مرتبكين منتظرين ، فض كوليا الجريدة وأخذ يقرأ ، بصوت
عال ، المقالة التي أسرع ليديف يدله عليها :

كادحون واحفاد أمراء

قصة سرقة وقعت اليوم وتقع كل يوم

تقدم ! اصلاح ! عدالة ! ...

« تحدث أمور غريبة في هذه البلاد التي يسمونها روسيا المقدسة ،
في هذا الزمان ، زمان الاصلاحات والمشروعات الرأسمالية الكبرى
والروح القومية ونزوح الملايين الى البلاد الأجنبية في كل عام وتشجيع
الصناعة واضطهاد العاملين ، النخ الخ • واذ أننا لن نفرغ من هذا التعداد
أيها السادة فلنتقل الى الواقع :

« ان حدثاً غريباً قد وقع لواحد من أبناء أرستقراطيتنا الاقطاعية
المتوفاة رحمها الله ! ... ان أسلاف هؤلاء الأبناء قد خسروا كل شيء في
القمار بالروليت • ووجد آباؤهم أنفسهم مضطرين أن يخدموا في الجيش
مرشّحين أو ملازمين ، ثم ماتوا على وجه العموم تحت وطأة ملاحقات
قضائية لمخالفات « بريئة » ارتكبوها في حق أموال ائتمنوا عليها وعيّنوا
لها محاسبين •

« ويشبُّ أولادهم ، كبطل قصتنا ، كما يشب أولاد بلهاء ، أو يقبض عليهم لجرائم يقرّفونها فيبرّتهم القضاء ليتيح لهم فرصة اصلاح حالهم ، أو يسيبون فضيحة من تلك الفضائح التي تدهش الرأى العام ويجلّلون بعارٍ جديد هذا العصر الذى أصبح يجلّله العار بما فيه الكفاية منذ الآن . »

« لقد عاد صاحبنا ابن سلاله الأمراء ، عاد الى روسيا من سويسرا منذ ستة أشهر بعد أن اتّبِعَ هنالك علاجاً لشفايته من البلاهة (كذا) ، وهو يرتجف برداً تحت معطف ليس له حتى بطانته . يجب أن نعترف بأنّه كان امرأً ذا ... فبصرف النظر هنا عن المرض اللطيف الذى سافر الى سويسرا لمعالجته (معالجة البلاهة ، تصوروها هذا !) ، فإن أمره يأتى مصداقاً للمثل الروسى القائل : « لا حظّ الا لقشة من الناس » * . وسنعرض عليكم الوقائع فاقضوا فى المسألة بأنفسكم : لقد أصبح هذا الشاب يتيماً فى طفولته منذ نعومة أظفاره ، لأن أباه مات ، فيما يقال ، حين كان سيمثل أمام المجلس الحربى لتبديده فى القمار أموال سريته كضابط ملازم ، وربما أيضاً لأنه جلد بكثير من السخاء واحداً من مرءوسيه (تذكّروا الزمان القديم أيها السادة !) . وحين مات أبوه كفله وربّاه ملاكٌ روسى محسن غنى جداً . ان ذلك الملاك - ولنطلق عليه اسم « ب ... » - كان يملك فى ذلك العصر الذهبى أربعة آلاف نفس ، أربعة آلاف من الأتقان (الأتقان ! هل تفهمون معنى كلمة الأتقان هذه أيها السادة ؟ أما أنا فأنى لا أفهمها ولا بد لى من الرجوع الى معجم لأدرك معنى هذه الكلمة . » فالمرء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد *) . أغلب الظن أنه كان واحداً من أولئك الروس الكسالى الطفيلين الذين يقضون حياتهم الحالية العاطلة فى الخارج ، ففى الصيف يذهبون الى مناطق المياه

المعدنية وفي الشتاء ينتقلون الى « قصر الأزهار » بباريس ، فينفقون هنالك مبالغ خرافية ! نستطيع أن نؤكد أن ثلث الاناوات التي كان الفلاحون في عهد القنانة يدفعونه لأسيادهم انما كان ينتقل الى يدي مالك « قصر الأزهار » (الرجل السعيد !) •

« مهما يكن من أمر ، فان ذلك الرجل اللاهى قد نشأ اليتيم كما يُنشأ أمير ، فعين له مربين ومربيات (جميلات طبعاً !) كان يأتي بهن من باريس • ولكن هذا الابن الأخير من أبناء تلك السلالة الشهيرة كان أبله • فرغم جميع الجهود التي بذلتها المربيات اللواتي تم اغراؤهن في « قصر الأزهار » ، فان تلميذنا قد بلغ العشرين من عمره دون أن يستطيع تعلم أية لغة أجنبية ، وحتى دون أن يستطيع تعلم اللغة الروسية • على أن جهل اللغة الروسية أمر يفتقر ! وأخيراً نبتت فكرة سخيفة في ذهن ذلك السيد « ب • • • » ، الذى كان يؤمن بالعبودية ، فاعتقد ان فى الامكان أن يكتسب الأهل ذكاءً فى سويسرا • على أن هذه الفكرة لا تخلو من منطق : فان هذا الطفيل ، هذا الملاك ، كان لا بد أن يتصور أن أى شيء يمكن أن يشتري بالمال كسائر الأشياء ، ولا سيما فى سويسرا • وهكذا وقفت خمس سنين على معالجة سليل الأمراء فى تلك البلاد تحت اشراف استاذ شهير ، وأُنْفَقَتْ فى ذلك آلاف الروبلات • ولم يصبح الأبله رجلاً ذكياً بطبيعة الحال ، ولكن يزعم بعضهم أنه أخذ يشبه الانسان بعض الشبه •

« هنامات « ب • • • » فجأة • ولم يترك أى وصية طبعاً • وكانت أعماله وشؤنه المالية فوضى ، مضطربة أشد الاضطراب • وورثه جمهور من الورثة الطامعين الشرهين الذين لا يكثر أحد منهم بأن يعمل أبناء سلالة نبيلة وأن يساعدهم من باب الاحسان على الشفاء فى سويسرا • من بلاهة وُلِدوا بها • ولكن سليل أسرة الأمراء الذى تحدث عنه حاول أن

يخدع البروفسور الذى يعالجه ، فأخفى عنه نبأ موت الرجل المحسن اليه ، واستطاع بذلك أن يحمله على أن يعالجه بالمجان سنتين آخرين • ولكن البروفسور نفسه كان دجّالاً بارعاً : فانه اذ أطلقه أخيراً أن لا يقبض شيئاً من مريض يلتهم الطعام بشهوة ابن الخامسة والعشرين من العمر ، ألبس قدميه لبادتي حذاءيه ، وخلع على كفيه معطفاً مهترئاً ، ورحّله على نفقته الى روسيا فى الدرجة الثالثة من القطار ليخلّص منه سويسرا •

« يمكن أن يُظن أن الحظ قد أدار ظهره لبطلنا • ولكن الحقيقة ليست هذه : ان الحظ الذى يحلو له أن يبيد بالمجاعة أقاليم بأكملها قد أغدق جميع نعمه على هذا الارستقراطى الصغير دفعةً واحدة ، مثله فى ذلك كمثّل تلك السحابة التى تحدّثنا عنها حكاية كريلوف *، تلك السحابة التى مرت فوق حقول يابسة من الظمأ ، ثم مضت تهطل مطراً غزيراً فوق البحر المحيط • ففى اللحظة التى كان فيها صاحبنا سليل الأمراء عائداً من سويسرا الى بطرسبرج مات رجل من أقرباء أمه (سليل أسرة من التجار طبعاً) ، هو تاجر عجوز ذو لحية لم يخلف أولاداً وكان يتّمسك الى ملة « الراسكولنيك » * ، وقد ترك ميراثاً لا يمارى فيه أحد ، يقدر ببضعة ملايين عدداً ونقداً (شئ يمكن أن يسوّى قضيتنا ، أليس كذلك أيها القارئ العزيز ؟) ، ترك هذ الميراث لصاحبنا سليل أسرة الأمراء ، لصاحبنا البارون الذى كان يُعالج فى سويسرا من البلاهة !

« عندئذ تغيّرت الموسيقى • ان صاحبنا البارون الواضع على حذاءيه لبّادتين ، رأى نفسه بعد أن غازل امرأة مغناجاً شهيرة ، رأى نفسه محاطاً بجمهور من الأصدقاء والأصحاب • لقد اكتشف لنفسه أقرباء • أكثر من ذلك أن آسمات نبيلات كثيرات أصبحن يحترقن رغبةً فى أن يتزوجنه زواجاً شرعياً ، اذ هل يمكنهنّ أن يجدن عريساً أفضل من شاب ارستقراطى ، صاحب ملايين ، أبله ؟ عريساً اجتمعت فيه كافة المزايا

فى آن واحد ؟ ما كان لهنَّ أن يعثرن على عريس مماثل ، ولو بحثن عنه
فى ضوء قنديل ، أو أوصين عليه وفقاً لمقاييس !... .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول وقد بلغ ذروة الاستياء :
- هذا ... أصبحت لا أفهمه !

ودوَّت صيحات تعجب فى كل جهة من الجهات •
قالت اليزابت بروكوفينا آمرة :
- فليقرأ ، فليقرأ مهما يكلف الأمر • يا أمير ، اذا كفَّ عن القراءة

فسوف نزل !

وكان واضحاً أن اليزابت بروكوفينا كانت أقلهنَّ سيطرة على
نفسها وكبحاً لجماحها !

لم يكن ثمة مفر • تابع كوليناً قراءته مختلج الصوت محمراً أشد
الاحمرار من فرط الانفعال :

« وبينما كان صاحبنا المليونير الجديد يشعر انه انتقل الى السماء
السابعة ان صحَّ التعبير ، حدث ما لم يكن متوقفاً قط • فى ذات صباح جاء
اليه زائر ذو وجه هادئ قاس ، يرتدى ثياباً بسيطة لكنها محترمة • وأخذ
هذا الرجل الذى تتميز لفته بأنها مهذبة رضىة معقولة فى آن واحد ،
والذى يدل تفكيره على أنه لبرالى الاتجاه ، أخذ يشرح له الغرض من
زيارته بايجاز • هو محام مشهور جاء من قبل شاب وكَّله عنه فى تولى
شئونه • وليس ذلك الشاب الا ابن المرحوم « ب • • • » ، رغم أنه يحمل
اسماً آخر • ان المرحوم « ب • • • » الذى كان فى شبابه رجلاً داعراً
فاسقاً قد أغوى فتاةً فقيرة شريفة كانت رغم حالة العبودية التى هى فيها
قد تربت تربيةً أوروبية (واضح أنه استعمل ما كانت تجيزه القنانة
للسادة من حقوق) • فلما لاحظ ما ستنتجيه هذه العلاقة من ثمرة قريبة

لا مفرّ منها أسرع يزوج الفتاة لرجل نبيل الخلق كان له عمل صغير بل وكانت له وظيفة رسمية ، وكان يحب الفتاة منذ عهد بعيد • وقد ساعد العروسين في أول الأمر ، ولكن الزوج لم يلبث أن رفض مساعداته أنفةً وشمماً وكبرياء • فما انقضى بعض الوقت حتى كان « ب ••• » قد نسي شيئاً فشيئاً صديقته القديمة والطفل الذي وُلد له منها • ثم مات ، كما ذكرنا ، دون أن يكتب وصية •

« فهذا الابن الذي وُلد لصاحبنا « ب ••• » بعد زواج أمه ، والذي تبناه الرجل الطيب القلب فحمل الولد اسمه ، أصبح بغير مورد بعد وفاة الرجل الطيب زوج أمه ، وأصبح مسئولاً عن أمه المريضة الكسيحة • كانت أمه تعيش في إقليم ناءٍ من الأقاليم • وقد استقر هو في العاصمة ، فكان يجني رزقه شريفاً باعطاء دروس خاصة في بيوت أسر من التجار ، فاستطاع بذلك أن يقيم أوده وأن يعول نفسه خلال مدة دراسته في المدرسة الثانوية ، ثم استطاع بعد ذلك أن يتابع دراسة عليا بغية التمهؤ لمركز في المستقبل • ولكن ما الذي يمكن أن تدرّ لك دروس خاصة تعطيكها في بيوت أسر من التجار الروس الذين يدفعون أجر الساعة عشر كوبكات ، ولا سيما حين يكون عليك أن تساعد أمّاً مريضة كسيحة ؟ وقد ماتت أمه في الاقليم النائي بعد ذلك ، فلم يكد يخرجها هذا مما هو فيه من عسر وضيق •

« والآن يُطرح سؤال : ما عسى يكون تفكير صاحبنا سليل الأمراء في هذا الأمر اذا هو أراد العدل والانصاف ؟ أغلب الظن أنك تقدّر أيها القارئ العزيز أنه قال لنفسه : ان « ب ••• » قد غمرني بفضلته ونعمه طوال حياته • وقد أنفق عشرات الألوف من الروبلات على تعليمي ومرياتي وعلاجي بسويسرا • وأنا اليوم مليونير ، بينما أرى ابنه النبيل ذاك ، البريء من أخطاء أب طائش نساً ، يرهق نفسه في اعطاء دروس

خاصة . ان كل ما أنفق على أبوه انما ينبغي أن يعود اليه شرعاً وانصافاً !
ان جميع تلك المبالغ الضخمة التي ضحى بها أبوه فى سبيلى ليست ملكى
فى حقيقة الأمر . فلولا خطأ ارتكبه الحظ الأعمى لكان ينبغي أن تثول الى
ابن « ب » ، ، وأن ينتفع هو بها لا أنا ، لأن « ب » لم يقفها على
الا من باب النزوة أو الحفة أو النسيان . فاذا كنت رجلاً شريفاً كل
الشرف ، مرهف الشعور تماماً ، عادلاً كل العدل ، لوجب أن أهب لابن
ذلك الرجل الذى أحسن الىّ وأنعم علىّ نصف ميراثي . ولكن لما كنت
رجلاً مقتصداً قبل كل شيء ، وكنت أعلم حق العلم أن مطالبته لا تستند
الى أى أساس قانونى فسوف امتنع عن مقاسمته ملاينى . على اننى اذا
لم أردّ اليه الآن ، على الأقل ، عشرات الألوف من الروبلات التى انفقها
على أبوه لشفائى من بلاءتى ، فانى أرتكب عملاً دنيئاً كل الدناءة ، حقيراً
كل الحقارة (نسي أن يضيف الى ذلك ان عمله يكون عندئذ « مقتراً الى
بعد النظر وحسن التبصر بالعواقب ») . ان المسألة لا تعدو أن تكون مسألة
ضمير وعدل وانصاف . اذ ما الذى كان يمكن أن أصير اليه لو أن
« ب » لم يكفلنى ولم يتولّ تربيتى ، وانصرف باهتمامه الى ابنه
لا الىّ ؟ » .

« ولكن لا ، أيها السادة ! ان أبناء سلاطات الأمراء لا يفكرون فى
الأمور هذا التفكير ! هل تصدّقون أن صاحبنا سليل أسرة الأمراء هذا
الذى نشأ بسويسرا لم يستجب أى استجابة للحجج الدامغة والأدلة
القوية التى ساقها له المحامى (يجب أن نذكر هنا أن المحامى حين قبل
أن يتولى شئون مصالح الشاب انما فعل ذلك من باب الصداقة ، ورغم ارادة
الشاب تقريباً) موضحاً ما توجه قواعد الشرف وأخلاق الكرم ومبادئ
العدل ، بل ويوجه أسسط احساس بالمصلحة ذاتها .

« ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان وأمكن احتماله . ولكن اليكم

ما حدث مما لا يمكن غفرانه ولا يمكن أن يلتبس له عذر بأى مرض من الأمراض . ان هذا المليونير الذى لم يخلع لبادتى البروفسور عن حذاءيه الا منذ برهة قصيرة ، لم يستطع حتى أن يفهم أن هذا الشاب النحيل الذى كان يضنى جسمه فى العمل حتى لكأنه يقتل نفسه به قتلاً لم يتجه اليه طالباً الرأفة به والتصدق عليه ، وانما هو يطالبه بدين صريح ، وأن هذا الدين اذا كانت تعوزه المؤيدات القانونية فهو التزام يوجبه الحق . ذلك عدا أن الشاب لم يطلب شيئاً بنفسه ، لأن أصدقاء له هم الذين كانوا يتدخلون فى الأمر نيابةً عنه . وهذا هو صاحبنا سليل أسرة الأمراء يصطنع هيئة التعاضم ، ويستل من جيبه ورقة نقدية قدرها خمسون روبلاً ، فيقدمها الى الشاب النحيل صدقةً وقحة ، وهو يشعر بكل ما يشعر به من كبر وخلاء ، مليونير يعتقد أن كل شىء مباح . ألا تصدقون أيها السادة ؟ انكم مستاءون ثائرون ! انكم تطلقون صيحات استنكار ! ومع ذلك فان هذا هو ما حدث ! طيبى أن المبلغ قد رُدَّ اليه فوراً ، بل ألقى فى وجهه القاءً ان صح التعبير !

« ما عسى تكون نتيجة هذه القضية ؟ لما كانت هذه القضية تفتقر الى أساس قانونى ، فانه لم يبق الا أن تُعرض على الرأى العام . فنحن لذلك ننقل هذه القصة الى قرائنا مؤكدين لهم صحتها وصدقها . وقد نظم أحد شعرائنا الساخرين المشهورين ، نظم بهذه المناسبة أبياتاً جميلة تستحق أن يكون لها مكان فى وصف أخلاقنا وعاداتنا لا بالاقليم وحدها بل بالعاصمة أيضاً . فاليكم هذه الأبيات :

ظل ليوفا اعواما خمسة *

يختال بمعطف شنابير * *

يقضى وقته على عادته

فى انواع السفاسف والترهات *

حتى اذا عاد وعلى حذاءيه لبادتان ضيقتان •

ورث مليون روبل •

انه يرتل صلواته بالروسية •

لكنه يسرق الطلاب •

حين انتهى كولا من القراءة أسرع يناول الأمير الجريدة ، ومضى
يعتصم بركن من الأركان دون أن يقول كلمة واحدة ، دافئاً وجهه في
يديه • كان يشعر بخزى لا يطاق ، وكانت نفس الطفل التي هي نفسه
لماً تألف بعدُ حقارات الحياة ودناءاتها ، فهو مضطرب الآن اضطراباً يفوق
كل وصف • كل يخيّل اليه أن شيئاً خارقاً للعادة قد حدث ، شيئاً سيعقبه
انهيار كل شيء من حوله دفعةً واحدة ، وأنه سبب هذه الكارثة كلها
بمعنى من المعاني ، لأنه قرأ هذه المقالة بصوت عالٍ جهاراً •

واتفق أن جميع الحضور قد راودهم شعور من هذا النوع •

أحست الفتيات بضيق وحياء • وكبحت اليزابت بروكوفينا غضبها
الذى بلغ أقصى حد • ولعلها كانت تشعر بندم مر على اقحامها نفسها في
الأمر • فهي الآن صامتة لا تتكلم •

أما الأمير فكان يعاني المشاعر التي يعانيها الأفراد الحجولون جداً
في مثل هذه الحالات : كان يحس بعار هذه الأفعال التي يقوم بها هؤلاء
الزوار احساساً بلغ من القوة أنه لبث لحظةً من الوقت لا يجرؤ أن ينظر
الى أحد • وكان بتسين وفاريا وجانيا وحتى ليديف ، كانوا جميعاً
يشعرون بخجل شديد واضطراب قوى • وأغرب ما في الأمر أن هبوليت
و « ابن بافلشتشيف » كان يبدو عليهما ، هما أيضاً ، أنهما مدهوشان • وكان
ابن أخت ليديف يصطنع هيئة عدم الرضى وقلة الارتياح • واحتفظ
الملاك وحده بهدوء كامل ، فكان يرفع شاربيه بوقار ويفض عينيه لا حرجاً

بل تواضعاً كريماً ، وشعوراً بانتصار صريح • كان واضحاً أنه معجب
بالمقالة اعجاباً شديداً •

دمدم ايفان فيدوروفتش يقول :

- الشيطان وحده يعلم مصدر هذه الدناءة ! لكأن خمسين حقيراً
اشتركوا فى تلفيق حكاية تبلغ هذا المبلغ من الحسة !

قال هيوليت وهو يرتجف أشد الارتجاف من فرط الغضب :

- اسمح لى أن أسألك ، يا سيدى العزيز : بأى حق تفترض هذه
الافتراضات الجارحة ؟

وجمجم الملاكم يقول وقد ارتعش فجأة وأخذ يعقف شاربيه بينما
أخذت كفاه وجسمه تهتز بارتعادات :

- هذه ، هذه ، هذه اهانة ، يا جنرال ، بالنسبة الى سيد نييل ،
بالنسبة الى رجل يجب أن تسلم بأنه سيد نييل •

قال الجنرال بلهجة قاسية وقد اغضبه هذا الكلام أشد الغضب :

- أولاً أنا لست « سيدك العزيز » ؛ وثانياً ليس عندى ما أوضحه
لك أو أعتذر به اليك •

ثم نهض وتحرك حركة من يريد أن ينزل من الشرفة دون أن
يضيف كلمة واحدة ، ولكنه لبث واقفاً على الدرجة العليا ، مديراً
للحضور ظهره • لقد أزعجه أن يرى اليزابت بروكوفينا لا يخطر ببالها
أن تنصرف ، حتى فى هذه اللحظة •

هتف الأمير يقول وقد امتلأ غماً وانفعلاً :

- أيها السادة ، أيها السادة ، دعوا لى أن أشرح لكم أمرى ، وأن

أبسط لكم عذرى • أرجوكم : دعونا نتكلم على نحو يتيح لنا أن يفهم بعضنا عن بعض • ليس لدى ما أعقَّب به على هذه المقالة ، فلا تعودنَّ إليها • ولكن اعلّموا أيها السادة أن ما حوته باطل كل البطلان • أقول لكم ذلك لأنكم تعلمونه كما أعلمه • ألا ان هذا عار • لسوف يدهشنى أشد الدهشة أن أعرف أن واحداً منكم هو الذى كتب هذه المقالة •

قال هيبوليت :

– حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف عن هذه المقالة شيئاً • ولست أؤيدها أو أحبها •

وأضاف ابن ليديف الى ذلك قوله :

– أما أنا فكنت أعلم بوجودها ••• لكننى لو استشرت لما نصحت بنشرها • ان نشرها سابق لأوانه •

فتم ابن « بافلشتشيف » يقول :

– وأنا كنت على علم بأمرها ، ولكن هذا حقى ••• اننى •••

فسأله الأمير وهو يتفرس فيه مستطعاً مستغرباً :

– ماذا ؟ أنت الذى لفقت هذا كله ؟ مستحيل •••

قال ابن أخى ليديف :

– ليس من حَقِّك أن تلقى أسئلة كهذه الأسئلة •

– أنا لم أزد على أن عبّرت عن دهشتى من أن يكون السيد

بوردوفسكى قد استطاع أن ••• ولكن ••• على كل حال أريد أن أقول

لكم ما يلى : ما دمت قد نشرتم هذه القضية فى الجرائد ، فانتى لا أرى

السبب الذى أغضبكم منذ قليل حين أردت أن أتكلّم فيها أمام أصدقائى •

دمدمت الزابت بروكوفيتنا تقول مستاءة :

– أخيراً !•••

ونفذ صبر ليديف فانسل فجأة بين الكراسى وهو يكاد يكون
محموماً ، وقال :

- هناك شيء نسيت أن تضيفه يا أمير : هو أنك اذا كنت قد
استقبلت هؤلاء الناس وأصغيت الى كلامهم ، فانما فعلت ذلك مدفوعاً اليه
بنبل نفسك وطيب قلبك . لم يكن من حقهم أن يطالبوا بذلك ، لا سيما
وأنت عهدت بالقضية الى جبريل آرداليونوفتش . فهذا دليل جديد على
فرط طيب قلبك . وانك لتنسى أيضاً يا سمو الأمير أنك الآن فى صحبة
أصدقاء مختارين مصطفين لا تستطيع أن تضحى بهم فى سبيل هؤلاء
السادة . فأنت وحدك تملك أن تطرد هؤلاء ، وتلك مهمة يسرنى أنا
كثيراً ، بصفتى صاحب البيت ، أن ...

نادى الجنرال ايفولجين يقول من آخر الغرفة بصوت قوى :

- هذا صحيح كل الصحة .

وبدأ الأمير يتكلم فقال :

- كفى يا ليديف ، كفى ...

غير أن صيحات استياء واستنكار تفجرت فى كل جهة ففطت كلمات
الأمير ...

وصرخ ابن اخت ليديف صرخة غلب صوتها سائر الأصوات ،
فقال :

- لا يا أمير ، معذرة ؛ أصبح هذا غير كافٍ . يجب الآن أن توضع
النقط على الحروف ، اذ لا يبدو أن هناك رغبة فى فهمنا . ان بين الحضور
هنا من يدلى بحجج قانونية فيهددنا بالطرد . ولكن هل تظن يا أمير أننا
نبلغ من الحماقة حدّاً يجعلنا لا ندرك نحن أنفسنا أن قضيتنا خالية من أى
أساس قانونى وأن القانون لا يجيز لنا أن نطالبك بروبل واحد ؟ اتنا

لكوننا ندرك هذه الحقيقة انما نقف على أرض الحق الانساني ، الحق الطبيعي ، الحق الذي يمليه الحس السليم والضمير الصادق . ليس أمراً ذا بال أن لا يكون ذلك الحق مكتوباً في نص قانوني بال عتيق ، لأن الانسان الذي يملك عواطف نبيلة ومشاعر شريفة ، أعنى الانسان الذي يملك سداد الرأي وسلامة الحكم ، من حقه أن يبقى وفياً لتلك العواطف والمشاعر ، حتى في الحالات التي تغفلها نصوص ائقانون المكتوب ولا تتكلم عنها . واذا كنا قد جئنا الى هنا دون أن نخشى الطرد (الذي هددتنا به منذ لحظة) بسبب مطالباتنا - ذلك أننا « نطالب » ولا « نرجو » - وبسبب أن مجيئنا قد تمَّ في ساعة غير مناسبة (والحق أن مجيئنا لم يتم في ساعة متأخرة ، وانما أنت حجزتنا في حجرة المدخل) ، فاننا لم نفعل ذلك الا لأننا قدَرنا أن نجد فيك انساناً سديد الرأي سليم الحكم أى انساناً ذا شرف وضمير .

» نعم ، هذه هي الحقيقة ، فنحن لم نأتك أذلاء نستجدي نعمك وآلامك كطفيلين ، وانما دخلنا رافعين رؤسنا ، أحراراً لا يقدمون رجاءً بل يبلِّغون انذاراً (هل سمعت ؟ انذاراً لا رجاءً . لاحظ هذا) . انا تلقى عليك هذا السؤال جهاراً دون لف أو دوران : أعتقد أنك على حق أم على باطل في قضية بوردوفسكى ؟ هل تعترف بأن بافلشستيف قد أحسن اليك وأنعم عليك ، وبأنك ربما كنت مديناً له بحياتك ؟ واذا كنت تعتقد بهذه الحقيقة الواضحة فهل تتوى وهل تجد أن من الانصاف والعدل ، بعد أن أصبحت مليونيراً ، أن تعوّض عن الضرر ابن بافلشستيف الذي يعيش الآن حياة بؤس ، دون أن يصدِّك عن ذلك أنه يحمل الآن اسم بوردوفسكى ؟ أنعم أم لا ؟

» فاذا قلت « نعم » ، أى اذا كنت تملك ما تسمونه بلفقكم شرفاً وضميراً ، وما نسميه نحن سلامة الحكم - وهذه تسمية أصدق - فما عليك

الا أن تبادر الى ارضائنا ثم لا نعودنَّ الى الكلام في هذا الأمر أبداً ؛ ما عليك
الا أن تسوَّى القضية دون أن تنتظر منا لا رجاء ولا شكراً ، لأن ما ستفعله
ان تفعله من أجلنا بل من أجل العدل .

« أما اذا رفضت ارضاءنا ، أى اذا قلت « لا » ، فستصرف فوراً ،
فتقف القضية عند هذا الحد . لكننا نحرص على أن نقول لك دون تهيب ،
أمام هؤلاء الناس جميعاً ، انك انسان غليظ الفكر منحنط الثقافة ، وانك
لن يحق لك بعد الآن أن تعد نفسك رجلاً ذا شرف وضمير . انا نطالب ،
ولا نستجدي !... » .

وتوقف ابن أخت ليديف عن الكلام . لقد تكلم مهتاجاً أشد
الاهتياج .

وتتم بوردوفسكى يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

– انا نطالب ، نطالب ، نطالب ، ولكننا لا نستجدي !... .

بعد الخطبة التى ألقاها ابن أخت ليديف سرت فى الجمع حركة
شاملة ، وسُمت دمدمات متصلة ، رغم أن كل واحد كان يميل ميلاً
واضحاً الى أن يتحاشى اقحام نفسه فى هذه القضية ، الا ليديف الذى
كان مهتاجاً مضطرباً . (شئ غريب : ان ليديف ، على كونه مناصراً
للأمير ، كان يبدو عليه نوع من الاعتزاز العائلى اثناء سماع كلام ابن اخته ؛
فكان يُجِيل على الحضور نظرات يتجلى فيها رضى خاص ومسرة واضحة)
بدأ الأمير يتكلم فقال بصوت خافت بعض الحفوت :

– فى رأيي أن فى كلامك نصف حقٍ يا سيد دوكتورنكو ، بل اننى
لأسلم بأن فيه أكثر من نصف حق ، وكان يمكن أن أوافقك كل
الموافقة لولا أنك أغفلت فى حديثك أمراً من الأمور . وهذا الأمر لا أملك

أن أقوله لك على وجه الدقة ... المهم أن أقوالك يعوزها شيء ما حتى تكون صحيحة كل الصحة . ولكن فلتكن في القضية نفسها أيها السادة ، فهذا أولى . قولوا لي : لماذا نشرتم تلك المقالة ؟ ألا تعتقدون أن فيها من النائم بقدر ما فيها من ألفاظ ؟ رأيي أيها السادة أنكم ارتكبتم عملاً منحطاً .

- اسمح لي ...

- يا عزيزي ...

- آه ... هذا ... هذا ...

كذلك صاح الزائرون معاً في آن واحد وقد ظهرت عليهم علامات
الاهتياج .

وأجاب هيبوليت بصوته الخاد :

- أما عن المقالة فقد سبق أن قلت لك انني لا أؤيدها ولا أحبها ، لا أنا ولا غيري . ان كاتبها هو هذا (قال هيبوليت ذلك وهو يوميء بيده الى الملاك الجالس قربه) . أقر لك بأنها مقالة غير لائقة ، كتبها رجل غير مثقف ، بأسلوب هو أسلوب أمثاله من العسكريين المحالين على التقاعد . انه رجل أحقر ، وانه فوق ذلك غشاش ، أوافقك على هذا . وأنا أكرر هذا الكلام على مسامحة كل يوم . ولكنني أضيف الى ذلك انه كان على بعض الحق : ان النشر حق يملكه جميع الناس شرعاً ، ويملكه اذن بوردوفسكي . واذا تضمنت المقالة سخافات فهو مسئول عنها . أما الاعتراض الذي أعلنته منذ قليل باسمنا جميعاً ، وهو الاعتراض الخاص بحضور أصدقاؤك ، فاني أعتقد أن من الضروري أن أعلمكم أيها السادة أن ذلك الاعتراض لم يكن له من هدف الا تأكيد حقنا . فالواقع أننا كنا نريد أن يكون ثمة شهود ، حتى لقد اتفقنا نحن الأربعة على هذا قبل أن

ندخل ، فنحن نقبل الشهود أيًا كانوا ، ولو كانوا أصدقاءك ، اذا ما داموا لا يستطيعون أن يحددوا حق بوردوفسكى (وهو حق بديهى كالرياضيات) فمن الأفضل أن يكونوا أصدقاءك ، لأن ذلك يظهر الحقيقة بوضوح أكبر وجلاء أعظم .

قال ابن أخيت ليديف مؤيداً :

– نعم لقد اتفق رأينا على ذلك .

فاعترض الأمير يقول مدهوشاً :

– اذا كانت هذه نيتكم ، فلماذا أحدثتم تلك الجلبة كلها وذلك الشغب كله منذ الكلمات الأولى من الحديث بيننا ؟

كان الملاكم يحترق رغبة فى أن يقول كلمة ، فتدخل يقول بلهجة فيها تودد (نستطيع أن نخمن أن وجود السيدات قد أثّر فى نفسه تأثيراً قوياً) :

– فيما يتعلق بالمقالة يا أمير ، أعترف لك بأننى كاتبها فعلاً ، رغم أن صديقى المراض قد نقدها نقداً لاذعاً ، وذلك أمر أغفره له كما أغفر له ما عداه بسبب حالة الضعف التى هو فيها . ولكنى كتبها ونشرتها على شكل رسالة صحفية فى جريدة واحد من أصدقائى الخللص . الأشعار وحدها ليست لى ، وانما نظمها شاعر ساخر مشهور . وقد قرأت المقالة لبوردوفسكى ، حتى اننى لم أقرأها كلها ، فأسرع يأذن لى بنشرها . لاحظ اننى لم أكن فى حاجة الى موافقته لنشرها . فالشر حق عام ، نبيل ، مفيد ؛ وانى لأرجو يا أمير أن تكون أنت نفسك أكثر لبرالية من أن تنكر حق النشر ...

– لست أنكر حق النشر ، ولكن لا بد لك أن تعترف بأن مقالاتك

تتضمن ...

- تتضمن أشياء قاسية بعض القسوة ... أهذا ما تريد أن تقول ؟
ولكن هذه الأشياء لها ما يسوّغها من اعتبارات المصلحة الاجتماعية بمعنى
من المعاني . عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك . ثم هل يستطيع المرء أن
يفوّت فرصة كهذه الفرصة ؟ نحن لا يهنا الجناة ، فمصلحة المجتمع
فوق كل مصلحة ! أما فيما يتعلق بما ورد في المقالة من أمور ليست
صحيحة صحة تامة ، أقصد بعض المبالغات في التعبير ، فيجب عليك أن
تعترف أيضاً أن العبرة بالغاية المنشودة والنية المعقودة ، والهدف المقصود .
فإنما المهم أن نقدّم مثلاً مفيداً ، ثم يتسع وقتنا بعد ذلك للمناقشة في
حالات خاصة . وأما فيما يتعلق بالأسلوب أخيراً ، فهو الفكاهة الساخرة
طبعاً ، والناس جميعاً يكتبون بهذا الأسلوب ؛ عليك أن تعترف أنت
نفسك بذلك ، ها ها ها ! ...

صاح الأمير يقول :

- لكنكم ضللتكم الطريق أيها السادة ، أؤكد لكم ذلك . لقد نشرتم
المقالة وأتم تصورون أنني لا أريد أن أصنع شيئاً البتة للسيد بوردوفسكى ،
فحاولتم على أساس هذا الافتراض أن تخيفوني وأن تنتقموا مني . ولكن
ما أدراكم ؟ لعلني أُنَوِي إرضاء السيد بوردوفسكى . وهأنا ذا أعلن لكم
الآن بقول قاطع على رموس الأشهاد أن تلك هي نيتي ...

صاح الملاكم يقول :

- أخيراً ! هذا قول حكيم نبيل يصدر عن إنسان حكيم نبيل !

وتتهدت الزبابت بروكوفينا وهي تقول على غير إرادة منها :

- رباه !

ودمدم الجنرال قائلاً :

- هذا لا يطلق !

وتضرع الأمير يقول :

- اسمحوا لى يا سادة ، دعونى أبسط لكم القضية ! منذ نحو خمس أسابيع ، زارنى فى « ز » ، يا سيد بوردوفسكى ، زارنى مندوبك رجل الأعمال تشيياروف • لقد رسمت له فى مقالتك صورة أخاذاً جداً ، ياسيد كيلر (أضاف الأمير ذلك ضاحكاً وهو يلتفت نحو الملاك) ، غير أن هذا الشخص لم يعجبني البتة فى الواقع • لقد أدركت منذ أول لحظة أن تشيياروف هذا هو المحرّض فى القضية كلها ، وأنه هو الذى ورطك يا سيد بوردوفسكى ، مستغلاً بساطتك ... أقول لك هذا بكل صراحة •

ثأناً بوردوفسكى يقول وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ :

- لا يحق لك ... اننى ... أنا ... أنا لست بسيطاً ...

وقال ابن اخت ليديف بلهجة الواعظ الناصح :

- لا يحق لك أن تقترض مثل هذه الافتراضات !

وصات هيوليت يقول بصوته الحاد :

- هذا شيء رهيب فطيع ! هذا افتراض جارح كاذب مهين ، وليس له بالقضية أية علاقة !

أسرع الأمير يبرىء نفسه قائلاً :

- عفوكم عفوكم يا سادة ! اعذرونى ، أرجوكم • لقد قدّرت أن الأفضل أن يتكلم الطرفان كلاهما بصراحة تامة • ولكن لكم ما تشاءون • أجبّت تشيياروف باننى لغايى ببطرسبرج قد أسرعّت أرجو صديقاً لى بأن يتابع هذه القضية ، وقلت لتشياروف اننى سأقلّ النتيجة اليك أنت يا سيد بوردوفسكى • ولا أكنكم أيها السادة أن تدخل تشيياروف هو الذى جعلنى أحسّ بأن فى الأمر غشاً • آه ... لا تزعلوا يا سادة ، ناشدكم الله ! لا تزعلوا !

كذلك هتف الأمير مرتاعاً حين رأى بوردوفسكى يعود الى الاحتياج،
وحين رأى اصحابه يهبون الى الاعتراض والاحتجاج • وتابع كلامه
فقال :

- حين أقول ان المطالبة بدت لى محاولة غش ونصب ، فان قولى
لا يمكن أن يتاولكم أتم • لا تنسوا أننى كنت لا أعرف حينئذ أى واحد
منكم • حتى لقد كنت أجهل أسماءكم • اننى لم أحكم على الأمر الا من
خلال تشيياروف • اننى أتكلم بصورة عامة ••• ليتكم تعلمون كم خُدت
منذ آل الى هذا الميراث !

قال ابن أخت ليديف بلهجة السخرية :

- أنت ساذج سذاجة رهية يا أمير !

وزاد هيبوليت على ذلك فقال :

- وأنت عدا ذلك أمير ومليونير ! فرغم ما قد تملك من طيبة النفس
وبساطة القلب ، لا يمكنك أن تخرج على القانون العام •
فقال الأمير يجيب بسرعة :

- جائز ، جائز جداً ، وان كنت لا أفهم عن أى قانون عام تتكلم •
ولكنى أتابع كلامى ، فأرجوكم أن لا تهتاجوا فى غير داعٍ الى احتياج ،
لأننى - أقسم لكم - لا أتوى أن أسئ الى شعوركم البتة ! ما هذا
يا سادة ؟ ألا يستطيع المرء أن يقول كلمة صدق دون أن تثوروا ؟

» لقد ذهلت حين علمت بوجود شاب يقال انه « ابن بافلشتشيف » ،
وحين علمت بحالة البؤس التى ذكر لى تشيياروف أنه يعيش فيها • ان
بافلشتشيف كان المحسن الىَّ وكان صديق أبى (آه يا سيد كيلر ، لماذا
كبت فى مقالاتك عن أبى أشياء تبلغ هذا المبلغ من البعد من الحقيقة ؟ انه
لم يسلب أموال سريته فى يوم من الأيام ، لا ولا أساء معاملة أحد

مرءوسيه قط • انتى مؤمن بهذا كل الايمان • كيف استطاعت يدك أن
تخط نسيمة كهذه النسيمة ؟) • وان ما قلته عن بافلشتشيف لا يمكن
قبوله البتة • أنت تزعم أن هذا الانسان النزيل كان داعراً فاسقاً ، وأنه
كان خفيفاً طائشاً • وأنت تقول هذ الكلام بثقة كاملة كأنما أنت تذكر
الحقيقة • والواقع خلاف هذا تماماً • لقد كان بافلشتشيف أعفّ انسان
فى العالم ! وكان عدا ذلك عالماً مرموقاً ؛ كان يرسل عدداً من الشخصيات
العلمية ، وقد وهب أموالاً كثيرة فى سبيل تقدم العلم • أما عن شهامته
وأعماله الحيرة ، فقد كنت على حق حين كتبت أنتى كنت فى ذلك الحين
شبه معنوه أو أبله أو أبل ، وانتى كنت لا أستطيع أن أدرك من ذلك
شيئاً البتة (ومع هذا كنت أنكلم الروسية وأفهمها) • ولكننى الآن قادر
على أن أقضى برأى فى كل ما أتذكره

صرخ هبوليت يقول :

- اسمح لى دعك من العاطفيات • ما نحن بأطفال • لقد كنت
تريد أن تمضى الى جوهر القضية • والساعة الآن قد تجاوزت التاسعة •
لا تنس هذا !

فأسرع الأمير يوافق قائلاً :

- ليكن يا سادة ، أريد ذلك حقاً • هأنا ذا أعود الى القضية • قلت
لنفسى بعد شئ من الشك والارتياب : لعلنى مخطئ ، ولعل بافلشتشيف
أن يكون له ابن • غير أن الشئ الذى كان يبدو لى صعب التصديق هو أن
يعمد ذلك الابن ، بمثل هذه الحفة كلها ومثل هذا الطيش كله ، أن يفضح
سراً ولادته وأن يبلطخ شرف أمه علانية ، للناس قاطبة • ذلك أن
تشيباروف كان قد هدّنى باذاعة الفضيحة ونشرها

هتف ابن ليديف يقول :

- يا للحماقة !

وصاح بوردوفسكى قائلاً :

- لا يحق لك ، لا يحق لك !... ..

وانبرى هيوليت يقول بصوته الحاد وقد احتاج احتياجاً شديداً :

- ليس الابن مسؤولاً عن فجور أبيه ، وليست الأم مذنبه !

فقال الأمير خجلاً :

- فهذا فى رأى أدعى الى مداراة الأم والامتناع عن التشهير بها .

قال ابن أخت ليديف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

- لست ساذجاً فحسب يا أمير ، فلعلك تتجاوز حدود البساطة ..

وسأله هيوليت بصوت لم يبق فيه شئ طبعى :

- وأى حق كان لك أنت ؟

- لم يكن لى أى حق ، لم يكن لى أى حق

كذلك أسرع الأمير يضيف الى كلامه . ثم تابع فقال :

- أنت هنا على صواب ، أعترف لك بذلك . لكننى لم أستطع أن

أمتنع عن ذلك التفكير . ثم سرعان ما قدّرت أن انطباعى الشخصى يجب

أن لا يكون له فى القضية أى تأثير . فمتى كان من واجبى أن أَرْضَى

السيد بوردوفسكى عرفاناً بجميل بافلشتشيف وتحيةً لذكراه ، فسيان

أن أحترم السيد بوردوفسكى وأن لا أحترمه واذا كنت قد حدثكم

عن ترددى أيها السادة ، فانتى لم أفعل ذلك الا لأنه كان قد بدا لى أنه

من غير الطبيعى أن يكشف عن سرِّ أمه للناس كافة الخلاصة : أن

هذا الدليل خاصةً هو الذى أقنعنى بأن تشيياروف لا بد أن يكون وغداً

ورط السيد بوردوفسكى فى هذا الغش باحتيالات محسوبة .

صاح الزوار يقولون :

— آه .. هذا كلام يتجاوز جميع الحدود !

حتى أن بعضهم اندفع ينهض •

— أيها السادة ! ان هذا الدليل نفسه هو الذى جعلنى أحمّن أن السيد بوردوفسكى المسكين التيس هذا لا بد أن يكون متخلف العقل محدود الذكاء ، فهو لا يحسن أن يدفع عنه مكر الماكرين وأن يحمى نفسه من أحابيل الغشاشين ، فزادنى ذلك شعوراً بواجب مساعدته ما دام « ابن بافلشتشيف » ، وذلك بثلاث طرق : أن أدراً عنه تأثير تشيياروف أولاً ، وأن أوجهه وأرشدّه باخلاص ومجبة ثانياً ، وأن أدفع له عشرة آلاف روبل ثالثاً ، وهو المبلغ الذى يساوى فى حسابى ما أنفقه على بافلشتشيف •

صاح هيوليت يسأل :

— ماذا ؟ عشرة آلاف روبل فقط ؟

وهنف ابن أخت ليديف :

— هيّا يا أمير ، لست قديراً فى علم الحساب ، أو قل انك قدير فى علم الحساب أكثر مما يجب ، رغم ما تصطنعه من بساطة •

وأعلن بوردوفسكى قائلاً :

— لا أقبل هذه العشرة آلاف روبل !

فهمس الملاكم يقول له بسرعة وهو يميل عليه من وراء كرسى هيوليت :

— اقبل يا آتيب !

وزأر هيوليت يقول :

- اعتذر يا سيد مشكين ! عليك أن تفهم أننا لسنا أغنياء • نحن لسنا أولئك الأغنياء المفرطين في العباوة الذين يفترضهم ضيوفك فيما يبدو ، لسنا أولئك الأغنياء الذين تتصورهم هاته السيدات اللواتي ينظرون إلينا وهنَّ يتسمن ابتسامة احتقار ، أو يتصورهم خاصةً هذا السيد الذي ينتمى الى المجتمع الراقي (قال ذلك وهو يشير الى أوجين بافلوفتش) ، هذا السيد الذي لم أتشرف بمعرفته طبعاً ، ولكنني سمعت عنه أشياء كثيرة •••

قال الأمير بحرارة مضطربة :

- اسمحوا لي ، اسمحوا لي أيها السادة • لقد أخطأتم فهمي مرة أخرى • يجب أن أذكر أولاً أنك يا سيد كيللر قد قدَّرت ثروتني تقديرأ بعيداً عن الصحة كل البعد : فأنا لم أقبض ملايين ، ولعل ما أملكه لا يزيد على نُمْنٍ أو عُسْرٍ ما تظنون • ثم ان ما 'أنفق على' بسويسرا ليس عشرات ألوف الروبلات : لقد كان شنايدر يتلقى ستمائة روبل في السنة ؛ وهذا المبلغ نفسه لم يُدفع الا في السنين الثلاث الأولى • أما عن المربيات الجميلات ، فان بافلشتشيف لم يأت بمرية من باريس في يوم من الأيام • فهذه أيضاً نسيمة • أعتقد أن المبالغ التي 'أنفقت على' تقل كثيراً عن عشرة آلاف روبل ، لكنني وافقت على ذلك الرقم • لا بد لكم من التسليم بأنني اذا كنت أرد ديناً فلا أستطيع أن أقدم للسيد بوردوفسكي مبلغاً أكبر من ذلك الدين ، مهما تكن عاطفة المحبة التي أحملها له • ذلك أن الشعور بأبسط قاعدة من قواعد النوق يمنعني من أن أظهر بمظهر من يتصدق عليه ، في حين أنني أرد اليه ديناً • لا أدري أيها السادة كيف يمكن أن لا تفهموا عني هذا الأمر • ولكنني أردت أن أفعل أكثر من ذلك ، فأهبط للسيد بوردوفسكي هذا العائر الحظ ، صداقتي ودعمي • لقد لاحظت أنه خُدع وأنه غُرِّرَ به ، فلولا ذلك لما رضى عن دناة

كدناءة نشر ذلك المقال الذى كتبه السيد كيللر مشهراً فيه بأمه • ولكن ما بالكم تفضون من جديد أيها السادة ؟ لسوف ينتهى بنا الأمر الى أن لا نفهم شيئاً البتة •

وختم الأمير كلامه قائلاً :

— صدق ظنى اذن ! لقد اقتنعت الآن اقتناع المشاهدة والعيان بأن تخينى كان صحيحاً صادقاً •••

قال الأمير ذلك متعشياً ، دون أن يلاحظ أن سامعيه كانوا أثناء محاولته تهدئتهم يزدادون غضباً وغيظاً •

سألوه حائقين :

— ماذا ؟ بماذا اقتنعت ؟

أجاب الأمير :

— استطعت أن أرى السيد بوردوفسكى على مهل ، فعرفت حقيقة بنفسى ••• انه رجل برىء ، ولكن الجميع يخدعونه ويفررون به • هذا انسان لا يملك عن نفسه دفاعاً ، فيجب على اذن أن أحميهِ • ثم ان جبريل آرداليونوفتش الذى كلفته بمتابعة هذه القضية ثم لم تصلنى أنباؤه منذ مدة طويلة بسبب سفرى وبسبب مرضى أثناء الأيام الثلاثة التى قضيتها ببطرسبرج ، اقول ان جبريل آرداليونوفتش هذا قد أطلعنى على نتائج تحرياته منذ ساعة ، فى أول لقاء بيننا ، فأبلغنى أنه كشف النقاب عن جميع مرامى تشيياروف وأهدافه ، وأنه يملك البرهان القاطع على أن جميع افتراضاتى عن هذا الرجل صحيحة • أنا أعلم تماماً أيها السادة أن كثيراً من الناس يعدوننى أبله • فلما سمع تشيياروف اننى انسان مبسوط الكف ، وان اتزاع المال منى أمر يسير ، قدّر بأن فى وسعه أن يخدعنى بسهولة ، مستغلاً ما أحمله للمرحوم بافلشتشف من شعور الشكر والامتان ومن

عاطفة العرفان بالجميل • غير أن الأمر الأساسي ••• ما بالكم أيها السادة ؟ أرجو أن تصفوا الى كلامى حتى النهاية ••• أقول ان الشيء الأساسي هو أنه قد ثبت الآن بالدليل القاطع أن السيد بوردوفسكى ليس ابن بافلشتشيف ! لقد أبلغنى جبريل أرداليونوفتش هذا الاكتشاف منذ هنيهة ، مؤكداً أن ثمة أدلةً ثابتة وبراهين قاطعة • فما قولكم ؟ انه ليصعب على المرء أن يصدق هذا الكلام بعد جميع ما عوملت به من اهانة واذلال ! واسمعونى جيداً : ان ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة • أنا نفسى لمّا أصدقها بعد • أؤكد لكم اننى لا أستطيع تصديقها • ما زلت أشك فى صحتها ، لأن جبريل أرداليونوفتش لم يتسع وقته لأن يذكر لى جميع التفاصيل • غير أن هناك واقعة أصبحت ثابتة لا مجال للشك فيها ، هى أن تشيياروف وغد ، فهو لم يقتصر على أنه أضلّ السيد بوردوفسكى المسكين ، وانما أضلكم أتم جميعاً أيها السادة ، أتم الذين جثم الى هنا على نية نيلة وغاية شريفة هى أن تدعوا صديقكم وأن تسندوه (ذلك أنه فى حاجة الى الدعم والسند ، فهذا أمر أفهمه حق فهمه) • لقد ورطكم تشيياروف ، ورطكم جميعاً فى قضية غش ونصب واحتيال ، لأن هذه القضية ليست الا غشاً ونصباً واحتيالاً •

هتف الجميع يقولون من كل جهة :

- كيف ؟ غش ونصب واحتيال ؟ كيف هذا ؟ ليس هو « ابن بافلشتشيف » ؟ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

أصبحت عصبة بوردوفسكى كلها فى حالة انصحاق !

قال الأمير :

- هى قضية غش ونصب واحتيال طبعاً ! اذا ثبت الآن أن السيد بوردوفسكى ليس ابن « بافلشتشيف » ، فان مطالبته تصيغ غشاً ونصباً

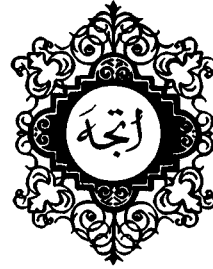
واحتيالاَ لا أكثر (هذا اذا كان يعرف الحقيقة طبعاَ) • ولكن الواقع أنه خُدع وغُرِّرَ به • اننى ألج على هذه النقطة لأبرئه من الجرم ، وأزعم أن بساطته تجعله جديراً بالشفقة عاجزاً عن الاستغناء عن سند يدعمه • والا كان يمكن أن يعد شريكاً فى الفس وال نصب والاحتيال فى هذه القضية • لكننى مقتنع منذ الآن أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ؛ ولقد كنت أنا نفسى على هذه الحال الى حين سفرى الى سويسرا • كنت أتمتم بأقوال غير مترابطة ••• كنت أريد أن أعبرَ فما توافينى الكلمات ••• اننى أدرك هذا ! وأنا أشفق عليه وأرثى لحاله وأتعاطف معه ، لأننى كنت فى مثل وضعه تقريباً • فمن حقى اذن أن أتكلم عن هذا الأمر • وانى لأعلن لكم فى الختام ، رغم أنه لا وجود الآن لأحد هو « ابن بافلشتشيف » ، أعلن لكم اننى ما زلت متمسكاً بقرارى ، ما زلت مستعداً لأن أدفع للسيد بوردوفسكى مبلغ عشرة آلاف روبل ، نتيجةً لذكرى بافلشتشيف • لقد كنت أنوى ، قبل السيد بوردوفسكى ، أن أقف هذا المبلغ على انشاء مدرسة ، تمجيداً لذكرى بافلشتشيف • ولكن أصبح يستوى الآن عندى أن أقف هذا المبلغ على انشاء مدرسة أو أن أهبه للسيد بوردوفسكى ، لأنه ان لم يكن « ابن بافلشتشيف » فهو قريب من ذلك ، ما دام قد اعتقد صادقاً بأنه ابن بافلشتشيف ، نتيجةً للتضليل والخداع الذى كان ضحيته • استمعوا الى جبريل آرداليونوفتش أيها السادة • فلنفرغ من هذا الأمر دفعةً واحدة • لا تقضوا ، ولا تضطربوا ! اجلسوا ! سيشرح لكم جبريل آرداليونوفتش القضية كلها ؛ وانى لأعترف بأننى أحترق شوقاً الى معرفة التفاصيل • هو يقول انه ذهب الى بسكوف يا سيد بوردوفسكى ، وقابل أمك التى لم تمت كما زعمت المقالة ••• اجلسوا ايها السادة ! اجلسوا !

جلس الأمير هو نفسه ، واستطاع أن يجلس أصدقاء السيد بوردوفسكى الذين كانوا يضطربون ويتحركون ولا يستقرون على حال •

لقد ظل ربع ساعة يتكلم بعاطفة حارة ، وصوت قوى ، وتدفق سريع ،
واندفاع شديد ، محاولاً أن يسيطر على صيحات التعجب وصرخات
الاستنكار ! وهو الآن نادم نداماً مرّاً على أن أفلتت منه تعبيرات وأقوال
كان يتمنى أن لا تفلت . فلولا أنه استثير وأُخرج عن طوره ان صح
التعبير لما أجاز لنفسه أن يفصح بمثل هذا الوضوح وهذه القسوة عن
بعض تخميناته ، ولما أجاز لنفسه أن ينساق هذا الانسياق في صراحة زائدة
لا داعي اليها ولا محلّ لها . فما ان جلس حتى أحسّ بندامة أليمة
تقبض قلبه : انه لا يكتفى الآن بمؤاخذة نفسه على أنه «أهان» بوردوفسكى
اذ وصفه على رموس الأشهاد بأنه مصاب بالمرض الذى ذهب هو الى
سويسرا لمعالجته ، بل يزيد على ذلك فيلوم نفسه على أنه عامله معاملة فظة
خالية من اللطف والنزق اذ عرض عليه العشرة آلاف روبل الموقوفة على
انشاء مدرسة ، عرضها عليه صدقةً أمام جميع الناس . قال الأمير يخاطب
نفسه : « كان ينبغى لى أن أنتظر فأقدمها اليه غداً فى خلوة بنى وبينه .
هذه خرافة لا سبيل الى اصلاح ما أفسدته ! نعم ، انتى أبله ، أبله
حقاً ! » . بهذا ختم الأمير كلامه لنفسه وهو يشعر بأشدّ الحجل والحزى
والعار !

بعد ذلك ، تلبيةً لدعوة الأمير ، تقدم جبريل آرداليونوفتش الذى
ظل متنجساً حتى ذلك الحين ولم ينطق بكلمة واحدة ، تقدم نحو الأمير
وجلس الى جانبه وأخذ يشرح ، بصوت واضح رصين ، المهمة التى عهد
به اليها ، فاقطعت الأحاديث فجأة ، وأخذ جميع الحضور ، ولا سيما
بوردوفسكى ، يصيخون السمع باهتمام قوى وفضول شديد .

الفصل التاسع



جبريل آرداليونوفتشس بالكلام في أول الأمر الى
بوردوفسكى الذى كان مضطرباً اضطراباً واضحاً
وكان يحدث الىه متبهاً أشد الانتباه ، وقد
امتألت نظرتة دهشة • قال له جبريل
آرداليونوفتشس :

- لا شك فى أنك لن تنكر ولن تعجد ، جاداً ، أنك وُلدت بعد
انقضاء عامين على الزواج الشرعى بين أمك المحترمة وأبيك الموظف
بوردوفسكى • انه لمن السهل جداً تحديد تاريخ ميلادك بواسطة وثائق
ثابتة وسجلات دقيقة • أما تزوير هذا التاريخ فى مقالة السيد كيللر ،
ذلك التزوير الذى يهين كرامة أمك ويهين كرامتك فى آن واحد ، فان
تفسيره الوحيد هو خيال السيد كيللر الذى كان يظن أنه يخدم بذلك
مصلحتك اذ يجعل حقك أوضح • لقد صرَّح السيد كيللر بأنه قرأ لك
المقالة قبل نشرها ، ولكنه لم يقرأها كاملةً ... • فمما لا شك فيه أنه
أسقط من قراءته تلك الفقرة ...

قاطع الملاكم يقول :

- فعلاً ، لم أقرأ له تلك الفقرة • ولكن جميع الوقائع انما نقلها
الى شخص مطلع ، وأنا ...

قال جبريل آرداليونوفتشس :

- معذرة يا سيد كيلر ، دعنى أكمل كلامى • أعددك بأننا سنتكلم
عن مقاتلتك فى الوقت المناسب ، فقدم الينا عندئذ ما لديك من تفسيرات •
أما الآن فالأفضل أن تتبع تسلسل العرض • لقد حصلت ، بمصادفة محض
وبمعاونة أختى باربارا أرداليونوفنا بتسنيها ، حصلت من صديقتها الحميمية
فيرا ألكسيفنا زوبكوفنا ، وهى أرملةٌ صاحبة أملاك ، على رسالة كان
المرحوم نيقولاى آندريفتشس بافلشتشيف قد كتبها إليها منذ أربعة وعشرين
عاماً حين كان فى الخارج • وبعد أن اتصلت بفيرا ألكسيفنا اتجهت ، عملاً
بإشاراتها ، الى كولونيل محال على التقاعد اسمه تيمونى فيدوروفتشس
فيازوفكين ، وهو واحد من أقرباء المرحوم كان صديقاً حميماً له •
فاستطعت أن أحصل منه على رسالتين أخريين من نيقولاى آندريفتشس
مكتوبتين من الخارج هما أيضاً • ان المقابلة بين التواريخ والوقائع المذكورة
فى هذه الوثائق الثلاث تثبت بدقة رياضية لا تدع مجالاً لأى اعتراض أو
أى شك ، أن نيقولاى آندريفتشس عاش فى ذلك الأوان بالخارج خلال
ثلاث سنين ، وأن سفره الى الخارج انما تمّ قبل ولادتك بسنة ونصف سنة
على وجه الدقة يا سيد بوردوفسكى • وأنت تعلم أن أمك لم تخرج من
روسيا طول حياتها ••• ولن أقرأ لك الآن تلك الرسائل لأننا فى ساعة
متأخرة ، ولكننى أقرر الواقعة فحسب • فاذا شئت يا سيد بوردوفسكى أن
نلتقى غداً عندى ، بحضور شهودك (وليكن عددهم ما شئت !) وأن تجيء
بخبراء فى الخطوط ، فلسوف تضطر الى التسليم بالحقيقة البديهة التى
أذكرها لك • انى من هذا لعلى يقين • ومتى سلّمت بهذه الحقيقة، سقطت
القضية كلها من تلقاء نفسها طبعاً •

استولت على جميع الحضور ، من جديد ، حركة انفعال عميق •
ونهبض بوردوفسكى عن كرسيه فجأة • وقال :
- اذا كان الأمر كذلك فقد خُذعت اذن ، نعم خُذعت ، ولكن ليس

تشيباروف هو الذى خدعنى ، ويرجع هذا الى زمن بعيد ، بعيد جداً !
لا أريد خبراء فى الخطوط ، ولن أجيء اليك • اننى أصدّقك • وأتنازل
عن دعواى ••• وأرفض العشرة آلاف روبل ••• استودعكم الله ••!
قال بوردوفسكى ذلك وهو يتناول قبعته ، ويدفع كرسيه ، ويهمُّ
أن يخرج •

فقال له جبريل آرداليونوفتش بلهجة تصطنع الرقة والعذوبة :
- ابق قليلاً ، ولو خمس دقائق ، اذا كنت تستطيع ذلك ، يا سيد
بوردوفسكى • ان هذه القضية تكشف أيضاً عن أمور خطيرة الشأن جداً ،
ولا سيما بالنسبة اليك ، وهى على كل حال أمور تبلغ غاية الطرافة • وفى
رأىي أنك لا تستطيع أن تستغنى عن معرفة هذه الأمور ، وقد تنبسط
نفسك على أنك جلوت المسألة كلها وأخرجتها الى النور •••

جلس بوردوفسكى دون أن يقول كلمة واحدة ، جلس مائلاً
برأسه الى أمام ، على وضع انسان مستغرق فى التفكير أعماق الاستغراق •
وجلس أيضاً ابن أخت ليديف الذى كان قد قام ليخرج معه • لقد كان
يبدو عليه الاضطراب والتشوش ، وان لم يفقد هدوء الأعصاب ولا هيئة
الوقاحة • وكان هيويت مظلم الوجه حزين النفس ، مصعوقاً بعض
الشيء ، هذا الى أن نوبة من سعال قد استبدت به فى تلك اللحظة وبلغت
من القوة أن منديله تلتطخ كله بالدم • وبدت على الملاك امارات الانشده ،
وهتف يقول مخاطباً بوردوفسكى بلهجة فيها مرارة :

- آ ••• ألم أقل لك يا آتيب ••• منذ مدة ••• أمس الأول •••
ان من الجائز فعلاً أن لا تكون ابن بافلشتشيف !
فاستقبل هذا الاعتراف بضحكات مخنوقة • وعجز اثنان أو ثلاثة
عن كظم شعورهما فانفجروا يضحكون فى قهقهة مجلجلة •

تابع جبريل أرداليونوفتش كلامه فقال :

- ان لهذا الأمر اليسير الذى كشفت لنا عنه الآن يا سيد كيللر
لقيمة كبيرة . وفى وسعى أن أؤكد مع ذلك ، بناءً على أدق المعلومات ،
أن السيد بوردوفسكى ، على علمه الكامل بتاريخ ميلاده ، كان يجهل
أن بافلشتشيف كان مقيماً فى تلك الآونة بالخارج ، حيث قضى الشطر
الأكبر من حياته دون أن يعود الى روسيا الا فترات قصاراً . ثم ان تلك
السفرة كانت أهون شأناً فى ذاتها من أن تحفظها ، بعد انقضاء أكثر من
عشرين عاماً عليها ، ذاكرة ' أقرب المقرئين الى بافلشتشيف من أصدقائه ،
ناهيك عن ذاكرة السيد بوردوفسكى الذى لم يكن قد وُلد فى ذلك
الأوان . صحيح أن تقصّى أمر تلك الرحلة الى الخارج لا يبدو متعذراً
أو مستحيلاً ، ولكن يجب أن أعترف أن جهود التقصى التى بذلتها أنا
كان يمكن أن لا تؤدي الى نتيجة ، وان المصادفة هى التى يسّرت لى جمع
ما جمعته من معلومات ، بحيث كان يمكن أن لا تتمر مثل تلك الجهود ،
وأن لا يكون لها أى حظ من النجاح ، لو قام بها السيد بوردوفسكى ،
أو حتى تشيياروف ، هذا اذا خطر ببالهما أن يفعل ذلك . ولكن من
الجائز أن ذلك لم يخطر لها ببال .♦♦♦
قاطع هيوليت يقول فى غضب :

- اسمح لى يا سيد ايفولجين ، علام هذا اللغو الطويل كله ؟
(معذرة !) . لقد أصبحت القضية واضحة وعرفنا جوهر الأمر . فلماذا
هذا الالاح المؤلّم الجارح ؟ أم تُراك تريد الافتخار ببراعتك فيما قمت
به من بحوث ، وتريد أن تُظهر الأمير وتظهرنا على ما تملك من مواهب
الباحث المتقصى والمحقق المتحرى ؟ أم أنت تريد أن تعذر بوردوفسكى
وأن تبرئه بالبرهنة على أن الجهل هو الذى قاده الى هذه الحالة ؟ ولكن
هذه وقاحة أيها السيد العزيز ! ان بوردوفسكى ليس فى حاجة الى ان

تفضل عليه بالتبرئة ، فاعلم ذلك ! هذه اهانة له ، ما أغناه عن هذا وهو
فيما هو فيه الآن من وضع مؤلم محرج . كان عليك أن تدرك هذا ، وأن
تفهمه ***

قال جبريل آرداليونوفتش مقاطعاً :

- طيب يا سيد تيرتسييف ! كفى ! هدىء روعك ! لا تندفع كثيراً !
أعتقد أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟ اننى أشاطرك أملك . لقد أنهيت
كلامى ، اذا كنت تريد ذلك ! أو قل اننى مستعد لأن أختصر الوقائع التى
كان لا يخلو من فائدة ، فى رأى ، أن تُعرف كاملةً ***

أضاف ايفولجين ذلك وقد لاحظ فى الحضور حركة تشبه أن تكون
رغبة فى الاستماع اليه . وتابع كلامه فقال :

- فمن أجل أن أثير الأشخاص الذين يهتمون بهذه القضية انما
أحرص على أيسن ، والبراهين فى يدي ، أن أملك يا سيد بوردوفسكى قد
حظيت من بافلشتشيف بأنواع من الرعاية والعناية لأنها كانت أخت
خادمة شابة من بلد نيقولاى آندريفتش ، خادمة أجها فى شبابه الأول
وكان يمكن أن يتزوجها حتماً لولا أنها ماتت فجأة . اننى أملك براهين
ثابتة على هذه الواقعة التى لا تُعرف الا قليلاً بل قل نُسيت نسياناً تاماً .
هذا وأستطيع أن أشرح لك كيف كفل السيد بافلشتشيف أملك حين لم
يكن عمرها الا عشر سنين فأنفق على تعليمها ووقف لها مهراً كبيراً . ان
علامات التعلق هذه قد ولدت بعض المخاوف لدى أقرباء السيد
بافلشتشيف ، وهم كثيرون جداً ، حتى ظن بعضهم أن الرجل سيتزوج
الفتاة التى كفلها . ولكن أملك حين بلغت العشرين من عمرها تزوجت
موظفاً بمصلحة المساحة اسمه بوردوفسكى ، زواجاً قائماً على الميل ، وهذا
كله أستطيع أن أتى ببراهين عليه . وقد جمعت كذلك بيانات دقيقة توضح
أن أباك ، السيد بوردوفسكى ، الذى لم يكن يملك أى موهبة تمكنه من

النجاح فى الأعمال الحرّة ، قد بادر الى ترك الوظيفة بعد قبض مهر أمك ، وهو خمسة عشر ألف روبل ، واندفع فى مشروعات تجارية ، فخذع وفقد رأس ماله ، ثم لم يستطع تحمل هذه الضربة فأخذ يشرب ، فدمر بذلك صحته ومات قبل الأوان ، بعد زواجه بسبع سنين أو ثمانى سنين .

وقد شهدت أمك نفسها أنها عاشت فى أعقاب موت أبك حياة فقر مدقع وعوز شديد ، حتى لقد كان يمكن أن تضع لولا المساعدة السخية الكريمة المتصلة التى قدّمها اليها بافلشتشيف اذ خصّها بإيراد سنوى قد يبلغ ستمائة روبل . وهناك شهادات لا حصر لها تدل على أن بافلشتشيف قد محضك منذ طفولتك أشد العطف وأكبر الحنان . ويُسْتدل من تلك الشهادات ، وقد أبدتها أمك ، على أن سبب ذلك العطف وذلك الحنان هو فى الدرجة الأولى أنك كنت فى طفولتك الأولى عىّ اللسان ضعيف الجسم هزيلًا نحيلًا ، وكان بافلشتشيف طوال حياته - وأنا أملك البرهان على ذلك - يشعر بعطف خاص على أولئك الذين أساءت الأقدار أو أساءت الطبيعة معاملتهم ، ولا سيما اذا كانوا أطفالًا . وفى رأيى أن لهذه الخاصة شأنها الكبير فى القضية التى تهمننا الآن . وأستطيع أخيراً أن أنباهى بانى حققت اكتشافاً رئيسياً هو الاكتشاف التالى : ان العاطفة القوية التى كان يحملها لك بافلشتشيف (والتى بفضلها دخلت المدرسة وتابعت تعليمك بإشراف ادارة خاصة) قد جعلت أقرباء وأصدقاء يتصورون شيئاً فشيئاً أنك قد تكون ابنه ، وأن أباك الشرعى قد لا يكون الا زوجاً خاتمه امرأته .

غير أن من الضرورى أن نضيف الى ذلك أن هذا التصور لم يبلغ من القوة حدّ الاقتناع الكامل الشامل الا فى السنين الأخيرة من حياة بافلشتشيف ، حين أخذ المحيطون به يخشون أن يكتب وصيته بينما كانت الوقائع الأولى قد نُسيت وبينما كانت التحريات قد أصبحت مستحيلة . ولعل هذا الظن قد وصل الى مسامعك يا سيد بوردوفسكى ولعله استولى على فكرك .

وكانت أمك ، التي تشرفت بمعرفتها شخصياً ، على علم بهذه الشائنة أيضاً ، ولكنها ما تزال تجهل أنك صدقت هذه الشائنة أنت ابناً (أخفيت أنا عنها ذلك) • يا سيد بوردوفسكى ، لقد وجدت أمك المحترمة ، فى بسفوك ، مريضة معوزة أشد العوز بعد وفاة بافلشتشيف • وقد أعلمتني ، ودموع الاعتراف بالجميل تملأ عينيها ، أنها اذا كانت ما تزال تعيش ، فانما هي تعيش بفضلك وبفضل مساعدتك • وهى تعقد على مستقبلك آمالاً كباراً ، وتؤمن ايماناً حاراً بأنك ستنجح • • • • •

نفذ صبر ابن أخت ليديف فصاح يقول :

– هذا يتجاوز كل حد أخيراً ! ما فائدة هذه القصة الروائية كلها ؟
وتحس هبوليت فقال :

– هذه وقاحة مثيرة !

ولكن بوردوفسكى لم يقل كلمة ، بل لم يتحرك •
ورد جبريل آرداليونوفتش وهو يتسم ابتسامة مأكرة وينها لحاقه قارصة ، فقال :

– ما فائدة هذا ؟ فائدته أولاً أن يستطيع السيد بوردوفسكى الآن أن يقتنع بأن بافلشتشيف قد أحبه مدفوعاً لا بفريزة الأبوة بل بعظمة النفس • فهذه الواقعة وحدها كانت تتطلب أن تُقرّر ما دام السيد بوردوفسكى قد أكد وأيد منذ قليل ، بعد قراءة المقالة ، مزاعم السيد كيلمر • أقول هذا لأننى أعدك رجلاً مهذباً يا سيد بوردوفسكى • وفائدة ذلك ثانياً أنه قد اتضح الآن أن نية النصب والاحتيال لم يكن لها وجود حتى عند تشيياروف • انتى أحرص على الاحلاح على هذه النقطة ، ذلك أن الأمير قد قال منذ لحظة ، أثناء احتدام المناقشة ، اننى أشاطره شعوره بأن فى هذه القضية المشثومة محاولة غش ونصب واحتيال • بالعكس : ان الجميع هنا كانوا صادقين • قد يكون تشيياروف محتالاً كبيراً ، ولكنه فى

الحالة الراهنة لم يكن الا رجلاً بارعاً ومحامياً محترفاً ومشاكساً لجوجاً .
كان يأمل أن يربح مالا كثيراً من حيث هو محام ، وكان حسابه لا يتصف
بالبراعة فحسب ، بل يتصف كذلك بأنه يقوم على أساس قوى : لقد كان
يعتمد على ما يتميز به الأمير من أنه رجل سهل العطاء ، ومن أنه يقدر
ذكرى المرحوم بافلشتشيف ، ومن أنه أخيراً (وخاصة) يفهم واجبات
الشرف والتزامات الضمير فهماً فروسياً . أما السيد بوردوفسكى فيمكن
أن نقول عنه انه بسبب بعض اقتناعاته ، قد انقاد لتأثير تشيياروف وتأثير
المحيطين به انقياداً جعله يتورط فى هذا الأمر بدون أية منفعة شخصية
تقريباً ، وانما لخدمة قضية الحقيقة والتقدم والانسانية بمعنى من المعانى .
أما وقد انتهجت الآن جميع الوقائع ، فمن الواضح أن السيد بوردوفسكى
رجل صادق رغم جميع المظاهر ، ففى وسع الأمير أن يعرض عليه مساعدته
الودية ومعونه الفعلية التى عرضها عليه منذ قليل بمناسبة كلامه عن
المدارس وعن بافلشتشيف ، بل فى وسعه أن يعرضها عليه الآن بمزيد من
طيب الخاطر وطوع الارادة .

صاح الأمير يقول بلهجة فيها زعر صادق :

- قف يا جبريل آرداليونوفتش ! اسكت !

ولكن الأوان كان قد فات . فها هو ذا بوردوفسكى يصرخ قائلاً

فى حلق شديد :

- قلت ... قلت ثلاث مرات انتى أرفض هذا المال . لا ... لن

أخذه ... لماذا أخذه ؟ أنا لا أريده ! انتى ذاهب ...

قال ذلك وركض على الشرفة ، فأدركه ابن اخت ليديف وأمسكه
من ذراعه وهمس له ببعض الكلام . فعاد عندئذ مسرعاً ، فاستل من جيبه
ظرفاً كبيراً غير مفضوض ورماء على منضدة صغيرة كانت بقرب الأمير ،
قائلاً :

- ايك المال !... ما كان ينبغي لك أن تجرؤ على أن تقدمه الى !
اليك المال !...

وقال دكتورنكو شارحاً :

- هي الروبلات المائتان والخمسون التي أبحث لنفسك أن ترسلها
اليه صدقةً بواسطة تشيياروف •

قال كولا متعجباً :

- المقالة لا تشير الا الى خمسين روبلاً !

قال الأمير وهو يقترب من بوردوفسكى :

- أنا آثم فى حقك، أنا آثم جداً فى حقك يا بوردوفسكى • ولكننى لم
أرسل اليك هذا المبلغ صدقةً • صدقتنى • وما زلت آثماً فى حقك حتى
الآن • • • آثمت فى حقك منذ قليل (كان الأمير مشوشاً مضطرباً ؛ كان
يبدو متعباً موهناً ، وكانت أقواله مفككة) • لقد تكلمت عن غش ونصب
واحتيال • • • ولكن ذلك لا يتناولك أنت • انتى أخطأت • قلتُ انك
مريض مثلى • • • مثلى • ولكن لا ، ما أنت مثلى • أنت تعطى دروساً ،
وأنت تساعد أمك • ولقد قلت انك لطخت شرف أمك ، والحقيقة أنك
تجها • • • هى نفسها تقول ذلك • • • لم أكن أعلم • • • لم يحدثنى جبريل
أرداليونوفتش عن هذا كله من قبل • انتى أخطأت • وقد تجرأت
فعرضت عليك عشرة آلاف روبل ، فكان هذا منى اساءة • كان ينبغي لى
أن أتدبر الأمر بطريقة أخرى • • • وقد أصبح هذا مستحيلاً الآن ، لأنك
تحتقرنى • • •

قالت اليزابت بروكوفينا :

- هذا مستشفى مجاني !

فقلت آجلايا مؤيدةً وقد أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها
وكبح جماح غضبها :

- هو حتماً مستشفى مجانين !

ولكن كلماتها ضاعت فى خضم لفظ شامل وجلبة كاملة •
الجميع يتكلمون الآن ويتناقشون بصوت عالٍ • فبعضهم يتساجرون ،
وبعضهم يضحكون • وكان ايفان فيدوروفتش ايباتشين ساخطاً حانقاً ،
ينتظر الزابت بروكوفينا انتظار رجل أسى الى مهابته وأهنت كرامته •
وأراد ابن أخت ليديف أن يدس كلمة أخيرة ، فقال :

- طيب يا أمير ! يجب أن تنصفك فنعترف لك بأنك تحسن الاستفادة
... من مرضك (اذا أردنا أن نستعمل كلمة مهذبة) • لقد بلغت من
الحذق والبراعة فى عرض صداقتك ومالك أنه أصبح يستحيل على رجل
شريف أن يقبلهما فى أية صورة من الصور ، وعلى أى شكل من الأشكال
... هذا افراط فى السذاجة أو افراط فى المكر ... أنت أدرى بذلك
من أى انسان على كل حال •

هتف جبريل آرداليونوفتش يقول ، وكان فى أثناء ذلك الوقت قد
فضَّ الطرف الذى يضم المال :

- اسمحوا لى يا سادة : ليس فى الطرف مائتان وخمسون روبلاً ،
بل مائة روبل فحسب • اتنى أذكر هذا يا أمير تحاشياً لكل التباس قد
يؤدى الى سوء تفاهم !

قال الأمير لجبريل آرداليونوفتش وهو يحرك يده بإشارة تملل :

- دع هذا ! دع هذا !

فأسرع ابن أخت ليديف يردُّ بقوله :

- لا ، لا تدع هذا ! ان قولك « دع هذا » فيه اهانة لنا يا أمير !
اتنا لا نتخفى ، اتنا نتكاشف صراحة : نعم ، ليس في الطرف الالمائة روبل
لامائتان . ولكن الأمرين واحد . أليس الأمران واحداً ؟

أجاب جبريل آرداليونوفتش بلهجة فيها دهشة ساذجة :

- لا ، ليس الأمران واحداً !

فصرخ ابن اخت ليديف يقول غاضباً حائقاً :

- لا تقاطعنى . لسنا أغنياء الى الحد الذى تظن يا سيادة المحامى .
واضح أن مائة روبل ليست مائتين وخمسين روبلاً . لكن الشيء الهام
هنا انما هو المبدأ . أما أن ينقص المبلغ مائة وخمسين روبلاً فذلك أمر
تفصيلى . ان الشيء الأساسى هو أن بوردوفسكى لا يقبل صدقتك وأنه
يرميها فى وجهك أيها الأمير العظيم ! فمن هذه الناحية ، وعلى هذا الأساس
يستوى أن يردّ مائة وأن يردّ مائتين وخمسين . لقد رأيت بنفسك منذ
قليل أنه رفض عشرة آلاف . ولولا أنه رجل شريف لما ردّ حتى هذه
المائة روبل ! ان المائة وخمسين روبلاً الناقصة انما دُفعت لتشياروف
لقاء نفقات سفره حين مضى يلقى الأمير . لك أن تسخر من خرافتنا ومن
جهلنا فى شؤون الأعمال . وقد بذلت قصارك لتتدّر بنا وتضحك علينا
فى كل حال . ولكن لا تسمحنّ لنفسك بأن تقول اتنا أناس غير شرفاء !
أيها السيد العزيز ، نحن مسئولون جميعاً عن دفع المائة وخمسين روبلاً
للأمير ، نعم ، سوف نرد الى المبلغ كاملاً مع الفوائد ولو اضطررنا أن
نرده روبلاً روبلاً . ان بوردوفسكى فقير . ما هو بالمليونير . وقد قدم
اليه تشياروف فاتورة الحساب بعد رحلته . وكنا نأمل أن نربح ... من
ذا الذى يمكن أن لا يفعل الذى فعل ، لو كان فى مكانه ؟

صاح الأمير « شتت » يقول :

- يا له من سؤال !

وهتفت اليزابت بروكوفينا :

- أمور تدفع المرء الى الجنون !

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً ، وكان قد ظل يلاحظ المشهد مدة طويلة دون أن يتحرك :

- هذا يذكر بالمرافعة التي ألقاها في الآونة الأخيرة محامٍ شهير كان موكله قد قتل ستة اشخاص ليسرقهم • لقد أشار المحامي الى الفقر ليبرر الجريمة ، وختم كلامه بهذه الكلمات تقريباً : « واضح أن الفقر هو الذى أثبت في ذهن موكلى فكرة قتل أولئك الأشخاص الستة • من ذا الذى يمكن أن لا تثبت هذه الفكرة في ذهنه لو كان فى مكانه ؟ » • لقد قال المحامي كلاماً من هذا النوع • ومهما يكن من أمر فقد كان استدلاله فى منتهى الطرافة والفكاهة !

قالت اليزابت بروكوفينا فجأة وهى ترتعش أشد الارتعاش من فرط الغضب :

- كفى كفى ! آن لنا أن نضع حداً لهذا اللغو السخيف ، والهدر التافه !

كانت اليزابت بروكوفينا فى حالة احتياج رهيب • وها هى ذى ، وقد ردت رأسها الى وراء ولاحت فى وجهها علائم التهديد ، ترشق الحضور جميعهم بنظرة تحد واستفزاز ، لا تميز فيهم بين أصدقاء وأعداء • ان حقها الذى طال كظمه ينفجر أخيراً وينطلق عارماً قوياً • كانت فى حاجة الى أن تقاتل وتعارك ، كانت فى حاجة الى أن تهوى على أى مخلوق بأقصى سرعة • فسرعان ما أدرك الذين يعرفونها أن شيئاً خارقاً يحدث الآن فى نفسها • لقد قال ايغان فيدوروفتش فى الغد للأمير « شئت •• »

ان هذه الثوبت تعترىها أحياناً ، ولكنها قلماً تكون على مثل هذه الدرجة من العنف - فلعلها لا تبلغ هذا الحد من القوة الا مرة كل ثلاث سنين !

صاحت اليزابت بروكوفينا تقول :

- كفى يا ايفان فيدوروفتش ! دعنى ! لماذا تقدم الى ذراعك الآن ؟ انك لم تخرجنى من هذا المكان قبل هذه اللحظة ، وأنت الزوج ورب الأسرة فكان ينبغى لك أن تجرّنى من أذنىّ لو بلغت من حماقة حد الامتناع عن طاعتك واتباعك . كان ينبغى لك أن تفكر فى بناتك على الأقل ! لأهتدين الى طريقى الآن بدونك ، بعد هذه المهانة التى سألل أحمر خجلاً منها طوال سنة بكاملها ! .. انتظر ، على أن أشكر الأمير أيضاً ! .. شكرأ يا أمير على هذه البهجة العظيمة التى هيأتها لنا ! كيف ارتضيت لنفسى أن أبقى هنا لأصغى الى كلام هؤلاء الشبان ؟ يا لها من حطة ! يا لها من حطة ! .. فوضى ، فضيحة ، جرسه ، لا يرى المرء مثلاً حتى فى كابوس ! هل هناك أناس كبرون من هذا النوع ؟ .. اسكتى يا أجلايا ! اسكتى يا الكسندرا ! ليس هذا شأنكما ! .. لا تدر حولى هذا الدوران يا أوجين بافلوفتش ، انك تثير أعصابى ! ..

وعادت تخاطب الأمير فتقول :

- أهكذا اذن يا عزيزى ؟ أنت الذى تستغفرهم ؟ « لا تؤاخذونى على اننى سمحت لنفسى بأن أهدى اليكم ثروة .. هكذا يقول لهم » ! .. والتفتت الى ابن أخت ليديف فقالت فجأة :

- وأنت أيها الوقح ، ما الذى يضحك ؟ هذا يقول : « نحن نرفض المبلغ المعروض . اتنا نطالب ولا نستجدى ! » كأنه لا يعلم أن هذا

الأبله سيمضى يعرض عليهم صداقته وماله منذ الغد ! أليس هذا ما ستفعله
يا أمير ؟

أجاب الأمير بصوت رقيق مغلوب :

- نعم !

فمادت تهتف قائلة لدكتورنكو :

- هل سمعته ؟ ذلك بعينه هو ما تعوّل عليه • لكأن هذا المال فى
جيبك منذ الآن • فاذا كنت تتظاهر بالشسم والعظمة ، فانك لا تفعل ذلك
الا لتخدعنا ••• لا يا عزيزى ، اخدع غيرى ان استطعت • أما أنا فان
لى عينين تبصران ••• اننى أرى لمبتك !

هتف الأمير :

- اليزابت بروكوفينا !

فاقترح الأمير « شئت ••• » قائلاً وهو يتسهم ويصطنع أكبر
الهدوء :

- فلتنصرف يا اليزابت بروكوفينا ! آن الأوان وأكثر ! ولنأخذ
الأمير معنا •

كانت الآسات متحيات حتى لكأنهن مروّعات • أما الجنرال فكان
مروّعاً بالفعل • وكانت الدهشة تُقرأ فى جميع الوجوه • وكان بعض
الذين بقوا فى الحلف يضحكون خفيةً ويتهامسون • وكانت هيئة ليديف
تعبّر عن أقصى الوجد والنشوة •

قال ابن أخت ليديف ، وهو يشعر مع ذلك بغير قليل من الحرج :

- الفوضى والفوضى يا سيدتى موجودة فى كل مكان !

فأجابت اليزابت بروكوفينا تقول بحق متشنج :

- لا الى هذا الحد ، لا الى هذا الحد !

وأضافت تقول للذين حاولوا أن يهدئوها :

- هلاًّ تركتموني وشأني ! دعوني وشأني !

واتجهت الى أوجين بافلوفتش فقالت :

- اذا استطاع محام أن يعلن في المحكمة ، كما ذكرت أنت نفسك منذ هنيهة يا أوجين بافلوفتش ، أنه يرى أن من الطبيعي جداً أن يقتل امرؤ ستة اشخاص بدافع الفقر ، فهذا دليل على اقتراب الساعة • لم أسمع في حياتي شيئاً من هذا القيل • الآن أصبح كل شيء واضحاً لي • انظروا الى هذا اللئام مثلاً (قالت ذلك وهي تشير الى بوردوفسكي الذي كان ينظر اليها مشدوهاً) : أهو يتورع عن أن يقتل ؟ أراهن على أنه سيقتل أحداً • قد لا يأخذ العشرة آلاف روبل ، قد يرفضها بشرف وإباء • ولكنه ما يلبث أن يعود في الليل ، فيذبحك ويسرق المال من صندوقك بشرف وإباء أيضاً ! لن يعدّ ذلك عملاً اجرامياً • سوف يعدّه « نوبة يأس نبيل » ، أو يعدّه « بادرة انكار ورفض » ، أو ما لا أدرى أيضاً ! • • • • • هو العالم مقلوب ، الناس يسرون على ردوسهم لا على أقدامهم • ان فتاة تربت في منزل أبيها تقفز اليوم الى الشارع قائلة لأُمها : « يا ماما ، تزوجت بالأمس فلاناً ، كارلتش أو ايفانتش ، فأستودعكم الله ! » • هل ترون هذا حسناً ؟ هل تعدونه أمراً لا تقاً ؟ هل تجدونه شيئاً طبيعياً ؟ أهذه قضية المرأة ؟ انظروا الى هذا الصبي (قالت ذلك مشيرة الى كولا) لقد زعم لي منذ مدة أن قضية المرأة هي ذلك بعينه • هب أمك غيبة حمقاء ! ان هذا لا ينفي أن عليك أن تعاملها معاملة انسانية ! • • • • • لماذا دخلت منذ قليل بتحد واستفزاز كأنكم تقولون : « انا نتقدم ، فلا تتحركوا ! اعطونا جميع الحقوق ولكن اياكم أن تقولوا بحضورنا كلمة واحدة • أحيطونا بجميع أنواع الرعاية والمدارة ، ما تعرفون منها وما لا تعرفون • ولكننا

سنعاملكم نحن كما يعامل أحقر خادم ! » • انهم يسمعون الى الحقيقة ، ويستندون الى الحق ، ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يفتروا على الأمير في مقالاتهم افتراء الكفرة • « ونحن نطالب ولا نستجدي • لن تتألوا منا أية كلمة تعبر عن الشكر ، لأن ما تفعلونه انما تفعلونه لراحة ضميركم أتم ! » يا لها من أخلاق رائعة ! كيف لا تدرك أنك حين تعفى نفسك من أى شكر فانما تتيح للأمير أن يجيبك من جهته بأنه غير مضطر أن يشعر بأى امتنان نحو بافلستشيف ، لأن بافلستشيف لم يفعل ما فعله ، هو ايضاً ، الا لراحة ضميره • فكيف تعوّل اذن على شعور الأمير بالامتنان نحو بافلستشيف ؟ ان الأمير لم يقترض منك مالا ، فهو غير مدين لك بشيء • فعلى أى شيء اعتمدت اذا لم تكن قد اعتمدت على ذلك الشعور بالامتنان ؟ ولماذا ترفض اذن ذلك الشعور ؟ ألا ان هذا لضلال ! هؤلاء أناس يتهمون المجتمع بالقسوة والتجرد من الانسانية لأنه يجعل بالعار فتاةً أغويت ؟ وهم حين يفعلون ذلك يعترفون بأن الفتاة المسكينة تتألم من المجتمع • فكيف يجيزون لأنفسهم ، والحالة هذه ، أن يذيعوا خطيئتها بواسطة الجرائد على أشرار الناس وأن يدعوا أنها لن تتألم من هذا التشهير بها ؟ ألا ان ذلك لجنون ! ألا ان ذلك لتبجح وادعاء ! انهم لا يؤمنون بالله ولا بالمسيح • ولكن الغرور والصلف يأكلان نفوسهم أكلاً ، وليتبهن بهم الأمر الى أن يلتهم بعضهم بعضاً • أنا أقول لكم ذلك • أنا أتبأ لكم به ! أليس هذا جنوناً وفوضى وجرسة ؟ وانظروا من بعد الى هذا الرجل الذى لا حياة له ، الى هذا الرجل الذى يستغفرهم ! هل يوجد أناس كثيرون من أمثالكم ؟ أضحكون ساخرين ؟ ألا أنتى أذلت نفسى بالتورط فى الكلام معكم ؟ نعم ، لقد أذلت نفسى بذلك حقاً ، ولا سبيل الى اصلاح الأمر ••• أما أنت ، أيها التسافه الذى لا يصلح لشيء (وجهت هذا الكلام الى هيسوليت) ، فانتى أنهاك عن الضحك منى ! انه لا يكاد يستطيع التنفس ، ولكنه يفسد

الآخرين • لقد أفسدت لى هذا الصبى (قالت ذلك مشيرةً الى كولا من جديد) • فهو لا يحلم الا بك • انك تلقنه الالحاد • أنت لا تؤمن بالله ، مع أنك ما تزال ، أيها السيد الصغير ، فى سنٍ يجوز فيها جلدك ! •• على كل حال ، اذهبوا جميعاً الى جهنم ! يا ليون نيقولايفتش ، أصبح حقاً أنك ستذهب اليهم غداً ؟ أذهب اليهم فعلاً ؟

ألقت على الأمير هذا السؤال وهى تكاد تحتق غيظاً • فأجابها الأمير بقوله :

- نعم ، سأذهب •

- اذا صدق هذا فلا أريد أن أعرفك بعد اليوم !
وهمت بالانصراف فجأة ، ولكنها لم تلبث أن التفتت تسأله وهى تشير الى هيوليت :

- أذهب الى هذا الملحد أيضاً ؟

وأضافت صائحة تقول بصوت غير معهود فيها ، وقد هجمت على هيوليت الذى أخرجتها ضحكته الساخرة عن طورها :

- مالى أراك كمن يسخر منى ؟

فصاحت أصوات تنادىها من كل جهة :

- اليزابت بروكوفينا ! اليزابت بروكوفينا !

وهتفت آجلايا تقول بصوت قوى :

- ماما ! ••• هذا عيب !•••

كانت اليزابت بروكوفينا قد وثبتت على هيوليت فأمسكت ذراعه تشدها شداً قوياً بحركة مندفة ، وتتفرس فى وجهه بنظرة تفيض حقاً وسخطاً •

قال هيوليت بهدوء ورسالة :

- لا تجزعى يا آجلايا ايفانوفنا. لسوف تدرك أمك أن المرء لا يهجم على مريض يُحتضر ... وانى لمستعد على كل حال لأن أشرح لها لماذا كنت أضحك ... سوف يريحنى كثيراً أن أفلح فى أن ...

غير أن نوبة سعال رهيب قد اعترته فجأة ولم يستطع أن يكبحها .
هتفت اليزابت بروكوفينا تقول وهى تترك ذراع هيوليت وتنظر اليه ، مذعورة " بعض الذعر ، حين رأته يمسح الدم الذى طفر الى شفتيه :
- محتضر لا يكف عن القاء خطب ! ماذا تريد أن تقول ؟ أولى بك أن تمضى الى فراشك فترقد ...

أجابها هيوليت قائلاً " بصوت ضعيف محجوب يشبه أن يكون همساً :

- ذلك ما سأفعله . فما ان أصل الى البيت حتى أرقد فى فراشى .
سأموت بعد خمسة عشر يوماً ، أنا أعرف ذلك . ان الدكتور « ب . . ن » ، نفسه قد أعلن لى هذا فى الاسبوع الماضى . لذلك سأودعكم بكلمتين ، اذا أذنت لى .

صاحت اليزابت بروكوفينا تقول مروعة :

- أحسب أنك فقدت عقلك ! ما هذه الحماسة ؟ عليك أن تعالج نفسك . ليس الوقت وقت أحاديث وخطب . امض امض الى سريرك ! ...
قال هيوليت مبتسماً :

- سأرقد فى سريرى ... وسأرقد رقاداً لا قيام بعده . أسس أردت أن أرقد منتظراً الموت ، ثم أمهلت نفسى يومين ما دامت ساقاى تستطيعان أن تحملانى ... بغية أن أجيء معهم اليوم الى هنا ... ولكننى تعبت حقاً ...

قالت له اليزابت بروكوفينا وهى تقدم اليه بنفسها كرسياً :

- فاجلس اذن ! اجلس ! لماذا تبقى واقفاً ؟

قال هيوليت بصوت منطفىء :

- شكراً • اجلسى أمامى ولتحدث ••• يجب أن نتحدث حتماً
يا اليزابت براكوفينا ••• انتى أصرى على هذا الآن ••• (أضاف ذلك
مبتسماً من جديد) • لاحظى أن هذا اليوم هو آخر يوم أقضيه فى الهواء
الطلق بين الناس • وبعد خمسة عشر يوماً سأكون تحت التراب حتماً •
فهذا اذن وداع للبشر وللطبيعة بمعنى من المعانى • انه ليسرنى جداً ، رغم
انتى لست عاطفياً كثيراً - هل تصدقين ؟ - أن يتم هذا فى بافلوفسك ؟
فهنا أرى الخضرة والاشجار على الأقل •••

قالت اليزابت بروكوفينا وكان ارتباعها يزداد دقيقة بعد دقيقة :

- أهذا أوان الاكثار من الكلام ؟ انك تعانى حمى شديدة • منذ
قليل كنت تصيح صياحاً قوياً ، كنت تعمل احوالاً شديداً • وهأت ذا
الآن لا تكاد تستطيع أن تتنفس •

- لن أتأخر عن الخلود الى الراحة • لماذا لا تريدان أن تستجيبى
لرغبتى القصوى ؟ ••• هل تعلمين أنتى أحلم منذ مدة طويلة بأن ألقاك
يا اليزابت بروكوفينا ؟ لقد سمعت عنك كثيراً ••• من كولا ••• الذى
هو الشخص الوحيد الذى لم يهجرنى ••• الشخص الوحيد تقريباً •••
أنت امرأة أميل الى الطرافة والغرابة والتفرد ••• أدركت هذا الآن •••
هل تعلمين أنتى أحببتك بعض الحب ؟ •••

- رياه ! ما كان أغبانى حين أوشكت أن أضربه !

- انى آجلايا ايفانوفنا ، اذا لم يخطئ ظنى ، هى التى نهتك عن

ذلك ! أليست هى ابتك آجلايا ايفانوفنا ؟ انها تبلغ من الجمال اننى ما ان
أبصرتها هنا حتى عرفتھا ، رغم اننى لم أكن قد رأيتها قبل اليوم قط .

وأردف هيووليت يقول وهو يتشم اشماسة خرقاء مرتبكة :

- دعى لى على الأقل أن أتأمل الجمال لآخر مرة فى حياتى ! أنت هنا
مع الأمير ، ومع زوجك ، ومع حفل بكامله . فلماذا ترفضين أن تلبى آخر
رغبة لى ؟

صاحت اليزابت بروكوفينا تقول :

- اعطونى كرسياً !

ولكنھا لم تنتظر أن يعطيھا أحد كرسياً ، بل تناولت بنفسھا مقعداً
من المقاعد وجلست قبالة هيووليت . ثم قالت تأمر كولىا :

- كولىا ، اصحبه الى البيت فى الحال ؟ وغداً لن يفوتنى أنا نفسى
أن ...

- اذا أذنت لى ، طلبتُ من الأمير فنجان شای . اننى أشعر بتعب
شديد . ألم تكونى تريدین ، يا اليزابت بروكوفينا ، أن تصطحبى الأمير
الى بيتك لاحتساء الشای ؟ فابقوا اذن هنا ، ولتقض لحظةً معاً . لا شك
أن الأمير سيأمر لنا جميعاً بشای . اغفرى لى تصرفى هذا ... ولكننى
أعلم أنك طيبة القلب نبيلة النفس . وكذلك الأمير ... نحن جميعاً
طيبون الى درجة تبعث على الضحك ...

تحرك الأمير . وخرج ليديف من الشرفة راكضاً ، وأسرعت
فيرا تتبعه .

قالت الجذالة فجأة :

- أنت على حق . تكلم ، ولكن فى رفق وهدوء ، ولا تدع للمهيجان
سيلاً الى نفسك . لقد أثرت حنانى ... يا أمير ، ما كنتَ لتستحق أن

أشرب الشاي فى بيتك ، ولكننى أبقى مع ذلك ، دون أن اعتذر لأحد .
نعم ، دون أن أعتذر لأحد ! والا كان ذلك منى سخفاً ! على كل حال ،
إذا كنت قد أسأت معاملتك يا أمير ، فانى اعتذر اليك وأطلب مغفرتك ،
إذا أنت أردت طبعاً !

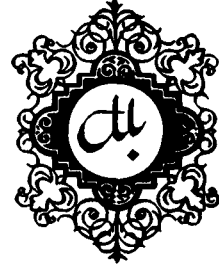
ثم أضافت تقول لزوجها وبناتها بلهجة حائقة كل الحق كأنها حاقدة
عليهم من اساءة كبيرة ألحقوها بها :
- ولست أجبر أحداً أن يبقى معى ، فانى أستطيع أن أرجع الى
البيت وحدى ***

ولكنهم لم يدعوها تتم كلامها ، بل اسرعوا يقتربون منها ، ويحيطون
بها ، ويسعون حولها . وما لبث الأمير أن رجا الجميع أن يبقوا لاحتساء
الشاي ، واعتذر عن أنه لم يبادر الى هذا من قبل . حتى الجنرال ايباتشين
هشّ ويشّ فقال بضع كلمات تطيّب الحواطر وتهديء النفوس ، وسأل
اليزابت بروكوفينا أليست تشعر فى الشرفة بشيء من البرد ، حتى لقد همّ
أن يسأل هيوليت منذ متى التحق بالجامعة ، ولكنك أمسك . وامتلاً أوجين
بافلوفتش والأمير « شتت *** » مرحاً وفرحاً على حين فجأة . وعبر
وجها آديلايد وألكسندرا عن السرور والرضى رغم احتفاظهما بمعنى
الدهشة والتعجب . الخلاصة أن الجميع قد أسعدهم اسعاداً واضحاً أن
نوبة الغضب التى اعترت اليزابت بروكوفينا قد انقضت بسلام ، الا أجلايا
وحدها ، فقد ظلت عابسة الوجه صامئة متحيرة . وبقى سائر أفراد
الجمع ، لم يشأ أحد منهم أن ينصرف ، حتى الجنرال ايفولجين . ولكن
ليديف همس يقول له شيئاً لا بد أنه لم يرضه ، فغاب فى ركن من
الأركان .

واقترب الأمير من بوردوفسكى وصحبه يدعوهم الى احتساء
الشاي دون أن يستشى أحداً . فجمعوا يقولون بصوت أجش انهم

سوف ينتظرون هيبوليت ، ثم أسرعوا ينسحبون الى زاوية من الشرفة
حيث جلسوا جنباً الى جنب •
لا بد أن ليديف كان قد أمر باعداد الشاي لأصحابه منذ مدة طويلة،
لأن الشاي قد قُدِّمَ فوراً •
ودقت الساعة الحادية عشرة •

الفصل العاشر



هبوليت شقيقه بفنجان الشاي الذي قدمته اليه
فيرا ليديفا ، ثم وضع الفنجان على منضدة صغيرة ،
ثم ألقى على ما حوله نظرة محرّجة مرتبكة تكاد
تكون زائفة •

وقال متدفّقاً :

- انظري الى هذه الفناجين يا اليزابت بروكوفينا • انها من خزف ،
بل هي من أجمل الخزف فيما أظن • ان ليديف يحتفظ بها دائماً في خزانة
صغيرة وراء زجاج ••• ولا يستعملها قط ••• لا شك في أنها كانت
جزءاً من مهر زوجته ••• وقد أخرجها اليوم تكريماً لك من غير شك ••
فالى هذا الحد وصل سروره واعتباطه •••

أراد هبوليت أن يضيف شيئاً آخر ، لكن الكلمات لم توافه •

فهمس أوجين بافلوفتش يقول في اذن الأمير :

- ها هو ذا يضطرب ويرتبك ••• لقد كنت أتوقع ذلك • هذا
خطر ، أليس صحيحاً ؟ تلك علامة ثابتة على أن خبث نفسه وسوء سريرته
سيوحيان اليه تصرفاً يبلغ من الشذوذ أن اليزابت بروكوفينا نفسها لن
تطبق احتماله •

ألقى عليه الأمير نظرة سائلة مستفهمة • فتابع أوجين بافلوفتش

كلامه فقال :

– ألا تخشى التصرفات الشاذة ؟ أنا أيضاً لا أخشاها . . . حتى اننى أتمناها ، على الأقل عقاباً لصاحبتنا الطيبة اليزابت بروكوفينا . يجب أن تنال هذا العقاب فى هذا اليوم نفسه . لا أريد أن أنصرف قبل ذلك . أترك مصاباً بحمى ؟

أجاب الأمير ذاهل الهيئة متمللاً :

– سأجيك فيما بعد . لا تمنعنى من الاصفاء .

كان الأمير قد سمع اسمه يُذكر . ان هيبوليت يتحدث عنه . فهو يقول ضاحكاً ضحكاً عصياً :

– ألا تصدِّقن هذا ؟ كنت أتوقع أن لا تصدِّقيه . أما الأمير فسوف يصدقنى دفعةً واحدة ، ولن يدهش البتة .

قالت اليزابت بروكوفينا وهى تلفت اليه :

– أسمع يا أمير ؟ أسمع ؟

وكان الجمع يضحكون من حولهم . وكان ليديف يصطنع هيئة القلق ويدور أمام الجنرالة .

– هو يدعى أن هذا المهرج مؤجَّر كقد راجع مقالة هذا السيد ، أعنى المقالة التى قرئت لك هذا المساء والتى تناولت . نظر الأمير الى ليديف مدهوشاً .

واستأنفت اليزابت بروكوفينا كلامها وهى تضرب الأرض بقدمها قائلة :

– ما بالك تصمت ؟

فدمدم الأمير يقول وهو ما يزال يحدق الى ليديف :

– انى لأرى أنه قد راجع المقالة حقاً .

فالتفتت اليزابت بروكوفينا نحو ليديف بقوة وسألته :

- أهذا صحيح ؟

فقال ليديف بثقة تامة وهو يضع يده على قلبه :

- هذه هى الحقيقة بعينها يا صاحب السمو •

فصاحت الجنرالة تقول وقد وثبت عن كرسيها :

- لكأنه يتباهى بهذا !

فتمتم ليديف قائلاً وقد أخذ يلطم صدره ويخنى رأسه شيئاً بعد

شيء :

- أنا رجل منحط ! أنا رجل منحط !

- لا يعينى أن تقول انك منحط ! هو يظن أنه يكفيه أن يقول « انه

منحط » حتى يخرج من المأزق وحتى يبرىء ذمته • يا أمير ، مرة أخرى

أسألك : ألا تستحى أن تعاشر أمثال هؤلاء الناس ؟ اننى لن أغفر لك هذا

أبداً •

قال ليديف بلهجة فيها اقتناع وعاطفة :

- سيسامحنى الأمير !

وأسرع كيلر يقترب من اليزابت بروكوفينا ، فيقف أمامها ،

ويقول بصوت منفجر :

- من باب الكرم وحده يا سيدتى ، ومن أجل أن لا أفضح صديقاً

معرضاً للأذى ، انما سكت منذ قليل عن مراجعته لمقالتى فلم أجىء على

ذكرها ولا أشرت إليها ، رغم أنه اقترح رمينا الى أسفل السلم كما سمعت

ذلك بأذنك • ففى سبيل أن أقرر الحقيقة أعترف الآن بأننى أستغنت به

فى ذلك فعلاً وتقديته ستة روبلات أجراً • لم أطلب اليه أن ينقح

الأسلوب ، وانما طلبت اليه أن يكشف لي ، بصفته مصدراً مطلعاً ، على وقائع كنت أجهل أكثرها . فكل ماورد ذكره في المقالة عن لبادتي الحذابين اللذين كان يتعلهما الأمير ، وعن اشباع الأمير نهمه على نفقة البروفسور السويسرى ، وعن الحسين روبلاً التى ذكرت بدلاً عن المائتين وخمسين المدفوعة فعلاً ، كل هذه المعلومات كان هو مصدرها . وقد نقدته ستة روبلات أجراً على هذا لا على تصحيح اللغة وتنقيح الأسلوب .

قاطع ليديف كلام كيللر فقال نافذ الصبر بصوت يزحف من ذله زحفاً ان صح التعبير ، بينما كانت الضحكات تتضاعف من حوله :

- يجب أن ألفت النظر الى أنتى لم أراجع من المقالة الا الجزء الأول . فاننا حين وصلنا الى الجزء الثانى اختلفت آراؤنا حتى لقد تشاجرنا بصدد فكرة جئت بها ، فعدلت عن تصحيح الجزء الثانى من المقالة . فلا يمكن اذن أن أعدّ مسؤولاً عما تضمنه من أخطاء كثيرة وأقاول كاذبة .

- ذلك ما يشغل باله !

كذلك هتفت اليزابت بروكوفيتنا .

قال أوجين بافلوفتش يسأل كيللر :

- هل تسمح لى أن أسألك متى تمت مراجعة المقالة ؟

فأجابه كيللر طائماً :

- صباح أمس . اجتمعنا اجتماعاً تعاهدنا على أن يبقى بيننا سرّاً مكتوماً لا نطلع عليه أحداً .

قالت اليزابت بروكوفيتنا :

- ذلك بينما كان يزحف أمامك معلناً لك ولاءه واخلاصه . يا لهؤلاء البشر ! فى وسعك أن تحتفظ ببوشكين ، ولا تظهرنْ بَشْكَ عندى قط !

وأرادت اليزابت بروكوفينا أن تنهض ، لكنها وقد رأت هيبوليت يضحك ، حوَّلت غضبها إليه قائلة :

— ماذا يا عزيزى ؟ هل آليت على نفسك أن تتخذنى هنا هزواً ؟
فأجاب هيبوليت وهو يتسهم ابتسامة خرقاء :

— معاذ الله ! لكنك يا اليزابت بروكوفينا قد خطفت انتباهى بما تتصفين به خاصةً من غرابة لا يصدقها العقل ! أعترف لك بأنتى تعمدت أن أثير موضوع ليديف • كنت أتوقع الأثر القوى الذى لا بد أن يحدثه فيك هذا الموضوع ، أن يحدثه فيك أنت وحدك ، لأن الأمير سيفغر له حتماً ، بل لا شك فى أنه قد غفر له منذ الآن ؛ ولعله قد وجد لفعلته عذراً • أليس هذا صحيحاً يا أمير ؟

كان هيبوليت يلهث ، وكان انفعاله الغريب يقوى عند كل كلمة يقولها •

قالت اليزابت بروكوفينا غاضبةً وقد فجأتها لهجة صوته :

— هيه ، وماذا ؟

فتابع هيبوليت كلامه قائلاً :

— سبق أن سمعت عنك أشياء كثيرة من هذا النوع ••• بفرح شديد ••• لقد تعلمت أن أحترمك أعظم الاحترام •

كان يتكلم وفى هيئته ما يدل على أنه يريد أن يعبر عن شئ آخر يختلف كل اختلاف عما كان يقوله • وكان حديثه المتدفق يكشف فى الوقت نفسه عن رغبة فى السخرية وعن اضطراب مشوش • انه يلقي حواليه نظرات شك وريب ، ويرتبك ويتيه عند كل كلمة جديدة • وكانت هيئته التى هى هيئة مريض بالسل ، وعيناه الملتصتان ، ونظراته المتحمسة ،

كان ذلك كله أكثر مما يحتاج اليه الحاضرون جميعاً لينصرفوا باتسباهم
اليه انصرافاً تاماً .

وتابع كلامه يقول :

- رغم اننى لا أعرف من آداب المجتمع شيئاً (وذلك ما أعترف به) ،
كان يمكن أن يدهشنى أن أراك تمكثين فى جمع كجمعنا هذا الذى تعدينه
غير لائق ، وكان سيدهشنى أن أراك تركين ... لهاته القيات أن يسمعن
قضية شائكة فاضحة ، رغم أن قراءة الروايات قد سبق أن علمتهن كل
شئ . ومهما يكن من أمر ، فمن الجائز اننى لا أعلم ... لأن أفكارى
تضطرب وخواطرى تختلط . ولكن مما لا شك فيه على كل حال أن أحداً
غيرك ما كان ليرضى أن يبقى ... تلبيةً لطلب صبرى (نعم ، صبرى ، اننى
أعترف بهذا أيضاً) فيقضى السهرة معه ، ويشارك فى كل شئ ، وان
احمر خجلاً من ذلك فى الغد ... (على أننى أقرُ باننى أخبط فى التعبير
خبط عشواء) . ذلك كله يبدو لى خليقاً بأن يُحمد ، ويبدو لى جديراً
بأن يُحترم كل الاحترام ، رغم أن وجه زوجك يعبرُ تعبيراً واضحاً عن
مدى انزعاج سيادته مما يجرى هنا ... هى . هى ! ...

أخذ هبوليت يقهقه ، واضطرب واربتك فجأة ، ثم هزته نوبة سعال
شديدة حالت بينه وبين الاستمرار فى الكلام مدة دقيقتين .

قالت اليزابت بروكوفينا بلهجة باردة جافة ، وهى تلقى عليه نظرة
استطلاع خال من التعاطف :

- ها هو ذا يختق ! كفى يا صغيرى ! كفى ! حسبك هذا !

وتدخل ايفان فيدوروفتش غاضباً فقال وقد نفذ صبره :

- دعنى أنبهك الى شئ أيها السيد الصغير . ان زوجتى هى هنا
عند الأمير ليون نيقولايفتش ، جارنا وصديقنا المشترك . فلست أنت ، أيها

الفتى ، فى أية حال من الأحوال ، من يحق له أن يحكم على أفعال الزبانت
بروكوفينا ، ولا أن يعبرَ جهازاً ، بحضورى ، عما تظن أنك تقرأه فى
وجهى • مفهوم ؟

ثم تابع كلامه وهو يزداد اندفاعاً وحماسة :
- وثنت بقيت هنا ، فأنما بقيت ، أيها السيد ، مدفوعةً بعامل المفاجأة
وحب الاطلاع ، وذلك حين رأيت هؤلاء الشباب الذين يشرون حب الاطلاع
بغرايتهم فعلاً • ولقد بقيت أنا أيضاً كما أبقي أحياناً فى الشارع حين أرى
شيئاً يمكن أن يُعدَّ ••• أن يُعدَّ •••

قال أوجين بافلوفتش محاولاً اسعاف صاحبه :
- أن يُعدَّ شيئاً غريباً نادراً •

فأسرع الجنرال يقول وقد تورط فى البحث عن تشييه :
- نعم ، هذه هى الكلمة • مهما يكن من أمر فإن ما يبدو لى باعناً
على الدهشة ومثيراً للحزن ان صح التعبير هو أنك أيها الفتى لم تستطع
حتى أن تدرك أن الزبانت بروكوفينا لم تمكث الآن معك الا لأنك مريض
ولأنها أيقنت أنك مشارف على الموت ، فكانت الشفقة هى التى ألهمتها
سلوكها اذ سمعت أقوالك التى تثير الرحمة والرأفة • فما من لحظة أيها
السيد يمكن أن تال اسمها أو مزايها أو منزلتها الاجتماعية ••

ثم ختم كلامه بقوله وقد احمر وجهه غضباً :
- الزبانت براكوفينا ، اذا كنت تريدان الانصراف فلتودّع صاحبنا
الأمير الطيب و ل •••

فقاطعه هيبوليت بلهجة فيها رصانة غير متوقعة ، وكان يحدّق الى
ايفان فيدوروفتش بنظرة حاملة :

- أشكر لك هذا الدرس يا جنرال ♦

قالت أجلايا وهي تنهض ، قالت بلهجة تدل على الغضب ونفاد الصبر :

- هلمنى تنصرف يا ماما ، فان هذا الأمر يمكن أن يطول كثيراً ♦
قالت اليزابت بروكوفينا بوقار وهي تلتفت نحو زوجها :

- دقيقتين آخرين من فضلك يا عزيزى ايفان فيدوروفتش ♦ أظن أنه مصاب بنوبة حمى ، وأنه يهذى لا أكثر ♦ أرى هذا فى عينيه ♦ لا يمكن أن تتركه وهو على هذه الحال ♦ يا ليون نيقولايفتش ، أليس فى وسعه أن يبيت عندك ، حتى لا يكون ثمة اضطراب الى نقله الى بطرسبرج ♦

ثم أضافت تقول مخاطبة الأمير « تشتت ♦ ♦ ♦ » :

- هل شئت أو ضجرت أيها الأمير العزيز ؟ *

ثم قالت تخاطب ألكسندرا :

- تعالى يا ألكسندرا ، رتبى شعرك قليلاً يا عزيزتى ♦

ورتب اليزابت بروكوفينا ترتيب شعر ابنتها ، مع أنه لم يكن يعوزه أى ترتيب ، ثم قبلتها ، والواقع أن هذه القبلة كانت هى الغرض من مناداة الفتاة إليها ♦

عاد هيبوليت يقول وقد خرج من أحلامه :

- كنت أظنك قادراً على شيء من التطور الفكرى ♦ ♦ ♦ نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك (أضاف ذلك مرتاحاً ارتياح انسان تذكر شيئاً منسياً) ♦ انظر الى بوردوفسكى : هو يريد صادقاً أن يدافع عن أمه ، أليس كذلك ؟ ولكنه فى نهاية الأمر لطّخ شرفها بالعار ♦ انظر الى الأمير : انه يرغب فى أن يساعد بوردوفسكى ، وهو اذ يحضه أرق العاطفة

وينفحه المال انما يصدر عن أحسن نية وأكرم شعور ، ولعله بيننا الانسان الوحيد الذى لا يكرهه ولا ينفر منه . وها هما مع ذلك يقفان أحدهما من الآخر موقف العدو ! ها ها ها !... انتم جميعاً تكرهون بوردوفسكى لأنه يتصرف مع أمه تصرفاً ليس فيه لباقة وأناقة فيما ترون ، أليس كذلك ؟ هو كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟ انكم جميعاً متعلقون تعلقاً مسعوراً بجمال الأشكال ولطف الآداب فى السلوك (كنت أقدر منذ زمن طويل أنكم لا تحفلون الا بهذا) ، فاعلموا أن أحداً منكم لعله لم يحبب أمه كما أحب بوردوفسكى أمه . أنا أعلم أنك أرسلت الى هذه المرأة مالاً بواسطة جانيا دون أن يعلم بذلك أحد . ألا انتى لمستعد أن أراهن على أن بوردوفسكى سيتهكم الآن بقلة اللباقة وعدم المداراة تجاه أمه . نعم ، حقاً ، ها ها ها !... .

وهذه نوبة جديدة من الاختناق والسعال تقطع تلك الضحكة التشجيعية الذى صاحبت كلماته الأخيرة .

قالت اليزابت بروكوفينا نافذة الصبر وكانت لا تحوّل عنه نظرتها القلقة :

– أهذا كل شيء ؟ هل قلت كل ما كنت تريد أن تقوله ؟ فاذهب الآن اذن الى سريرك . ان بك حمى . آه . . . رباه !... ها هو ذا يستأنف . . . اتجه هيوليت بالكلام الى أوجين بافلوفتش فجأة ، وقال له بلمهجة حائقة :

– أنتضحك ؟ لماذا تضحك دائماً منى ؟ لقد لاحظت ذلك واضحاً ! وكان أوجين بافلوفتش يضحك فعلاً .

– انما أردت أن أسألك يا سيد . . . هيوليت . . . معذرة . . . نسيت اسم أسرتك . . .

قال الأمير :

- السيد تيرتيف •

- آ ... نعم ... شكرآ يا أمير • لقد ذُكر لى اسمه منذ قليل ، لكن هذا الاسم بارح ذاكرتى ... أردت أن أسألك يا سيد تيرتيف هل ما قيل لى عنك صحيح : لقد قيل لى انك تعتقد أنه يكفىك أن تخطب فى الشعب ، من نافذة بيتك ، خلال ربع ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بأرائك فورآ ، فيتبعك • هل هذا صحيح ؟

أجاب هيوليت محاولآ أن يستجمع ذكرياته :

- يجوز جداً أن أكون قد قلت هذا الكلام •

ثم أضاف فجأة وقد اندفع من جديد وحده أوجين بافلوفتش بنظرة ثابتة :

- نعم ، قلت ذلك الكلام حتماً ، فماذا تستتج من ذلك ؟

- لا شىء البتة • فانما ألقيت هذا السؤال من باب حب الاطلاع •

وصمت أوجين بافلوفتش • وظل هيوليت يحدث الى وكأنه ينتظر التمهة قلقلآ •

قالت اليزابت بروكوفينا تسأل أوجين بافلوفتش :

- هيه ؟ هل أنهيت كلامك ؟ أنهه بسرعة يا صديقى ، فقد آن له أن يمضى الى النوم • أم تُراك لا تدري كيف تنهيه ؟

كانت اليزابت بروكوفينا منزعجة انزعاجآ شديداً •

فاستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال مبتسماً :

- لعلى أمل الى أن أضيف ما يلى : ان كل ما سمعته من رفاقك يا سيد تيرتيف ، وكل ما قلته أنت نفسك بموهبة لا مجال لنكرانها يترد

فى رأى الى النظرية التى تطمع فى جعل الحق متصراً على كل شىء ، قائماً فوق كل شىء ، بل مُبْعَداً كل شىء ، ربما دون سعى فى أول الأمر الى معرفة هذا الحق • لعلنى كنت مخطئاً •

- أنت مخطىء حتماً • حتى اننى لا أفهم عنك ... ثم ماذا ؟

وصعدت من زاوية بالشرقة دمدمة • كان ابن اخت ليديف يهمهم متكلاً بصوت خافت •

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

- لم يبق عندى ما أقوله تقريباً • وانما أردت أن ألفت النظر الى أن هذه النظرية ليس بينها وبين النظرية القائلة بأن الحق للأقوى ، أى بأن الحق لقبضة اليد وتحكم الفرد ، وتلك هى الطريقة التى سُوِّيت بها الأمور فى أكثر الأحيان ، أقول ليس بين هاتين النظريتين الا خطوة واحدة • لقد تلبث برودون على نظرية القوة هذه التى تخلق الحق • وفى أثناء حرب الانفصال رأينا كثيراً من الليبراليين ، بل كثيراً من الليبراليين المتطرفين ، يناحزون الى صف المزارعين بحجة أن الزوج ، من حيث هم زوج ، يجب أن يُعَدُّوا أدنى منزلةً من البيض ، وان للبيض حق الأقوى ...

- ثم ؟ ... ؟

- أرى أنك لا تجد حق الأقوى •

- ثم ؟

- أنت لا تتناقض على الأقل • لقد أردت أن ألفت النظر الى أن المسافة ليست بعيدة بين حق الأقوى وحق الثمور والتماشيح ، وحتى حق أمثال دانيلوف وجورسكى •
- لا أدري ... ثم ؟

كان هبوليت لا يضمنى الى أوجين بافلوفتش الا بأذن واحدة • كان لا يقول : « ثم ؟ » الا انسياقاً مع الحديث ، دون أن يولى هذه الكلمة أى اهتمام ، أو أن يودعها أى معنى •

- لم يبق عندى ما أضيفه ذلك كل ما أردت أن أقوله •

قال هبوليت يختم الكلام على نحو لم يكن متوقعا :

- الواقع اننى لا أغضب منك ولا أحقد عليك •

وعلى غير شعور تقريباً ، ابتسم ومدّ يده الى أوجين بافلوفتش •

دُهِش أوجين بافلوفتش ، ثم اصطنع هيئةً فيها كثير من الجدل ليلمس اليد التى مدّها اليه هبوليت ، كأنها هو يقبل صفحه وعفوه • وأضاف يقول بلهجة فيها ذلك الاحترام نفسه ، ولكن فيها التباساً كذلك :

- لا أملك الا أن أشكر لك تلافك معى اذ تركت لى أن أتكلم ، فقد لاحظت فى أحيان كثيرة أن أصحابنا الليبراليين لا يدعون للآخرين أن يكون لهم رأى شخصى ، وأنهم يردون على معارضيتهم فوراً باهانات أو بحجج أدعى الى الأسف من الاهانات نفسها

قال الجنرال ايفان فيدوروفتش :

- هذا صحيح كل الصحة •

ثم انسحب الى أقصى الشرفة من جهة المخرج جاعلاً يديه وراء ظهره ، وأخذ يتتأبب برماً متمللاً •

قالت اليزابت بروكوفينا فجأة مخاطبة أوجين بافلوفتش :

- هياً كفاك يا صديقى .. لقد أضجرتنى !

وقال هبوليت وهو ينهض مسرعاً ويرسم بيده حركة تعبر عن الحيرة والارتباك ، ويلقى حواله نظرة زائغة خائفة :

- آن الأوان ... لقد احتجزتكم .. أردت أن أقول لكم كل شيء
... كنت أقدّر أنكم جميعاً ... هذه آخر مرة ... كان ذلك مني
نزوة خيال ...

واضح انه كان يتعش ويتحمس نوبات نوبات ، ويخرج في الفينة
بعد الفينة من حالة تشبه الهذيان ، حتى اذا عاد اليه وعيه كاملاً ، كان
يستجمع ذكرياته ويعرض في أكثر الاحيان شذرات أفكار لعله كان منذ
زمن طويل قد أنضحها وحفظها على ظهر القلب اتساء الساعات الطويلة
الفارغة التي كان يقضيها في السرير منزلاً مؤرقاً !

وأضاف يقول بلهجة جافة :

- طيب ... وداعا ! هل تظنون أن من السهل عليّ أن أقول لكم :
« وداعا » ؟ ها ها ها ! ...

ضحك ضحكة ساخرة متحسرة لأنه فكّر في خراقة سؤاله . واذ
آله أنه لم يستطع التعبير عن كل ما كان يريد أن يقوله صرخ يقول بلهجة
غاضبة :

- يا صاحب السعادة ، يشرفني أن أدعوك الى حضور جنازتي ،
هذا اذا رضيت أن تتنازل فتلبى الدعوة ، وانتي ... أدعوكم جميعاً أيها
السادة ، أدعوكم أن تضماموا الى الجنرال ! ...

وأخذ يضحك ، لكن ضحكه كان ضحك انسان فقد ثقله . صُعقت
اليزابت بروكوفينا ، فتقدمت نحوه خطوة ، وأمسكت ذراعه . فحدّق
اليها بنظرة ثابتة ، وهو ما يزال يضحك ذلك الضحك نفسه الذي تجمد
على وجهه ان صح التعبير .

- هل تعلمون أنني جئت الى هنا لأرى الأشجار ؟ هذه هي الأشجار
... (أشار الى أشجار الحديقة بحركة من يده) . ليس في هذا ما يبعث
على الضحك والاستهزاء ، أليس كذلك ؟

ثم أضاف يقول بلهجة رصينة ، مخاطباً اليزابت بروكوفينا :

- يخيل الىّ أن هذا ليس فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء .

وعاد حاملاً على حين فجأة من جديد ، ثم رفع رأسه بعد لحظة وأخذ يتفحص الحضور باحثاً عن واحد منهم . كان يبحث عن أوجين بافلوفتش الذى كان قريباً منه كل القرب ، على يمينه ، والذى لم يتحرك من مكانه . ولكن هيبوليت كان قد نسى ذلك فهو يستكشف ما حوله باحثاً عن الرجل . فلما أبصره أخيراً هتف يقول متعجباً :

- ها ... لم تتصرف ! لقد ضحكت ضحكاً طويلاً منذ قليل ، حين تصورت اننى أريد أن ألقى من نافذة بيتى خطاباً يدوم ربع ساعة ! ألا فليكن ماثلاً فى ذهنك اننى لم أبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، واننى لبثت راقداً على فراشى واضعاً رأسى على وسادتى زمناً طويلاً أنظر من تلك النافذة وأفكر ... فى جميع الأشياء ... التى ... انك تعلم أن الموتى لا أعمار لهم . لقد عاودتنى هذه الفكرة فى الأسبوع الماضى أثناء ليلة أرق ... هل تريد أن أقول لك ما الذى تخشونه أكثر مما تخشون أى شيء آخر ؟ انكم تخشون صدقنا رغم ما تحملونه لنا من احتقار ! هذه أيضاً فكرة وافتنى فى الليل بينما كان رأسى على الوسادة ... أتظنين أننى أردت أن أتھكم عليكم منذ قليل يا أليزابت بروكوفينا ؟ لا لم تكن هذه نيتى . أنا لم أكن أبغى الا أن أمدحك ... لقد قال كولبا ان الأمير عاملك معاملة طفلة ... هذا صحيح ... ولكن ماذا ؟ لقد كنت أريد أن أضيف شيئاً آخر ...

قال ذلك وخبأ وجهه فى يديه وفكر لحظة .

- ها ... نعم ... تذكرت : حين تهيأت منذ قليل للانصراف خطر

بإلى فجأة ما يلي : هؤلاء أناس لن أراهم مرة أخرى بعد اليوم أبداً ،
أبداً • لا ولن أرى الأشجار مرة أخرى • ولن يقع بصرى بعد الآن الا
على جدار الآجر الأحمر من منزل ماير • أمام نافذتى ••• فقلت لنفسي :
اشرح لهم هذا كله ••• حاول أن تفهمهم • هذه حسناء رائعة الجمال ••
وأنت رجل ميت ••• فقدّم نفسك بهذه الصفة ••• قل لهم « ان فى وسع
ميت أن يتكلم بغير تحفظ » ••• وان الأميرة ماريا ألكسييفنا لن تقول عن
هذا شيئاً * ••• ها ها ها ••• ألا تضحكون ؟ (ألقى هذا السؤال وهو
يجيل بصره حواله مرتباً) • سأقول لكم اننى اثناء رقاد رأسى على الوسادة
كانت توافينى خواطر كثيرة • فاقنعت ، فيما اقنعت به ، بأن الطبيعة ساخرة
جداً ••• لقد قلت منذ قليل اننى ملحد ، ولكن هل تعلمون أن الطبيعة ••
لماذا عدتم تضحكون ؟ ألا انكم لقساء عناة !

قال ذلك فجأة وهو يثبت على مستمعيه نظرة حزن واستياء • ثم ختم
كلامه قائلاً بلهجة مختلفة كل الاختلاف ، لهجة فيها رصانة واقتناع ،
كأن ذكرى أخرى قد ومضت فى ذهنه :
- أنا لم أفسد كوليا •

قالت له اليزابت بروكوفينا معذبة :
- لا أحد يسخر منك ، لا أحد ••• لسوف نستدعى لك فى الغد

طبيباً آخر • ان الطبيب الأول قد أخطأ • ولكن اجلس ! انك لا تقوى
على الوقوف ! وأنت تهذى •••

ثم صرخت اليزابت بروكوفينا تقول مضطربة أشد الاضطراب وهى
تجلسه على مقعد :

- آه ••• ماذا نفعل له الآن ؟

والتمعت على خدها دمة صغيرة •

فلبت هيبوليت مذهولاً خلال لحظة من الزمن، ثم رفع يده ، ومدّها
خجلاً وجلاً فلمس تلك الدمعة الصغيرة ، وطافت بوجهه ابتسامة طفل .
قال فرحاً :

- انك لا تعلمين مدى ما أشعر به نحوك من ... ان كوليّا يحدثني
عنك دائماً بحماسة عظيمة ... انتى أحب حماسته . أنا لم أفسده ! هو
الوحيد الذى أودعه خواطرى وأفكارى . لكم تمنيت أن يشارك الجميع
فى هذا الميراث ، ولكن لم يكن ثمة أحد ، لم يكن ثمة أحد ... ولقد
تمنيت كذلك أن أكون رجلاً فعلاً . ذلك من حقى ... وما أكثر
الأشياء التى كان يمكن أن أتمناها أيضاً ! أما الآن فقد أصبحت لا أرغب
فى شيء ، وأصبحت لا أريد أن أرغب فى شيء . لقد آليت على نفسى أن
لا أتمنى بعد اليوم شيئاً ، فليبحث الآخرون بعدى عن الحقيقة ! نعم ، ان
الطبيعة ساخرة !

وأضاف يقول بحرارة :

- لماذا تخلق الطبيعة أفضل الناس لتسخر منهم بعد ذلك ؟ هذا
ما تعتمد اليه الطبيعة : حين أظهرت البشر على الانسان الوحيد الذى عدّ
الانسان الكامل فى هذا العالم ، عهدت اليه برسالة أن ينطق بأقوال كانت
سبباً فى سفع دماء بلغت من الغزارة أنها لو سُفّحت مرة واحدة لحنقت
الانسانية ! انها لسعادة أن أموت ! ذلك أنتى اذا لم أمت فقد يطلق لسانى
كذبة رهية بدافع من الطبيعة ! ... أنا لم أفسد أحداً ... لقد أردت أن
أحيا لسعادة الناس جميعاً ... أردت أن أحيا لاكتشاف الحقيقة ونشرها
... كنت أنظر من نافذتى الى جدار منزل ماير فأتصور أنه يكفينى أن
أتكلم خلال ربع ساعة حتى أقنع جميع البشر ، نعم ، جميع البشر ! وهأنا ذا
يُتاح لى ، مرة واحدة طوال حياتى ، أن أجد نفسى على صلة لا بجميع
البشر ، بل بكم وحدكم ، فماذا كانت النتيجة ؟ لا شيء ! كانت النتيجة

أنكم تحتقروننى • هذا دليل على اننى غبى أحمق ، على اننى امرؤ لا خير فيه ولا فائدة منه ، وعلى أننى قد آن لى أن أزل ! وحين أزل ، فلن أخلف ورائى أية ذكرى : لن أترك أى صدى ، لن أترك أى أثر ، لن أترك أى عمل ! لم أنشر أى رأى ، لم أذع أية قناعة ! لا تضحكوا من غبى أحمق ! انسوه ! انسوا كل شئ ! أرجوكم أن تنسوا ! لا تكونوا قساة ! هل تعلمون اننى لو لم يصبنى مرض السل لانتحرت؟! •••

كان يبدو عليه أنه يريد أن يفيض فى الكلام مزيداً من الافاضة ، وأن يتحدث مدة طويلة أيضاً ، ولكنه لم يستطع أن يستمر ، فتهاوى فى مقعده ، وغطى وجهه يديه ، وأخذ يبكى كطفل صغير •

عادت اليزابت بروكوفينا تكرر سؤالها :

– ماذا نفعل له الآن ؟ هلاً قلم ؟

وهرعت اليه فتناولت رأسه وشدته الى صدرها شداً قوياً • كان هيوليت ينشج نشيجاً عنيماً • قالت مخاطبه :

– كفى كفى ! كفى ! لا تبك ، كفى بكاءً ! انك لطفل طيب ! سيففر الله لك بسبب جهلك • هياً ! كفى ! كن رجلاً ! ••• والا شعرت بعد ذلك بخزى وعار •••

قال هيوليت وهو يحاول أن يرفع رأسه :

– لى هناك أخ وأخوات ، صغار مساكين أبرياء ••• ستفسد هى أخلاقهم ! انك أنت قديسة ••• أنت نفسك طفلة ، فانقذهم ! اتزعيهم منها ••• انها ••• هى ••• عار •• آه •• ساعديهم ، أنجديهم ! لسوف يرد الله اليك الحسنه أضعافاً مضاعفة ! أنجديهم حباً بالله ، حباً يسوع !

صاحت تقول فى غضب :

- هلاً قلت لنا ما الذى يجب علينا أن نفعله الآن يا ايفان
فيدوروفتش ! هلاً تفضلت فخرجت عن صمتك الوقور المهيب ! اذا لم
تتخذ قراراً فلاأقضيّ الليلة كلها هنا ! لقد سئمت النزول على مشيئتكَ ،
والخضوع لاستبدادك !

كانت تتكلم بحماسة شديدة واندفاع قوى ، وتطالب بجواب على
الفور . وفى مثل هذه الظروف يلتزم الحضور الصمت ولو كانوا كُثراً ،
ولا يزيدون على الاهتمام السلبي والاستطلاع النائي . انهم يتحاشون
الافصاح عن شعورهم وعلان رأيهم ، وان كانوا يريدون ذلك كله بعد مدة
طويلة . ولقد كان بين الحضور حينذاك أناس قد يبقون الى مطلع الصبح
دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . فهذه كانت حالة باربارا آرداليونوفا التى
ظلت متحجّة طوال السهرة ، دون أن تفتح فاهها بكلمة واحدة ، ولكنها
كانت فى الوقت نفسه منتبهةً أشد الانتباه الى كل ما كان يقال - ولعل
هناك أسباباً كانت تدعوها الى ذلك وتحضها عليه .

قال الجنرال :

- يا صديقتى العزيزة ، رأى أن ممرضةً تسهر عليه خير له من
كل هذا الاضطراب الذى تضطربينه ؟ ومن المفيد أن يقضى الليل هنا
رجل هادئ الزواج أهل للثقة . على كل حال ، يجب أن نطلب الى الأمير
أن يصدر أوامره ثم ترك المريض فوراً ليرتاح . ويمكن أن نعود
الى الاهتمام به فى الغد .

قال دوكتورنكو يسأل الأمير بلهجة حائقة لازعة :

- أو شك الليل أن ينتصف . ونحن منصرفون . فهل يأتى معنا أم
يبقى عندك ؟

قال الأمير :

- تستطيعون أن تبقوا معه اذا شئتم •

فانبرى السيد كيلر ينادى الجنرال بحماسة :

- يا صاحب السعادة ، اذا كان ينبغي أن يقضى الليل هنا رجلٌ
أهل للثقة ، فأننى سيسرنى أن أضحي فى سبيل صديقى ... هذا انسان
ذو نفس كبيرة ! لطالما عددته رجلاً عظيماً يا صاحب السعادة ! صحيح
أنتى أنا بغير ثقافة ، ولكنه هو ، حين يتكلم ، تتساقط من فمه لآلىء ، لآلىء
يا صاحب السعادة !

أشاح الجنرال وجهه متمللاً برماً •

وقال الأمير يجيب عن الأسئلة الحائقة التى ألقته عليه الزابت
بروكوفينا :

- سوف يسرنى أن يبقى • ان من الصعب عليه طبعاً أن ينصرف •
- أظن أنك تنام ؟ اذا كنت لا تريد أن تتولى أمره فسأقله الى بيتى •
آه ... يا رب !... أرى أن الأمير نفسه لا يكاد يستطيع الوقوف على
قدميه • أتراك مريضاً يا أمير ؟

ان الزابت بروكوفينا كانت قد توقعت بعد الظهر أن ترى الأمير
راقداً على فراش الموت • فلما رأته قائماً بالغت فى تقدير ابلاله من
مرضه • ان نوبته الأخيرة ، والذكريات الكاوية التى ترتبط بها ، والمتاعب
والانفعالات التى عاناها فى هذه السهرة بسبب موضوع « ابن بافلشتيف »
أولاً ، وبسبب حالة هيبوليت بعد ذلك ، ان هذا كله قد أهاج ما يتصف
به من حساسية مريضة وانفعالية شديدة فاذا هو يصير الى حالة تقارب
الحمى • ثم انهما جديداً ، بل قل خشية جديدة أخذت تُقرأ الآن فى

عنيه : لقد كان ينظر الى هيوليت فى قلق كأنما هو يتوقع منه انفجاراً
جديداً •

ونهبض هيوليت على حين فجأة شاحب الوجه شحوباً رهيباً • ان
سحته النقلة تعبر عن شعور فظيع بالعار ، شعور مرهق يتجلى خاصة
فى النظرة المبغضة الكارهة المذعورة التى كان يجليها على الحضور ، ويتجلى
فى الابتسامة التائهة الزائفة الماكرة الساخرة التى كانت تقلص شفثيه
المرتعتين • ثم خفض عينيه ، وجر نفسه بخطى مترنحة نحو بوردوفسكى
ودكورنكو اللذين كانا ينتظرانه عند مخرج الشرفة ، وهو ما يزال
يتسم تلك الابتسامة نفسها • كان يريد أن ينصرف معهم •

هتف الأمير يقول :

— ذلك بعينه ما كنت أخشاه ! كان لا بد أن يحدث هذا !

فالتفت هيوليت نحوه فجأة وقد اعترته نوبة حنق مسعور ترعش
جميع قسماى وجهه ، وقال يخاطبه :

— آ ••• ذلك ما كنت تخشاه ؟ كان لا بد أن يحدث هذا ؟ ألا
فاعلم اذن أنه اذا كان هنا شخص أكرهه (زأر يقول هذا الكلام بصوت
حاد صافر يصاحبه رشاش لعاب) — وأنا أكرهم جميعاً جميعاً — فان ذلك
الشخص هو أنت ، أنت ! أنت أيها اليسوعى المنافق المرائى ، المغتوه
الأبله ، المليونير المحسن • انتى أكرهك أكثر مما أكره أى انسان
وأى شىء فى هذا العالم • لقد أدركت حقيقتك منذ زمن طويل فأخذت
أكرهك • انتى منذ اليوم الذى سمعت فيه عنك نفرت منك وأبغضتك من
أعماق قلبى ••• أنت الذى استدرجتى الى هذا الفخ ! أنت الذى اطلقت
فى نفسى نوبة الهذيان هذه ، لقد دفعت رجلاً محتضراً الى أن يجلل نفسه
بالخرى والعار • أنت أنت المسئول عن خطتى وصغارى ودنامتى ! لو علمت

أنتى سأعيش لقتلتك ! ما أنا فى حاجة الى احسانك • لا أريد أن يحسن أحد الى • هل تسمعى ؟ لا أريد احسان أحد ! لقد أصابتى نوبة هذيان • فليس من حقك أن تستمد من هذا انتصاراً !... انتى ألغنكم جميعاً ، ألغنكم جميعاً الى الأبد ...

دمدم ليديف يقول لأليزابت بروكوفينا :

— لقد أخجله وأخزاه أنه بكى • « كان لا بد أن يحدث هذا » •
ما أعجب الأمير ! لقد قرأ قرارة نفسه وأعماق ضميره !

لكن اليزابت براكوفينا لم تتنازل أن تنظر اليه • كانت منتصبه بشموخ وكبرياء ، مرفوعة الرأس ، تتصفح وجوه هؤلاء « الناس التافهين » ، بفضول يسوده احتقار • وحين أنهى هيوليت كلامه ، هزّ الجنرال منكبيه ، فرمقته عندئذ بنظرة غاضبة ، شملته من قمة الرأس الى أخمص القدم ، كأنها تحاسبه على هذه الحركة وتطلب منه تفسيراً لها ، ثم لم تلبث أن أسرع تلتفت الى الأمير فتقول له :

— شكراً يا أمير ، يا صديق أسرتنا الغريب الأطوار ، شكراً على هذه السهرة الممتعة التى ندين بها لك • أحسب أنك الآن فرح بأنك استطعت أن تشركنا نحن أيضاً فى أعمالك الجنونية ! كفى هذا ! يا صديقى ، لا أقل من أن نشكر لك أنك أتحت لنا أن نعرفك حق معرفتك !...

وبحركات حائقة غاضبة أخذت ترتب خمارها بانتظار أن ينصرف « هؤلاء الناس » • وفى هذه الأثناء وصلت عربية تقلّهم ، أنتى بها ابن ليديف ، الطالب فى الكلية ، الذى كان دكتورنكو قد أوفده منذ ربع ساعة ليحجى بمرربة • وسرعان ما اعتقد الجنرال أن من واجبه أن يضيف كلمة صغيرة الى الأقوال التى نطقت بها امرأته ، فقال :

- الحق يا أمير أتنى ... أنا نفسى ... لم أكن أتوقع أن ... بعد كل شئ ، بعد كل علاقات الصداقة التى تجمعنا ! ... وأخيراً يا أليزابت بروكوفينا ...

صاحت آديلايد تقول وهى تسرع نحو الأمير وتمد اليه يدها :
- ما هذا الذى تقولون ؟ كيف يمكنكم أن تعاملوه هذه المعاملة ؟
فابتسم لها الأمير ابتسامة تائهة • الا ان وشوشة متعجلة لم تلبث أن
لسمت أذنه لسع النار • ان آجلايا هى التى دمدمت تقول له هامة :
- اذا لم تطرد هؤلاء الناس الأذنياء فوراً ، فلأكرهك طوال حياتى ،
طوال حياتى ، ولأكرهك وحدك !

كانت تبدو خارجة عن طورها ، ولكنها أشاحت عن الأمير من قبل
أن يتسع وقته لأن ينظر إليها •

على أن الشرفة كانت قد خلت من كل من يمكن طرده : كانوا قد
استطاعوا أن يضعوا المريض فى العربة كيفما اتفق ، وكانت العربة قد
تحركت منصرفة •

- هل تعتقد أن هذا سيدوم مدة طويلة يا ايفان فيدوروفتش ؟
ما رأيك ؟ هل تظن أن سيكون على أن أحتمل هؤلاء الصبية الأشرار
المسيئين زمناً طويلاً ؟

- ولكن يا صديقتى ... أنا من جهتى مستعد طبعاً ... والأمير ..
ومدَّ ايفان فيدوروفتش يده الى الأمير مع ذلك ، ولكنه قبل أن
يتسع وقت الأمير لمصافحته ، أسرع يجرى وراء اليزابت بروكوفينا التى
كانت تهبط درجات الشرفة مظهرة غضبها فى صخب • أما آديلايد
وخطيبتها وألكسندرا فقد ودَّعا الأمير بمودة صادقة • وكان أوجين

بافلوفتش معهم ، وهو الشخص الوحيد الذى كان مشرق المزاج منشرح النفس • وقد دمدم يقول بابتسامة فيها أكبر التلطف :

— حدث ما كنت أتوقعه ! ولكن من المؤسف يا صديقى المسكين أنك قد أصابك من ذلك ألم وعذاب •

وخرجت آجلايا دون أن تودّع الأمير •

على أن هذه السهرة كانت تهيم مفاجأة جديدة • لقد كان على اليزابت بروكوفيتنا أن تقع لها مقابلة ما كان يمكن أن تدور فى خلد أحد •

فقبل أن تصل الى أسفل السلم المفضى الى الطريق (الذى يدور حول الحديقة) كانت تجرى أمام فيلا الأمير مركبة باهرة هى عربة فخمة يجرها حصانان أبلجان ، وفيها سيدتان ترتديان أجمل حلة ، فما ان صارت العربة على مسافة عشرة أمتار من الفيلا حتى وقفت فجأة ، والتفتت احدى السيدتين بحركة سريعة كأنها لمحت شخصاً تعرفه هى فى حاجة ملحة الى أن تراه بسرعة •

وصاحت السيدة تقول بصوت واضح متناغم :

— أوجين بافلتش ! أهذا أنت ؟

فارتعش الأمير لهذه الصرخة ، ولعل أحداً آخر قد ارتعش أيضاً • وتابعت السيدة كلامها تقول :

— ما أسعدنى بالشور عليك أخيراً ! لقد أوفدت الى المدينة رسولين

ظلا يبحثان عنك طوال النهار فلم يظفرا بطائل •

تسمّر أوجين بافلوفتش فى وسط السلم كأن صاعقة قد نزلت عليه • وتوقفت اليزابت بروكوفيتنا فى مكانها أيضاً ، ولكن دون أن يظهر عليها ما ظهر عليه هو من علائم الذهول • ورمقت السيدة الوقحة بنظرة فيها

ذلك تعالى الشديد نفسه وذلك الازدراء الكبير نفسه الذى اشتملت عليه
نظرتها الى أولئك « التافهين » منذ قليل ، ثم سرعان ما حوَّلت بصرها الى
أوجين بافلوفتش متفحصةً مستفهمة !

تابع ذلك الصوت نفسه يقول :

– لدىّ نأ يجب أن أزفه اليك . لا تقلقك سندات كوبفر * . لقد
لبى روجويين طلبى فاشتراها بفائدة ثلاثين فى المائة . فتستطيع أن تطمئن
خلال ثلاثة أشهر على الأقل . أما بيسكوب وسائر أولئك الأوباش فستفق
معهم آخر الأمر على حل بغير خصام . معنى ذلك أن الأمور كلها تجرى
على ما يرام . فابتهج وافرح ! الى اللقاء غداً !

واستأنفت العربية جريها ولم تلبث أن غابت .

هتف أوجين بافلوفتش يقول وقد احمر وجهه استياء وأخذ يلقي
على ما حوله نظرات دهشة وذهول :

– هذه مجنونة ! انى لأجهل كل الجهل ماذا أرادت أن تقول . ماتلك
السندات التى تكلمت عنها ؟ من هى هذه المرأة ؟

حدّقت اليزابت بروكوفيتسا اليه تائيتين أخريين ، ثم استدارت
واتجهت نحو منزلها يتبعها ذووها . وعاد أوجين بافلوفتش الى الأمير فى
الشرقة بعد دقيقة . وكان الأمير فى حالة انفعال شديد واضطراب قوى .

– ألا تدري حقاً ماذا كان معنى ذلك يا أمير ؟

فأجابه الأمير متأثراً هو نفسه متأثراً مؤلماً :

– لا أدرى !

_ لا ؟

_ لا !

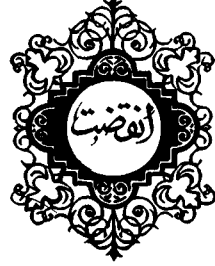
قال أوجين بافلوفتش وهو ينفجر ضاحكاً :

_ أنا أيضاً لا أدري ! ان قصة السندات هذه لا تخصني ولا شأن

لي بها ، أقسم لك على ذلك • ولكن ماذا بك ؟ كأنني بك تتهوى •••

_ لا ••• لا ••• أؤكد لك أن لا •••

الفصل الحادي عشر



ثلاثة أيام قبل أن يهدأ حق آل ايباتشين هدوءاً كاملاً . وكان الأمير ، على عادته ، ينسب الى نفسه كثيراً من الأخطاء ويتنظر صادقاً أن يعاقب . ومع ذلك كان قد اقتنع في هذه المرة ، منذ البداية ، أن اليزابت بروكوفينا لا يمكن أن تكون قد غضبت منه هو ، وأنها إنما غضبت من نفسها . لذلك احتار أشد الحيرة وحزن أكبر الحزن حين رأى أنهم ظلوا حاقدين عليه ثلاثة أيام . وهناك أحداث أخرى عديدة غدت قلقه في أثناء ذلك . وكان أحد تلك الأحداث خاصة هو الذي أهاج مزاجه الشكك وطبعه الريب شيتاً بعد شيء خلال هذه الأيام الثلاثة (كان الأمير يؤاخذ نفسه في الآونة الأخيرة على أنه يترجع بين حدين أقصيين ، فهو تارة « واثق ثقة » سخيفة في غير محلها ، وهو تارة « شديد الشك والحذر والريب الى درجة مظلمة دنيئة ») . المهم أنه في نهاية اليوم الثالث كانت حادثة السيدة الغريبة الأطوار التي أطلت من عربتها الفخمة ونادت أوجين بافلوفتش ، كانت هذه الحادثة قد تضخمّت في نفسه واتخذت أبعاداً مخيفة محيرة ملفزة . وكان اللغز يترجم عن نفسه في ذهنه (ناهيك عن وجوهه الأخرى) بالسؤال التالي : أتقع تبعة هذا « العمل الشاذ » الجديد على عاتقه هو أم تقع تبعته على عاتق ؟ . لكنه كان لا يمتضى الى حد النطق باسم . أما الأحرف الأولى من الاسم ، وهي : ن ، ف ، ب ، فلم تكن في اعتقاده الى مزاحاة بريئة من مزاحات الأطفال

لا يستطيع المرء أن يتلبث فكره عندها اذا هو لم يشأ أن يقع في الخزي
والعار .

على أن الأمير قد سعد ، في غداة تلك السهرة الفاضحة التي كان
يعد نفسه «سبيها» الرئيسي ، قد سعد بزيارة الأمير « شتند » و آديلائي
الذين كانا عائدتين من نزهة في الصباح ، فمرّا به قائلين « انهما يريدان
« خاصة » أن يستطلعا أخبار صحته . » وقد لاحظت آديلائي أثناء
دخولها في الحديقة شجرة قديمة رائعة كثيفة مجوّفة الجذع كثيرة التشقق
تحمل أغصانها الطويلة ذات العقد أوراقاً فتية نضيرة ، فأصرت اصراراً
شديداً على أن ترسمها ، ولم تكد تتكلم أثناء الزيارة التي دامت نصف
ساعة الا عن هذه الشجرة . وأبدى الأمير « شتند » كثيراً من
التحجب والتودد وكان كيّساً لبقاً على عادته . سأل الأمير عن الماضي وأيقظ
ذكرى الأحداث التي يرجع عهدها الى أولى العلاقات التي قامت بينهما ،
حتى انه لم يكد يتكلم عما جرى في الليلة البارحة .

ونفذ صبر آديلائي أخيراً فاعترفت مبتسمة بأنهما جاءا اليه خفية ،
ولم تزد على ذلك شيئاً ، غير أن هذا الاعتراف كان كافياً لفهام الأمير أن
أبويها ، ولا سيما الزابت بروكوفينا ليسا راضيين عنه . ومع ذلك لم
ينبس الأمير « شتند » ، ولا نبست آديلائي ، أثناء زيارتهما ، بكلمة
واحدة عن الجئالة ، ولا عن آجلايا ، حتى ولا عن ايفان فيدوروفتش .
وحين انصرفا لانمام نزهتهما لم يدعوا الأمير الى اصطحابهما . أما
أن يدعوا الى زيارتهما فذلك أمر لم يكن محل بحث أصلاً . وقد أفلتت
من آديلائي بهذه المناسبة عبارة ذات دلالة ، فانها اذ تكلمت عن لوحة من
لوحاتها المرسومة بالألوان المائية وأظهرت رغبتها فجأة في أن يراها الأمير ،
قالت : « ما السبيل الى أن أستطيع أن أريك الصورة في وقت أقرب ؟
اسمع !... سأرسلها اليك هذا اليوم نفسه مع كوكليا اذا جاء الى دارنا ،

أو أجيتك بها أنا نفسى غداً أتاء نزهتى مع الأمير . ، وقد أسعدها ، حين أوحى بهذه الفكرة ، أن تكون قد وُقِّعت الى حل المسألة حلاً حاسماً يرضى الجميع .

وفى لحظة التوديع تقريباً بدا على الأمير « شتت . . » أنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة . قال يسأل الأمير :

– بالنسبة ، ألا تعرف يا عزيزى ليون نيقولايفتش ، مَنْ تلك السيدة التى نادت أوجين بافلوفتش أمس من عربتها ؟
قال الأمير :

– هى ناستاسيا فيليوفا ؟ ألم تعرفها ؟ لكننى لا أدرى مع من كانت !
قال الأمير « شتت . . . » بحرارة :

– أعرفها لأننى سمعت عنها ؟ ولكن بماذا صاحت ؟ أعترف لك بأن ما قالته كان فى نظرى لغزاً فى نظرى أنا وفى نظر الآخرين .
أجابه الأمير بكثير من البساطة :

– تكلمت عن سندات على أوجين بافلوفتش لا أدرى ما هى ؟ وقالت ان هذه السندات قد انتقلت تليّة لطلبها من يدى مراب الى يدى روجوين الذى سيمهل أوجين بافلوفتش فترة من الوقت .

– ذلك ما سمعته يا عزيزى الأمير ، لكنه ليس معقولاً ! ان أوجين بافلوفتش لا يمكن أن يكون قد وقّع أى سند ! انه غنى جداً صحيح أن هذا حدث له فى الماضى بسبب خفته وطيشه أما أن يكون رجل له ثروة طائلة كثروته ، قد وقّع سندات لمراب من المرايين وأصبح قلقاً لاقتراب موعد دفعها ، فذلك شيء مستحيل . ثم انه لشيء مستحيل أيضاً أن تكون العلاقة بينه وبين ناستاسيا فيليوفا حميمة الى هذا الحد ، وأن تُرفع بينهما الكلفة فإذا هى تخاطبه بصيغة المفرد دون تحرج .

ذلك هو اللغز الرئيسى • انه يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يفهم من ذلك شيئاً البتة ، وانى لأصدقك كل التصديق • لذلك رغبت أن أسألك ياعزيزى الأمير هل تعرف عن هذا الأمر شيئاً • أقصد : هل وصلت الى مسامعك شائعة من الشائعات مثلاً ؟

- لا ، لا أعرف عن هذه القضية شيئاً ، وأؤكد لك أنتى لا شأن لى بها •

- ما أغربك اليوم يا أمير ! حقاً اننى أنكرك ولا أعرفك ! هل يمكن أن يكون قد خطر ببالى أن لك مشاركة ما فى قضية كهذه القضية ؟ دعك ... أنت اليوم فى غير حالتك الطبيعية •
قال له ذلك ثم عاقه وقبّله •
قال ليون نيقولايفتش :

- مشاركة ما فى « قضية كهذه القضية » ؟ ولكننى لا أرى هنا أية قضية •

أجاب الأمير « شئت • • • » بلهجة جافة :

- ليس هناك أى شك فى أن هذه المرأة قد أرادت الاساءة الى أوجين بافلوفتش ، بطريقة من الطرق ، مسندةً اليه ، أمام شهود ، أعمالاً ليست أعماله ولا يمكن أن تكون أعماله •

بدا الاضطراب على الأمير ليون نيقولايفتش ، لكنه ظل يحدق الى محدته بنظرة مستفهمة • وظل محدته صامتاً لا يتكلم •

فدمدم الأمير يقول أخيراً بلهجة فيها شيء من نفاد الصبر :

- ولكن أليست المسألة مسألة سندات فحسب ؟ ألم يكن مدار الكلام أمس على سندات لا أكثر ؟

- غريب • اننى أقول لك الأمر وما عليك الا أن تحكم بنفسك :
ما عسى أن يكون هنالك من شيء مشترك بين أوجين بافلوفتش وبين تلك
... أو بينه وبين روجوين أيضاً ؟ أعود فأقول لك انه يملك ثروة
طائلة • أنا أعرف هذا من مصدر مطلع موثوق به • وهو عدا ذلك متأكد
أنه سيرث من عمه • كل ما فى الأمر أن ناستاسيا فيليوفا ...

قطع الأمير « شتت • • • » كلامه من جديد : كان واضحاً أنه
لا يريد أن يقول عن المرأة الشابة أكثر مما قال •

فسأله ليون نيقولايفتش فجأة بعد لحظة صمت :

- ألا يبرهن هذا على أنه يعرفها ، على كل حال ؟

- جائر جداً • هو رجل متنقل الهوى مولع بالمباهج ! مهما يكن من
أمر ، فهما اذا كانا قد تعارفا فانما تعارفا فى الماضى • لا بد أن تعارفهما
يرجع عهده الى سنتين أو ثلاث سنين • كان فى ذلك الأوان ما يزال على
صلة بتوتسكى • أما الآن فلا يمكن أن يجتمعهما شيء • وكيف كان
الأمر فان الصلة بينهما لم تكن فى يوم من الأيام حميمة الى الحد الذى
يسمح لهما بأن يتخاطبا بصيغة المفرد • أنت نفسك تعلم أنها كانت غائبة
الى هذه الآونة الأخيرة ، وأنها ظلت مختفية لا يعثر عليها أحد • وما يزال
كثير من الناس يجهلون أنها عادت • لم ألاحظ عروتها الا منذ ثلاثة أيام •

قالت آديلايد :

- عربة فخمة !

- نعم فخمة !

وانصرف الزائران وهما يظهران للأمير أرق العواطف ، حتى لكأنه
أخوهما •

خرجت للأمير من هذه الزيارة إشارة هامة • صحيح أنه اشتبه في الأمر اشتباهاً قوياً منذ الليلة البارحة (وربما قبل ذلك) ، لكنه لم يكن قد جرؤ حتى الآن أن يرى أن مخاوفه في محلها • أما الآن فقد اتضحت له الأمور : ان الأمير « شتت ٠٠٠ » ، على تأويله الحادث تأويلاً خطأ ، يقارب الحقيقة مع ذلك ، ويحذر على كل حال أن ثمة « مكيدة » • (قال الأمير يحدث نفسه : ولعله يدرك الأمر ادراكاً صحيحاً بينه وبين نفسه ، ولكنه لا يريد اعلان ادراكه ويعتمد تأويل الحادث تأويلاً خطأ) • هناك شيء يخطف الانتباه خاصة : هو أنهما جاءا (ولاسيما الأمير «شتت ٠٠٠») آملين أن يحصلوا على ايضاح ما ؟ وهذا يعنى انهما يعدّان الأمير ضالماً في «المكيدة» • ثم اذا كانت القضية هي هذه ، وكان لها هذا الخطر كله ، فذلك دليل على أن تلك « المرأة » تسمى الى هدف رهيب • ولكن ما هو ذلك الهدف ؟ سؤال فظيع ! « وكيف يمكن صرفها عنه ؟ ان من المستحيل ايقافها عن بلوغ غاياتها وتحقيق أهدافها » • ذلك أمر يعرفه الأمير بالتجربة • « هي مجنونة ! مجنونة » •

ولكن ما أكثر هذه الأسرار التي تتراحم في تلك الصبيحة من اليوم ! انها تقتضى أن توضّح كلها على الفور ، وذلك ما أغرق الأمير في ذهول عميق •

وجاءت فيرا ليديفا حاملةً ليوبوتشكا بين ذراعيها ، فسرّى عنه ذلك قليلاً • وظلت تترنر بعض الوقت مرحةً ، ثم جاءت أختها الصغرى فلبت فاعرة الفم من الدهشة ، ووصل أخيراً ابن ليديف ، الطالب في المدرسة الثانوية ، فأكد له أن « كوكب الأفيستين » الذي تذكر رؤيا يوحنا أنه سقط من السماء على الأرض عند ينبوع المياه انما هو في رأى أبيه تنبؤ بشبكة خطوط السكة الحديدية التي تمتد اليوم على أرض

أوروبا • لم يشأ الأمير أن يؤيد هذا الزعم ، واتفق على أن يسأل ليديف نفسه في هذا الأمر لدى أول مناسبة •

روت فيرا ليديفا للأمير أن كيلبر قد أقام عندهم منذ أمس ، وأضافت أن جميع الظواهر تدل على أنه لن يغادروهم قريباً ، لأنه وجد ههنا مجتمعاً يناسبه ، وانعقدت صداقة بينه وبين الجنرال ابفولجين • وقد أعلن أنه لا يمكن عندهم الا ليكمل تعليمه ويحسن ثقافته •

أخذ الأمير ، على وجه العموم ، يزداد سروراً بصحبة أولاد ليديف يوماً بعد يوم •

ولم يظهر كوليا في ذلك النهار : فانه قد ذهب الى بطرسبرج في ساعة مبكرة من الصباح • (وكان ليديف قد سافر منذ الفجر هو أيضاً لأعمال شخصية) •

غير أن الزيارة التي كان الأمير ينتظرها نافذة الصبر انما هي زيارة جبريل آرداليونوفتش الذي كان لا بد أن يجيء في أثناء النهار • وقد وصل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، بعد العشاء فوراً • فلما رآه أخيراً اعتقد أنه أمام شخص لا بد أن يعرف جميع خفايا الأمر حق معرفتها • وكيف يمكن أن لا يعرف جانبا جميع خفايا الأمر وهو الذي يملك مساعدين مثل باربارا آرداليونوفنا وزوجها ؟ غير أن العلاقات بينه وبين الأمير كانت تتسم بطابع خاص بعض الشيء • صحيح أن الأمير قد كلفه بقضية بوردوفسكى ورجاء ملحاً أن يهتم بها • ولكن رغم علامة الثقة هذه ، ورغم ما جرى بينهما قبل ذلك ، تبقى هنالك موضوعات يتحاشيان التحدث فيها ويتجنبان الكلام عنها ، وذلك بنوع من اتفاق صامت • كان الأمير يحس في بعض الأحيان أن جبريل آرداليونوفتش يتمنى من جهته لو تتعقد بينهما صداقة وتقوم بينهما صراحة بغير حدود •

وفى هذا الصباح مثلاً ، حين رآه داخلاً ، شعر بأن جانبا يعتقد أنه قد أن الألوان لتحطيم الجليد وتحقيق التفاهم فى جميع الأمور (كان الزائر مع ذلك متعجلاً ، فلقد كانت أخته تنتظره عند ليديف لشأن ملح يجب أن يسوياه بينهما) •

ولكن لئن توقع جانبا حقاً أن يلقي عليه الأمير وابلاً من أسئلة متعجلة ، وأن يكشف له عن أمور كثيرة على غير ارادة منه ، وأن يفضى اليه بما يعتلج فى قرارة نفسه ، فقد أخطأ خطأ كبيراً • لقد ظل الأمير طوال مدة الزيارة التى دامت عشرين دقيقة ، ظل غارقاً فى خواطره ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً • ولم يلق الأسئلة المتوقعة ، أو قل لم يلق السؤال الهام الذى كان ينتظره جانبا • لذلك ارتأى جانبا أن من المناسب أن يتحفظ هو أيضاً فلا يسترسل • صحيح أنه ظل طلق اللسان كثير الكلام ، ولكنه فى نثرته الخفيفة المتوددة اللطيفة ، تحاشى أن يلامس النقطة الأساسية •

روى فيما روى أن ناستاسيا فيليوفا لم تصل الى بافلوفسك الا منذ أربعة أيام ، وأنها قد جذبت أنظار الناس وأثارت انتباههم • وذكر أنها تقيم عند داريا ألكسييفا ، فى منزل صغير مريح بشارع « البحارة » ، ولكن مركبتها تكاد تكون أفخم مركبة فى بافلوفسك • وقد احتشد حولها منذ الآن جمهور من المولّئين ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ؛ وثمة فرسان يواكبون مركبتها فى بعض الأحيان • وهى على عادتها شديدة التدقيق فى اختيار معارفها ، فلا ترضى أن يكون يقربها الا صفوة منتقاة • غير أن هذا لا ينفى أنها محاطة بما يشبه أن يكون فصيلة من الحرس مستعدة للدفاع عنها أتم الاستعداد متى مسّت الحاجة الى ذلك • وبسببها فسح خطوبته رجل من المزارعين فى بافلوفسك ، وكاد جنرال عجوز أن يلعن ابنه • وهى تصطحب أثناء نزهاتها بالمركبة ، وفى كثير من

الأحيان ، فتاة بارعة الجمال فى السادسة عشرة من عمرها تمت بقربى بعيدة الى داريا ألكسيفا • والفتاة موهوبة فى الفناء ، فصوتها يجتذب انتباه أهل الحى الى منزلهم فى المساء • هذا وان ناستاسيا فيليوفا تعنى بهندامها أشد العناية • فملابسها بسيطة ، لكنها فى غاية الذوق والأناقة ، فاذا أضفنا الى ذلك جمالها ومركبتها أدركنا لماذا تثير غيرة جميع السيدات •

وأقلت لسان جانيا فقال : أما حادث الأمس السخيف فلا شك فى أنه مدبرٌ ، ولا يمكن أن تكون هى المسئولة عنه ، فيجب أن يُعرف الجانى ، والا تجنّى الناس عليها وقالوا فيها سوءاً ، وذلك ما سيحدث قريباً على كل حال •

كان يتوقع أن يسأله الأمير لماذا يرى أن حادث الأمس أمر مدبرٌ ، ولماذا يعتقد أن الناس لن يلبثوا أن يقولوا فى ناستاسيا سوءاً • ولكن الأمير لم يلق أى سؤال عن هاتين النقطتين •

وذكر جانيا بعد ذلك معلومات مفصّلة عن أوجين بافلوفتش ، دون أن يكون الأمير قد سأله عن شىء من ذلك أيضاً • وان كلام جانيا عن أوجين بافلوفتش لأمر غريب ، لا سيما وأنه كان يُفحّم فى الحديث اقحاماً • قال جانيا فيما قال : انه يعتقد أن أوجين بافلوفتش لم تكن بينه وبين ناستاسيا فيليوفا علاقات فى يوم من الأيام ؛ وانه حتى فى الوقت الحاضر لا يكاد يعرفها فقد قدّمت اليه مرة واحدة منذ ثلاثة أيام أو أربعة أثناء النزهة • ومن المشكوك فيه أن يكون قد زارها فى بيتها مرة واحدة ولو بصحبة أشخاص آخرين •

أما مسألة السندات فمن الجائز أن تكون صحيحة (حتى ان جانيا بعدها أكيدة) • صحيح أن أوجين بافلوفتش يملك ثروة كبيرة ، غير أن « شيئاً من الفوضى يسيطر على ادارة أملاكه » ...

وانقطع جانبا عن الكلام فى هذا الموضوع الغريب ، ثم لم يزد شيئاً
عن فعلة ناستاسيا فيليوفا بالأمس ، عدا الإشارة التى ساقها من قبل .
وأخيراً جاءت باربارا آرداليونوفنا تبحث عن جانبا ، لكنها لم تمكث
عند الأمير الا دقيقة واحدة استطاعت خلالها أن تبلغه (دون أن يسألها عن
شئ أيضاً) أن أوجين بافلوفتش يقضى هذا اليوم ببطرسبرج وقد يقضى
بها الغد أيضاً ، وان زوجها (ايفان بتروفتش بتسين) هو الآن ببطرسبرج
فأغلب الظن أنه ذهب الى هناك للاهتمام بشئون أوجين بافلوفتش . واضح
أن فى الأمر شيئاً . وأضافت الى هذا عند انصرافها أن اليزابت بروكوفينا
معتكرة الزواج فى هذا اليوم فهى ترهق من حولها أشد الارهاق وأن
آجلانيا - وذلك شئ أغرب - قد اشتجرت مع الأسرة كلها ، لا مع أبيها
وأما فحسب ، بل مع أختها أيضاً . « ليس ذلك بالأمر الحسن بتاتا » .
حتى اذا فرغت من ذكر هذا النبأ ذكراً يشبه أن يكون عارضاً (وهو نبأ
له فى نظر الأمير شأن خطير كل الخطورة) انصرفت هى وأخوها . ولم
يقل جانبا كلمة واحدة عن قضية « ابن بافلشتشيف » ، سواء من باب
اظهار التواضع ، أو بغية « مداراة عواطف الأمير » . غير أن ذلك لم يمنع
الأمير من أن يشكر له ، مرة أخرى ، ما تحمله من مشقة وما تكلفه من
عناء لانهاء تلك القضية .

سُرَّ الأمير أعظم السرور حين صار وحيداً ، فهبط من على الشرفة ،
واجتاز الطريق الى الحديقة . كان يريد أن يفكر ، وكان هناك قرار يجب
عليه أن يتخذه ، وهو قرار من تلك القرارات التى لا يفكر المرء فيها ،
وانما يعزم أمره عليها دفعة واحدة . وما هو ذا تستولى عليه رغبة مفاجئة
رهيبة فى أن يدع كل شئ فى مكانه ، فيصرف مسرعاً حتى دون أن
يودّع أحداً ، ويرجع الى حيث كان فى البعد والعزلة . كان يوجس أنه
اذا بقى فى بافلوفسك ولو بضعة أيام أخرى ، فسيفوص فى هذه البيئة

غوصاً لا مخرج له منه بعد ذلك قط • غير أنه لم يهب لنفسه عشر دقائق من التفكير ، ولم يلبث أن أيقن أن الهروب «مستحيل» ، وأنه يكاد يكون جبناً وحقارة • ان من طبيعة المشكلات المطروحة عليه أنه لا يحق له أن لا يحلها أو على الأقل أن لا يقف جميع جهوده على إيجاد حل لها •

وعلى هذه الحال النفسية انما عاد الأمير الى بيته دون أن يتنزه أكثر من ربع ساعة • وشعر في تلك اللحظة أنه شقى أكبر الشقاء •

وكان ليديف غائباً فاستطاع كيللر أن يدخل على الأمير أثناء السهرة • لم يكن كيللر سكران ، لكنه كان في حالة نفسية تحضه على البوح والمسارة والنحوى • فسرعان ما أعلن للأمير أنه جاء اليه ليقص عليه قصة حياته كاملة ، فعلى هذه النية انما بقى في بافلوفسك • ولو أراد الأمير أن يطرده لما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ولرفض الرجل أن ينصرف كل الرفض • ولقد أراد أن يندفع في حديث طويل مفكك ، ولكنه ما ان قال بضع كلمات حتى انتقل الى الخاتمة فاعترف بأنه « امرؤ لم يبق له ذرة من خلق » (وما ذلك الا بسبب زوال اعتقاده بالله) حتى أنه بلغ من هذا حد الاقدام على السرقة • قال :

– هل تستطيع أن تتصور أمراً كهذا ؟

قال الأمير :

– اسمع يا كيللر ، لو كنت في مكانك لما اعترفت بهذا ، الا في حالة الضرورة المطلقة • ثم ان من الجائز جداً أن تكون الآن متجنباً على نفسك عن عمد •••

– أنا لا أقول هذا الا لك أنت ، لك أنت وحدك ، وليس لى من ذلك الا هدف واحد هو أن أحاول الارتقاء بأخلاقي • لن أتحدث عن هذا لأحد ، وسأحمل سرى الى قبرى • ولكن ليتك تعلم يا أمير مدى صعوبة

الحصول على مال فى عصرنا هذا ! أين لى بالمال ؟ اسمح لى أن ألقى عليك ذلك السؤال • ان المرء لا يسمع الا جواباً واحداً : « هات لنا ذهباً وماساً ففرضك على رهن » • والذهب والماس هما ما يعوزنى • هل تستطيع أن تتصور هذا ؟ ولقد غضبت آخر الأمر فقلت بعد لحظة : « هل تقرضونى مالا برهن أحجار زمرد ؟ » فقالوا : « نعم ، تقرض مالا برهن أحجار زمرد » ، فقلت وأنا أتناول قبعتى لأخرج : « هذا حسن • شيطان يأخذكم ، يا لكم من أوغاد ! » • أقسم لك !

– هل كنت تملك اذن أحجار زمرد ؟

– أحجار زمرد ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تنظر الى الحياة نظرة فيها هدوء وبراءة وسذاجة يمكن أن توصف بأنها ريفية !

كان شعور الأمير بالحجل من سماع مسارات كيللر أكبر من شعوره بالشفقة عليه • وومضت فى ذهنه فكرة • تساءل : « ألا يمكن أن يُصنع من هذا الانسان شىء باحداث تأثير حسن فيه ؟ » • لكنه استبعد لأسباب شتى أن يكون هذا التأثير الحسن تأثيره هو ، لا من باب التواضع بل بسبب طريقته الخاصة فى مواجهة الأمور • وشيئاً فشيئاً استغرقا فى الكلام وبلغا من الاهتمام بالتحادث معاً أنهما لم يخطر ببالهما أن يفترقا • وأسرع كيللر يعترف بأفعال يترأى للمرء أن من المستحيل على أحد أن يعترف بها • وكان يؤكد عند كل اعتراف بأنه نادم نداماً صادقاً وبأن « عينيه تفيضان دموعاً » ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض أخطائه بلهجة اعتزاز ، وأن يعرضها فى بعض الأحيان عرضاً فيه من قوة الهزل وشدة الاضحاك أنه والأمير قد انتهيا الى الاغراق فى ضحك كضحك المجانين •

قال الأمير أخيراً :

- المهم أن فيك ثقة كثقة الأطفال وأن لك صراحة يندر مثلها. هل تعلم أن هذا كافٍ ليحمل المرء على أن يفر لك أموراً كثيرة ؟
فقال كيللر مؤيداً كلام الأمير وقد رقّ قلبه من التأثر :

- نفسى نبيلة ، نبيلة وذات شهامة ! ولكن المسألة يا أمير أن هذا النبل لا يوجد الا وجوداً مثالياً ، فوجوده وجود بالقوة لا بالفعل ان صحّ التعبير ! انه لا يتحقق فى الواقع أبداً . ولمَ هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه .

- لا تيأس . يمكن أن نقول الآن على وجه اليقين انك قد كشفت لى عن قرارة نفسك . يخيل الىّ على الأقل أنه يستحيل أن يُضاف أى شيء الى ما كشفت لى عنه . أليس هذا صحيحاً ؟
فصاح كيللر يقول بلهجة اشفاق ورحمة :

- يستحيل ؟ آه يا أمير ! انك ما تزال تحكم على الناس بأفكار هى أفكار رجل سويسرى ...
قال الأمير متحيراً مدهوشاً :

- هل يمكن أن يكون ثمة أشياء تُضاف الى ما ذكرته ؟ ولكن هلاًّ قلت لى يا كيللر ما الذى كنت تنتظره منى حين بحث لى بهذه الأمور ، ولماذا جئت الىّ ؟

- ما الذى كنت أنتظره منك ؟ أولاً : ان لبساطة نفسك سحرها وفتنتها ، وان المرء ليجد متعة فى الحديث معك برهةً من الزمن . اتنى أعرف على الأقل أن أمامى رجلاً يمتاز بفضيلة لا سبيل الى الشك فيها ؛ وثانياً ... وثانياً ...

لم يكمل كيللر كلامه .
قال الأمير بلهجة فيها كثير من الجلد وفيها صراحة يمازجها شيء من حياء :

- أملك كنت تريد أن تقترض منى مالا ؟

فارتعش كيلر • وحدق الى عيني الأمير مشدوها ، وضرب المائدة
بقبضة يده ضربة قوية وقال :

- هذه بعينها طريقتك في افحام الناس ! آه يا أمير ! ان لك براءة
وسذاجة لم يعرف العصر الذهبي مثلهما ، ثم اذا بنفذك السيكولوجي
العميق يخترق المرء اختراق السهم • ولكن اسمح لي يا أمير • هذا أمر
يحتاج الى تفسير ••• ذلك أنني مذهول حقاً ! صحيح أن نيتي كانت هي
أن أقترض منك مالا ، ولكنك ألقيت على السؤال وكأنك لا تجد في هذا
ما يستحق المؤاخذه فكأن الأمر طبعى تماماً •••

- نعم ، هو منك طبعى تماماً •

- وهذا لا يثيرك ؟

- ولماذا يجب أن يثيرني ؟

- اصغ الى يا أمير : لقد بقيت في بافلوفسك منذ مساء أمس ، أولاً
بسبب اعتباري العظيم للأسقف الفرنسي بوردالو * (لقد فتحت زجاجات
عند ليديف حتى الساعة الثالثة من الصباح) ، وثانياً وخاصة (أقسم لك
بجميع الصلبان أنني أقول الحقيقة) لأنني أردت أن أبوح لك بحقيقة
أمرى كاملة صادقة بغية الارتقاء بأخلاقي • وعلى هذه الفكرة انما نمت
ممتلئ العينين بالدموع في نحو الساعة الرابعة من الصباح • هل تصدق
الآن انساناً زاحر النفس بالشاعر السامية والعواطف النبيلة ؟ انني حين
غفوت غارقاً بالدموع في الداخل والخارج على السواء (ذلك انني بكيت
ناشجاً ، فأنا أتذكر هذا) قد هاجمتني فكرة جهنمية ، فتساءلت : « ماذا
لو اقترضت منه مالا بعد أن أعترف له ؟ » • وعلى هذا النحو انما أعددت

اعترافى طبقاً صغيراً من طعام أضع فيه حشائش مشهية وأرشه بدموع سخية ، وأهينه لاثارة عاطفتك واقتراض مائة وخمسين روبلاً . ألا تجد فى هذا حطةً وصغاراً ؟

- لا شك عندى فى أن الأمور قد جرت على هذا النحو ، ولا تعدو المسألة أن تكون تصادفاً . فكرتان التقتا فى ذهنك عرضاً . هذه حادثة شائعة جداً قد ألفتها وتعودتها أنا نفسى . واعتقد أن هذا غير حسن . هل تعلم يا كيللر أن ذلك هو الشيء آخذه على نفسى ؟ ان ما قلته الآن عن نفسك ، يمكن أن أقوله أنا عن نفسى .

وتابع الأمير كلامه يقول بلهجة انسان تهمة هذه المسألة كثيراً ، فهو يفكر فيها تفكيراً عميقاً :

- حتى لقد اتفق لى أن قدّرت أن جميع الناس هم على هذه الشاكلة ، وعددت ذلك دليلاً على براءتى مما اتهم به نفسى ، اذ لا شيء أصعب على المرء من مناهضة هذه الأفكار « المزدوجة » . اننى أقول هذا عن خبرة وتجربة . لا يدرى الا الله من أين تجيء هذه الأفكار المزدوجة ولا من أن تنجس ! ولكن هأنت ذا تصف ذلك بأنه حطة وصغار ! سيكون علىّ اذن أن أعود الى التخوف من مثل هذه الظاهرة ! على كل حال ، لست أهلاً لأن أحكم عليك ، مع ذلك لا أحسب ان كلمة الحطة أو الصغار هى هنا فى محلها . ما رأيك ؟ لقد عمدت الى المكر والحيلة محاولاً أن تبتر منى بدموعك مالا ، ولكنك تحلف أنت نفسك أن اعترافك كان له هدف آخر ، هدف نبيل منزّه عن الغرض مبرراً من المنفعة . أما المال فقد كنت تريده لتقصف وتلهو ، أليس كذلك ؟ وهذا ، بعد اعتراف كالاعتراف الذى أقدمت عليه ، هو سقوط أخلاقى طبعاً ، ولكن أننى للمرء أن يتخلص من مجون أصبح فيه عادة راسخة ؟ ذلك

مستحيل • وماذا اذن ؟ ان من الأفضل أن يعتمد المرء في مثل هذا الأمر الى حكم ضميره • ما رأيك ؟

كان الأمير يحدّق الى كيللر بنظرة متحيرة الى أقصى حدود التحير • كان واضحاً أن مسألة ازدواج الفكر تشغل باله منذ زمن طويل •
صاح كيللر يقول :

- بعد أقوال كهذه الأقوال التي أسمعها منك ، أصبحت عاجزاً عن أن أفهم كيف أمكن أن يصفوك بأنك أبله •
فاصطبغ وجه الأمير بحمرة خفيفة •

- ان الواعظ بوردالو لم يراع صاحبه ، أما أنت فقد راعيتي وحكمت علىّ حكماً انسانياً • فمن أجل أن أعاقب نفسي ، ومن أجل أن أبرهن لك على مدى تأثري ، فانتى أعدل عن المائة وخمسين روبلاً ، وأكفي بخمسة وعشرين ، فهذا هو المبلغ الذي أحتاج اليه ، مدة أسبوعين على الأقل • لن أعود لأسألك مالاّ قبل انقضاء خمسة عشر يوماً • لقد أردت أن أسرّ آجائسكا ، ولكنها لا تستحق ذلك كثيراً • آه يا أميري العزيز ! ألا فليبارك الله فيك !

هنا دخل ليديف عائداً من بطرسبرج • فلما رأى ورقة بخمسة وعشرين روبلاً في يدي كيللر قطب حاجبيه • غير أن كيللر ، وقد ملك المال ، لم يلبث أن انصرف • فسرعان ما أخذ ليديف يكيل له الهم •
فقال له الأمير أخيراً :

- انك تظلمه • لقد ندمت ندماً صادقا •
- ولكن ما قيمة ندمه ؟ هو كندمي بالأمس : « أنا منحط ! » •
هذه كلمات ! •••

- ماذا ؟ أكانت هذه كلمات لا أكثر ؟ لقد ظننت أنا •••

- اسمع • لك ، لك وحدك سأقول الحقيقة ، لأنك تنفذ الى قرارة قلب الانسان : ان الأقوال والأفعال ، ان الأكاذيب والحقائق ، تختلط عندي بصدق كامل • ففي الحقائق والأفعال انسا يتجلى ندمى وتجلى توبتى ، صدقنى أو لا تصدقنى ... يميناً ان الأمر كذلك • أما الأقوال والأكاذيب فانها تأتى من فكرة جهنمية (لا تبرح ذهنى) بها أحس انى مدفوع الى خداع الناس والاستفادة حتى من دموع الندامة والتوبة ! أحلف لك بشرفى أن الأمر كذلك ! ما كان لى أن أقول هذا الكلام لشخص آخر غيرك ، والا لضحك أو لبصق اشمئزازاً ! أما أنت يا أمير فسوف تحكم على حكماً انسانياً •

هتف الأمير يقول :

- هذا الكلام نفسه قد قاله لى الآخر ؟ ويدو عليكما كليكما أنكما تمتران وتباهيان ! لست أفهم • ولكن الآخر أصدق منك ، أنت الذى تجعل الكذب حرفة لك • هيأ ! كفى رياءً وتضعناً يا ليديف ! لا تضع يدك على قلبك • أليس لديك ما تحب أن تقوله لى ؟ انك لم تأت الى بغير هدف ...

أخذ ليديف يجمد وجهه ويلوى جسمه •

قال الأمير :

- لقد انتظرتك طوال النهار لألقى عليك سؤالاً • قل لى الحقيقة من أول كلمة ، ولو مرة واحدة فى حياتك : ألم تشارك مشاركة ما فى حادثة المركبة أمس ؟

أخذ ليديف يتلوى من جديد ، ثم طفق يضحك ، ثم فرك يديه ، ثم عطس • لكنه لم يعزم أمره على أن ينطق بكلمة •

- أرى أنك شاركت فى الأمر •

- لم أشارك الا مشاركة غير مباشرة فحسب ! أقول لك الحقيقة
خالصة • كان دورى كله فى القضية هو أن أبلغ شخصاً ما فى الوقت
المناسب أن فى دارى ناساً ، وأن بين هؤلاء الناس فلاناً وفلاناً •••

صاح الأمير يقول بلهجة تدل على نفاذ الصبر :

- أعرف أنك أرسلت الى هناك ابنك • هو نفسه قال لى ذلك منذ

قليل •

قال ليديف وهو يقوم بحركات انكار :

- أنا لا شأن لى فى الأمر • ان هذه المكيدة من تدبير أشخاص
آخرين ؛ بل انها لنزوة أكثر مما هى مكيدة •

- ولكن ما المسألة ؟ اشرح ما بنفسك ، ناشدتك الله ! هل يمكن أن
لا تدرك أن هذه القضية تمسنى مباشرة ؟ ألا ترى أنهم يحاولون تلطيخ
سمعة أوجين بافلوفتش ؟

هتف ليديف يقول وقد عاد ينقبض :

- أيها الأمير ، أيها الأمير العظيم ، انك لا تتيح لى أن أقول لك
الحقيقة كلها • لقد حاولت غير مرة أن أبسطها لك ، ولكنك لم تدع لى أن
أكمل كلامى فى لحظة من اللحظات •••

صمت الأمير وفكّر ، ثم قال فى مشقة وعناء ، بلهجة تكشف عن
أنه يعانى صراعاً نفسياً عنيفاً :

- طيب ••• قل لى الحقيقة •

فسرعان ما بدأ ليديف يقول :

- ان آجلایا ایفانوفنا •••

ولكن الأمير صرخ يقول له مندفعاً :

- اسكت ***

كان الأمير محمّر الوجه من الغضب ومن الاستياء وربما من الحجل والحياء • وتابع كلامه فقال :

- مستحيل • هذا كله سخف • هذا كله تلفيق منك أو من أناس مجانين مثلك • اننى أمتنع من أن تكلمنى فى هذا الأمر يوماً !

فى وقت متأخر من الليل ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، وصل كوليا مع حصاد أنباء بعضها من بطرسبرج وبعضها من بافلوفسك • فأوجز رواية الأنباء الآتية من بطرسبرج (وهى تتعلق بهيوليت وحادثة الأس) مؤجلاً الحديث المفصل عنها الى وقت آخر ، متعجلاً الانتقال الى الكلام عن أنباء بافلوفسك • كان قد رجع من بطرسبرج منذ ثلاث ساعات ، وذهب الى دار آل ايباتشين رأساً ، دون أن يعرّج على الأمير • « رهيب ما يحدث هناك » • والسبب الأول للفضيحة هو حادثة المركبة طبعاً • ولكن لا شك أن حادثاً آخر قد وقع ، حادثاً لا يعرفه لا هو ولا الأمير • « وقد تجنبت طبعاً أن أتجسس أو أن أسأل أحداً • ثم انهم قد احسنوا استقبالى حتى لقد احسنوا استقبالى أكثر مما كنت أتوقع • ولكنهم لم يقولوا كلمة واحدة عنك يا أمير » • وهاهو ذا النبأ المثير : لقد تشاجرت آجلايا مع ذويها بشأن جانياء لا يعرف أحد تفاصيل المشاجرة ، ولكن من المعروف أن جانيا هو سببها ، ولا شك فى أن الباعث على المشاجرة كان هاماً خطيراً ، لأن المشاجرة كانت قوية عنيفة • كان الجنرال قد رجع الى البيت متأخراً ، متجهم الهيئة عابس الأسارير ، يصحبه أوجين بافلوفتش الذى استقبل بكثير من الترحيب وكان باشاً مشرق المزاج كثير اللطف والتودد • وهذا نبأ ثان أهم شأنًا : ان اليزابت بروكوفينا قد استدعت باربارا آرداليونوفنا التى كانت مع بناتها ، وحظرت عليها ، دون ضجيج ، أن تدوس قدمها

أرض بيتها بعد الآن في يوم من الأيام ؛ وقد أبلغتها هذا الحظر بكثير من الكياسة والتهذيب على كل حال • « عرفت هذا من فاريا بنفسها » • هذا ما أضافه كوليا • وحين خرجت فاريا من عند الجنرالة وودعت الآنسات كانت الآنسات لا يعرفن أن باب هذا المنزل قد أُغلق دونها الى الأبد وأنها تتركن الى غير رجعة •

قال الأمير متحيراً :

- مع ذلك جاءت الى باربارا آرداليونوفنا في الساعة السابعة •

- وفي الساعة الثامنة انما أمرت بأن لا تعود • اننى متألم لفاريا وجانيا ••• صحيح أنهما لا يفكان عن تدبير المكائد ، فلك عادة لا يملكان التخلص منها • أنا لم أستطع أن أعرف ماذا يدبران ، ولست أحرص على أن أعرف ذلك • ولكننى أؤكد لك يا عزيزى الأمير الطيب أن جانيا له قلب نبيل • هذا رجل ضائع من نواح كثيرة ، لكن له مزايا تستحق أن تُعرف ولن أغفر لنفسى يوماً أننى لم أفهمه قبل هذه المدة • لا أدري ألا يزال على أن أتردد على آل ايبانتشين بعد الذى حدث لفاريا • صحيح أننى منذ اليوم الأول قد احتفظت باستقلالى كاملاً ، وجعلت بينى وبينهم مسافة • ولكن الأمر يحتاج الى تفكير مع ذلك •

قال الأمير :

- انك لتخطئ اذا أخذتك بأخيك شفقة • لئن وصلت الأمور الى ما وصلت اليه فلأن جبريل آرداليونوفتش أصبح خطراً فى نظر اليزابت بروكوفينا • معنى ذلك أن بعض آماله قد تأكدت •

هتف كوليا يسأل مذهولاً :

- أية آمال ؟ ماذا تعنى ؟ أتراك تتصور أن أجلايا ... ذلك لا يمكن ...

لزم الأمير الصمت •

وتابع كوليا كلامه بعد دقيقة أو دقيقتين من سكوت :

- أنت ريباب شكّاك الى درجة رهية يا أمير • لقد لاحظت منذ بعض الوقت أنك تهوى الى ريبية فيها غلو ، حتى أخذت لا تصدّق شيئاً ، وحتى صرت تفترض كل شيء ... ولكن هل ترانى استعملت كلمة « الريبية » فى محلها ؟

- أظن ، رغم اننى لست واثقاً أنا نفسى كل الثقة •
صاح كوليا يقول فجأة :

- مع ذلك أسترده هذه الكلمة • لقد اهديت الى كلمة تفصح عن فكرتى افصاحاً أصدق • أنت لست ريباباً ، وانما أنت غيور • ان جانيا يوقظ فى نفسك غيرة جهنية بسبب امرأة متكبرة •

قال كوليا ذلك ونهض عن مكانه واثباً ، وأخذ يضحك ضحكاً لعله لم يضحك ضحكاً مثله فى حياته • وازداد ضحكه حين رأى الأمير يتخضب وجهه بالحمرة • لقد فتنه أن يتصور أن الأمير غيور بسبب أجلايا • ولكنه سكت منذ لاحظ أن ألم الأمير صادق • وأخذ يتكلمان منذئذ بكثير من الرصانة والجد ، فدام حديثهما ساعة أخرى ، أو ساعة ونصفاً •

فى الغداة سافر الأمير الى بطرسبرج ، واضطر أن يمكث هنالك الى ما بعد الظهر لأمر ملح مستعجل • فلما عاد الى بافلوفسك فى نحو الساعة الخامسة صادف ايفان فيدوروفتش بالمحطة • فأمسكه هذا من ذراعه بقوة ، وبعد أن ألقى نظرات خائفة ذات اليمين وذات الشمال ، أصدده الى مركبة

في الدرجة الأولى من القطار • لقد كان يحترق رغبةً في أن يكلمه في
مسألة هامة •

قال ايفان فيدوروفتش للأمير :

– أرجوك أولاً ، ياأميرى العزيز ، أن لا تؤاخذني ولا تحقد عليّ .
إذا كان ثمة ما تلومني عليه فانتى آمل أن تتساه • لقد أوشكت أن أجيء
اليك بالأمس ، لكننى لا أدري ما الذى كان يمكن أن تتصوره الزيات
بروكوفينا لو أنتى فعلت ... ذلك لى جسيم حقاً • لكن مخلوقاً ملفزاً
كأبى الهول قد سكن منزلنا • أنا لا أفهم من الأمر شيئاً • أما أنت فأنت
فى رأى أقلنا ذنباً ، رغم أنك سبب كثير من التعقيدات التى حدثت • حب
الخير للبشر شيء ممتع يا أمير • ولكن ماينبغى للمرء أن يسرف قط • لعلك
عانيت هذه الحقيقة أنت نفسك بالتجربة • صحيح اننى أحب طيب القلب
ونبل النفس وأقدر الزيات بروكوفينا ، لكن ...

وظل الجرال يتكلم على هذا المنوال مدة طويلة ، ولكن كلامه كان
مفككاً تفككاً شديداً • كان واضحاً أنه خائف مضطرب الى أبعد حدود
الخوف والاضطراب ، من حادث لا سبيل الى فهمه البتة .

قال أخيراً وهو يدخل فى حديثه شيئاً من وضوح :

– لا شك عندى فى أنك غريب عن الأمر ، فلا شأن لك فيه • لكننى
أرجوك رجاء الصديق أن تنقطع عن زيارتنا زمناً ، الى أن تدور الريح •
ثم هتف يقول بحرارة :

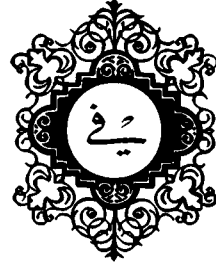
– ما أوجين بافلتش فان كل ما يُشاع عنه انما هو أراجيف ذئبة
ووشايات كاذبة ! نحن ازاء محاولة تشهير وخطة تأمر • ثمة مكيدة يُهدف
منها الى قلب كل شيء رأساً على عقب ، والى احداث الشقاق والخلاف
بيننا • اسمع يا أمير ، اننى أقول لك الحقيقة بصراحة : ما من كلمة نُطقت

حتى الآن بيننا ، نحن وأوجين بافلتش ، هل تفهم ؟ لا شيء يربطنا في الوقت الحاضر . غير أن تلك الكلمة يمكن أن تُنطق . وقد تنطق في القريب ، بل قد تنطق من لحظة الى أخرى . وذلك ما يُراد منه . لماذا ؟ ما الغرض من ذلك ؟ ما هي النية المخفية وراءه ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه . ان هذه المرأة محيرة شاذة . اننى خائف منها أشد الخوف ؛ ان خوفى منها يؤرقنى ويحرمنى من النوم . وانظر الى تلك المركبة الفخمة ، وتلك الحمول الصهاء . . . ذلك ما يسميه الفرنسيون أناقة ! من ذا الذى يهيم بها هذا المستوى من العيش ؟ يميناً لقد راودتنى فى يوم من الأيام هذه الفكرة الآتية ، وهى أن أوجين بافلتش هو الذى يهيم بها ذلك . ولكن من الواضح أن هذا الرأى لا يمكن أن يصمد للدحض . لماذا تحاول اذن احداث الشقاق بيننا ؟ ذلك هو اللغز ! أمن أجل أن تحتفظ الى جانبها بأوجين بافلوفتش ؟ لكننى أكرر لك وأحلف لك أنه لا يعرفها وأن الصوت اختراع وتلفيق . وما أشد تلك الوقاحة فى أن تخاطبه بصيغة المفرد على ذلك النحو عبر الشارع ! تلك مكيدة مدبرة لا أكثر ! واضح أن علينا أن تنبذ هذه المكيدة باحتقار وأن نضاعف احترامنا لأوجين بافلوفتش . ذلك ما أعلنته لاليزابت بروكوفينا . والآن أفضى اليك بالرأى الذى أكنه فى قرارة نفسى : اننى مقتنع اقتناعاً عميقاً بأنها تحاول أن تنتقم بهذا منى أنا ، بسبب ما جرى من قبل ، هل تتذكر ؟ ومع ذلك فاننى لم أخطئ فى حقها يوماً ولا أسأت اليها . ان وجهى ليحمر خجلاً كلما فكرت فى ذلك الأمر . ها هي ذى تعود الآن الى الظهور بعد أن ظننت أنها غابت الى الأبد . أين ذهب روجويين ؟ لقد كنت أحسب أنها أصبحت منذ مدة طويلة زوجة روجويين .

الخلاصة أن الجنرال كان حائراً أشد الحيرة . ولقد ظل طوال ما يقرب من ساعة ، وهى المدة التى استغرقتها مسافة الطريق بالقطار ،

يجرى الحديث مع نفسه ، فهو الذى يلقى الأسئلة وهو الذى يجيب عنها ، ضاعطاً يدي الأمير ، مفلحاً فى اقناعه على الأقل بأنه لا يساوره ظلم من شك فيه . وتلك هى النقطة الجوهرية بالنسبة الى الأمير . وتكلم فى آخر الأمر عن عم أوجين بافلتش الذى يشغل منصب رئيس لحدى الادارات بطرسبرج . فقال انه « رجل فى نحو السبعين من عمره ، ذو مركز مرموق ، يحب مباحج الحياة ويقبل على ملذات المائدة ، أى انه - باختصار - شيخ ما يزال نضر الرغبات ها ها ! وأنا أعلم أنه سمع عن ناستاسيا فيليوفا ، حتى انه التمس الخطوة بنعمها . وقد زرتة منذ قليل . انه لا يستقبل الآن بسبب سوء صحته ، ولكنه غنى ، غنى . وان له نفوذاً وتأثيراً و . . . أطال الله عمره ! غير أن أوجين بافلتش سيرث ثروته كلها نعم لكننى مع ذلك خائف . . ان فى الهواء نذير شر يحلّق تحليق خفافش ، فأنا خائف ، خائف » .

الفصل الثاني عشر



الساعة السابعة من المساء ، كان الأمير يتهيأ للقيام
بنزحته في الحديقة ، فاذا باليزابت بروكوفينا
تظهر في الشرفة وحيدة ، وتتجه نحوه .
قالت :

- أولاً ، لا يذهبن بك الظن الى اننى جئت أطلب منك الصفح .
فتلك حماقة ! أنت وحدك مرتكب جميع الأخطاء ومقترف جميع الذنوب !
لزم الأمير الصمت .
- أنت مذنب أم لا ؟
- لا أكثر منك ولا أقل . على أننا لم نذنب عن عمد وقصد ، لا أنا
ولا أنت . منذ ثلاثة أيام اعتقدت أننى مذنب آثم . أما الآن فقد اقتنعت
بعد التفكير بأن لا شيء من ذلك !
- آه ... هكذا أنت ! طيب ، اجلس واسمع ، لأننى لا أتوى أن
أبقى واقفة .
جلس الاثنان .
قالت :

- ثانياً ، لا داعى الى كلمة واحدة عن أولئك الأشقياء ! سأملك
عشر دقائق للتحدث معك . لقد جئت أسألك عن أمر من الأمور (لا يعلم

الا الله الى أى شىء ذهب ظنك) ، فان نطقت بكلمة واحدة عن أولئك
الوقحين ، فلأنهضنّ منصرفةً على الفور ، وليكوننّ ذلك فراقاً بينى
وبينك •

قال الأمير :

- طيب .

- اسمح لى أن ألقى عليك سؤالاً : هل بعثت برسالة الى آجلايا منذ
شهرين أو شهرين ونصف شهر ، حوالى أعياد الفصح ؟

- ن . نعم •••

- بأية مناسبة ؟ فى أى موضوع ؟ ماذا تضمنته تلك الرسالة ؟ أرنى
الرسالة !

كانت عينا الزابت بروكوفينا تقدح شرراً ، وكانت ترتعش من
فرط نفاذ الصبر •

أجاب الأمير مدهوشاً مرتاعاً :

- ليست تلك الرسالة معى ، واذا كانت ما تزال موجودة فهى مع
آجلايا ايفانوفنا •••

- لا تراوغ ! ماذا كتبت لها فى تلك الرسالة ؟

- لست أراوغ ، وليس ثمة ما أخشاه • اننى لا أرى السبب الذى
كان يمكن أن يمنعنى من الكتابة اليها •••

- اسكت • ستتكلم من بعد • ماذا تضمنت تلك الرسالة ؟ لماذا احمر
وجهك ؟

فكّر الأمير لحظة •

- لا أعرف ماذا يدور فى رأسك من خواطر يا الزابت بروكوفينا •

ولكننى أرى أن تلك الرسالة قد أورتك كثيراً من الاستياء • لاحظنى أن فى وسعى أن لا أجيب عن سؤال كهذا السؤال الذى تلقين • لكننى من أجل أن أبرهن لك على أنه ليس ثمة ما أخشاه بصدد تلك الرسالة ، وعلى أننى لست نادماً ولا خجلان من كتابتها (حين قال الأمير هذا الكلام تضاعفت حمرة وجهه) ، فسأتلوها عليك ، لأننى أحفظ مضمونها على ظهر القلب فيما أظن •

وأخذ الأمير يتلو نص الرسالة كلمة كلمة تقريباً •
قالت اليزابت بروكوفينا بعد أن أصغت باتباه شديد ، قالت بلمهجة فظة شرسة :

- يا له من خلط ! ما المعنى الذى تقصده من هذه السخافات ؟
أجابها الأمير :

- أنا نفسى لا أعرف حق المعرفة • ان ما أعلمه هو أن عاطفتى كانت صادقة • كانت تتابى هنالك لحظات حياة غيفة وآمال كبيرة •
- أية آمال ؟

- يصعب على أن أشرح هذا ، ولكن تلك الآمال ليست تلك التى يغلب على ظنى أن تفكيرك ينصرف إليها الآن • ان تلك الآمال ... تتصل بالمستقبل ، وترتبط بفرحة التفكير فى أننى لعلى لم أكن « هنالك » ، أجنبياً • وقد غمرتنى سعادة بالعودة الى الوطن ، فتناولت القلم فى ذات صباح مشمس ، وكتبت لها تلك الرسالة • لماذا كتبت الرسالة إليها هى ؟ لا أدرى • هناك لحظات يريد فيها المرء أن يكون بقربه صديق •

وأضاف الأمير يقول بعد صمت :

- فلفل ذلك الشعور هو الذى قادنى ووجهنى •
- أترأك محباً ؟

- لا والله • لقد كتبت اليها كما يكتب أخ الى أخيه • حتى لقد
ذيلت رسالتى بهذا التوقيع : « أخوك » •

- هه ! خيال بارع ! فهمت !

- يشق على نفسى جداً أن أجيب عن أسئلة كهذه يا الزبابت
بروكوفينا •

- أعلم • غير أن هذا لا يعينى البتة • اسمع ، قل لى الحقيقة كما لو
كنت تتكلم أمام الله : أكاذب أنت فيما تقول أم لا ؟
- لست كاذباً •

- أأنت تقول الحقيقة حين تؤكد أنك لست مجاباً ؟

- يخيل الى أن هذا صادق صدقاً مطلقاً •

- آ ••• « يخيل اليك » ! هل الصبى هو الذى حمل اليها
الرسالة ؟

- رجوت نيقولا آرداليونوفتش أن •••

قاطعته الزبابت بروكوفينا فى غضب :

- الصبى ، الصبى ! أنا لا أعرف نيقولا آرداليونوفتش • قل
الصبى !

- نيقولا آرداليونوفتش •••

- بل الصبى ، قلت لك •••

ردَّ الأمير يقول بلهجة ثابتة ، ولكن دون أن يرفع صوته :

- لا ، ما هو بالصبى • انه نيقولا آرداليونوفتش •

- طيب ••• طيب ••• سأجازيك على هذا بمثله •••

كطمت الزبابت بروكوفينا انفعالها دقيقة لتسترد أنفاسها ثم سأله :

- وما معنى « الفارس الفقير » ؟
- لا أدري • حدث هذا فى غيابى • لا شك فى أنه مزاحه من
المزاحات •

- ما أحلى أن يعلم المرء هذا كله دفعة واحدة ! ولكن هل يمكن أن
تكون قد اهتمت بك ؟ لقد وصفتك هى نفسها بأنك « طريح » وبأنك
« أبله » •

قال الأمير بلهجة العتب ، وبصوت يكاد يكون همساً :
- كان فى وسعك أن تعفينى من نكل هذا الكلام الى •
- لا تزعل • هذه فتاة مستبدة متسلطة ، طائشة اللب ؛ انها طفلة
أفسدها الدلال ! • • • قد تفتتن بشخص من الأشخاص فإذا هى تهينه على
رءوس الأشهاد ، وتضحك عليه أمام أنفه • أنا نفسى كنت هكذا • ولكننى
أرجوك أن لا تتغنى بالانتصار ، وأن لا تسكر بنشوة الظفر • هى ليست
لك يا صغيرى • انتى أرفض أن أصدق • لن يكون هذا فى يوم من
الأيام ! أقول ذلك لتعزم أمرك منذ الآن • اسمع : احلف لى أنك لم
تزوج « الأخرى » •

قال الأمير وهو ينتفض دهشة :
- ما هذا الذى تقولينه يا الزابت بروكوفينا ؟
- ولكن ألم توشك أن تتزوجها ؟
دمدم الأمير يقول خافضاً رأسه :
- أوشتك أن أتزوجها •
- فأنت اذن تحبها « هى » ؟ وأنت انما جئت الى هنا من أجلها
« هى » ، من أجل « تلك المرأة » ؟
أجاب الأمير :

- ما من أجل أن أتزوجها جئت •
- هل فى العالم شىء مقدس عندك •
- نعم •
- احلف انك لم تجيء لتزوج « تلك المرأة » •
- أحلف على ذلك بما تشائين •
- صدقتك • قبلنى • هأنذا أتنفس أخيراً بحرية • ولكن اعلم أن أجلايا لا تحبك ، ورتب أمورك على هذا الأساس • لن تصبح أجلايا زوجتك ما بقيت أنا على قيد الحياة • هل سمعت ؟
- سمعت •
- بلغ الأمير من شدة الاحمرار أنه أصبح لا يستطيع أن ينظر الى اليزابت بروكوفينا وجهاً لوجه •
- ضع هذا فى رأسك • لقد انتظرتك انتظار العنايه الالهيه (وكنت لا تستحق ذلك) ، وبللت وسادتي فى الليل بالدموع - أوه ! لا بسبيك أنت يا صديقى ، اطمئن ! فان لى حزناً آخر ، حزناً لا يتغير مدى الدهر •
- ولكن اليك السبب الذى جعلنى انتظرك نافذة الصبر : اننى ما زلت أعتقد بأن الله هو الذى أرسلك الى صديقاً وأخاً • ليس لى أحد أشد به أزرى ، الا العجوز بيلوكونسكايا ، التى سافرت هى نفسها ، ناهيك عن أنها كانت قد أصبحت من الشيخوخة غيبة كشاة من الشياه ! والآن ليس عليك الا أن تجيبنى بكلمة نعم أو بكلمة لا على هذا السؤال : هل تعلم لماذا قذفت « تلك المرأة » بتلك الصيحة من داخل مركبتها فى ذلك اليوم؟
- أحلف لك أن لا شأن لى بالأمر ، ولست أعرف شيئاً !
- يكفينى هذا ! صدقتك • ان لى الآن رأياً جديداً فى هذا الموضوع ، ولكننى فى صباح الأمس كنت ما أزال أعد أوجين بافلتش

مُسئولاً عن كل ما حدث • لقد لازمتنى هذه الفكرة طوال أمس الأول وطوال صباح أمس • أما الآن فقد انتهيت الى الموافقة على رأيهم : واضح أنه قد سُخر منه واستُهزئ به كمتعوه • كيف ؟ لماذا ؟ ما الغاية من ذلك ؟ ان الحركة فى ذاتها مشبوهة غير شريفة • على كل حال ، لن يتزوج أجلايا • أنا أقول لك هذا ! مهما يكن رجلاً ممتازاً ، فلن أرضى أن يتزوجها • حتى قبل ذلك الحادث كنت مترددة • أما الآن فقد اتخذت قرارى وعزمت أمرى : « ضعنى أولاً فى تابوتى وادفنى فى قبرى ، ثم زوج ابنتك » ، ذلك ما قلته اليوم لايفان فيدوروفتش مقطّعةً كلماتى • هأنت ذا ترى مدى ثقتى بك • هل ترى ذلك ؟

– أراه وأفهمه •

حدّثت اليزابت بروكوفينا الى الأمير بنظرة نافذة • لعلها كانت تحترق شوقاً الى معرفة الأثر الذى أحدثه فى نفسه كلامها عن أوجين بافلتش •

– أنت لا تعرف شيئاً عن جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ؟

– أ • • • أعرف أشياء كثيرة •

– هل تعرف أنه على صلات بأجلايا ؟

قال الأمير مدهوشاً :

– أجهل هذا كل الجهل • ماذا ؟ تقولين ان جبريل آرداليونوفتش

على صلات بأجلايا ايفانوفنا ؟ مستحيل !

– الأمر حديث العهد • ان أخته هى التى شقت له الطريق طوال

فصل الشتاء •

عاد الأمير يكرر باقتناع بعد أن ظل شارد الذهن مضطرب النفس برهةً من الوقت :

- لا أصدّق شيئاً من هذا الكلام • لو صح ذلك لعرفته حتماً •
- أظن أن جبريل آرداليونوفتش كان سيأتى معترفاً لك بسرّه باكياً
فوق صدرك ؟ يا لك من ساذج غر ! ••• ان جميع الناس يخدعونك
ويضللونك مثل ••• مثل ••• أفلا تستحي أن تمحضه ثقتك ؟ ألسـت
ترى أنه يضحك عليك ويفرّر بك ؟

قال الأمير بصوت خافت ولهجة لا تخلو من اشمزاز :

- أعرف أنه يفشنى أحياناً • وهو لا يجهل أننى أعرف ذلك •••
ولم يكمل الأمير فكرته •

- هكذا اذن ؟ تعلم أنه يفشك ثم تظل توليه ثقتك • لم يكن ينقص
الا هذا • على أن ذلك هو ما يمكن أن يُستَظر منك • فعلام الاستغراب ؟
رباه ! لا يوجد فى العالم كله رجالان من نوعك • وهل تعلم أن جانبا هذا
أو فاريا هذه قد جملاها على صلات بناستاسيا فيليوفنا ؟

صاح الأمير يسأل :

- من ؟

- آجلايا •

- لا أصدّق • هذا مستحيل • ما الغاية من ذلك ؟

وكان قد نهض عن مكانه واثباً •

قالت اليزابت بروكوفينا :

- أنا أيضاً لا أصدّق ذلك ، رغم أن هناك أدلةً وبراهين • انها
فتاة ذات نزوات ، فتاة جامحة الحيال طائشة العقل ! فتاة شريرة ، شريرة ،
شريرة ! اننى مستعدة لأن أكرر لك ألف سنة أنها شريرة ! وبناتى كلهن
أصبحن الآن على هذه الشاكلة ، حتى تلك الدجاجة المبتلة ، الكسندرا !

ولكن أجلايا قد أفلتت من بين يديّ وانتهى الأمر • ومع ذلك لست
أصدّق هذا أنا أيضاً •

ثم أضافت تقول لنفسها :

- ربما لأننى لا أريد أن أصدّقه •

ثم نادى الأمير فجأة تسأله :

- لماذا لم تجيء ؟ لماذا لبثت ثلاثة أيام لا تجيء ؟

كرّرت سؤالها نافذة الصبر •

فأخذ الأمير يعدّد الأسباب التى حالت بينه وبين المجيء • لكنها
قاطعته مرة أخرى وقالت له :

- جميع الناس يعدونك غيباً ويفشونك ! لقد كنت أمس بالمدينة ،
وانى لأراهن أنك مضيت تجئو أمام ذلك الوغد ضارعاً اليه أن يقبل منك
العشرة آلاف روبل •

- لا • لم يخطر ببالي أن أفعل • ولم أره • ثم انه ليس وغداً •
لقد تلقيت منه رسالة •
- أرنىها •

سحب الأمير من محفظة أوراقه رسالة مدّها الى اليزابت بروكوفينا •
وهذه هى الرسالة :

« سيدى ، ليس لى حتما ، فى نظر الناس ، أى حق فى أن أظهر
شيئاً من الشعور بالكرامة • فالناس يعدوننى أهون شأنأ وأحقّر قيمةً من
أن أفعل ذلك • ولكن نظرة الناس الى الأمور ليست نظرتك أنت • انتى
مقتنع أشد الاقتناع يا سيدى بأنك ربما كنت أفضل من سائر الناس • لست
أشاطر دكتورنكو رأيه ، بل أخالفه فى هذه النقطة • لن أقبل منك كوبكاً
واحداً فى يوم من الأيام • ولكنك أنجذدت أُمى ، فأنا محمول على أن

أشكر لك صنيعك رغم أن هذا ضعف • على كل حال ، لقد رجعت عن رأيي فيك ، واعتقدت أن من واجبي أن أبلغك ذلك • واني لأتنبأ بأننا لن نقوم بيننا أية علاقة بعد الآن » •

آنتيب بوردوفسكى

« حاشية : ان المال الناقص لاكمال مبلغ المائتي روبل الذى أدين لك به * سُرِدُ اليك مع الزمن حتماً » •

قالت اليزابت بروكوفينا وهى تنهى قراءة الرسالة ثم ترميها :
- يا للسخف والحماقة ! ما كان هذا الكلام ليستحق أن يُقرأ • ممَّ
تضحك ؟

- اعترفى مع ذلك بأن قراءة هذه الرسالة قد سرَّتكَ •
- كيف ؟ تسرنى قراءة هذا الهذر الدعىَّ السخيف ؟ أأست ترى
أذن أن جميع هؤلاء الناس قد أضلَّهم الزهو والعجب والغرور ؟
- صحيح ، ولكنه اعترف بأخطائه ، وقطع صلته بدكتورنكو • وعلى
قدر غروره وزهوه كلفه عمله هذا ثمناً باهظاً • آ • • • يا لك من طفلة
صغيرة يا اليزابت بروكوفينا !

- أتُراك تود أن أصفعك على وجهك ؟
- لا ، لا أحرص على ذلك البتة ! كل ما هنالك أننى ألاحظ أن
قراءة هذه الرسالة قد ملأت نفسك ارتياحاً ، وأنت تخفين ذلك • فيم
تخجلين من عواطفك ؟ انك هكذا فى كل أمر •
صاحت اليزابت بروكوفينا تقول واثبة عن مكانها ، شاحبة اللون من
فرط الغضب :

- حذار أن تضع قدميك فى بيتى بعد اليوم ! اياك أن يظهر أنفك
فى عتبة بابى بعد الآن !

- وبعد ثلاثة أيام تسمعين أنت الى ! ما هذا ؟ ما بالك تحمرين
خجلاً من أنبل عواطفك ؟ لم هذا ؟ انك لا تزيدين بذلك على أن تعذبي
نفسك .

- لن استديك ولو رقدتُ على فراش الموت . سأنسى اسمك . بل
لقد نسيتَه .

قالت ذلك وأسرعت تبعد عن الأمير .

صرخ الأمير يقول لها :

- على كل حال ، لقد حُظر علىَّ أن أزورك .

- ماذا ؟ من حظر عليك ذلك ؟

- آجلايا ايفانوفنا هي التي تحظر علىَّ أن ...

- متى حدث هذا ؟ تكلم ، مالك لا تتكلم ؟ ...

- في هذا الصباح ، أرسلت تبلغني أن علىَّ أن لا أدوس أرض
داركم بعد اليوم قط ...

شُدهت اليزابت بروكوفينا . ومع ذلك أخذت تفكر .
ثم هتفت تقول فجأةً :

- كيف ؟ من أرسلتُ لابلاغك ذلك ؟ الصبي ؟ بكلام ؟

- بل برسالة .

- أين الرسالة ؟ اعطينيها ! فوراً !

فكَّر الأمير لحظةً ، ثم سلَّ من جيب صدرته مِرقة ورق كان
مكتوباً عليها ما يلي :

« الأمير ليون نيقولايفتش ، اذا كنت تنوى ، بعد كل الذي حدث ،

أن تدهشنى فنجىء تزورنا بدارنا ، فثق أتنى لن أكون من أولئك اللواتى
ستسهرن زيارتك ، •

« اجلايا ايبانتشيننا »

لبثت اليزابت بروكوفينا شاردة الفكر لحظةً ، ثم أسرع الى
الأمير ، فأمسكت يده ، واقادته صائحةً وقد استولى عليها احتياج شديد
واضطراب كبير :

- حالا ! تعال ! فى هذه اللحظة نفسها !

- لكنك ستعرضينى لـ •••

- أعرضك لأى شىء ؟ ساذج ! غبى ! حتى لكأنك لست برجل !
هيا ! سأرى كل شىء بنفسى ، بعينى رأسى •••

- اسمحى لى أن آخذ قبعتى على الأقل •••

- هى ذى ، قبعتك القذرة • هيا ! انك عاجز حتى عن اختيار قبعة
فيها ذوق !•••

ثم تمت اليزابت بروكوفينا تقول وهى تجرُ الأمير فى اثرها دون
أن ترخيه لحظة واحدة :

- كُتبتُ ذلك ••• كُتبتُ ذلك بعد المشهد الذى جرى منذ قليل
••• كُتبت فى غمرة الاندفاع •••

ثم أضافت مخاطبة الأمير :

- لقد تحيزتُ لك منذ قليل • قلت صراحةً انك غبى لأنك
لا تجىء ••• ولولا ذلك لما كُتبتُ اليك رسالة تبلغ هذا المبلغ من الحماسة،
وتبلغ هذا المبلغ من قلة الاحتشام ! ان هذا لهو قلة احتشام من جانب فتاة
نبيلة المحتد ، حسنة التربية ، ذكية ، نعم ذكية !
وتابعت تقول :

- همُ ... ولعلها مغتازة أيضاً من تفنيك • ذلك جائز • ولكنها لا تدرك أنه لا يكتب مثل هذا الكلام لرجل أبله يفهم الأمور فهماً حرفياً كما حدث ذلك فعلاً •

ولاحظت أنها أسرفت في القول ، فصاحت تسأله :

- مالى أراك تمد أذنيك ؟ انها فى حاجة الى مهرّج من نوعك • لقد حرمت من مثلك منذ مدة طويلة • ذلك هو السبب فى أنها تسعى اليك ! أنا مفسّنة أعظم الافتتان ، لأنها ستجعلك أضحوكة ! ... انك لم تسرقها ! انها فى هذه اللعبة بارعة ! نعم بارعة ... حاذقة ! ...

شخصيات الرواية

آناناڤى ايفانوفتش :

هو آناناڤى ايفانوفتش توتسكى • راجع اسم توتسكى

آجلایا :

هى آجلایا ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايبانتشين واليزابت بروكوفينا • ويرد اسمها مصغرا : جلاشا •

آديلايد :

هى آديلايد ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايبانتشين واليزابت بروكوفينا •

آرداليون الكسندروفتش :

هو آرداليون الكسندروفتش ايفولين • راجع اسم ايفولين •

الكسندرا :

هى الكسندرا ايفانوفنا ايبانتشين : بنت الجنرال ايفان فيدوروفتش
ايبانتشين واليزابت بروكوفينا •

اليزابت بروكوفينا :

زوجة الجنرال ايبانتشين • تمت بقرابة بعيدة الى الامير ليون
نيقولايفتش ميشكين («الأبله») • ويرد ذكرها فى الرواية بلقب
الجنرالة ، جريا على عادة القوم فى خلع رتبة الزوج على الزوجة أيضا،

اوجين بافلوفتش :

هو اوجين بافلوفتش - او بافلتش - رادومسكى . ضابط شاب
يود خطبة آجاليا .

ايبانتشين :

هو الجنرال ايفان فيدوروفتش (او فيدورتش) ايبانتشين . موظف
كبير ورجل أعمال . صديق آتاناڤى ايفانوفتش توتسكى وشريكه .
والجنرالة ايبانتشين ، زوجته ، تمت الى الأمير ميشكين (« الأبله »)
بقرابة بعيدة .

ايفان فيدوروفتش :

هو ايفان فيدوروفتش ايبانتشين . راجع اسم ايبانتشين .

ايفولجين :

هو آرداليون ألكسندروفتش (أو ألكسندرتش) ايفولجين . جنرال محال
على التقاعد ، سكير . زوج نينا ألكسندروفنا وأبو الشاب جبريل
آرداليونوفتش وأخته باربارا آرداليونوفتش وأخيه الصبى كولا .

باراشكوف :

هى ناستاسيا فيليوفنا باراشكوف . راجع اسم ناستاسيا فيليوفنا .

باربارا آرداليونوفنا :

ابنة الجنرال السكير ايفولجين وزوجة ايفان بتروفتش بتسين . ويرد
اسمها مصغرا : فاريا ، فاركا ، فارتشكا .

بارفيون سيميونوفتش :

هو بارفيون سيميونوفتش - او سيميونتش - روجوين . راجع
اسم روجوين .

بافلتشيف :

هو نيقولا أندريفتش بافلتشيف ، المحسن الى الأمير ميشكين ، فقد أرسله الى سويسرا على نفقته لمعالجته من «البلاهة» .

بتسين :

هو ايفان بتروفتش بتسين . يعمل مرابيا . كان مستأجرا غرفة عند أسرة الجنرال ايفولجين ، وقد تزوج ابنته باربارا أرداليونوفنا .

بيلوكونسكايا :

الأميرة بيلوكونسكايا ، صديقة اليزابث بروكوفيينا ومستشارتها وناصحتها .

توتسكى :

هو آتاناازى ايفانوفتش توتسكى . مالك أطيان ثرى . كان وصيا على ناستاسيا ايفانوفنا فأغواها واتخذها خلية .

تيرنتيف :

هو هيبوليت تيرنتيف ، ابن مارتا بوريسوفنا خلية الجنرال السكير ايفولجين . فتى مصدور . صديق كوليا .

جانيا :

راجع اسم جبريل أرداليونوفتش ، فان جانيا هو مصغر جبريل

جبريل أرداليونوفتش :

هو جبريل أرداليونوفتش - أو أرداليونتش - ايفولجين . ابن الجنرال السكير أرداليون الكسندروفتش ايفولجين . سكرتير الجنرال ايبانتشين . يسعى الى خطبة ناستاسيا فيليبوفنا . يهوى أجلايا ايفانوفنا ايبانتشين . يرد اسمه مصغرا: جانيا ، جانكا ، جانتشكا .

رادومسكى :

هو أوجين بافلوفتش رادومسكى • ضابط شاب • يود خطبة آجلابا •
راجع اسم أوجين بافلوفتش •

روجوين :

هو بارفيون سيميونوفتش - أو سيميونتش - روجوين : ابن
تاجر غنى ، ورث عن أبيه ثروة طائلة • أحب ناستاسيا فيليبوفنا
باراشكوف ، وأراد أن يتزوجها •

فاريا :

راجع اسم باربارا آرداليونوفنا فان اسم فاريا هو تصغير باربارا •

فردشتينكو :

شاب يسكن غرفة مستأجرة فى بيت أسرة ايفولجين ، ويتردد على
ناستاسيا فيليبوفنا •

فيرا لوكيانوفنا :

بنت لوكيان تيموفتش ليبديف ، ابنته الكبرى التى تتولى أمور
البيت •

كوليا :

هو نيقولا آرداليونوفتش ايفولجين • فتى فى المدرسة الثانوية •
الابن الأصغر للجنرال السكير ايفولجين • يرد اسمه مصغرا : كوليا •

كيلر :

ملاك • ليونتان محال على التقاعد • أحد أفراد بيئة بارفيون
سيميونوفتش روجوين وناستاسيا فيليبوفنا • تعلق بعد ذلك
بالأمير ليون نيقولايفتش ميشكين •

ليبيديف :

هو لوكيان تيموفثتش - أو تيموفثتش - ليبيديف • موظف يرتبط بعصبة بارفيون سيميونوفتش زوجين ، ثم يحوم حول الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين بالمكيدة والمكر •

لوكيان تيموفثتش :

هو لوكيان تيموفثتش - أو تيموفثتش - ليبيديف • راجع اسم ليبيديف •

ليون نيقولايفتش :

هو الأمير ليون نيقولايفتش - أو نيقولايتش - ميشكين • انه بطل الرواية الرئيسى : « الأبله » •

مارتا بوريسوفنا :

أرملة الكابتن تيرنتيف • خليفة الجنرال السكر ايفولجين • أم الفتى المسلول هيوليت •

ميشكين :

هو الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين ، البطل الرئيسى فى الرواية ، « الأبله » •

ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوفنا :

امراة كان آتانا زى ايفانوفتش وصيا عليها فى طفولتها ، ثم اغواها وأصبح يعولها • رضيت الهرب مع بارفيون سيميونوفتش زوجين ولكنها لم تقبل أن تتزوجه •

نيقولا آندريفتش :

هو نيقولا آندريفتش بافلتشييف ، المحسن الى الأمير ميشكين . راجع
اسم بافلتشييف .

نينيا ألكسندروفنا :

زوجة الجنرال السكير آرداليون ألكسندروفتش ايفولجين . أم
جبريل وباربارا وكوليا . تاجر غرنا في بيتها لتستطيع أن تعمل
الأسرة .

حواش

- الصفحة
- ٧ ★ « قطار وارسو » : بقطار وارسو انما كان يصل المسافرين الى بطرسبرج آتين من الخارج ، من فينا وبرلين (عن طريق آيدكونن) .
- ٨ ★ « آيدكونن » : آخر محطة بروسية على حدود روسيا .
- ١٤ ★ «فهو اسم تاريخي» : ورد ذكر هذا الاسم مرة واحدة في «تاريخ كارامازين» ، في القرن التاسع عشر ؛ غير أن هذه الأسرة مألثت أن انطفأت . ولعل دوستويفسكي قد اختار هذا الاسم - المشتق من كلمة « ميشكا » ومعناها فأر صغير - اشارة الى ما يتصف به طبع هذه الشخصية من تواضع وامحاء .
- ١٤ ★ «كارامازين» (نيقولا ميخائيلوفتش كارامازين) : مؤرخ روسي شهير (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ، هو مؤلف كتاب « تاريخ الدولة الروسية » الذي يقع في اثني عشر جزءا . وقد ترجم الكتاب الى الفرنسية بين ١٨١٩ و ١٨٢٦ .
- ١٨ ★ راجع حاشية الصفحة ٣٧٨ .
- ٢١ ★ «يستحق النفي الى سيبيريا» : ان كل جرم فيه خرق للمقدسات كانت القوانين تعاقب مرتكبه عقابا صارما ، وكانت سرقة الأشياء الخاصة بالعبادة تدخل في حكم هذا الجرم .
- ٢٤ ★ « آرمانس ، كورالى » : لا بد انهما من النساء اللواتي كانت مرموقات في المجتمع ، وأنهما من أصل فرنسي .
- ٢٦ ★ « انها أميرة » : ليست ناستاسيا فيليبوفنا أميرة ، فهذه مبالغة من ذالويجيف .

- ٣٣ * « خادم أمين ، نعم ، ولكن لا متملق دنيء » (وفى بغير تملق) :
مبدأ كان الجنرال أراكشيف الذي خلغ عليه بطرس الأول
لقب بارون ، سنة ١٧٨٩ ، قد اختاره شعارا له .
- ٣٤ * « صاحب السمو » ان هذا الكونت الذي لا يسميه المؤلف والذي
سيرد ذكره فيما بعد قد يكون رئيس الجنرال أيبانتشين .
- ٣٩ * « فى دير أجنبى ٠٠ » من الامثال الروسية السائدة : « فى دير
أجنبى لا تحاول أن تفرض قاعدتك » .
- ٤١ * « أرداليونتش » : النطق الشعبى لاسم النسبة الى الاب :
أرد اليونوفتش . وسوف يلاحظ القارى أن اسم هذا الشخص
من شـخـوص الرواية يرد تارة أرداليونتش ، وتارة
أرداليونوفتش .
- ٤٣ * منذ اعلان اصلاح ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٦١ ، أصبحت
جلسات المحاكم الروسية علنية ، ودخل نظام المحلفين فى جميع
القضايا الجنائية . وكان دوستوفسكى يهتم كثيرا بهذه المحاكم
الجديدة .
- ٤٣ * « من ذلك أن عقوبة الاعدام قد ألغيت » : الواقع ان عقوبة
الاعدام فى جميع قضايا الحق العام قد ألغتها الامبراطورة
اليزابت ضمنا سنة ١٧٤١ ، وصراحة ، بقانون ، سنة ١٧٥٤ ،
لكن عقوبة الاعدام لم يتم الغاؤها فى الجرائم السياسية . ففى
السادس من ايلول سبتمبر ١٨٦٦ مثلا تم تنفيذ عقوبة الاعدام
شنقا فى كاراكوزوف الذى قام بمحاولة مخففة لاعتقال الكسندر
الثانى أثناء نزهة فى « حديقة الصيف » . وقد شنع على رأى
من المشاهدين فى ميدان سمولنسكى بمدينة بطرسبرج .
وهكذا نرى أن دوستوفسكى يسوق هنا نصف الحقيقة .
- ٤٤ * « نعم ، رأيت اعداما فى فرنسا بمدينة ليون » : كانت اعدامات
المجرمين فى فرنسا كثيرة وعلنية . وبقي هذا النظام حتى نهاية
القرن التاسع عشر . وقد وصف ثورجينف تنفيذ اعدام من هذه
الاعدامات فى مقالة له بعنوان « تعذيب تروبان » .

- ٤٦ ★ «ربما كان يوجد في هذا العالم انسان حكم عليه بالموت ٠٠» :
ان دوستويفسكى يتذكر هنا الدقائق الرهيبة الفظيعة التي
قضاها هو نفسه مهياً للاعدام قبل وصول قرار العفو عنه .
- ٤٩ ★ « جانيا » : تصغير اسم جبريل .
- ٦٦ ★ « ان المطران الذليل بافنوس قد وقع هذا بخط يده » : هذا
المطران هو مؤسس منسك في مقاطعة كوستروما ، في القرن
الرابع عشر . وقد نشر توقيعه المؤرخ وعالم الآثار ميشيل
بوجودين في البوم من جزاين بعنوان « نماذج من الخطوط
السلافية الروسية » (موسكو ، ١٨٤٠ - ١٨٤١) .
- ٧٠ ★ «فردشتينكو» ان الاسماء التي تنتهى بـ «ينكو» اكرانية الاصل .
- ٨٠ ★ « أوترادانويي » : كلمة مشتقة من أوترادا ، ومعناها
وسط بين معنى كلمة « راحتي » ومعنى كلمة « لذتي » .
- ١١١ ★ « وصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل ٠٠٠ » : استشهاد
غير دقيق كل الدقة بقصيدة للشاعر ليرمونتوف : « الصحفي
والقارئ والكاتب » .
- ١١٤ ★ « هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالاعدام، وقرئ
عليهم قرار المحكمة باعدامهم رمياً بالرصاص لجريمة سياسية٠»:
ان آنا ، أرملة دوستويفسكى ، قد كتبت تقول : « ان ذكريات
كل ماشرع به فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكى أثناء الشروع
في تنفيذ حكم الاعدام في جماعة بتراشفكي كانت تؤله كثيرا ،
فلا يتحدث عنها الا في النادر . لكنني سمعته يرويها ثلاث مرات
بهذه التعابير نفسها التي ترد في رواية « الأبله » .
- ١١٥ ★ « كان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره ٠٠٠ » :
لقد ولد دوستويفسكى في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٢١ ،
وكان عمره ثمانية وعشرين عاما حين صدر الحكم عليه بالاعدام .
- ١٢٢ ★ « لقد رأيت في مدينة بال ، منذ مدة غير طويلة ، لوحة
مائلة ٠٠ » : ان دوستويفسكى قد زار متحف مدينة بال في

شهر آب (أغسطس) من سنة ١٨٦٧، فأنثرت فيه بعض اللوحات تأثيرا كبيرا . وهو هنا يشير الى لوحة هانس فريس «قطع رأس القديس يوحنا المعداد» (١٥١٤) التي تمثل النبي وهو ما يزال حيا تحت السيف الذي أشهره الجلاد .

١٤٤ ★ « مادونا هولباين » : كان دوستويفسكى سنة ١٨٦٧ قد أعجب فى معرض درسدن باللوحة التى رسمها هولباين الشاب والتى سماها «مادونا مع أسرة جان ماير» (١٥٢٥) . ولقد كانت اللوحة الاصلية موجودة فى متحف دارمشتات . ولكن كان المظنون فى ذلك العهد أن لوحة درسدن هى اللوحة الاصلية التى رسمها هولباين .

١٧٠ ★ « كوليا » : تصغير اسم نيقولا .

١٨٠ ★ كان كل لواء من ألوية الجيش بروسيا يسمى باسم المدينة أو المقاطعة التى أنشئ فيها أول ما أنشئ ، وذلك بالاضافة الى اسمه الرسمى . فكذا يقال لواء فاسيلكوفسكى أو لواء بيلوميريسكى .

١٨٢ ★ « مدينة تغير » : مدينة بشمال روسيا ، على خط موسكو - بطرسبرج . و « اليزابتجراد » مدينة بالجنوب فى السهوب أنشئت فى عهد الامبراطورة اليزابت .

١٨٤ ★ «فوج مدفعية نوفو زمليانسكى» : الواقع أن هذا الفوج لا وجود له . وقد اخترعه الكاتب المسرحى جريبويديف فى حوار الكولونيل سكالوزوب مع نفسه ، فى مسرحية «كثير من الذكاء ضرر» . فهذا الاسم الوهمى يشير الى ما يتصف به كلام الجنرال ايفولجين من أنه أخيلة كاذبة .

٢٠٥ ★ « حصار كارس » : ان حصار قلعة كارس التركية بالقوقاز قد وقع سنة ١٨٥٥ ، وانتهى باستسلام القلعة للجنرال مورافيف فى السادس من شهر تشرين الثانى نوفمبر ١٨٥٥ بعد أن نفدت مؤن المحاصرين نفاذا تاما .

٢٠٥ ★ « جريدة الاستقلال » : هي جريدة «الاستقلال البلجيكي» التي كانت تصدر في بروكسل منذ سنة ١٨٣٠ . وكان دوستوفسكي يقرأ كثيرا هذه الجريدة الحسنة الاطلاع ، ولا سيما في السياسة .

٢٢٦ ★ « الحفلة المقنعة » : مسرحية كتبها ليرمونتوف في مطلع صباه .

٢٤٢ ★ « أرسل بيروجوف برقية الى باريس » : كان نيقولا بيروجوف (١٨١٠ - ١٨٨١) ، وهو أشهر الجراحين الروس في ذلك الاوان ، رئيسا للخدمة الطبية أثناء حصار سياستوبول (١٨٥٤ - ١٨٥٥) . وكان أوجوست فيلاتون (١٨٠٧-١٨٧٣) ، وهو جراح جاريبالدى ونابوليون الثالث ، يتمتع بشهرة عالمية .

٢٤٩ ★ « لينوتشكا » : تصغير اسم هيلينا .

٢٥١ ★ « تقضى بعض الوقت » : بالفرنسية في الاصل .

٢٥٢ ★ « أب بمدينة موسكو يوصى ابنه بأن لا يصده شيء في سبيل الحصول على مال » : في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٦٦ ارتكب طالب اسمه دانيلوف جريمة قتل المراهب بوبوف وخادمتة بموسكو ليستولى على المال . وقد أشارت الصحف حينذاك الى الشبه بين راسكولينكوف بطل رواية « الجريمة والعقاب » التي كتبها دوستوفسكي وسبق نشرها وبين فاعل هذه الجريمة . وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٧ ، شهد شخص اسمه جلاسكوف ، وكان مع القاتل في السجن ، شهد بأن دانيلوف قد روى له ان أباه هو الذي حرضه على ارتكاب الجريمة . وكان الاب قد قال لابنه في الحقيقة ان عليه أن لا تصده أية عقبة ، وان عليه لتحقيق سعادته (وهي زواج مرتقب) أن يحصل على المال ولو ارتكب في سبيل ذلك جريمة . وقد اهتم دوستوفسكي كثيرا بهذه المحاكمة فتحدث عنها في روايته الجديدة هذه « الأبله » .

٢٦١ ★ هوائفان كيرلوف ، الكاتب الروسى الشهير الذى كتب قصصا أبطالها حيوانات ، على طريقة لافونتين . والقصة المشار اليها هنا هي قصة الحمار الذى لبط أسداً دب فيه الهرم .

- ٢٧١ ★ « من يخش الذئب لا يذهب الى الغابة » : من الامثال الروسية السائرة .
- ٢٨٥ ★ « أوريكا » : كلمة من اليونانية القديمة معناها « وجدتتها » . وينسب الى أرخميدس انه حين اكتشف أحد القوانين الفيزيائية وهو بالحمام ، خرج يركض صارخا من فرحته « أوريكا ، أوريكا » أى وجدتتها ، وجدتتها .
- ٢٨٨ ★ « طلب نقله الى القوقاز » : كانت بلاد القوقاز في ذلك العهد مناطق غير آمنة ، بسبب حروب مستمرة ناشبة مع الثوار في الجبال . فكانت لذلك تعد منفى رسميا للعسكريين والمدنيين ، ومكانا يختاره ويصطفيه اليانسون والشعراء (كذا) .
- ٢٩٤ ★ « كانيا » : تصغير اسم كاترين .
- ٢٩٧ ★ «مارلنسكى» : الاسم الادبى المستعار للكاتب الديسمبرى ٢٠٢٠ بستوجيف (١٨٠٧ - ١٨٣٧) الذى نفى الى القوقاز جنديا بسيطا ، فكتب هناك سلسلة من الروايات التاريخية بأسلوب متقعر غامض .
- ٣٠١ ★ « جريدة أنباء البورصة » : هى جريدة يومية كانت تصدر حينذاك بمدينة بطرسبرج .
- ٣٠١ ★ « باشا » : تصغير اسم بيلاجيا أوباراسيفا .
- ٣٠٤ ★ « فاسيليفسكى » : (أو فاسيلي اوستروف) ، حى من أحياء العاصمة يقع فى جزيرة .
- ٣٠٥ ★ « أو هم يأخذون سكينيا فيلفونها بحريير ٠٠٠ » : فى سنة ١٨٦٦ دعا تاجر شاب من موسكو اسمه مازورين ، دعا الى بيته رفيقا له هو بائع الجواهر كالميكوف وقتله . ان هذا التاجر الشاب المنحرف الذى كان قد ورث مليونين ثم أتلّفهما ، قد اتخذه دوستوفسكى نموذجا نقل عنه بعض سمات شخصية روجوين .
- ٣١٧ ★ « شكرا ، بالفرنسية فى الاصل .

- ٣١٨ * « ايكاتيرنهوف » : قرية تقع فى ضواحي بطرسبرج ، مع قصر صيفى للامبراطورة كاترين الثانية . وكان الناس يذهبون الى هناك فى الليل ينشدون اللهو والتسلية .
- ٣٤٠ * «من ذلك مثلا أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديونا قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن انكارها أو اهمالها : تروى زوجة دوستويفسكى أن دوستويفسكى نفسه قد دفع أموالا لداثنين جاءوا يطالبونه بعد وفاة أخيه بسداد ما كان على أخيه من ديون ، وكانوا لا يملكون الا مستندات « يمكن اهمالها » ، أو كانوا لا يحملون مستندات البتة .
- ٣٤٣ * « أن أميرا اسمه « شتش » : هذه هى الشخصية الوحيدة التى لا يذكر المؤلف اسمها كاملا بل يقتصر على الحرف الاول من الاسم (ان فى الكتابة الروسية حرفا واحدا ينطق «شتش»).
- ٣٤٣ * ان اقوانين الاصلاحية التى صدرت فى أول كانون الثانى (يناير) ١٨٦٤ ، قد أدخلت الى الاقاليم نظاما للحكم المحلى . فكان النبلاء والفلاحون ينتخبون نوابا يتشكل منهم « زمتوف » له ميزانيته الخاصة ، ويعنى بالتعليم والخدمات العامة وغيرها من شئون الاقليم .
- ٣٤٤ * « أوجين بافلوفتش » : سيرد اسم هذا الرجل فيما بعد ، أوجين بافلوفتش رادومسكى .
- ٣٤٤ * «من ضباط الامبراطور» : لقب فخرى يمنح لصفوة من الضباط يعرفهم الامبراطور شخصا .
- ٣٤٥ * « حى اسماعيلوفسكى » : حى فى وسط بطرسبرج سُمى باسم الثكنات التابعة للواء الحرس اسماعيلوفسكى .
- ٣٤٩ * «دون كيشوت دولامانش» : كان دوستويفسكى يقدر كتاب هذا الكاتب الاسباني العظيم ، سرفانتس ، قدرا كبيرا . وقد كتب يقول فى «يوميات كاتب» (أذار ١٨٧٦) : «ليس فى العالم كتاب أعمق ولا أقوى من هذا الكتاب . انه حتى الآن آخر وأكبر كلام

قاله الفكر الانساني ، وهو الذع سخرية مرة استطاع انسان
أن يعبر عنها • حتى لقد رأى بعضهم أن ثمة شيئا بين شخصية
الفارس الحزين دون كيشوت وبين شخصية الامير ميشكين •

٣٥١ ★ « بافلوفسك » : قرية في جنوب بطرسبرج ، وهي مصيف
للمجتمع الراقي ، فيها عدد كبير من الفيلات و « فوكسهول »
تعزف فيه موسيقى سمفونية كان الناس يقدرونها قدرا كبيرا •

٣٥٢ ★ « حي الرمال » : حي في ضاحية متواضعة شرق العاصمة ،
تخترقه شوارع عديدة •

٣٥٤ ★ « صاحب السمو » : الواقع أن لقب صاحب السمو باللغة
الروسية لا يخاطب به الا أمراء الاسرة المالكة • وكان الاولى أن
ترجم الكلمة هنا بقولنا «الامير المعظم» أو «الامير المبجل» •

٣٥٦ ★ « تانيا » : تصغير تاتيانا •

٣٥٦ ★ « ليوبوتشكا » : تصغير الاسم النسوى ليوبوف ، ومعناه
«الاحسان» بالمعنى المسيحى ، وهو اسم رائع جدا كالاسمين
الآخرين اللذين يعبران عن فضيلتين مستمدتين من اللاهوت
وهما «فيرا» (الايمان) و «نادجدا» (الامل) • والنساء الروسيات
اللواتي يحملن هذا الاسم (مثل بنت دوستويفسكى نفسه)
يحولنه الى اسم ايميه Aimée الفرنسى حين يذكرنه
بالفرنسية •

٣٥٦ ★ « قاتل اسرة جيرامين » : فى أول آذار (مارس) سنة ١٨٦٨ قام
طالب مدرسة ثانوية بمدينة تامبوف، واسمه فيتولد جورسكى،
وهو بولندى الاصل ، قام بقتل ستة أشخاص فى آن واحد هم:
التاجر جيرامين وأمه وابنه واحدى قريباته وخادمين • وقد اهتم
دوستويفسكى اهتماما شديدا بهذه الجريمة وأرجعها الى تأثير
النظريات العدمية •

٣٥٧ ★ ان القضايا الصغيرة ، مدنية كانت أو جزائية ، انما تنظر فيها
محكمة الصلح فى كل حي من أحياء المدينة ، (القانون ١٨٦٤)،
حتى اذا استؤنفت نقلت الى مجمع قضاة الصلح الاقليمى •

- ٣٥٨ ★ ان هذه العبارة الشهيرة قد وردت في القرار الامبراطورى الصادر فى ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر) مقدمة للتشريعات القضائية . وقد نقشت بأحرف من ذهب على لوح من المرمر فى احدى قاعات قصر العدل بمدينة سان بطرسبرج . .
- ٣٦٠ ★ المعنى الحرفى لكلمة بالكى هو « العصى » ، واللعبة لعبة قديمة من ألعاب الورق .
- ٣٦٠ ★ « الكفاس » : شراب مسكر بخس الثمن مستخرج من الخبز الاسود أو من الفاكهة .
- ٣٦٢ ★ « كونتيسة بارى » : هى الكونتيسة جان مارى دى بارى (١٧٤٣-١٧٩٣) ، أثيرة لويس الخامس عشر ، وقد أعدمت بالمقصلة فى عهد الارهاب . و « المذكرات » المزورة التى نسبت اليها ونشرت سنة ١٨٢٩ - ١٨٣٠ يستفيد منها دوستوفسكى هنا لعرض بعض وقائع حياتها .
- ٣٦٣ ★ « ابنة عمى » : بالفرنسية فى النص الاصلى .
- ٣٦٤ ★ « لحظة واحدة أخرى يا سيدى الجلاد ، لحظة واحدة أخرى » : بالفرنسية فى النص الاصلى . وان هذه الكلمات التى نطقت بها الكونتيسة دى بارى على المقصلة قد وردت فى المجلد الثالث عشر من «القاموس الموسوعى» الروسى الذى أصدره بلوشار سنة ١٨٤٤ فى بطرسبرج وكان دوستوفسكى يقرؤه .
- ٣٦٤ ★ « عذاب » : أستعمل المؤلف كلمة misère الفرنسية التى درجت على ألسن عامة الروس بمعنى العذاب .
- ٣٧٠ ★ « نيقولا أردا ليونوفتش » : ان ليبيديف يقصد هنا كوليا ، وليس مألوفاً أن يسمى طفل أو مراهق بهذه الطريقة المفخمة . أى أن يذكر اسمه واسم نسبته الى أبيه .
- ٣٧٢ ★ « ثمنية قمح بدينار ، وثلاث ثمنيات شعير بدينار » : رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٦) رؤيا القديس يوحنا (الاصحاح السادس ، ٨) .

٣٧٤ ★ ان الحفلات الموسيقية التي كانت تقام في حدائق محطة بافلوفسك كانت تتمتع بشهرة كبيرة ، وكانت ملتقى أبناء الطبقة الراقية .

٣٧٨ ★ « الخصيان » : Scopets ، أى مخصى ، وهو عضو من أعضاء تلك الملة الدينية التي يخصى أفرادها أنفسهم تعصبا ، وهم يمارسون مهنة الصرافين في أكثر الاحيان .

٣٧٨ ★ « . . . » بورجوازي فخرى ورائي : ان الاكثرية الكبرى من التجار ، في أواسط القرن التاسع عشر ، انما كانوا فلاحين اغتنوا من التجارة . فاذا انقطع هؤلاء عن دفع رسوم الانتساب الى طبقة التجار ، عادوا يهبطون الى طبقة القرويين . وقد أسرع المشرع الى ملاقة هذا الشعور الطبقي الذي أخذ ينشأ في ميدان التجارة ، فأنشأ فئتين مستقلتين عن دفع الرسوم ، هما : « فئة البورجوازيين العاملين » و « فئة البورجوازيين الفخريين الوراثيين » .

٣٨٣ ★ هوسر جي ميخائيلوفتش سولوفييف (١٨١٠ - ١٨٧٩) ، المؤرخ الروسي الكبير ، أعظم مؤلفاته كتاب « تاريخ روسيا » الذي ظهر في ٢٩ مجلدا من ١٨٥١ الى ١٨٧٩ ، مجلدا كل عام ، وأعيد طبعه في سبعة مجلدات سنة ١٨٩٧ . وكان دوستوفسكي شديد الإعجاب بهذا الكتاب ، وقد حمل عددا من مجلداته حين سافر الى الخارج سنة ١٨٦٧ .

٣٨٤ ★ راجع حاشية الصفحة ٤٨١

٣٩١ ★ « انه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج » : من التعابير الروسية السائرة .

٣٩٢ ★ « قصة بابا غضب من امبراطور » : اشارة الى امبراطور ألمانيا هنري الرابع الذي جاء للكفارة أمام البابا جريجوار السابع سنة ١٠٧٧ .

٣٩٦ ★ « ترسم اشارة الصليب باصبعين » : هذه طريقة ملة « قدماء المؤمنين » في رسم اشارة الصليب .

٤٠٤ * « منسوخة عن لوحة هانس هولباين » : كان دوستويفسكى قد رأى سنة ١٨٦٧ بمدينة بال ، لوحة هولباين « المسيح فى اللحد » (١٥٢١) ، فاثرت فيه واقعتها تأثيرا ألما رهيبا ، ومما يروى عنه أنه قال لامراته : « ان لوحة كهذه اللوحة خليفة بأن تفقد المرء إيمانه » .

٤٠٦ * ٠٠٠ رجل اسمه س ٠٠٠ : من الجائز أن يكون دوستويفسكى حين وصف هذه الشخصية الواسعة الثقافة التى لا تؤمن بالله بل تذهب مذهب الالحاد ، قد أراد الإشارة الى نيقولا سبيشنيف ، عضو حلقة بتراشفسكى ، الذى سبىخذه دوستويفسكى فيما بعد نموذجا لتصوير ستافروجين بطل روايته « الشياطين » .

٤٠٩ * « تريد أن نتبادل صليبينا ؟ » : كان كل روسى أرثوذكسى يحمل فى عنقه صليبا منذ ولادته ، صليبا من معدن أو خشب . وتبادل الصليبين بين شخصين طقس من الطقوس الدينية يعنى خلق « أخوة » روحية .

٤١٨ * « لن يكون يومئذ زمان » : رؤيا يوحنا ، الاصحاح العاشر ، ٦ .

٤٢١ * « سلاح يطلب صنعه وفقا لرسم معين ، وستة أشخاص يذبحون دفعة واحدة ٠٠ » : هنا يتذكر المتكلم قضية قاتل أسرة جيرامين (حاشية الصفحة ٣٧٢) . ان الطالب الثانوى فيتولد جورسكى قد تسلم بمسدس هياه سلفا ، وكان قد أوصى حدادا بأن يصنع له سلاحا خاصا زاعما له انه فى حاجة اليه لألعاب رياضية .

٤٢٦ * « محطة نيقولا » : ان السكة الحديدية التى تصل بين بطرسبرج وموسكو والتى أنشئت فى عهد نيقولا الاول ، كانت تحمل اسم نيقولايفسكى ، وهو أيضا اسم محطتى نهايتى هذا الخط فى بطرسبرج وفى موسكو .

٤٢٦ * « محطة خط تسارسكوى » : ان خط تسارسكوى - سيلو هو أول خط من خطوط السكة الحديدية فى روسيا ، وقد دشن سنة ١٨٣٥ وكان يمر بضاحية بافلوفسك .

٤٣٧ ★ « الذكرى الالفية لروسيا » : ان ذلك اليوم من صيف ١٨٦٢ ،
الذى شهد احتفالات فخمة هو يوم انقضاء ألف عام على وصول
الامير الاول روريك الى نوفوجورود سنة ١٠٦٢ ، وقد أقيم نصب
تذكاري بتلك المدينة في ذلك الحين ، ولا يزال قائما فيها الى
الآن .

٤٤١ ★ « لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج » : من الامثال الروسية
السائرة .

٤٥٠ ★ « الفارس الفقير » : قصيدة للشاعر بوشكين نظمها سنة ١٨٣٠
وفيها يتحدث عن فارس من القرون الوسطى اختار مريم العذراء
« سيده » له .

٤٥٥ ★ ان « الفارس الفقير » قد اختار هذه الاحرف الثلاثة شعارا له
« آ.م.د » وهى الاحرف الاولى من ثلاث كلمات لاتينية معناها
«سلاما أم الرب» . ولكن آجلايا تبدل حرف «د» بحرف «ب» ،
وهو الحرف الاول من اسم عائلة ناستاسيا فيلييوفنا باراشكوف.
وبعد قليل ستحل محل «آ.م.ب» الاحرف «ن.ف.ب» صراحة .

٤٥٨ ★ كان لا يجوز للعسكريين العاملين أن يرتدوا الثياب المدنية الا
ليسافروا الى الخارج .

٤٦٣ ★ « على المرء أن لا يحطم الكراسى » : تعبير مستمد من مسرحية
جوجل : « المفتش العام » ، وفيها يظهر (الفصل الاول ، المشهد
الاول) أستاذ للتاريخ يؤخذ عليه انه يتحمس الى حد « تحطيم
الكراسى» حين يتكلم عن الاسكندر الكبير . لذلك فان تعبير «تحطيم
الكراسى» جرى على اللسان اشارة الى بذل طاقة فى غير محلها .

٤٦٦ ★ « طبعة أننكوف » : هى واحدة من تلك الطبعات النقدية الاولى
لأعمال الشاعر الكبير ، وقد أصدرها آ.آ. أنكوف بين سنة
١٨٥٥ و ١٨٥٧ .

- ٤٧٠ ★ « عدميون » : ان هذه الكلمة التي يقال ان تورجنيف هو أول من وضعها في الاستعمال كانت ما تزال شيئاً جديداً .
- ٤٧٠ ★ «أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه» : اشارة الى مساجلات مدوية قامت سنة ١٨٦٥ ، وفيها سفه الناقد العدمي بيسارييف تمجيد الشعر ، وشن على ذكرى بوشكين هجوما عنيفا .
- ٤٧٠ ★ « جورسكي ودانيلوف » : القاتلان اللذان ورد الحديث عنهما في حاشية الصفحة ٣٥٦ وحاشية الصفحة ٢٥٢ .
- ٤٧٧ ★ « جريدة اسبوعية ساخرة... » : ان المقالة الممتدة عن الصفحة ٤٧٨ الى الصفحة ٤٨٦ من هذه الطبعة العربية لرواية «الأبله» تحاكي ما كان ينشره صحفي مغمور اسمه ستوبانوفسكي في المجلة الاسبوعية الهجائية «الشرارة» ، التي صدرت ببطرسبرج من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٧٩ .
- ٤٧٩ ★ « لاحظ الالفئة من الناس » : ان أصل المثل هو « لاحظ الالفئة » وهذا يحدد الفئة المقصودة هنا .
- ٤٧٩ ★ « فالمرء لا يكاد يصدق هذا الامر رغم انه قريب العهد » : بيت من الشعر مستمد من مسرحية جريبويديف الهزلية الشهيرة « كثير من الذكاء ضرر » . والاشارة الى همجية العهد الذي لم ينقض عليه زمن طويل .
- ٤٨١ ★ « السعابة » (١٨١٥) : واحدة من أجمل الحكايات الخرافية التي كتبها الكاتب الروسى الكبير كريلوف .
- ٤٨١ ★ ملة «الراسكولنيك» : هى ملة «قدامى المؤمنين» ، ويرجع عهدها الى الانشقاق الدينى الذى نشأ فى أعقاب اصلاح الشعائر الدينية على يد البطريرك نيكون .
- ٤٨٥ ★ « ليوبا » : تصغير كلمة « الطرح » . ان دوستويفسكى يحور هنا فقرة من مقالته كتبها عنه هو فى احدى المجلات ناقد تافه بعنوان «فيديا المفروور» وفيها يصور دوستويفسكى بأنه يعبت بقصة جوجول « المعطف » ويضيع وقته فى سفاسف وترهات .

فهذا الناقد هو الذى يصفه دوستوفسكى هنا بأنه أحد مشاهير
شعرائنا الساخرين المشهورين .

٤٨٥ ★ « شنابدر » : اسم البروفسور السويسرى الذى كان يعالج
« الأبله » بسويسرا .

٥٣٤ ★ « أيها الأمير العزيز » : بالفرنسية فى الاصل .

٥٤١ ★ « الاميرة ماريا الكسييفنا لن تقول عن هذا شيئا » : اشارة الى
حوار فاموسوف مع نفسه فى مسرحية جريبيدوف الشهيرة :
« كثير من الذكاء ضرر » فى المشهد الاخير من المسرحية نرى
الشخص يصيح قائلا : « آه ٠٠٠ رباه ٠٠ عسى تقول الاميرة
ماريا الكسييفنا ؟ »

٥٥٠ ★ « كوبفر » ، « بيسكوب » : لا بد أنهما مرابيان .

٥٦٥ ★ « لاسقف الفرنسى بوردالو » : ان بوردالو واعظ فرنسى يسوعى
(١٦٣٢ - ١٧٠٤) له خطب مشهورة أعجبت الناس ببلاغتها
وقوة حجتها . فاما أن نفترض هنا أن ليبيديف ، الذى كان
يجب الحديث فى موضوعات غير متوقعة ، قد تكلم فعلا عن
بوردالو ، واما أن نفترض أن كيلر يتلاعب هنا بالالفاظ مشيرا
الى الخمرة الفرنسية المشهورة ، خمرة « بوردو » ، أو الى الكلمة
الروسية بورداهى اسم مزيج من الشراب المسكر . أما اطلاق
لقب الاسقف على الواعظ الفرنسى المشهور فهو محض خيال .

٥٨٥ ★ ان بوردوفسكى مدين لا بمائتى روبل ، بل بمائتين وخمسين ،
لانه لم يرد الا مائة (راجع الصفحة ٢٣٩) .

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المهانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس..
الكسندر ف مرزوفيف